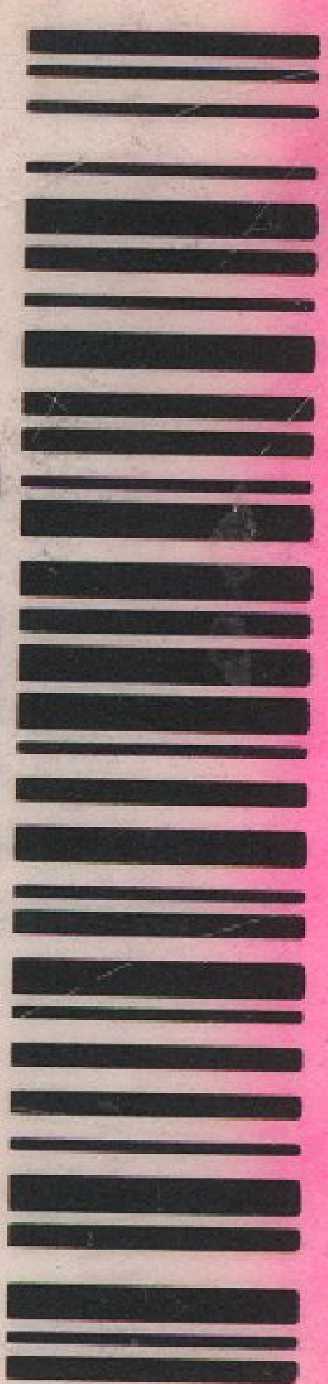


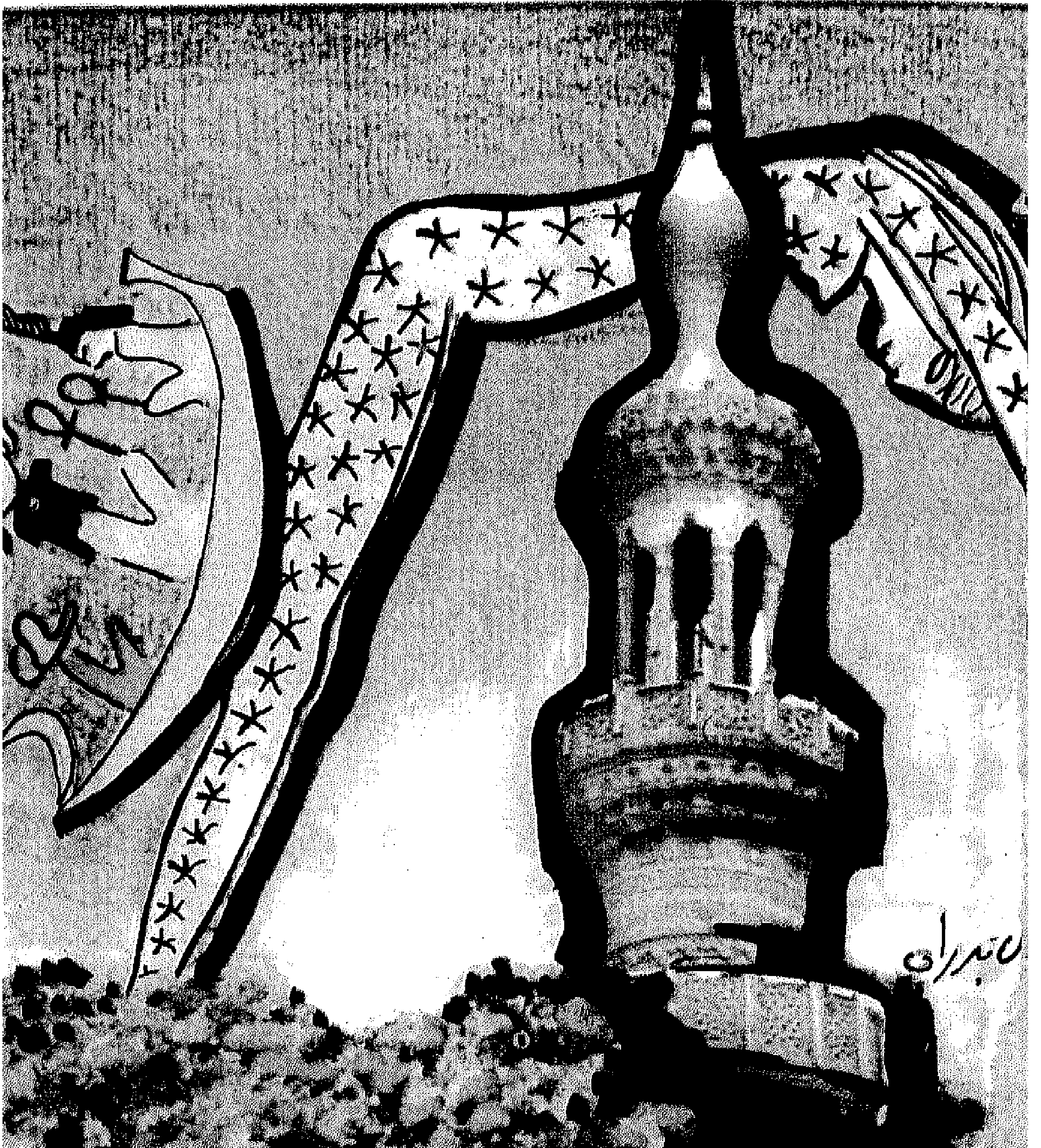


جمال بـدران

الأدب السياحي

اقرأ

سلسلة ثقافية شهرية



اقرأ

[٥٨٦]

الأدب السياحي

جمال بدران

الأدب السياسي



دار المعارف

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها ، لم يفكروا إلا فى شىء واحد ، هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة ، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية . وأن ينتفعوا ، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة ، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى نحياها .

طه حسين

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ

[٢٠ العنكبوت]

وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ

[١٨ سبأ]

مقدّمة

ربما يكون الأدب السياحى جديدًا على أدبنا العربى ، إذ لم نسمع من قبل عن أديب تخصص فى هذا النوع من الكتابة .. سواء كان هذا الأديب شاعرًا أو قاصًا أو مؤلفًا مسرحيا فى العصر الحديث – مع أنه أدب شاعت فنونه فى الآداب غير العربية ، وتعددت وجوهه فى الرواية وفى القصيدة وفى الفنون التطبيقية الحديثة كالسينما والتليفزيون ، فضلا عن لوحات الفن التشكيلى .

فما الذى جعل أدبنا يخلو من السياحة والتجوال بين المدن البعيدة والمنتجعات ومراكز الآثار الشهيرة ؟

ربما يقول قائل : لقد احتوى تراثنا على أدب الرحلات ، ونرد عليه : بأن هذا الأدب يمثل جزءا من الأدب السياحى ، وعنصرًا من عناصره ، ذلك لأن رصد مسار الرحلة ، والتوقف عند نقاط أو مدن جذبت الانتباه ، أمره مختلف عن مضمون الأدب السياحى ، فالرحّالة تباينت أهدافهم من رحلاتهم حسب اهتماماتهم ، كالرغبة فى اكتشافات جغرافية ، أو الاطلاع على عادات وتقاليد شعوب مغايرة ، وما شأن هذا من أهداف . مما يستتبعه استخلاص نتائج أشبه بوجهات نظر أو قوانين .. مثلما فعل ابن خلدون من رحلاته فى

سائر بلدان العالم الإسلامى وتوصله إلى وضع أساس علم واقعات العمران .

وقد يقول قائل : إن أدب الوصف كاد أن يطغى على سائر وجوه الأدب العربى شعرًا كان أم نثرًا .. فما الذى يفرّق بينها وبين الأدب السياحى المزعوم ؟ !! ونقول له : إن الأدب السياحى أشمل وأرحب من أن يقتصر على الوصف ، لأنه لا يستهدف من وصف شيء أن يستثير خيالك فحسب ، بل أيضا ليقرّب الواقع البعيد عنك إليك ، ويستحثّك على التحرك إليه ، ومن ثم فإن الوصف فى هذا النوع من الأدب العالمى ليس استقراريا بقدر ما يزيد عليه حوافز الجذب والرغبة فى التشوّف . لذلك فإن قدرة أدباء هذا النوع تتركز فى مدى شدّ قرائهم إلى حيث ساروا وشاهدوا .

وقد يتسرع قائل بالقول إن الأدب السياحى إذن يجمع بين [الرحلات والوصف]، ونقول له مهلا ، فالأدب السياحى يستند أيضا إلى مضامين شعبية لا تكون متوفرة الوضوح فى مجتمعات أخرى ، ولا تكون نسخة مطابقة لأخرى فى هذه المجتمعات ، مما يجعل الأمر شديد الإلحاح على قراء هذا الأدب أن يحملوه معهم كوثيقة ، ويسترشدوا بها بعدما تحوّلوا إلى سيّاح قارئين .

بهذه العناصر وغيرها ، وجدنا أدب السياحة يجوب العالم مرشدًا ومُحركا .. ولابدّ أن يصل إلينا ، بحكم وجود بلادنا فى قلب العالم ،

وبحكم احتواء بلادنا على القدر الأعظم من آثار أقدم حضارة ، وبحكم ضرورة الاحتكاك بين حضارات القادمين وحضارة القائمين ، وبحكم ثورة وسائل الاتصال العالمية التى ضيّقت من رقعة العالم الواسع ، وشدّت جهات الدنيا الأصلية والفرعية إلى مصر أم الدنيا .

كذلك قد يهمس هامس ، مستخفّا بالأدب السياحى ، فيتبعه معلّقا إنه دعاية ولا يمتّ للأدب بصلة .. والهامس من هؤلاء .. إمّا أن يكون على غير إلمام بفنون الدعاية وألوانها ، وإما أن تكون سطحية نظرته السريعة لم تتح له فرصة التعمق فى نماذج من هذا الأدب . نعم يشتمل الأدب السياحى على قدر من الدعاية ، ولكن أية دعاية ؟ دعاية صادقة ، دعاية بيضاء على حد تعبير خبراء الدعاية .. معروفة المصدر ، معروفة الهدف . وأدب يفتح صفحاته للترحيب والترغيب ، ويطلق الأقدام إلى كل موطئ ممهّد أليف كان أم غريب .

لم يبق بعدئذ إلا الإصغاء لتساؤل مخلص هو : هل خلت كل هذه المراكز الجاذبة للسياحة من متناقضات الجذب ، أو ما يشين الجانب المشرق من الإغراء السياحى ؟ والمرة الثانية يمكن تذكّر أن هذا الأدب السياحى أدب صادق ، فلا يخفى أو يدارى العيوب ، ذلك لأن ما من مجتمع فى العالم إلاّ ويجمع بين الجانبين المتناقضين ، وما على الأدب السياحى إلاّ أن يقدم الأحياء القديمة فى ثوبها التراثى والأسطورى ، حتى يمكن أن يفيض العائد من الدخل السياحى

للإنفاق على رفع مستوى هذه الأحياء بالحفاظ على أجوائها القديمة في قوالب غير مشينة .

يبقى بعدئذ شيء صار غاية في الأهمية ، وفي هذه الآونة ، ألا وهو .. المطبوعات الدعائية والإرشادية .. فكم من المرات تزور أثرًا من الآثار المصرية ، أو حتى لو دخلت متحفا من متاحفنا العامرة بكنوزها ، وكذلك الأمر في مراكز السياحة الحديثة . لتنعم بأيام شاهدت خلالها أعظم الآثار قاطبة ، وأروع المناظر الخلاّبة ، وتتمنى لأن تستبقي هذا النعيم أطول قدر في الذاكرة أو المخيّلة ، ولا وسيلة لهذه الإطالة غير الصور الفوتوغرافية الفنية بزوايا التقاطها ، ونماذج ألوانها . نعم ستحصل على مثل هذه الصور المتفردة ، لكن غالبيتها الناجحة قد طبعت بالخارج . لكن الصور وحدها لا تكفي ، فالسائح بعد عودته إلى بلده ، يعيش لحظات استرجاع مشاهدة ، وما تلبث أن تلي لحظة استمتاعه ، لحظة التزوّد بالمعلومات المحيطة بالمَعْلم السياحي ، هنا تكون قمة الإشباع السياحي ، لن تعثر على مثل هذه الكتيّبات المصوّرة ذات المستوى الراقي طباعيا في العالم إلاّ ما تم عمله في بلاد أوروبية أو يابانية !! .

ولا عجب من اهتمام مثل هذه الأقطار بآثارنا ومعالمنا السياحية ، لأنها في احتياج لتزويد مواطنيها بها ، وتدرك مدى احترام السائحين لما يقصدونه بأسفارهم وتقديرهم لها .

لكن الأعجب أن توجد لدينا مطابع صارت مستحدثة بآلاتها وأجهزتها على مستوى عالمى ، ولا تدخل هذا المضمار الخدمى لسلعة السياحة ، ولا نرضى هنا بحدّ التواضع فى إصدار مثل هذه النشرات ، بل لابدّ أن ترتقى إلى الدرجة التى تماثل رقىّ معالمنا السياحية العملاقة ، وتنافس مثيلاتها الطباعية فى الإتقان والجودة العالمية .. ليس هذا بمستحيل ، لأنه لا يتطلب إلاً صدق العزم فى فهم رسالة هذا النوع من المطبوعات وقيمته .

وبعد .. فهذه محاولة ، على حد علمى – غير مسبوقة ، لوضع معالم أدب سياحى مصرى وعربى ، يفتح الباب على مصراعيه لإبداعات فى هذا المجال ..

وفقنا الله لما فيه الخير والرقىّ ببلدنا مصر المحروسة .

وعليه سبحانه وتعالى قصد السبيل .

جمال بدران

الفرق بين الأدب السياحى
وأدب الرحلات

من نصدّق ؟ هيرودوت أم الشعب المصرى !!

شاعت فى السنوات الأخيرة لفظة (الأدب السياحى) حتى أوحت إلى القراء بأنها مصطلح للتعبير عن مجال جديد أو فتح فى دهاليز الأدب .

إن صفة « السياحى » حين نخلعها على « الأدب » تصبغه بالتجوال والتحليق فى عوالم وآفاق بعيدة عن العين والأذن ، إلى الحدّ الذى تقرّبه من أدب الرحلات المعروف .. بما فيه من تقريب البعيد ، وتقديم مشاهد لأماكن نائية ، وشعوب متأخرة أو راقية ، ونماذج من الحياة غريبة عنا أو شبيهة لنا ، وأنواع من الكائنات والهوام عاشت أو لازالت تعيش فى جنبات الأرض أو محميات بأعماق البحار – لكن الأدب السياحى يظل يطرق أسماعنا الآن ، كأنه يلحّ علينا بأنه شىء مخالف لما عهدناه فى أدب الرحلات .

وهنا يحقّ لنا أن نطالب أرباب الأدب السياحى بأن يأتوا ببراهينهم .. فيقولون .. إنه وصف لما يقع فى نطاق حواس الإنسان من مرئيات

وسمعيات ، بل الروائح والنسمات ، وما إلى ذلك من دقائق الحِسّ ومشهيات التذوق . ويزيدون القول تأكيدًا .. إنه وصف مباشر ، قائم بذاته ، يستقل عن البناء الروائى أو الشعر الوصفى . ويتميّز بالتأنق فى صوغ العبارات ، مستهدفا تجميل الموصوف وتحسينه لراغبى السفر أو الباحثين عن الاستمتاع .

كما أن الغرض يبدو منه واضحًا منذ البداية ، فلا لفّ فيه ولا دوران أو استطراد ، ولا محاولة للخداع أو الإيهام . وإنما هو أقرب إلى المعلومات الموثقة بالوقائع والصور الجميلة ، ومقاطع من أغانى سائدة أو أشعار رقيقة ، كُتبت كلها بلغة بسيطة رشيقة ، يزيد الموصوف تجمّلا ، ليزيد شوق القارئ إلى الحركة والانتقال إلى موضع هذا الموصوف الفسيح .

معنى هذا أن الأدب السياحى لا يقنع منك بقراءته ، وإنما هو دعوة للتحرك والذهاب إلى هناك ، لتشارك صاحب الدعوة الاستمتاع بما عايشه من نعيم ، لا لتستوثق من حقيقة ما وصفه لك كاتبه .. لأن المفروض فيه الثقة والصدق .. ولأن سلعة السياحة فى هذه الحال خالية تماما من الغش . وهذا هو الذى يمثل نقطة الالتقاء بين الأديبين . (السائح والرحّالة) .

فأديب الرحلات لا يطلب منك ذلك التحرك ، ولا يوحى لك أو يلحّ عليك بضرورة الارتحال إلى ما سبقك إليه ، وإنما هو ينقل إليك

مشاهداته في بلاد التبت أو واق الواق ، حتى إذا ما استعان بصورة أو عدة صور لهذه البلاد ، جعل من نفسه مركزًا أو محورًا لها ، ولكن لا يفرض عليك ذوقه ، بل يعرض عليك انطباعاته عنها ، فهو البطل الحقيقي لهذا العمل الأدبي . وهو المغامر الذي خاض الأهوال وركب الجبال في هذه الرحلة ..

هو مثل هيرودوت أول رحالة في التاريخ ، حين ينزل إلى وادى مصر ويرى النيل .. فيطلق شعاره الشهير .. مصر هبة النيل ، وسواء أكان مخطئا أم مصيبًا ، إلاّ أنه صار شعارًا عليه بصمة صاحبه هيرودوت .

وهو مثل ابن بطوطة أيضًا ، الممارس العملى للإقامة في بلدان لم يكن يعلمها ، ويعايش أهلها ، ويتزوج من نسائهم ، ويسجّل مشاهداته بعدسة عينيه ، ويصبح علما على خط سير الرحلة الطويلة .. فيصبح عمله الأدبي منسوبًا لابن بطوطة وحده دون غيره .

بل هو مثل كولومبس في مغامراته الكشفية ، وعثوره على أراض جديدة ، وسواء أسماها خطأ أم صوابا جزر الهند الغربية .. فقد صار فتحه الكشفي في الدنيا الجديدة منسوبًا إليه قبل كلمة الدنيا الجديدة نفسها .

أما كاتب الأدب السياحي : فالمكان بمحتوياته هو البطل ، والناس الذين يعيشون فوقه هم الأبطال .. هذا إن كان لابدّ من وجود بطل

فى كل أعمال الأدب ، فهو إمّا أن يكون كاتبًا محترفًا ، يستعان بقلمه ذى الأسلوب الرشيق فى التشويق ، وحفز الهمم لدى القادرين على الذهاب وراء آثار الماضى ، وجذب القادرين على القفز إلى مواطئ المتعة ومواطن الهدوء والعزلة . وإمّا أن يكون الكاتب صحفيا متخصصًا فى صفحات السياحة ، إذ يستعان بقلمه فى رحلات افتتاح خطوط طيران أو خطوط ملاحة بحرية ، يصل منها إلى بقاع جديدة ، ويصف خلالها راحة وسيلة الوصول ، كما يصف كل ماسَرّ من رؤيته فى هذه البقاع ، وكلا الأديبين : أديب الرحلات – وكاتب الأدب السياحى ، كلاهما يكتب بصدق كل ما ارتاحت نفسه إليه ، لكنه لا يكتب عمّا أغمض عينه عنه ، فتكون كتابة هذا الأدب السياحى .. كتابة الرضا الدائم عن هذه الجنان المتناثرة على سطح الأرض ، فالأدب السياحى يوجه أغلب اهتمامه الزمنى بالحاضر والمستقبل دون الماضى ، ويركز على بلد أو مدينة دون ان يعمّم القول على أخرى مشابهة بعدت أم قربت . حتى فى تناول الآثار وتاريخها الواقعين فى إطار وصفه ، فإنه يتناولهما من زاوية الحاضر ، وما يتوقع لهما من مستقبل سياحى .

أى أن نظرة كاتب هذا النوع الجديد من الأدب الوصفى، هى نظرة حالية ومستقبلية ومجددة ، ولا أقول نظرة تقريرية.. ذلك لأن عينًا له تقع على حاضر ما يشاهده، وعينه الأخرى على المتلقين لكلماته، ذوى الصفة الواحدة العاطفة مع السياحة، والتى تكون رهن إشارته للتحرك.

والأديان – الرحّالة الوصّاف والسياحى – يتساويان فى الانطلاق إلى المستقبل دائمًا ، على اعتبار أن استكشاف المجهول أو معرفة الغامض والجديد هو العامل المشترك بين المستقبلين .

لكنّ سائلا يسأل : أليس فى أسلوب المباشرة الذى يغلب على الأدب السياحى ما يضعف من قدر الاستمتاع الأدبى بموضوع الوصف ؟ بل يكاد أن ينزع صفة الأدب من هذا النوع من الكتابة ؟

ثم يدعم السائل اعتراضه بالقول : إننا بالإمكان أن نعايش عملا روائيا بما فيه من مسرح أحداث وشخوص ، نتفاعل معه ونبتهج به ، فندرك أبعاده وأوصافه ، ونكاد نخطو مع الأبطال فوق ترابه وأمواجه ، فنبلغ قمة السعادة بهذا العمل الروائى المتكامل ، الخالى من المباشرة والاصطناع ، ومن ثم يتحقق الهدف من الأدب ، فتحوطنا الرواية بنسيجها ، ونحتضن عناصرها ، من هذه العناصر : أماكن مجرى الأحداث، شخوصها من رجال ونساء وأطفال.. إنها أماكن نبضت بالحياة، وهذا فى حدّ ذاته يمثل نجاحا للأديب الروائى صاحب هذا العمل .

روايات ملء السمع والبصر

ونحن حين نقرأ – على سبيل المثال – رواية دون ليخوته لثربانتس ، التى ترجمها عن الأسبانية الدكتور عبد الرحمن بدوى – نتمثل طواحين الهواء والبطل يحاربها بسيفه . لقد وصف المؤلف أكثر من موضع ، وكان منها ماجرى فيه حديث بين بطلْى الرواية دون كيخوته وسنشو.. فقال:

« وهما فى هذا الحديث إذ بلغا قاعدة جبل شاهق ، يبدو كصخرة عمودية الانحدار ، ويقوم وحده بين جبال عديدة تحيط به ، وعلى سفحه يجرى جدول رقراق حواليه مروج خضر رطبية تسرّ العيون، وزاد من بهاء المنظر أشجار متناثرة هنا وهناك وأزهار بريّة، هذا المكان اختاره الفارس الحزين الطلعة ليعتزل فيه، فما عتم أن رآه حتى صاح بصوت عال كالمجنون »[1] .

إن ريشة الفنان ثربانتس ترسم منظرًا طبيعيا يغرى البطل بالبقاء فيه بعيدًا عن الناس .. لينعم بالهدوء والأمان .. لا يضع القراء فى اعتباره

---

(١) رواية دون كيخوتة لثربانتس ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوى

مطلقا ، فعمله الروائى وبناؤه هما همّه الأول والأخير ، أمّا نحن القراء فإعجابنا يأتى بالتبعية ، حتى إذا لم يكتسب إعجابنا ، فيكفيه استقامة بنائه الروائى مع جزئيات بطل عمله الذى استهدف بقاءه مقيما فى هذا المكان الهادئ الأمين ببعده عن الناس .

وكذلك فى رواية سومرست موم – حدّ الموسى – التى تدور أحداثها بين الولايات وفرنسا والهند ، فتكاد أن تعلو نغمة الأدب السياحى – الذى يتخذ من مميزات كل بلد لحنا – على سائر غنائيات هذه الرواية الأدبية ، ومع ذلك فإن المؤلف لم يركز على بلد دون غيره ، وإنما انطلق إلى رحاب أوطان ثلاثة .. استمع أبى الكاتب وهو يقول : « حسن ، لقد وصلنا إلى بمباى ، وكانت السفينة سترسو لمدة ثلاثة أيام لتتيح للسائحين فرصة مشاهدة هذه المناظر والقيام بنزهات ، وفى اليوم الثالث لم يكن لدى ما يشغلنى عصر ذلك اليوم ، فنزلت إلى الشاطئ ، ومشيت بعض الوقت وأنا أنظر إلى الجمهور والزحام ، والثيران ذات السّنامات والقرون الطويلة التى تجرّ العربات ، ثم ذهبت إلى الفنتا لمشاهدة الكهوف والتمثال العملاق ذى الرءوس الثلاثة »[1] .

فنرى المؤلف يزيد على هذا المشهد السياحى الأدبى .. ميزة سبق لها النشاط السياحى الحالى فى مجال هام من مجالاته .. مجال السياحة العلاجية .. فيذكر علاج الأرق باليوجا ، وكأنه يحفّز كلّ من يعانى

---

(١) حدّ الموسى لسومرست موم .

من الأرق أن يتوجه إلى الهند ليتعلم اليوجا فيها ، أوْ ما نسمّيه بالاستشفاء السياحى ، الذى يريد لنا أنْ نتجرّعه .

كذلك نجد عملا آخر رئيسًا للكاتب الدنمركى كارل بيارنهوف هو « وشحبت النجوم » .. فالكاتب يطوى بين جنبيه مشاعر فنان موسيقى رقيق ، إذْ يعزف على سطور روايته ألحانا عاشقة لذكرياته فيها . إنه يحكى عن بصره المهدد بالعمى . لم يعد يسمع غير صفير الريح وتكسّرات الجليد ، ودوائر ذهبية حول المصابيح فى الطرقات السوداء ، وها هو بعد أن ارتدّ إليه بصره والشمس مائلة فى مواجهته يقول واصفا :

« والغابات فى الجنوب ، والغابات فى الشمال، بدا لونها بُنّيًا شاحبًا بقشور البراعم التى قد تنشقّ غدًا أو بعد غد، وفى مدى أسبوع ستكون كل شجرة قد اخضرّت ، وها هو ذهب شمس الأصيل على الماء من أمامنا ، وها هو ذهب شمس الأصيل على الغابات ذات اللون البنى ببراعمها البازغة، وها هى الشواطىء لم تزل قريبة حتى إننى كنت مستطيعًا –بين الفينة والفينة– أن أرى البيوت، وها هى غابات جديدة وطيور النورس وطيور خطاف البحر البيضاء تتبعنا فى مسيرنا»[1] .

(١) وشحبت النجوم لكارل بيارنهوف.

هذا الكاتب الدنمركى ابن الطبيعة القاتمة فى أغلب العام ، والتى يغلب عليها الهدوء والصمت ، يستخدم الصوت فيضفى على المكان قدرًا من الحياة ، إذْ فضلا عن استخدامه جُملا متوازنة ، ذات إيقاعات شعرية ، فهو يعزف على صفير الريح وتكسّرات الجليد ، ألحانا طبيعية ، نرهف السمع إليه ونحن نقرأه .. وهذا نوع من المقدرة الأدبية قد يفتقدها كاتب الأدب السياحى المحترف الذى يحتاج إلى الموسيقى لاستكمال الخدمة السياحية .

وللكاتب الأمريكى أيضا – جون شتاينبك – لمحات تدخل فى عداد الأدب السياحى ، من خلال روايته الرائعة « شتاء السخط » ، فبيت جده العتيق وأبيه ، بعد أن يصفه لنا .. « بيت ذو طلاء أبيض وأركان متوازنة وطاقة مروحية تعلو بابه الأمامى ، ورسوم معمارية من طراز آدم ، وممرّ ضيق يسير بحذاء أسقفه وسط حديقة ريّانة ، بين أشجار الليالق ذات المائة عام وسُمْك سيقانها خاصرة رجُل .. » .

بعد استرسال شتاينبك فى الوصف الدقيق ، يتساءل فى ذكاء أدبى لمّاح ، إذ يأتى السيّاح فى الصيف ليروا فن العمارة وما يسمّونه « سحر العالم القديم » الذى فى بلدتنا ، فيتساءل « لماذا ينبغى أن يكون السحر فى العالم القديم ؟ » .

إن أبّهة المناظر أو عظمة الآثار ليست دائما هى التى تجذب

أنظار الناس على وجه العموم ، وأنظار الأدباء خاصة ، بل قد تشدّهم – أحيانا – مظاهر التواضع والمسْكنة ولا أقول البؤس ، لا لشيء إلاّ لوجود قيمة من القيم الأصيلة .. ترجّح كفة هذا النقص الأثرى أو هذه الأبهة المنشودة .. مثلما وجدناه لدى الكاتب الإنجليزى الشهير توماس هاردى ، حين استعاض عن ذلك النقص بقيمة دينية سائدة بين أهل لندن كلهم . إنه يقدّم جود المغمور ، وهو يحفر حفرة صغيرة وضع فيها كل ما ملكه من كتب دينية ومراجع ومؤلفات تبحث فى علم الأخلاق ، يزمع إحراقها فى لحظة يأس ، لكنه يبرز لنا حقيقة دينية غالية .. فيقول :

« وكان يعرف » أنه فى بلاد المؤمنين الصادقين هذه، لا يباع الجانب الأكبر من تلك المراجع بثمن يزيد كثيرًا على ثمن المهمل من الأوراق[١] .

بل يتجسد هذا الشعور الجارف فى تعليقات البسطاء ، وهم يرونه من وراء السور .. « إنك تحرق مخلفات قريبتك المتوفاة !! »[٢] .

هنا نصل إلى نوع آخر من الأدب الروائى السياحى ، أقصد ما يعرفه خبراء السياحة بالسياحة الدينية ، فنجد الكثير من الأعمال الأدبية الشامخة تضم بين سطورها ملامح من هذه السياحة فى المعابد الإغريقية

(١) توماس هاردى فى روايته .
(٢) توماس هاردى فى روايته .

والرومانية والهندية ، ثم نجد سماتها أيضًا فى التكايا العثمانية والأديرة . اسمع أحمد نور الدين بطل رواية « الدرويش والموت » للأديب اليوغوسلافى ميشا سليموفتش ، اسمعه يصف تكية من واقع ذكرياته : « هذه التكية جميلة وواسعة ، وتقع على شاطئ جدول ينساب بين صخر الجبال ، كما تحيط بها حديقة ذات أزهار وكروم تتسلق فوق الشرفة ، ولها ردهة طويلة يسودها هدوء يزيد من إحساسنا به سماع رقرقة المياه التى تجرى بقربها »[1] .

ثم ينساق بنا فى ذكرياته بقوله :

« وقد كانت فى الماضى حريما للأجداد ، ثم أهداها إلى الطريقة المولوية رجل موسر يدعى على جافيتش لتكون مجمعا للدراويش ، وملجأ للفقراء ذوى القلوب المنكّسة ، وقد طهرناها بالدعوات والبخور مما كان بها من آثام وشرور .. وارتدت بذلك ثوب الشرف الذى ترتديه الأماكن المقدسة .. إلخ »[2] .

ثم يزيد المؤلف ذلك المكان بهاءً وتشويقا ، فيحيطه بأشباح غامضة لشابّات يطفن حوله منذ ما قبل التطهّر والتقديس للمكان .. قائلا :

(١) الدرويش (رواية) للأديب اليوغسلافى ميشاسليموفتش .
(٢) الدرويش (رواية) للأديب اليوغسلافى ميشاسليموفتش .

« حتى أن رائحة الشابات تصل إلى أنوفنا »[1] . نلمس هنا مدى المقدرة الأدبية التى غلّفت مكانا كهذا بأجواء يختلط فيها عبق البخور والشعور الدينى بذكريات ما قبل هذا الشعور ورائحة الشابات الحسناوات .

وكأن المؤلف يوجّه لى ولك ولغيْرنا دعوة خفية إلى زيارة هذه التكية الصامدة في يوغوسلافيا ، لكن شيئا فاته هو أن التكية ليست مكانا ذا صبغة دينية إلا فى عُرف بعض الأتراك القدامى ، أو فى عُرْفه هو .

ونعود بعدئذ إلى السؤال الذى يطرحه صاحبه ، الأسلوب المباشر الغالب على الأدب السياحى .. هل يضعف من تأثيره فى المتلقى ، أو بالأحرى لا يحركه للانتقال إلى الأماكن الموصوفة جيدًا ؟ .

ربما يكون الأسلوب غير المباشر الذى رأينا نماذج منه فى هذه الأعمال الروائية الردّ الكافى لوجود هذا التفاوت بين التأثيرين ، فالأدب – كما عرفنا – لا ينحو إلى المباشرة بقدر ما يفضل الصياغة الفنية الخالية من التصنّع أو المصارحة فى غير موضعها ، لذلك فنكاد نقول إلى المعين للأدب السياحى هو الأعمال الأدبية التى تتضمن مثل هذه العناصر السياحية .. وذلك مع افتراض أن عنصر المباشرة فى

(١) الدرويش (رواية) للأديب اليوغسلافى ميشاسليموفتش .

الأدب السياحى يعنى الصدق وتوافر الثقة بين قارئه وبين سطوره الحقيقية .

ومع ذلك فالحق لابدّ أن يقال .. إن الوصف فى الأدب من أهم العناصر السياحية التى لا يمكن الاستغناء عنها ، فنحن عندما نستمع إلى أبيات للشاعر عمر أبى ريشة يصف طللا رومانيا مرّ به .. حيث يقول :

رمالٌ وأنقاض صرح هوتْ أعاليه تبحث عن أسِّه
أأستنطق الصخر عن ناحتيه وأستنهض الميْت من رمْسِه
حوافر خيل الزمان المشتّ تكاد تحدث عن بؤسه
وتلك العناكب مذعورة تريد التغلّب من حبسه

حينما نستمع إلى هذا الوصف فى القصيدة كاملة ، تبدو لنا إبداع الشاعر فى تجسيد ما رآه ، وفى ما يمزجه برؤاه من وراء الطلل الرومانى .. بالنبش فى التاريخ منقبا عن الشخوص الذين عايشوه فى الماضى ، فصاروا فى عداد الأشباح الهائمة حوله ، لكننا نلاحظ أيضًا أصول الصنعة الشعرية لديه كشاعر يستخدم كلمات مصوِّرة ، فتحيل الحقائق التاريخية إلى صور مثيرة ، تؤثر بها فى عواطفنا ومشاعرنا .

وعلى هذا النسق وجدنا أشعار شوقى وحافظ وعلى محمود طه ومحمد فتحى فى وصف النيل والأهرام وأبى الهول ، أوصافا تترك للخيال كل عنان ، لتطوّف بنا أنحاء العالم عامة والعربى خاصة .

أنواع الأدب السياحى

على ضوء هذه التقدمة السريعة ، يمكننا تصنيف النشاط السياحى القابل للتناول الأدبى إلى عدة أنواع :

تقليدى : وهو أقدمها ، يستهدف مشاهدة الآثار على وجه العموم ، أو آثار حقبة محددة من التاريخ خاصة ، كالآثار الفرعونية والإغريقية والرومانية ، أو الإسلامية بفروعها الفاطمية والأيوبية والطولونية والمملوكية والعثمانية ، وكذلك الأمر فى سائر البلاد العربية تبعا لما مرّ بها من حضارات سابقة على الإسلام .

ونوع **آخر** من النشاط السياحى يستهدف مخالطة شعوب العالم عامة ، والشباب منهم خاصة ، والاطلاع على عاداتهم وتقاليدهم فى جدّهم ولهوهم ، والمقارنة بين المتشابه منهم بالاقتباس أو الاستهجان .

ونوع **ثالث** يستهدف التنعم بالمعالم الدينية والتبرك بها ، إذ يزور الساعون إلى المعابد ومراكز القيادات الدينية فى القدس أو الفاتيكان ، مع استدراك أساسى هو أن الوازع الدينى هو الذى يدفع إلى اختيار أماكن المشاهدة الاندماجية طواعية ، وهذا بالطبع غير فرض الحج

الذى يؤديه المستطيعون من المسلمين .. أمّا ما زاد على أداء الفرض – فيودّ بعض الحجاج زيارة المساجد التى لها ذكريات تاريخية مجيدة مثل مسجد قباء أو المسجد ذى القبلتين أو مسجد الفتح أو مسجد الغمامة أو مساجد على بن أبى طالب وأبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب وبلال .. رضى الله عنهم جميعًا ، أو زيارة البقيع الذى دفن فيه أكثر من عشرة آلاف صحابى رضى الله عنهم ، أو قبور شهداء أحد خارج المدينة المنورة التى من بينها قبر سيدنا حمزة رضى الله عنه ، أو جبل أحد نفسه على مبعدة أربعة كيلو مترات من المدينة ، أو المساجد السبعة مكان غزوة الخندق .. هذه كلها معالم أثرية تهفو النفس الحاجّة إلى زيارتها ، لإمتاع العين برؤية مشاهد وشواهد وثيقة الصلة بالسيرة النبوية العطرة ، وبأمجاد صدر الرسالة المحمدية . ومن ثم تدخل فى عداد السياحة الدينية .

ونوع رابع من السياحة يستهدف الاستشفاء والنقاهة فى مواضع صحية .. كعيون المياه المعدنية أو الرمال الساخنة لمرضى الروماتيزم ، أو الأجواء الجافة المساعدة على الشفاء من أمراض الصدر ، وما إلى ذلك من مواضع حباها الله ميزات تجذب إليها الباحثين عن سلامة الصحة ، وهدوء الأعصاب يزكّيها بحمل اسم منتجع ومنتجعات .

كما يوجد نوع خامس للنشاط السياحى قائم على ما فى داخل المدينة أو البلد وخارجه ، فيستهدف الداخلى منه تشجيع المواطنين

على زيارة كل ما فى البلد من مميزات الأنواع الأربعة السابقة ، من منطلق أن أهل البلد أولى وأسبق من غيرهم برؤيتها والاستمتاع بها ، أما الخارجى منها فهو للبحث عمّا ليس فى الداخلى من ميزات مرغوبة .

من كل هذا نرى تسابق الدول فى إبراز أجمل ما فيها من معالم ، وأحسن ما لديها من مميزات تنفرد بها ، فاستغلّت تقدم وسائل الاتصال وفنون التصوير والسينما والتليفزيون ، وتنافست فى عمل شرائط وشرائح لأجمل مناظر الدنيا . لكن هل أغنت كلها عن المشاهدة العينية أو خففت منها ؟ .

لقد كان من المتصوّر أن تؤثر هذه المستحدثات تأثيرًا عكسيا على النشاط السياحى ، لكنه على غير المتوقع ساعدت على ذلك النشاط فزاد زيادة طردية معها ، وربما كان لتقدم الملاحة الجوية والبحرية أثره الفعّال فى ذلك ، وكذلك زيادة سرعة القطارات وتزويدها بكل وسائل الراحة والترفيه .

هذا فضلا عن الصور واللوحات والشرائط والشرائح الملونة ، كانت من عوامل التشويق والجذب للمشاهدة ، وتيسير مشكلات الاختلافات اللغوية بين السياح .

كذلك تنافست الحكومات ورجال الأعمال فى إقامة المشروعات الفندقية ، والقرى والمنتجعات الترفيهية حول أماكن الجذب

السياحى ، وارتقى كل منها بالخدمات الفندقية والإرشادات السياحية – بالصوت والضوء – فى توفير كثير من الوقت والجهد على السائح ، كما دخل عالم الخدمات السياحية والفندقية مستويات جديدة من الشباب المثقف المجيد للغات الأجنبية ، لتنقية مهام الإرشاد من خرافات الجهّال ، وأساطير استحدثت على ألسن المجتهدين ..

فأطال كل هذا وذاك من أيام وليالى الاستمتاع والترويح السياحيين . كما أن أنواعا جديدة من المستشفيات نشأت باسم المستشفيات الفندقية ، حول أماكن الاستشفاء ، أو فى البلاد المشهورة بالمناخ الصحى المناسب للباحثين عن العلاجات الطبيعية .. فتجمع هذه المستشفيات بين العناية الصحية وبين الخدمات التمريضية .. بالقرب من أماكن الجذب السياحى العلاجى .

نخلص من هذا إلى اتساع رقعة السياحة حتى شملت كل أنحاء العالم ، وهى بالتالى تتنوع وتتعدد وجهاتها تبعًا لاختلاف وتتالى الفصول والأجواء . فنجد السياحة الشتوية والأخرى الصيفية ، كما نجد سياحة الجبال وسياحة السواحل ، بل هناك سياحة الصحارى وسياحة المروج الخضراء .. وللناس فيما يعشقون مذاهب ..

ولمّا كانت طبيعة الإنسان المعاصر ، فى حياة سريعة الإيقاع .. أن يكون أيضًا سريع الملل ، كثير التنقل ، صار من المستهدف كسر حدّة الملل ، وتجديد حيوية النفوس والأجساد .. وذلك بتنويع مصادر

الجذب السياحي ، والربط بينها بشبكة من المواصلات السريعة السهلة في طرق ممهدة آمنة .

لذلك تأسست شركات سياحية ، تدبّر الطائرات والسيارات ، وتستأجر البواخر والقطارات ، وتصاحب أفواج السائحين بالساهرين على راحتهم فيها ، وتمدّ كلاً من هذه الأفواج بما يتفق وأمزجة أعضائها من تسلية أو ترفيه أو إرشاد .

رسالة السياحة وأدبها

فما دور الأدب السياحى فى كل هذه التفريعات المستحدثة ؟ أين الأدب السياحى مما نحن فيه الآن ؟ .

هل هو أدب خارجى دعائى ، يناشد قراءة المقيمين خارج الحدود لا داخلها ، لا لأنه غريب عن أهل الداخل ، ولكن لأنه ينشد اجتذاب أهل العالم إلى أهله .. ومن ثم يصبح من الممكن إطلاق اسم أدب الواجهة عليه ؟ !! ويكون مضمونه كامن فى الداخل ، وشكله الأدبى هو الذى يعرض على المارّة ؟ ! .

وهنا لابدّ أن نسمع لرأى آخر يقول « إن كلمتىْ سياحة وواجهة غريبتان على الأدب ، لأن فيهما إضعافا لرسالة الأدب ، فالأدب تثقيف قبل أن يكون إمتاعا وترفيها ، ولا يصح أن نجعل منه بُوقا دعائيا لسلعة نغرى الزبائن للفرجة عليها » .

ويكفى للرد على أصحاب هذا الاعتراض ، أن نقول إن الأدب مذاهب ومشارب ، ورسالته موجهة إلى قرائه وعشاقه عامة ، دون تفريق بين قارئ أدب للاستمتاع ، أو آخر للاستنفاع ، والأدب تثقيف

وإمتاع أيضًا وترفيه ، أمّا كون التثقيف يأتى قبل أو بعد الإمتاع والترفيه ، فهو أمر يتوقف على المتلقى ومشربه . ولو لم يكن الأدب وأربابه مسايرين لتطوّرات الأجيال واحتياجاتهم .. لاندثر مع أصحابه ، وصاروا ذكريات أو أطلالا يطلّ عليها الأجيال المعاصرة الذين صاروا يسمون سيّاحا .

ومن ثم فلا غضاضة من أن نقرن الأدب الحالى بفرع منه اسمه الأدب السياحى .. ولا مفرّ من التسليم بحقيقة واقعة .. هى تحليل الأدب السياحى إلى جذوره العريقة التى تتحدد فى أربعة .. أدب الوصف ، وأدب الرحلات ، وأدب المجالسة والمنادمة ، وأدب شعبى أيضًا ..

ونحن العرب ذوو باع طويل فى هذه الجذور الأربعة الأصيلة .. ها نحن ندخل معًا متحفنا الأدبى لنقرأ ونرى صفحات خلدت على مرّ الزمن .. ونصغى أيضًا لنسمع ابن رشيق القيروانى .. الناقد والأديب الأندلسى الذوّاقة يقول « إن الشعر إلاّ أقلّه راجع إلى باب الوصف » .

ولا أكون مبالغًا إذا قلت إن باقى أبواب الشعر العربى من مديح وفخر وهجاء ورثاء ونسيب .. هى أيضًا مندرجة تحت باب الوصف .. لأنها كلها تصف مزايا الإنسان ونواقصه أيضًا ، تصف محاسنه خُلقا وخلقة ، ثم تصف الكائنات الحية والجامدة على السواء ،

تصف النار والماء والسماء على السواء ، بل تصف الخمر وما تفعله بالشارين . وقديما قالوا .. وصف الثوب الجسم ، بمعنى أنه كشف عن دقائقه وتفاصيله ، فلم يستره ، أى أن الوصف معناه الكشف عن المخبوء ، واكتشاف المجهول .

فلا عجب إذا اهتم النقاد القدامى بالوصف كعنصر رئيسى فى الأدب العربى ، وأفردوا له كتبًا شتى ، كتشبيهات ابن أبى عون ، وديوان المعانى لأبى هلال العسكرى ، ونهاية الأرب للنويرى ، والمحبّ والمحبوب والمشموم والمشروب للسرىّ الرفّاء .

وأصبح بالإمكان أن نضع هذه الأوصاف بجانب بعضها البعض ، فنخلص إلى شريط مصوّر كامل لطبيعة أرض العرب البكر .. بجبالها ووديانها ، بصحاريها ومروجها ، بحيواناتها ونخيلها ، بأنهارها وجداولها ، بزهرها وثمارها ، ثم بقصورها وأطلالها ، ومجالسها اللاهية وميادين حروبها الدامية .. لا فى العصر الجاهلى فحسب ، بل فى شتى العصور الدارسة والباقية .. وهكذا تتكون لوحات موحية لكل مبدع ، وجاذبة لكل مشتاق .

ومن باب الوصف ندلف إلى أدب الرحلات العربية وروّادها .. والحقيقة المستقرة أن الإنسان ولد راحلا ، إمّا للبحث عن الرزق وإمّا للبحث عن المجهول ، وقد يُثنيه التعب حينًا ، وقد تعترضه المشاق حينًا آخر .. فيلجأ إلى خياله يشقّ به عالما غير محسوس ..

كما وجدنا ذلك فى الأساطير . لكنه ما يلبث أن يستعيد عزمه وقواه ، فيواصل السعى والارتحال مخترقا الحجب والسدود .. ويغامر مخاطرًا بحياته حينًا ، ويقتحم محاربًا يتخطى الحدود بعض الأحيان ، لكنه فى هذا وذاك لا يهدأ له بال إلاّ عندما يحقق مأربه ، فيشبع بطنه كما يشبع نهمه إلى المعرفة أيضا .

من هذا المنطلق جاء دور العرب ، حملوا مشاعل النور إلى الهند والصين وإلى بلاد الأندلس حتى جبال البرانس ، ومن جبال القوقاز إلى بلاد السودان ، كما حملوا ما استطاعوا الاتجار فيه بين شتى البلدان ، ولمّا استقرّت بهم الأمور .. توجّهوا إلى سائر الأصقاع ، يؤرخون ويستكشفون .. ويسجّلون ويرسمون المسالك كما يحددون الممالك .. فصارت الرحلات الجغرافية علما عليهم ، وصارت قصة السندباد البحرى الخيالية من مقتنياتهم الشامخة ، ولم يعد بعُد الشُّقة صعبًا عليهم فى سبيل التأكد من معلومة شائعة ، مثلما وجدنا الخليفة العباسى الواثق بالله يأمر سلاّما الترجمان بالارتحال إلى الصين ، ليبحث عن سدّها العظيم ، الذى أُشيع أن الإسكندر الأكبر هو الذى بناه سدّا بين العالم القديم ، وديار يأجوج ومأجوج .

وهكذا تتالت رحلات العرب ، وتعددت أغراضها ، وسار موازيًا لها أدب عربى يختص بالرحلات ، يتميّز بالذكاء والدّقة ، كما يتزوّد باللمحة والطرفة ، وما ذلك إلاّ للتخفيف من كل مشقة ، والمسامرة

فى الغربة ، فلو قرأت ما كتبه المقدسى فى كتابه « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » ، لضحكت ملء رئتيك وهو يصف أهرام مصر حين يقول :

« فيه عجائب منها الهرمان اللذان هما أحد عجائب الدنيا من حجارة ، شبه هوْدجين ارتفاع كل واحدة أربعمائة ذراع في عرض مثلها ، قد ملئت بكتابة يونانية !! ، وفي داخلهما طريقان إلى أعلاهما ، وطريق تحت الأرض ، وسمعت فيهما أشياء مختلفة ، فمنهم من قال هما طلسمان ، ومنهم من قال كانتا مخازن يوسف ، وقيل بل كانت قبورهم ، ويقال مكتوب عليهما : إنى بنيتهما ، فمن كان يدّعى قوة فى مُلكه فليهدمهما ، فإن الهدم أيسر من البناء ، فأراد بعض الملوك هدمهما ، فإذا خراج مصر لا يقوم بهدمهما ، فتركهما وهما أملسان ، يُريان من مسيرة يومين وثلث ، لا يصعد فوقهما إلا كل شاطر ، وحولهما عدة صغار ، وهذا يدلّ على أنها مقابر » .

كما يضحكنا المقدسى حين يطلق أحكامًا عامة على أهل كل إقليم رحل إليه ، فيصف أهل العراق بأنهم أظرف الأقاليم ، وأهل فارس بأنهم أكيسهم قومًا وتجّارا وأكثرهم فسقًا ، وأهل الشام بأنهم أكثر بركات وصلاحٍ وزهدٍ ، أمّا أهل مصر فأكثرهم عبّاد وقراء وأموال ومتجر وخصائص وحبوب ولك أن تقارن بين وصفه لمكّة فى عصره ، وبين ما هى عليه من ضخامة واتساع بنايات فى عصرنا ، ففى وصف المقدسى لها بعد رحلته إليها قال :

« مكة هى مصر هذا الإقليم ، قد خُطّت حول الكعبة فى شعب واد ، بناؤها حجارة سود مُلْس وبيض أيضًا ، وعلْوها الآجر ، كثيرة الأجنحة من خشب الساج ، وهى طبقات مبيضة نظيفة ، حَارَّة فى الصيف إلا أن ليلها طيب ، قد رفع الله عنهم مئونة الدفء ، وأراحهم من كلف الاصطلاء ، وكل ما نزل عن المسجد الحرام يسمّونه المسْفلة ، وما ارتفع عنه المعْلاة ، وعرضها سعة الوادى ، والمسجد فى ثلثى البلد إلى المسفلة ، والكعبة فى وسطه ، وفيه طول ، وباب الكعبة مرتفع عن الأرض نحو قامة ، عليه مصراعان ملبّسان بصفائح الفضة ، قد طليت بالذهب قبال المشرق ، طول المسجد ثلاثمائة ذراع ، وعرضه ثلاثمائة وخمسة عشر ذراعًا ، وطول الكعبة أربعة وعشرون ذراعًا وشبرا فى ثلاثة وعشرين ذراعًا وشبرا » .

على هذا المنوال سار المقدسى فى وصف رحلاته إلى سائر البلدان ، وعلى هذا الدرب أيضًا سار بقية الرحالة من العرب ، فنجد ابن حوقل في المسالك والممالك ، والإدريسى فى كتابه نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، والقزوينى في كتابه آثار البلاد وأخبار العباد ، وفى وصف التاجر سليمان لرحلته البحرية إلى الهند والصين بالمحيطين الهندى والهادى ، كذلك فى كتاب « تحفة الأصحاب ونخبة الأعجاب » لأبى حامد الأندلسى الذى خاض المحيط الأطلسى وطاف بإفريقيا الشمالية وصقلية ، وزار مصر والشام والعراق ، كما دخل البحر الأسود وتوغّل

فى بلاد البلغار والصقالبة حتى وصل إلى المحيط المتجمد الشمالى ، ولدينا من الرحالة العرب أيضًا أسامة بن منقذ وعبد اللطيف البغدادى والبيرونى والهروى ، مع اختلاف وجهة كل منهم فى تسجيل ملحوظاته سواء كانت اجتماعية أم علمية أم فلسفية ، لكنها يجمعها كلها إطار الارتحال ، كما يظل عَلَما على الرحالة العرب ابن جبير وابن بطوطة وابن خلدون ، الذين اشتهرت رحلاتهم بالنظرات المتعمقة والأسلوب القصصى والإحاطة التامة بكل أركان ما زاروه من مراكز العمران (وأخرى بكْر خلت من أى أثر من آثاره) .

ومن هذا كله ومن غيره ، نرى أن العرب أصحاب حق فى نسبة السياحة إليهم بالوصف والارتحال ، خصوصًا أنهم تنبهوا إلى ما تجشموه من متاعب ، وما يبذله كل منهم من جهود خارقة ، وما يتعرضون له من مخاطر ، فلجئوا إلى التخفيف من وقع ذلك كله ، بتبادل الأحاديث الطريفة ، والتعليقات المسلّية على ما شاهدوه ، ولم يكتفوا بالقول ، وإنما سجّلوا ما قالوه دون تقيّد بأصول ، أو تحشمّ بحياء ، أو حتى استمساك بقواعد الإبداع شعرا كانت أم نثرا .

استمع إلى حوار حار بين المدن فى كتاب نفح الطيب أورده صاحبه على لسان أبى بحر صفوان يخاطب الأمير عبد الرحمن بن السلطان يوسف بن عبد المؤمن ، إذ يقول :

« ولما تخاصمت فيك من الأندلس الأمصار ، وطال بها الوقوف

على حُبك والاقتصار ، كلها يفصح قولاً ، ويقول أنا أحق وأوْلَى ، ويصيخ إلى إجابة دعوته ويصغى ، ويتلو إذا بُشّرَ بك ذلك ما كنا نبغى ، تنمرت حِمْصُ غيظًا ، وكاد تفيظ فيظا ، وقالت : ما لهم يزيدون وينقصون ويطمعون ويحرصون ، إنْ يتبّعون إلا الظن وإن هم إلا يَخْرصُون ، لى السهم الأسد ، والساعد الأشد ، والنهر الذى يتعاقب عليه الجزر والمدّ ، أنا مصر الأندلس ، والنيل نهرى ، فنظرتها قرطبة شزرا ، وقالت : لقد كثرت نزْرًا ، وبذرت فى الصخر الأصمّ بزرًا ، كلام العِدى ضرب من الهذَيان ... ..

فقالت غرناطة : لى المعقل الذى يمتنع ساكنه من النجوم ، ولا تجْرى إلا تحته جيادُ الغيث السَجوم ، فلا يلحقنى من مُعاند ضررٌ ولا حيف ، ولا يهتدى إلى خيال طارق ولا طيف ، فقالت مالقة : تتركونى بينكم همَلاً ، ولا تعطونى فى سيدنا أملاً ، لدىّ من البهجة ما تستغنى به الحمام عن الهديل ، ولا تجنح الأنفس الرقاق الحواشى إلى تعويض عنه ولا تبديل ، فما لى لا أعطى فى ناديكم كلامًا ، ولا أنشر فى جيش فخاركم أعلامًا ، فقالت مُرْسية : أمامى تتعاطون الفخر ، وتحضره الدرّ تنفقون الصخر ، إن عُدّت المفاخر ، فلى منها الأول والآخر ، أين أوْشا لكم من بحرى ، وجعجعتكم من نفثات سحرى !! فلى الروض النضير ، والمرأى الذى ماله من نظير ، فانقادوا لأمرى ، وحاذروا اصطلاء جمرى ، فأنا أوْلاكم بهذا الملك المستأثر بالتعظيم ، وما يلقّاها إلا ذو حظّ عظيم .

فقالت بَلَنْسِية : فيم الجدال والقراع ، وعلام الاستهام والاقتراع ، إلامَ التعريض والتصريح ، وتحت الرغوة اللبن الصريح ، أنا أحوزه من دونكم ، فاخمدوا نارَىْ فلى المحاسن الشامخة الأعلام ، والجنات التى تُلقى إليها الآفاق يدَ الاستسلام ، وبرصافتى وجسرى أعارض مدينة السلام ، فأجمعوا على الانقياد لى والسلام .

فعند ذلك ارتمت جمرة تُدمير بالشَّرار ، واستدّت أسهمها لنمور الشرار ، وقالت عش رجَبًا ، ترَ عجبًا ..

هذا نوع من أدب الحواضر ، تفاخر كل منها الأخريات بمحاسنها ، وتبرز للأجيال فى حقيقة الأمر ما يغريها بالسفر إليها والتنعم فيها لكنها من ناحية أخرى تعبّر للمؤرخين مدى التنافس وحدّته التى بلغت حدّ التفكك طلبًا للصدارة والزعامة على سائر أهل هذه المدن ، لكنها على أية حال متعة أدبية تضاف إلى أدب الرحلات العربى لتزيد انتماء الأدب السياحى إلى العرب .

أدب الغربة والضيافة

وتتأصل هذه النسبة ، وتزداد تأكيدًا ، بما يملأ المجالس العربية من أنس وبهجة ، سواء كانت مجالس تسلية فى سفن الرحلات ، أو مجالس فى بلاد الغربة تكتنفها الدهشة والانبهار ، وتحوطها مشاعر الترحيب والتكريم بشتى مظاهر الضيافة والاسترضاء !

تحضرنى أبيات رقيقة للشاعرة المعاصرة وفاء وجدى بعنوان « ماذا تعنى الغربة » .

الناس حشود
لكنْ ما جدوى أن يحتشد الناس
والوجه يشيح عن الآخر
ويضيع الوجه عن الآخر
فى بحر الغربة
والجوّال يسير
فإذا ما جاع ازدرد الغربة .

والهوْلة ترقد خلف الباب
تلتهم الفرحة تلو الفرحة
تلقى بسؤال يهرب منه الأحباب :
ماذا تعنى الغربة ؟

ثم تجيب الشاعرة على سؤالها بنفسها قائلة :

« الغربة أن يفترق الأحباب وهم أحباب
ينتظرون ربيع الحب
يحلم كل حبيب بجنَى موسمه الخلاّب ..
لكن ما جدوى أن نعرف ما تعنيه الغربة

والغربة هنا مخيفة للأحباب ، لأن ألَم الفراق يظلّ حازًا فى النفس ، طالما ظلّ الحبيب بعيدًا ، أو حتى ما دام لم يعثر على بديل يشغل ، أو سمير خفّف هذا الألم .. مع أن العرب تنبّهوا لهذا من قبل ، وهيئوا المجالس تستقبل كل غريب ، وأقاموا مهاجع على الطرق ، يستروح فيها المسافر ، سواء كان الحب قد برّح به فارتحل ، أو كان التشوّق للمجهول متملكًا لهُ فسافر أوْ ساح مدفوعًا بالأمل .. لينزل ضيفًا مرحّبا به .

لهذا فقد تنبّه القرطبى لهذه الحقيقة .. فكتب فى مقدمة كتابه الجامع « بهجة المجالس وأنس المجالس » ليبيّن حكمة جمعه للأبيات والأمثال

والحكايات المستطرفة بقوله : « يحسن موقع ذلك فى الأسماع ، ويخفّ على النفس والطباع ، ويكون لقارئه أنسًا فى الخلاء ، كما هو زين له فى الملاء ، وصاحبًا فى الاغتراب ، كما هو حلى « بين الأصحاب » .

لذلك ظهرت لدى العرب مهنة النديم متنقلة من الفرس ، فتوسع العرب فى استخدامهم فى المجالس ، وصنّفوهم حسب تخصص كل منهم وموهبته ، فوجدنا النديم الحلو الحديث فيكون محدّثًا مسليًا لبقًا ، والجليس الواعظ الذى يطلبه الخليفة أو السلطان لنوع معيّن من المجالس ، والنديم الشاعر ، والآخر المغنّى ، وكذلك النديم الظريف المضحك .

كما ذهب هارون الرشيد شوطًا أبعد فى هذا المضمار ، فجعل الندماء موظفين فى قصره ، يقيمون بصفة دائمة ، ليكونوا تحت الطلب وقت عقد مجالس الأنس والطرب ، أو إقامة مجالس التحدث والأدب ، كل ذلك نظير رواتب ومنح وعطايا .

وهذا شبيه بما نراه من تطوّر فى عالم الخدمات الفندقية والسياحية فى النوادى وأماكن اللهو ، مع تعديل بسيط فى منصب السلطان الذى أصبح هو السائح نفسه الآن . وليتسابق الندماء المعاصرون فى استرضائه واكتساب ثقته ومحبته ، كل حسب اختصاصه وقدرته .

كذلك تميّزت كل فئة من فئات الندماء العرب ، بأزياء مختلفة ، بحيث يُنتقى لكل مناسبة ملبسها ، حتى يبدو النديم بالمظهر المقبول

والمريح لُمجالسه ، وبالطبع يتطلب المظهر الطيّب ضرورة التعطّر والتطيّب بالعطور المستحبّة ، ولقد جاء فى كتاب العقد الفريد : أن « جعفر بن يحيى البرمكى جلس يومًا للشرب ، وأحبّ الخلوة ، فأحضر ندماءه الذين يأنس بهم ، وجلس معهم ، وقد هيأ المجلس ، ولبسوا الثياب المصبّغة ، وكانوا إذا جلسوا فى مجالس الشراب واللهو لبسوا الثياب الحمر والصفر والخضر ، ثم إن جعفر بن يحيى تقدّم إلى الحاجب ألا يأذن لأحد من خلق الله تعالى سوى رجل من الندماء ، كان قد تأخر عنهم ، اسمه عبد الملك بن صالح ، ثم جلسوا يشربون ودارت الكاسات ، وخفقت العيدان ، وكان رجل من أقارب الخليفة هو عبد الملك بن صالح .. بن العباس ، شديد الوقار والدين والحشمة ، وكان الرشيد قد التمس منه أن ينادمه ويشرب معه ، ويبذل على ذلك أموالاً جليلة ، فلم يفعل ، فاتّفق أن حضر إلى باب جعفر بن يحيى ليخاطبه فى حوائج له ، فظن الحاجب أنه هو عبد الملك بن صالح ، الذى تقدم جعفر بن يحيى بالإذن له ، وألا يدخل عليه ، فأذن الحاجب له ، فدخل عبد الملك بن صالح على جعفر بن يحيى ، فلما رآه جعفر كاد عقله يذهب من الحياء ، وفطن أن القضيّة قد اشتبهت على الحاجب بطريق اشتباه الاسم ، وفطن عبد الملك بن صالح أيضًا للقصة ، وظهر له الخجل فى وجه جعفر بن يحيى ، فانبسط عبد الملك وقال :

« لا بأس عليكم ، احضروا لنا من هذه الثياب المصبّغة شيئًا » ، فأحضر له قميص مصبوغ ، فلبسه وجلس يباسط جعفر بن يحيى ويمازحه، وقال: «اسقونا من شرابكم» ، فسقوه رطلاً :

ونلمس من هذا مدى الأمان الذى أحسّ به قريب الخليفة الرشيد من ارتداء قميص مجلس الشراب ، لينقلب نديمًا من الندماء الجالسين مع جعفر البرمكى ، ويبادلهم كئوس الشراب التى تمنّع عنها ، وتأبىّ رغم إلحاح قريبه الخليفة عليه من قبل !!

وسواء سقاه الشاربون رطلاً أم أقلّ من رطل ، فإن عبد الملك ذاك لم يعد يحسّ بالغربة بينهم ، رغم أنهم جميعًا عنه غرباء .

كذلك سواء كانت هذه القصة كخبر قابل للتكذيب أو التصديق ، رغم أنه ورد فى أربعة كتب تراثية أخرى غير العقد الفريد ، هى الفخرى فى الآداب السلطانية ، والمستطرف من كل فن مستظرف ، والوزراء والكتّاب ، والديارات ، مما يؤكد صدق القصة كخبر ، لكن ما يهمنا هو الزىّ المميّز لندماء المجالس ، الذى نراه الآن على أجسام العاملين فى مجال السياحة رجالاً ونساء على السواء .

لكن ليس بالزىّ وحده يتميّز النديم القديم ، وإنما تشترط فيه صفات وطباع ، منها الظاهرى الملموس ، وأخرى معنوى فى التعامل محسوس .

فالوجه الصبوح مفضّل فى النديم على غيره ، ومن ثم يكون الخلوّ من العاهات والعيوب مكملاً لجمال هذا الوجه واعتدال القامة ، وقديمًا قال الخليفة المتوكل فى الشاعر الظريف أبى العيناء « لولا أن أبا العيناء ضرير لنادمناه » ، كما يحسن أن يكون خال من العادات المنفرة

كالتجشّؤ أو سلاسة البول ، والوجه الصبوح والقامة المعتدلة ، يحتاجان أن يكتملا بالحرص على النظافة ، نظافة الكف والأظافر والشارب والأنف والملابس من باب أولى .

أما الصفات المعنوية المرغوبة فى النديم ، فعلى رأسها أن يكون ودُودًا مع الغرباء ، غير حسود لما ينعمون به من عزّ ومال ، كريم النفس واليد فلا يبخل على نفسه بارتداء فاخر الثياب ، عفّ اللسان ، فيزيّن سيرة جلسائه ، ولا يفشى ما يراه من تصرفات مشينة تفضحهم ، وأن يكون متواضعًا لا يأنف من خدمة الغرباء ، فضلاً عن أن يكون ظريفًا ذكيًا ، ليكتسب محبة الجميع .

كل هذه أمور لم تفت الأديب العربى القديم ، فنصّ عليها فى أدب المجالس .. التى يؤمّها كل مستويات البشر ، الغرباء منهم والأقرباء ، فما الذى كان يجرى فيها ؟ إن كل ما يخطر على بال إنسان هو الذى يدور فيها !! أكل وشرب وغناء ، وموسيقى وشعر ومساجلات ومطارحات ، ومبارزات وصيد وسباق .. كلها أخبار لهو امتزجت بالجادّ من الشئون ، وجمع شتات الأقاويل من القديم والجديد ، القريب منها والبعيد ، لكنها كلها ظلّلتها غايات إزجاء أوقات الفراغ بشتى الفنون .

ومن أمثلة ما دار فى مجلس من تلك المجالس ، فمجلس المأمون حين قال غريب من الغرباء يروى حديثًا شريفًا لرسول الله ﷺ

« العباد عباد الله ، والبلاد بلادُ الله ، فأينما وجدتَ الخير فأقم واتق الله». صدق رسول الله .

فردّ آخرون من الغرباء يبدو أنه كتابى بقوله : مكتوب فى التوراة : « ابن آدم ! أحدِثْ سفرًا أُحدِث لك رزقًا » .

وثالث قال : من أمثال العامة ، البركات مع الحركات .

ورابع يقول : فى السفر ثلاثة معان : الأول العُزْم ، الثانى القدرة ، والثالث الرحيل . ويؤيده الخامس بترديد بيت عروة بن الورد الذى قال فيه :

فسِرْ فى بلاد الله والتمس الغنى   تعش ذا يسارٍ أو تمُوت فتَعْذَرا

لكن سادسًا يعارض بيتًا لامرئ القيس قال فيه :

وقد طوّفتُ فى الآفاق حتى   رضيتُ من الغنيمة بالإياب

والسابع يتناول نوعًا آخر من السفر برواية هذه الأبيات :

وعجز بذى أدب أنْ يضيقَ   به عيشُه وسع هذى البلاد
وما غَرب الرزق عن رائدٍ   ولاسيّما حسنُ الارْتياد
وإذا ما الأديب ارتضى بالخمولِ   فلاحظٌ فى الأدب المستفاد
وفى الاضطراب وفى الاغتراب   منالُ المُنى وبلوغُ المراد
جبِ الأرض شرقا وجبْ غربَها   إلى كل فج عميق وواد

ثم تطرّق حديث المجلس إلى كرم الضيافة وإكرام الضيف ، فأجمع الجالسون على أن ما قيل فى ذلك قول مسكين الدارمىّ :

طعامی طعامُ الضيف والرحْلُ رحْلُه ولـم يلْهنى عنـــه غـــزال مقنَّـــع
أحدِّثه إن الحديـث مـن القـرى وتعلَمُ نفسى أنــه سـوف يهجعُ

كما أجمعوا أنه من سمات إكرام الضيف تقديم أحسن ما عند المضيف من طعام إليه ، وفى ذلك قال أبو ذؤيب :

لا دَرّ درِّى إن أطعمتُ نازلَهُم خُبزَ الشعير وعندى البُرُّ مكْنوزُ

وردّد أحدهم فتوى الإمام الأوْزَاعى حين سأله سائل : رجلٌ قدّم إلى ضيفه الكامخ والزيتون ، وعنده اللحم والعسل والسمن ، فأفتى قائلاً : « هذا لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر » .

وصدّق على ذلك بحديث رسول الله ﷺ : (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيْفَه ، جائزته يوم وليلة ، والضيافة ثلاثة أيام ، وما زاد فهو صدقة ، ولا يحلّ أن يثوى غيره حتى يخرجه) .

وانتقل الحديث إلى المودّة والتودد للناس ، فانبرى صاحبنا الكتابى يقول : جلس داود عليه السلام كئيبًا خاليًا ، فأوحى الله إليه : مالى أراك خاليًا ؟ قال : هجرت الناس فيك ، قال : أفلا أدُلّك على شىء تبلغ به رضاى؟ خالق الناس بأخلاقهم، واحتجز الإيمان فيما بينى وبينك.

فحكى أحد الجالسين أن الحكيم العتّابى سأله أحد جلسائه بقوله : إنك تَلقَى الناس كلهم بالبشْر !! فقال : دفع ضغينة بأيسر مؤونة ، واكتساب إخوان بأيْسر مبذول .

فأنشد أحدهم بيتيْن لكُثيِّر عزّة الذى يقول فيهما :

ومَن لا يغمِّضْ عينه عـن صديقه وعن بعض ما فيه يمُتْ وهو عاتبُ
ومن يتّبِـعْ جاهـدًا كل عـثرةٍ يجدْها ولا يَسْلَمْ له الدهرَ صاحبُ

وصفق أحد الجالسين مستحسنًا وهو ينشد :

ما نالـت النفسُ على شـهوة ألـذَّ مـن ودّ صديـق أمـينْ
مـن فـاتـه ودُّ أخٍ صـالح فـذلـك المغبـون حق اليقين

فنطق رجل يبدو الصلاح على وجهه بالقول، قال رسول الله ﷺ : (ألا أنبئكم بشراركم ؟) قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : (من لا يقيل عَثرة ولا يقبل معذرة ، ألا أنبئكم بشرٍّ من ذلكم ؟) قالوا : بلى . قال : (من يبغض الناس ويبغضونه) .

هنا صفق الخليفة المأمون وهو يقول : صدق رسول الله ﷺ ، فأدرك حاجب المجلس رغبة أمير المؤمنين فى الاكتفاء بهذا القدر من الأحاديث ، فهمس فى أذنه : أنفضّ المجلس يا مولاى أم نواصل السهر .. ؟ .. فأومأ المأمونِ بالإيجاب وفهم الحاجب بغيته ، وانفلت ليحضر نوعًا آخر من السمر ، لكن بدويًّا من الجالسين لم يفهم إلا الإيذان بالانصراف .. فوقف منشدًا :

فِراقك مثـل فِراق الحيـاة وفقـدكَ مثـل افتقاد الديَمْ
عليك السلام فكم من وفاء أُفارق منـك وكم من كرمْ

فلكزه الحاجب فى جنبه وهو يهمس ، لا تقف ، لئلا يغضب عليك أمير المؤمنين ، فجلس البدوى وهو يتساءل : هل من بقية فى الجعبة ؟ ، وأجابه الحاجب مواصلاً همسه : غناء عريب ، وبدا الامتعاض على وجه البدوى وهو يعلّق قائلاً : لا أريد سماع العجوز ، أما كفاها نواحا ، نريد بوران .

وهنا ضربه الحاجب على أم رأسه محذّرًا إيّاك أن تذكر اسمها على لسانك .

وكاد البدوى يصيح محتجا يسأله : لماذا ؟ أهذا إكرام ضيف من ضيوف أمير المؤمنين .. وتظاهر الحاجب بالضحك وهو يطمئنه ويحذره فى آن واحد ؛ لا ، ولكننى أثبّت رأسك على رقبتك ، وضحك الجميع بينما شرعت عريب فى الغناء ، وحولها كثيرات من الجوارى الجميلات يتمايلن مع الغناء وهنّ جالسات يرقصن .

أنعمْ تخطّتك صروف الردى ... يقرب بوران مـدى الدّهـر
درّة خِدر لم يـزل نجمُهـا ... بنجم مأمـون العُلا يجـرى
حتى استقرّ المُلك فى حجرها ... يـورك فى ذلك من حجـر

وظلت صيحات الاستحسان واستعادة الألحان تطلب المزيد ، فينجلى صوت عريب وتجيد ، وتصدح الموسيقى بين تصفيقات الجوارى والزغاريد ، وتمتد أيدى الجالسين تتناول كئوس شراب وردىّ من الساقيات الصغيرات ، وعلت البهجة الوجوه ، وتناولت

عيون الساهرين النظرات والغمزات ، ليتسلل البعض إلى الردهات متخففًا من حرارة المجلس الرحيب ، فشبّ رجل قصير متظاهرا بالطول وهو يقول :

من يكنْ يكره الفراق فإنّى   أشتهيه لموضع التسليم
إنّ فيه اعتناقةً لوداعٍ   وانتظار اعتناقه لقدوم

وضج الجلوس بالضحك لعملقة القزم وصراحته السافرة، وهلّلوا لآخر وهو يهتف بصدر بيت لم يكمل عجزه. صاح الغراب بوشْك البيْن فارتحلوا.

ودلف المتحدّثون إلى مثار حديث مثل هذه الأمسيات فى كل مكان.. وسمعوا صوت المأمون واضحًا وهو يقول لجليسه وراء ستار : « النساء شرٌّ كلهن ، وشرّ ما فيهن قلّة الاستغناء عنهن » .

وهنا انبرى أعرابى وهو يقول : صدقت يا أمير المؤمنين .. ثم أنشد :

من منزلى قد أخرجتنى زوجتى   تهرّ فى وجهى هرير الكلبة
زُوِّجتها فقيرة فن حِرْفتى   قلت لها لمّا أراقت جرّتى
أم هلال أبشرى بالحسرة   وأبْشرى منى بوقع الضرّة

فانفجر الجميع بالضحك حتى وقف كهل يحكى ما سمعه من جدّه مع الحجّاج لا أعاد الله أيامه ، فقال :

« دخل جدّى على الحجّاج فسمعه يقول : لا تكْمل النعمة على المرء حتى يتزوّج أربع نسوة يجتمعن عنده ، فصدقه جدّى الأبله وانصرف ليبيع متاع بيته ، وتزوّج أربع نسوة ، فلم توافقه منهن

واحدة ، خرجت واحدة حمقاء رعناء ، والثانية متبرجة ، والثالثة لا يطيقها أى رجل ، والرابعة مذكّرة . وذهب الجدّ إلى الحجّاج وقال له : أصلح الله الأمير ، سمعت منك كلاما أردت أن تتم لى به قرّة عين ، فبعت جميع ما أملك ، حتى تزوجت أربع نسوة ، فلم توافقنى منهن واحدة ، وقد قلت فيهن شعرا ، فاسمع منّى .. فأذن له الحجاج .. وقال جدّى :

تزوّجت أبغى قرّة العين أربَعا فياليت أنّى لم أكن أتزوج
ويا ليتنى أعمى أصمّ ولم أكن تزوَّجت بل ياليت أنّى أعرج
واحدة ما تعرف الله ربَّها ولا ما التُّقى تدرى ولاما التحرّج
وثانية ما أن تقرّ ببينها مذكرة مشهورة تتبرّج
وثالثة حمقاء رعنا سخيفةٌ فكل الذى تأتى من الأمر أعوج
ورابعة مفروكة ذات شِرّة فليست بها نفسى مدى الدهر تُبْهج
فهُنّ طلاقٌ كلهّن بوائن ثلاثا ثلاثا فاشهدوا لا تلجْلجوا

وقهقه الجميع حتى استلقى البعض على أقفيتهم ، بينما يقول الكهل : « ضحك الحجاج حتى كاد يسقط من سريره ، وقال له : كم مهورهنّ ؟ فأجاب : أربعة آلاف درهم ، فأمر له بثمانية آلاف درهم .

وعلقّ أحد الغرباء ، ليتزوّج أربعا غيرهن يا رجل .. أم ماذا ؟ !!

هكذا تواصلت الليلة فى قصر المأمون ، وتنوّعت فيه شتى

العروض ، وتعالت فيه الضحكات المتعانق فيها الخشن بالناعم ، وتلاقى العيون منها الخفر ومنها الجسور ، حتى بزغ نور الصباح .. فانصرف الساهرون متمايلين إلى حيث تواروا فى ديارهم عن الأنظار .

فنون شعبية أو أدب الشعب

مما رأينا فى عروض متنوعة بمجلس المأمون وغيره من ساحات الرشيد والعباسيين على وجه الغموم ، يستوجب الأمر أن نتعرف على ما كان بيعضها من أداءات شعبية اعتمدت على الإبداع الشعرى الشفاهى وما دوّن منه لجماهير الشعب المشاركة فيه .

ولابدّ هنا أن نستدرك قائلين ، إن المديح والهجاء لم يكونا موجّهين لاسترضاء الحكام والتهجم على أعدائهم ، وإنما كان فى بعض الأحيان أدبًا شعبيًّا يعبّر عن أمزجة العامة وحماساتهم لانتصارات بطل من الأبطال على الروم وأهل بيزنطة ، بل إننا وجدنا الشعراء يبدعون النوعين من الأدب ، مع التغاضى عن مقولة مجهولة ، مصادر الأدب الشعبى وأصحاب أزجالها وحكاياتها ... فانتشار أعمال أولئك الشعراء على ألسنة العامة ، وما يلحق بها من تحريفات يدخلها فى زمرة الأدب الشعبى ، ولو استمعنا الآن إلى قصيدة بسيطة لأبى العتاهية يشكو من غلاء الأسعار ، وذيوعها على الألسن لاعتبرناها أدبًا شعبيًّا إنه قال فيها :

من مبلغٌ عنى الإمـا م نصـائحًـا متتاليـة

أنّى أرى الأسـعار أسـ　　　ـعارَ الرعيـة غاليـة
وأرى المكاسب نـزوة　　　وأرى الضرورة فاشية
من يُرتجى لدفـاع كرْ　　　ب ملمّة هى ماهيـة
من للبطـون الجائعا　　　ت وللجسوم العاريـة

ألقيـت أخبـارًا إليـ　　　ك من الرعيـة شـافية

والشاعر هنا يشكو إلى أى خليفة من هذا الغلاء ، لكنه أيضا يقدم شكواه باسم الرعية التى تعانى كلها من هذا الغلاء ، فلا عجب أن تشيع مثل هذه المنظومة وغيرها على ألسن العامة ، وتلقى تجاوبًا منهم .

كما أن الأدب الشعبى لم يكن كله شكوى ، وإنما كان يحتوى أغانى يتغنى بها الملاحون فى نهر دجلة روحة وجيئة ، وها هم يغنّون إحدى اهزوجات أبى العتاهية أيضًا ..

سيصير المـرء يومـا　　　جسدًا ما فيـه روح
كلنا فى غفلـةٍ والمو　　　ت يغـدو ويـروح
لتموتَنّ وإن عمّرْتَ　　　ما عُمّـــر نــوح

لكن أبا العتاهية لم يكن وحده القائم على هذا النوع من الأدب ، فقد كان غيره كثيرا بل كان زعيم هذا النوع فى عصر المأمون شاعرًا خراسانيّ الأصل ، عاش وتنشأ فى البصرة ، اسمه مروان بن محمد واشتهر بطول قامته وقبح شكله وخبث لسانه ، فأطلق عليه كنية

الشمقْمق ، حتى إنه فاق بشار بن برد فى سلاطة اللسان ، وكان يتحاشاه ويتفادى لقاءه ، اسمعه يصف سوء طالعه بقوله :

لوْ ركبتُ البحر صارت فجاجًا ... لا نرى فى متونهــا أمواجًـا
ولـو أنى وضعتُ ياقوتـة حمر ... اءَ فى راحتى لصارت زجاجًا
ولـو أنى وردتُ عذْبـا فراتـا ... عـاد لا شكّ فيه ملحا أجاجًا

كما يشكو مثل أبى العتاهية لا من الغلاء ، بل من انعدام الخبز والأدام أيضًا .. فيصوّر ذلك قائلاً :

ما جمع النـاس لدنياهم ... أنفع فى البيت من الخبز
والخبز باللحم إذا نلتـه ... فأنـت فى أمن من الترْزِ
وقد دنا الفطر وصبياننا ... ليسـوا بذى تمر ولا أرز
كانت لهم عنزٌ فأودى بها ... وأجدبـوا من لبن العنز
فلو رأوا خبزًا على شاهق ... لأسـرعوا للخبز بالجمْز
ولو أطاقوا القفْزَ ما فاتهم ... وكيف للجـائع بالقفـز

مثل هذه الصور الشعبية ، ولو أنها كانت تتضمن الشكوى والألم ، لكنها لم تكن تخلو أيضًا من الفكاهة ، لما تضمنته من تهكم بالحضيض الذى لم يعد بعده أى حضيض ، فتثير الشفقة وتنتزع الضحكة أيضًا ، فتخفف من وقع الواقعة على الطرفين . حتى فى مواكب الملاّحين فى نهر دجلة ، رغم تغنيهم بأهازيج حزينة المضمون ، فهى أيضًا تملأ على راكبى النهر حياتهم بالنغمة

والتصفيق والصوت الرائق المتبوع بالأصوات الجماعية، ممايدفع الملاحين إلى الحماسة فى الملاحة وضمان الوصول .

وللأدب الشعبى العربى امتدادات وذيول ، فقد استمر هذا التيار الشفاهى بعد الشمقمق ملازمًا للدولة العباسية ، حتى تفتتت إلى ممالك وولايات .. وكان من أبرز أولئك الأدباء الشعبيين طائفة المُلْدين ، وفيهم أبو العبر العباسى ، وأبو العجل وغيرهم ، وهم طائفة اشتهرت بالهزل والإضحاك بمخالفة المألوف من كلام الناس وركيكها تارة ، واتخاذ التحامق كوسيلة تارة أخرى ، وبالتزيىّ بكل شاذ من الأزياء تارة ثالثة ، وإضافة حروف إلى الكلمات العادية بلا ضرورة تارة رابعة ، والإكثار من وصف الجوع والفقر والتطفل تارة خامسة ... وكلها كان يلقى صداه لدى العامة بالتجاوب والترديد ، فيشيع ويسود ، وتهتزّ سرائر الحكام خوفًا وغيظًا ، فيتوعّدون بالويل والثبور قائليها ، أو يغرونهم بالنزر اليسير من المال ثمنًا لصمْتهم .

اسمع شعر أبى العجل ، وأمعن النظر فى ما وراءه وهو يقول :

أياعاذلى فى الحمْق دعنى من العَذْل ... فإنى رخىُّ البال من كثرة الشُّغْل
ومُرْنى بما أحببتَ آتِ خلافَه ... فإن جئتنى بالجدِّ جئتك بالهزل
وإن قلت لى: لِمَ كان ذاك؟ جوابه ... لأنى قد استكثرت من قلة العقل
فأصبحت فى الحمقى أميرًا مؤمّرًا ... وما أحدٌ فى الناس يمكنه عزلى
وصيّر لى حمقى بغالاً وغلمةً ... وكنت زمان العقل ممتطيًا رِجْلى

ومن أعلام هذا النوع من الأدب ، ذلك الشاعر الأمّي الذى لا يعرف القراءة ولا الكتابة ، وإنما كان شاعرًا بالسليقة ، يتكسّب من شغله عاملاً فى مخبز ، فيخبز خبز الأرز ويبيعه ، ومن شغلته اشتق اسمه الإضافى لاسم ، نصر بن أحمد الخُبْز أُرزى !!

وهو من وجهة أخرى يعتبر مثلاً حيًّا على جناية النقاد ودارسى تاريخ الأدب فى عصره وما تلاه ، فلم يعترفوا له بأشعار شفاهية إلا ما استملحوه من أبيات متفقة والفصيح من اللغة الغربية ، واستبعدوا ما أبدعه بالعامية ، ومن ثم أفقدونا شهادة عصره على تطوّر الصلة والتلاقح بين الفصحى والعامية .

ومع ذلك فإن ما بقى مسجّلا فى أمهات كتب التراث الأدبى ينمّ عن أصالة وروح فكاهة ، وسرعة بديهة ، تؤكد امتلاكه لأدوات حرفته الأدبية بجانب حرفة العجن والخَبز ، ويكشف لنا من ناحية ، الصور الصادقة لقاع المجتمع العباسى فى تلك الحقب الممتدة ، ها هى أبياته التى تكاد ترقص بموسيقاها وشخوصها حين يقول :

كَم أنــاس وفَوْا لنا حين غابــوا ... وأنــاسٍ جَفَــوْا وهــم حضّــار
عرّضوا ثم أعرضـوا واستمالوا ... ثم مـالوا وجـاوروا ثم جــاروا
لا تلمْهــم عـلى التجنّى فلــوْ لم ... يتجنّـوْا لم يَحســـن الاعتــذار

وها هو يصف مائدة طعام لدى مضيف قلّت أطباقها .. بقوله

ولعمرى كان الخوان ولكنْ لم يكن ما يكون فوق الخوان
وجِفانٍ مثل الجوابى ولكنْ ليس فيهن ما يُرى بالعيان
فإذا ما أدرت فيها بنانى لم أجدْ ما أمسّه ببنَان
إننى ما ضعٌ على غير شىء غير صَكّ الأسنان بالأسنان
ترجع الكفّ وهى أفرغ منها عند مدِّى لها فدأبى وشانى

إننا وإن كنّا نلمس مَدى الدعابة الغالبة هنا ، التى قد توهم القارئ المعاصر بالجهد الذى يبذله الخبز أرزى ، فى صياغة معانى قصيدته لتخرج خفيفة الظلّ ، وكأن الأدب الشعبى سمته الأساسية الحزن أو الحماسة فى الملاحم الشعبية ، لكننا يكفى أن نتمثل أمّية ذلك الأديب ، الذى ينطلق مبدعًا متخففًا دون أدنى تهذيب ، اللهم إلا إذا كانت أقلام مؤرخى الأدب ونقّاده ، هى التى لعبت بأعمال الخبز أرزى لا مستبعدة أو باترة فحسب ، بل أيضا معدّلة ومهذبة بما يتفق مع أهوائهم .. والصورة الثالثة التى رسمها لنا الرجل .. هى فى حبّه وغزله .. إذ يقول :

رأيت الهلال ووجه الحبيب فكانا هلالين عند النظرْ
فلم أدْر مِن حيْرتى فيهما هلال الدُّجى من هلال البشرِ
ولوْلا التورّد فى الوجنتين وما راعنى من سواد الشعرْ
لكنت أظن الهلال الحبيبَ وكنت أظن الحبيب القمر

إننا لو أطلقنا لخيالنا العنان ، ورجعنا إلى تلك العصور ، ورأينا

كيف كان التفاف الناس حول الخبز أرزى وغيره من الشعراء الشعبيين ، وكيف صاحبَ ذلك من مظاهر ، فى الملبس ، وفى المأكل ، فى الجدّ والهزل على السواء ، فى الحروب وفى أعقاب الحروب ، فى احتفالات الانتصار وفى تولىّ الخليفة بعد موت سلفه أو الإطاحة به ، فى الخوف من البطش وفى النفاق بالمدح ، فى كل هذه المتناقضات ، لأدركنا مدى أهمية أولئك الأدباء الشعبيين فى تعبئة المشاعر وفى تفريغها على السواء . ولوْ عاش بين أولئك فنانون تشكيليون ، لكانوا رسموا لنا لوْحات سجلت واقعهم النابض بشتى ألوان الحياة ، وبالتالى كانوا بذلك يقدّمون أصدق الوثائق للأجيال المتعاقبة ، وأدق التفاصيل للجماهير الوافدة ...

إننا من منطلق جمال الماضى وحنين الإنسان إليه ، والدليل على صحة هذا بقاء مثل هذه المنتوجات الشعرية حيّة للآن ، على الرغم من أنها استبدعت فى ظروف معينة ، لكنها تبعث على المتعة الفنية طوال هذه القرون السابقة ، وفى بيئات اجتماعية وثقافية متباينة ..

حتى ولو اعتبرنا – بغرورنا ونظرتنا المتعالية لحاضرنا المتقدم ، أن منتوجات القدامى تمثل مرحلة الطفولة البشرية غير المتقدمة ، ويستحيل على المرء أن يرتدّ طفلاً ، مع ذلك نشعر كلنا بالبهجة من سذاجة الطفولة وبراءتها ، بل ويتمنى كل منّا فى دخيلة نفسه أن يستمد من مرحلته الطفولية الأصيلة ارتقاء أعلى .

مهـام الأدب السيـاحى

. فمن منطلق جمال الماضى ، ومن منطلق نظرتنا لطفولة المجتمع الإنسانى فى الماضى .. بسحره القوى وتأثيره الخالد علينا ، واستحالة عودة البشرية إلى طفوليتها ، يصبح من أهم الواجبات علينا اجترار هذه المرحلة التى لم تخلُ من ملامح الحكمة ، والتى نلمحها فى بعض أطفالنا الذين يتمتعون بحكمة الشيوخ ، يصبح من أهم واجباتنا الإبقاء على كل تلك الأنواع من تراث البشرية ، بآثارها الحجرية ، وأشعارها الشعبية وملاحمها التى لا تتوقف عند نهاية حاسمة ، وعروضها التى أمكن وصفها فى الموروثات الشعبية فى سائر أنحاء العالم ، وهذه هى مهمة الأدب السياحى .

كما أن من مهام الأدب السياحى أن يكون طليقاً من شطحات المدارس الأدبية ، فيجعل هدفه الرئيسى ، التعريف والإمتاع بالإبهار ، وهو هدف تثقيفى بالوصف ، وترفيهى بإبراز كل جميل فى هذه الموروثات ، لا شأن له بقيود النظريات ، ولا همّ له إلا إجادة تغليف هذه الخدمات السياحية بصياغة شائقة لتجسيد صدى الماضى بصوت

مدوّ معاصر ، تستسيغه أذواق الغرباء وحواسهم ، وهذا بدوره بالإمكان أن يكون منفذًا إلى عالمية هذا الأدب .

ومن مهام الأدب السياحى أن يطوّع اللهجات المحلية لأصولها اللغوية ، حتى يسهل على المتلقىّ ، سواء كان مواطنًا أم غريبًا ، أن يعثر علىّ ضالته فيما يشاهده أو يسمعه مستعينًا بما لديه من مترادفات ، وذلك بالتزام الانتقاء الدقيق للكلمات المتداولة ذات الجذور اللغوية الواضحة ، وهنا تتباين المقدرة بين كتاب الأدب السياحى باستخدام السهل من التركيبات اللفظية ، والأسلوب غير المتكلّف .

كذلك من مهام الأدب السياحى أن يكون فى تقديمه للأساطير والمعتقدات القديمة أمينًا على التراث المقدّم أولاً ، مع التنبّه إلى حقيقة المعاصرة التى يحملها إليها ثانيًا ، وهذا أمر يتطلب أن يضع كاتب هذا النوع من الأدب نصب عينيه ، الأحوال الاجتماعية السالفة ، والتطورات التى مرّت بها حتى سلمّته كتراث فى مجتمع جديد متغيّر ، فليس من المعقول مثلاً أن نلتقط أساطير فرعونية بعينها كأسطورة إيزيس وأوزوريس ولا نعرضها معزولة عن النيل أو إلهه الذى ربط بين الماضى وحاضرنا الذى نراه !!

كما أنه ليس من المعقول أن نعرض لأبراج الكنائس فى الأندلس وفى مصر ، ونتجاهل حقيقة تطوّر نشأة المآذن فى المساجد ، وخلوّ زوايا الصلاة من المآذن مستعيضة عنها بمكبرات الصوت ، وإذا ذهبنا إلى اليونان ، نقول إنه ليس من المعقول أن نعرض للميثولوجيا الإغريقية بمعزل عن الفن اليونانى ، لأنه هو النبت الذى تغذى وترعرع على

تلك الميثولوجيا ، كذلك الأمر بالنسبة لفن شكسبير ، لا يمكن تقديمه بعيدًا عمّا كان يعاصره من أحوال مجتمعه والظروف الطبيعية التى عايشها كل منها ، فهل إذا أمكننا استيعاب ذلك كله ووضعنا كل ذلك فى اعتبارنا ، هل يمكننا تقديم ذلك فى حضن مدنيتنا المعاصرة ؟ هذه هى المهمة العويصة للأدب السياحى ، وهى المحكّ الذى يميّز الأديب السياحى المتمكن عن غيره من المحاولين .

فإذا سأل سائل هل ندخل كتب الآثار فى عداد الأدب السياحى ؟ نسأله أولاً هل يتوافر فيها كلها أو بعضها عناصر الوصف والارتحال والموروث الشعبى ، وهل تستهدف اجترار المرحلة الماضية التى تضمنت بعضًا من حكم الشيوخ لدى هذه المرحلة الطفولية للبشرية ، وهل تخلصت من براثن المدارس الأدبية مكتفية بالصياغة الشائقة ، وهل صالحت بين اللهجات المحلية وأصول لغاتها العالمية ، وهل راعت تطوّرات الأحوال الاجتماعية منذ البداية حتى عصرنا ؟ كل هذه معايير علينا أن نغترف بها من كتب الآثار ، لنعثر على كم معقول من الأدب السياحى فيه ، والأمر نفسه نجريه مع كتب الرحلات وكتب الموروثات الشعبية .

بذلك نستطيع أن نعتبر كتاب « فى موكب الشمس » للدكتور العالم أحمد أحمد بدوى ، نوعًا من الأدب السياحى لأسلوبه الأدبى الراقى بانسياب محبوب ، ولو أنه خلا من أدب الارتحال ! .

أساطير حول الأهرامات

لكن استمع إلى الشاعر الفحل المتنبى وهو يرثى أحد رجال مصر بعد أن خرج منها ساخطًا على كافور الإخشيدى .. فيصف الهرمين ببيتين يتيمين بقوله ..

أين الذى الهرمان من بنيانِهِ　　مَنْ قومه؟ من يومه ؟ ما المصرعُ؟
تتخلف الآثار عن سُكّانها　　حينًا ، ويدْركها الفناء ، فتتبعُ

فالمتنبى يُبدى رأيه فى هرمى مصر إحدى معجزات الزمن ، من نبع سخطه على حاكم مصر الذى لم يشبع طعمه فى تولّى إمارة من إماراتها ، فلم تجد قريحته إلا بيتين اثنين يعلن فى أحدهما حتمية فناء كل هذه الآثار لتلحق بمن شادوها !! !

ويبدو حقد المتنبى فيهما لو قارنّا هما بما قاله عمارة اليمنى فى العصر الفاطمى عن الهرمين نفسيهما إذ يقول مصوّرا مناعتهما أمام الدهر ..

بناء يخاف الدهر منه ، وكل ما　　على ظاهر الدنيا يخاف من الدهر
تنزّه طرْفى فى بديع بنائها　　ولم يتنزّه فى المواد بها فكرى

ويكرر السيوطى فى كتابه حسن المحاضرة هذا المعنى بقوله ممزوجًا

بأقوال الناس التى كانت أقرب إلى الخرافات : « إن الذى بنى الأهرام هو سوريد بن سلهوق من شرياق ملك مصر ، وكان قبل الطوفان بثلاثمائة سنة ، وسبب ذلك أنه رأى فى منامه كأن الأرض انقلبت بأهلها ، وكأن الناس هاربون على وجوههم ، وكأن الكواكب تساقطت ، ويصدم بعضها بعضًا بأصوات هائلة ، فاغمّه ذلك ، وكتمه ، ثم رأى بعد ذلك كان الكواكب الثابتة نزلت إلى الأرض فى صورة طيور بيض ، وكأنها تخطف الناس ، وتلقيهم بين جبلين عظيمين ، وكأن الجبلين انطبقا عليهم ، وكأن الكواكب النيّرة مظلمة ، فانتبه مذعورا ، وجمع رؤساء الكهنة فى جميع أعمال مصر ، فأخبروه بأمر الطوفان ، فأمر بذلك عند بناء الأهرام ، وملأها طلسمات وعجائب وأموالاً وخزائن ، وكتب فيها جميع ما قالته الحكماء ، وجميع العلوم الغامضة ، وأسماء العقاقير ، ومنافعها ومضارها ، وعلم الطلسمات والحساب والهندسة والطب ، وكل ذلك مفسّر لمن يعرف كتابتهم ولغاتهم ، وأحضر لها الصخور من ناحية أسوان ، وجعل أبوابها تحت الأرض بأربعين ذراعًا » وظلّ السيوطى فى وصفه الخيالى لنفهم منه تجاه مصر من الطوفان بهذين الهرمين الشامخين ، ولا أدرى كيف غاب على السيوطى نزول مياه الطوفان وغمرها للأبواب التى كانت على عمق الأربعين ذراعًا !! وبذلك أفقد السيوطى ما كتبه الصدق الذى يجب أن نحترم به عقلية قارئ الأدب السياحى .

لذلك فقد بدت الحيرة فى أقدم ما كتب من الشعر العربى حول الأهرامات ، فقال أحدهم :

حَسَرتْ عقول أولى النُّهى الأهـرام ... واستصغرت لعظيمها الأجـرامُ
مُلسٌ ، موثقة البنـاء ، شواهق ... قصرت لعـالٍ دونهـنّ سـهامُ
لم أدر حين كبـا التفكّـر دونها ... واستعجمت لعجيبها الأوهـامُ
أقبور أمـلاك الأعاجم هـن ، أم ... هذى طلاسم رمـل أم أعلامُ ؟

لكن انظر إلى الهرمين من خلال أشعار رقيقة لشاعر أندلسى هو أبو الصّلت أميّة بن عبد العزيز حين ينشد ..

بعيشك، هل أبصرت أحسن منظرا ... على ما رأت عيناك، من هرمى مصر
أنافا بأعنـانِ السَّماء ، وأشـرفـا ... على الجوّ إشراف السِّماكِ أو النّسْر
وقد وافيـا نشزًا من الأرض عاليا ... كأنهمـا نَهْـدان قاما على صـدر

وقد تلقّف شاعر آخر أكثر حداثة ذلك المعنى فرسم له صورة خلاّبة فقال :

انظـرْ إلى الهـرمين إذ برزا ... للعيْن فى عُلْو، وفى صُعُد
وكأنما الأرض العريضة إذ ... ظمئت لفرط الحرّ والرَّمد
حسَرتْ عن الثدْيين بارزة ... تدعـو الإلـه لرَقّة الولـد
فأجابهـا بالنيـل يُوسِعُها ... ريًّا ، ويشفيها من الكمـد

فما أجمل هذه الصورة فى الأدب السياحى ، التى جَعَلَت من مصر صدر الأرض ، وأن الهرمين ظلاّ نهدين لها رغم كثرة ما أنجبت من أجيالٍ ، يُرضعاها من ماء النيل الحنون . ولا يحق لنا أن نتجاهل ما كتبه الجاحظ عن عجائب الدنيا ، فقال : إنها : « ثلاثون أعجوبة ،

عشرة منها بسائر البلاد ، والعشرون الباقية بمصر ، وهى « الهرمان » وهما أطول بناء وأعجبه ، ليس على الأرض بناء أطول منهما ، وإذا رأيتهما ظننت أنهما جبلان موضوعان ، ولذا قال بعض من رآهما : ليس شيء إلا وأنا أرحمه من الدهر إلاّ الهرمان ، فأنا أرحم الدهر منهما ، وصنم الهرمين رابض بينهما ، وتسميّه العامة : أبا الهول ، ويقال إنه طلسم الرمل ؛ لئلا يغلب على الجيزة ... لنترك الجاحظ يعدد بقية الأعاجيب العشرين بمصر صعيدها واسكندريتها . ولنمتّع النظر فيما كتبه المحدثون عن آثار مصر نثرًا وشعرًا .

وأول ما يخطر على البال قصائد البارودى السياحية، حيث عاش بجانب الأهرام شهرًا يتأملها ويقول مؤكدا رسوخها ..

بنــاءان ردّا صولة الدهر عنهما ... ومن عجب أن يغلبا صولة الدّهر
أقاما على رغـم الخطوب ليشهدا ... لبانيهمـا بين البريّـة بالفخــر
فكم أمم فى الدهـر بادت وأعصر ... خلت، وهم أعجوبةُ العين والفكر
تلـوح لآثـار العقـول عليهمـا ... أساطير لا تنفكّ تتلى إلى الحشـر
رموزٌ لو استطلعت مكنون سرّها ... لأبصرتَ مجموع الخلائق فى سطْر
فمـا من بنـاء كان أوْهـوَ كائـن ... يدانيهمـا عنـد التأمّـل والخُبْر
يقصّر حُسْنًا عنهما صرح بابــل ... ويعترف الإيـوانُ بالعجز والبُهْر
فلو أن هاروت انتحى مرصديهما ... لألقى مقاليـد الكهانة والسّحْر

وهى قصيدة امتلأت برصانة اللغة ، وسعة النظرة المقارنة ، واللفظات العربية الفصيحة ، وهى فى الوقت نفسه كفنّ شعر تصعب ترجمته إلى لغات سياحية تُحافظ فيها على جزالة الصياغة العربية المتوافرة لديه ، خصوصًا إذا ما تذكّرنا أن البارودى هو محيى الشعر العربى القديم بلا جدال ، والذى كان يتمسك فيه باستخدام كلمات تصعب على المواطن العربى نفسه .. انظر مثلاً إلى هذين البيتين الذى يصف بهما أبا الهول .. فيقول ..

أكبَّ على الكفيّن منه إلى الصَّدر ... وبينهما «بلهيب» فى ظل رابض
كان له شوقًا إلى مطلع الفجر ... يقلب نحو الشرق نظرة وامق

والمقصود ببلهيْب أبو الهول ، فما المانع لو قالها بُلْهوْل مثلاً ، وما المانع لو استخدم كلمة عاشق بدلاً من وامق هذه !! لن ينكسر البيتان بالطبع .. ولكن الإغراب فى استعمال اللفظات المهجورة ، هو الذى حدا بالبارودى أن يصعبّ الأمر على قارئ قصيدة سياحية هنا ، مع أنها اشتملت على معنى جديد وهو اشتياق أبى الهول إلى مطلع الفجر بنظرته إلى الشرق ، كذلك ما تلاها من أبيات تضمنت معانى مبتكرة .. كاحتواء الأهرام على مصانع للعلوم ومعامل للبحوث للتأمل فى العلوم الغامضة التى لم تصل إلى سرّها بعد ، وارتفاعها لتكون مقرًّا للنجوم ولتكون آيات تدل على عظمة الإعجاز الإنسانى .

ويجب أن نعترف كذلك بالتفات الشاعر إلى حاضر بعض الصخور

التى حطّمها الزوّار وضيّعوا معالم الكتابة المنقوشة عليها ، وما كانت تشير به إلى ثروات وكنوز ، وهذه فى حدّ ذاتها نظرة حضارية متقدّمة من البارودى تستنكر الاعتداء على الآثار ، ولوْ أن البارودى فاته أيضًا الإشارة إلى لصوص الآثار الذين وُجدوا فى عصور مختلفة . ومع ذلك شفع له هذا النسيان ما ساقه شاعر آخر معاصر له هو إسماعيل صبرى يستنهض همم أبناء الحاضر من تلك الأمجاد التى تركها الفراعنة على لسان أحدهم ..

لايثْن مستمعًا عن طاعة ثان — أمْرتكُمُ ، فأطيعوا أمْر ربِّكُمُ
جنبًا لجنب إلى غايات إحسان — فالملك أمْر وطاعات تسابقه
حتى يميط لكم عن وجه إمكان — لاتتركوا مستحيلاً فى استحالته

وفى نفس الاتجاه تناول الداعية الإسلامى جمال الدين الأفغانى آثار مصر الفرعونية بما فيها من شموخ وعزة وكرامة ، فيستحثّ المصريين بقوله :

« انظروا أهرام مصر ، وهياكل منفيس ، وآثار طيبة ، ومشاهد سيوة ، وحصون دمياط ، فهى شاهدة بمنعة آبائكم وعزّة أجدادكم ، هبّوا من غفلتكم ، اصحوا من سكْرتكم ، عيشوا كباقى الأمم أحرارًا سعداء » .

فكلاهم استخدم إبهار الآثار فى الكشف عن معنى لأبناء الحاضر ، يشاركون فى الإعجاب نعم ، وأيضا الاستجابة لما انطوت عليه من

إباء وعزّة ومنعة ، وفي هذا يتوافر عنصر عدم المباشرة فى الدعاية للآثار التى يستهدفها الأدب السياحى . والشاعر إسماعيل صبرى لا يكتفى فى استنطاق فرعون بأوامر لبنى وطنه من المصريين ، بل يجعلهم يردّون بالطاعة والعزم على حمل الأمانة عندما يسوق على ألسنتهم :

*

مقالةٌ هبطت من عرش قائلها ... على مناكب أبطالٍ وشجعان

مادتْ لها الأرض من ذُعْر، ودان لها ... ما فى المقطّم من صخر وصوّان

لو غيرُ فرعون ألقاها على ملأ ... فى غير مصر لعدَّت حُلمَ يقظان

لكنّ فرعون إن نادى بها جبلا ... لبّتْ حجارتُه فى قبضة البانى

وهنا لا يفوتنا ما أسهم به أمير الشعراء من سهام وافرة فى الأدب السياحى ، فهو لم يكتف بما جمعه الآخرون من معان فى تمجيد آثار مصر عامة والأهرامات خاصة ، ولم يقنع بتعصير وجودها بيننا ، وإنما أضاف إليها مما مرّ من أحداث فى التاريخ الحديث فيخاطب نابليون وهو مدفون فى قبره بقوله :

قم إلى الأهرام، واخشَعْ، واطرح ... خيلة الصِّيد وزهو الفاتحين

وتمهّل ؛ إنما تمشى إلى ... حرمِ الدَّهر ، ومحراب القرون

هو كالصخرة عند القبط، أو ... كالحطيم الطهر عند المسلمين

أين « نَسْر » قد تلقّى قبلكم ... عظة الإجيال من أعلى بناء

جرح الأهرام فى عزّتها ... فمشى للقبر مجروح الاباء

والنسْر هنا بالطبع يريد به شوقى نابليون نفسه ، الذى يناجيه محذرًا .

وتسنّـــم منبرًا مـن حجـــرٍ　　لم يكن قبلك حظٌّ الخاطبين
وأعـدهـا كلمـــاتٍ أربعًـــا　　قد أحاطت بالقرون الأربعين
ألهبت خيلا ، وحضّت فيلقا　　وأحالت عسلا صاب المنون

ويكاد أن يوخز بنى وطنه مصر لوْمًا وتأنيبًا بقوله :

عظـــة قـــومى بهــــا أوْلى ، وإن　　بعـــد العهـــد ، فهـــل يعتبرون
هـــذه الأهــــرام تــاريخهـمـــو　　كيــف من تاريخهــم لايستحون

وهذا بالطبع استثناء فى الأدب السياحى ، إذ لا يقبل هذه الأبيات المقرعة إلا من كانوا من بنى جلدته ، لأنه لو كان غريبًا أو سائحًا ، لّما تقبّل منه هذا النوع من التقريع ، وما أثر فى نفوسهم اللهم بالسلب أو العكس ، لكن شوقى الشاعر ، يطلق هذه الأبيات من منطلق الغيرة على ماضى وحاضر مصر ، إن هذا الشعور لم يتخلّ عنه حتى وهو فى منفاه بالأندلس ، فأضاف معنى جديدًا فى قصيدته السينية :

وكأن الأهرام ميزان فرعون　　بيــومٍ على الجبـابر نحْسِ

وكذلك فى قصيدته النونية :

كأن أهرام مصر حائط نهضت　　به يدُ الدّهر لا بنيـــان فانينـــا

وفى اتجاه الإعجاب بآثارنا أضاف الشاعر المصرى الشيخ محمد عبد المطلب الفخر بها والخيلاء على سائر شعوب العالم .. فيقول :

لنا آية الأهـرام يتلو قديمهـا حديثُ الليالى، فهى فى فمها ذكر
ملأنا بهـا دَوْح الوجـود مناقبـا إذا ما خـلا عصرٌ تلاها بـه عصر
وللعلـم من آثارنـا فى جبالنـا على الدهـر آياتٌ بها ننطق الصخر
إذا جهلوا مينا وخوفو وخفرعًـا فليس برمسيس على ملكـه نكرْ
لنا كل مـا فى الأرض من مدنيـة بها تعمُر الأمصار والبلد القفر

إلا أننا أمام هذا التفاخر والتيه ، لا يسعنا إلا أن نحب رؤية ما تفاخر به محمد عبد المطلب من آثار ، ونسى أن يصف لنا مواطن العظمة التى دفعته إلى ذلك ، قد يقول قائل إنه ليس نسيانا من الشاعر ، بقدر ما هو تعمدّ إخفاء المحاسن زيادة فى التشويق ، ويكفى المشتاق لواعج الحب التى أشعلت فى قلب الشاعر نار الفخر والإعجاب !! ومع ذلك نقول إن الأدب السياحى ، إذا كان يرحّب بمفاخرة ورثة الآثار ، لكنه لا يقبل من عارض سلعة الآثار غرورا أو تعاليا على ضيوف السياحة .

من كل ما عرضناه ، لاحظنا أن التناول الأدبى السياحى لآثارنا الفرعونية ، قد فاز الأهرامات بالنصيب الأوفر ، ولو التْزمنا الدقة أكثر ، لقلنا إن الهرميْن الأكبر والأوسط على وجه التحديد هما اللذان انْفردا بالإعجاب والوصف والتخيّل والاستنتاج والكشف عن حقيقة الهدف من بنائهما ، أما الهرم الأصغر فلم يرد له ذكر دونما سبب ، اللهم إلا طغيان حجم الأوّلين عليه ، وربما تحكّم خيال الشعراء فى

قصرهما على اثنين ليسهل تشبيههما بالثديين على صدر مصر ، ومن هنا يحق لنا أن نضيف أن اقتطاع جزء من أثر أثار الإعجاب ، لا يبيح تجاهل سائر الأجزاء فى المساحة التى تشغلها هذه الآثار .. لتكون الصورة السياحية مكتملة الأمانة فى نقلها إلى الأدب السياحى ، ويكتفى هنا ولو بالإشارة العابرة .

لهذا نجد القليل من أصحاب الأقلام الذين تناولوا ما جاور الهرمين من آثار مثل شوقى الشاعر فى إبداعه قصيدته الرائية فى أبى الهول :

أبا الهول ، لو لم تكن آية ... لكان وفاؤك إحدى العبر
أطلتَ على الهرمين الوقوف ... كثاكلةٍ لا تريم الحفر
ترجى لبانيهما عودة ... وكيف يعودُ الرَّميمُ النَّخِر
تجوس بعينٍ خلال الديار ... وترمى بأخرى فضاء النَّهر
ومهدَ العلومِ الخطير الجلال ... وعهد الفنون الجليل الخطر
فلا تستبينُ سوى قرية ... أجدَّ محاسنها ما اندثر
تكاد لإغراقها فى الجمود ... إذا الأرض دارتِ بها لم تدُر
فهل من يبلّغ عنّا الأصولَ ... بأن الفروع اقتدت بالسيَرْ
فلم يبق غيرُك من لم يخفّ ... ولم يبق غيرُك من لم يطرْ
تحرك أبا الهوْل ، هذا الزمان ... تحركَ ما فيه حتى الحجر

وليس الأمر مقصورًا على الأهرام أو أبى الهول ، وإنما سائر ما شُيِّد

على ضفتىْ من جنوبه إلى شماله من تماثيل وهياكل ومقابر ، تنبّه إليها أدباؤنا الأجلاء فتناولها بعضهم بالوصف فقط ، وتحسّر بعضهم على عدم العناية بها ، وتأسّف بعضهم لإقلاق راحة ملوك الفراعنة ونبش قبورهم لعرض مومياواتهم على المتفرجين دون إجلال أو احترام .

أين الأُلَى سجلوا فى الصَّخرِ سيرتهم
وصغّـروا كلَّ ذى ملك وسُلطـــان
بـادوا ، وبـادت على آثارهـم دُوَلٌ
وأدرجـوا طىَّ أخبـارٍ وأكفـان
وخلّفـوا بعدهـم حربًا مخلّــدة
فى الكون ما بين أحجـار وأزمـان
وزُحزِحوا عن بقايا مجدهم ، وسطا
عليهمُ العلم ، ذاك الجاهـل الجـانى
ويلٌ لـه ، هتك الأستار مقتحمـا
جـلال أكـرمِ آثـار وأعيـان
للجهـل أرجحُ منـه فى جهالتـه
إذا همـا وُزِنـا يومًـا بميـزان

ومع ما فى اتهام إسماعيل صبرى للعلم وعلماء الآثار من تجوّز ،

فكشفَ ستر أولئك الملوك بنبش قبورهم ، وعرضها على الملأ ، ليس فضحًا لهم أو امتهانًا لأجسادهم المسجاة ، إلاّ أننا نقدّر شعور شاعرنا نحو جثث الموْتى وتوفير السكينة لها ، ومع ذلك لا يصح أن نتجاهل جهود هؤلاء العلماء الذين أبرزوا حقيقة أن مصر وأرضها يحتضنان ما يقرب من نصف آثار العالم أجمع ..

ولذلك تدارك شوقى الأمر بما كتبه نثرًا فقال يصف قصر أنس الوجود بأسوان : « الأثر المحتضر ، الذى جمع العبر ، ومحاه الدهر أو كاد ، وكان إحدى آياته الكبرى ، هياكل لفرعون وبطليموس ، توارثها عن الكهنة القسوس ، وصارت للمسيح ، وكانت لهوروس ، ثم ظهر الأذان فيها على الناقوس ، ثم لا تكون عشية أو ضحاها حتى يهوىَ فى الماء كل حجر كان يقبلّ كالأسود، وكل ركن كان يُسْتَلَم كالحطيم».

ويتخيّل أعمدة القصر عذارى أمسكن بأيدى بعضهن خوفا من الغرق فى النيل

قف بتلك القصور فى اليمّ غرقى ممسكًا بعضها من الذُّعْرِ بعضا
كعذارى أخفين فى الماء بضًا سابحات به ، وأبدَيْن بضّا

ومن الصور الجميلة التى صاغها لنا أمير الشعراء ، قبور الفراعنة

التى جعلها لتوافر كل أنواع الطعام وصحافها فيها ، مثل الفنادق الحالية الممتلئة بما لذّ وطاب من صنوف المأكولات والمشروبات ، ورحابتها التى لا تضيق بنزلائها .

للمــوت ســرٌّ تحته ، وجــداره سور على السرِّ الخفىّ ، وخندق
وكأنّ منزلهــم بأعمــاق الثــرى بين المحلّـــة والمحلّـــة فنــدق
موفــورةٌ تحت الثرى أزوادهـــم رحبٌ بهم بين الكهــوف المطبق

ولم يكن ليكتفى باعطائنا هذه الصورة المجانسة بين الحاضر والماضى ، إلا برسم صورة أخرى لما كان يقوم المصريون القدامى من زيارة للقبور والهياكل فى طيبة أو وادى الملوك أو الأشمونين ، كالحجيج بقواربها على صفحة النيل .

وجرت زوارقُ بالحجيج كأنها رُقْطٌ تدافع ، أو ســهام تمرقُ
من شاطئٍ فيــه الحياة لشاطئٍ هــو مضجعٌ للسابقين ، ومرفق

ثم يعود إلى مزج الماضى بالحاضر ، إذ يواصل الزوّار المحدثون حجيجهم إلى هذه القصور الشامخة

وتنادم الأحياء والموتى بهــا فكأنهم فى الدهر لم يتفرقوا

ومن هذه المقابر التى نالت شهرة عالمية وقت اكتشافها ، مقبرة توت عنخ آمون ، لأنها ظلّت من حسن الحظ مخبوءة عن أعين الفضوليين وأيدى العابثين ، فلما توصّل العلم إلى اكتشافها وفتحها ، فبهرت العالم أجمع بمحتوياتها وتابوت الملك الشاب وموميائه .

لهذا تلقف شوقى أيضا هذا الحدث الخالد بالتسجيل والتبجيل

جـــلالُ الملك أيَّـــامٌ ، وتمضى
ولا يمضى جـــلال الخـــالدين

وقولا للنزيـل : قـــدوم ســـعد
وحيّـــا اللهُ مقدمـــك اليمينـــا

ســـلام يـــوم وارتْكَ المنايـــا
بواديهـــا ، ويـــوم ظهـــرتَ

خرجتَ من القبور خروج عيسى
عليـــك جلالـــة فى العالمينـــا

يجـــوب البرقُ باسمك كلَّ سهْل
ويخترق البخـــارُ بـــه الحزُونـــا

من المؤكد أن أمير الشعراء قد أدرك معنى الخلود الذى كمن فى هذه المقبرة وغيرها من المقابر والهياكل ، فتابعها بقصائده الطوال ، لعلّها تكتسب معنى الخلود منها ، وهذا هو ما أفلح فيه شوقى ، وما يجب أن ينهج بنهجه كل من يريد لأدبه الخلود ، خصوصًا أن وعيه بهذا المعنى لم يلهه عن حاضره ، فزاوج بينهما ، حتى فى قصيدة توت عنخ آمون هذه ، فخاطب توت عنخ آمون مبلغًا :

زمـان الفرد يا فرعـون ولّى ودالـت دولـة المتجبّرينـا
وأصبحت الرعـاة بكل أرض على حكـم الرعيّة نـازلينـا

وتتابع أدباء الشعر ، فنسجوا قصائدهم على هذا النهج عندما نقل تمثال رمسيس من البدرشين ليقام فى ميدان بالقرب من محطة مصر ، فقال أحدهم :

مـن وراء القـرون والأجيـال عاد، لكن فى صورة التمثال
عـاد يزهو فى موكب من فخارٍ صامت القول ناطـق الأفعال
فارع الطولِ شامخ الأنف يبدو رائع الفنّ، عبقـرى الجمال
فى يديـه صحيفة القـدر الغالب مكتوبةً بروح النضالِ
من بطون التاريخ ينشر ألوانًا من الزّهر والنقوش الغوالى
دبّجتْها الأكفّ من شعب مصر صانع المجد فى العصور الخوالى
ساكب الرّوح فى المعابد والأهرام تجرى مكهرب سيّال
فهو رمـز العلا لشعب أبىٍّ بين أقرانه ، عزيز المنـال

وشاعر آخر مجيد ، أكثر تمكّنا من أدواته ، فيهنّئ رمسيس بعودته منتصبًا بعد تخلّص مصر من المحتلّ ، ويطلب منه النصح لدفع الخطر المحدق بها من الشرق ، فيقول :

رمسيس ، لوْ فى مصر قبل اليوم لحُت للنظر
لـكان أخـزاك الذى يلقـاك فيهـا من خوَرْ
وكان رأسـك انحنى و كان قلبـك الفطـر

ورُمْت لو عُذْت إلى الصحراء زهدًا فى الحضَر

هـذا هو المحتل يجلو بعدمـا فى مصر قرّ

سبعين عامًا عاث فيها ، واسترقّ وهدر

حتى أتاهـا قـــدَرٌ من جانب الغيب ظهر

فاجتثّ ، واجتثّ ، ونمّى ، وبنى ، ثم عمر

رمسيس، يا سليل « رع » سل رع يقى مصرَ الخطر

ما زال فى الشـــرق لنــا خصـــم كخصمك انتظر

يـا ليتنـــا فى «قــادش» أخـــرى لقينـــاه ، ففـــرّ

آثارنا القبطية والإسلامية

لكن آثار مصر القديمة ليست وحدها التى تمتعت بالكتابة عنها ، وإنما شاركها فى هذا القاهرة وأحياؤها القديمة ، ومن ثم منها فى الأدب السياحى آثارها الإسلامية والقبطية ، تلك الآثار الإسلامية والقبطية ، تلك الآثار التي وجدنا من هذه الكتابات ما يكثر لدى المستشرقين والأدباء الروائيين والفنانين الشعبيين ، وغيرهم من الرحّالة .

يكفيك أن تملى ناظريك فى وجهى الجنيه المصرى ، أحد الوجهين زيّن بصور تماثيل فرعونية خالدة ، أما الوجه الآخر من الجنيه فيحمل رمزًا إسلاميًا شامخًا لأكبر المساجد المملوكية حجمًا ومساحة ، مسجد برقوق المتعدد الأغراض مع تأدية الصلاة ، فهو مدرسة لتعليم المذاهب الأربعة والعلوم الشرعية ، وهو خانقاه لتعبّد الصوفية ، كانوا يبيتون فيه ويأكلون ويشربون مع التفرّغ للعبادة كما لو كانوا فى عكوف دائم ، وهو أيضًا مقبرة لأسرة سلطان مصر الظاهر برقوق ، لقد استغرق بناؤه اثنتى عشرة سنة منذ سبعة قرون ، ولو قصدته لوجدت

واجهته الغربية تعلوها مئذنتان جميلتان ، وفى واجهته الشرقية تربض قبّتان كبيرتان بينهما ثالثة صغيرة فوق المحراب ، ولو تأملت النقوش لوجدتها محفورة فى الحجر خارج القباب بزخارف بنائية وهندسية آية فى الدقة والإبداع ، مما يدل على أنها من عصر المماليك الجراكسة الذين تلوا المماليك البحرية .

معذرة فالعملة الورقية هى التى جعلتنى أتخطى التسلسل التاريخى للآثار الإسلامية فى الأحياء القديمة بمصر القاهرة ، ذلك لأن العملة والحصول عليها عماد الخدمات السياحية ومبتغاها .

القاهرة قبل وجودها

ولنرجع إلى الخلف فى الزمن الغابر لندخل مع من قدموا إلى مصر هذه المواضع التى نُسب ،كل حيّ منها إلى ما بنى فيها من مساجد ومدارس وقلاع ، بل وفنادق أيضًا .

ندخل القاهرة قبل وجودها ، من عند حصن نابليون جنوبها ، من حيث جاء عمرو بن العاص فاتحًا ومبشرًا ، ووصفها يوم أن جاءها فقال : « تربة مصر غبراء ، وشجرة خضراء ، يخطّ وسطها نهر ميمون الغدوات ، مبارك الروحات ، يجرى بالزيادة والنقصان » .

لن نجد لمدن الفسطاط والعسكر والقطائع من آثار غير مسجدى عمرو بن العاص وأحمد بن طولون ، ذلك لأنها طالتها ألسنة الحرائق ، وعوامل البلى التى تزيل ما بنى بطوب اللبن ، وإحلال المساكن والمنشئات الأحدث منها بطوب محروق أو حجارة صمدت لتغييرات الأجواء وتعديلات الحكام والسلاطين ، كذلك بقى بجانب أعرق مسجد فى القارة الأفريقية ، كنيسة أبى سرجة التى اختبأت بقبوها السيدة العذراء ، ووليدها نبى الله عيسى عليه السلام ، وبعد تركهما

لمدينة أون بعين شمس هربًا من الحاكم الرومانى بفلسطين ، فاستراحت العائلة المقدسة تحت الشجرة التى عرفت فيما بعد باسم شجرة العذراء ، حيث حدثت معجزة السيد المسيح بتفجّر عين مياه عذبة ارتوى منها الجميع ، وخلدت الشجرة بهذه الذكرى المقدسة ، حتى الآن ، وهى قائمة فى كنيسة العذراء بحىّ المطرية التى انتقل منها موكب العائلة المقدسة إلى الجنوب فى موضع كنيسة أبى سرجة .

ولما كان الشىء بالشىء يذكر ، فلقد عثرت على سطور كتبها الأديب المصرى حفنى ناصف ، بحث بها عن أصل اسم قريته « الحفنى » فاكتشف وجودها بجوار أثر عزيز آخر فى أراضى الأشمونين بالمنيا ، البيت الذى عاشت فيه السيدة مارية القبطية التى أهداها المقوقس عظيم القبط فى مصر إلى سيدنا محمد ﷺ ، فقبل الإهداء وتزوجها ثم أنجب منها إبراهيم الذى توفّى بعد ثمانية عشر شهرا ، فكتب يقول : « قال الإدريسى : هذه المدينة هى مدينة السحرة التى جلب منها كل ساحر عليم لمغالبة موسى عليه السلام » ... « وقد اهتم بهذه القرية أجلاء الصحابة والتابعين ، فقد اشترط الحسن بن علىّ رضى الله عنه على معاوية فى ضمن ما اشترط ، أن يعفى هذه القرية (حفن) من الخراج فأعفاها معاوية من الخراج ، ولما قدم إلى مصر عبادة بن الصامت أيام عمرو بن العاص ، وتولّى بعض الأعمال بها ، بحث عن هذه القرية وبنى بها مسجدًا يعرف

للآن باسم مسجد سيدى عبادة ، والذى كنت أتعب نفسى فى التنقيب عليه وجدته مشهورًا عند أهل هذه القرية ، فإنهم يعرفون أن الأطلال التى بجانبها هى أطلال أنصنا ، وأن قريتهم (الشيخ عبادة) هذه موقع قرية حفين ، ويقولون إن المسجد الذى بناه عبادة بن الصامت فى موضع بيت مارية سريّة النبى ﷺ . فانبهرت من معلومات أهل هذه القرية وجهلى أنا قبل أن أبحث هذا البحث ، وقلت لنفسى : « أهل البيت أدرى بالذى فيه » .

ومن اتفاق الغرائب التاريخية لآثار مصر ، أن الحديث عن سحرة فرعون موسى ، يضطرنا إلى القفز ثانية إلى جنوب الأحياء القديمة للقاهرة ، مصر القديمة ، إذ نجد أثرًا يعتز أتباع الديانة الموسوية باحتوائه وزيارته ، حيث معبد مقام عند مكان إلقاء أم موسى بابنها النبى فى صندوق بالنيل إنقاذًا له من قرار فرعون مصر بقتل أبناء هذه الطائفة تأمينًا لملكه !! ورسا الصندوق كما هو معروف بالقرب من قصر فرعون شرق النيل ، ورفض الوليد أن يرضع فى قصره إلا بمن أشارت عليهم أخته ، وتفد الأم إلى قصر فرعون لتحتضنه عائدة به إلى مسقط رأسه ترضعه .

أى أن الشطّ الغربى لنيل مصر القديمة قد زخر بآثار ذكريات دينية خالدة ، اعتزّ بها أبناء مصر فضلاً عن أتباع الديانات الثلاث خارج مصر وأجيالهم السائحين .

ثم جاء الفاطميون إلى مصر ، واستقرّوا بدولتهم بعد أن أنشأ قائدهم جوهر الصقلّى القاهرة لمقامهم ، وطوال المائتى سنة التى بقوها بيننا ، اتسعت القاهرة باتساع الدولة الإسلامية شرقًا وغربًا ، وربطت بين آثار الجنوب فى مصر القديمة وبين آثار الشمال فى عين شمس والمطرية ، فكانت أداة الربط سلسلة من المآذن الإسلامية تعدّت الألف مئذنة ، مما يوحى بالمساحات الفسيحة التى شغلتها المساجد المتنوعة الطراز ، تبعا لأرومة السلاطين الذين تتابعوا على حكم مصر وتنافسوا فى هذا المضمار - بناء المساجد - كلّ حسب الدافع الحقيقى لما بناه .

وإذا كان حق للفراعنة أن يتباهوا بالأهرام وأبى الهول كعجائب عالمية مُعجزة ، فمن حق أبناء مصر أن يختالوا ببناء مسجد واحد طاول الهرم فى شموخه وعظمته وإعجازه .. ألا وهو مسجد السلطان حسن بن محمد بن المنصور قلاوون .. وإن كان الهرم الأكبر قد استغرق بناؤه عشرين سنة ، فقد استغرق تشييده نصفها ، اسمع معى الورتيلانى ذلك الرحّالة المغربى الذى زار مصر فى القرن الثانى عشر الهجرى وهو يقول فيه :

« إنه مسجد لا ثانى له فى مصر ولا فى غيرها من البلاد فى فخامة البناء وارتفاعه وإحكامه ، وإتساع حناياه وسعة أبوابه ، كأنها جبال منحوتة ، تصفق الرياح فى أيام الشتاء بأبوابه كما تفعل فى شواهق

الجبال ، وفى أحد أبوابه سارية رخامية لطيفة يقال إنها من إيوان كسرى ، وفيها نقوش عجيبة » .

نعم فيه نقوش عجيبة ، سواء المنقوش منها على الحجر أو الرخام أو الخشب ، أو المحفور منها على النحاس المكفّت بالذهب أو الفضة ؛ أو المرسوم منها على الزجاج المموّه بالمينا ، جعلت المسجد بحق أروع العمارات الإسلامية ، وآية فنية فى جمالها وجلالها لا مثيل لها فى الشرق قاطبة .

وهذا أيضًا ما شهد به المقريزى بقوله : « لا يعرف فى بلاد الإسلام معبد من معابد المسلمين يحاكى هذا الجامع ، وقبته لم يبق بديار مصر والشام والعراق والمغرب واليمن مثلها » .

تعال بنا ندخل هذا البناء الشامخ ، هيا اخلع نعليك أو البس خفين بقدميك ، واخط معى أولى الخطوات اليمنى ، تقدّم لنقف فى الصحن المكشوف ، ها هى القبة الخشبية التى تظلل فسقية الميضأة محور الصحن ، وأينما التفتّ تجدحولك أربعة إيوانات متعددة الأضلاع ، كانت فى البداية مدارس للمذاهب الأربعة ، وكل مدرسة من تلك المدارس تتكون من إيوان وصحن تتوسطه فسقية أخرى ، وكانت تعلو كل مدرسة فيها منارة ، تهدمت منها اثنتان ، وظلّت الأخريان تطاولان قلعة الجبل أمامها بالميدان ، بينما تفصلهما من الواجهة الشرقية قبة ضخمة ، وربما أوحى هذا البناء الضخم لبعض المماليك أن يتخذوا

منه حصناً يتحصّنون به عندما يقاومون سلطاناً جديداً فى قلعة الجبل ، مما تسبب فى إصابة أجزاء منه ، ونهب بعض فرشه وقناديله ومشكاواته ، لكن ما بقى ظلّ كافياً للمباهاة به بين درر العمائر ، كما ظلّت رسالته الخالدة تمارس فيه .. الصلاة وتحفيظ القرآن والتدرّب على الخط العربى الجميل وتدريس العلوم الشرعية ، على مساحة فدانين اثنين .

ولم يقتصر الوافدون من الرحالة القدامى العرب على الورتلانى والمقريزى ، وإنما جاء أيضًا المقدسى وابن حوقل وابن دقماق والعسقلانى وأبو شامة المقدسى فضلاً عن ابن خلدون والرحالة الفارسى ناصر خسرو ، كما جاء من الفرنجة كثيرون من بينهم غليوم رئيس أساقفة الحروب الصليبية ، وجوستاف شامبرجه ولين بول وكريزويل وماسبرو ، وكثيرون غيرهم جاءوا إلى مصر ينتهلون من معين حضارتها وآثارها .

أى أن القدوم إلى مصر بدأ منذ أقدم العصور ، وكان المصريون دائمى الترحيب بهم ، وإبداء كل مظاهر الكرم لهم ، سواء كانوا مسلمين يعايشوهم أو أهل كتاب يباسطوهم .

لذلك فإن كلاً منهم تبارى فى وصف ما رأى ، وتمجيد ما انبهر به من رؤى ، ولوم الأيدى التى عبثت بها أو عجزت عن صونها ، فكان لمصر النصيب الأوفى من الوصف والترحال إليها ، ومن ثم صارت أحقّ من غيرها فى تقديم هذا الأدب السياحى .

الجامع الأزهر وأجياؤه

ويأتى الجامع الأزهر على قمّة ما حازته الآثار الإسلامية من ذكر وتوصيف ، ومتابعة على مرّ الدهور من جوْر عليه أو إضافة إليه ، حتى استقرت أوصافه ، باتساع أعطافه ، فإذا أردت أن تتسم عبير ماضيه فى عهد إنشائه ، اذهب إلى متحف الفن الإسلامى لترى بابًا من الخشب التركى ذا مصراعين ، فى كل مصراع سبع حشوات مستطيلة ، تتضمن العليا منها كتابات كوفية مورقة ، نقشت بالحفر البارز ، نصها : « مولانا أمير المؤمنين ، الحاكم بأمر الله ، صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه » أما بقيةُ الحشوات فيعلوها زخارف نباتية محفورة حفرًا عميقًا ، وإذا ما دققت النظر قليلاً ، علت وجهك ابتسامة غامضة ، لأن الحشوات المكتوبة عليه قد قلبت ، لا تضحك عاليًا فجلّ من لا يسهو ، لقد حدث ذلك عند إصلاحها وإعادة تركيبها !!

كذلك ترى فى المتحف محرابًا من الخشب المنقوشى ، يعلوه لوح نقشت عليه كتابات تذكارية بالخط الكوفى المورق ، مفادها أنه صنع برسم الجامع الأزهر فى زمن الخليفة الآمر سنة ٥١٩ هـ ..

أمّا إن أردت العثور على البقايا الفاطمية فى الجامع نفسه منذ عهد جوهر الصقلى بانيه ، فلندلف سويا إلى داخله ، لنرى عقود المجاز الأربعة الأولى من الجانبين وقد امتلأت بزخارف وكتابات كوفية ، وحول الشبابيك الجصية المتبقية فى جوانب ثلاثة من الجامع شرقية وغربية وجنوبية عند رواق القبلة ، كذلك نرى المحراب الكبير الأصلى بكتاباته ونقوشه ، وزخارف وكتابات أخرى على مؤخر الجامع من داخل رواق القبلة ، وأيضًا القبة التى تقع على رأس المجاز من جهة الصحن من عصر الخليفة الحافظ لدين الله .

يبقى ما نراه الآن من تعديلات وتغييرات بعد أفول نجم الدولة الفاطمية ، وإيقاف صلاة الجمعة به ما يقرب من القرن ، جارت عليه خلاله أيدى العبث والاغتصاب ، حتى حلّ عصر السلطان الظاهر بيبرس ، الذى أمرَ بردّ كل ما اغتصب من ساحة الأزهر من أراضى . وإصلاح وإعمار كل ما وهى من سقوفه وجدرانه وأركانه ، وصنع له منبرًا ، وكسا الجامع بالفرش ، وأقيمت فيه صلاة الجمعة ثانية منذ سنة ٦٦٥ هـ .

ومنذ هذا التاريخ أخذ الجامع يتزايد أمره ، فلم يعد يقتصر التدريس على مذهب دون غيره ، وإنما زاد ليضمّ سائر علماء الفقه بمختلف مذاهبه ، وتعددت نوبات الإعمار فيه حتى بلغت ثلاثة وعشرين إعمارًا على مدى عشرة قرون (منهما إعماران بسبب زلزالين فى عامى

٧٠٢ هـ ، ١٢٢٩ هـ .) إلى أن استقر على ما هو عليه الآن من رواقين يمثلان حرم الأزهر الشرقى ، رواق كبير يلى الصحن وهو الأقدم ، ويمتد باب الشوام إلى رواق الشراقوة ، ورواق آخر أُحدث يلى الأول ، ويرتفع عنه بعدة درجات ، ويتميّز سقف الرواقين بدقة صنع خشبه ، وارتكاز عقودهما على عمد من الرخام الأبيض ، يزيد عددها على ٣٨٠ عمودًا ، جلبت تيجانها من المعابد والكنائس القديمة التى كانت منتشرة فى الجيزة وأبى صير وسقارة وميدوم والفيوم وغيرها . إننى الآن أسمع أذان الظهر ، وحانت الصلاة ، هيّا نلحق صلاة الجماعة ، وها هى جماعة كبيرة أخرى من السياح الأجانب ، تقف فى صمت منتظرة فراغنا من الصلاة ، يا لله ، كلها بيوت الله ، الله أكبر ، ..

ها هى أروقة الجامع باسم الله ما شاء الله قد زادت فبلغت تسعة وعشرين رواقًا ، فى حرميه الشرقى والغربى ، وبلغت المحاريب ثلاثة عشر محرابًا ، بالإضافة إلى محاريب المدارس الملحقة بالجامع ، كما بلغت المآذن السامقة فوق جدرانه خمس مآذن ، ومن ثم فلو أحصيت عدد الحارات التى تتخلله لوجدتها أربع عشرة حارة ..

كلها تزدحم بالمساجد والآثار الإسلامية ، فتتكون منها كتلة ثمينة نادرة من الدُّررَ المقدسة ، لكن الأمر لم يقتصر فى حىّ الأزهر الشريف على هذه المساجد العتيقة ، وإنما تجد بنايات أثرية أُخرى ، تعتبر فى نظر الخدمات السياحية سبقًا فريدًا فى دنيا الفندقة ، وأعنى على رأس

البنايات وكالتى الغورى والخليلى ، إذ أن النشاط التجارى الذى ساد مصر فى عهود المماليك فأنعش الحالة الاقتصادية فيها ، دفع بسلاطينهم إلى بناء أسواق يلتقى فيها التجار القادمون من الشرق والغرب ، وأيضا تشييد دور لسكناهم بجانب هذه الأسواق مدة إقامتهم بمصر ، ولا يزال باقيا منها حتى الآن خان الخليلى وخان الحمزاوى وخان جعفر ، ووكالة الغورى ووكالة قوصون ، والنحاسين والسكرية ، والخيمية والفحامين وسوق السلاح ، وبالطبع كان من المتوقع أن تصبح مصر قبلة التجار من كل أنحاء العالم كافة ، مما صار محتمًا إيجاد أماكن لسكناهم بالقرب من الأسواق مجال نشاطهم التجارى .

ولحسن الحظ أن تنبّهت الأجهزة الحكومية المختصة بالآثار ، ترميم وتجديد وكالة الغورى ، التى تقع جنوب غربى الجامع الأزهر بشارع التبليطة ، وهى تتألف من صحن أوسط مكشوف ، تحيط به المخازن التى تشغل الدور الأرضى ، وتعلوها المساكن الصغيرة كطوابق علوية ، ولا تزال الوكالة محتفظة بأغلب تفاصيلها المعمارية والزخرفية ، ومشربيات يطل بعضها على صحن الوكالة ، والبعض الآخر يطلّ على الشارع ، ومما تجدر ملاحظته أن درجات سلم الطوابق الثانية فى الثمان والعشرين مسكنًا ، لا توجد داخل الوكالة ، وإنما من باب خارجى مستقل ، مما يشعر التاجر الوافد براحة استقلالية فى منامته ، وهذا فى حدّ ذاته وعى فندقى متقدم سبق به المماليك الجراكسة

التصميمات الفندقية الحديثة ، أمّا فى الصحن الذى تتوسطه فسقية أقة ، وفعلى محيطه بواكٍ لعرض السلع ، ونرى فى طرف الصحن باب يؤدى إلى دهليز به دورات للمياه ، ومن هذا الدهليز نصل إلى فناء آخر صغير مكشوف لربط دواب التجار وحيواناتهم ، كحظيرة أو بلغة العصر جراج مركبات النزلاء .

وعلى هذا النمط كانت مصممة سائر الوكالات والخانات التى ذكرتها ، حتى إنك وأنت سائر فى شارع التبليطة هذا ، تجد على الجانبين وقد تراصت هذه المنشئات فى نشاط وحركة دائبة ، نعم قد علاها القِدم بالغبار والتهدّمات ، لكنك لو دققت النظر فيما بقى سليمًا من هذه الجدران لوجدت زخارف من أعظم زخارف الحفر على الحجر منذ أيام ، أولئك المماليك الجراكسة ، منها ما يحيط بسبيل قديم ، ومنها ما يضمّ مدرسة للصغار أو الكبار على السواء ، ومنها ما يلفّ بين جنباته كتابات بخطوط جميلة ، تثبت مناسبة وتؤكد تبعية لسلطان جار عليه البلى .

لا نريد أن نمكث فى هذا الحىّ طويلا ، وليس من السهل أن نمتلك إرادتنا فى حىّ الأزهر ، فلابدّ أن تطلّ على وعى بخطوط سيرنا فى أحياء القاهرة ، لئلا يشدّ أحدها انتباهنا أو يسلبنا إرادتنا ، فيسرقنا الوقت قبل أن نتجوّل فى أكبر عدد من هذه الأحياء العتيقة ، ذلك لأن الأزهر حيّ متشعّب الأحياء والامتدادات ، وإذا كانت قاهرة

المعزّ لم يبق من قصريْها الغربى والشرقى شىء ، إلا أن كثيرا من بنايات هذه الأحياء المتشعبة مقام من أخشاب القصرين البائدين ، ويحتوى كثير منها على نقوش تمثل حفلات رقص وطرب ، وحلبات قنص وصيد وطيور وحيوانات ، تحكى كلها ما كان يدور فى هذا الحىّ العريق من حياة فاطمية زاهرة ، ومن ثم نجد الديار التى بنيت على فتات قصرى الخلفاء الفاطميين ، متناثرة فى الجمالية والقلعة وباب الشعرية والخرنفش أو بالأصح . الخرشتف الذى كانت مقامة فيه اصطبلات وطواحين وحمامات الخليفة الفاطمى المعزّ لدين الله ، وكذلك أحياء الظاهر والحسينية والعباسية وكذلك حىّ الخانقاه أو الخانكة كما نسميها الآن .

ومن الطريف أن حىّ العباسية كان اسمه أرض الطبّالة ، نسبة إلى السيدة نَسبَ طبّالة الخليفة الفاطمى المستنصر بالله ، التى أنشدت وهى واقفة تحت قصر الخلافة ومعها بطانتها فقالت

يا بنى العبــاس ردّوا ملك الأمــر معــد
ملككم مَلك معــار والعــوارى تستردّ

والمناسبة السعيدة التى جعلتها تنشد هكذا ، هى إمداد المستنصر للأمير البسا سيرى الذى خرج على الخليفة العبّاسى القائم بأمر الله ، إمداده بالجيش والزاد والعتاد حتى غلب الخليفة واستولى على بغداد وقصر الخلافة ، وأزالِ دولة بنىِ العباس ، وأقام الدولة الفاطمية هناك ،

وأرسل كل تحف القصر والغنائم النفيسة إلى القاهرة ، مما أدخل الفرحة الشاملة على قلب المستنصر وابتهج أهل مصر ، فزينت القاهرة بهذا النصر وأنشدت الطبالة نشيدها .. فأعجب الخليفة الفاطمي بها أيما إعجاب ، وعرض عليها أن تطلب تحقيق أمنية لها ، فطلبت أن يقطعها الأرض المجاورة للمقس ، فأجابها لطلبها وسمّيت على اسم حرفتها ، فصارت أرض الطبالة ، وازدهرت وعمرت بالبيوت حيناً ، ثم هجرت وخربت حيناً آخر تبعا لتغير وجهات العمران عند الحكّام ، إلى أن تولّى عباس باشا الأول حكم مصر عام ١٨٤٩ ، فأنشأ ثكنات الجيش المصرى فيها ، مما شجع الأهالى على بناء دور سكناهم فيها ، وعرفت باسم العباسية أمّا حيّ الخانكة ، فيكفى أن تسمع ما حكاه المقريزى لنا من قصة إنشائه ، إذ قال : كان السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون من عادته أن يخرج للصيد فى الأحراش والميدان الذى أنشأه حول بركة الجب بمنطقة سرياقوس شمال القاهرة ، واتفق أن ركب على عادته للصيد هناك ، فلما وصل إلى منطقة سرياقوس ، أحسّ بألم شديد فى جوفه كاد يأتى عليه ، وهو يتجلد ويكتم ما به ، حتى عجز عن احتمال الألم ، فنزل عن الفرس والألم يتزايد عليه ، فنذر لله إن عافاه ليبنينّ فى هذا الموضع مكانًا يعبد فيه الله ، ثم عاد إلى قلعة الجبل ، فلزم الفراش عدة أيام ، ولمّا عوفى ركب بنفسه ومعه عدد من المهندسين ، وخطّ على بعد ميل من ناحية سرياقوس هذه الخانقاه ، وجعل فيها مائة خلوة لمائة صوفى ، وبنى بجانبها مسجدًا تقام به صلاة الجمعة ، وبنى بها حمّامًا ومطبخًا ، ولما تم بناء الخانقاه سنة ٧٢٥ هـ

خرج بنفسه ومعه الأمراء والقضاة ومشايخ الخوانق ، ومدّت الأسمطة داخل الخانقاه ، وخلع السلطان الخلع على الأمراء وأرباب الوظائف ، وفرّق بها ستّين ألف درهم فضة ، ومنذ ذلك الحين رغب الناس فى السكنى حول هذه الخانقاه ، وبنوا الدور والحوانيت والخانات حتى صارت بلدة كبيرة بخانقاه سرياقوس .

أمّا الآن فقد بادت الخانقاه ، وحلّت محلّها مستشفى للأمراض العقلية ، وصارت المنطقة حولها معروفة باسم الخانكة أو الخانقاه .

ومما يجتذب نظر السائح الباحث فى تاريخ أحياء القاهرة القديمة ، أنها كانت بركًا فى البداية ، وجادت عليها فيضانات النيل الطمى سنويًّا ، فعلَت قيعانها حتى تساوت بما حولها من أراض ، أو أهملها الأهالى بإلقاء مخلفاتهم فيها حتى جفّت ، وسواء كان هذا أو ذاك ، فإن الاتساع المتزايد للأرض استوعب الزيادة السكانية المقيمة فى القاهرة أو الوافدة عليها من خارج مصر عامة ، من هذه الأحياء الأزبكية والفجالة وباب الحديد ، والسيدة زينب وبركة الفيل وباب اللوق .

ومن الطريف أن حىّ السيدة زينب مقام على بركة السباعين بالقرب من بركة الفيل ، حيث تستمد ماءها من الأولى ، وكان لمناظرها الجميلة والبساتين حولها فضلاً عن مسجد أحمد بن طولون تأثيرًا فى نفوس الأدباء والشعراء ، مما ألهم ابن سعيد فقال : « وَأُعْجَب فى ظاهر القاهرة ببركة الفيل ، لأنها دائرة كالبدر والمناظر فوقها كالنجوم

وعادة السلطان أن يركب فيها بالليل ، وتسرح أصحاب المناظر على قدر هممهم وقدرتهم ، فيكون بذلك منظر عجيب .

انظر إلى بركة الفيل التى اكتنفت بهـا المناظـر كالأهـداب للبصـر
كأنمـا هى والأبصـار ترمقهـا كواكـب قد أداروهـا على القمـر

وتعجب شاعر لحظة الشروق على سطح البركة .. فأنشد قائلاً :

انظر إلى بركة الفيل التى نحرت لهـا الغزالـة نحرًا من مطالعهـا
وخلّ طرفـك محفوفـًا ببهجتها تهيـم وجْدًا وحبًّا فى بدائعهـا

لكن الأدباء والشعراء لم يكونوا ليعرفوا خبر الكنز الأثرى الذى كان مطمورًا بجوارها فى شارع قلعة الكبش ، حيث عثر على حوض من الحجر الصوان الأسود فى فجوة متسعة له ، وكما يبدو أنه كان موضوعا للشرب منه ، وعندما جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر ، قدّر علماؤها ما يساويه من قيمة أُثرية ، فاستولوا عليه وحاولوا نقله إلى باريس ، فقابلهم الأسطول البريطانى فى البحر المتوسط ، واستولى رجاله على الحوض المرصود هذا ، ونقلوه إلى لندن ليقبع فى حجرة منفردة بمتحف لندن ، ولم يبق من الحوض بمصر غير اسمه الذى أطلق على شارع « الحوض المرصود » ببركة الفيل .

كل هذه أقاصيص تصلح موضوعات للأدب السياحى ، لأنها فضلاً عمّا لا تخلو منه من طرافة ، فهى أيضًا تتضمن معلومات حقيقية تزيد القادم إحاطة بما يودّ مشاهدته .

ومن هذه القصص ما خلا من الطرافة ، لكنه امتلأ عاطفة وفاض بالتعاطف معها ، ومن أبرز قصص هذا النوع الشائق واحدة لحبيب جاماتى فى الكنيسة المعلقة ، تلك التى سبق ذكرها حيث بنيت على أنقاض برج من أبراج حصن بابليون بمصر القديمة ، لذا فإنها بدت بارتفاعها عما يجاورها من مبان عتيقة كأنها معلقة فى الهواء ، لكن من يقترب منها ليصل إليها ، لابدّ أن يخترق دروبًا ومنعطفات ضيّقة ..

ففى أيام الحملة الفرنسية على مصر ، حدث أن رجع قائدها نابليون إلى فرنسا ، وحلّ محلّه كليبير ، فكان مختلفًا كل الاختلاف عن سلفه فى سياسته وأعمال القمع التى سلكها مع أهل مصر ، ممّا أثار عليه ثائرتهم ، فثاروا عليه أثناء معركته مع الجيش التركى الذى قدم لإخراجه من مصر ، وما لبث أن هزمه عند عين شمس ، ثم التفت إلى أهل مصر ليقضى على ثورتهم فى القاهرة ، ومن واقع مخطوط عثر عليه المؤلف من ملفّات متحف بونابرت الذى أنشىء بالقاهرة ثم تفرقت محتوياته ، حكى لنا ما تضمنته أوراقه التسعة من أحداث صوّرت تذمّر قادة كليبير من سياسته الخرقاء التى أفقدت الفرنسيين القدر الضئيل الذى كانوا حققوه من حب المصريين لهم !!

« فقد تمكنّ السيد عمر مكرم من عودته متزعّمًا الثوّار ، تمكن من إقناع زعماء الأقباط بأن يشتركوا مع المسلمين فى هذه الثورة ، ففعلوا ، ولم يبق منهم على ولائه للفرنسيين غير « المعلم يعقوب »

الذى اشتهر باسم « جنرال » ، ويعقد زعماء الأقباط اجتماعاتهم فى بيت « المعلم جرجس الجوهرى » حيث يضعون الخطط المشتركة بينهم وبين « مكرم والمحروقى والبشتيلى » للقضاء على الحامية الفرنسية قبل أن تصل إليها لأمداد من خارج العاصمة » .

ظل أهل القاهرة كلهم يقاومون رجال الحامية ، ويهاجمونهم أينما كانوا ، فى الشوارع والأزقة ، فى دورهم حتى فى قصر الألفى نفسه الذى كانوا اتخذوه مقرًّا لقيادتهم ، واشتدّ القتال على وجه الخصوص فى بولاق ومصر القديمة والخرنفش وحول الأزهر ، ورجحت كفّة الحامية المدجّجة بالسلاح الذى يفتقر إليه الأهالى ، بعد أن استمرّت المقاومة عشرة أيام ..

وفى يوم من تلك الأيام العشرة الخالدة ، كانت فصيلة الرمّاة المكلفة بإخماد الثورة فى حىّ مصر القديمة قد حوصرت ، وتشتت رجالها ، فهرب من هرب وقتل من قتل ، حتى قائدهم فليبير لم يعثر له على أثر ، وقال أحد جنود الفصيلة إنه شاهد المصريين يحملونه وهو جريح ، واختفوا به بين البيوت القديمة ، ومن ثم جنّ جنون جنود النجدة التى دفع بهم لإنقاذه . فجدّوا فى البحث عنه وعن بقية المفقودين فى الطرقات الضيقة الموحلة ، حتى اقتربت مجموعة منهم من الكنيسة المعلقة حيث احتشد جمع من المصريين ، فأطلق الجنود النار عليهم ، وعملوا فيهم بالقتل بحراب البنادق ، فتسلل منهم خلف الجدران من استطاع الاختفاء ، إلا خمسة منهم ، ظلوا واقفين مرتبكين أمام دكان

صغير ، وما لبثوا أن رفعوا أيديهم بالاستسلام حين اقتربنا ، لكن المفاجأة التى أدهشت الجنود ، هى خروج قائد الفصيلة المفقود من الدكان وهو يسبّهم صائحًا : « أنتم أيها القتلة المجرمون » ، وشهر سيفه ثم أغمده فى صدره وسقط على الأرض لتوّه والدم يسيل منه بغزارة !! فأسقط فى أيدى الجنود لهوْل المفاجأة المؤسفة . وتعالى الهمس ، لتعلن الحقيقة المشوهة ، وهى أن هذا القائد المنتحر كان قد أصيب فى جنبه أثناء حصار فصيلته ، فحمله ثلاثة من المصريين هم الجوذى أحمد المنبارى ، والطباخ شلبى يعقوب وأُخته الفتاة أُميرة ، وكانوا يعملون من قبل فى قصر القائد العام كليبير ، ثم طردهم منه ، حملوا الجريح إلى الكنيسة المعلقة ، حيث عولج وبقى للاستشفاء فيها عدة أيام ، إلى أن استطاع النهوض على قدميه ، فسانده الثلاثة ليخرجوه من مصر القديمة ، لكن الثوار قابلوهم ، ومنعوا مرورهم ، فاستبقوه معهم فى دكانتهم الصغيرة لانتهاز فرصة أخرى ينقذوه فيها ، لكن الجنود الذى قدموا للنجدة ، دفعتهم رعونتهم إلى إطلاق الرصاص والطعن بالحراب، فقتلوا شلبى وأُخته ، ولم يجد فليبير الحزين مناصًا غير الانتحار .

واكتملت المأساة بعد معرفة الحقيقة بوقوف الجنود صفًا ليؤدوا التحية العسكرية للفتاة وأخيها ، وتوجهوا بالجثث إلى الكنيسة ليصلّى الرهبان عليها ، بينما اختلط شبانُ الحىّ مسلمون وأقباط خاشعين .

تراثنا الشعبى
منذ العقائد الفرعونية

لا يغيب عن ناظرى التجمعات الحافلة حول منشدى السير الشعبية ، بفرقهم الموسيقية الشعبية العريقة فى سهرات رمضان بحىّ الحسين والأزهر ، وما يصاحب ذلك من ترديدات ورقصات بسيطة معبّرة عن بيئات وفدت منها إلى هذا الملتقى ، فتخلق أنواعا من التجاوبات والمشاعر المتلاحمة .

وكان مما يثير الدهشة رؤيتى لأجانب يخالطون هذه الجموع الحاضرة ، يشاركونهم بالتصفيق حينا ، وبترديد بعض الكلمات أحيانًا أخرى ، وبالتقاط صور تذكارية لهذه المشاهد دائمًا . كما لا أنسى الصور التى نشرتها صحفنا لمغنّينا الشعبى قناوى ، وهو فى باريس يعرض قدراته الصوتية وكفاءته العزفية بالربابة فوق رأسه تارة ، وعلى كتفه تارة أخرى، وعلى صدره وبطنه كثيرًا، بينما يسرد سيرة من سيرنا الشعبية .

وكيف أشادت الصحف الفرنسية بهذا البطل الشعبى ، الذى تمثلوه بطل السير التى يحكيها ، لا مجرّد مؤدّ لها ، فانتزع الإعجاب وفاز

بالتفاف المشاهدين حوله هناك . أكّد لى كل هذا امكان نجاح هذا اللون فى استرضاء السائحين ، واستمرار وفودهم إلينا ، واكتساب موضع أصيل بين مستحدثات الجذب السياحى .

وهنا سؤال يفرض نفسه علينا ، ألم تزاحم وسائل الإعلام كالإذاعة والتليفزيون والشرائط عمومًا بأغانيها الموضوعة وألحانها المتكاثرة ؟ ألم يزاحم كل هذا المساحة الصغيرة المتاحة لفنوننا الشعبية ؟ ، لقد كنت ألمح هذا فى الريف ، حيث الفتيات فى أعيادنا وأفراحنا ، لم تعدْن تردّدن أغانى الريف ولا أهازيج هذه المناسبات ، وإنما الأخطر من هذا كنّ يتنافسن فى تجويد ما سمعته من أغانى وسائل الإعلام المؤلفة حديثًا .

إن الانسياق وراء التقليد لكل مستحدث ، لا غضاضة فيه ، والوقوف أمامه لا جدوى منه ، لأنه يحدث بحكم التطوّر أولاً ، وبحكم البريق الذى يصحب كل جديد ثانيًا ، وبحكم الرغبة الملحّة فى تقليد التقاليع أولاً وأخيرًا .

لكن ما يجب أن نطمئن إليه هو عجز الجديد عن الجور على العتيق أو محْوه ، لأن كل موروث قد اكتسب الثقة فى أصالته بحكم تسليم الأجيال المتعاقبة به ، وتناقله حتى بعلاته ، وإذا ما كان هناك من إضافات ، فإنما هى خاضعة لسياق الموروث .

وبنفس القدر ، تقليد المستحدث ، يخضع لهذا السياق ، لهذا الذوق

السائد ، لهذا المنطق المحلىّ ، حتى لو كان منطقًا مقلوبًا !! ومن هذا استمدّ كل موروث قوّته ، فهو ليس مغلقًا على ماضى نشأته الطفولية ، وإنما يتفتح لكل إضافة متّسقة مع قدرات نموّه وإدراكه وذوقه ، وعلى ألا يخالف أو يلتوى عن عموده الفقرى الذى شبّ عليه منذ مولده . إننا لا نستطيع - على سبيل المثال - أن نجبر مجتمعًا جديدًا ، أو حتى سياحًا وافدين ، على الاقتناع بأن خيال الظل هو التليفزيون ، أو على الأقل هو الأصل في فكرة التلفزة !! وكذلك الأمر لا ندّعى انتماءه إلى دار السينما أو الخيالة ، كما تواضع على تسميتها أرباب اللغة العربية ، فتصبح منتمية إلى خيال الظلّ ، لمجرد اشتراكهما في جذور اللفظة خيل وخيال وخيالة .

لكننا نستدرك ونقول ، إن لم يكن خيال الظلّ هذا ، الذى نشأ فى الشرق الأقصى ، ثم امتدّ إلى فارس متزوّدًا بالسائد فيها من ذوق ، ثم واصل امتداده للتغلغل فى الحياة الإسلامية لأن الطبقات الوسطى هى التى أسهمت فى إثرائه ، حتى استقر آخر مطافه فى القاهرة وازدهر ، فنفذ إلى ربوع العالم الغربى ، إن لم يكن خيال الظل قد وجد أرضًا خصبة لاستمراره وازدهاره ، ما كان استطاع البقاء فى مجتمعات بعينها دون غيرها ، وأقول دون غيرها ، فالحق يقال : إن اليونان والرومان قديمًا لم يعرفوا خيال الظل ، مما دفع بالباحثين فى هذا الفن إلى استنتاج نظرية أن خيال الظلّ يزدهر لدى الأجيال التى

لم تجد في فنونها الرسمية ولا في آدابها ما يشبع حاجاتها الوجدانية ، ربما لأنها تجمدت في ما يشبه القوالب المصبوبة ، أو تفضّل تغليب العقل النظرى على صدق المكابدة أو التجربة الذاتية ، فانفض حيلها عنها وانكمش في لهجاته وتهيئاته ووسائله ، وربما يكون ازدهار خيال الظل منذ العصر الفاطمى في مصر دليلاً على صحة هذه النظرة ، لهذا يحسن أن نسمع ما أنشده وجيه الدين ضياء بن عبد الكريم في مصر القرن السابع الهجرى .. فقال :

رأيت خيـال الظـل أعظم عـبرة ... لمن كان في علـم الحقائق راقى
شخوصًا وأصواتًا يخالف بعضها ... بعضًـا وأشـكالاً بغـير وفـاق
تجيء وتمضى بابـة بعد بابـة ... وتفنى جميعًـا والمحـرك باقـى

إن ما يهمنا من هذا الاستطراد ، هو الكفّ عن محاولات اللصق بين هذه الأصول الشعبية وبين الوسائل المستحدثة لتوصيل هذه الأصول ، وفى النصف الأخير من نظم وجيه الدين « وتفنى جميعا والمحرك باقى » ما يوحى بحقيقة ما نرمى إليه ، فالمحرّك لخيال الظل ولسائر الآداب الشعبية هو كل جيل وراء جيل ، في ابتداعه وفى تحسين ما أَحَسّ به من نقص في اكتمال إعجابه وارتياحه له ، فيحرّك موروثه إلى المستوى الذى يرتضيه ، بالارتفاع أو الانخفاض حسبما آل إليه كل جيل من ظروف .

من هذا يمكن القول بأن الآداب الشعبية هى متاحف الشعوب ،

التى تغرى بالاطلاع والمشاهدة ، وتجذب إليها الغرباء والمواطنين على السواء ، ويكفى أن تنطق اسم « ألف ليلة وليلة » أمام جمع من أولئك أو من هؤلاء ، حتى تسلمهم إلى خيالاتها القصصية الثرية ، ودفعت بأشهر مخرجى المسرح والسينما إلى الاستعانة بها فى إبراز مهاراتهم لتحقيق الخيال .. سواء كان خاتم سليمان ، أو الشاطر حسن ، أو على بابا أو حتى معروف الاسكافى ، وجحا ومصباح علاء الدين ، وغير ذلك من مضامين موغلة فى الخيال .

لهذا نعود إلى موضوعنا فى الأدب السياحى ، إنه يعتمد على تجسيد مثل هذه الشطحات المبهرة ، وهذه اللفتات الذكية ، بالوسائل المستحدثة حينا كالصور المحركة ، أو مسرح العرائس أو الأفلام والمسارح المتطورة ، وبالوسائل التقليدية حينا آخر كالمقاهى ورواة السير الشعبية ومغنّيه ومنصّات خيال الظل أو القراقوز فى الموالد أو الأفراح وحفلات الختان ، وما إلى ذلك من الاحتفالات الشعبية التى تتطلب أماكن ثابتة أو سرادقات متنقلة .

لكن عصر السرعة الذى نعايشه ، صار يتطلب من الأدب الشعبى السياحى نوعًا من التناسب مع سرعته ، وهذا التناسب إما أن يكون بالإيجاز والقصر ، وإمّا أن يخضع للانتقاء والاجتزاء غير المخلّ بفحوى الموروث المسترسل ، كالسِّير والملاحم الشعبية والأساطير .

وإذا كانت الإيقاعات الحياتية السريعة تُملى علينا هذا ، يكون عرضها على وفود سياحية موقوتة الإقامة ألزم باتباع هذا التناسب .

ترى هل يمكن هذا استعانة بالحكاية والنادرة والمثل الشعبى ؟

فى الحق إن الصلة وثيقة بين الحكاية الشعبية وبين الأسطورة ، وتتمثل هذه الصلة فى الملحمة التى تحكى وقائع الأبطال فى جمع شمل أمة من الأمم أو مجتمع من المجتمعات ، جمع كلمتهم على تحقيق نصر على عدو بالغ القوة ، أو على اقتحام كل صعب وتخطى العقبات المتتالية :

إننا لا نريد أن ننتقى حكايات الحيوان ، لأن موروثها الشعبى يعتمد على الخرافة ، وليس على الأسطورة الاعتقادية ، نعم تتوافر فيها الملاءمة لمجتمعات مختلفة لحكايات كليلة ودمنة وأصولها ، التى تمثلت فى « البانجاتانترا » الهندية ، وامتدادها إلى خرافات أيوب اليونانية وتسللها إلى أدب الثقافة عند لافونتين الفرنسى ، ويسنج الألمانى ، إلاّ أنها أقل قيمة وشيوعا من تلك المرتبطة بالأسطورة الاعتقادية ، لأن هذه الأخيرة ، فضلاً عن أنها تتضمن شخوصًا أبطالاً ، فهى أيضا تقوم على مبدأ التقديس والتأليه لأولئك الأبطال ، لذلك فإن هذا النوع من الحكايات الشعبية الأسطورية يلقى تجاوبًا وشغفًا لدى المتلقّين بشتى جنسياتهم ، أمّا حكايات الحيوان الشعبية فهى تتضمن رموزاً يعبّر بها الوجدان الشعبى عن مشاعره من كره ورفض واحتجاج تجاه حاكمه المستبد ، فإن دلّ هذا على شىء فإنما يدل على خلّة الخوف والجبن تجاهه ، فضلاً عن أن رمز الحيوان المستخدم لا يكون

إلا مجرد وسيلة للتعبير ، لا تتوافر فيه مقوّمات البطولة المنشودة فى الأسطورة الشعبية .

استمع معى إلى هذه البكائية الأسطورية :

« عد إلى دارك ، عد إلى دارك أيها الإله ، تعال إلى دارك يا من لا عدوّ له ، أيها الشاب الجميل تعال إلى بيتك لكى ترانى ، إننى أختك التى تحبّها ، إنك لن تفارقنى بعد الآن ، أيها الفتى الجميل عد إلى بيتك ، نعم أنا لا أراك ومع ذلك فقلبى يذوب حنينًا إليك وعيناى تتلهفان على رؤياك ، تعال إلى التى تحبّك ، إلى التى تحبّك ، يا أونيفر المبارك ، تعال إلى أختك ، عد إلى زوجتك ، إلى زوجتك ، يا من توقّف قلبه عن النبض ، عدْ إلى بيت الزوجية إننى أختك ، أمّنا واحدة ، لن تفارقنى بعد الآن ، إن الناس والآلهة يولون وجوههم نحوك ويبكون معًا من أجلك ، إننى أناديك باكية وقد بلغ نحيبى عنان السماء ، ولكنك لا تسمع صوتى مع أننى أختك التى كنت تحبّها فى هذه الحياة الدنيا ، إنك لم تحبّ سواى ، يا أخى ، يا أخى » .

من هذا النواح الثنائى ، الذى جمع بين الأختين إيزيس ونفتيس ، حزنًا على أخيهما أوزيريس الذى قتله أخوه « ست » لغيرته منه وحقده عليه ، ولم يكتف بقتله ، فأخرج جثته من تابوته وقطّعها إلى أربعة عشر جزءا ، ثم بعثرها فى بقاع مختلفة ، من هذا النواح يتبيّن لنا أن إله الشمس رع ، قد رقّ قلبه لنواحهما ، وبعث إليهما بالإله

أنوبيس الذى تمكن من لمّ أشلاء الجسد الممزّق ، وتمكن كذلك بمساعدتهما من ضمّها إلى بعضها وربطها بضمادات من الكتان ، ثم أدّى طقوسًا وشعائر مصرية جنائزية ، رفرفت بعدها إيزيس فى السماء بجناحيها ، نزلت الروح بعدها إلى جسد أوزيريس فعاد إلى الحياة ، ليصير بعد ذلك ملكًا على الموتى فى العالم الأبدى . ويتولّى فى قاعة الحقيقتين رئاسة محكمة الأرواح ، لمحاسبة الموتى بوزن قلوبهم فى ميزان العدالة ، ثم يحكم عليهم إمّا بالخلود وإمّا بالقصاص على قدر خطاياهم . أسطورة كما نرى ، اعتمدت على مشاعر سائدة ، وعقائد متحكّمة فى النفوس ، لا يقتصر استعطافها لقلوب رعايا الفراعنة فحسب ، وإنما تستثير عطف الأجيال التالية وفضولها لمشاركة أشخاصها المقدسين مأساتهم ، والإصغاء لبكائياتهم . فلا نعجب إذا وجدنا الآن جماعات من السياح يبيتون عند سفح الأهرام ، لينعموا بشروق شمس الصباح عند قدمى الفرعون الغائب !! فمثل هذه الأساطير تظلّ متداولة لا تبلى ولا تبرد جذوتها .

لكن ليكن معلومًا أن الدين أيام الفراعنة ، كما يقول الأثرى العالم سليم حسن ، لا يندرج كما يحسب البعض فى الوثنية ، مثلما فعل العبرانيون قبل موسى عليه السلام ، ومثلما عبدوا « بعل » بعد نبوّة موسى إليهم ، وكذلك ليس الدين الفرعونى مثلما عند الهكسوس الذين عبدوا « البعليم » ، وإنما خلاصة الدين المصرى أن رب الأرباب

آمون ، هو سرّ الوجود ، وأنه استخلف على مصر أبناءه الملوك ، وأن بنوتهم المقدّرة له ، لم تكن كبنوة اليهود مجرد كلام يناقض الفعل ، وأن هناك « حساب » بعد الموت أمام محكمة أوزيريس ومساعديه الاثنين والعشرين قاضيا ، فمن لم يرتكب السوء هو الذى يحيا مرة ثانية .

أى أن الدين المصرى الفرعونى دافع إلى التمسك بالفضائل البشرية المحضة من عادات وتقاليد ، يدفع ذلك كله إلى ربط الحضارة بالمدنية ، وعندما نظموا القوانين لصيانة التراث الشعبى وسّعوها كحق قانونى من حقوق الناس أجمعين ، مواطنين وغرباء .

والغرباء أو الأجانب قد عاشوا فى مصر بكثرة منذ أيام الفراعنة ، وبدءا بالأسرة التاسعة فى الفيوم على وجه الخصوص .. أى أثناء ما أطلق عليه دولة الإقطاع ، وازدهر أيامها أدب المقاومة من شكل التعاليم والحكم إلى قصص صريحة مباشرة ، كقصة الفلاح الفصيح ، مما كان له أثره الواضح فى إعلان شعار الوحدة الوطنية على أيدى الأمراء فى الصعيد ، وغلبته نهائيًا على يد أنتوف العظيم منذ عام ٣٣٦٠ ق . م .

هذه الوحدة الوطنية لم تتعارض أبدًا مع مقتضيات الترف وعقد أواصر الصداقة مع الغرباء الذين وصفتهم المدوّنات المصرية بالغرباء تارة ، وبالبدو تارة أخرى . وبالآسيويين وبأصحاب الأقواس التسعة

كثيرًا ، مما قطع بأن هذه الصداقات والعلاقات لم تقتصر على جنس منهم دون الآخرين ، فصاروا كلهم فى نظر المصريين القدماء شيئًا واحدًا .

ولو ربطت بين تابوت أو الصندوق فى أسطورة إيزيس وأوزيريس ، وبين الصندوق فى قصة سيدنا موسى حيث وضعته أمه فيه وألقت به فى اليم أو نهر النيل ، حيث ألقت به أمواجه عند قصر الفرعون .. للمست نوعا من النظرة الشعبية المتشابكة للرغبة فى الحفظ والإخفاء داخل صندوق أو تابوت على السواء .

كما تحضرنى الآن أسطورة « نفررهو » التى نبعت وشاعت بين الرعاة العبرانيين فى مصر ، إذ صورت الواقع مليئًا بالظلم ، خلا تمامًا من العدل ، ولسوف يوصل هذا الظلم وهذه الفرعنة إلى الاغراق فى الذل والجوع والقحط ، فنرى صور الناس فى الأسطورة وقد انحنت ظهورهم ، مستسلمين لليأس والهزائم ، ولن ينقذ أولئك إلا مقدم مخلّص من حيث لا ندرى ، ليأخذ بأيدى الناس جميعًا من وهدة الذلّ !! ألا وهو ربّ الجنود .

لقد شاعت هذه الأسطورة منذ أيام الملك سنوسرت الأول ، وشعشعت فى النفوس لتتمكن منها أيام أمنمحات الأول ، إذ حاول بعض السكان فى البلاد التظاهر بالضعف والفقر أما ربّ الجنود ليقودهم إلى احتلال الأرض التى سيبيد أصحابها ، بينما كان بقصر

الملك أحد المتعاونين معهم وهو سنوحى ، وبينما تلقف السكان المتظاهرين يشوع بن نون ليجعلهم خدّامًا له فى إنقاذ حياة الرعاة العبرانيين .

لكن سنوحى الذى حاول الاطاحة بالملك أمنمحات الأول ، خابت مؤامرته وطاش سهمه ، فتم انتصاره ، وفرّ سنوحى إلى الرعاة ليعيش بينهم فى برارى سيناء ويتزوج من ابنة لهم .

وحكى الملك ما جرى فى صيغة وصايا مدوّنة بكتاب « الأدب المصرى القديم » للدكتور سليم حسن ، نجتزئ منها :

« قد جعلت الرجل المغمور الذكر يصل إلى غرضه مثل صاحب المكانة » .

« وقد كان آكل خبزى هو الذى جند الجنود ضدى » .

« والرجل الذى مددت له يد المساعدة هو الذى أحدث لى بها المتاعب » .

« والذين يرتدون فاخر كتّانى ، عاملونى كالذين هم فى حاجة إلى الكتان » .

« والناس الذين يتضمخون بعطورى قد لوّثوا أنفسهم وهم يستغلونه بخيانتى » .

« لم أحتط لنفسى ضد هذه المؤامرة ، فإنى لم أفطن لها من قبل ، هذا فضلاً عن أن قلبى لم ينتبه إلى تراخى الخدم !! » .

« هل حدث أن النساء اصطففن فى ميدان المعركة ؟ » .

« ولو كنت أسعف بالسلاح فى يدى لكنت شتت شمل مخنثى الآسيويين » .

ومن كل هذا نلمس أن الأحداث التاريخية مولّدة للآداب الشعبية ، كما هى ملهمة للأدب غير الشعبى ، ومن ثم لقيت ولازال تلقى إقبالاً من القادمين كسياح أو باحثين على السواء ، ربما لأنها أصدق دلالة ، وأثرى خامة لكل منقّب فى مأثورات الشعوب ، فعلى نفس الوتيرة سارت السير الشعبية موازية للتاريخ العربى عامة والإسلامى بعدئذ على وجه الخصوص ، فمن أحداث سيرة ذات الهمة ببدايتها من العصر الجاهلى حتى أواخر الدولة العباسية فى عهد الخليفة الواثق بالله ، إلى أحداث سيرة الظاهر بيبرس بدءا بالمقتدر بالله ببغداد وعبورًا بالدولة العباسية الثانية كلها إلى مصر فى عهد الأيوبيين لتواكب الحروب الصليبية كلها حتى عهدىْ الصالح أيوب ، والظاهر بيبرس نفسه .

سيرة الظاهر بيبرس ودور اليهودى
فى الحروب الصليبية

ونحن إذا كنّا نقرأ سيرة الظاهر بيبرس كبطل مملوكى - نعم - ولكنه اكتسب صفة الزعيم الشعبى ، لإخلاصه لمصر التى نما فيها وترعرع ، تشرّب لبانة أهلها ، انصهر فى حياة أُحيائها ، كابد مرّها ، وكذلك استطعم حلْوها ، استنار قلبه بعقيدة دينها ، ثم أُحسّ بالعار كل العار لوْ بقى الغزاة الفرنجة على أرضها ، فلا غرو أن يلتف أهل مصر قبل مماليكها حوله ويرضون بقيادته لعسكرهم ، وينزلون عن مراكبهم فى النيل طواعية ، ليحشد الرجال خلف سفن الغزاة فى المنصورة ، ويحصرهم بها ، ويمسك بملكهم لويس التاسع فيأسره ، ويخشى الباقون أن يحصدهم ، فيفرّ من يرجو النجاة ، ويقع من خانته قدماه ، فيتحقق النصر المؤزر على يديه ، وينأى عن الشهرة والأضواء قناعة بالثقة التى لديه .. فلا غرابة إذا ما احتضنته السيرة الشعبية احتضان الأم لفلذة كبدها ، وخلّدته علمًا على الصمود إذا ما خلصت نية الشعب جميعه فى مساندته .

لكن المساندة هنا لم تخلُ من وجود خوارج ، والخروج على إجماع

الأمة – خاصة إذا ما كان الاجماع حول قضية الوطن وتخليص الأرض من غاز غزاها – ليس خروج تحرر بل شذوذ خيانة ، وهكذا وجدنا في سيرة الظاهر امتدادًا نمطيًا لما انطوت عليه روحنا الشعبية منذ أيام الفراعنة ، وجدنا شخصية الجاسوس الخائن ، جوان ، وها نحن نستمع إلى تساؤل الكاتب الفنان الشعبى الراحل زكريا الحجاوى ، فيقول :

« ما الدافع الذى سيطر على الكاتب الشعبى الذى ألّف سيرة « الظاهر بيبرس » عندما صوّر رغبة اليهودى الملحّة فى تخريب الجبهة الداخلية أيام الحروب الصليبية ، حيث وضع من بين شخصيات السيرة رجلاً ، تراه فاضلاً مهندما يلبَس لباس العلماء ، ويرقى إلى مناصبهم ، ويحمل السبحة ويطلق لحيته ، ولا يسير إلا متمتمًا ، مبسملاً ، محوقلاً ، ويكاد يطير من فرط الورع ، وفجأة يعرّى لك الكاتب الشعبى حقيقته ، عندما يصفه لك فى مأزق ، وإذا به .. يهودى !!

وليس هذا موقفًا شعبيًّا معادٍ لجنس دون آخر ، بدليل معايشة المصريين القدماء لسائر الغرباء ، والتزوج من نسائهم ، وتبادل المعاملات معهم ، لكن شذوذ فرد أو فئة قليلة ، وخروجها على إجماع المواطنة ، تلزم الفنان الشعبى بأن يكون أمينًا فى تقديم صورة كاملة لمجتمعه ، ولكى تتوافر عناصر الصراع أيضًا فى مثل هذا العمل الفنى الشعبى . فإذا أضفنا إلى هذا امتداد السيرة الواحدة إلى عدّة قرون

وأجيال ، وكذلك اتساع أحداثها للإضافات التى تعدد من مساراتها ، إن لم تغير من اتجاه بعضها ، فربما نعثر بعد حين على إضافات شعبية لهذه السير على ألْسن رواتها ، خصوصًا أننا صرنا ننعم بحصيلة كبيرة من السير فى عصر واحد ، بعضها يساند بعضًا ، أو يناقضه ، ويكتسب كل عمل من هذه الأعمال أنصارًا يتحزّبون له دون غيره ، ومن كثرة العرض يكثر الأنصار ، كلٌّ حسب مزاجه ومشربه ، يتساوى فى هذا المواطن والمستوطن والوافد الغريب .

وعندئذ نعود إلى التساؤل الذى بدأناه ، هل يمكن تجزىء السيرة الواحدة إلى فصول قصيرة نزولاً على متطلبات عصر السرعة الذى نكابره ، وكذلك ملاءمة لظروف القادمين فى وفود سياحة موقوتة ؟ أم أن الحكايات والأمثال والنوادر هى الأنسب للأدب السياحى ؟ مما لاشك فيه أن الصفة الأساسية للأدب الشعبى هى الأداء والممارسة ، فلنترك الإجابة على هذا السؤال للتجربة والتطبيق ، بتقديم شتى أنواع هذه النماذج إلى متلقيها ، وفى هذا فليتنافس المتنافسون .

معالم سياحية
على أرض مصر

أولاً : أثرية ..

فى أسوان وكوم امبو ، قصر أنس الوجود ، وحديقة النباتات وأبو سمبل ، فى الأقصر ومندرة .. معابد الأقصر والكرنك والرقسيوم ومعبد أدفو والإلهة هاتور ، ومعبد إسنا ومعبد فيليه ، وتمثالا ممنون فى جرجا والبلينا وأخميم ، مقابر العرابة المدفونة (أبيدوس) ، البرباء فى الوداى الجديد ، الواحات الخارجة (معبد آمون) ، واحة سيوة (معبد آمون) فى المنيا ، مقابر الأشمونين ، أثر السيدة مارية القبطية ، جامع الشيخ عبادة فى بنى سويف والفيوم ، أهناسيا (آثار قليوبوليس) هرقالشت ، هرم اللاهون ، هرما دهشور ، هرم هوارة وآثار معبد اللابرانت فى الجيزة ، سقارة (الهرم المدرج ، مصطبة سنفرو ومصطبة فرعون ، بمنف) أهرامات خوفو ومنقرع بالجيزة وخفرع بأبى رواش ، وأهرامات سقارة الصغيرة لأوسركاف وسهورع ونيو سررع وأوناس ثم أهرامات صغيرة للفراعنة تيتى وفيوبس الأول ومرفرع ونفركارع ، معبد إيزيس فى بهبيت (مركز العياط) .

فى القاهرة : مصر عتيقة (بقايا أبراج حصن بابليون ، الكنيسة المعلّقة ، كنيسة أبى سرجة ، المعبد اليهودى ، سور قلعة الجبل بدءا بسواقى فم الخليج ، مقياس الروضة ، جامع عمرو بن العاص) قصر الأمير محمد على .

أحياء القاهرة الأثرية بمساجدها (أحمد بن طولون والسيدة زينب والجامع الأزهر ، ومسجد الحاكم والسلطان حسن وقلعة صلاح الدين ، ومسجد محمد على وقصر الجوهرة ومسجد الجيوشى ، ومسجد الغورى والسلطان برقوق وجامع ومدرسة قلاوون ومسجد المؤيد وبوابة المتولى أو باب زويلة ومدفن قايتباى بالقرافة وقبة مسجد الإمام الشافعى) .

شمال القاهرة .. المطرية (كنيسة وشجرة السيدة مريم العذراء) هليوبوليس (آثار عين شمس وتل الحصين) مسلّة .

فى الشرقية .. صان الحجر (قرب فاقوس) مقابر وآثار .

فى الدقهلية .. تمى الأمديد – تل القصر .. عاصمة الأسرة ٢٨ ، أول دير بطلخا – ديرطيانا ، ودار ابن لقمان بالمنصورة .

فى المنوفية .. صا الحجر ، قرب كفر الزيات .. بها آثار عاصمة الأسرة ٢٦ بعد طرد الآشوريين .

فى الغربية .. سينيتوس فى قرب سمنود ، بها آثار عاصمة الأسرة ٣٠ ، مسجد السيد البدوى بطنطا .

فى البحيرة .. كوم الحصن (بين دمنهور وإيتاى البارود) ، بها آثار إغريقية .

فى الإسكندرية .. آثار إغريقية ورومانية ، وقصر رأس التين والمنتزة ..

فى كفر الشيخ .. سخا .. آثار عاصمة الأسرة الـ ١٤ .

ثانيًا : ترفيهية ورياضية ..

فى الصحراء الشرقية ، ساحل البحر الأحمر ، الغردقة ، مجاويش (فيها رياضة الغطس) .

فى جنوب سيناء ، وشرم الشيخ ، رأس محمد ، نويبع ، طابا ، عيون موسى .

فى شمال سيناء ، دير سانت كاترين ، الوادى المقدس ، الفرما والعريش وبهما آثار فرعونية وإسلامية ، بحيرة البردويل التى غرق فيها الملك الصليبى بلدوين وبها رياضة الصيد .

ثالثًا : علاجية ..

فى القاهرة : حلوان وعين الصيرة . (عيون كبريتية) .

ومن المعالم السياحية أيضًا ، متاحف القاهرة ، وهى :

١ – متحف الآثار المصرية ..

يحوى مائة وخمسين ألف قطعة ، عدا مئات ألوف أخرى من القطع الأثرية المخزون أكثرها ، والتى كشفتها عمليات التنقيب فى المقابر التى لم تمتد إليها يد من قبل ، وأهمها مجموعات مقبرة الملكة « حوتب حورس » أم الملك خوفو مشيد الهرم الأكبر . وقد عرضت بعض آثارها ، وخزّن معظمها .

ومنها مجموعة مقبرة الأميرة نوب – حتيتى – خرد ، إحدى أميرات الدولة الوسطى ، وقد عثر على حليّها كاملة ، ويرجع تاريخها إلى عام ١٩٠٠ ق م ، وكذلك آثار مقبرة الملك الصغير توت عنخ آمون ، التى يبلغ عددها ١٧٠٠ قطعة من الآثار النادرة ولا يتسع المكان فى المتحف لعرضها .

لذلك فإن المتحف يعتبر أهم وأغنى متحف للآثار الفرعونية فى العالم ، ولوفيست مجموعات متاحف اللوفر ولندن وليدن وتورين وبرلين ومتروبوليتان وشيكاغو الأثرية ، فهى على الرغم من أهميتها لكنها لا تقاس شيئا بجانب مجموعات المتحف المصرى .

لهذا يشرع الآن فى إنشاء متحف آخر أضخم ليتسع للمجموعات الكاملة التى عثر عليها دون أن تجد لها مكانًا فى المتحف الحالى .

ومن أهم قاعات المتحف الآن وأجنحته ، المكان المخصص لآثار الدولة القديمة ، وهو عصر اكتمال الحضارة المصرية الخالصة البعيدة

عن أى تأثير أجنبى ، ومن أبرز تماثيلها تمثال الملك خفرع ، والملك منكاورع ، وتماثيل شيخ البلد ، ورع نفر ، ورع حتب مع زوجته نفرت ، وكلها من حجر الاردواز .

كما أن هناك تماثيل لنماذج عامة كتمثالى صانع الجعة والخبز ، وتمثالان للملكين سنوسرت الثالث ، وأمنمحت الثالث يدلان على نهضة فن النحت فى الدولة الوسطى ، ومجموعة الملك أخناتون الجصية المستوحاة من الطبيعة فضلاً عن تماثيله الضخمة ، وتماثيل زوجته الجميلة نفرتيتى وخاصة رأسها .

ونجد أيضا كنوزًا أخرى من التيجان على هيئة باقة زهر من الذهب الخالص . وقاعة للمومياوات التى ترجع لآلاف السنين .

٢ – المتحف القبطى ..

من أهم جوانبه قسم الأحجار التى حفرت عليها زخارف ورسوم رائعة ، ترجع إلى القرنين الخامس والسادس الميلاديين ، من أهمها أيضًا أثر يمثل السيد المسيح والسيدة العذراء والاثنى عشر رسولاً ، وقد رسم بالألوان على الطين .

ويحتوى قسم النسيج فيه على قطع من نسيج يدوى منذ القرنين المذكورين ، وتمتاز بالدقة وجمال اللون ، ومصورات للطيور أوالحيوانات والآدميين ، فضلاً عن صور لعازفين على المزامير

وراقصين ، وقطع أخرى مطرزة بالصوف الملون . كما يحتوى قسم الأيقونات على آثار من الزجاج والعاج والخشب نادرة لدقة حفرها ، وعلى مصراعين ، حشواتهما من خشب الجوز يعلوهما نقشان بارزان للسيد المسيح .

وفي قسم المعادن مجموعة قيمة من الشمعدانات والمباخر على شكل تنين مكفّت بالذهب والفضة .

كما ضمت مكتبة لمتحف مخطوطات نادرة فى مقدمتها كتاب البشائر الأربع باللغة العربية (الإنجيل) بتاريخ ١٣٣٤ ميلادية ، وازدانت أولى صفحاته وذهبت بنفس أسلوب النقش والكتابة الكوفية الموجود فى المصاحف المعاصرة .

٣- متحف الفن الإسلامى ..

يضم أندر مجموعة من التحف والآثار الإسلامية المصرية ، زادت على السبعين ألف قطعة منذ الدولة الأموية ثم العباسية وما تلاها من عهود .

ومن أبرز القطع الأموية إبريق من البرونز له بزبوز على هيئة ديك فاتحًا منقاره ليصيح ، وقطعة أخرى من النسيج عليها فارسان متقابلان يمسكان بترسين وسهمين للصيد .

ومن العصر العباسى ضم المتحف زخارف جصّية منقولة من البيت

الطولونى ، ومن العصر الفاطمى قطع خشبية منقوش عليها مشاهد من الحياة الاجتماعية والفنية ، كالرقص والعزف على آلات موسيقية والصيد .

ومنها محراب السيدة رقية والصور المرسومة بالألوان المائية على الجص من الحمامات المكتشفة حديثًا بالفسطاط .

وهناك مجموعات كبيرة رائعة من الكئوس الزجاجية منقوش على إحداها رسوم غزلان ، وأخرى من الخزف ذات البريق المعدنى الذهبى منذ ثمانية قرون ، ومشكاوات رائعة من الزجاج المموّه بالمينا الملَوّنة .

هذا فضلا عن قطع المعادن والنقود ومجموعات من الأسلحة مرصعة بالجواهر ، وبعضها مكفّت بالفضة والذهب . وكذلك مجموعات السجاد النادرة .. مخيّش بعضها بالذهب والفضة من صناعة أصفهان فى القرن السادس عشر الميلادى .

مدن مازالت آثارها
تمـــلأ العـالم

* الأفلاج .. مفردها فلج ، وهى تسمّى أيضا باسم ليلى ، نسبة إلى قصة الحبّ الخالدة بين قيس وليلى ، وتقع فى حضن جبل طويق هى وبعض القرى غرب الربع الخالى بالمملكة العربية السعودية .

وإذا أردت أن تتنسم ما تركه العاشقان من عبير حبهما العفيف ، فلن يدلك أحد من أهلها آل مرة والدواسر ، لذلك فإن الشاعر أراحنا بقوله :

ولو أن قلب طويق بـاح بسرّه لم يعد ماهو شفّ عنه مجلجلا

وما عليك إلا أن تتلمس أطلال آثارها ، حتى تهتدى إلى أسرارها ، سترى بحيرات وعيونا عذبة تتناثر على سعة من السهل الفسيح ، وبينها على الشطآن تقبع حصون كانت تحمى فى الماضى أهم طرق التجارة فى الجزيرة العربية ، من تلك الحصون ، حصن العقيدة ، حصن بنى عياض ، وحصن العادية ، وحصن آل ضرار ، وبنى صهيب ، وبنى قرط ، وحصون بنى ثور ، كما ترى قصر الأزال يحمل سمات العزّ التليد ، هو قصر سلمى المحاط بخندق من كل جوانبه بعرض عشرة

أمتار وعمق المترين ، لذلك بدا القصر شامخًا وسط الخندق ، فتبدو وقممه من خلف أربعة أسوار أخرى بعرض ثلاثة أمتار ، والقصر مشيّد بشكل سداسى ، وينهض برج كبير للمراقبة والدفاع عند كل زاوية من الأسوار .

ويسكن القصر بعض أهالى البديع ببيوت حديثة التشييد ، لكن حجرة لازالت قائمة على حالها ، ليس لها باب ، وإنما ينزلون إليها من فوق ، لذلك قيل إنها كانت سجنًا فى الماضى ، كما ظل موجودًا للآن مخزن التمر ، لذلك فإن كل من يشاهد القصر يراه قد علا فى السماء بينما أسفله سابح فى الماء ..

وتتّسم بلدة ليلى بالبيوت الصغيرة ذات اللون الأبرش ، انبسطت سطوحها المصنوعة من الطين ، ومما لاشك فيه أن يتوق بالزائر الشوق إلى جبل التوباد الذى كان مرتع صبا العاشقين ، إنه شامخ فى قلب جبل الطويق نفسه ، وفى عرض التوباد غار قيل إن المجنون كان يختبئ فيه وحده أوْ مع ليلاه ، ويرقد على يمين الجبل شعب كان يسرح فيه العاشقان بغنمهما ، بينما تتهاوى بقايا أطلال مقبرة فى أسفل الشعب ، ويكاد الزائر يسمع ترداد أبيات قيس راكعًا أمام الجبل ويقول :

وأجهشت للتوباد حين رأيته وَكَبَّرَ وسبح للرحمن حين رآنى

* دمشق .. هى فى الأصل مشق ، وحرف الدال للنسبة ، وردت فى الهيروغليفية على هذا النحو بمعنى الأرض المزهرة أو الحديقة الغنّاء .

واللفظة آرامية الأصل ، وإرم ذات العماد التى وردت فى القرآن الكريم تعنى دمشق ، وآرام تعنى السهل المرتفع عن سطح البحر ، وهى بالفعل تعلو عنه بألفى قدم . ولك أيها الزائر أن تتخيل لمثل هذا السهل العالى المزهر من جوّ نقىّ ممتع . عمرُ دمشق أربعة آلاف سنة ، فهى بذلك أقدم مدينة فى العالم باقية على عمرانها ولدمشق واديان ، أحدهما يشقه نهر بردى ، والآخر يخترقه نهر الأعوج بدءا من سفوح جبل الثلج ، كما لاتخلو أعالى جبالها من الثلج صيفًا وشتاء .

كثرت فيها آثارها وتعددت حسب العهود التى مرّت بها ، وما برحت عُمدُ الشارع الأعظم (المستقيم) مدفونة على أمتار من سطح الأرض منذ أيام الرومان ، تعلوها الدور والحوانيت ، ومن أعظم آثارهم اثنان وخمسون حصنًا وقلعة أقاموها بين دمشق وتدْمر إلى نهر الفرات ، حيث كانت حاميتها واقفة على الدوام دون تسرّب أهل البادية إلى المعمور من دمشق وأرباضها .

ومن آثار الرومان قلعة دمشق فى غرب دمشق « الأسد الرابض » وعملت فى ترميمها فى سائر أدوارها ، لكن أكثرها تحطّم تاركًا جدرانًا متآكلة ، بينما أقيم فيها جامع على مقربة منه أنقاض كنيسة

حنانيًا التى شيدت فى القرن الرابع الميلادى ، وتناثرت حولها تماثيل وأحجار مهشمة ، وكذلك أنقاض سور حول المدينة .

ومن آثار الأمويين ، قصر الخضراء نسبة إلى قبته ذات اللون الأخضر ، والجامع الأموى الذى تكامل بناؤه فى عشر سنين ، فى مكان معبد للصائبة والكلدان والسريان واليهود وكنيسة ، فبلغت مساحته ربع دمشق القديمة ، وأقيم على أعمدة من الرخام على طبقتين التحتانية كبيرة ، والفوقية صغيرة ، فى خلالها صورة مدينة وشجرة معمولة بالفسيفساء بالذهب والخضرة والصفرة ، فكان أجمل جامع فى الإسلام ، وتعرّض للحريق في دولة الفاطميين وبعدها ست مرّات ، كما أصيب أكثر من مرّة بزلازل أثرت على مآذنه الثلاث وبعض أركانه وشراريفه ، ويعاد إصلاحه فى كل مرة ، وقد وصفه الشعراء وتغنّوا بجمال الجامع أروع وصف .. فأجمعوا على أنه :

ذو قبّة رفعت فضاهت قلة ومنابر بنيت فحاكت معقلا
تبدو الأهلّة فى أعاليها كما يبدو الهلال تعاليا وتهللاً
ويريك سقفا بالرصاص مدثرًا يعلو جدارًا بالرخام مزمّلاً
فإذا تذر الشمس فيه تخاله برقًا تألق أو حريقًا مشعلاً
تبدو القباب بصحنه لك مثلما تبدو العرائس بالحلى لتجتلى
وعلت به فوارة من فضة سالت فظنّوها معينا مسلسلا

ولقد اشتهرت دمشق بحمّاماتها لتدفق المياه عليها من كل صوب ،

وتميّزت مبانيها بالأناقة والنظافة ، وزوّدت منذ القرن العاشر الميلادى بمقاصير من القاشانى البديع وقد بلغ عددها حتى القرن التاسع الهجرى مائة حمام ، كان من أهمها : حمّام الجسر الأبيض ، والسلطان ، والدبس ، والرّاس ، والمناخلية ، ومنجك ، والقناطر ، والقيشانى ، وقصر العظم ، والقارى ، ونور الدين بالبزورية ، والقاضى ، والخياطين ، والموصلى ، وفتحى ، والتوتية ، وحمّامًا الجديد والخراب ، وهى من الحمامات التى تخلّت عن وظيفتها ، حتى حمام الجديد . لكن لازالت توجد حمّامات دمشق المعاصرة وهى : العفيف ، والمقدّم ، والورد ، والجوزة ، والخانجى ، والعمرى ، وأمونة ، والسكاكرى ، والقرمانى والملك الظاهر ، وسامى ، والقيمرية ، والبكرى ، والنوفرة ، والسلسلة ، والحدادين ، وقماحين والناصرى ، وعزّ الدين ، والصفى ، والسروجى ، والتوريزى ، والزين ، والذهب ، والشيخ حسن ، والرفاعى ، والعقيل وحمام الدرب .

وقد تفنن أهل دمشق فى جعل حمّاماتهم آية فنيّة ، فبطنوها بالقاشانى ، وبلّطوها بالرخام ، وعقدوا على أطراف قبابها ، وقرنها عقود الجصّ النافرة ذات الرسوم والتزينيات ، كما أقاموا البحيرات التى تتشامخ فيها نوافير المياه على أشكال بديعة وكان الناس يرتادون الحمامات ليمضوا وقتًا سعيدًا فى الاغتسال وفى تناول الطعام

والاستشفاء من بعض الأمراض ، لذلك لا عجب أن ساد المثل الشعبى الدمشقى على كل الأمثال ، وهو القائل : نعيم الدنيا الحمام .

لكن مع انتشار الحمامات الخاصة فى البيوت ، قلّت أهمية العامّة منها ، ومع ذلك ظلّ عامة القوم يقصدونها للاستحمام ، وما توقّف منها ظلّ أثرًا يُزار .

وإذا حدثتك نفسك أيها السائح أن تستحم بأحدها ، فيجب أن تلمّ بمراسم الدخول إذا كنت من الرجال ، فعليك بحمام الرجال ، وألق السلام لحظة الدخول ، وسيردّ عليك المعلم والناطور والحضور السلام ورحمة الله وبركاته ، وسيرحّب بك المعلم ، وهو يأمر الناطور (عتّب لو يا ولد) ، فيسرع الناطور بتقديم التعتيبة وهى عبارة عن بقجة من المناشف الحريرية عددها ثلاث ، واحدة لصرّ ثيابك ، والثانية تحزّفها على وسطك واسمها الوسط أو الماوية ، والثالثة هى الضهر ، إذ (تلحشها) أى تلقيها على ظهرك وكتفيك لتحمى جسمك من برد البرانى ، وعندما تفرغ من خلع ملابسك سلم المعلم ما لديك من أشياء ذات قيمة ، ثم تدخل إلى الوسطانى لتقضى حاجتك فى بيت الراحة ، ثم يستقبلك التبع مرحبًا ، ويسألك عن كيفية رغبتك فى الاستحمام ، إن كنت تريد مثلاً دواء لإزالة الشعر أم شفرة قبل دخول الحمام ، وهل تريد صابونًا وليفة تحمم بها نفسك ، أم تريد مصوبنا يغسلك ويكيّسك ، وهل تريد مساجًا (تمسيدا) بعد

الاستحمام أم لا ، فإذا أردت الاستحمام بنفسك تركك التبع وأعطاك الصابون والليفة نظير ثمن تنقده إياه ، أمّا إذا كنت تملك الصابون والليفة فإن التبع يخدمك نظير إكرامية حسب كرمك .

وإذا أردت الاستحمام بواسطة المصرين ، فإن الريس يتسلّمك إذا كان خاليًا ، أو التبع إذا كان المصوبن مشغولاً ، ويجلسك على مصطبة بيت النار ، حيث يرش لك الماء على البلاطات فيتصاعد البخار ليغطّيك ، وتعرق ، ويتحلل وسخ جسدك ، وفى هذه الأثناء يحضر التبع آنية مملوءة بالماء الساخن يضعها بين قدميك لتضعهما فيها مما يساعد على تخفيف تعبك ، ثم تتبع تبعك إلى مقصورة الصنعة بعد أن يجىء دورك ، فيتسلمك المكيّس ، لأن بيده كيسًا من الصوف أو الوبر ، ويتعمد أن يغسل الكيس أمامك جيدًا بالصابون قبل استعماله ، ويجلسك أمامه وجها لوجه بادئًا بأخذ يدك اليمنى يفركها بالكيس ، ثم اليسرى ، فقفاك فصدرك ثم وجه ساقيك ، وينادى على التبع (هات راسية يا ولد) ، فيلبى هذا على الفور محضرًا منشفة فيلفها على شكل كعكة ليضعها على رأسك بعد أن يديرك ويرفع يديك مع الرأسية ثم ينصرف تاركًا الريّس يواصل التفريك بادئًا هذه المرّة من الساقين صاعدًا إلى ما بين الكتفين ، ثم يديرك وجهًا لوجه ، فيفرك تحت إبطيك بدون إضحاك ، ويفرك الرأس والكتفين والوجه إذا أردت .

نعم لا يخلو هذا العمل الشاق من إرهاق لك كمستحم ، ولكن النظافة من الإيمان ، فما بالك إن كانت هذه المراسم تجرى أيضًا فى حمامات السيدات وأكثر .. لذلك قال الشاعر :

أشكو إلى الله بلاّنا بليت بـه ... مسّت أنامله ظهرى فأدمانى

فـلا يدلك تدليكًا بمعرفـة ... ولا يسرّح تسريحًا بإحسـان

وتلى هذه المراسم عمليات صبّ الماء الساخن فيزول الوسخ ، ثم التدليك إذا أردت ، ثم يغسلون لك رأسك ثلاثة أو أربعة أدوار ويصب الماء الساخن عليها لإزالة الصابون ، حتى إذا ما زقزق شعرك ينتهى الغسيل ، لتبدأ بعدئذ عملية الصوبنة بتفوير الصابون بماء ساخن ، ثم الطبطبة بلطف على صلب مع التهنئة بكلمة « نعيمًا » فتنهض ويسكب الريّس ماء عليك حسب رغبتك حارًّا أو فاترًا أو باردًا ، ولا ينقطع التبع عن التجوال على سائر المستحمين ليلبى طلباتهم من ماء شرب أو زيادة حرارة الماء أو زيادة المياه الباردة ، حتى تحضرّ المناشف البيضاء ، يلف الريّس واحدة حول وسطك ، وأخرى يلقيها على ظهرك وكتفيك ، فتنقل إلى الوسطانى ، حيث ينادى على الناطور لتغيير المناشف لك بأخرى جافة ، ويراعى الناطور أن ينشفك جيدًا إن كان الجوّ شتاء ، ثم يتوجه بك إلى البرّانى فإلى المصطبة لتجلس عليها وتستريح حتى يبرد عرقك ، وتتكرر دائما كلمة نعيمًا .

هذه التفـاصيل إنما سُقتها لتدرك مدى العناية التى كانت تتبع لضمان عدم الإصابة بنزلة برد أو التهاب رئوى بعد الخروج ، فيسقونك ما تشاء من مشروبات باردة أو ساخنة بدءا من اللمازوز والعصائر ، ومرورًا بالشاى والقهوة والزهورات واليانسون والقرفة والزنجبيل ومع كل هذه العنايات وقعت حوادث بالحمامات كالسرقات فى حمامات الرجال والسيدات على السواء ، كما كانت تقع حوادث سرقات الصغار من أمهاتهم بعد ما يسمى بحمام الفسخ لدى اللائى يضعن أو يلدْن بتسعة أيام .

كما كانت تكثر حوادث الزلق ، ومشاجرات السيدات ، ومع ذلك لا يتوقف الإقبال على هذه الحمامات لعراقتها ، وتمسّكها بتقاليد شعبية تستحق النظر والتسجيل .

* **تدْمرُ** .. يعود ذكرها إلى الألف الثالث قبل الميلاد ، ومعناها بالآرامية (ملك) ، حتى بعد أن أطلق عليها الرومان اسم بالميرا ، ظلّ اسمها صامدًا حتى يومنا هذا ، وكان لها استقلالية وحياد بين الفرس والروم كلما تقاتلا ، فاكتسبت شهرة تجارية على مرّ التاريخ ، كما اقترن اسمها بملكتها زنوبيا أكثر النساء ذكاء وعلمًا ، ويكفى أنها تلقّت الدروس على يد الفيلسوف السورى كاسيوس لونجينوس فى حمص ، لذلك فإن الرومان عندما اغتالوا زوجها الحاكم ، كانت على أتم استعداد لتولّى الأمور ، فوضعت ابنها الصغير « وهب اللات » على العرش

ونصبت نفسها وصية عليه ، وظلّت تتحين الفرصة بحذر شديد ، التى تطرد فيها الجيوش الرومانية من الشرق ، وتوطد قوة أسرتها الحاكمة فى المملكة التى ستعمل على توحيدها إلى الأبد .

ولمّا تأكد لزنوبيا أن سكان المناطق غير راضين عن الحكم الرومانى ، ولسوف ينضمون إليها لمعاونتها ، ويمكنها أن تعقد تحالفًا مع الفرس ، كما انضم الجيش بقواده لها ، واحتل سوريا وفلسطين ومصر . ووصل شمالاً إلى البسفور والدردنيل ، إلا أن الحرب طال أمدها بعد أن اشتد أوارها .. فانخفضت الموارد الاقتصادية ، ونضبت القوة العسكرية ، بينما تولى أمر الرومان حاكم جديد رأى إيقاف القتال فى كل الميادين ما عدا زنوبيا الثائرة ، وما لبثت أن هُزمت قواتها فى أنطاكية ، وتراجعت إلى حمص ، وانكمش المقاتلون داخل أسوار تدمر ، وظلت زنوبيا بين المدافعين داخل الحصار مع مفاوضات التسليم عدة أسابيع ، لكنها فجأة غابت عن الأنظار ، مما أقلق قائد الرومان وأرسل الفرسان فى شتى الاتجاهات يبحثون عنها ، دون جدوى .

أمّا هى فتسللت هى وبناتها وابنها نحو حدود فارس لعقد تحالف بينها وبين سابور الأول ضد الرومان ، وكادت تنجح لولا أن أدركها الفرسان عند نهر الفرات فقبضوا عليها بينما استطاع ابنها العبور بخداعه لمطاردته ، مما اضطر إلى تغيير وجهته فلجأ إلى أرمينيا .

وكبّلت زنوبيا بسلاسل ذهبية ، وأرسلت هى وبناتها إلى روما أسيرة لإعدامها ، لكن حكام روما كرمّوا إخلاصها لذكرى زوجها ،

فأطلقوا سراحها لتعيش بقية حياتها هناك ، بينما تزوجت بناتها من أرستقراطيي روما ، وثار أهل تدمر لأسر ملكتهم فقتلوا الحامية الرومانية فانتقم أورليان منهم بتدمير مدينتهم ، ولازالت تدمر مليئة بأسرار الآثار الآشورية والآرامية والرومانية كالمعابد الضخمة والمسرح وأقواس النصر وصفوف الأعمدة .

كما تقع بالقرب من ساحة الآثار بعض القبور الجميلة ، منها قبر الإخوة الثلاثة مقام منذ عام ١٤٠ ميلادية ، وهو مدفن متسع له قناطر تحت الأرض ، وكذلك مقبرة أتيناتام التى تتميز بكتابة منقوشة عليها منذ عام ٩٨ م ، ووادى المقابر ذات الأبراج المتفاوتة فى أحجامها ، وأكبرها برج جامبليك المقام منذ عام ٨٣ قبل الميلاد على المنحدر الشمالى لتلة أم بلقيس ، ويتكون من خمسة طوابق يدعم أحدها صخرتان على شكل رأسى نسر وأسد .

* **الرقة** .. هو الاسم العربى منذ اتخذها هارون الرشيد مصيفًا له ، لأنها تقع على الضفة الغربية لنهر الفرات ضمن الأراضى الشامية ، وهى نظرًا لارتفاعها نسبيًا فقد تمتعت بمناخ منشط ، يمنحها ميزة سياحية صيفًا وشتاء ، لكن الرقة أقدم فى العمر من اسمها العربى ، إذ يبلغ عمرها ثمانية آلاف سنة منذ العصر الحجرى فكانت مركزا لتجمع بشرى وتبادل تجارى وزراعى .

وكانت منطقة الرقة مركزًا لإمارة آرامية اسمها بيت آدين ، ضمن

الإمارات الآرامية على الفرات التى تؤلف حلفًا فى وجه الدول الطامعة ، حتى اكتسحها الآشوريون فى منتصف القرن التاسع قبل الميلاد ، ونقل ملك آشور كثيرًا من أهلها إلى نهر دجلة بمدينة كالح .

واتخذت الرقة اسمًا آخر فى العهدين الإغريقى والرومانى هو نيقوفوريوم ، ثم تعددت أسماؤها بتعدد القادة الغزاة ، واكتسبت أهمية خلال الحروب بين الفرس الساسانيين وبين البيزنطيين ، كما نالها من ويلات الحروب بقدر ما اكتسبته من أهمية حتى استقرت تحت حكم الروم بانتصارهم مثلما تنبأ القرآن الكريم مسبقا .

ومنذ فتح العرب الرقة اهتموا بها ، وشيدوا حولها سورًا ، وتعددت ضواحيها ، فالرقة البيضاء ، وهى الأكبر ، والرقة السوداء شرق الأولى ، والرقة المعوجة التى تقوم فوقها الآن رقّة سمرا . على ضفة الفرات الشرقية ، وزاد حظها من الاهتمام فى عهدى الدولتين الأموية والعباسية على السواء ، لكن خبا نجمها فى عهد الدولة الحمدانية فلم تلق إلا التجاهل والإهمال . ومدينة بهذا التاريخ ، صار من المتوقع أن تحوى عددًا من الآثار فى كثير من الحفريات .. ومنها على سبيل المثال بقايا السور وبه بوابة بغداد وقد عثر فى السور على تمثال ثمين لفارس يمتطى صهوة جواده مطلى بالذهب ، وكذلك قصر البنات الذى اكتشف حديثا عام ١٩٧٩ وبه زخارف جصيّة فى منتهى الرقة والجمال ، فضلاً عن جامع الرقة بمئذنته ورواقه .

* جرش .. هى واحدة من مدن عشر ، باسم مجموعة الديكابولوس ، للدفاع عن سوريا حينما كانت تابعة للرومان ضد مملكة الأنباط المستقلة فى الجنوب ، لكن هذه المجموعة فقدت أهميتها الدفاعية حينما استولى قائد الرومان على الأنباط ، ومع ذلك ظلت جرش مكتسبة أهمية خاصة نبعت من وجودها على مفترق طرق التجارة الدولية فى العالم القديم ، فضلاً عن أنها صارت فى قلب ولاية بلاد العرب بالقرب من عاصمتها الإقليمية بُصرى جنوب سوريا اليوم ، وهى منطقة كانت متمتعة بخصوبة أرضها ، فأسبغ عليها هذا وذاك نعيمًا ، وحقبة من الازدهار امتدت إلى قرنين من الزمان الثانى والثالث الميلاديين ..

فكانت هى العصر الذهبى لجرش ، وعلى الرغم من تاريخ إنشاء جرش غير معروف تمامًا بسبب عدم العثور بين الحفريات حتى الآن على ما يبيّن ذلك ، إلا أنه يمكن الاستناد إلى شواهد ترجح أنها لألف وخمسمائة سنة قبل الميلاد ، فقد عُثر على أرضية حجرية لبناء من العصر الإغريقى يعود تاريخه إلى منتصف القرن الثانى قبل الميلاد ، ومن آثار جرش الشهيرة : معبد الإله زيوس كبير الآلهة عند اليونان ، ويقع على قمة تلّة هى فى الغالب تلة « كامب هل » ، وهو المعبد الرئيسى ، وتزامنت الأوانى الفخارية هناك مع الكتابات المنقوشة والمصنوعات التى وجدت على مصطبة المعبد ، وللمدينة سوران :

أولها رومانى بلغ سمك جداره ١,٧٥ مترا ، وثانيهما أكثر سمكًا يعود تاريخه إلى القرن الرابع الميلادى ، كما أن للمدينة مسرحين ، شمالى بواجهته الأمامية وبوابته ، وجنوبى وهو المسرح الأكبر لأنه احتوى على اثنين وعشرين صفًا من المقاعد ، ويوجد منقوشًا على بعض المقاعد بقاعة الاجتماعات العامة أسماء آلهة اليونان ، كما بلغت سعته ألفا وستمائة شخص ، ويبدو أثرُ طريقين رئيسين فى المدينة هما دكيومانوس » و « كاردو » تتخللهما أقواس تذكارية فى نقاط التقاء الشوارع ، كما تحدد جانبى كل طريق أعمدة ذات تيجان ، وكتل حجرية منقوش عليها إله الشمس والقمر ، وبحلول القرن الرابع الميلادى صارت تفقد هذه المنطقة مكانتها ، فتهدم المسرح الشمالى بفعل الزلازل ، واستعان الأهالى بأحجاره فى منتصف القرن السادس لبناء كنيسة بجوار أرض المسرح من ناحية غربه .. وظلت عامرة حتى نهاية القرن الثامن الميلادى لمّا حطمها زلزال آخر ..

وآثار الكنيسة تدل على أنها بنيت على الطراز الرومانى البازيليكى بأضلاعها الثلاثة النصف دائرية والبارزة للخارج ، ودلت أرضيتها أنها كانت مكسوّة بالفسيفساء البديعة ونقوش هندسية مربعة ومعيّنة ، وصور لمقدمى الهبات للكنيسة ، وكلمات منقوشة وطيور وغزلان وطواويس وزهور ونباتات الكرمة ، كلها بدت مطموسة بفعل فاعل ، هو الخليفة الأموى يزيد الثانى الذى أمر بتحطيم التماثيل وطمس الصور .

كما نجد معالم آثار إسلامية من القرنين السابع والثامن الميلاديين ، تدل على ازدهار جرش ثانية ، واشتهرت بأفران وقمائن لصناعة الأوانى النموذجية من الفخار ، وأكسدتها بأحد لونين البنى أو الأحمر ، وتحتوى قبة القمينة - التى لا يزيد ارتفاعها عن مترين ونصف المتر ، على صندوق حرارى خارجى وحجرة داخلية تمرّ منها الحرارة ، ولازالت هناك غرفة داخلية إلى الأعلى تستند على منصّة فريدة فى نوعها بالشرق ، فهى مصنوعة من حجر البازلت والطوب المحشو بقطع حجارة صغيرة ولازال بجرش آثار خمسة عشر كنيسة ، وقبور محفورة فى باطن الأرض عليها نقوش وأشكال واضحة كما وجدت آثار من البيوت المنتمية للعصر الأموى بتقسيماتها ذات العشر غرف على جانبى فناء غير منتظم . بقى لك أيها الزائر أن تسأل ما أصل اسم جرش هذا ؟ .. هل هو عربى ؟ إن اسمها جيراسا وعرّب إلى جرش ، ومع ذلك فقد كان اسمها منذ نشأتها هو أنتيوك .

* **ديلمون** .. اسم غريب عليك يا عزيزى الزائر ، فكيف تتجه إليها وأنت لم تسمع عنها ؟ أين هى ؟ إن البحث عنها يحتاج منك كسائح باحث أن تثابر قليلاً لمعرفتها . لقد ظل السومريّون والآشوريون والبابليون طوال حوالى ألفين من السنين (بين الألف الثالث والأول قبل الميلاد) يكتبون بكثرة عن بلاد غنية مزدهرة أطلقوا عليها هذا الاسم (ديلمون) ، وأنها بلاد الحياة الأبدية ، وأنها

موجودة بعيدًا فى الجنوب ، وراء الماء المرّ !! (الخليج العربى) عند مكان شروق الشمس .

هل حدّدت المكان بالتقريب ، وبالتالى نضع أقدامنا على أطرافه ؟ لنحاول تقريبه إلى الأذهان .. إنها مرتبطة بقصة الطوفان وأسطورة جلجاميش ، الذى بحث عن أرض ديلمون قاصدًا البحث عن الخلود ، فالنصوص الآشورية تتحدث عن هذه الأرض بصورة حسيّة كبلاد فعلية لها وجود فى عالم الواقع ، أما الأساطير السومرية فتجعل من ديلمون مسكنًا أبديًّا لجدّ البشر الخالد الأول .

ولأختصر لك الطريق ، مدخرًا جهدك لمتعة المشاهدة ، إذ أمامك خط بحرى واصل ما بين أرض السند فى الهند وما بين النهرين مارًّا بعُمان وجزر البحرين البالغة خمسة وعشرين جزيرة جنوب الخليج العربى ، ذلك الخط العامر بمنارات حضارية منذ ما قبل التاريخ الميلادى بزهاء ثلاثمائة قرن .

والحفريات واللقيات الأثرية ، تكشف عن تشابه فى الأحداث وتوازى خطوط المسار فى هذا الحيّز المؤكد ، فنوع النحاس المستخرج من منجم قديم فى عمان هو نفسه الذى عثر على أوانٍ منه فيما بين النهرين ، ووجود خمسة عشر ختمًا مربعة من الحجر الصابونى تحمل صورة ثور صناعة هندية فى عُمان ، والبحرين ، وما بين النهرين ، لكن وجود أربعة أختام أسطوانية الصنع من البحرين فى السند بنفس

الرسم يدل على الصلة الوثيقة بين مركزى الحضارتين . وإضافة إلى ذلك أن طبيعة الأرض فى أكبر جزيرة من جزر البحرين تتميز بالمياه العذبة والأشجار الكثيفة والتلال الأثرية التى بلغت المائة ، وعمرت بالحفريات المتقدمة ليدلّ دلالة قاطعة بأن البحرين شاركت مشاركة فعالة فى حضارتى الهند وما بين الرافدين ، وقد تم اكتشاف أطلال معبد قديم ضخم قرب بلدة بربر هناك ، وهو شبيه بالمعابد السومرية فى تلك الفترة ، وظهرت أنقاض مدينة أثرية فى نطاق الحصن البرتغالى على الساحل الشمالى للجزيرة ، وأثبتت البحوث أنها مدينة تتوزع آثارها أفقيًّا فى خمس طبقات حضارية ، ففيها قطع فخارية وخزفية بنوع من التزيينات والنقوش والزخارف فريدة فى نوعها ، كما أكد وجود رأس ثور كبير من النحاس فى أنقاض المعبد تشابهها مع رءوس من هذا النوع فى مدافن ملوك الهند ، وكذلك خاتمان ذهبيان وحطام تمثاليين من عاج الفيل ، ومدائح دينية سومرية .

وعلى الرغم من كل هذه الشواهد ، فلازالت الحيرة تملأ نفوس العلماء هل البحرين أم السند هى دولة ديلمون الأسطورية التى نجت من الطوفان ، ولازال الأمر يتطلب منك كسائح باحث أن تستوثق بنفسك .

فى الهند .. أو جزيرة الكمثرى (جامبودفينا) ، تلك القارة المنعزلة عن قارة آسيا فى الجنوب ، ويطلق عليها اسم القارة مجازًا .. نظرًا

لأتساعها وكثافة سكانها ، وتعدد مراكز الحضارة فيها ، ومن الصعب في هذا الحيّز الضيق سردها ، وإنما بالإمكان انتقاء أهمها من حيث كثرة آثارها وقدمها ، ففى الجنوب الغربى ، أرض السند الذى سبق الإشارة إليها ، وبها بومباى ميناؤها الكبير ، كما توجد فى الشمال دلهى العاصمة السياسية ، وجنوبها الشرقى بقليل توجد بنارس مركز الديانة الهندوسية .

وتتناثر فى سائر غاباتها أديرة ، تسمى أشرام للعبادة والتفكير المجرد ، ومن أشهر أساتذة هذا التفكير عالمهم المستنير (بوذا) صاحب الديانة التى يتبعها أكبر عدد من الأتباع فى العالم ، لذلك تربعت تماثيل بوذا فى سائر معابدها .

ومن أشهر آثار القارة الهندية غير المعابد فى الغابات ، معبد تانجورا الذى كانت تعلوه كتلة من الجرانيت تزن ما يقرب من ثمانين طنًّا ، وفى داخل المعبد تمثال ثور اقتطع فى كتلة من الجرانيت الأسود ، يبلغ طوله اثنتا عشرة قدمًا وحجمه ست عشرة قدما .

وفى منطقة أجـونتا تسعة وعشرون كهفًا ، تزيّنها تماثيـل الديانات الثلاثة البوذية والهندوكية والسيخية ، أكبرها يبلغ ارتفاعه ٩٥ قدمًا وعرضه اثنا عشر مترًا ونصف المتر .

كما يلفت النظر فى الجنوب تمثال عربات الحرب السبع ، نحتت كل عربة من كتلة من الصخر يبلغ اتساعها عشرة أقدام مربعة ،

وارتفاعها ثمانى عشرة قدما ، وكان تشييدها تكريمًا لرجل الدين المقدس دراوابادى ، وأقام المثالون عربة أخرى أكبر على مساحة ٤٨ قدمًا ولكن تكريمًا هذه المرة لزعيم دينى آخر هو يود شيثيرا . وإنك تحس مهارة المثالين فى قدرتهم على حفر هذه التماثيل فى صخر الجرانيت .

وهناك آثار إسلامية منذ العهدين العربى والمغولى ، على رأسها جامع اللؤلؤة بدلهى الذى يتسع لمائتى ألف مُصَلٍّ . ومن أجمل الآثار العالمية قصر تاج محلّ الذى شيده شاه جيهان تخليدًا لذكرى زوجته الملكة ، التى كان يحبها حبًّا شديدًا ، وكلا الاثنين قد كسيا بالرخام الأبيض .

وفى جبل من الجرانيت الأسود بالقرب من بلدة اللورا ، شق بناء معبد كابلاسا بفناء طوله ثلاثة وثمانون مترًا وعرضه ستة وأربعون مترًا ، حيث أقيم الهيكل بارتفاع ثماة وعشرين مترا ، وبلغ طوله تسعة وأربعين مترًا ، وللهيكل شرفة ، كما أن بداخله غرفة فسيحة تقوم فى وسطها غرفة صغيرة هى مكان العبادة الداخلى ، وتحيط بهذا كله من الداخل والخارج إطارات من النقوش تتنوع بين التماثيل ضخمة وأخرى صغيرة دقيقة .

وإن دل هذا كله على شىء فإنما يدل على تنافس حضارات الغزاة فى إثبات قدرتهم الفكرية والعضلية أيضًا على تشييد هذه المنشئات الضخمة ، فضلاً عن لمسات الفن المغولى والفارسى فى تزيين

جدرانها ، وإذا نسينا فلا ننسى عرش الطاووس الذى كان مضرب المثل على تكثيف المجوهرات ودقة صناعته الهندية ، والتى نقله الغزاة الفرس إلى كسرى ليجلس عليه .

فى اليابان .. من أقدم النظم الإمبراطورية فى العالم ، ومن ثم فهى تمتلك تاريخًا عريقًا ، وآثارًا موغلة فى القدم للمعابد ، ومع ذلك فلم تعد هذه الآثار ممثلة لثروتها الحاضرة ، وإنما ما لفت الأنظار إليها هى قفزتها المعجزة ، لا لمسايرة ركب الحضارة التقنية الحديثة فحسب ، بل للمنافسة على الصدارة فى هذا المضمار ، لذلك أصبحت قبلة سياح العالم ورجال الأعمال لمعرفة سرّ هذه الطفرة ، ومشاهدة منجزاتها ، فبرغم صغر حجمها ، وكثرة سكانها ، ونقص مواردها الطبيعية ، وهزيمتها الساحقة فى الحرب العالمية الثانية ، وضياع امبراطوريتها وأسواقها . بالرغم من ذلك كله ، تحتل الآن مقدمة الدول المتقدمة ، وتعدّل من تشكيل الأرض لتواجه حاجة مجتمع صناعى وحضرى حديث ، فى نظم النقل ، ومشروعًا للإسكان ، واستخدام الآلات والكمبيوتر والطاقات المخلّقة المستحدثة فى جميع المرافق التى تقام بسرعة مذهلة من الخرسانة المسلحة والصلب والزجاج والألومنيوم .

وأول ما يلفت النظر فى طوكيو برج الإرسال التليفزيونى الذى يرتفع عن برج إيفل فى باريس بعدة أقدام . والنباتات الشاهقة التى

تحتوى كل واحدة منها مستلزمات الحياة الكاملة ، كاكتفاء ذاتى ورخاء شامل ، من مخازن وأسواق خضر وفواكه ، ومحلات بيع أدوات كهربائية وتصوير ، ومقاهٍ ومسارح ومطاعم ومراكز لهو وكباريهات ، وصالات الباشنكو العريقة التى تشمل ماكينات البلى اليابانية الطراز . وتجدر ملاحظة أن اليابان يتمتع شعبها بأعلى نسبة تعليم فى العالم ، فبلغت ٩٨٪ من الشعب متعلمين . كما وصلت عمليات استصلاح أراضيها القليلة للزراعة ، واللجوء إلى الزراعة الكثيفة وتسوية الأراضى ، وتدريج المرتفعات إلى مسطحات تستوعب كل أنواع المحاصل الملائمة لمناخها ، حتى بلغ الإنتاج الزراعى من وحدة الأرض أعلى نسبة إنتاج فى آسيا باستخدام التكنولوجيا الحديثة والتآلية ، وصارت تسدّ ٨٥٪ من احتياجاتها الغذائية .

ومن المشروعات الشائعة التى صارت جديرة بالمشاهدة والاقتداء مصائد الأسماك ، وبناء أسطول صيد السمك ، فى أعالى البحار ، وسفن أبحاث للعثور على مناطق جديدة للصيد بعيدًا عن المياه الإقليمية للبلاد مثل الصين وأندونيسيا وأمريكا اللاتينية ، وإقامة مصانع عائمة لمعالجة الأسماك ، ومراكز للتدريب الفنى ، كما تواصل عقد اتفاقيات مع الدول ذات السواحل للمشاركة فى عمليات الصيد بها .

ومصانع اليابان الضخمة الأشبه بمدن قائمة بذاتها ، تستحق من السائحين ، أن يتخلصوا من ربقة الماضى قليلاً وآثاره ، متطلعين إلى المستقبل المنتظر فى العالم ، والذى تحققت بوادر معجزته فى بلاد

الشمس المشرقة .. فمصنع ياواتا من أكبر مصانع العالم للصلب وأفرانه ، ممتدا على الخليج لطوكيو وشمال كيوشو ، ومصانع السفن والسيارات العملاقة .

ومن معجزة اليابان اليوم تسييرها أسرع قطارات فى العالم ، تسير على وسائد هوائية .. تغلّبًا على وعورة الأرض واختصارًا للوقت وربطًا للجزر ببعضها .. وخاصة الجزر الكبرى بها المتمثلة فى هنشو وشيكوكو وكيوشو وهوكايدو .

فى أسبانيا (أشبيلية) .. أظن أنه ليس من المعقول تجاهل أول دولة فى مجال النشاط السياحى العالمى ، أعنى أسبانيا ، التى صار دخلها فيها يمثل أهم عناصر ميزانها الاقتصادى ، واستخدمت كل صغيرة وكبيرة من آثارها وعادات شعبها وتقاليده ، وكذلك أماكن اللهو بها ، ومصارعة الثيران التى لا مثيل لها .

ويبدو أن ترحيب أهل أسبانيا بالسياح كضيوف لهم ، نابع من اتباعهم بعض العادات العربية القديمة .. فالأسبانى عندما يحييك ، تزوره فى بيته للمرة الأولى ، يقول لك أنت فى بيتك Estensu Casa , أو عندما تبدى إعجابك بما فى حوزة صديقك ، ردّ عليك بالقول إنها تحت تصرفك Est a su Disposicion , وهى عبارات المجاملة المهذبة التى شاع استخدامها منذ ألف سنة . كذلك صياح

الأسبانى معبرًا عن إعجابه براقصة أو مغنية بقـوله الله الله . Oli , Oli
أما أشبيلية ، فهى حاضرة إقليم الأندلس فى الجنوب وإحدى مدن أسبانيا الكبرى ، ولا زالت المسحة العربية غالبة عليها وباقية ، فتشتهر منازلها بصحون هى بمثابة غرف جلوس جذابة فى الهواء الطلق ، وبإمكانك رؤية هذه الصحون الجميلة من خلال شبكات البوابات الحديدية على الشارع ، وقد رصفت برخام وردى اللون ، وجدران مكسوّة بقيشانى ذى زرقة داكنة ، وتتوسطها نافورات تحيط بها قدور الزهر والياسمين ، كذلك ترى برج الأجراس فى الكاتدرائية ، الذى كان مئذنة مسجد قبل إحلال الكنيسة محله ، وما قصر الأسرة المالكة أيضًا إلا قصرًا عربيًا قديما أدخلت عليه بعض الإصلاحات والتعديلات ، وتحدد الاهتمام بحدائق القصر الممتلئة بأشجار الشرو والورود . وتزيِّنه النافورات والبحيرات الصناعية ، كما يحتوى على استراحة صيفية ذات طراز عربى فريد .

ومن أهم المناسبات الموسمية التى يحجز السياح قبلها بشهور لمشاهدتها ، أسبوع الآلام ، فمنذ يوم الثلاثاء السابق على الجمعة الحزينة تمتلئ الشوارع ليلاً ونهارًا بمواكب النوادى الدينية يضم كل موكب سائر أربعين رجلاً بجوار منصّتهم التى تعلوها تماثيل دينية للعذراء (عذراء الأمل) تلك القديسة المحببة إلى الفقراء ومصارعى الثيران ، وتستغرق مسيرة الموكب فى شارع الثعابين

الضيق عشر ساعات وسط الزحام ، وهناك أيضًا موكب عذراء الملوك التى يحملها الناس من الكاتدرائية فى شوارع المدينة ، وتدق نواقيس برج ، أو مئذنة الخيرالدا ، فتكسى واجهات المنازل بالحرائر وتزين بالزهر ، وهى أقدم عذارى أشبيلية ، وتروى عنها أساطير شجاعتها فى الدفاع عن المدينة ، ومن الاحتفالات أيضًا رحلات نادرة الأضرحة المشهورة فى الريف ، وتسمى رحلات الحج فى مواكب تبدأ فى الصيف بعيد العنصرة ، وتضم أعدادًا كبيرة من الناس وكذلك الغجر الذى يقطنون مغارات خارج أشبيلية ، ويلبسون ملابس مبهرة والفتيات أيضا يتزينّ بأحزمة جميلة ، وعربات تنضم إلى الموكب فى الطريق ، وجياد براكبيها من الفرسان ، وكلها تدخل البهجة والسرور على الجميع .

ومن مراكز السياحة الأثرية الأخرى غرناطة وقصر الحمراء ، الذى كان للأديب السياحى الأمريكى وشنطن أرفنج فضل جذب أنظار العالم إليه بمجموعته القصصية التى كتبها من داخل القصر ، فلفت نظر الحكومة نفسها للعناية بالقصر وترميمه وتجديده . ومن المراكز الأخرى طليطلة وقرطبة ومدريد وغيرها ، ولكل منها سحرها الخاص بها ، وتجاوزت فيها الآثار الرومانية والإسلامية والإغريقية ، وبعضها منقول إلى متحف برادو الذى يضاهى متحف اللوفر بباريس ، ولا زالت مدريد تفخر بمكتبة الاسكوريال العربية الأصل .

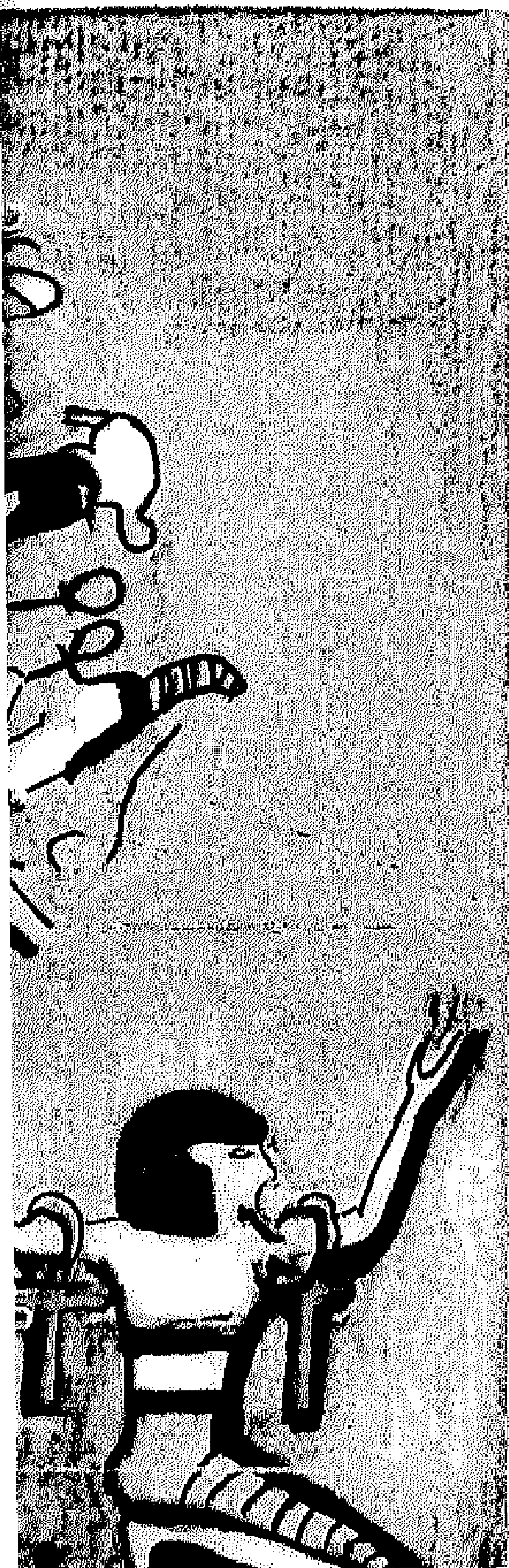
فهرس

صفحة

رقم الإيداع	١٩٩٣ / ٨٤٩٠
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-4226-8

١ / ٩٣ / ٣٨

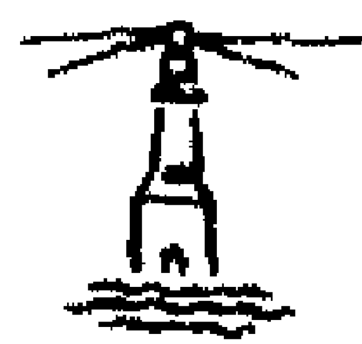
طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)



ربما يكون الأدب السياحى جديدًا على أدبنا العربى ، إذ لم نسمع من قبل عن أديب تخصص فى هذا النوع من الكتابة .. مع أنه أدب شاعت فنونه فى الآداب غير العربية. فما الذى جعل أدبنا يخلو من السياحة ؟ .

كتاب جديد فى موضوعه بقلم كاتب - يُجيد التعبير بأسلوب سهل لا يخلو من العمق الذى يليق بمادة هذا الكتاب الذى لا غنى عنه ..

٣٠٢٣٢٤



دار المعارف

اقرأ

سلسلة ثقافية شهرية

رجب سعد السيد

الأرض.. شفاها الله



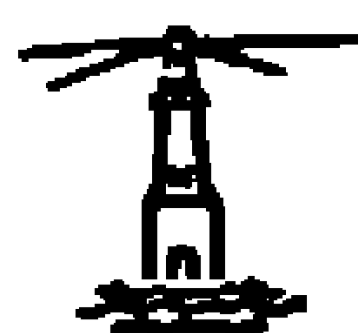
اقرأ

[٥٨٧]

الأرض .. شفاها الله

رجب سعد السيد

الأرض.. شفاها الله



دار المعارف

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها ، لم يفكروا إلا فى شىء واحد ، هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة ، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية . وأن ينتفعوا ، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة ، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى نحياها .

طه حسين

. . . إلى أيام قادمة ومعها شوق
إلى وأمل فى حياة أكثر أمنًا
ورخاء لنا ولأبنائنا .

ر . س .

تقـــديم

يأمل الكاتب ، من وراء هذا الكتاب ، أن يستميلك – قارئى العزيز – إلى صفوف أنصار صون البيئة ، الذين يتزايد عددهم فى العالم يومًا بعد يوم .

ولهؤلاء الأنصار مهمة شاقة تؤرقهم ليلهم ونهارهم ، وهى الأخذ بيد كوكبنا ، المثقل بالأمراض ، إلى عتبات الشفاء .

ولدى هؤلاء الداعين إلى صون بيئة البشر قناعة بأن الطريق إلى العلاج ، يبدأ بكل نفس بشرية تتنفس هواء الأرض الملوث بالغازات ، ويؤرقها نضوب الموارد الطبيعية فى المستقبل القريب ، وتستعمل مياهًا يتهددها التلوث وتوشك على النفاد فى بعض الأقاليم ...

فمن الذى يلوث الهواء والمياه ويقتل الأشجار ؟

إنهم البشر سكان نفس الكوكب المرهق الذى أصبح ، تحت التأثير المترامى لمشاكل البيئة ، وحدة واحدة ، لا يملك أى من قاطنيه أن ينأى بنفسه عن الأخطار البيئية إذا أدت إلى الكوارث ، ولا أن يتنصل من مسئولية المشاركة فى مواجهة هذه الأخطار ...

يجب أن نملك الشجاعة لنقول : إننا شاركنا – بصورة أو بأخرى – فى الخطأ ، وأن نسعى إلى الحد من آثار أخطائنا ، وتنظيف بيتنا الكبير .. الأرض ! .. إن لم يكن لصالحنا ، فمن أجل أولادنا وأحفادنا ...

وهذا الكتاب ليس إلا جهدًا متواضعًا فى هذا السعى ، قد لا تجد فيه إحاطة كاملة بقضايا البيئة – فهذا ليس هدفه – وإنما يرجو أن يأخذ بيدك إلى مزيد من الاهتمام بالمسائل البيئية ، وإلى رف الكتب لقراءة أكثر اتساعًا بالموضوع ...

قد تبدو الرؤية غير ناصعة فى بعض صفحات الكتاب التى تعرض لآراء غير المتفائلين ، ولكنك ستجد التفاؤل ظاهرًا فى مواقع كثيرة تعرض لجهود علماء وهيئات ، هدفهم تحسين صورة مستقبل الحياة على سطح الأرض .

ونحن مع المتفائلين .. فهل تنضم إلينا ؟

رجب سعد السيد
باحث علوم البحار
الأنفوشى – الإسكندرية
١٩٩٢/٤/٣٠

الأرض . . . شفـاهـا الله !

نعم ، الأرض مريضة ، لقد فحصها أطباؤها ، وجاء تقريرهم عن حالتها الصحية مؤسفًا ، إنها تعانى ، فى الوقت الحاضر ، من أمراض تجعلها – فى مواقع عديدة – تفتقد الكثير من مميزاتها كبيئة صالحة لاحتضان الحياة ، أما توقعات المستقبل – إذا استمر الحال على ما هو عليه دون تدخل علاجى – فأقل ما يمكن أن توصف به : أنهـا مخيفة .

لقد تمكن الأطباء – علماء البيئة – من تشخيص أمراض الأرض كخطوة أولى لمواجهة سوء حالتها ، وهم – فى نفس الوقت – يصفون الدواء وطريقة العلاج فى قائمة يضعونها تحت نظر العالم كله ، إن المريض (شخصية عالمية) ، ويجب أن يلقى اهتماما عالميًّا ؛ فمشاكله الصحية لا تجدى معها جهود دولة واحدة ، إن بحرًا واحدًا من بحار الأرض ، هو بحر الشمال ، يتسمم سنويًّا بـ ٧٧ ألف طن من الرصاص و ٥٩ ألف طن من النحاس ، و ٣١ ألف طن من الزنك ، و٤٤٠٠ طن من الزئبق ، وهذه السموم التى تتسرب إلى جسم البحر تتوزع على مياه الدول المشتركة فى الإطلال عليه ، فهل تكون مسئولية

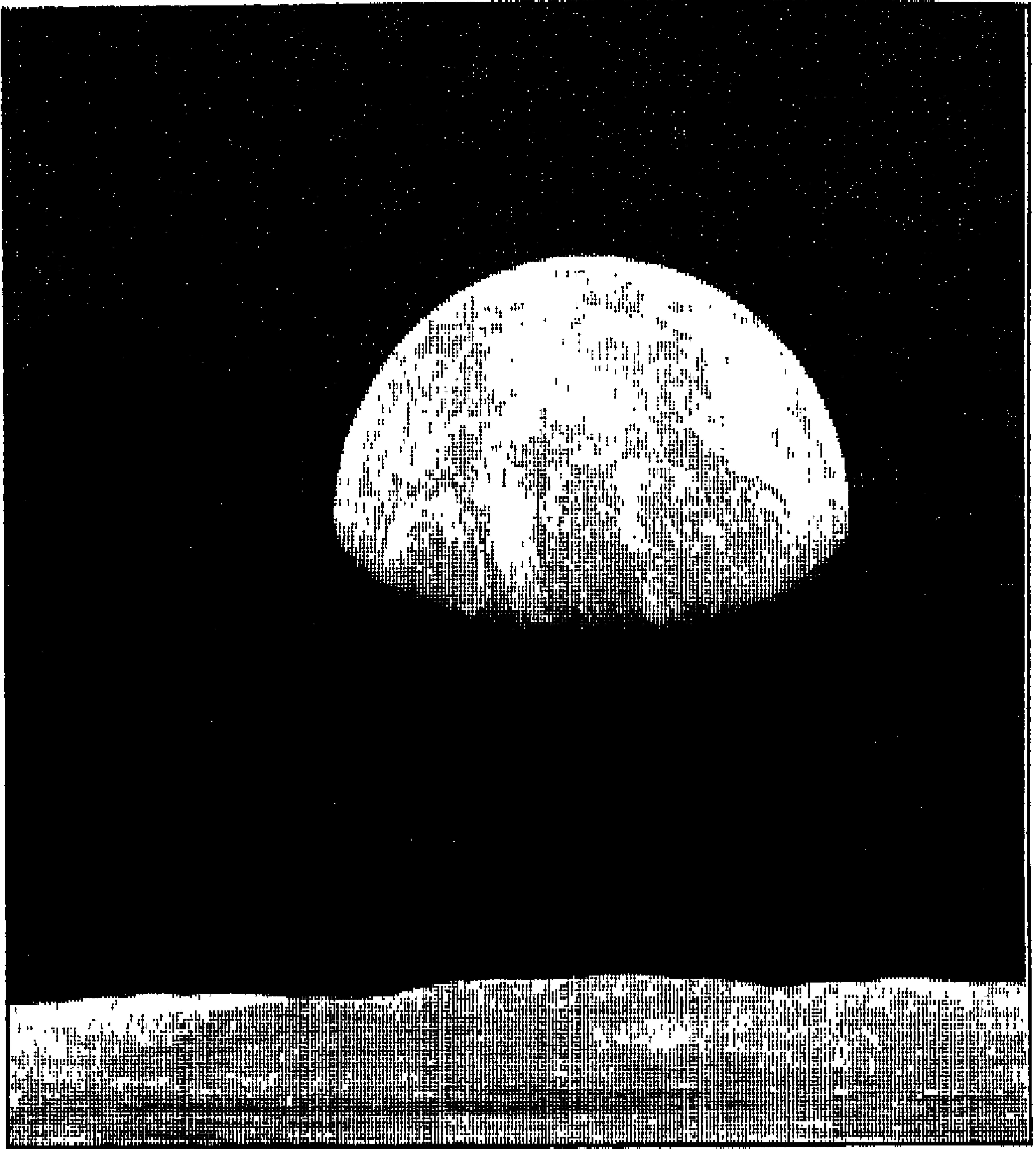
العلاج وفقًا على واحدة منها أم هى واجب حتمى تتحمله مجموعة دول ذلك البحر ؟ .

والحقيقة أن أنباء التدهور فى أحوال البيئة التى اختص الخالق العظيم الإنسان بها ، تحاصرنا ليلاً ونهارًا ، بل إن تجمعات عديدة من بنى البشر ، تكابد أشد الآلام من جراء الظروف التى تغيرت فى مواطنهم ، فاستحالت الحياة أو كادت .

والمؤسف والمفجع معًا ، أن الإنسان هو نفسه مصدر ما تعانى منه الأرض . وصدق الله العظيم ، إذ يقول فى كتابه الكريم : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ، لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (الروم – ٤١) . فقد أعطانا الله كونًا محكمًا تام الاتزان ، فأفسده البشر بتكالبهم على الموارد الطبيعية ، يستغلونها دون حسابٍ أو إدارة واعية ؛ مع سلسلة متصلة من الأنشطة الإنسانية غير المسئولة ، أنتجت فى النهاية هذا التخريب الذى تراه أينما توجهت ، لدى فقراء الأرض وأغنيائها على حد سواء .

ويبدأ الأطباء تقاريرهم برصد بعض الأعراض المرضية التى ظهرت على جسم المريض ، ومنها :

١ – تقلص غطاء الأرض من الغابات . فالغابات الاستوائية تنكمش مساحتها بمعدل ١١ مليون هكتار كل سنة ، كما تتعرض



الأرض .. مريضنا العالمى !
إنها تفقد الكثير من مميزاتها كبيئة صالحة لاحتضان الحياة .

مساحات كبيرة تقدر بـ ٣١ مليون هكتار من الغابات الشمالية للتخريب بتأثير تلوث الهواء والأمطار الحمضية[١] .

٢ — تجريف التربة الزراعية بمعدل ٢٦ مليون طن سنويًا .

٣ — التصحر .. حيث تلتهم الصحراء سنويًا حوالى ٦ مليون هكتار من الأراضى الزراعية ، نتيجة للإهمال وسوء الإدارة .

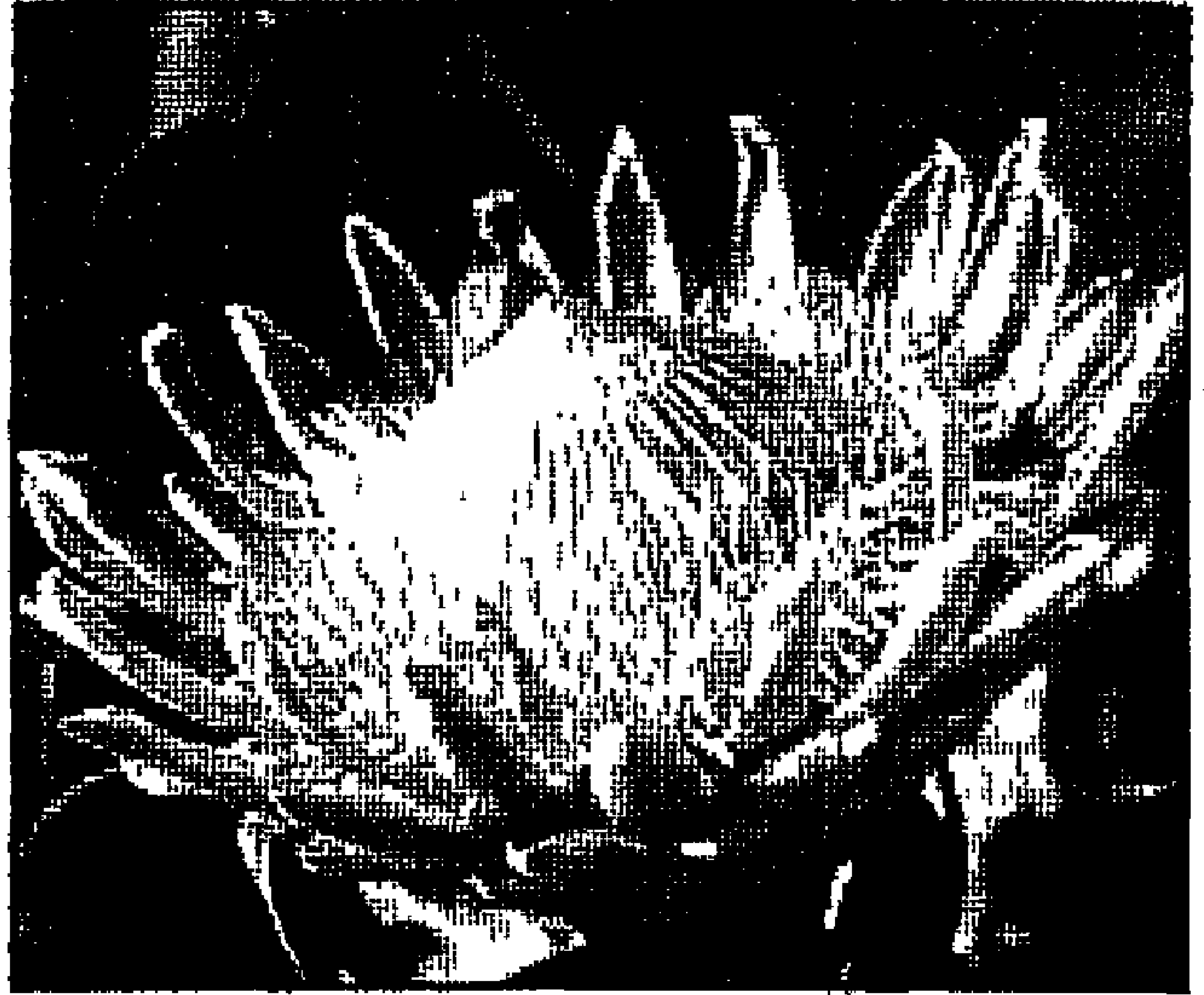
٤ — فقد النصف الشمالى من الكرة الأرضية آلاف البحيرات ، بعد أن أصبحت فى حكم الميتة من الناحية البيولوجية ، ويعتقد العلماء أن آلافًا أخرى من البحيرات على وشك الموت ، نتيجة للتلوث .

٥ — يتعرض مخزون المياه العذبة فى أجزاء من أفريقيا ، والصين ، والهند ، وشمال أمريكا إلى خطر النضوب ، نتيجة الطلب المتزايد للمياه .

٦ — انقراض العديد من أنواع الكائنات الحية فى كل سنة ، بصورة قد تؤدى إلى اختفاء $\frac{1}{5}$ عدد الأنواع المعروفة فى المملكتين الحيوانية والنباتية فى العشرين سنة القادمة ، ويرى الخبراء أن بعض أنواع النباتات والحيوانات يختفى حتى قبل أن يتم تسجيله وتصنيفه ، ولا يستطيع أحد تقدير الأخطار البيئية المترتبة على اختفاء هذه

(١) انظر تقديرات أخرى للأضرار الواقعة بالغابات الاستوائية فى الفصل المعنون : هل تختفى الغابة الاستوائية ؟

الأنواع ، وبصفة عامة ، فإن فقدانها يمثل خسارة اقتصادية ، كما أنه يمكن أن يعكس خللاً فى الاتزان البيئى لا يعلم عواقبه إلا الله .



آلاف من أنواع النباتات مهدد بالانقراض .. بل ، وبعضها ينقرض فعلاً دون أن يتمكن العلماء من رصده وتسجيله !

٧ - ارتفاع درجة حرارة جو الأرض بمعدل شبه ثابت (١,٥ : ٤,٥ درجة مئوية كل سنة) .

٨ - ارتفاع مستوى سطح البحر ، نتيجة لذوبان جليد قطبى الأرض بتأثير ارتفاع درجة حرارة الجو ، ويتوقع العلماء أن ترتفع مياه البحر بمعدلات تتراوح بين ١,٤ متر إلى ٢,٣ متر حتى سنة ٢١٠٠ .

٩ - تناقص سمك طبقة الأوزون فوق منطقة المحيط المتجمد الجنوبى ، بما يمثل ثقبًا فى هذه الطبقة الغازية التى تقى الأرض

وسكانها من أضرار الأشعة فوق البنفسجية ، والخطير فى الأمر ، أن مساحة هذا الثقب آخذة فى الاتساع ، مما يزيد درجة الحرج بالنسبة لحالة كوكبنا الصحية .

١٠ – تسرب المبيدات الحشرية إلى المياه الجوفية ، وعلى سبيل المثال ، فقد تم رصد ٥٠ نوعًا من هذه المبيدات فى المياه الجوفية فى ٣٢ ولاية أمريكية ، ويعتقد الخبراء أنه من الصعب تحديد المدى الذى وصلت إليه حالة المياه الجوفية فى العالم .

ويشير علماء البيئة إلى أن هذه الأعراض متداخلة ومتشابكة ، ويتفاعل كل منها فى غيره بالتأثير والتأثر ، بحيث يكون الناتج حالة معقدة قد يصعب حيالها أن نحدد من أين نبدأ ، غير أنهم يجملون أسباب المشكلة الصحية للأرض فى عاملين أساسيين ، هما :

١ – توجهات وسياسات الطاقة والموارد الطبيعية .

٢ – النمو السكانى المتزايد .

أما توجهات الطاقة ، أو سياسات إنتاجها واستهلاكها على مستوى العالم ، فكما أنها تعد مؤشرًا جيدًا لدراسة اقتصاديات العالم ، فإنها يمكن أن تكون مقياسًا لصحة البيئة الآدمية .

وثمة علامة مؤسفة ومنذرة بالسوء بالنسبة للمهتمين بالبيئة ، تتمثل فى الاتجاه الذى بدأ فى عام ١٩٨٦ إلى إحلال الفحم محل النفط



تنشط الهيئات والمؤسسات العالمية لدعم جهود صون البيئة وهذه بعض الملصقات الإعلامية لبرنامج الأمم المتحدة للبيئة ، وبها دعوة لإنقاذ البحار من التلوث .

والغاز الطبيعى ، فى وحدات توليد القوى فى المصانع ، وتم – فعلاً – تغيير نوع الوقود فى ٦٠ مشروعًا بالولايات المتحدة الأمريكية يوفر كل منها ٢٥٠ ألف برميل من النفط يوميًا .

ويقول الأمريكيون من أصحاب هذا الاتجاه أن لدى أمريكا المخزون الكافى من الفحم لتغطية احتياجات التحول فى نوع الوقود لعدة مئات من السنين ، وأنه حين يأتى الوقت الذى تفنى فيه موارد العالم من النفط والغاز فإن الطلب على الفحم سوف يتزايد ، ولن يمثل ذلك مشكلة بالنسبة لهم ، لأنهم سوف يفتحون مناجم جديدة للفحم ، وهم يرون أن التحول الجزئى ، الذى بدءوا فيه ، من النفط والغاز إلى الفحم ، يعد سياسة مناسبة لهم .

فهل يرون أيضًا كم تكون تكلفة ذلك على صحة البيئة ؟

إن الفحم المحترق يترك رمادًا يتراوح وزنه بين ٥ و ٢٠ بالمائة من وزن الفحم ، ومن الضرورى أن يتم التخلص من هذه الكميات الهائلة من الرماد .. فكيف ؟ ، إن أقصى طاقة لعمليات التخلص من هذه البقايا لا تزيد عن ١٥٪ ، فيبقى ٨٥٪ من الرماد عبئًا على جهود صون البيئة ، ثم إن غازات الكربون المنبعثة من احتراق الفحم أكثر من تلك التى تنتج من احتراق النفط والغاز الطبيعى فى محطات توليد الكهرباء ، وهكذا ، فإنه فى الوقت الذى يدعو فيه علماء المناخ والبيئة

إلى ضرورة إنقاص غازات الكربون المنبعثة في الجو ، نجد أن تركيزات هذه الغازات في ارتفاع مستمر .

إن ذلك يستدعي ضرورة إعادة النظر في الأساسيات التي تقوم عليها إدارة أنظمة الطاقة في العالم ، إنه من الأمور الملحة ، شديدة الأهمية ، التي يجب أن تؤخذ في الاعتبار في هذا العصر ، قبل أن تتحول الأرض - بسبب غازات الكربون المتزايدة - إلى ما يشبه بيت تربية النباتات الزجاجي (الدفيئة أو الصوبة) .

وتوضح التوقعات والتنبؤات التي تخبرنا بها النماذج الرياضية ، عن العواقب الخطيرة لارتفاع درجة حرارة هواء الأرض ، أن ثمة منطقتين من أهم مناطق إنتاج الغذاء في العالم : قلب القارة الأمريكية الشمالية ، والاتحاد السوفيتي ؛ سوف تتعرضان إلى انخفاض ملحوظ في محتوى التربة من الرطوبة خلال الزراعات الصيفية على الأقل ، وذلك لأن ارتفاع درجة الحرارة سوف يؤدي إلى زيادة معدل البخر ، مما يهدد هذه الزراعات ويؤثر على إنتاجها .

وتخبرنا النماذج الرياضية التي أنتجتها برامج الحاسوب ، أيضًا ، بأن أقصى ضرر سوف يتسبب عن ارتفاع مستوى سطح الأرض سيكون في آسيا ، حيث يتم إنتاج الأرز في الأراضي المنخفضة التي تغمر بالمياه في موسم زراعة الأرز ، فإذا لم يتم البدء في بناء السدود والحواجز والأرصفة لحماية حقول الأرز من طغيان مياه البحر المالحة ،

فإن ارتفاع مستوى البحر ، ولو بمتر واحد على أقل تقدير ، سوف يؤثر بشكل واضح على إنتاجية المزارع الآسيوية من الأرز .

وعلى أى حال ، فإننا لا نعتقد أن أحدًا يملك التفاصيل الكاملة للأخطار والكوارث التى يمكن أن تنتج عن التغيرات فى ملامح مناخ الأرض ، غير أننا ، جميعًا ، نعرف أن الحضارة الإنسانية قد نشأت وتطورت تحت ظروف مناخية محددة الملامح ، وشبه ثابتة ، لذلك فإن أى شذوذ كبير فى هذه الظروف سوف يتولد عنه صعوبات ضخمة ، وسوف يوقع البشرية فى العديد من الشدائد ، وسوف يتطلب أموالاً ضخمة ، لا يمكن حسابها ، تخصص للتحكم فى هذه الظروف الجديدة ، لذلك ، فإن الطرق التى تؤدى بنا إلى تجنب العبث بالظروف المناخية الأرضية ، يجب أن تحظى بكل الاعتبار والجدية فى الوقت الراهن .

فماذا تكون الصورة ، إذا أضفنا إلى هذا التدهور فى أحوال الأرض ، تزايدًا مستمرًا فى أعداد ساكنيها بمعدل لم يسبق له مثيل فى التاريخ البشرى ؟

لقد تخطى تعداد سكان العالم خط الـ ٥ بليون نسمة فى النصف الثانى من عقد الثمانينات ، وارتفع معدل الزيادة السنوية فى سكان العالم من ٧٤ مليون نسمة فى عام ١٩٧٠ إلى ٨٣ مليون فى عام ١٩٨٧ ، ومن المتوقع أن يرتفع هذا المعدل خلال عقد التسعينات

ليصل إلى ٩٠ مليون نسمة ، والمتوقع أيضًا أن يصل تعداد السكان في كوكبنا إلى ٦ بليون عند سنة ٢٠٠٠ .

ومعظم هذه الزيادة مركز في دول العالم الثالث التي تعاني من نقص شديد في موارد الغذاء الآدمي والأعلاف والوقود ، وتتحمل هذه الموارد ضغوطًا متزايدة ، لأن طلبات السكان المتزايد من تفوق حجم الإنتاج الأساسي من الغابات المحلية والمراعي والمحاصيل الزراعية ، ولا يمكن لأحد أن يتوقع إلا استمرار تدهور الأنظمة البيئية .

إن تقديرات وتنبؤات البنك الدولي ، في هذا المجال ، ترسم صورة جزئية مقبضة عن العلاقة بين موارد الغذاء ، وتزايد السكان في البلدان الأفريقية الواقعة جنوب الصحراء ، فالمتوقع أن يتضاعف عدد سكان هذه المنطقة أربع مرات حتى سنة ٢٠٢٠ ، فيغدو مجموع السكان في نيجيريا مثلاً ٣٤٠ مليونًا ؛ وفي زائير ٩٥ مليونًا ؛ وفي كينيا ٨٠ مليونًا ؛ واستنادا إلى اتجاهات إنتاج الغذاء في عقد السبعينيات من هذا القرن ، لن يكون بوسع البلاد الأفريقية جنوبي الصحراء أن توفر الغذاء من المصادر المحلية لأكثر من نصف سكانها ، وسيعادل العجز الغذائي لديها في عام ٢٠٢٠ مجموع ما تنتجه الزراعة في الهند كلها في الوقت الحاضر ! .

وتشير الإحصائيات إلى أننا نعيش الآن مع إخوة لنا في الإنسانية يعانون من نقص التغذية (تقل قيمة غذائهم اليومي عن ألفي سعر

حرارى) ؛ وهم يمثلون ٢٨٪ من سكان قارة آسيا ، و ٢٥٪ من سكان أفريقيا و ١٣٪ من سكان أمريكا اللاتينية .

وثابت فى إحصاءات منظمة الصحة العالمية أن ١٧ مليونًا من الأطفال دون الخامسة يموتون كل عام ، ومعظمهم من أبناء الدول النامية ، وكان من الممكن إنقاذ ١٥ مليونًا منهم ، لو أنهم توفرت لهم الموارد الغذائية والخدمات الصحية المناسبة .

فهل ثمة أمل فى إصلاح حال كوكبنا ؟

إن بعض العارفين بمشاكل الأرض تهولهم الأخطار المحدقة بأنظمتها الحيوية ، ويرون صانعى السياسات مشغولين بالصراعات التقليدية وببعض القضايا الاقتصادية الدولية ، فيستبد بهم القلق ويستسلمون لليأس ، غير أن ثمة فريقًا من المتفائلين ، يرون أن العلاج لم يتأخر كثيرًا ، وأننا يمكن أن نصنع شيئًا من أجل وقف التدهور فى صحة الكوكب الذى نسكنه ، صحيح أننا أمام شبكة معقدة من المشاكل ، ولكننا إذا بدأنا (الآن) و (معًا) ، يمكننا أن نخفف آلام الأرض ، بشرط أن نواجه كل أعراض المرض فى نفس الوقت .

علينا أن نعيد كساء الأرض بالأشجار ، إن لإعادة تشجير غابات الكون فائدتين : ضمان الإنتاج الكافى من أخشاب الوقود ، وتثبيت التربة الزراعية فى المناطق الممطرة ، حيث يؤدى تجريف التربة بواسطة الأمطار إلى تخريب الاقتصاد المحلى فى تلك المناطق ، ولحسن الحظ ،

فهناك أنواع عديدة من الأشجار يمكنها أن تخدم فى الاتجاهين ، ويحتاج العالم إلى زراعة ١٢٠ مليون هكتار من هذه الأشجار ، وإلى تغطية ٣٠ مليون هكتار إضافية بالأشجار المنتجة للخشب الخام ، ومستلزمات صناعة الورق ، وغيرها من منتجات الغابة . فإذا نجحنا فى إنجاز هذا العمل مع نهاية هذا القرن ، فإن تكلفته ستكون ٦,٨ بليون دولار لكل ١٧ مليون هكتار فى السنة .

أما إصلاح التخريب فى التربة الزراعية فإنه أكثر تكلفة ، لقد كان المزارعون الأمريكيون ، مع بعض الجهات المسئولة عن الزراعة فى الولايات المتحدة الأمريكية ، ينفقون ما قيمته بليون دولار سنويا - فى بداية الثمانينات - للتحكم فى نحر التربة الزراعية ، ومع ذلك ، فقد أظهرت عمليات المسح فى عام ١٩٨٢ أن هؤلاء المزارعين يفقدون ٣,١ بليون طن من التربة الزراعية سنويًا بتأثير التحات الناتج عن نشاط الرياح والماء ، وأن إنتاج طن واحد من الحبوب ، يكلف المزارع الأمريكى ٦ أطنان من التربة ، وقد أعدت الحكومة الأمريكية برنامجًا لتثبيت التربة بدأ تنفيذه فى عام ١٩٩٠ ، ويكلف خزانتها ٣ بليون دولار سنويًا .

وعلى مستوى العالم ، فإن تكلفة حماية التربة الزراعية تصل إلى ٢٤ بليون دولار سنويًا ، وبالرغم من ضخامة هذا المبلغ فإن الخسائر التى تلحق بالاقتصاد العالمى نتيجة لنحر التربة الزراعية تفوقه بكثير ،

وإن تدبيره لتنفيذ هذه الإصلاحات ضرورة ملحة لتوفير الغذاء لملايين الأفواه الجائعة التى يستقبلها العالم فى كل سنة .

ومن الخطوط الموازية التى يجب أن تحظى بالاهتمام العالمى ، ضرورة تكثيف الجهود لكبح جماح الزيادة فى سكان العالم ، ويقدر الخبراء أن البلاد التى يتزايد سكانها بمعدلات من ٢ إلى ٤٪ كل سنة يستحيل عليها أن تشارك فى مجهودات علاج الغطاء الشجرى وحماية تربتها الزراعية ، أو حتى أن تأخذ أى خطوات فى اتجاه تنمية ثابتة ومستقرة .

وللمسألة السكانية تكاليفها الباهظة .

لقد قام البنك الدولى بعمل مسح اجتماعى فى بعض دول العالم الثالث ، أظهر أن نسبة تتراوح بين ٥٠ و ٩٠ بالمائة من الأمهات يرغبن فى الامتناع عن إنجاب الأطفال ، أو فى تأجيل إنجاب طفل آخر ، ويمكن الاستجابة لهذه الرغبة بتوفير وسائل منع الحمل وخدمات تنظيم الأسرة ، وهذه الوسائل والخدمات تكلف العالم ٨ بليون دولار فى العام ، حتى نهاية هذا القرن .

كما أثبتت الدراسات الاجتماعية أن التعليم مرتبط بانخفاض معدلات الإنجاب ، وهو اتجاه آخر للحد من الزيادة فى تعداد سكان العالم ، وتقول الأرقام أن ثمة ١٢٠ مليون طفل فى سن المدرسة ، ولا يتلقون أى خدمات تعليمية ، إن تعليمهم – كخدمة للهدف

الأساسى – يكلف العالم ٥٠ دولارًا لكل طفل ، أى ٦ بليون دولار فى السنة ، يضاف إلى هذا المبلغ ٢ بليون دولار سنويًا تكلفة تعليم القراءة والكتابة للنساء الأميات فى دول العالم الثالث .

وثمة اتجاه ثالث يهدف إلى إقناع الأسرة بتحديد عدد أفرادها عن طريق خفض معدل وفيات الأطفال ، فالأسرة التى تفقد أطفالاً ستظل فى حاجة لأن تأتى بأطفال جدد ، والمطلوب ، مثلاً ، تحصين ٥٥٪ من أطفال العالم ضد أمراض الدفتيريا والحصبة وشلل الأطفال والدرن .. وهذا يساوى بليونين من الدولارات سنويًا ، كما أن أمهات العالم الثالث فى حاجة إلى برنامج يتكلف بليون دولار فى السنة لتدريبهن على استخدام محاليل معالجة الجفاف الناتج عن الإسهال عند الأطفال ، وعلى مبادئ حماية صحة الطفل ، ولتوعيتهن بالمزايا الصحية للرضاعة الطبيعية .

أما مشكلة التغيرات المناخية فإنها تصيب صانعى السياسات البيئية بالحيرة ، وثمة اختياران لا ثالث لهما :

الأول ، يترك كل شيء على ما هو عليه ، ويهتم بإخضاع الاقتصاد العالمي لظروف التغيرات الحادثة فى مناخ الأرض ، وواضح أنه اختيار مكلف جدًا ، ويعطل فرص التقدم الاقتصادى وخطط رفع مستوى معيشة الآدميين على سطح الأرض .

ويعتمد الاختيار الثانى اتخاذ خطوات سريعة وحاسمة لمواجهة أسباب التغير فى المناخ الأرضى ، وبخاصة للتقليل من معدل تسخين الأرض ، وهذا الاختيار له تكاليفه المادية الضخمة ، ومتطلباته من السياسات والسلوكيات التى يجب أن يلتزم بها كل من يعيش على سطح الأرض .

إن أكثر وسائل حماية الأرض من تغيرات المناخ تكلفة فى الوقت الراهن هى تلك المطلوبة لحماية المناطق الساحلية من الغرق عند ارتفاع مستوى سطح البحر ، وعلى سبيل المثال ، فإن دولة غنية كهولندا ، تنفق ٦٪ من مجمل الدخل القومى لتشييد وصيانة مجموعات مركبة من السدود البحرية ، والأرصفة والحواجز لتأمين أراضيها من طغيان البحر ، فماذا تفعل دولة فقيرة مثل بنجلاديش لمواجهة نفس المشكلة ؟ ، إنها تدفع الثمن خسائر فادحة فى الأرواح ففى عام ١٩٧٠ قتل حوالى ٣٠٠ ألف بنجلاديشى فى موجة إعصارية واحدة ، وفى عام ١٩٨٥ قتلت موجة أخرى عشرة آلاف مواطن وشردت ١,٣ مليونا آخرين .

والثابت أن كميات غاز ثانى أكسيد الكربون المتزايدة فى جو الأرض هى المسئولة عن هذه الكوارث من خلال تأثيرها المباشر فى تحويل الأرض إلى ما يشبه البيت الزجاجى لتربية النباتات ، والمطلوب ،

على وجه السرعة اتخاذ إجراءات حازمة لوقف تسرب المزيد من هذا الغاز إلى الجو ، وفى نفس الوقت - وبنفس السرعة - رفع كفاءة مصادر الطاقة المستخدمة حاليا ، بحيث نستغنى عن الوقود الأحفورى (بترول وغاز وفحم) ، إلى أنواع الطاقة الجديدة والمتجددة ، مع وقف تخريب الغابات وفوضى اقتلاع الأشجار .

إن الولايات المتحدة الأمريكية ، لكى تنتج ما قيمته دولار واحد من السلع الاستهلاكية أو الخدمات تستخدم من الطاقة ضعف ما تستخدمه اليابان لإنتاج نفس السلعة ، وهذا يوضح ما يمكن أن تسهم به عمليات إحلال التقنيات الحديثة محل التقنيات القديمة فى التقليل من العادم بصفة عامة ، والملوثات الغازية بصفة خاصة .

وثمة اتجاه آخر يمكن أن يفيد فى هذا المجال ، وهو إعادة تخطيط وتحديد أهداف الأنظمة الاقتصادية بحيث يمكن لبعض قطاعات الإنتاج والخدمات أن تظل متماسكة ومستمرة فى عملها ، ولكن بكميات من الطاقة أقل ، أو بنوعيات أخرى من الطاقة (النظيفة) .

وفى بعض الحالات ، يمكن أن يكون إعادة التخطيط هو الحل الأفضل من تحسين الصفات التكنولوجية وعلى سبيل المثال ، فإذا كان من الممكن استبدال سيارات ذات كفاءة محدودة فى استهلاك

الوقود بسيارات أخرى ذات كفاءة أعلى ، فقد يكون الحل الأمثل بالنسبة للبيئة هو تخطيط التجمعات السكانية بحيث تتناقص إلى الحد الأدنى احتياجات الأفراد إلى وسائل للنقل والمواصلات مهما كانت كفاءتها .

ويستقبل أنصار البيئة بارتياح شديد أنباء تزايد الاعتماد فى كثير من الدول على مصادر الطاقة المتجددة ، ومن بين هذه الدول البرازيل التى تعد صاحبة أول اقتصاد فى العالم يعتمد بنسبة ٦٠٪ على مصادر الطاقة المتجددة النظيفة .

وقد لا يكون من السهل تقدير التكاليف المطلوبة لدفع جهود حماية الأرض من أخطار التغيرات المناخية خلال التسعينيات من هذا القرن ، ولتخليصها من (الحمى) التى تحيل أنظمتها الحيوية إلى فوضى ، وتشير بعض التقديرات إلى أن تكاليف تحسين كفاءة الطاقة مثلاً تساوى ثلاثة أضعاف قيمة الخسائر التى توقعها التغيرات المناخية بالموارد الطبيعية والبيئة الإنسانية .

ويوضح الجدول رقم (١) الأرصدة المطلوب توفيرها لتأمين سلامة واستقرار نمو الحضارة الإنسانية على الأرض ، والإنفاق على أوجه علاج البيئة فى الفترة من عام ١٩٩٠ إلى عام ٢٠٠٠ ، وتصل فى مجملها إلى ١٣٧١ بليون دولار .

الجدول رقم (١)
الأرصدة المطلوبة للإنفاق على علاج الأرض من أمراضها خلال العقد الأخير من هذا القرن
(بليون دولار)

السنة	حماية التربة الزراعية	إعادة تشجير الغابات	تنظيم النمو السكانى	رفع كفاءة أنواع الطاقة	تطوير الطاقة المتجددة	تسديد ديون العالم الثالث	إجمالى
١٩٩٠	٤	٢	١٣	٥	٢	٢٠	٤٦
١٩٩١	٩	٣	١٨	١٠	٥	٣٠	٧٥
١٩٩٢	١٤	٤	٢٢	١٥	٨	٤٠	١٠٣
١٩٩٣	١٨	٥	٢٦	٢٠	١٠	٥٠	١٢٩
١٩٩٤	٢٤	٦	٢٨	٢٥	١٢	٥٠	١٤٥
١٩٩٥	٢٤	٦	٣٠	٣٠	١٥	٤٠	١٤٥
١٩٩٦	٢٤	٦	٣١	٣٥	١٨	٣٠	١٤٤
١٩٩٧	٢٤	٦	٣٢	٤٠	٢١	٢٠	١٤٣
١٩٩٨	٢٤	٧	٣٢	٤٥	٢٤	١٠	١٤٢
١٩٩٩	٢٤	٧	٣٢	٥٠	٢٧	١٠	١٥٠
٢٠٠٠	٢٤	٧	٣٣	٥٥	٣٠	صفر	١٤٩
							١٣٧١

ويتشكك فريق من الخبراء فى قدرة العالم على تفهم الوضع وتوفير هذه المبالغ الضخمة ، ويرى عائقين خطيرين فى هذا السبيل :

الأول : (غول) الإنفاق العسكرى الذى يبتلع ٩٠٠ بليون دولار سنويًا ، وقد عبر « أدولف بالمه » رئيس وزراء السويد عن التناقض المحزن ، بين ضخامة هذا الإنفاق وسوء حالة سكان الأرض الفقراء ، فقال : « إن كل دقيقة تمر ينفق فيها على الأغراض العسكرية فى شتى أرجاء العالم ما يزيد عن ١,٣ مليون دولار ، وفى أثناء هذه الدقيقة ذاتها يموت ثلاثون طفلاً فقيرًا ، كثير منهم نتيجة للجوع وسوء التغذية ! » .

أما العائق الثانى فهو فوضى ديون العالم الثالث ، التى تمثل عبئًا ثقيلاً على الاقتصاد العالمى .

وفى رأينا أن ثمة عائقًا أشد خطورة من هذين ، وهو فقدان الحماس ، والإحساس بالخوف من الفشل فى مواجهة هذه الشبكة المعقدة من الفوضى والتدهور فى أحوال الأرض التى نعيش عليها ، إن هذا العامل النفسى قد يؤدى بالمؤسسات السياسية – إذا استسلمت له – إلى فقدان القدرة على الحركة المؤثرة والعمل التعاونى لعلاج هذا المريض العالمى .

إن الحال مفزع ، هذا صحيح ، ولكن قبوله يعنى ، ضمنًا ، قبول التدهور الاقتصادى العالمى والتحلل الاجتماعى ، وفى عالم يعتمد التقدم والنمو فيه على مجموعة متشابكة من الروابط القومية والعالمية ،

فإن هذا الانحلال وهذا التدهور سوف يجعلان الإنسانية تعانى بشكل لم يسبق له مثيل على مر التاريخ البشرى .

إن الأمر يحتاج إلى حركة عالمية ملمة بكل أبعاد المشكلة ، وإلى اهتمام واسع النطاق يدفع العمل ويحفز صانعى السياسات ، وإلى تغييرات ضرورية فى أولويات السياسات القومية ، بل وإلى تغييرات جوهرية فى جزئيات الحياة اليومية لكل إنسان يعيش على ظهر هذا الكوكب المرهق .

هل نستغنى عن المبيدات ؟

لا زلت أذكر حديث المحاضر ، بقسم الدراسات البيئية ، خلال فترة دراستى بمعهد الدراسات العليا والبحوث ، بجامعة الإسكندرية ، كان يحكى عن ممازحة جرت بينه ومجموعة من زملائه المبعوثين للدراسة بإحدى الدول الأوربية ، كانوا يتناقشون حول مدى اقتراب التلوث من حياتنا ، وتساءل أحدهم : هل يمكن أن يكون الخطر قد وصل إلى اللبن فى صدر الأم ؟ ، والتفتوا جميعا إلى زوجة واحد منهم ، وكانت أمًّا حديثة ، وأقنعوها بأن تعطيهم عينة من لبنها ، أخذوا العينة ، وذهبوا بها إلى المعمل ، وأخضعوها لبعض التحليلات بالأجهزة الحديثة ، التى أكدت احتواء لبن الأم على واحد من أخطر الملوثات الكيميائية ، مصدره الوحيد بعض أنواع من المبيدات الحشرية المستخدمة فى مجال الزراعة !

ومنذ أكثر من نصف قرن من الزمان ، أصدرت عالمة الأحياء الأمريكية (راشيل كارسون) كتابها « الربيع الصامت » ، الذى يعد علامة بارزة بين ما صدر من مؤلفات فى مجال علم البيئة ، وفى هذا الكتاب ، رسمت المؤلفة صورة مستقبلية للعالم – حين يقبل فصل الربيع – وقد اختفت تمامًا أغاريد الطيور ، التى تضاءلت أعدادها ،

أو قضى على بعض أنواعها تمامًا ، نتيجة الاستخدام العشوائى للمبيدات الحشرية .

ولم يمض وقت طويل حتى تحقق ما تخيلته العالمة الأمريكية ، إنك تسير لمسافات طويلة على الطرق الموازية للحقول ، فلا تكاد تعثر عيناك على طائر يرفرف فوق مساحات الأرض الخضراء - ويتساءل من لا يعرفون الحقيقة : أين ذهبت الطيور صديقة الفلاح ، مثل (أبى قصادة) ، و(أبى قردان) ؟ والحقيقة المؤسفة ، أن الفلاح قتل أصدقاءه ، أو - على الأقل - دفعهم إلى هجره ، عندما اضطر إلى استخدام المبيدات الكيميائية لحماية مزروعاته من أخطار الآفات ، ومن أشهر الكوارث التى أوقعتها المبيدات الطيور ، ما حدث فى صيف عام ١٩٧٣ فى حديقة (كوتودونانا) باسبانيا ، حيث يعيش مئات الآلاف من الطيور ، بينها أنواع نادرة . فقد تعرضت مساحات من هذه الحديقة للرش بالمبيدات ، بطريقة خاطئة ، فهلك ما يزيد عن أربعين ألفا من طيور هذه الحديقة .

ولنفس السبب ، خسر مزارعو الأرز فى أنحاء عديدة من العالم ، وبخاصة فى اليابان ، العائد الاقتصادى الإضافى المتمثل فى محصول الأسماك التى كانوا يربونها فى حقول الأرز المغمورة بالمياه ، ولم يكن أمامهم خيار ، فضحوا بالأسماك حين استخدموا المبيدات لحماية محصول الأرز من الآفات .

ويوضّح الجدول رقم (٢) تأثير مبيد الـ د.د.ت. على الآدميين عند تعرضهم لجرعات متباينة من المبيد ، بطريق مباشر أو غير مباشر :

الجدول رقم (٢)

الجرعة (ملليجرام/كجم/يوم)	التأثير
١٦	تسمم (قيىء) ، وقد يحدث تشنج .
١٠	تسمم معتدل لدى بعض الأفراد .
٦	تسمم معتدل فى حالات محدودة .
٠,٥	تحمله بعض المتطوعين فى غضون ٢١ شهرًا .
٠,٢٥	تحمله بعض العمال فى خلال ١٩ عامًا .
٠,٠٠٤	جرعة امتصها سكان منطقة دلهى بالهند عام ١٩٦٤ .
٠,٠٠٢٥	جرعة امتصها سكان الولايات المتحدة الأمريكية (٥٣ - ١٩٥٤)

أما الجدول رقم (٣) ، فيحتوى على رصد لعدد حالات التسمم بالمبيدات وعدد حالات الوفيات الناتجة عنها فى جمهورية مصر العربية فى الأعوام من ١٩٦٦ إلى ١٩٨٢ وواضح من الجدول أن نسبة عدد حالات التسمم بالمبيدات إلى إجمالى تعداد السكان فى مصر تعد عالية ، والجدير بالذكر أن إجمالى استهلاك المبيدات الحشرية فى مصر ، فى الفترة (٧٠ - ١٩٧٥) بلغ ٢٦ ألف طن ، خصص

ما يقرب من ثلثها لزراعات القطن ، وبلغت تكاليف استيرادها ١٠٫٣ مليون جنيه مصرى فى السنة .

الجدول رقم (٣)

السنة	عدد حالات التسمم بالمبيدات	عدد الوفيات
١٩٦٦	١٠٩١	٤٤
١٩٦٧	١٢٧٠	٣٤
١٩٦٨	١٦٠٨	٣٥
١٩٦٩	١٣٨٩	٤٤
١٩٧٠	١٤٧٣	٧٦
١٩٧١	٧٤١	٢١
١٩٧٢	١٣٠٩	٤٤
١٩٧٣	٤٩٣	٢
١٩٧٤	١٩٥١	٣٣
١٩٧٥	٩٦٧	٤
١٩٧٦	٥١٠	٢٤
١٩٧٧	٢٦٧١	٦٩
١٩٧٨	١٤٣٩	٢٩
١٩٧٩	١٠٦٢	٣١
١٩٨٠	٥٦٩	٢٦
١٩٨١	٤٩١	١٠
١٩٨٢	١٠٦٦	٤٢

ويظهر التأثير المدمر للمبيدات الحشرية بصورة أكثر وضوحًا في إحصائية بسيطة جاءت من تايلاند .. ففي إحدى مقاطعاتها ، وعدد سكانها ٣٧٨٩ نسمة ، بلغ عدد حالات التسمم بالمبيدات الحشرية في الفترة من ١٩٦٧ إلى ١٩٧٠ (٣٢٠) حالة ، توفي منها ٣٤ حالة ، أي بنسبة ٩ في الألف من عدد سكان المقاطعة .

فإذا نظرنا إلى الحال في بلاد العالم المتقدم ، وجدنا أن عدد حالات الوفاة نتيجة التسمم بالمبيدات ، في الولايات المتحدة الأمريكية ، في عام ١٩٧٦ ٣١ حالة ، أي ٣ حالات لكل ٢٠ مليون مواطن ، هذا ، مع العلم بأن استهلاك تايلاند من المبيدات الحشرية لا يقارن بالولايات المتحدة الأمريكية التي تستهلك وحدها $\frac{١}{٣}$ إنتاج العالم من المبيدات .

ويوضح الشكل التخطيطي مسارات المبيدات في البيئة الزراعية ، فعند تعريض المزروعات للمبيدات ، يتسرب جزء منها إلى التربة الزراعية ، وتنقسم الكمية المتسربة إلى قسمين : قسم تأسره المواد الدبالية في التربة ، وتبقيه حبيسًا فيما يسمى بظاهرة الإدمصاص ، والجدير بالذكر ، أن بعض العلماء يؤكدون أن ما تحبسه حبيبات التربة من سموم كيمائية يكفي ، إذا تم تحريره ، لتدمير كل مساحات الأرض المزروعة في العالم .

أما القسم الثاني ، فإنه ينطلق حرًا ، ويتداخل في الأنظمة البيولوجية والكيميائية في البيئة الزراعية ، وقد عومل نبات البرسيم وبعض النباتات

النجيلية بأنواع من المبيدات الكيميائية لمكافحة أنواع من النطاطات التى تهاجمها ، ثم تغذت بعض قطعان الماشية على هذه النباتات ، فأمكن رصد آثار المبيدات فى دهون وألبان هذه الماشية ، وينتهى الأمر بهذه المبيدات الطليقة إلى المصارف ، تجرى فى مياهها ، وتلوث كل الكتل المائية التى تختلط بها فى طريقها .

وقد يؤدى استخدام المبيدات فى الزراعة ، لمكافحة آفة معينة ، إلى تنامى تأثير آفة أخرى كانت تعتبر – فى وجود الآفة الأولى – ثانوية .. فلما قضت المبيدات على الأولى ، أفسحت المجال للثانية لتنمو وتنتشر ، وتتحول ، مع الوقت ، إلى آفة أساسية ؛ وقد تكون أشد ضررًا من الآفة الأولى .

وقد يتدخل عامل الزمن بشكل آخر ، فيؤدى إلى إكساب بعض الآفات مناعة ضد أنواع من المبيدات الكيميائية عند استخدامها باستمرار ، ولوقت طويل ، فبسبب الاستعمال المكثّف لمبيدات الكلور العضوى خلال العقدين (١٩٤٩ – ١٩٦٩) ، اكتسب أكثر من ٢٠٠ نوع من المفصليات مقاومة ضد واحد أو أكثر من المبيدات الكيميائية المعروفة مثل الـ د . د . ت . والدلدرين واللندين ، وحاليًا ، لاتكاد تؤثر الـ د.د.ت. فى دودة ورق القطن ، وكذلك تقاوم فراشة (الكودلنج) المركبات الزرنيخية .

وكثير من المبيدات الكيميائية يضر بسلامة النباتات الاقتصادية ، فيؤدى إلى ذبولها ، أو احتراق الأوراق وموت النباتات نفسها ، وقد أخضعت هذه التأثيرات الضارة للاستخدام فى الأغراض العسكرية ، ففى عام ١٩٦٤ تأثر أكثر من مليون هكتار من الأراضى الزراعية والغابات فى فيتنام ولاوس وكمبوديا ، بفعل مبيدات الأعشاب التى كانت تلقيها الطائرات الأمريكية لإتلاف الزراعات وجعل الحياة مستحيلة فى تلك المناطق ، ولم يتم التعرف على وقوع هذه الأعمال التخريبية إلا بعد وقت طويل من انتهاء الحرب ، وقد تسببت المبيدات المستخدمة كسلاح فى القضاء النهائى على نباتات المناطق المصابة ، وفى فقدان فيتنام لما يقرب من ٤٥٪ من أشجار غاباتها .

وبالرغم من وضوح آثار التخريب الذى تلحقه المبيدات بمظاهر الحياة من حولنا ، فيبدو أن أحدًا لا يهتم بصيحات التحذير ، إذ لا تزال الدول المنتجة للمبيدات ماضية فى إنتاجها وتصديرها ، وتشير التوقعات إلى تزايد هذا الإنتاج ليقابل الطلب المتزايد على استهلاك المبيدات .

ويوضح الجدول رقم (٤) توزيع الاستهلاك العالمى من المبيدات الحشرية ، المتوقع فى عام ١٩٩٠ مقدرًا بالمليار دولار[١]

---

(١) تم تحرير هذا النص فى عام ١٩٨٨

الجدول رقم (٤)

المنطقة	الاستهلاك بالمليار دولار	النسبة المئوية
الولايات المتحدة الأمريكية	١٠,٥	٣٠,٩
أوروبا الغربية	٨,٥	٢٥,٠
اليابان	٣,٥	١٠,٣
أوروبا الشرقية	٣,٥	١٠,٣
بقية العالم	٨,٠	٢٣,٥
	٣٤,٠	

ولا تخلو ساحة المبيدات من أنصار يدافعون عنها ، ويؤكدون على أن لها وجهها الحسن ، يقول هؤلاء المدافعون إن اكتشاف الإنسان للمبيدات قد أحدث ثورة فى مجال الطب الوقائى فى المناطق الاستوائية ؛ وقد استخدم مبيد الـ د . د . ت . على سبيل المثال ، خلال الحرب العالمية الثانية ، للقضاء على التيفوس الطفحى ، وعلى حمى الملاريا وغيرهما من الأمراض التى تنقلها الحشرات ، وأدى ذلك إلى إنقاذ الملايين من البشر ، ويرون أن ظروف الحياة فى أماكن عديدة من العالم ، كان يمكن أن تكون أكثر سوءا لو كانت الحقول والمزروعات قد تركت بدون حماية المبيدات ضد أخطار الآفات الزراعية ، ويشيرون إلى أنه لولا اختراع جهاز الكشف الكروموتوجرافى عن المواد فى حالتيها السائلة والغازية ، لما أمكن إثبات أن للمبيدات أى أثر فى البيئة .. فلهذا الجهاز القدرة على الكشف

عن الكميات الضئيلة من المواد ، وقد تمكن من الكشف عن المتبقيات ضئيلة التركيز من المبيدات في بعض الأنظمة البيئية الحيوية ، وبخاصة في المحيط .

وقد أخذت الدعوة إلى إعادة النظر في استخدام المبيدات طورًا جديدًا حين استحوذت على أفكار بعض العلماء ، ودخلت إلى معملهم ، لم يعد الأمر قاصرًا على صيحات التحذير ، بل تعداه إلى محاولات مستمرة لتقديم بدائل تغني عن اللجوء إلى المبيدات لمقاومة الآفات .

ومن أهم البدائل التي يطرحها العلماء في مجال الزراعة ، (المكافحة الأحيائية) ، التي تعتمد على عناصر الطبيعة الحية المعادية للنمو الطبيعي للآفات الحشرية أو الحشائشية ، وقد حقق هذا البديل نجاحًا ملحوظًا في وقاية محاصيل زراعية مختلفة ، في أماكن متفرقة من العالم ، من هجمات ما يزيد عن ٢٢٠ آفة زراعية .

والمكافحة الأحيائية لا تفتك - كالمبيدات الكيميائية - بحشرات الإنتاج ، كدودة القز ونحل العسل والحشرات التي تنقل حبوب اللقاح بين النباتات ، مما يزيد من أهميتها وقيمتها كبديل عن المبيدات .

وتعتمد المكافحة الأحيائية على (الأعداء الطبيعيين) للآفات وهؤلاء الأعداء الطبيعيون من العوامل المهمة جدًّا في إبقاء الكائنات الحية في منطقة ما في حالة توازن ، وبدون هؤلاء الأعداء الطبيعيين

يختل التوازن الطبيعى للكائنات الحية ، ولولاهم لضاقت الأرض بمن وما عليها .. إن زوجًا واحدًا من الذباب – مثلاً – تمت حمايته من أعدائه الطبيعيين ، يمكن أن ينتج من الذرية والأجيال فى خمسة شهور فقط ما يكفى لأن يملأ سطح الأرض بالذباب المكدس لعمق قدم واحدة .

والعناصر الحية المعادية للآفات (الأعداء الطبيعيون) ، عديدة ومتنوعة ، وتشتمل على الفيروسات ، مرورًا بالبكتيريا والفطريات ، إلى الحشرات ، وأنواع من الرخويات ، وتضم بعض أنواع الفقاريات ، مثل الأسماك والبرمائيات والزواحف والطيور .. ويرى بعض الأخصائيين أن الإنسان نفسه يعد عنصرًا من عناصر المقاومة الأحيائية .

ومن أشهر أنواع الفيروسات المستخدمة فى المكافحة الأحيائية ، النوع المعروف باسم (بوريللنيا) ، الذى يستخدم فى الولايات المتحدة الأمريكية للقضاء على دودة اللوز الأمريكية وعلى دودة كيزان الذرة ، وقد وجد أن لهذا الفيروس اثرًا أحيائيًا مميتًا على يرقات دودة ورق القطن فى مصر ، والجدير بالذكر أن الولايات المتحدة الأمريكية تنتج هذا الفيروس على شكل (مبيد أحيائى) اسمه (بيوترول ف . هـ . ز .) ، وهو على هيئة مسحوق يضم الفيروس مع مادة ناشرة .

وتحقق نفس النجاح للمبيدات الأحيائية البكتيرية ، فتم تصنيعها فى الاتحاد السوفييتى تحت اسم (أنتوباكتيرين) ، لمقاومة الآفات

حرشفية الأجنحة ، كما أنتجت الولايات المتحدة الأمريكية المبيد البكتيرى (دووم) الذى يكافح خنفساء اليابان ، ونجحت إحدى الشركات الأمريكية مؤخرًا فى إنتاج مبيد بكتيرى جديد من نوع من البكتيريا يسمى (بسود وموناس فلورسنس) ، تم تخليقه معمليًا ، وقد ثبتت قدرة هذا المبيد على إكساب محصول القمح الشتوى مناعة ضد الصقيع ، ويضاف إلى هذه الميزة سهولة السيطرة على هذا المبيد البكتيرى ، إذ يزرق لونه إذا تم رشه بمحلول معين ، وهكذا ، يمكن استعمال هذه البكتيريا بأمان ، وعلى نطاق واسع ، فإذا زاد انتشارها عن الحد المطلوب ، أمكن اكتشافها باستعمال ذلك المحلول ، ومن ثم يمكن القضاء عليها قبل أن تلحق الضرر بالبيئة .

كما أعلن ، فى منتصف عام ١٩٨٨ عن نجاح فريق من علماء مركز بحوث ناقلات الأمراض التابع لكلية العلوم ، جامعة عين شمس ، فى عزل نوعين من البكتيريا لهما تأثير قاتل على جميع أنواع البعوض الناقل للأمراض فى مصر ، وبخاصة البعوض الناقل للملاريا والفلاريا والأمراض الفيروسية ، وقام الفريق بإنتاج مبيدات من هذه البكتيريا ، تمت تجربتها على مساحة ألف فدان بمنطقتى الإسماعيلية ووادى النطرون ، وقد ثبتت فاعلية المبيدات البكتيرية فى قتل البعض بنسبة ٧٠٪ ، أى تأثير على البيئة أو الإنسان .

وتضم قائمة الأعداء الطبيعيين بعض أنواع الفطريات ، مثل الفطر الزقى (أسبراجيللاس) الذى يفيد ، عند ارتفاع درجة الحرارة ، فى مقاومة الجراد وبق السونة ، وثمة نوع آخر من الفطريات الناقصة يعمل فى الجو الجاف على مكافحة كثير من الحشرات الضارة مثل حفار ساق الذرة الأوربى ودودة التفاح ، والصرصور الأمريكى ، وخنفساء البطاطس ، أما الفطر المسمى (سيفالو سبوريام) ، فيهاجم العديد من الحشرات العشرية التى تصيب أشجار التين فى المناطق الرطبة .

فإذا أتينا إلى مفصليات الأرجل ، وجدنا بينها العناكب التى تفترس دودة ورق القطن فى مصر ، و(الحلم) الذى يفترس بيض الحشرات والحشرات الصغيرة .

ومن الأسماك أنواع تعد من أهم المفترسات للحشرات ، لاسيما الأنواع المائية منها ، كذباب مايو ، وذباب الأحجار ، وذباب كاديس ويرقات البعوض ، والهاموش ويرقات الخنافس المائية .

أما الطيور ، فهى تفترس كميات كبيرة من الحشرات ، ويمكن لصغار الطيور أن تلتهم قدر وزنها من الحشرات ، ومن الأمثلة التى تؤكد على فعالية الطيور فى الحد من انتشار بعض الآفات الحشرية ، طائر النورس الذى ضيَّق ، بشكل واضح ، حدود انتشار الحفَّار فى (يوتا) بالولايات المتحدة الأمريكية .

وتأتى حيوانات (الخلد) ، و(النمس) ، و(الخفاش) بين الثدييات التى تفترس الحشرات ، فتفيد – بدرجة أو بأخرى – فى مقاومة الضار منها . أما الإنسان ، فهو أهم عناصر المقاومة حين يعمد إلى يديه فى جمع وإبادة اللطع الخاصة ببيض دودة ورق القطن ،مثلاً .

ومن الضرورى أن تجرى دراسات كافية قبل اختيار العدو الطبيعى المناسب لمقاومة آفة ما ، فما يصلح لآفة قد لا يصلح لأخرى ، وعلى أى حال ، فثمة شروط عامة يجب أن يتم التحقق من توفرها فى العدو الطبيعى قبل التفكير فى استخدامه فى المكافحة الأحيائية ، منها :

١ – أن يكون هناك توافق بين دورة حياة العدو الطبيعى ، وطور الآفة المراد مكافحتها ، بمعنى ألا تظهر هذه الآفة وتسود بينما يتأخر ظهور العدو الطبيعى ، أو العكس .

٢ – أن يكون ثابت العادة الغذائية ، فلا يتغير سلوكه الغذائى من وقت لآخر .

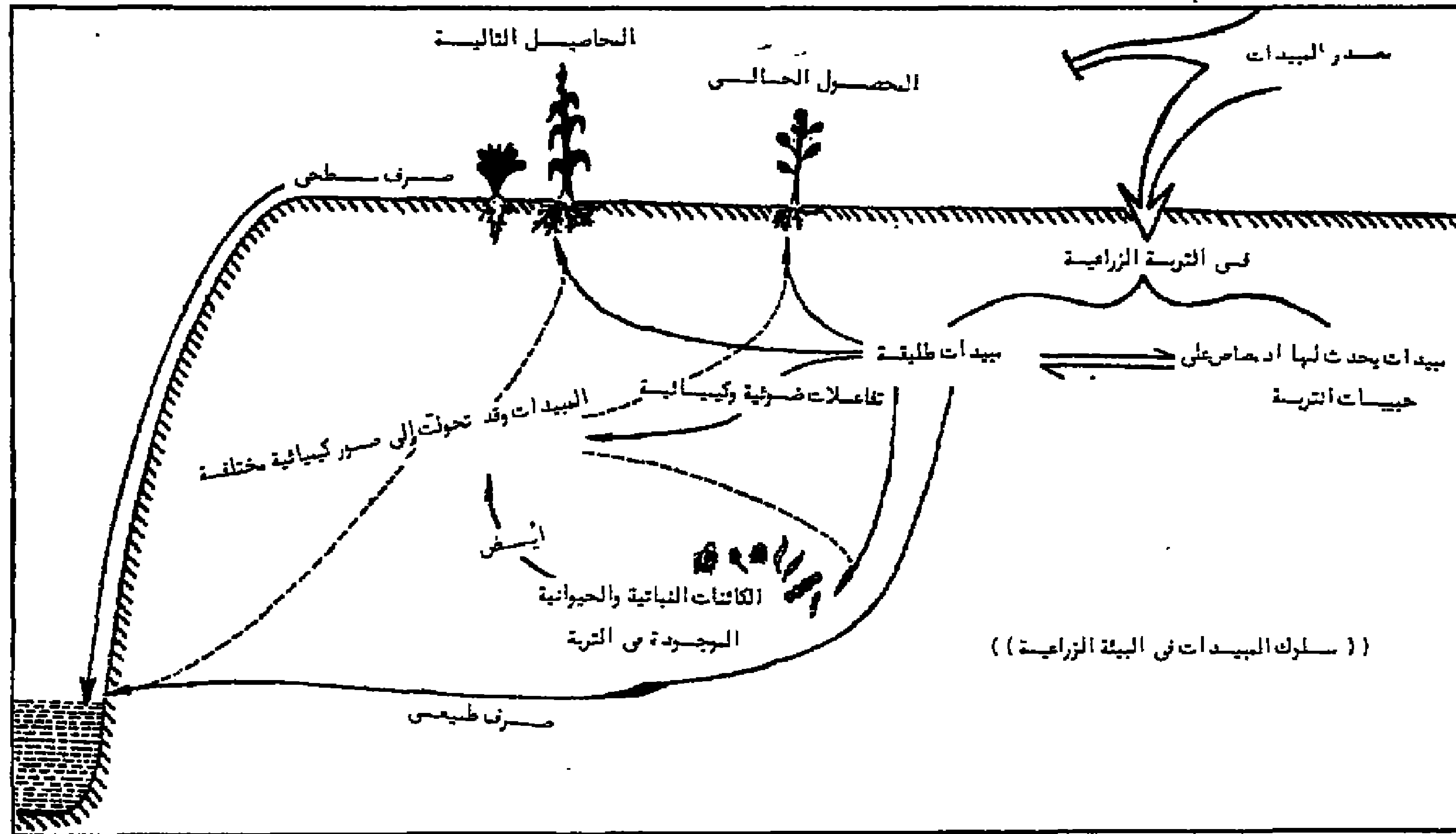
٣ – أن يكون له حجم مناسب وطبع هادئ ، لتسهيل التعامل معه .

وثمة بدائل أخرى متاحة أمام من يفكر فى طرق ، غير المبيدات الكيميائية ، لمكافحة الآفات ، مثل استعمال المواد المنظمة للنمو ، وهى مواد كيميائية تعتمد على مواد مشابهة للهورمونات الطبيعية ، وتعمل

على إعاقة اكتمال دورة حياةِ الحشرة الضارة ، وثمة بديل آخر يعتمد على إعقام ذكور الآفة إشعاعيا فى المعمل ، ثم إطلاقها فى البيئة ، وقد استخدمت هذه الطريقة فى إبادة بعض أنواع البعوض وذبابة النبر الأمريكية .

وأخيرًا ، دخلت الهندسة الوراثية الساحة ، ونجح العلماء العاملون فى مجالها بجامعة واشنطون ، فى إنتاج نوع جديد من الطماطم يتميز بمناعته ضد فيروس (التبغ الموزايك) ، الذى كان يدمر محصول الطماطم ، وذلك بزرع عوامل وراثية جديدة تفرز نوعا من البروتين يقى النبات من هذا الفيروس ، دون أن تفقد ثمار الطماطم طعمها أو خصائصها المعروفة .

فهل يأتى يوم تغنينا فيه هذه البدائل ، وغيرها مما يمكن أن يأتى به المستقبل ، عن استخدام المبيدات الكيميائية ، وينعم أولادنا أو أحفادنا بالحياة فى بيئة نظيفة ؟



((سلوك المبيدات في البيئة الزراعية))

عالم جديد .. للتجريب فقط !

فى نهاية ديسمبر من عام ١٩٩٠ ، أغلقت بوابة (صوبة) زجاجية أو (دفيئة) ضخمة ، أقيمت على أرض تساوى فى مساحتها مساحة ملعبين لكرة القدم ، وبداخلها ٣٨٠٠ نوعٍ من النباتات والحيوانات ، بالإضافة إلى ثمانية (نماذج) من الكائن الحى الذى يحمل الاسم العلمى (هومو سابينس) ، أى : الإنسان ! .

وعلى هذه المجموعة المنتقاة من مختلف الكائنات الحية أن تواجه الحياة فى هذا (المجال الحيوى) ، وتتبادل الانتفاع بمحتوياته من الهواء والمياه ومصادر الغذاء ، لمدة سنتين متصلتين ، دون الاحتياج إلى أى عون من (العالم الخارجى) !

إنها تجربة بيئية جريئة وفريدة ، أقدمت على تنفيذها شركة أسسها رجل أعمال أمريكى وفريق من علماء البيئة ، وتهدف إلى إنقاذ البيئة البشرية ووقف تدهور أحوالها ، وقد أطلق أصحاب التجربة على هذا (العالم الصغير) اسم (المجال الحيوى الثانى) ، وذلك تمييزاً له عن (المجال الحيوى الأول) ، أو الأرض ، التى تفقد صلاحيتها كمجال حيوى يومًا بعد يوم ، وثمة من يعتقد فى أن البشر لم يعد بإمكانهم تنظيف بيئتهم ، وأن ذلك يرجع ، أساسًا ، إلى الفوضى

التى تشتت جهودهم ، بالإضافة إلى أنهم لا يستطيعون تحديد مصادر تلويث الأرض .

ويقول (كارل هودجز) ، مدير معمل البحوث البيئية فى جامعة أريزونا ، وأحد المستشارين العلميين لمشروع أو تجربة (المجال الحيوى - ٢) :- « إن البشر فى أى مكان على سطح الكرة الأرضية يلمسون بوضوح أن درجة حرارة جو الأرض آخذة فى الارتفاع ، ويعانون بدرجة أو بأخرى من جرّاء ذلك ، بينما العلماء فى واد آخر ، لا يزالون منشغلين فى جدل حول ما إذا كان تزايد غاز ثانى أكسيد الكربون فى الجو له ضلع فى هذه القضية أم لا ؛ وإذا كان ضالعًا فإلى أى مدى ، وهم فى جدلهم هذا نظريون إلى حد كبير ، ويعتمدون على بيانات غير كافية ، تحصلوا عليها من تجارب ومشاهدات محدودة ، وعن طريق برامج للحاسوب وعمليات (نمذجة) قد لا تمثل واقع الحال فى مناخ الكون .

من هنا ، جاءت فكرة إقامة هذا (العالم المصغر) ، ليوفر للعلماء فرصة فريدة لإجراء تجارب ذات صفة (كونية) ، يتحكمون فى مساراتها ، ويستنتجون منها ما قد يجيب على العديد من الأسئلة المحيرة ، ومن جهة أخرى ، فإن هذا العالم الجديد يمكن أن يضعنا فى موقع المراقبة المباشرة لنرى كيف تسير الأمور فى بيئة تقترب فى ملامحها من البيئة الإنسانية عند فجر التاريخ ، حيث الاتزان الطبيعى

هو القانون السائد ، وحيث الحياة تسير فى تناسق محكم لا يسمح بوجود تلوث ، ويستوعب القدر اليسير من المخلفات الناتجة من الأنظمة الحيوية المتزنة .

إنك ، إذا كنت صاحب مزرعة – مثلا – ولديك بعض المصاعب فى جانب من عملية الزراعة ، يمكنك أن تلقى نظرة على مزرعة جارك ، فلعلك تكتشف – بالمقارنة – حلولاً لمشاكل مزرعتك ، وقياسًا على هذا المثال البسيط ، يعتقد بعض علماء البيئة أن المشكلة الأساسية للأرض تأتى – فى الجانب الأكبر منها – من تفردها كمجال حيوى ، فليس ثمة مجالٌ حيوىٌ (مجاورٌ) يمكننا أن نجرى دراسات مقارنة بين أحواله وأحوالنا ، ولعل هذا العالم المصغر المتمثل فى (المجال الحيوى – ٢) يتيح لنا فرصة التجريب فى (عالم شبيه) .

وتتجاوز طموحات العاملين فى مشروع المجال الحيوى الثاني إلى أبعد من ذلك .. إنهم يتطلعون إلى استنتاج مبادئ (تعمير) (عوالم جديدة) ! ، إنهم يدركون جيدًا أننا نطل على مفتتح القرن الواحد والعشرين ، حيث (أحلام الفضاء) تقترب من حيِّز الحقيقة ، فنحن نتحدث الآن عن الحياة فى محطات فضائية ، وعن التفكير فى توفير سبل للحياة الآدمية على سطح القمر وفى المريخ ، لذلك ، فإن كل ما سيقدمه (المجال الحيوى – ٢) من خبرات ووسائل لتسهيل الحياة

فى مثل هذه (العوالم المحدودة) ، قد يساعد مستقبلاً فى دعم حياة (سكان الفضاء) .

وقد نبتت فكرة المجال الحيوى - ٢ فى أذهان ثلاثة من علماء البيئة أثناء مشاركتهم فى تنفيذ مشروع علمى لمعهد لندن للتقانيات البيئية ، بدءوا بتساؤلات وتصورات عما يجب أن يكون عليه شكل واتساع مجال حيوى صناعى ، تتوفر فيه عناصر الحياة الضرورية لمختلف الكائنات الحية ، بما فيها الإنسان ، وتحولت التساؤلات إلى دراسات وخطوط فى عدد من التصميمات لهذا العالم التجريبى الغريب .



أربعة متطوعين وأربع متطوعات
يلوحون مودعين سكان (المجال الحيوى - ١) ،
قبل أن يغلق عليهم باب (المجال الحيوى - ٢) فى تجربة بيئية عجيبة !

وكان يمكن أن تنتهى مسيرة الفكرة عند هذا الحد ، لولا ظهور مليونير أمريكى اشتهر عنه دعمه لمشروعات صون البيئة ، أعجب بالفكرة ووافق على تمويلها ، واشترى الأرض التى اختارها العلماء موقعًا للمشروع ؛ وبدأ العمل فعلاً فى تنفيذ الفكرة فى عام ١٩٨٧ .

لقد أختير موقع (العالم الجديد) فى بقعة نائية بقلب صحراء أريزونا ، ليكون منقطع الصلة بأى نشاط إنسانى ، ويبدو (المجال الحيوى الثانى) من بعيد كحصن ماسى يتوهج تحت الشمس ، وهو فى الحقيقة صوبة عملاقة تغطيها ألواح زجاجية يبلغ إجمال مساحتها أربعة فدادين ، وتحملها دعامات من الصلب ، ويبلغ ارتفاع هذا المبنى الفريد ٨٥ قدمًا فى المتوسط ، ويصل إجمالى حجم الفراغ بداخله إلى خمسة ملايين قدم مكعب .

وقد كان واضحًا فى أذهان مصممى المشروع ، منذ البداية ، أنهم لكى يتعلموا كيف (تعمل) الأرض ، فعليهم أن يوفروا لمشروعهم أقصى قدر ممكن من التنوع فى الأنظمة البيئية المماثلة لتلك الموجودة على سطح الأرض ، وقد نجحوا فى أن يجمعوا تحت سقف هذا المشروع العجيب سبعة أنظمة بيئية هي : بيئة نهر الأمازون المطيرة بغاباتها الكثيفة ، ومساقط المياه ، ومراعى السافانا ، وغابات الأكاسيا ، وبقعة تمثل الصحراء ، وغابات المكسيك ، والأراضى الموحلة والمستنقعات ، بالإضافة إلى (محيط) صغير .

وتأتى قمة النجاح فى إخضاع كل إمكانيات الهندسة البيئية فى صنع بيئة الغابات المطيرة فى تلك البقعة من صحراء أريزونا ، لقد بدأ المهندسون بتحضير التربة التى وصل عمقها إلى عشرة أقدام ، وتزويدها بنظام صرف جيد ، ثم غطيت بطبقة أخرى من التربة القلوية عمقها ثلاثة أقدام ، ثم نثروا فوق المساحة المحددة للغابة الصناعية المطيرة حمولة عربة نقل كبيرة من السماد البلدى ، وطحالب المستنقعات ، وفى وسط الغابة ، أقيم جبل من الحجر الرملى ، مطابق لجبل حقيقى موجود فى نفس البيئة فى فينزويلا ، وغرسوا عند قمته أعشابًا وسرخسيات ، وعند قاعدته أشجار يصل طولها إلى ٣٥ قدمًا ، وتعيش - أساسًا - على ضفاف نهر الأمازون ، وزرعوا فى كنفها بعض نباتات الظل وأشجار المطاط ، ولتوفير العتمة المناسبة للأشجار المنخفضة فى هذه الغابة ، حجبت الجدران الزجاجية القريبة منها بحزام كثيف من أشجار الزنجبيل والموز التى أعدت فوقها بعض أعشاش للطائر المسمى بعصفور الجنة ، وقد تم تجميع مكونات هذه الغابة من فينزويلا وبورتوريكو وغيانا والبرازيل .

وقبل أن تنتقل الحيوانات والنباتات من مواطنها الأصلية إلى أماكنها الجديدة فى الأنظمة البيئية السبعة داخل العالم الصغير ، مرت بمرحلة إنتقالية ، حيث خضعت للملاحظة فى نموذجين مصغرين للمجال الحيوى - ٢ ، سعة كل منهما ١٥ ألف قدم

مكعب ، للتأكد من قدرة هذه الأنواع من الكائنات الحية على تحمل الحياة فى الحبس .

وقد اهتم مهندسو البيئة فى هذا المشروع بتأمين التمويل الذاتى للأنظمة البيئية المختلفة فى المجال الحيوى - ٢ ، فلا إمدادات من الخارج طوال السنتين ، العمر المفترض لهذه التجربة ، لذلك ، عملوا على توفير نسبة عالية من الاحتمالات لنجاح عملية انتقال حبوب اللقاح بين النباتات ، لضمان إنتاجية عالية من الفواكه والخضروات وغيرها من المحاصيل الزراعية التى سيعيش عليها سكان المجال من الآدميين ، وحيواناتهم ، خلال هاتين السنتين ؛ وأيضًا ، لتوفير فرص التكاثر للحياة النباتية فى هذا العالم الجديد ، وحمايتها من الزوال .

وعندما فكروا فى اختيار أفضل الحشرات الناقلة لحبوب اللقاح ، استبعدوا النحل ، معتقدين أن السقف الزجاجى للمجال الحيوى - ٢ سيمنع مرور الأشعة فوق البنفسيجية التى تعين النحل على اتخاذ طريقه إلى الأزهار ، ولما خضع النحل للتجربة فى النموذج الانتقالى ، نجح فى أداء وظيفته ، فانضم إلى قائمة حيوانات المشروع ، بالإضافة إلى الذباب ودبابير التين والفراشات ، وزوج من الطيور الطنانة ، ومجموعة صغيرة من الخفافيش .

واستكمالاً لعملية محاكاة الطبيعة ، تم اختيار مجموعة أخرى من الحشرات ، بلغ عدد أنواعها مائتين ، ومنها النمل الأبيض والصرصور

والخنافس ، ولا يقتصر دور هذه الحشرات على تنظيف البيئة بالتهام المخلفات والفضلات النباتية والحيوانية ، بل يتعداه إلى تحقيق التوازن الطبيعى ، بين أنظمة الحياة فى ذلك المجال الحيوى ، وقد تم حساب عدد الحشرات بدقة ، بحيث تؤدى الغرض المطلوب منها ولا تزيد ، ولتجنيب البيئة الأضرار التى قد تنتج عن احتمال تكاثرها بمعدلات كبيرة ، ضمت قائمة الكائنات الحية فى المجال الحيوى - ٢ أعدادًا مناسبة من آكلات الحشرات ، مثل الطيور والضفادع والسحالى .

والجدير بالذكر ، أن سكان هذا المجال الحيوى المحدود من البشر سوف يمارسون الزراعة فى مزرعة نموذجية ، لا تزيد مساحتها عن ٢٤ ألف قدم مربعة ، تطبق فيها أحدث تقانيات الزراعة المكثفة طوال العام ، وتنتج عشرات المحاصيل ، مثل الطماطم والقنبيط والخس والأذرة والفول والأرز والقمح والبطاطس والموز والتين والتفاح ، حتى قصب السكر والشاى والبن ! .

أما البروتين الحيوانى ، فقد تم إمداد المجال الحيوى - ٢ بمخزون ضخم من مصادره الحية (دجاج - أغنام - أسماك) ليتوفر للمتطوعين الثمانية طازجًا على مدار السنتين ، مدة التجربة .

وعندما أعلن عن طلب متطوعين لتمثيل الجنس البشرى فى هذا العالم الصغير ، تقدم للمسئولين عن المشروع آلاف الرجال والنساء من مختلف الأعمار والتخصصات ، وقد وجدت لجنة الاختيار

صعوبة كبيرة فى تصفية هؤلاء إلى أربع عشرة فقط ، نصفهم من الرجال ، والنصف الآخر – طبعًا – من النساء ، وقد تراوحت أعمارهم بين الثلاثين والستين عامًا ، وتنوعت أعمالهم واهتماماتهم بين علم النبات وعلوم البحار والطب وعلم النفس والزراعة والهندسة ، وخضعوا لبرامج تدريبية شاقة ، كما شاركوا فى أعمال إنشاء وإعداد المجال الحيوى – ٢ ؛ وكان كل منهم يأمل فى أن يكون واحدًا من الثمانية الذين سيخوضون هذه التجربة ، أو المغامرة العلمية المثيرة وتغلق عليهم بوابة هذه القلعة لمدة سنتين كاملتين ، ليدبروا شئون حياتهم داخل هذا الحيز المحدود ، مستغنين عن العالم الخارجى .

وفى التصفية النهائية ، اختير ثمانية متطوعين أثبتت التجارب أنهم الأكثر لياقة والأكثر خبرة فى مجال الشئون البيئية ، كما أنهم بلا أزواج أو زوجات أو أى التزامات عائلية ، قد تؤثر فى مسيرتهم بشكل أو بآخر ، خلال وجودهم داخل المجال .

وقد وجد فريق علماء ومهندسى المجال الحيوى – ٢ صعوبة فى معالجة حرارة المجال ، فنحن أمام (وعاء) محدود من الزجاج ، معرض لشمس الصحراء معظم أيام السنة ، وكما هو الحال فى أى صوبة زجاجية ، فإن هذا البناء الزجاجى (يحبس) الحرارة بداخله ، إذ يسمح للضوء الساقط فوقه بالمرور إلى الداخل بنسبة ٧٠٪ ، ولكنه يمنع الأشعة الحرارية من الارتداد للخارج ، فتختزن الحرارة

بالداخل ، ويمكن أن ترتفع إلى قياس يتعدى ثمانين درجة مئوية فى الصيف .

ويعمل هذا الارتفاع الكبير فى درجة حرارة المجال الحيوى — ٢ على تمديد الهواء الداخلى نهارًا ، وانكماشه ليلاً حين تنخفض درجة الحرارة ، ويسبب هذا التغير فى حجم الهواء مضايقات تسيىء إلى الاستقرار المطلوب في الظروف المناخية للمجال الحيوى الثانى .

لذلك ، تم تزويد هذا العالم المحدود برئتين .. نعم ، رئتين ، كل منهما عبارة عن فراغ ضخم طوله خمسون قدمًا ، ومغلف بغشاء مطاطي ، وقد وضع واحد منهما ملاصقًا للجدار الغربى ، والآخر ملاصقًا للجدار الجنوبى ، ويتصل كل من الرئتين بالبيئات المختلفة بواسطة قنوات أنبوبية مدفونة ، وعند تمدد الهواء ، يندفع جزء منه ليملأ الرئتين ، فينتفخ الغشاء المطاطى (شهيق) ، ويفقد الهواء بعض حرارته فى الرئة ، فينقبض الغشاء ، دافعًا الهواء البارد نسبيًّا عبر القنوات الأنبوبية ليختلط بهواء المجال الحيوى الساخن ، مؤديًا إلى خفض درجة حرارته .

وبالإضافة إلى عملية (التنفس) هذه ، فإن (مبنى) المجال الحيوى — ٢ يتمتع بنظام خاص لتكييف الهواء ، يتم فيه دفع تيار مستمر من الهواء الداخلى الحار إلى أنساق من المراوح ، وأنابيب التهوية موضوعة تحت المبنى نفسه ، حيث يتم تبريد هذا الهواء بكميات ضخمة من

المياه (الخارجية) المارة فى سلسلة من الأنابيب الحلزونية ، ثم يعاد دفع الهواء البارد وتوزيعه فى المجال الحيوى – ٢ من خلال فتحات التكييف المنتشرة فى جدرانه .

والجدير بالذكر ، أن لهذا النظام المركزى لتكييف المجال الحيوى – ٢ فائدة أخرى ، وهى صون المحتوى المائى للمجال .. إذ أن الحياة فى هذا العالم المصطنع ستظل لمدة عامين معتمدة على ما بداخله من مياه ، ولا أمل فى الحصول على نقطة مياه واحدة من الخارج ، بعد أن أغلقت الأبواب على كل من وما بداخل المجال الحيوى – ٢ . لذلك ، فإن بخارا الماء المتكثف على أسطح الأنابيب الحلزونية فى أنظمة التكييف يتم جمعه فى أحواض خاصة ، ثم يعاد ضخه فى شبكة المياه الخاصة بالمجال ليستخدم فى مختلف الأغراض ، مثل : تضبيب مناخ بيئة نباتات السفوح ، وإعادة ملء البركة الموجودة فى الواحة المصغرة وسط صحراء المجال – ٢ ، بالإضافة إلى رى المحاصيل الزراعية التى يزرعها سكان هذا المجال ، وطهى طعامهم ، وأعمال النظافة ، وشرب الحيوانات . أما مياه الشرب للآدميين ، فإنها تنقى جيدًا بواسطة مرشحات ذات كفاءة عالية ثم يتم تعقيمها بالأشعة فوق البنفسجية لتأمين صلاحيتها للشرب .

أما المحيط فى هذا العالم الصغير ، فإنه يواجه مشكلة ناتجة عن صغر مساحة سطحه .. إذ تتم تغذية هذا المحيط بتيار مستمر من المياه

التى تقترب فى درجة ملوحتها من ملوحة المحيط الحقيقى ، غير أن معدل البخر فى هذه المساحة الصغيرة ضئيل جدًّا ، مما يهدد بفيضان مستمر لمياه المحيط ، لذلك ، فإن المياه المالحة الزائدة تسحب إلى محطة صغيرة للتحلية ، وينقل الماء العذب الناتج إلى الشبكة العامة للمياه فى المجال .

وقد أعدت بركة خاصة للصرف الصحى ، حيث يتم استقبال المخلفات الآدمية فتتعامل معها أنواع محددة من الميكروبات والنباتات والحشرات والضفادع ، فتقوم بتكسير المواد العضوية فى هذه المخلفات وتتغذى عليها ، تاركة مياه الصرف الصحى على درجة من النقاء تناسب إعادة استخدامها فى رى المزروعات فى المجال - ٢ .

ويحصل هذا المشروع الضخم على الكهرباء اللازمة لإدارة أوجه النشاط فيه من مولد خاص قدرته ٣,٧ ميجاوات ، ويعمل بالغاز الطبيعى .

ويبدأ العمل اليومى الروتينى لسكان المجال الثانى بأربع ساعات من التجوال فى البيئات المختلفة بعالمهم الصغير ، للاطمئنان إلى أن العلاقات البيئية تسير كما هو مرسوم لها ، دون جور من بيئة على أخرى ، ثم تأتى أعمال الزراعة وتنظيف محلات الإقامة وأعمال صيانة وحدات وأجهزة البنية الأساسية .

وتبدأ ، بعد الغداء ، أعمال أخرى لها صفة بحثية ، حيث يقضى سكان المجال – ٢ أربع ساعات أخرى فى إجراء تجارب معملية أوحقلية ، وهو جانب هام فى التجربة يتيح للعلماء – فى نهاية السنتين – دراسة البيانات المتحصل عليها ، والتى قد تفيد فى تحسين أحوال المجال الحيوى الأم .

وبانتهاء الساعات الثمانى من العمل ، يتحرر المتطوعون من واجباتهم ويخلدون إلى الراحة ولممارسة هواياتهم ، وقد خطط أحدهم لممارسة الرسم ، بينما جلب آخر معه مستلزمات دراسة اللغة الروسية ، وينوى ثالث أن يؤلف كتابًا عن هذه التجربة .

وقد صممت مساكن المتطوعين لتتوفر فيها البساطة والراحة ، ولإبعاد الإحساس بأنهم يعيشون (داخل أسوار) ، ويتكون كل مسكن من طابق أرضى هو حجرة معيشة متسعة ، وطابق علوى به حجرة نوم مريحة ، وكل الوحدات السكنية مزودة بهواتف للاتصال بأى مكان فى (العالم الخارجى) ، وأجهزة راديو ، وفاكس لاستقبال البريد والأخبار ، وقد تركت للمتطوعين الحرية فى اقتناء أجهزة تلفاز وفيديو ، إن شاءوا .

ولم يفت على مصممى التجربة ، بالطبع ، توفير الخدمات الطبية لسكان المجال الحيوى – ٢ ، حيث أنشئت بالداخل (عيادة) خاصة ، بها أجهزة لرسم القلب وللأشعة وحجرة عمليات صغيرة ،

ويعمل بهذه العيادة الطبيب المختار بين المتطوعين الثمانية ، يساعده زميل آخر تدرب على أعمال التمريض ، أما فى الحالات الحرجة ، فسيكون الاضطرار إلى (كسر) استمرار التجربة ، وفتح الأبواب لإخراج المريض إلى أقرب مستشفى .

ولا أحد يدرى هل تم (ترتيب) (المسائل العاطفية) داخل هذا العالم الصغير ، وكيف يتصورها المتطوعون والقائمون على إدارة المشروع ؟ ولكن الجميع يؤكدون على أن الحياة الشخصية (بالداخل) لا يملكها إلا المتطوع أوالمتطوعة ؛ ولكنهم – فى نفس الوقت – يلتزمون بتعليمات الإدارة الواضحة :ممنوع إنجاب الأطفال خلال سنتى التجربة ! .

وقد تعددت آراء العلماء – خارج التجربة – حول فائدتها وقدرتها على الإسهام فى حل المشاكل البيئية .

يقول أحد علماء النبات : إن ما يقومون به شىء مذهل ، ولكن يبقى سؤال هام ، هو : هل سينجحون حقًا فى إيجاد إجابات للأسئلة التى تحيرنا حول بعض شئون البيئة ؟ .. ثمة مشاكل عالمية حادة تشغل البشر وتؤرقهم ، مثل الدمار المتزايد فى حزام الغابات الاستوائية المطيرة ، واختفاء أنواع من الكائنات الحية .. ولا أعتقد أن مثل هذه التجربة الباهظة التكاليف هى الأسلوب المناسب لدراسة مثل هذه المشاكل .

ويتساءل عالم آخر ، متشككًا فى استمرار (الدورات) الحيوية الطبيعية ، مثل دورة النيتروجين ودورة الفوسفور ، وهل سيتحقق التوازن لعنصر الكربون داخل هذا العالم الصغير ؟ ! .

وأيًا كانت الانتقادات والتحديات التى سيواجهها المجال الحيوى – ٢ ، فإن المشرفين عليه سيكون لديهم الوقت الكافى لدراستها وتدارك أوجه التقصير .. إذ أن المشروع لن يتوقف بعد مرور السنتين ، فقد صمم ليعمل لمدة قرن كامل من الزمن ، وخلال مائة سنة ، سيتاح للعلماء أن يقوموا بإجراء عشرات من التجارب فى مختلف المجالات ، ولعلها تأتى بالإجابات التى تجعلنا نتفهم مشاكل المجال الحيوى – ١ بشكل أفضل ، وتعيننا على حلّها .. ولعل ذلك يتحقق فى الوقت المناسب !! .

عن أحوال البيئة فى الخليج . . .
. . . رؤية متفائلة

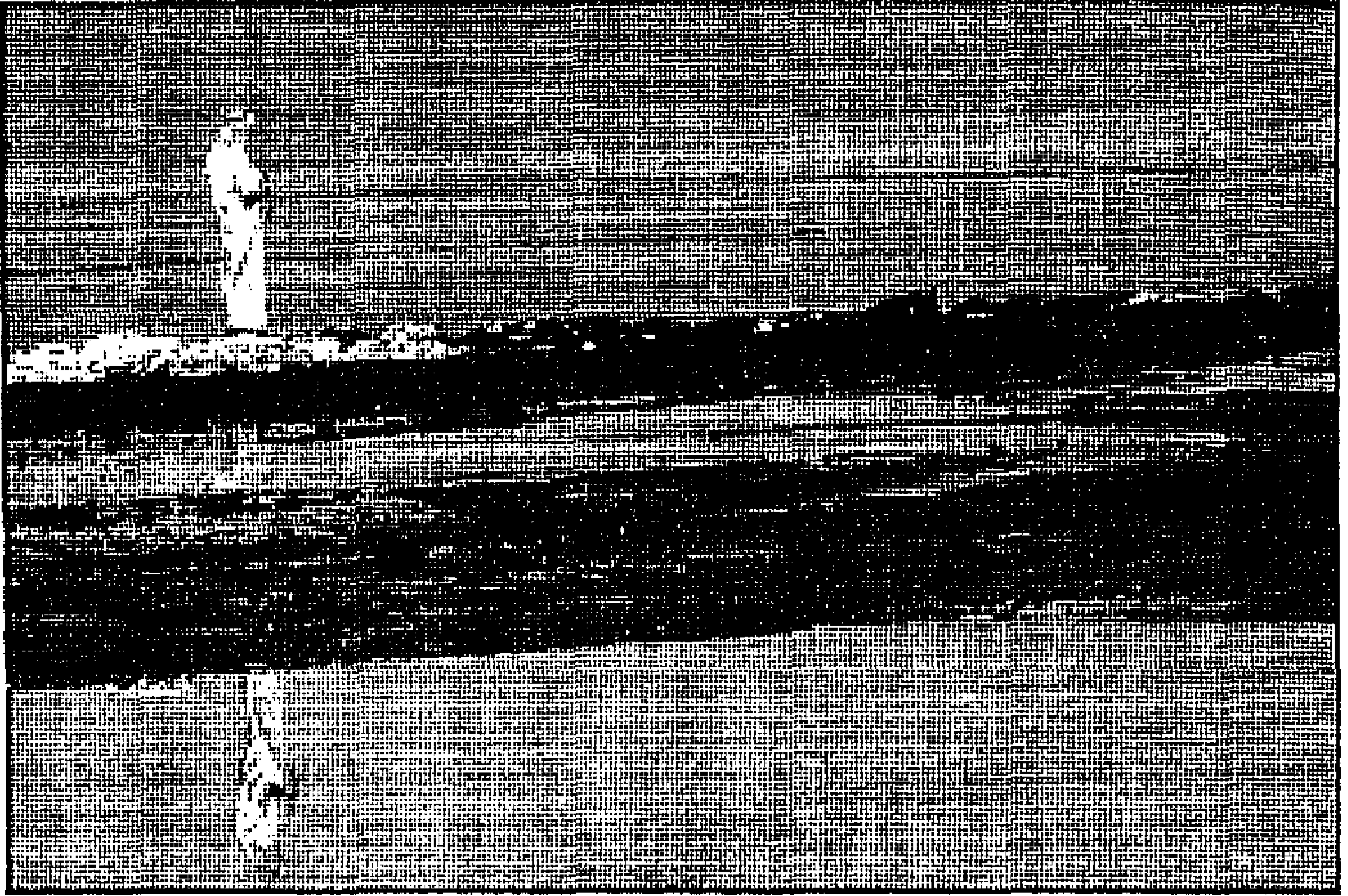
أحرق العراقيون أكثر من ٥٠٠ بئر من أفضل آبار النفط فى العالم .. وبالإضافة إلى ذلك ، فقد تم تسريب كميات ضخمة من النفط الخام إلى مياه الخليج ..نحن – إذن – أمام (حادثة) فريدة ، لم يسبق للبشرية أن شهدت مثلها .. ويرى بعض خبراء البيئة أنه من الصعب تقدير نتائج هذا الفعل الإجرامى قبل مرور سنوات طويلة ..

وهذه النيران المشتعلة فى آبار الكويت[١] ، تلتهم يوميًّا كمية من النفط تساوى الكمية التى تستهلكها كل ولاية لوس أنجيلوس الأمريكية ..

إن النيران التى ارتفعت ألسنتها فى صحراء الكويت ، أضافت إلى الغلاف الجوى للأرض كميات هائلة من الهيدروكربونات الغازية شبيهة بما تحمله عوادم السيارات ، بالإضافة إلى السناج وغاز ثانى أكسيد الكبريت السام ..

---

(١) كتب هذا الموضوع عقب انتهاء حرب الخليج مباشرة .



اللون الأسود يغطى المياه .. إنه الزيت المتسرب فى حرب الخليج ! ..
كارثة بيئية تجرى محاولات عالمية لتخفيف آثارها فى المستقبل .

ويخفف بعض الخبراء من وقع التقديرات المفجعة لآثار هذه الحرائق على البيئة ، فيقولون بأن الأضرار ستكون محصورة فى حدود المنطقة المحيطة بالحرائق ، ولن تتعداها إلى العالم كله . ويتخوف البعض من انتشار السناج الذى تقذفه هذه الحرائق فى الجو ، واحتمال أن يغطى معظم أجواء كوكب الأرض فيعزله حراريًّا ، مما يؤدى إلى انخفاض درجة حرارة الأرض ، غير أن المتفائلين يرون أن ذلك السناج ثقيل نسبيًّا ، فلا يقدر على تحقيق هذا الانتشار الواسع ، فيتساقط على مسافات متفاوتة من موقع الحرائق .. وعلى ذلك ، فالمتوقع أن يقتصر التأثير على تلويث أجواء إيران وباكستان وشمال الهند ، ومن المنتظر أن تشهد تلك المناطق زيادة واضحة فى عدد مرضى الجهاز التنفسى ، وفى تعرض مصادر المياه للتلوث بهذه الدقائق الكربونية ..

أما عن الإساءة إلى مياه الخليج ، فقد تعمد الجيش العراقى تسريب حوالى ٤٦٠ مليون جالون فى تلك المياه .. ويعتقد البعض أن هذا التقدير مبالغ فيه ، وأن تحليل صور الأقمار الصناعية يؤكد أن كمية الزيت المسكوب فى مياه الخليج لا تزيد عن ٦٣ مليون جالون ، وأن جزءًا يقدر بحوالى ٣٠٪ من هذه الكمية من الزيت المتسرب نتج عن قصف طائرات الحلفاء للمنشئات البترولية العراقية فى الخليج .

وحتى إذا أخذنا بالتقدير الثانى ، فإن كمية النفط المتسرب تساوى خمسة أضعاف الزيت المتسرب فى الحادثة الشهيرة للناقلة (اكسون فالديز) فى ألاسكا ..

والجدير بالذكر ، أن أسوأ حوادث تسرب النفط فى البحار قد وقع فى الخليج - أيضًا - وعلى يد العراقيين - كذلك - عندما هاجمت طائراتهم بعض آبار البترول البحرية الإيرانية فى عام ١٩٨٣ خلال حربهم ضد إيران .. ويأتى فى المرتبة الثانية من حيث اتساع التأثير المدمر على البيئة البحرية ، التسرب النفطى الذى حدث فى خليج المكسيك عقب انفجار منصة إنتاج البترول المكسيكية فى عام ١٩٧٩ ، وقد قاربت كمية النفط المتسربة فى كل من هذين الحادثين ١٧٦ مليون جالون .

وتلعب الرياح والتيارات البحرية دورًا هامًّا فى تحريك وانتشار بقع الزيت ، فتسهل أو تعوق جهود مقاومتها ، لذلك فمن الضرورى أن تؤخذ فى الاعتبار عند القيام بأعمال مقاومة التلوث النفطى .

وبالإضافة إلى التدمير الشديد الذى تلحقه بقع الزيت الطافية بالأنظمة الحيوية البحرية ، فإنها تسبب أعطالاً فى محطات تحلية المياه ..

ونشير فى هذا المجال إلى الجهود السعودية لمواجهة هذه الكارثة البيئية .. فقد سارعت الجهات المسئولة بإحاطة مواقع محطات تحلية المياه بوسائد مطاطية طويلة ، تطفو فتوقف تقدم بقعة الزيت إلى مداخل

المياه فى تلك المحطات ، بالإضافة إلى أعمال أخرى تهدف إلى سحب البقع الزيتية ، ومعالجة المياه الملوثة بالوسائل الميكانيكية والكيميائية المأمونة ، التى تحقق نظافة المياه ، دون إضافة المزيد من الملوثات الكيماوية إليها . والجدير بالذكر أن أحد المتخصصين فى هندسة البيئة فى جامعة تكساس الأمريكية يعتقد أن الزيت سوف يتبخر ويتحلل بسرعة فى مياه الخليج ذات الحرارة المرتفعة نسبيًّا ، وأن معظم أنواع الكائنات البحرية الحية سوف يجتاز بنجاح أزمة التلوث ، ويشفى من آثارها بمرور الزمن .

بقى أن نشير إلى أن أكثر الحيوانات البحرية تأثرًا بالتلوث النفطى فى مياه الخليج ، ذلك الحيوان الثديى المسمى (عروس البحر) ، ويبلغ تعداد تجمعاته فى الخليج العربى حوالى سبعة آلاف فرد ، وهو كسول ، بطىء الحركة ، بطىء التكاثر .. وهذه صفات تجعله يعجز عن مقاومة الأخطار البيئية المحيطة به .. ومن هنا ، كان أكثر عرضة للتأثر بهذه الكارثة البيئية . ومن هنا ، ندعو إلى إعطائه أولوية فى برامج حماية البيئة فى الخليج .

استغاثة طائر البحر !

هل رأيت طائر البحر ، تتقاذفه الأمواج السوداء ، فى بقعة الزيت الكئيبة التى غطت جانبًا من مياه الخليج ؟

هل كان يمكنك أن تشعر بهول الكارثة – أو ، على الأقل ، بنفس الدرجة من الحدة – لو أن ذلك الشريط التلفازى جاء خاليًا من منظر الطائر المترنح فوق صخور الشاطئ ؟ .

إن طائر البحر هو أول كائن فى البيئة البحرية يهرع إلينا طالبًا الغوث من التلوث النفطى .. فالكائنات الأخرى تموت أو تهرب من المكان فى صمت ، ودون أن نراها ...

ولابد أن أعدادًا كبيرة من طيور البحر قد تأثرت بتلك الكارثة البيئية فى الخليج ، ولكن أحدًا لا يملك أن يحصرها ، ولا يجرؤ على الاقتراب لمساعدتها لتنجو من تلك الورطة المدمرة ، فالمنطقة تغلى فى بركان الحرب .

ولا بأس ، الآن ، فى أن نتعرف على تجربة لإنقاذ طيور البحر من التلوث النفطى ، لعلّنا – وقد هدأت الأمور – نلتفت إلى ما تهدم ونحاول إصلاحه ..

* * *

فى منتصف ليلة ٢٣ ديسمبر ١٩٨٨ ، كانت الناقلة (نيستوكا) تقترب من ميناء فى جنوب ولاية واشنطون ، وكان البحر مضطرباً والأحوال الجوية سيئة ، مما أدى إلى وقوع تصادم بين الناقلة والقاطرة التى كانت توجهها إلى داخل الميناء .

كانت الناقلة تحمل أكثر من ٢,٦ مليون جالون من نوع من الزيوت الثقيلة يستخدم كوقود للسفن ، فأدى الحادث إلى تسرب ٢٣٠ ألف جالون من هذا الوقود .

وتبدو الكمية المتسربة صغيرة بالمقارنة بغيرها من حوادث التسرب النفطى الأخرى ، ولكن هياج البحر فى تلك الليلة أعاق أى محاولة لوقف اقتراب بقعة الزيت من الشاطئ ، وساعدت الرياح القوية والأمواج الثائرة على سرعة انتشار البقعة فى المياه الشاطئية لجنوب ولاية واشنطون ، فتلطخت مساحة من الشاطئ يبلغ طولها ٤٨٠ كيلومترًا بدوائر من الزيت اللزج ، يصل قطر الواحدة منها إلى ثمانية أقدام .

ولا يمكن أن يعرف حقيقة هذه الكارثة البيئية إلا من يلمس بنفسه ما تفعله طبقة الزيت المتسربة بالمكان وسكانه من الكائنات البحرية الحية ، فى الحال ، وفى المستقبل القريب ، بل ولأجيال كثيرة قادمة ، وباختصار ، فإن مياه البحر تفقد مقومات صلاحيتها كوطن لمختلف الكائنات البحرية .

إنها – طبقة الزيت – تبدأ بإزعاج كائنات حية دقيقة تعيش عالقة الطبقة السطحية من مياه البحر ، يقال لها (الهائمات) ، ومنها النباتى الحيوانى ، أما الهائمات النباتية ، فإنها نباتات مجهرية تغطى كل بحار محيطات العالم ، وتجعلها – بحق – مروجا خضراء ، ولكن خفية ! .

تفيدنا هذه المروج مباشرة فتمدنا بقسم كبير من غاز الأكسيجين ، فى نفس الوقت ، تخلصنا من نسبة كبيرة من الغاز الذى يعانى بشر من تزايد تراكمه فى مناخ الأرض : ثانى أكسيد الكربون ، ا الفائدة غير المباشرة ، وهى لا تقل أهمية عن المباشرة ، فهى أن لك المروج البحرية تمثل القاعدة العريضة للهرم الغذائى فى البحر ، ماما مثل حال النباتات الأرضية التى هى قاعدة هرم الغذاء فى نظام يابسة .

، فإذا جاء النفط ، طفا فوق الماء ، وحجب ضوء الشمس عن هذه روج الخضراء فأوقف نشاطها ، فماتت ؛ فحرمنا من النعم الكثيرة ى هيأها الخالق العظيم لنا فيها .

لا مبالغة – إذن – إذا قلنا إن المياه التى يتسرب إليها النفط تتصحر) !! .

ولك أن تتخيل المردودات السالبة لمثل هذه الكارثة البيئية على وقائع ياة الاجتماعية ، والأمور الاقتصادية للبشر من سكان السواحل

المبتلية بالتلوث النفطى ، ممن يعتمدون على البحر فى حياتهم اليومية ، وممن لا يعتمدون عليه ، بل وعلى البشر فى كل مكان على سطح الأرض ... فهى كارثة كونية ! .

* * *

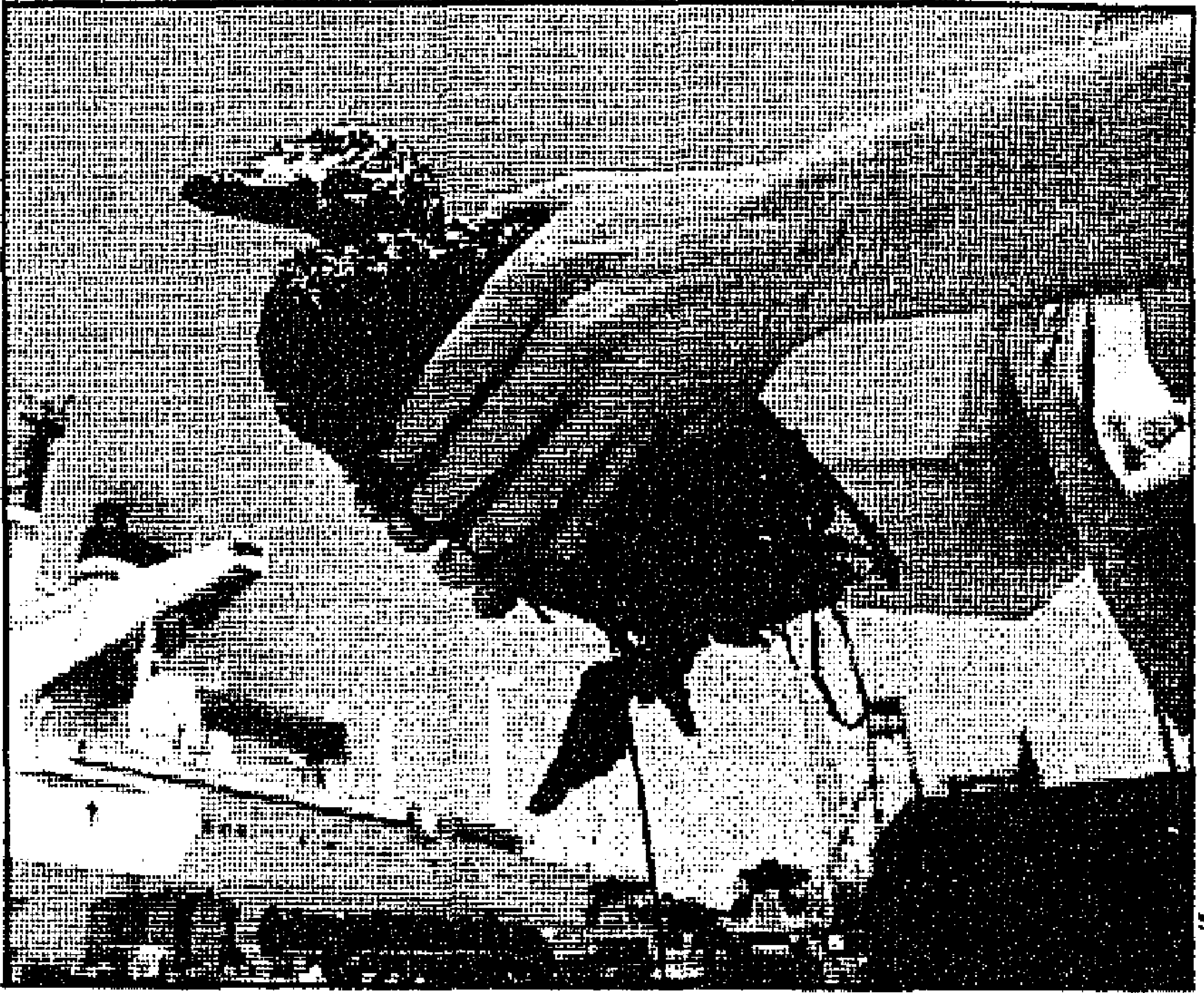
نعود إلى كارثة تسرب النفط فى مياه جنوب ولاية واشنطون ، إنها منطقة غنية بأنواع عديدة من طيور البحر : نوارس – بط غوّاص – بجعيات – طائر النوء .

ولا تستهن بطيور البحر وتقلل من شأنها فى البيئة البحرية ؛ فهى جزء من نظام متزن ، إذا اختفت منه فقد اتزانه ، وبصفتها جزء من نظام الحياة فى البيئة البحرية ، فقد شملها الدمار النفطى ، لقد أصابت الكارثة عدة آلاف من طيور البحر ...

* * *

غاصت الطيور ، كعادتها كل نهار ، تطارد الأسماك ، فلم تجد الماء كما تعودته . لم يكن بحرها ، بل كان خليطًا لزجًا خانقًا .

حاولت أن تتملص من الفخ القاتل ، لم تستطع أن تعود لتسبح فى الهواء ، كانت مكبلة بالزيت الثقيل ، حاولت أن تنفضه عن جسمها ، فأبى إلا أن يبقى ملتصقًا بريشها ، منتزعا بريقه وقدرته على مقاومة الماء وحماية الجسم من البلل .



طائر بحرى مغطى تماما بالبترول
بين يدى أحد متطوعى
مركز إنقاذ وإنعاش الطيور البحرية المنكوبة .

فشلت – حتى – فى أن تسبح إلى الشاطئ ، أو إلى أى مرفأ قريب تلتقط عنده أنفاسها ، وتحاول أن تتعرف بالضبط ، لماذا خانتها مياه البحر فى هذه المرة ! .

استسلمت للأمواج والتيارات البحرية تتعابث بها ، انتهت حياة بعضها وهو يحلم بلحظة الارتطام برمال الشاطئ ، أما الطيور التى وصلت إلى ما تصورته خط الأمان ، فقد تحاملت على الأقدام ، تمسح عيونها المكان الخالى ، لا تعرف البكاء ، ولكن يختلط فى نظراتها جمود الموت ، وحزن الأمل فى الحياة ، ووعد بألا تعود إلى الثقة ، لا بالماء ، ولا بالهواء ! . ولا تجد إلا أن تستسلم للعراء ، فى انتظار أياد رحيمة ، تنزع عنها ذلك الرداء أو القيد الزيتى الذى فاجأتها به مياه البحر ، وهى تبدأ معها لعبة التحليق والغوص الاعتيادية !!

* * *

تم إعلان حالة الطوارئ ، وأعد مركز لإنقاذ وإنعاش طيور البحر فى إحدى المدارس قرب موقع الكارثة ، وتقدم للمشاركة فى أعمال الإنقاذ أكثر من ثلاثمائة من المتطوعين الذين قاموا بانتشال الطيور الموحولة فى بقع الزيت ، ونقلها إلى مركز الإنعاش فى صالة الألعاب المغطاة بالمدرسة ؛ حيث تخضع الطيور المنكوبة لعمليات فحص ، وتحصل على وجبة خاصة تقدم لها على وجه السرعة عند قدومها إلى المركز ، لتعينها على تحمل الأذى ، وبعد أن يتم تنظيفها ، تبقى نزيلة بالمركز لبعض الوقت ، حيث يتم

تغذيتها ثلاث أو أربع مرات يوميًا ، وتجرى تغذية الطيور المصابة بصورة تشبه الرضاعة ، فتقدم لها الوجبات فى صورة سائلة من خلال محقن ينتهى بحلمة مطاطية .

وكانت عملية تنظيف الطيور تجرى باستخدام ١٥ حوضًا ، أعدت خصيصًا لهذا الغرض ، ويقوم على كل منها متطوعان ، واحد للإمساك بالطائر مغمورًا فى الحوض حتى رقبته ، والآخر لإجراء عملية التنظيف مستخدمًا أصابعه وفرشاة أسنان ناعمة ورشاش مياه يشبه ذلك الذى يستخدمه طبيب الأسنان .. ويحتوى كل حوض على ماء دافئ وصابون ، وبالمرور على هذه الأحواض ، يفقد الطائر جزءًا مما علق به من زيت فى كل حوض ، حتى ينتهى فى الحوض الأخير ، بعد حوالى نصف ساعة ، وقد تخلص تمامًا من الزيت .

ولكن عملية التنظيف لا تنتهى ، إذ يبقى الطائر فى حاجة إلى إزالة آثار المنظفات من على ريشه ، فهى – أيضًا – من الملوثات الخطيرة ، ويستغرق ذلك ثلاثين دقيقة إضافية ، حتى تعود الحيوية إلى ريش الطائر .

ويترك الطائر لمدة ساعتين أو ثلاث ساعات ، ليستريح من عناء هذه الحمامات العنيفة المتتالية . بعدها ، ينقل إلى بركة صغيرة أعدت فى فناء المدرسة لاختبار قدرته على الطفو فوق الماء .

وكانت مشكلة ٩٠٪ من الطيور التى خرجت من هذا الحمام المكثف تتمثل فى فقدانها القدرة على مقاومة البلل .

وتبين بالدراسة أن سبب تلك المشكلة هو ترسب عنصر الكالسيوم على ريش الطيور ، وهذا يمنع الريش الدقيق من التراكب والتشابك ليقاوم الماء والهواء ، فيعجز الطائر عن الطفو وعن التحليق فى الهواء .

وقد تمت معالجة هذه المشكلة بغمر الطيور فى محاليل خاصة تذوب فيها رواسب الكالسيوم ، فيعود الريش إلى حالته الطبيعية .

وقد استمر العمل فى مركز إنعاش الطيور لمدة أربعة أسابيع بعد الحادث ، بلغ عدد الطيور التى استقبلها خلالها ٩ آلاف طائر ؛ مات منها ٦ آلاف بعد وصولها إلى المركز مباشرة متسممة بالنفط ، ولم يتحمل ألفان من الطيور الإجهاد الواقع عليها أثناء عمليات التنظيف فماتت ؛ وتم نقل ٦٠ طائرًا إلى مركز متخصص فى صون الحياة البرية ، وذلك لاحتياجها إلى مزيد من الرعاية ، أمّا الطيور التى شفيت تمامًا وتركت المركز إلى بيئتها الطبيعية ، فبلغ عددها ٩٥٩ طائرًا

* * *

وقد يبدو المردود العددى لهذه التجربة ضئيلاً ، ولكن تجربة أخرى فى مكان آخر قد تحقق عائدًا أكبر ، وعلى أى حال ، فإن إنقاذ فرد من كل تسعة أفراد أفضل من أن يترك الجميع ليبادوا .

الأهم من ذلك – فى رأينا – تلك القيمة المعنوية الكبيرة المتمثلة فى استجابة البشر لصيحة الاستغاثة ، وتطوعهم لمد يد العون لكائن مسكين تتعرض حياته للخطر ، فى بيئة لا يحسن سكانها إدارتها !! .

الفزع الصيفى
قناديل البحر

فى الرابع والعشرين من مايو سنة ١٩٨٨ م نشرت صحيفة أنباء أثينا تقريرًا جاء فيه : (أعلن معهد أبحاث علوم البحار والصيد أنه نظرًا لأن فصل الشتاء قد جاء معتدلاً مما أدى إلى ازدهار الهائمات النباتية والحيوانية فى بحر (إيجة) ، فالمتوقع أن تغزو هذا البحر وغيره من البحار اليونانية حشود كثيفة من الأسماك الهلامية ومن المؤسف أن نقرر أنه قد ثبت عدم فعالية كل المحاولات التي اقترحها العلماء للتقليل من حجم الحشود من هذه الآفة الصيفية ونلفت نظر المصطافين هذا العام إلى أنهم سيواجهون أربعة أنواع من هذه الكائنات الهلامية المزعجة) .

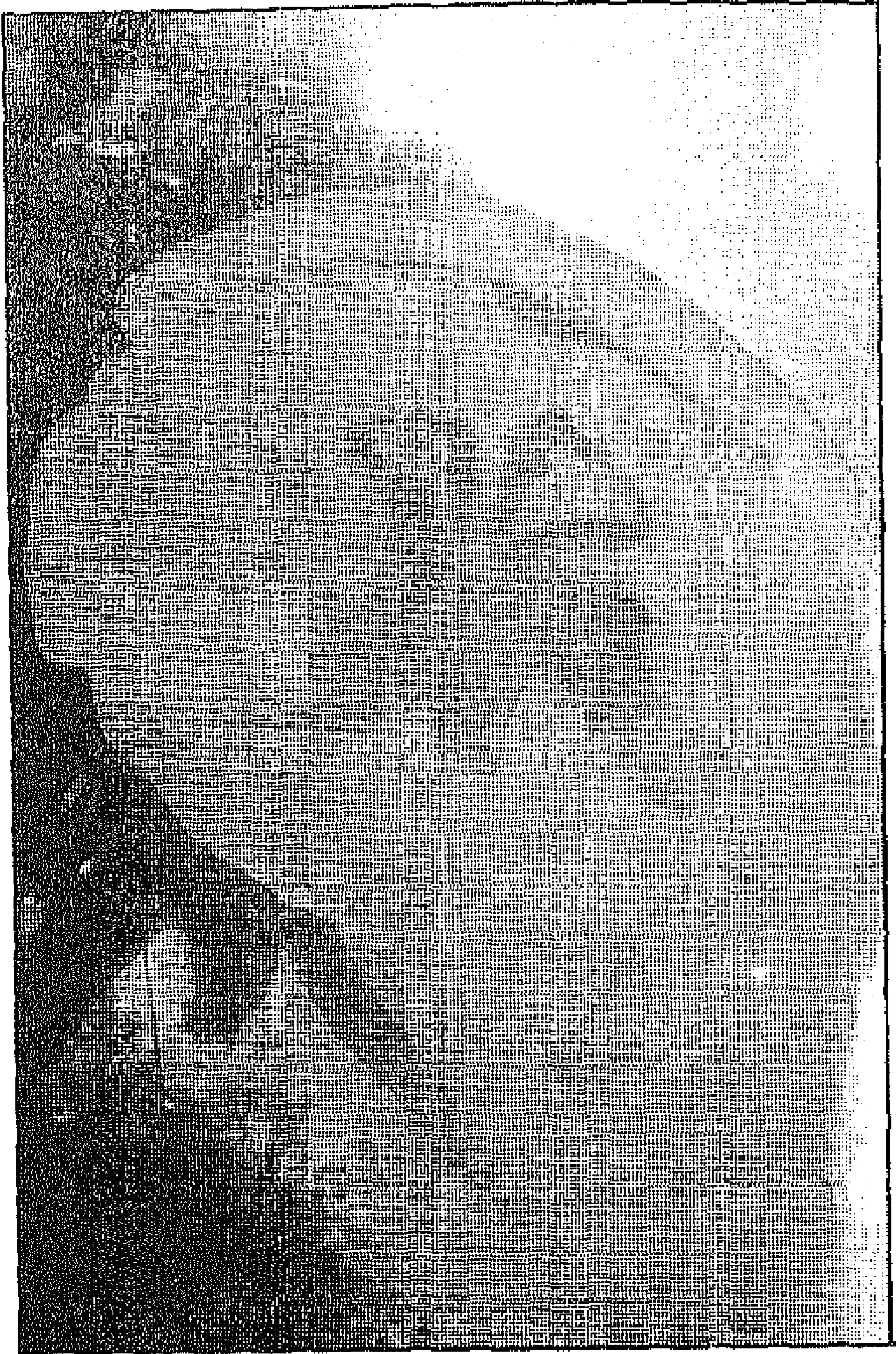
وذكرت الصحيفة أسماء هذه الأنواع .

وقد تعرضت الكثير من الشواطئ المطلة على البحر المتوسط لهجمات من جيوش الأسماك الهلامية خلال السنوات القليلة الماضية ونشطت الصحف إلى متابعة أخبار هذه الهجمات ومحاولات العلماء والمسئولين التنفيذيين ، لحماية هذه الشواطئ من تخريب الأسماك الهلامية أو قناديل البحر .

إن اهتمام الصحف بنشر مثل هذه الأخبار يعكس مدى اهتمام المجتمعات على شاطئ البحر المتوسط بهذه المشكلة ، بالرغم من الإعلان عنها قد يؤدى إلى كارثة اقتصادية حقيقية تتمثل فى خسارة الأنشطة السياحية فى هذه البلدان لما يزيد عن مائة مليون سائح ، اعتادوا قضاء فصل الصيف على شواطئ البحر المتوسط .

وثمة متاعب أخرى تسببها قناديل البحر فهى إذا كانت متواجدة فى المياه بكثافة عالية ، يمكن أن تؤثر على المخزون السمكى فى منطقة تواجدها ، لأنها تتغذى على يرقات وصغار الأسماك . ويمكن أن يؤدى وجودها إلى عرقلة نشاط الصيد إذ تعوق حركة شباك الصيد وتسد فتحاتها ، وإذا كان بالمنطقة محطة لتوليد الكهرباء من النوع الذى يعتمد على التبريد بمياه البحر ، فإن الأسماك الهلامية تدخل مع مياه التبريد وتسبب بعض الأعطال فى نظام تشغيل المحطة ، ولكن كل هذه المتاعب لا تعد ذات قيمة بجانب التأثير الرئيسى ، وهو حرمان بعض مصايف البحر المتوسط من مواسم سياحية متتالية نتيجة لفرار تجمعات السائحين أمام هجمات الأسماك الهلامية اللاسعة .

وحاليًا لا يقدر الوكلاء السياحيون فى أمريكا وشمال أوربا على توقيع عقود استقدام الأفواج السياحية إلى دول حوض البحر المتوسط ، إلا إذا قدمت لهم الفنادق والشركات السياحية فى



قنديل البحر !

حذار .. لا يخدعك هذا المنظر الجميل ..

ابتعد عنه فورًا ولا تلمسه وإلا أصابتك لسعاته النارية !

المنطقة تأكيدات كافية بأن مياه البحر خالية من حشود تلك الحيوانات المزعجة .

* * *

ولا يلجأ المسئولون فى المناطق المنكوبة إلى إخفاء الحقيقة ، وتكذيب أى أنباء تتردد عن هجمات الأسماك الهلامية على الشواطئ أولاً لأن الظاهرة أضخم وأخطر من أن تخفى ، أو تكذب ، وثانيًا لأن الإعلان عنها يمكن أن يساعد على تجميع الخبرات والجهود لمواجهتها .

والحقيقة أن المعلومات المتوفرة لدى العلماء حول بيولوجية وسلوك هذه الحيوانات المائية ، ضئيلة ومتناثرة كما أن الأبحاث القليلة التى أجريت حولها لم تهتم بدراستها تفصيليًّا .

والجدير بالذكر أن الأسماك الهلامية وشقائق البحر والمرجانيات أقرباء ينتمون إلى نفس الشعبة الكبيرة التى تعرف باسم (الجوفمعويات) ويشتق اسمها من كلمتى (الجوف) و (المع) . وقد اكتسبت هذه الحيوانات اسمها من صفاتها التشريحية .

حيث أن جدار الجسم فيها يقفل على تجويف واحد تتم فيه كل وظائف الحياة من هضم ودورة دموية ، وإخراج وغيرها ، ويتكون جسم السمكة الهلامية من ٩٨٪ ماء ويمكنها أن تستهلك كميات كبيرة من المواد العضوية المكسرة أو المجزأة ، تشمل الكائنات الحيوانية

الهائمة (الزوبلانكتون) ، ويرقات الأسماك ، لذلك فإن معدل نموها يكون كبيرًا فى حالة توفر المواد الغذائية فى المياه .

ويجب أن نلاحظ أن اسم الأسماك الهلامية يطلق – عمومًا – على أحد الأطوار التى تنتمى إلى بعض أنواع من الحيوانات الجوفمعوية . ويسمى أيضا (قنديل البحر) أو (المدوزة) وهو عبارة عن ناقوس جيلاتينى ، له سطح خارجى محدب وسطح سفلى مقعر ، وله حواف دائرية تعطيه شكل المظلة ، وتبرز من هذه الحواف اللوامس وعلى طولها تتوزع حلقة عصبية تسيطر على سلوك الحيوان ، وتنسقه وتنظم النبض الرتيب الذى يولد حركة المدوزة البطيئة فى الماء ، وتوجد عند قواعد اللوامس انتفاخات بارزة مزودة بغزارة بخلايا حسية وهى المسئولة عن تكوين الأكياس أو الخلايا اللاسعة .. والخلية اللاسعة عبارة عن كيس مثبت بقاعدته شريط لولبى ، أو أنبوبة دقيقة ذات قمة إبرية هى التى تقوم بعملية (اللدغ) عند مهاجمة الضحية وثمة ١٧ نوعًا من الخلايا اللاسعة تؤدى أغراضا مختلفة مثل اختراق جسم الفريسة والقبض عليها والتصاق الحيوان نفسه بجسم آخر . ولم تتوصل الأبحاث بعد إلى الكشف عن طبيعة المادة المهيجة التى تفرزها تلك الأكياس اللاسعة .

* * *

هذه هى الصورة العامة لهذا الطور المتميز فى دورة حياة بعض الجوفمعويات البحرية وهو يعيش طليقاً ويشيع فى معظم بحار ومحيطات العالم حيث يستغل التيارات المواتية فى الهجرة والانتشار أفقيا .. فى حشود ضخمة تغطى مساحات كبيرة من المياه ويمكن لهذه المدوزات أن تسبح ضد اتجاه التيار خلال فترة عمرها تتراوح بين سنتين وثلاث سنوات ..

غير أننا ، إذا شئنا الدقة – نجد أن المسئول الحقيقى عن (الفزع الصيفى) هو مجموعة من هذه الكائنات الهلامية تسمى (السكيفوميدوزا) .

وقد اهتمت إحدى الدراسات التى أجريت فى المعهد القومى لعلوم البحار والمصايد بالإسكندرية بتصنيف وتوزيع هذه المجموعة ، من قناديل البحر ، وتشير نتائج هذه الدراسة إلى نصيب البحر المتوسط من أنواع الأسماك الهلامية المنتمية إلى هـذه المجموعة ١٥ نوعًا معظمها قادم فى الأصل من المحيط الأطلنطى وكلها متواجد فى غرب البحر المتوسط ، بينما نجح ثمانية أنواع منها فى التوغل إلى شرق هذا البحر . وتؤكد الدراسة على وجود ثلاثة أنواع ، من هذه المدوزات الاشد إفزاعا فى مياه البحر المتوسط المصرية .

وقد سجلت الدراسة توزيعات مكانية وزمانية تتناقض مع السلوك الحالى لهذه الكائنات وهجماتها الصيفية ، التى تؤكد أن الصورة قد تغيرت تمامًا فى المنطقة عما كانت عليه وقت إجراء تلك الدراسة ، فى بداية عقد الثمانينيات مما يجعلنا ندعو إلى مزيد من الدراسات التصنيفية ، والتوزيعية لهذه الكائنات البحرية .

إن المتابع لوقائع هجمات قناديل البحر ، وللشكاوى التى يضج بها المسئولون فى كثير من بلدان البحر المتوسط يعتقد أن ذلك الأمر قاصر على السنوات القليلة الماضية فإننا لم نكن نسمع من قبل عن مثل هذه الشكاوى ، إن ذلك لا يعنى أن شواطئ البحر المتوسط وغيره من البحار والمحيطات حديثة العهد بالانتشار المكثف لهذه الكائنات الهلامية ، وربما كان الأمر فيما مضى يقابل بالتكتم وربما لم تكن الأهمية الاقتصادية السياحة المصايف المتوسطية قد تنامت وتعاظمت كما هو الحال الآن ، فالثابت علميًا أن تاريخ هذه الهجمات يعود إلى عام ١٨٠٠ م حيث سجلت هذه الظاهرة فى شواطئ البحر الأدرياتيكى والمحيطين الأطلنطى والهادى .

وقد بدأت الأصوات المتضررة من خطر هذه الحشود من قناديل البحر ترتفع فى الآونة الأخيرة حينما بدأت ظاهرة الغزو الموسمى لحشود واحد من أخطر أنواع السكيفوميدوزا لشواطئ البحر الأدرياتيكى فى عام ١٩٧٦ م كذلك شوهدت حشود من هذا الكائن المزعج

فى شواطئ وسط البحر المتوسط وبخاصة حول جزيرتى صقلية ومالطا ، وعلى طول الشواطئ الشرقية لليونان وفى بعض الأقاليم الشمالية الغربية للبحر المتوسط حيث أدت إلى اهتزاز العديد من المواسم السياحية فى الشواطئ الفرنسية ، وأخيرًا تصاعدت صرخات الاستغاثة من شواطئ شمال سيناء فى شرق البحر المتوسط مما يؤكد أن تلك الظاهرة قد غطت كل البحر .

ويعتقد بعض العلماء أن تيار المحيط الأطلنطى الذى يسرى على طول سواحل الشمال الأفريقى من الغرب إلى الشرق هو المسئول عن جلب (بذور) هذه الكائنات المزعجة و (زرعها) فى مياه المنطقة وهذا الاعتقاد ينقصه الإثبات لأن البيئات الطبيعية فى البحر المتوسط تتواجد بها هذه الكائنات بشكل طبيعى ، ويمكن لهذا التواجد أن يتنامى ويتعاظم فى تجمعات ، أو حشود دون حاجة إلى جلب (بذور) من المحيط الأطلنطى ويعتقد البعض الآخر أن تناقص أعداد الأعداء الطبيعيين لقناديل البحر مثل السلاحف البحرية ، وبعض أنواع الأسماك من العائلة المرجانية هو السبب فى تكوين حشود القناديل غير أن هذا الرأى يحتاج أيضا إلى أبحاث تؤكده .

وتبذل حكومات دول البحر المتوسط منفردة جهودًا ضخمة لمقاومة حشود الأسماك الهلامية وتجند فى سبيل ذلك كل الإمكانيات والموارد المتاحة فتوجه علماء البيئة البحرية لدراسة المشكلة وتحمل حرس

السواحل وإدارات الموانئ مسئولية رصد تجمعات هذه الكائنات ..
إلى غير ذلك من الجهود وقد فطنت هذه الدول إلى أن جهودها المنفردة لا تجدى كثيرًا فى المواجهة فسعت إلى توحيد الجهود والتعاون وتمثل ذلك فى توجهها إلى برنامج الأمم المتحدة للبيئة الذى عقد ندوة فى أثينا فى أكتوبر ١٩٨٣ م ، حول ظاهرة حشود قناديل البحر فى سواحل البحر المتوسط ، وقد حضر الندوة أكثر من ستين عالمًا تبادلوا أبحاثهم التى يمكن تلخيصها فيما يلى :

١ - أن هذه الظاهرة طبيعية وليست غريبة على بيئة البحر المتوسط.

٢ - أن ثمة عوامل تؤدى إلى حفز تكوين حشود القناديل مثل التغيرات فى حالة الطقس ومثل حالات اغتناء الماء الشاطئية بالمواد الغذائية المناسبة للقناديل ..

والجدير بالذكر أن هذه الحالات ينشطها تلوث مياه البحر وبخاصة إذا كان العامل الملوث هو مياه الصرف الصحى ، وقد وجد أن هذه المظاهر مشتركة بين كافة المناطق التى هاجمتها حشود القناديل .

٣ - إن لسعات تلك القناديل الهلامية لا تمثل مشكلة صحية شديدة وإن ما ينتج عن هذه اللسعات فى الغالب ليس إلا حالات طفح وتهييج جلدى فى الأشخاص ذوى الحساسية العالية ، ولا يصل الأمر إلى حد الخطورة إلا فى حالات نادرة .

٤ – إن السياحة هى أكثر الأنشطة الاقتصادية تأثرًا بظاهرة حشود القناديل بالرغم من أن ثمة تأثيرات طفيفة فى بعض المصايد ، وفى محطات توليد القوى الكهربية التى تعتمد على مياه البحر فى عمليات التبريد ، والعامل النفسى لدى السائح هو الذى يؤدى إلى نفوره من الشواطئ المنكوبة بالحشود الهلامية .

٥ – لا يزال علاج المصابين بلسعات هذه الكائنات يمثل مشكلة صعبة ، وقد ثبت أن معظم الاستخدامات العلاجية التى طبقت فى بعض المناطق غير مناسبة أو غير كافية .

* * *

وهكذا يتضح من هذه النتائج عجز العلماء عن تقديم العون المطلوب لتخفيف مقدار الهلع لدى العامة والسائحين ليقبلوا على الشواطئ ، وإزاء هذا النقص فى المعلومات بدأ علماء المنطقة فى إجراء سلسلة متكاملة من الدراسات والبحوث منها :

١ – رصد حركة وتوزيعات حشود القناديل فى الأماكن المصابة بكل الوسائل الممكنة وتبادل المعلومات عن هذه التوزيعات .

٢ – إجراء دراسات تصنيفية لعينات من الهائمات النباتية والحيوانية تؤخذ من المناطق التى تهاجمها حشود القناديل البحرية لمعرفة العلاقة بين تواجد هذه الحشود والأنواع السائدة من هذه الهائمات .

٣ – دراسة أهم الظواهر الجوية والهيدروديناميكية فى مناطق الغزو مثل الرياح المحلية والتيارات السطحية .

٤ – تحليل العلاقات والصلات بين تكون الحشود والظروف البيئية الطبيعية والبيولوجية وتشمل دراسة سلوك هذه الحيوانات ، وبخاصة عادات وطرق التغذية ، ودورة الحياة والحركة الأفقية والرأسية معمليًّا وحقليًّا .

٥ – دراسة وسائل علاج اللسعات والحماية منها وخواص المواد التى تفرزها الخلايا اللاسعة .

٦ – التخطيط والتنسيق بين ١٣٩ محطة أبحاث ورصد تعمل لمواجهة هذه الظاهرة فى كافة مناطق البحر المتوسط .

والطريف أنك إذا دخلت إلى أحد المحلات التى تبيع (الآيس كريم) على الشواطئ اليونانية ستجد من يعرض عليك بضاعة غريبة : مضادات لسموم قناديل البحر مثل الأمونيا ومضادات الهستامين . حذار .. لأن البائع لديه قدرة فائقة على إقناعك بفعالية هذه المركبات فى مقاومة لسعات القناديل ، إنهم يعانون من المشكلة ولكن لديهم المقدرة على تحويل كل الظروف لصالحهم .

نفاياتنـا النـوويـة . . . إلى أيـن بهـا ؟!

طيّرت وكالات الأنباء ، منذ شهور قليلة ، النبأ التالى :

« ... تساهم المملكة البريطانية الأم فى معركة لمنع دفن مليونى طن من النفايات النووية فى مرتفعات اسكتلندا الشمالية ، بسبب ما يمكن أن ينجم عنها من أضرار بيئية . والغريب ، أن مالك تلك المنطقة من المرتفعات الأسكتلندية ، وهو (اللورد ثورسو) ، يحاول إقناع الحكومة البريطانية بأن دفن النفايات النووية فى أرضه لن يضر البيئة ، ولكنه سيفيد الاقتصاد البريطانى ، حيث سيعمل فى المشروع نحو ٩٠٠ شخص خلال الخمسة عشر عامًا القادمة ، وأن دفن النفايات سيتم على عمق لا يقل عن ١٠٠٠ متر تحت الأرض ، بما يضمن عدم تسرب أى إشعاعات من هذه النفايات النووية .. » .

وتتابع ، فى هذه الأيام ، أخبار السفن المحملة بشحنات من النفايات النوويةوالكيماوية ، والتى تسعى فى بحار ومحيطات العالم ، مثيرة للريبة ، حائرة بحملها ، تحاول أن تتصيد الفرص – بطرق مشروعة أو غير مشروعة – للتخلّص من حمولتها الخطيرة . وأغلب الظن ، أن هذه السفن المشبوهة لن تنتظر طويلاً ؛ فإما أنها ستجد من يرحب

بها ، مثل ذلك اللورد الأسكتلندى ، لتستقر شحناتها من الملوثات الخطيرة فى باطن الأرض ؛ وإما أن قباطنتها – فى غفلة من الضمير ، ومن أجهزة الرصد والمراقبة – سيلقون بالنفايات المميتة فى مياه البحر ويريحون أنفسهم .

فهل تصلح البحار كمستقر للنفايات النووية ؟

يرفض المتشددون من أنصار صون البيئة البحرية مجرد التفكير فى البحث عن إجابة لهذا السؤال ، ولكن ، ثمة مجموعة من علماء البيئة يجيبون بالإيجاب ، مع إبداء بعض الشروط والتحفظات .



براميل تحمل نفايات نووية ..
ترى ، أين سيكون مستقرها ؟

يقول هؤلاء العلماء : إن البحار – فى حالتها الطبيعية – ليست خالية من النشاط الإشعاعى ، فثمة مستويات منخفضة من هذا الإشعاع ، ناتجة من تواجد مواد مشعة طبيعية ، أضيفت إلى مياه البحر فى عصور جيولوجية قديمة جدًّا .

وقد ارتفعت مستويات الإشعاع فى البحار فى الوقت الراهن ، بعد أن اتسعت دائرة تعامل الإنسان مع الطاقة النووية ، فكان أن تلوثت البحار بالمواد المشعة ، وذلك من مصدرين رئيسيين :

المصدر الأول هو عمليات التفجير ، وتجارب الانشطار النووى فى أعماق المحيطات ، ويضيف هذا المصدر إلى مياه البحار والمحيطات المواد المشعة بصورة لا يمكن السيطرة عليها ، وعلى سبيل المثال ، فإن التفجيرات الذرية التى جرت فى المحيط فى الستينيات من هذا القرن ، قد لوثت المياه السطحية للبحار والمحيطات بعنصر التريتيوم ؛ وهو عنصر مشع لم يكن موجودًا بهذه المياه من قبل ، وقد أكدت الدراسات التى أجرتها مجموعة خبراء تلوث البيئة البحرية التابعة لليونسكو ، فى عامى ٧٢ – ١٩٧٣ أن هذا العنصر المشع الذى تسرب من التجارب الذرية فى شمال المحيط الأطلنطى ، قد انتشر فى المياه السطحية لهذا المحيط ، حتى خطوط العرض جنوب خط الاستواء ، وأنه قد توغل أيضا لآلاف الأمتار عمقًا ، بتأثير التحركات الأفقية والرأسية للكتل المائية فى هذا المحيط .

ويضيف العلماء أنه مع انحسار موجة التفجيرات النووية فى المحيط ، حتى أنها قد أصبحت شبه منعدمة حاليًا ، فإن النفايات المتخلفة عنها قد انخفض تأثيرها الإشعاعى فى البيئة البحرية .

أما المصدر الثانى ، فهو محطات القوى النووية والمفاعلات الذرية التى يتزايد الاعتماد عليها يوما بعد يوم فى إمداد معظم الدول الصناعية بالطاقة ، إنها الأشد خطورة على الحالة الإشعاعية للبحار والمحيطات . وينتج عن هذه المحطات والمفاعلات ثلاثة أنواع من النفايات المشعة :

١ – نفايات غازية ، مثل الكريبتون والزينون والأرجون والكربون – ١٤ والكبريت – ٣٥ .

٢ – نفايات سائلة .. وتتنوع هذه النفايات تبعًا لنوع المفاعل الذرى الذى يلفظها .

٣ – نفايات صلبة .. وهى التى يسعى (اللورد ثورسو) إلى دفنها فى أرضه من أجل المال ؛ وهى التى تجوب بها السفن بحار العالم بحثًا عمن يقبل دفنها فى أراضيه ؛ وهى التى يدور جدل العلماء حول إمكانية قبرها فى المحيط .

وقد أعلنت الولايات المتحدة الأمريكية مؤخرًا أن لديها من النفايات المشعة فى الحالة الصلبة ما يقرب من ٧٥ مليون جالون ،

نتجت من الأنشطة العسكرية ، وحوالى ١٢ ألف طن متخلفة من المفاعلات الذرية ، وهذه النفايات ستظل مشعة - كما تقول الحسابات الكيميائية - لما يقرب من مليون سنة ، إذ أنها تحتوى على أكثر من خمسين من النظائر المشعة التى تختلف فيما بينها من حيث الخواص وطول فترة نصف العمر . وكان طبيعيا ، إزاء هذا العبء الثقيل ، أن تسارع مراكو البحوث الأمريكية إلى البحث عن وسائل للتخفف أو للتخلص منه .

وقد بدأ معهد (سانديا) فى ولاية نيومكسيكو الأمريكية أبحاثه فى سنة ١٩٧٣ ، ليجيب على سؤال محدد : هل يمكن للمحيط أن يستقبل النفايات المشعة الصلبة ؟ .

وكانت نتيجة هذه الدراسات ، التى أعلن عنها مؤخرا ، الإجابة بـ (نعم) ، ومعها ثلاثة شروط :

١ - أن يكون مكان الدفن فى قاع المحيط بعيدًا عن مواقع الأنشطة البشرية .

٢ - أن تراعى ظروف التآكل الطبيعى للحاويات التى ستعبأ بها المواد المشعة .

٣ - أن يكون مكان الدفن بعيدًا عن نشاطات التحركات الأرضية .

وتم وضع خرائط تفصيلية لقاع المحيط ، موقع عليها أفضل الأماكن المقترحة كمدافن للنفايات المشعة ، وهى الأماكن الواقعة وسط الألواح المكونة للقشرة الأرضية ، وتتميز ببعدها عن الشقوق وأحزمة الزلازل .

وفى تلك المواقع التى يزيد عمقها عن ٥ آلاف متر ، تغطى القاع رواسب سميكة من الطين الناعم جدًّا الذى لم يتعرض للتقليب ، أو للتأثر بأى نشاط أرضى منذ ملايين السنين ، والمعروف عن هذا النوع من الطين خاصيته العالية بالنسبة لادمصاص أى تسرب إشعاعى ، يمكن أن يحدث من النفايات فى أماكن دفنها .

وتأتى منطقتنا شمال المحيط الأطلنطى وشمال المحيط الهادى فى مقدمة المناطق التى يفضلها العلماء كمقابر للنفايات المشعة ، إذ أنها لهما صفة إضافية ، وهى بعدهما عن أى تخطيط محتمل فى المستقبل لاستغلالهما فى النشاط التعدينى البحرى (استخراج المنجنيز من قاع المحيط) .

واشتملت دراسات معهد (سانديا) أيضا على الشكل المناسب للحاويات ، وكيفية إنزالها إلى القاع ، وطريقة دفنها فيه ، كما تم التخطيط لإجراء دراسات مستمرة ، قبل وبعد الدفن ، لرصد أى تغيرات تطرأ على درجة حرارة المياه فى مناطق الدفن ، كدليل إنذارى على احتمال حدوث تسرب للمواد المشعة المدفونة .

وواضح أن هذه الدراسات تعطى ضوءا أخضر لمن تؤرقهم مشكلة التخلص من النفايات النووية .

فهل يصبح المحيط مقبرة لهذه النفايات ؟

وهل يؤكد المستقبل صدق هذه الدراسات ، أم يثبت أنها كانت مجرد وسيلة لإقناع الرأى العام العالمى بغير الحقيقة ، وعلى حساب صحة البيئة البحرية ؟ !

نفايات البـلاستيك فى البيئة البحـريـة
مشكلة لها حلـول

نشرت أكاديمية العلوم الأمريكية إحصائية تفيد بأن وزن النفايات الصلبة التى تلقى فى البحار والمحيطات يبلغ أربعة عشر بليون رطل سنويًّا ، أى أكثر من ١,٥ مليون رطل فى الساعة !

ونشر كاتب هذه السطور مقالاً فى نهاية السبعينيات يتساءل فيه : هل أصبحت البحار مستودعات قمامة ؟ .. هل يعتقد الذين يقذفون بنفاياتهم فى البحر أن مياهه مستودع لا نهائى يتسع لأى كمية من النفايات ؟

والواقع أن النفايات المعدنية والزجاجية تغوص ، فلا يبدو أنها تمثل مشكلة ، أما النفايات من الورق والأقمشة فإنها تتحلل ، فإذا أتينا إلى النفايات البلاستيكية كانت المشكلة التى نحاول أن نلقى الضوء عليها الآن ، ونعرض لمحاولات العلماء إيجاد حلول لها .

إن البلاستيك – كما تقول الإحصائيات – لا يمثل إلا ٨٪ فقط من وزن المخلفات الصلبة التى تسىء إلى نظافة كوكبنا ، إلا أن النفايات البلاستيكية هى التى تلفت النظر ، خصوصًا على الشواطئ ،

حيث تتجمع وتطفو فوق الماء ، بالإضافة إلى ذلك ، فإن البلاستيك يتحلل ببطء شديد وربما استغرق عشرات بل مئات السنين ليفنى .. من هنا كان انتشاره الملحوظ بين النفايات ..

لقد بدأ تعرف البشرية على البلاستيك منذ ما يقرب من مائة سنة ، ولكن انتشاره الواسع لم يتحقق إلا باستخدامه كبديل لمواد طبيعية شح إنتاجها ، وارتفعت أسعارها ، مثل المطاط والخشب ، وقد تزامن ذلك مع الحرب العالمية الثانية ..

ويتزايد إنتاج العالم من البلاستيك بشكل مستمر ، فعلى سبيل المثال ، كان إنتاج الولايات المتحدة الأمريكية وحدها من البلاستيك فى عام (١٩٦٠) ٦ بليون رطل ، زاد بعد عقد واحد من الزمان ليصل إلى ٢٠ بليون رطل ، ثم قفز إلى ٦٠ بليون رطل فى عام ١٩٨٨ !

ولعله من المفارقات الغريبة أن تكون المميزات التى نستحسن البلاستيك إذا توفرت فيه ، مثل المتانة وقوة التحمل وطول العمر وخفة الوزن – وهى مميزات جعلت البلاستيك يدخل فى مجالات جديدة مثل الإنشاءات والنقل والمواصلات – هذه المميزات هى نفسها مصدر الخطر والتهديد للبيئة البحرية ومصادر الثروة فيها ..

وتضر المخلفات البلاستيكية الكائنات البحرية مباشرة ، فتتداخل قطع البلاستيك الصغيرة فى مكونات غذاء هذه الكائنات ، وتسبب لها إصابات فى الجهاز الهضمى قد تؤدى إلى موتها .

. وقد وجد أن ستة من الأنواع المائتين والثمانين من الطيور البحرية المعروفة يمكنها التقاط وابتلاع حطام البلاستيك فتهلك ، ولا يتأثر البلاستيك بالهضم ، فيبقى كما هو ويعود إلى البيئة البحرية ليواصل دوره المدمر ..

ولا تنجو الشعاب المرجانية من خطر التلوث بالبلاستيك ، فهذه الشعاب ليست إلا تجمعات متعاونة من الحيوانات والطحالب البحرية الدقيقة ، توفر المأوى والطعام لعشرات من الكائنات النباتية والحيوانية الأخرى ، فماذا إذا التفت أكياس البلاستيك حول هذه الشعاب ، وغطتها علب الطعام والمشروبات والمنظفات البلاستيكية الفارغة ؟ . لا شك فى أن ذلك سيحرم الشعاب من ضوء الشمس ، ومن تيارات الماء المتجدد الداخلة والخارجة منها وإليها تحمل الطعام والأكسجين ، وهل بعد ذلك إلا الهلاك ؟

بل أن مضايقات القمامة البلاستيكية قد تمتد لتصيب الإنسان نفسه – المتسبب الأصلى فى المشكلة – بالضرر المباشر ، فهذه المخلفات قد تصل بشكل أو بآخر إلى آلات السفن خلال مسارات المياه فيها ، فتعطلها ، مما قد يعنى تعرض السفن لحوادث الغرق ، وبخاصة فى الجو العاصف ..

بالإضافة إلى ذلك ، فإن المخلفات – بصفة عامة – تسىء إلى النواحى الجمالية للشواطئ فتقلل من قيمتها السياحية والاقتصادية ،

وقد خبر الكاتب بنفسه ، مشاركًا فى بعثة علمية لتقصى آثار التلوث على شواطئ البحر الأحمر المصرية وخليج السويس ، سوء أحوال شواطئ مدينة الغردقة المطلة على البحر الأحمر .. وهى مدينة سياحية تتمتع ببيئة بحرية جميلة متنوعة ، ولكنها مهددة بالتلوث النفطى ، بالإضافة إلى حركة عشوائية لبناء قرى سياحية متجاورة ، لا تراعى الاعتبارات البيئية ، وقد أصبحت المواقع حول القرى السياحية مغطاة بأكوام من النفايات - والبلاستيك سائد فيها - بصورة لفتت نظر الفريق البحثى وبينه الكاتب .

لقد بدأ تصاعد إحساس الرأى العام العالمى بالتلوث البحرى بصفة عامة فى منتصف عقد السبعينيات ، ولكن البلاستيك كأحد مكونات التلوث لم يحظ بالاهتمام العالمى إلا حديثًا ، فصدرت عدة قوانين وعقدت بعض الاتفاقيات ، تمنع إلقاء المخلفات البلاستيكية فى مياه البحار .

ولكن القوانين والمعاهدات وحدها لا تكفى ، إننا بحاجة إلى مبادرات واجتهادات تأتى من داخل الهيئات المتعاملة مع البحر ، ومن المنظمات والجمعيات الأهلية المهتمة بالشئون البيئية ، بل من الأفراد أنفسهم .. ونورد فيما يلى مثالين يحتذى بهما :

المثال الأول : يقدمه خبراء البحرية الأمريكية ، فلا شك أن أسطولاً ضخمًا كالأسطول البحرى الأمريكى ينتج كميات هائلة

من النفايات الصلبة التى يجب ألا تبقى طويلاً فى السفن ، ولا يجب أن تلقى فى البحر ، وقد توصل هؤلاء الخبراء إلى أكثر من طريقة للتعامل مع هذه النفايات ، منها ضغطها وتقليص حجمها لتسهيل عملية حفظها ، حتى يتم التخلص منها بالشكل الذى لا يضر البيئة البحرية ، وقد تحوّل إلى عجينة ، تعامل كيميائيا ليتضاءل تأثيرها الضار بالبيئة .

أما النفايات البلاستيكية فإنها تضغط وتعقم وتحفظ فى هيئة كتل صغيرة تمهيدًا لنقلها إلى الأرض عند انتهاء مهمة السفينة ..

والمثال الثانى : تقدمه جمعية أهلية نظمت فى عام ١٩٨٨ حملة لتنظيف ٢٥ منطقة من شواطئ الولايات المتحدة الأمريكية بطول ٣٥٠٠ ميل . شارك فى الحملة ٤٧ ألف متطوع ، جمعوا ٩٧٧ طنًا من النفايات الصلبة كان نصيب البلاستيك منها ٦٠٪ .

أما المحاولة الجديرة بالتسجيل فى مجال مقاومة التلوث بالنفايات البلاستيكية ، فقد خرجت إلينا من مراكز البحث العلمى فى الشركات الصناعية الكبرى وبعض الجامعات ، على يد علماء البيولوجيا الجزيئية والهندسة الوراثية .

وتتلخص تلك المحاولة فى الإجابة على سؤال هو : كيف يمكن إنتاج بلاستيك قابل للتحلل ، بدلاً من البلاستيك (الحالى) الذى يقاوم التحلل ويبقى طويلاً ؟

ولكي نكون موضوعيين ، ينبغي قبل أن نبحث مع العلماء عن إجابة لهذا السؤال أن نشير إلى الهدف الأساسي الذي يسعى للوصول إليه العلماء ورجال الصناعة والاقتصاديون في الدول الصناعية الكبرى ، إنهم في سعي دائب من أجل توفير بدائل لمصادر الطاقة والمواد الأولية اللازمة للصناعات الكيماوية والبتروكيماوية غير النفط ومنتجات النفط ، تحسبًا لأي ظروف طارئة تؤثر على تدفق النفط من مناطق إنتاجه إلى تلك الدول ، وتهيؤاً لزمن قادم ينتهي فيه اعتماد العالم على النفط بعد أن ينفد المخزون وتجف الآبار ..

نعود إلى السؤال السابق ، لقد وجد العلماء الإجابة على هذا السؤال لدى البكتريا !

* * *

زراعة البلاستيك

لا يبدو الكائن البكتيري تحت المجهر أكثر من مجرد كيس منتفخ ، مملوء بعدد من الكريات ، هذه الكريات أو الحبيبات هي — في الحقيقة — مخزن الطاقة في البكتريا . وكما تميل الحيوانات إلى تخزين الطاقة في الدهون ، فإن النباتات تحتفظ بمخزون من الطاقة متمثلاً في النشا ، ولكن الحال يختلف في البكتريا .. إن المادة التي تختزن الطاقة البكتيرية — تلك الحبيبات التي يكشفها لنا المجهر — تنتمي في الواقع إلى اللدائن ، أي البلاستيك ! ، ولكنه نوع من اللدائن



المخلفات البلاستيكية فى البيئة البحرية .. مشكلة توشك أن تنتهى .



هذه هى البكتريا التى نجح العلماء في جعلها
تنتج حبيبات البلاستيك – بداخلها – بدلاً من النشا

قابل للتحلل فى الهواء ، بفعل البكتريا – أيضًا – والفطريات – إلى ماء وثانى أكسيد الكربون ومادة دبالية ، مع احتفاظه بنفس قوة تحمل ومتانة وثبات حال البلاستيك الصناعى ..

وقد توقف علماء البيولوجيا الجزيئية أمام هذا الكائن الذى يصنفه علماء الحياة فى قائمة الحيوانات (الدنيا) ، يحاولون التوصل إلى أفضل الطرق للتعامل معه والاستفادة من نشاطه التخزينى فى إنتاج (البلاستيك) على نطاق تجارى ، ويشهد هؤلاء العلماء للبكتريا المنتجة للدائن بالكفاءة العالية والقدرة الفائقة على إنتاج هذه المادة المعقدة بمعدل أسرع ودرجة نقاء أعلى ، مما يمكن لأفضل الكيميائيين البشر إنتاجه فى مختبر مزود بأفضل الأجهزة ..

إن الخطوة التالية تطمح إلى إيجاد وسائل للتحكم فى هذه (المصانع المجهرية) المنتجة للدائن ، فإذا خضعت هذه الكائنات البكتيرية لأوامر الإنسان ، فإن صناعة البلاستيك ستدخل عصرًا جديدًا ..

وكانت إحدى شركات الكيماويات البريطانية هى البادئة يتبنى فكرة إنتاج هذا (البلاستيك الطبيعى) ، فأنشأت فى منتصف السبعينيات مصنعًا تجريبيًا صغيرًا ، ينتج ٢٥ طنًا من هذا البلاستيك فى السنة .. وقد أعلنت هذه الشركة مؤخرًا أنها تعاقدت مع شركة ألمانية لمستحضرات التجميل لإمدادها بزجاجات (الشامبو) المصنعة

من البلاستيك الجديد ، وأن هذا الإنتاج سيظهر فى الأسواق مع نهاية عام ١٩٩١ .

وقد اكتشف الباحثون فى مختبرات تلك الشركة البريطانية أن نوعًا من البكتريا يقال له (ألكاليجينس ايوتروفاس) ، له القدرة على تخليق نوع هش من اللدائن يشار إلى تركيبه الكيماوى بالصيغة (بولى بيتا هيدروكسى بيوتيرات) ، ويصل إنتاج هذا الكائن البكتيرى من هذه المادة إلى ٨٠٪ من وزنه الجاف .

ووجد أولئك الباحثون أنه من الممكن التحايل على تلك البكتريا لتصنيع مادة لدنة أكثر تماسكًا ومرونة تصلح لتصنيع الزجاجات وغيرها من الأوانى البلاستيكية ، وفى سبيل ذلك ، لجئوا إلى إضافة بعض الأحماض العضوية إلى المحلول السكرى الذى كانوا يقدمونه طعامًا للبكتريا ...

واستجابت البكتريا ، وأعطت لدائن محسنة لها صفة عظيمة الشأن لدى أنصار البيئة ، وهى التحلل الكامل بعد استهلاكها وانتقالها إلى قائمة المهملات .. أى أن البكتريا التى أنتجتها هى نفسها التى سوف تأكلها بعد أن تفقد قيمتها ..

ولكن ثمة ما يؤسف له ، وهو ارتفاع تكلفة إنتاج الرطل من هذا البلاستيك الجديد عن البلاستيك الصناعى (١٥ دولارًا للأول ونصف دولار للثانى) .

والسبب الرئيسى فى ارتفاع تكلفة الإنتاج يرجع إلى أن البكتريا لا تستجيب بنفس المقدار عندما تقسر على إنتاج المادة البلاستيكية المحسنة ، فينخفض إنتاجها من ٨٠٪ إلى ٢٠٪ فقط من الوزن الجاف .

وقد تمكن الباحثون من رصد طريقة إنتاج البكتريا للمادة البلاستيكية ، وذلك فى ثلاث خطوات ، أو ثلاثة تفاعلات إنزيمية :

الخطوة الأولى : يقوم إنزيم خاص بالربط بين جزيئين من مادة البناء الرئيسية وهى عبارة عن مركب اسمه (أسيتيل كو-أ) .

الخطوة الثانية : يقوم إنزيم آخر بإضافة ذرة هيدروجين إلى الجزيئين المرتبطين ببعضهما لدعم استقرارهما ..

والخطوة الثالثة : يقوم بها إنزيم ثالث ، حيث يجمع آلافًا من أزواج الجزيئات المترابطة فى سلسلة طويلة .

وكان الهم الأول للباحثين أن يعرفوا سر هذه العملية ، فالمركبات الداخلة فى التفاعل معروفة ، والإنزيمات القائمة بالتفاعل يمكن فصلها معمليًّا ، ولكن إجراء نفس الخطوات فى المختبر لا يعطى نفس النتائج التى يتحصل عليها هذا الكائن (الدنىء) .. البكتريا !

ومع تقدم تقنيات الهندسة الوراثية ، يسعى الباحثون إلى إدخالها لتطويز العمل ودفع عجلة الإنتاج فى هذا (المصنع المجهرى الحى) للبلاستيك .. ويتوقع العلماء أن يؤدى ذلك إلى مزيد من الكفاءة

الإنتاجية لبكتيريا البلاستيك ، وبالإضافة إلى وجود احتمالات كبيرة لتخليق أنواع جديدة وغريبة من البلاستيك ، تعجز أمامها تكنولوجيا البلاستيك الصناعى ، وقد نكون مقبلين على عصر جديد يمكن تسميته بعصر البلاستيك الطبيعى !

وعندما نقلت حاملات الصفات الوراثية الخاصة بالنوع البكتيرى المنتج للبلاستيك إلى نوع آخر هو (اسكيريشيا كولاى) ، بدأت تنتج البلاستيك أيضًا ..

ومن المشاكل التى تعوق صناعة هذا البلاستيك الطبيعى الاضطرار إلى استخدام محاليل كيماوية أو تيارات من الأبخرة المذيبة ، لكسر جدار الخلية البكتيرية واستخلاص المادة البلاستيكية المتكونة بداخله ، وكانت هذه الطريقة تفسد جانبًا كبيرًا من محصول البلاستيك .

وفى الآونة الأخيرة ، توصل أحد علماء الميكروبيولوجى فى جامعة فيينا إلى حل لهذه المشكلة ، إذ نجح فى تعديل الصفات الوراثية للنوع الثانى من البكتريا المنتجة للبلاستيك ، بحيث يسهل الحصول على إنتاجه من البلاستيك بمجرد تسخين البكتريا إلى درجة حرارة ١٠٨ مئوية فتنشق جدرانها وتفرغ محتوياتها ، وعيب هذه الطريقة هلاك كل البكتريا فى تلك الدرجة من الحرارة ، وثمة دلائل تشير إلى قرب ظهور سلالة جديدة من نفس النوع (كولاى) تفرز البلاستيك وتخرجه فى سهولة وبصورة مستمرة دون الحاجة إلى التسخين .

وثمة برنامج طموح يسعى إلى تهجين البكتريا المنتجة للسلاسل الطويلة ، والبكتريا المنتجة للسلاسل القصيرة بحيث ينتج (الهجين) مادة لدائنية خليطا من النوعين من السلاسل ؛ مما يعنى ظهور مادة بلاستيكية جديدة ذات خواص غير مألوفة ، بل إن الأبحاث النظرية تقول بإمكانية التحكم فى الإنزيمات البكتيرية وتوجيهها لتنتج موادا بلاستيكية (حسب الطلب) . .

فإذا استمرت أسعار النفط فى الارتفاع ، فقد يأتى يوم تتقارب فيه تكلفة إنتاج البلاستيك الكيميائى والبلاستيك البيولوجى ، بحيث يمكنك أن تستعمل أكياسًا من البلاستيك الطبيعى المأمون لحفظ الطعام ، بدلاً من أكياس البلاستيك الصناعى الغير مستحبة صحيًّا ، وحتى ذلك الحين ، سيظل إنتاج البلاستيك الطبيعى محدودًا فى مجال المختبرات والمشروعات التجريبية الصغيرة ، ما لم يجد العلماء منتجًا حيًّا للبلاستيك (غير البكتريا) قادرًا على تحقيق المنفعة الاقتصادية من فكرة إنتاج البلاستيك الحى .

وقد تعجب إذا علمت باتجاه تفكير العلماء إلى النباتات الراقية لتنتج البلاستيك بدلاً من (النشا) ، إنهم – فعلاً – يضعون أعينهم على نباتات تشتهر بتخزين النشا ، مثل القمح والبطاطا وبنجر السكر فهل يمكن تحويل مخزونها الضخم من النشا إلى بلاستيك ، اعتمادًا على الامكانيات الهائلة للهندسة الوراثية والتكنولوجيا الحيوية ؟

لقد كان منطلق العلماء فى التفكير فى هذه النباتات كمصانع للبلاستيك حقيقة أن المادة الأساسية التى تعتمد عليها البكتريا فى بناء المادة اللدائنية (الأسيتيل كو-أ) ، موجودة أيضًا فى النباتات الخضراء الراقية ، والمطلوب الآن نقل الجينات البكتيرية الخاصة بالأنزيمات البناءة للبلاستيك البكتيرى ، إلى النباتات ودفعها إلى تكوين البلاستيك بدلاً من النشا ! . فإذا تحقق ذلك ، ينتهى دور البكتريا ، وتغلق مصانع البلاستيك ، ونكتفى بأن نزود المزارعين بفسائل النباتات الخارجة من مختبرات الهندسة الوراثية ، ليغرسوها فى حقولهم ، ويحصلوا - فى النهاية - على محصول وفير من البلاستيك !

وقد نجح أحد علماء جامعة ميتشيجان ، فعلاً ، فى نقل تلك الجينات إلى نبات الطباق ، ونوع من أنواع (السلجم) أو (اللفت) ، فإذا استجاب هذان النباتان وأنتجا البلاستيك ، فستكون المحاولة التالية مع البطاطا وبنجر السكر ثم القمح ...

وتتجه أفكار جديدة إلى إنتاج نوع آخر من البلاستيك خليط من البلاستيك الصناعى والنشا بنسبة ٨٥ : ١٥ ، وعند انتهاء استعمال الأدوات والعبوات المصنوعة من هذا النوع من البلاستيك ، فإن البكتريا تسارع إلى التهام النشا الموجود بها ، فتتحطم المهملات البلاستيكية إلى أجزاء صغيرة لا تحتل فراغًا كبيرًا ، وقد يختصر ذلك مدة تحللها ..

ثمة – إذن – أفكار وعقبات ، الأفكار تتقدم ، والعقبات تذلل ، ولكن أحدًا لا يملك أن يحدد تاريخًا فى المستقبل القريب لازدهار (زراعة البلاستيك) ، ربما يأتى يوم ، بعد عشرين أو ثلاثين سنة ، تنتشر فيه هذه الزراعة ، ونطمئن إلى أن أبناءنا وأحفادنا يأكلون ويشربون ويحفظون أطعمتهم فى أوعية من البلاستيك المأمون ، ولعلهم يكونون أكثر قدرة منا على التخلص من النفايات الصلبة ، والبلاستيكية منها بوجه خاص !

حتى لا تحترق نباتات الأرض

يعايش البشر على سطح كوكبنا مخاوف وتوقعات مؤرقة ، أن يأتى القرن القادم بمزيد من المشاكل البيئية والصحية ، نتيجة للتمزقات التى لحقت بستارة الأوزون التى تحمى الأرض من بعض المكونات الضارة لأشعة الشمس .

ويدور الحديث الآن عن احتمالات ارتفاع نسبة المصابين بسرطان الجلد ، نتيجة لزيادة معدل تسرب الأشعة فوق البنفسجية التى تحجبها عنا ستارة الأوزون ولا تسمح – فى حالتها الطبيعية – إلا لقدر ضئيل منها بالوصول إلى سطح الأرض .

ومن الاحتمالات المثيرة للقلق أيضا ، والمترتبة على التدهور الواقع فعلاً فى طبقة الأوزون ، أن ترتفع درجة حرارة الأرض ، وتذوب جبال الجليد الضخمة فى قطبى الأرض ، فيرتفع منسوب المياه فى البحار والمحيطات ، فتطغى على اليابسة ، وتغرق الشريط الساحلى والمدن المطلة على البحار أو القريبة منها .

وللأسف ، فإن الصورة العامة لأحوال المناخ على سطح الأرض لا تشجع على التفاؤل ، وتدعو للقلق ، ويضيف (ألان تيرامورا) ،

عالم البيئة النباتية فى جامعة ماريلاند ، أن ثمة تهديدًا أكثر خطورة يواجه البشرية نتيجة لتآكل غلاف الأوزون المحيط بالأرض ، وهو التأثير الحارق للأشعة فوق البنفسجية على الحياة النباتية ، فإذا استمرت تلك الأشعة فى التسرب من خلال الستارة الأوزونية المتآكلة ، فإن مصادر الغذاء الأساسى على سطح الأرض – النباتات – تصبح معرضة لأخطار لا يعلم مداها إلا الله .

والثابت علميًا أنه خلال العقدين الماضيين من الزمن ، نقص سمك غلاف الأوزون بمقدار ٣٪ فى المتوسط ، وكان أكبر قدر من النقص بنسبة ٥٠٪ ، فيما يشبه ثقبين كبيرين يظهران بشكل دورى عند القطبين ، ولا يأمل العلماء أن يتحسن حال طبقة الأوزون ، أو يبقى على ما هو عليه ، بل المتوقع أن يزداد سوءا .. فمادة الكلور وفلوروكربون المسئولة عن تدمير جزىء الأوزون ، تبقى على حالتها النشطة فى الجو لمدة مائة سنة ، فحتى إذا تخلينا عن شكوكنا وصدقنا ما يقال عن إمكانية التوقف عن إنتاج هذه المادة المدمرة وحظر استخدامها تمامًا فى الوقت الحالى ، فإن الموجود منها فعلاً فى الجو سيظل محتفظا بفعاليته لزمن طويل ، وستظل المشكلة تطل علينا بوجهها الكئيب طوال القرن القادم .

وعلى أى حال ، فإن إطلالة على جهود علماء البيئة يمكن أن تسمح لنا ببعض أنفاس من الأمل وسط هذا السيل من التوقعات المقبضة لمستقبل الحياة على سطح الأرض .

إن أبحاث علماء البيئة النباتية فى جامعة ماريلاند ، تحاول أن تجيب على سؤال محدد ، هو : كيف يمكن للنباتات أن تقاوم ارتفاع نسبة الإشعاعات فوق البنفسجية القادمة من الشمس ؟

لقد اتضح أن نقصًا فى سمك طبقة الأوزون مقداره واحد بالمائة ينتج زيادة فى الأشعة فوق البنفسجية الواصلة إلى سطح الأرض مقدارها اثنان بالمائة ، فكيف يستطيع النبات أن يتكيف مع ظروف بيئة فقدت ٥٠٪ أو ٢٥٪ أو حتى ٥٪ من غطاء الأوزون الذى يحميه من الأشعة الحارقة ؟

صمم علماء جامعة ماريلاند بيوتًا زجاجية خاصة لإجراء تجاربهم على مدى استجابة النباتات المختلفة للجرعات المتزايدة من الأشعة فوق البنفسجية . ووضعوا فى أسقف هذه البيوت الزجاجية صفوفًا من مصابيح خاصة تنتج هذه الأشعة بتركيزات يمكن التحكم فيها .

فإذا استعرضنا نتائج هذه التجارب والأبحاث ، وجدنا – أولاً – أنها تؤكد حقيقة اختلاف النباتات فيما بينها من حيث قدرتها على مواجهة تزايد تركيزات الأشعة فوق البنفسجية التى تتعرض لها ، إنها ، فى ذلك ، تشبه الإنسان .. فالأفارقة ، والآسيويون ، مثلاً ، يمكنهم تحمل أشعة الشمس ، بينما الإنجليز والإسكتلنديون ذوو البشرة الشقراء لديهم حساسية لأشعة الشمس التى تصبغ جلودهم وقد تحرقها .

وتشير النتائج أيضًا إلى أن أكثر النباتات ذات الأهمية الاقتصادية تعرضًا للأذى من تزايد الأشعة فوق البنفسجية (فول الصويا) ، الذى يأتى الثالث فى ترتيب الأهمية بين المحاصيل الزراعية فى الولايات المتحدة الأمريكية ، وأشجار الصنوبر التى تعد مصدر ثلثى لب الاخشاب المستخدم فى صناعة الورق . ويقدر العلماء النقص المتوقع فى إنتاج محصول فول الصويا بعشرين فى المائة إذا تناقص سمك طبقة الأوزون بمقدار ٢٥٪ .

وقد تمكن العلماء من تحديد كيفية تخريب الأشعة فوق البنفسجية للنباتات .. إنها تدمر المادة الوراثية فى الخلية النباتية (جزيئات حمض دى إن إيه) ، فيفقد النبات مخزونه من الشفرات السرية التى تنظم عملياته الحيوية ، بالإضافة إلى ذلك ، فإن تلك الأشعة تحطم مادة اليخضور التى بدونها لا يستطيع النبات استقبال طاقة الشمس الضرورية لإتمام عملية بناء الغذاء ، فيكف النبات عن النمو ، ويكون النقص فى الإنتاج .

وقد تعرف العلماء من خلال تجاربهم على بعض النباتات التى حباها الله بوسائل طبيعية تمكنها من تحمل وهج الشمس الحارق ، والقليل من التأثير المدمر للأشعة فوق البنفسجية ، فبعض هذه النباتات يعمل على إنتاج كميات كبيرة من المواد الصبغية عديمة اللون ، لها قدرة كبيرة على امتصاص الأشعة فوق البنفسجية وحماية النبات منها ،

وثمة مجموعة ثانية لها أوراق مغطاة بمادة شمعية ، تنعكس على أسطحها أشعة الشمس ، فلا تتأثر بها كثيرًا ، وفي مجموعة ثالثة ، يغطي النبات نفسه بزوائد تشبه الزغب أو الوبر ، تعمل على امتصاص جزء كبير من الأشعة وتجنب النبات تأثيرها الضار ، أما المجموعة الرابعة فقد وفرت لنفسها سلاحًا كيميائيًّا ضد الأشعة فوق البنفسجية .. إنها تفرز مركبات كيماوية تعمل – من خلال تفاعلات معقدة – على إصلاح ما أفسدته الأشعة وإعادة صلاحية جزئيات مادة الحمض الوراثي .

وخرج العلماء من حقول التجارب المحدودة إلى الدراسات الحقلية في البيئة الطبيعية للنباتات نفسها ، واختاروا المنحدرات الجبلية في جزر هاواي محلاً لدراساتهم ، حيث تتعرض النباتات النامية على تلك المنحدرات – بحكم موقع هاواي – إلى ضوء الشمس في أقصى شدة له ، وحيث يزيد التعرض للأشعة فوق البنفسجية مع زيادة الارتفاع عن سطح الأرض .

وقد أثبتت الدراسات الحقلية في جبال هاواي أن النباتات النامية على سفوح تلك الجبال تبدي مقاومة هائلة للتأثير المخرب للأشعة فوق البنفسجية .

فالنباتات التي تنمو على ارتفاعات تقل عن ١٥٠٠ قدم عن سطح الأرض لديها مناعتها الطبيعية ضد تلك الأشعة ، أما تلك التي تنمو

على ارتفاع يزيد عن ستة آلاف قدم ، فقد جهزت نفسها بالوسائل الدفاعية الطبيعية التى سبق الحديث عنها .

والخطوة القادمة فى هذه السلسلة من التجارب هى محاولة التعرف على الصفة الوراثية التى تهب تلك النباتات قدرتها على مقاومة التأثير الحارق لأشعة الشمس .

ويأمل العلماء أن ينجحوا فى ذلك قريبًا ، لتكون الخطوة التالية هى نقل هذه الصفة ، باستخدام تقنيات الهندسة الوراثية ، إلى النباتات الأخرى لتكتسب القدرة على حماية نفسها من خطر الاحتراق والفناء إذا زادت الأشعة فوق البنفسجية فى المناخ الأرضى .

هل تختفى الغابة الاستوائية ؟

أعدت اليونسكو اتفاقية للحفاظ على (التراث العالمى) ، اشتملت على تعريف للتراث الطبيعى بأنه :

– المعالم الطبيعية المتألفة من التكوينات الفيزيائية أو البيولوجية ، أو من مجموعات هذه التكوينات ، التى لها قيمة عالمية استثنائية من وجهة نظر الجماليات أو العلوم .

– التكوينات الجيولوجية أو الفيزيوغرافية ، والمناطق المحددة بدقة ، والتى تمثل موطن الأجناس الحيوانية أو النباتية المهددة ، ولها قيمة عالمية استثنائية من وجهة نظر العلم أو المحافظة على الثروات .

واشترط فى هذا التعريف أن تكون مساحة المواقع كبيرة ، مثل حزام الغابات الاستوائية المطيرة .

وهكذا ، فإننا قد نلتفت إلى حدودنا الجغرافية على الخريطة ، فلا نجدنا مشاركين في ملكية أجزاء من حزام الغابات الاستوائية ، ولكننا ، طبقا لاتفاقية اليونسكو هذه ، لا نستطيع أن نبتعد عن المشاركة فى تحمل مسئولية صون هذا النظام البيئى المهدد بخطر التلاشى ، لقد أصبح الاهتمام بقضايا ومشاكل البيئة يتخطى الحدود

المحلية ، ويتطلب تضافر الجهود الدولية ؛ لأن التأثيرات والأضرار الناجمة عن تلك المشاكل لا تقتصر على مواقع بعينها من خريطة العالم ، بل تنعكس – وربما بمعدلات أكبر – على الجيران البعيدين ، وأحيانا ، يكون للظاهرة البيئية آثارها التى تغطى ارجاء المعمورة .

إذن ، فنحن حين نتساءل عن مصير الغابة الاستوائية المطيرة ، لا نخوض فى حديث هامشى ، بل نحاول أن نشارك – ولو بمجرد إبداء الاهتمام – فى قضية تؤرق العالم كله .

ويقول العالم الأمريكى بول ريتشاردز فى كتابه « الغابة الاستوائية المطيرة » الصادر فى عام ١٩٧٣ : (لن يحل عام ألفين إلا ويكون معظم الغابات الاستوائية المطيرة قد تبدد) .

ويشاركه فى هذا التوقع المخيف كثير من علماء البيئة ، اعتمادًا على استقرائهم للمعدلات الحالية التى تتم بها عمليات محو الغابات .

لقد كانت الغابات الاستوائية تغطى ١٥ مليون كيلو مترًا مربعًا ، أو جزءا من عشرة أجزاء من مساحة سطح الكرة الأرضية ، فى شكل حزام يمثل نصف مجموع مساحات الغابات الموجودة على اليابسة ، فما هو الحال الآن ؟

تشير صور الأقمار الصناعية إلى أن المساحة قد اختزلت بمقدار الثلث ، وإلى أن خسارة بمعدل ٢٪ تحيق بهذه المساحة سنويا ،

وأظهرت هذه الصور أن ٨٠ ألف كيلو مترًا مربعًا من الغابات العذراء قد تم أحراقها ، في سنة ١٩٨٧ فيالبرازيل وحدها ، بغرض تعرية الأرض لاستخدامها في الزراعة والبناء .

هذا ما دفع بعلماء البيئة إلى رسم صورة للوضع في نهاية هذا القرن ، وقد خسر العالم غاباته الاستوائية ، إلا بقعتين كبيرتين ، واحدة غرب الأمازون ، والثانية في وسط زائير ، وإذا استمر الحال على ما هو عليه ، فإن هاتين البقعتين سوف يلحق بهما الدمار مع منتصف القرن القادم .

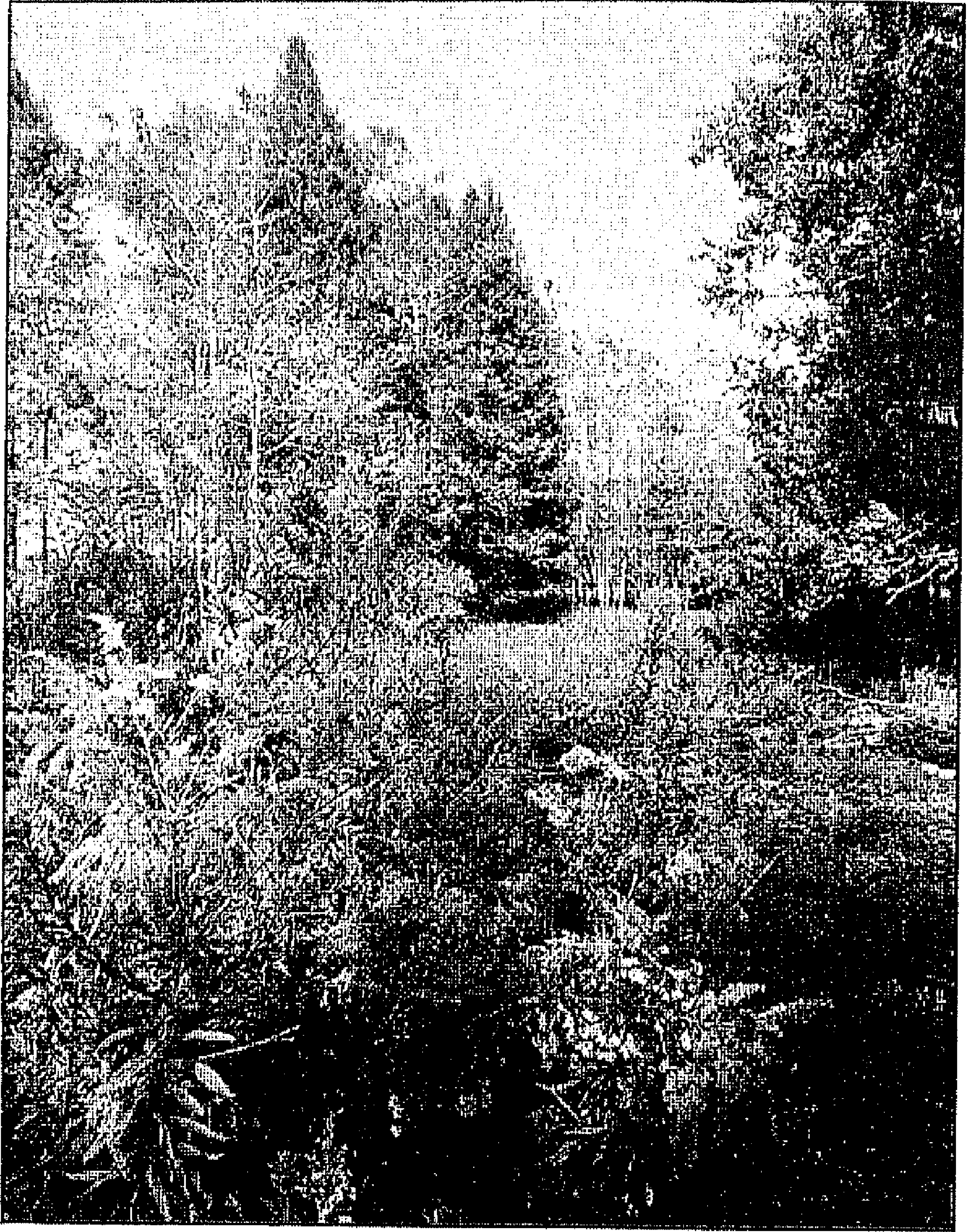
فما الذي تمثله هذه الغابات الاستوائية لمن يملكونها فعلاً ، ولهؤلاء الذين ترتفع صيحاتهم طالبين إغاثتها من واقع متدهور ومستقبل مؤسف ؟ .

إن كلمة غابة تستدعي على الفور كلمة شجرة ، والأشجار هي الشكل الرئيسي للخضرة في الغابات . ولكن ، ينبغي ألا نتجاهل المكونات الأخرى للبيئة ، والتي تشتمل أيضًا على : الشجيرات – الأعشاب –الطحالب – الفطريات – الحشرات الزواحف – الطيور – . الحيوانات الثديية – التربة – الماء – الهواء ، وهذه كلها مكونات أساسية لبيئة الغابات ، وكل منها مرتبط بغيره ومعتمد عليه .

وفى الغابة المطيرة ، تنمو الأشجار والنباتات فى أربع مستويات : المستوى الأدنى ، وهو عبارة عن طنفسة من النباتات القصيرة ، يليه مجموعات من النخيل ؛ ثم أنواع من أشجار الظل ، مثل الصبار والسراخس ، وتتراوح أطوالها بين ١٨ و ٣٨ مترا ، وهى تكوّن فيما بينها السقف الكثيف المتشابك للغابة المطيرة وأخيرًا ، تأتى طبقة الأشجار الضخمة التى يصل طولها إلى ٦٠ مترًا ، وتمتد مثل مظلة فوق غيرها من النباتات .

ولا يعتمد غنى الحياة النباتية فى الغابات على الكم فقط ، بل وعلى التنوع أيضًا ، ففى الوقت الذى لا يزيد فيه عدد أصناف الأشجار فى الغابات الشمالية على بضع عشرات ، نجد الغابات الاستوائية تزخر بما يقرب من ثلاثمائة نوع من الأشجار ، وهذا التنوع ينتظم كافة أرجاء الغابة الاستوائية فى ترتيب طبيعى عجيب ، فمن النادر أن تجد فى هذه الغابة الفسيحة شجرتين متجاورتين من نوع واحد ، وقد أحصى أحد العلماء ١١٧ نوعًا مختلفًا من الأشجار فى منطقة لا تزيد مساحتها عن $\frac{1}{4}$ كيلو متر مربع .

وأهم أشجار الغابة البرازيلية : الكالاباش — الجاكار — نخيل البيوريتى — الماهوجنى — الإبنوس — الأرز ، وتشتهر أشجار الخشب البرازيلية بإنتاج أصلب أنواع الأخشاب فى العالم ، تحاكى الحديد



الغابة الاستوائية المطيرة

نظام بيئى حيوى وجميل يتعرض للتدهور والتدمير !

فى صلابتها ، ويصعب أن تترك البلطة أى خدش على قلف هذه الأشجار ! .

أمّا غابات إندونيسيا ، فتشهر بأنواع من النخيل يصل عددها إلى ١٥٠ نوعًا ، ومنها نخيل نيبا ، ونخيل راتان ، ونخيل الساج ، بالإضافة إلى أشجار البامبو .

وتحتل النباتات العالقة أهمية خاصة فى الغابة الاستوائية ، اقتصاديًا ، ومن حيث التنوع ، والنبات العالق عبارة عن نبات ينمو على نبات آخر ، ويفترش جذوع الأشجار وفروعها ، والمعروف من النباتات العالقة فى العالم ينتمى إلى ٢٨ ألف نوع ، تحتوى غابات أواسط وجنوب أمريكا منها على ١٥ ألف نوع ، أهمها : الأناناسيات – الصبّار الشجرى – الأشنات – الحزازيات – السراخس .

كذلك ، فإن عالم الحيوان فى الغابة الاستوائية لا يقل تنوعًا عن عالم النبات ويعيش فى هذه الغابة نصف ما يعيش فى العالم من أنواع الحيوانات ، ابتداء من الحشرات ، وأهمها الخنافس والنمل ، إلى غوريللا الجبال التى تعيش فى وسط أفريقيا ، مرورًا بعشرات الأنواع من الطيور والنسانيس والسناجب والقنافذ والنمور والخنازير وآكلات النمل والتماسيح ، أمّا الفراشات ، فهى أشد تنوعًا فى منطقة الأمازون .. ففى جولة لمدة ساعة واحدة فى الغابة البرازيلية ، جمع

أحد العلماء ٧٠٠ فراشة من أنواع مختلفة ، بينما يبلغ عدد أنواع الفراشات فى أوربا كلها ٣٢١ نوعًا .

هذه بعض ملامح هذا الجزء من التراث الطبيعى العالمى المهدد بالزوال ، ويقدر علماء البيولوجيا أن حوالة عشرة آلاف نوع من الكائنات الحية يفقد كل عام مع اختفاء أجزاء من الغابة الاستوائية ، ويقولون إن أكثر الأنواع عرضة لخطر الانقراض هى أنواع من الحشرات ، وبخاصة الخنافس ، وهم يجدون بعض الصعوبة فى إقناع الآخرين بأن انقراض مثل هذه الأنواع (عديمة النفع) يمثل كارثة بيئية لها انعكاساتها الاقتصادية السلبية ؛ فلا يزال وعى العامة - وحتى بين فئات المتعلمين - بما يسمى بالاتزان البيئى ، ناقصًا ، وعلى أى حال ، وبمطنق المنفعة الذى يعرفه الجميع ، فإن تدمير الغابة هو إهدار لمئات الأنواع من الكائنات الحية ، وبخاصة النباتية ، عظيمة النفع للإنسان .

ويشكك الاقتصاديون فى قدرة أى محاولة لحساب الخسائر المترتبة على تدمير موارد الثروات غير المحدودة الموجودة فى الغابات الاستوائية المطيرة ، فهذه الغابات هى الآن عماد اقتصاديات كثير من الدول الواقعة على خط الاستواء ، وطبقًا لبيانات البنك الدولى ، فإن ٢٠٠ مليون إنسان فى العالم يعتمدون فى حياتهم اليومية على الغابات

الاستوائية ، ويمثل سكان الغابة الأصليون ربع هذا العدد ، أما الباقون ، فقد تم دفعهم إلى الغابات ، تنفيذًا لسياسات إقليمية .

وثمة دول أخرى ، بعيدة عن خط الاستواء ، ولكن حياة الملايين من البشر فيها تعتمد على الغابات ، فهى المصدر الأساسى لخشب الوقود فى معظم بلدان العالم الثالث ، وتبلغ قيمة إجمالى الإنتاج السنوى من أخشاب الغابات الاستوائية ٨ بليون دولار .

وتشير الإحصائيات إلى أن أكثر من بليون شخص – $\frac{١}{٥}$ سكان الأرض – يعيشون فى قلق ومعاناة نتيجة الفيضانات ونقص خشب الوقود ، ونضوب الماء ، وتدمير التربة الزراعية ، ونقص الإنتاج الزراعى ، وهذه كلها نتائج أو ظواهر يتسبب فيها بشكل مباشر أو غير مباشر الفقدان المستمر لغطاء الأرض من الغابات الاستوائية المطيرة ، ويرى علماء المناخ أن الحرائق المتعمدة وغير المتعمدة التى تلتهم مساحات ضخمة من الغابة الاستوائية هى المسئولة ، ضمن عوامل أخرى ، عن التغيرات المناخية وبعض الظواهر الطبيعية المؤسفة ، فى كثير من بقاع الأرض ، فالغازات الناتجة عن هذه الحرائق هى واحد من الأسباب التى أدت إلى النقص فى سمك طبقة الأوزون فى منطقة القطب الجنوبى ، وبسبب هذه الحرائق ، أيضًا ، وبالاشتراك مع عمليات احتراق الوقود الإحفورى فى أنشطة الإنسان المختلفة ، تتزايد نسبة غاز ثانى أكسيد الكربون فى الجو ، والنتيجة ، هى تزايد

متواصل فى درجة حرارة مناخ الأرض (ظاهرة بيت النباتات الزجاجى) ، فالمعروف أن غاز ثانى أكسيد الكربون يسمح لأشعة الشمس أن تصل إلى الأرض ، ولكنه يحجز الأشعة الحرارية المرتدة من الأرض .. يمنعها من مغادرة الغلاف الجوى ، فتحتفظ الأرض بها ، ومع تزايد نسبة هذا الغاز فى الجو ، تصبح الأرض (صوبة زجاجية) ، أو مصيدة كبيرة للحرارة .

وفى نفس الوقت ، فإن عملية احتراق أو أحراق الغابات يحرم الأرض من الأشجار التى هى العامل الأساسى فى تخليص المناخ الأرضى من غاز ثانى أكسيد الكربون ، إذ تقوم بتحويله إلى أكسجين وأخشاب .

فماذا يدفع الإنسان إلى إحراق الغابات ؟

ثمة ثلاثة أسباب واضحة :

أهم هذه الأسباب هو : توفير الأرض من أجل الزراعة .

وفى البرازيل ، تشجع الحكومة المزارعين على الهجرة إلى منطقة الأمازون لتعميرها ، وتمدهم بالإعانات ، تحت شعار أن الأمازون أرض بلا رجال تُقَدّم لرجال بلا أرض ، وثمة برنامج حكومى فى إندونيسيا لتهجير ملايين السكان من المناطق المزدحمة إلى الجزر الخارجية قليلة الكثافة السكانية ، لاستيطانها بعد تعريتها من غطائها الكثيف .

وقد يتبادر إلى الذهن أن منطقة الغابات الاستوائية الرطبة تخفى تحت غطائها النباتى الكثيف تربة خصبة ، إن ذلك ، للأسف ، غير صحيح ، ففى الأراضى الزراعية نجد أن التربة هى المخزن الأساسى للخصوبة ، أمّا فى الغابة الاستوائية ، فإن معظم الأملاح المغذية للنباتات لا توجد فى التربة ، فأوراق الأشجار التى تموت وتتساقط لا تصل أبدًا إلى الأرض ، إذ تستبقيها الشبكة النباتية الكثيفة . وتؤدى الرطوبة المرتفعة ودرجة الحرارة العالية إلى تحللها بسرعة ، وتقوم النباتات المعلقة بامتصاص الأملاح الناتجة عن تحلل الأوراق بواسطة جذورها الهوائية ، أمّا الأملاح الغذائية التى قد تصل إلى التربة ، فإنها لا تبقى فيها طويلاً ، فسرعان ما تجد طريقها إلى جذور الأشجار الكثيفة الجائعة .

وهكذا ، فإن تعرية الأرض من غطائها الشجرى يعنى إزالة مخزن الأملاح الغذائية ، فتكون النتيجة مخيّبة بالنسبة للفلاحين الذين جاءوا وراء حلم امتلاك الأرض وزراعتها ، فالتربة فقيرة جدًّا ، لدرجة لا يمكن معها أن تتحمل نمو المحصولات لأكثر من موسم واحد ، ثم تترك المنطقة مكشوفة للشمس الاستوائية والأمطار الغزيرة ، لتتحول إلى أرض قاحلة قبيحة المنظر ، ويحتاج الأمر إلى ٢٥ سنة لزرع غطاء جديد من الأشجار ، قد لا يماثل غطاءها الأصلى ، وإلى مائة سنة لكى يعود للمكان نظام بيئة الغابات الاستوائية .

أمّا فى أمريكا الوسطى ، فإن الهدف من إزالة الغابات هو توفير مساحات من الأراضى للرعى ، وفى الخمسين سنة الماضية ، تضاعفت مساحات المراعى فى أمريكا الوسطى ثلاث مرات ، على حساب الغابات طبعا ، وبهذا المعدل ، يتوقع الخبراء أن تختفى الغابات هناك فى نهاية هذا القرن .

أما السبب الثالث فهو تجارة الأخشاب ، وهذه التجارة مسئولة عن ربع الخسائر السنوية فى أشجار الغابة الاستوائية ، وهى تؤدى إلى تعرية ٥٠ الف كيلو متر مربع على الأقل كل سنة ، ويعد غرب إفريقيا وجنوب شرق آسيا المصدرين الرئيسيين للأخشاب الاستوائية فى العالم ، وتتم فيهما عمليات تقطيع الأشجار بدون تنظيم ، أو إدارة جيدة لهذه الموارد الطبيعية ، لدرجة أن هذه التجارة تنحدر الآن ، وقد سجلت ساحل العاج ونيجيريا أعلى معدل لتقطيع الأشجار فى العالم ، وهما تواجهان اضمحلالاً شديدًا فى مساحات الغابات داخل حدودهما ، أما فى جامبيا ، والسنغال ، وتوجو ، وبنين ، فتشير الدلائل إلى اختفاء الغابات من أراضيها فعلاً ، ويقول تقرير البنك الدولى ، إن ١٠ دول فقط هى التى تقوم حتى الآن بتصدير منتجات الغابات الاستوائية ، ويشكك فى قدرتها على الاستمرار فى هذه التجارة لأكثر من عقد واحد فقط ، نظرًا للتدهور الشديد فى أحوال الغابات .

ويرى العاملون فى مجال صون البيئة أن مصير الغابات الاستوائية المطيرة يمثّل أحد التحديات أمام المدنية الحديثة ، وتحاول بعض الحكومات إصدار التشريعات لحماية ممتلكاتها من الغابات الاستوائية ، وتقوم منظمات دولية وأهلية لحماية البيئة ، مهمتها إثارة الرأى العام العالمى لوقف عمليات اغتيال أشجار الغابات .

وليس لنا إلا أن نأمل فى نجاح هذه الجهود ، وتبطل تنبؤات المتشائمين ، وتحتفظ الأرض - على الأقل - بما تبقى من غطائها الاستوائى .

ثلاثة نماذج لكائنات حية يتهددها خطر الانقراض :

١ – الباندا
٢ – الفيل الأفريقى
٣ – السلحفاة الصحراوية .

الباندا !!

اسم القضيـة

لقد اكتسب هذا الحيوان شهرة فائقة فى السنوات القليلة الماضية ، وأصبح اسمه مرتبطًا بقضية الحفاظ على الموارد البيئية وصون البيئة ، ويضرب به المثل فى مجال الحديث عن الكائنات الحية المعرضة لخطر الانقراض ، وهو الحيوان المدلل الذى يحظى بأعلى مراتب الرعاية والاهتمام فى حدائق الحيوان القليلة التى تستضيف هذا الحيوان (الحالة) أو (القضية) .

.. ولقد أصبح قتل الباندا جريمة عقوبتها – فى الصين – السجن مدى الحياة ، أو الإعدام ..

والحقيقة المؤسفة ، أن حيوان الباندا يقف فعلاً على حافة هاوية الانقراض ، بالرغم من كل الاهتمام الذى يلقاه من علماء البيئة ودعاة صونها ، وبالرغم من ملايين الدولارات التى تنفق فى أوجه عديدة تهدف جميعها إلى الابقاء عليه بين الكائنات الحية التى تسكن الأرض ، وليس أصدق فى الدلالة على ذلك من الإحصائيات التى تقدر عدد أفراد الباندا التى تعيش طليقة فى بيئتها الطبيعية بما لا يزيد كثيرًا عن

الألف ، بالإضافة إلى ما يقل عن المائة يعيشون فى الحبس ، سواء فى حدائق الحيوان ، أو يخضعون لمراقبة العلماء فى بعض مراكز البحوث ..

فما سر هذه الورطة المصيرية التى يعيشها هذا الحيوان النادر ؟

إنها قصة معقدة ، تتشابك فيها خيوط من سلوكيات الآدميين وشئونهم السياسية بخيوط من طبيعة حيوان الباندا نفسه وتكوينه البيولوجى ..

إن أهم سلاح تواجه به الكائنات الحية أخطار الطبيعة هو أن تتكاثر بأعداد كافية تضمن بها استمرار النوع على خريطة الحياة ..

.. أما الباندا ، فكأنه عازف عن عالمنا وغير حريص على مصاحبتنا فى الحياة ، فهو بطىء التكاثر ، حتى وهو طليق فى بيئته الطبيعية ..

.. إن أنثى الباندا لا تكون مهيأة للحمل إلا ليومين أو ثلاثة أيام فقط فى السنة .. فإذا حدث الحمل ، فإنها لا تلد غير وليد واحد (بنسبة ٤٠٪) ، أو اثنين (بنسبة ٦٠٪) ، وهى فى ذلك تختلف عن إناث سائر الدببة اللاتى يعطين عددًا يصل إلى أربعة صغار فى البطن الواحدة ..

وتمتد فترة الحمل فى حالة أنثى الباندا إلى خمسة أشهر ، ويأتى الصغار إلى الحياة لا حول لهم ولا قوة ، لا يزيد وزن الواحد منهم

عن أربعة أرطال ، وعاجزين عن الرؤية ؛ فيبقون معتمدين على رعاية الأم اعتمادًا كاملاً لمدة تتراوح بين ثلاثة إلى خمسة أشهر ..

وتلقى الأم مشقة كبيرة فى رعاية صغيرها أو صغيريها ، فعليها أن تكد بحثًا عما تأكله وهى تحمل الصغيرين وترضعهما ، وهنا ، يمكننا أن نقف أمام ظاهرة غريبة فى سلوكيات هذا الحيوان ، فهو بطىء التوالد ، ومن الطبيعى أن يعطى حرصًا زائدًا لصغاره ، غير أن الباندا الأم – المجهدة برعاية الوليدين – لا تبدى ، فى الغالب ، الاهتمام الكافى إلا بوليد واحد ، وتترك الآخر شبه مهمل تتهدده الأخطار ، فلا يلبث أن يموت ، وهو سلوك شاذ ، ضد الغريزة ومشاعر الأمومة الطبيعية ، ومخالف تمامًا لما هو متوقع من حيوان يترصده خطر الانقراض .. !!

وهكذا ، يبقى وجود الباندا فى الحياة معتمدًا على معدل فى الزيادة العددية مقداره واحد فى السنة لكل أنثى ، ولا يدخل فى تقدير هذا المعدل الأخطار الطبيعية والأمراض التى قد تهدد حياة الوليد ، ولا يدخل فيه أيضًا أن الفترة بين حمل وآخر قد تزيد عن سنة ، وهو ما يحدث فى حالات كثيرة ..

وإزاء الظروف المعيشية العسيرة والغريبة التى يخوض فيها حيوان الباندا ، يحلو لبعض علماء البيئة تشبيهه بالملاكم الذى يواجه خصمه بيد واحدة ، بينما الأخرى مقيدة وراء ظهره ! .



الباندا .. منشغل عن العالم
بعود من قصب البامبو .. غذاؤه الفقير الذى يتمسك به !

إنه فى مأزق دائم .. انظر إليه وقد ترك كل أنواع الطعام التى يمكن أن تتوفر لدب مثله ، مكتفيا بنباتات (البامبو) ، والغريب أن سلوكيات الحيوان الغذائية فى الحبس تتغير تمامًا ... فالباندا الذى تحتفظ به حديقة حيوان لندن يقبل بشهية مفتوحة على الدجاج المشوى ؛ وذلك الذى تستضيفه حديقة حيوان واشنطون يأكل فطائر التوت ، وكعكة الجزر ، فماذا يدفع الباندا الطليق إلى الزهد فى أى نوع آخر من الطعام غير البامبو ؟ ، هل لأن هذه النباتات كانت دائمًا موجودة من حوله ، لم يسبقه إليها أحد ، ولم يشاركه فيها حيوان آخر ؟

ويأكل الباندا البامبو بشراهة ، حتى أنه يوصف بآلة أكل البامبو ، وتتراوح كمية البامبو التى يتناولها الحيوان الواحد فى اليوم بين ٢٠ و ٤٠ رطلاً ، ومع ذلك فإن الباندا غير مهيأ خلقيًا ليكون آكل نباتات ، بل إن صفاته التشريحية تشير إلى أنه لا يملك مؤهلات آكلى الأعشاب ؛ مثل القناة الهضمية الطويلة التى يعطى طولها فرصة أكبر لامتصاص الغذاء أثناء مروره فيها .. فالغزال ، مثلاً ، له أمعاء تساوى ١٥ مرة مثل طول جسمه ، ويرتفع الرقم إلى ٢٥ فى حالة الأغنام ، أما الباندا فإنه ، مثل معظم آكلى اللحوم ، لا يزيد طول أمعائه عن ٦ أمثال طول جسمه ..

كذلك ، فإن الحيوانات العشبية تتعايش فى علاقة تكافل مع أنواع من الكائنات الدقيقة تسكن أمعاءها ، وتقدم خدماتها فى صورة

إنزيمات تفرزها لتساعد فى تكسير جزيئات مادة السليلوز النباتية المعقدة إلى مواد غذائية بسيطة التركيب ، يسهل على الحيوان هضمها والاستفادة منها بنسبة ٨٠٪ ، ولا يقيم الباندا مثل هذه العلاقة مع البكتريا مفتتة السليلوز ، لذلك ، فإنه لا يستفيد إلا بحوالى ١٧٪ من وزن ما يلتهمه من نباتات البامبو ، فهو ، إذن ، عشبى فاشل ..

وتشتهر معظم أنواع دببة المناطق الباردة باللجوء إلى السبات الشتوى ، غير أن الباندا لا تستطيع أن تمارس نفس السلوك ، فالسبات الشتوى يتطلب تخزين كمية مناسبة من الدهون فى جسم الحيوان ، تفى بالضرورى من الطاقة اللازمة للعمليات الحيوية خلال فترة الكف عن النشاط التى تستمر طيلة الشتاء ، ولا يملك الباندا هذا المخزون الدهنى ؛ فغذاؤه الهزيل لا يتيح له فائضًا من الدهون يختزنها ليتيسر له أن يقضى الشتاء فى حالة سبات ...

إن هذا النوع من الطعام لا يطلق فى جسم الباندا سوى سعرات حرارية قليلة تستهلك فى عملية هضم مزيد من نفس الطعام العسر ، ولا يتبقى شىء من الطاقة لأى نشاط آخر ، ولعل هذا هو السبب فى أن الباندا فى حياته البرية لا يبدو منتعشًا ولا يبدى أى استجابات مرحة كما يفعل أحيانًا فى بيوت الضيافة داخل حدائق الحيوان ؛ بل يمضى حياته فى عزلة ، خاملاً ، بطىء الحركة ، ولا يكاد يرى فى تجمعات صغيرة إلا فى وقت التزاوج ..

لقد قضى حيوان الباندا على ظهر الأرض ملايين السنين محاطًا بغابات من البامبو ، فوطن نفسه على الاعتماد على هذا النوع الوحيد من الغذاء الذى يجده بين يديه على مدار العام ، ولكن دوام الحال من المحال ، وفى الطبيعة ، ليس من المهم – بالدرجة الأولى – أن تكون طيبًا لتحمى وجودك ، بل من الضرورى – قبل الطيبة – أن تكون قادرًا على المنافسة وأن تفوق منافسيك ، هذه حقيقة ظلت خافية على حيوان الباندا إلى أن جاء زمن وجد نفسه فيه يقف فى ساحة الحياة بلا سلاح ، لقد كانت تجمعات الباندا تعيش على امتداد رقعة الصين لأكثر من ثلاثة ملايين سنة ... وحتى العشرينيات من هذا القرن ، كان صيادو الباندا يمضون أيامًا طويلة فى غابات من البامبو لا نهاية لها من أجل الفوز بأكبر محصول من هذا الحيوان النادر الثمين ، لقد أزيلت هذه الغابات من على الخريطة كما لو كانت خطوطًا مسحتها ممحاة ، سلب المزارعون والصناع أرض الباندا ، وأحالوها إلى مزارع ومصانع تفى باحتياجات حياة البشر ، وحين وصلت مفاهيم التوازن البيئى وصون الموارد الطبيعية – متأخرة ، بالطبع – كانت مملكة الباندا قد تقلصت تمامًا ، وانسحب الحيوان إلى (جيوب) من أرض البامبو ، معدودة ، صغيرة ومنعزلة ، متناثرة حول جبال غرب الصين ، يعيش فى كل جيب منها عدد يتراوح بين عشرة وخمسين من الباندا ..

ومن خصائص نبات البامبو أن لأشجاره دورة حياة يتراوح مداها ، تبعًا لنوع البامبو ، بين ١٥ و ١٢٠ سنة ؛ تنتهى بأن تعطى أزهارًا ،

ثم بذورًا ، وتموت ، ولكى تعطى هذه البذور نباتات جديدة تصلح كطعام للباندا ، ينبغى الانتظار لعدة سنوات ، ولقد استطاع الباندا أن يتعايش مع هذه الظاهرة لملايين السنين بأن يهجر المنطقة التى تخلو من النوع المنتهى من شجر البامبو إلى منطقة أخرى بها نوع آخر فى حالة ازدهار ، ولكنه ، الآن ، وهو حبيس فى جيوبه المنعزلة التى لا ينمو فيها غير نوع أو نوعين من البامبو ، لا يستطيع أن يتصرف إذا انتهت دورة حياة النبات ونفد المتاح من الغذاء الفريد ، فأين المفر ؟ . وقد حدث فى منتصف السبعينيات من هذا القرن أن انتهت دورة حياة البامبو فى مقاطعة بشمال الصين ، فمات ١٣٨ من أفراد الباندا نتيجة للجوع ، وكانوا يمثلون نصف قطيع الباندا فى تلك المنطقة .

وجاء أول رد فعل رسمى للإحساس بخطورة موقف الباندا فى عام ١٩٦٣ ، حين بدأت الحكومة الصينية فى تخصيص مناطق محمية للحيوان الذى كان تعداده فى تناقص مستمر ، ووصل عدد هذه المحميات فى الوقت الحالى إلى أكثر من عشر مناطق يعيش فيها نصف عدد حيوانات الباندا الطليقة ..

وكان يعتقد أن المحميات هى الدواء المناسب للداء ، وهى كذلك فعلا ، ولكنها ليست كل شىء ؛ فهناك أمور أخرى يجب وضعها فى الاعتبار ، أهمها أعمال الصيد غير المشروعة . فقد تمكن الصيادون

المتلصصون من التسلل إلى أكبر محميات الباندا فى الصين ، وهى محمية (وولونج) ، وأدى نشاطهم المدمر إلى تقليص عدد الباندا فى تلك المحمية من ١٤٥ فى عام ١٩٧٤ إلى ٨٠ فقط فى عام ١٩٨٧ ، وفى عام ١٩٨٨ ، تمكن المخربون من اصطياد ٤٠ باندا غير عابئين بتعرضهم للعقوبة ، إنهم يندفعون إلى اصطياد الباندا تحت إغراء المال ، فثمة من يأخذون منهم فراء الباندا غير مدبوغ مقابل أربعة آلاف دولار للقطعة الواحدة ؛ وهو مبلغ يمثل ثروة حقيقية فى الصين ، ويصل الفراء إلى الأسواق فى اليابان وهونج كونج حيث يصل ثمن القطعة الواحدة إلى مائة ألف دولار ...

وهناك أمر آخر يتداخل سلبيًّا فى سياسة حماية الباندا ، وهو ما يمكن تسميته بالضغط السكانى ، داخل ٨ مناطق على الأقل من المناطق التى حددتها الحكومة الصينية كمحميات للباندا ، يسكن هذه المناطق أقليات وثنية جاءت أصلاً من التبت ؛ وهم مستثنون من سياسة (طفل واحد فقط) التى تنتهجها الحكومة الصينية للتحكم فى عدد السكان ، لذلك ، فهم يتزايدون بأعداد كبيرة تتطلب مزيدًا من الأرض للزراعة ، ومزيدًا من الأخشاب للتدفئة والطهى وبناء المساكن ؛ فيكون ذلك على حساب غابات البامبو ، وتحاول الحكومة أن تحل هذه المشكلة بأن تنقل هذه التجمعات السكانية إلى مواطن أخرى بعيدًا عن محميات الباندا الطبيعية .

ما أتعس هذا الحيوان ، إنه يتعثر ، حتى فى المواقع التى خصصت للعيش فيها طليقاً ، فما العمل ؟ .. وهل من بديل ؟ .. هل تصلح حدائق الحيوان لإقامة الباندا ؟

يجيب بعض العلماء على السؤال الأخير بنعم ، قد تكون حدائق الحيوان بالنسبة للباندا وغيره من الأنواع النباتية والحيوانية المعرضة لخطر الانقراض بمثابة سفينة الإنقاذ ، أو كسفينة نوح التى احتفظت للأرض بثروتها من كائنات المملكتين النباتية والحيوانية ، وأنقذتها من الغرق فى الطوفان ..

وليس المقصود بحدائق الحيوان أقفاص العرض للجمهور ، ولكن معامل الأبحاث التابعة لبعض هذه الحدائق ذات الشهرة العالمية ، وبالفعل ، فإن أعداداً قليلة من الباندا تعيش فى حدائق حيوان مدينة المكسيك ومدريد وطوكيو وواشنطون ، بالإضافة إلى حدائق الحيوان فى الصين ، وكل المساعى التى يبذلها العلماء والخبراء تهدف إلى مساعدة حيوان الباندا ليتكاثر فى هذه الحدائق التى يجد فيها كل رعاية واهتمام ، وقد تحققت أحسن النتائج فى حديقة حيوان المكسيك ، حيث نجحت إناث الباندا فى إنتاج أربعة صغار أصحاء ، وفى طوكيو ومدريد ، يجرب العلماء وسائل الإخصاب الصناعى فى إنتاج أطفال الباندا بعد أن أحجمت الحيوانات عن التزاوج ...

غير أن أشهر ضيفين من الباندا فى حدائق الحيوان هما (لينج لينج) و (هسينج هسينج) اللذين تستضيفهما حديقة حيوان واشنطون ، واللذين روجت أخبارهما وسائل الإعلام الأمريكية ، جاء أول وليد لهما فى عام ١٩٨٣ ولم يعش سوى ثلاث ساعات ، وفى عام ١٩٨٤ أجهضت الأنثى لينج لينج ؛ غير أنها رزقت بتوأم فى عام ١٩٨٧ ، عاش الأول لدقائق قليلة ، ومات الثانى بعد أربعة أيام ..

ولم تحصل حدائق حيوان الصين ومراكز البحوث فيها على نتائج أفضل ، فمنذ بدأت المحاولات الصينية لتوليد الباندا فى الحبس ، كانت المحصلة تسعين من صغار الباندا ، نجح منهم ٣٧ فقط فى البقاء أحياء لمدد لم تزد عن ستة أشهر ، ومن نتائج التجارب الصينية أن إحدى إناث الباندا أعطت ثمانية صغارًا ، وأن ٧٠٪ من الإناث امتنعت على الذكور ؛ وفى نفس الوقت ، رفض ٩٠٪ من الذكور الزواج ! ، إنها نتائج محيرة يتعذر أن نستخلص منها ملامح سلوكيات التكاثر عند الباندا ، ولا يزال العلماء فى حاجة إلى مزيد من التجارب للإجابة على بعض الأسئلة : هل الأفضل أن يعيش ذكر الباندا مع أنثاه طوال العام ، أم يلتقى الزوجان فقط عندما تكون الأنثى مهيأة للحمل ؟ .. وما هي أفضل نسبة عددية لكل من الذكور والإناث للحصول على نتائج أفضل ؟ .. وهل تجدى محاولة إثارة الغيرة والمنافسة من أجل الأنثى بين الذكور لحفزهم على إتمام الزواج ، أم من الأفضل إلغاء عامل المنافسة وتخصيص أنثى لكل ذكر ؟ ..

وتبذل الحكومة الصينية جهودًا كبيرة للإبقاء على الباندا ، وقد أنفقت فى هذا المجال ٢٥ مليون دولار ، كما أنها فتحت أبوابها للعلماء والهيئات العلمية فى الغرب للمشاركة فى إنقاذ الباندا ، ويجرى حاليًا تنفيذ خطة للتعاون العلمى بين العلماء الصينيين وهيئة حماية الحياة البرية الأمريكية لوقف عمليات الصيد غير المشروع فى المناطق المحمية ، ولفك عزلة حيوانات الباندا فى جيوب البامبو المتباعدة ، وذلك بزرع مساحات من البامبو تربط بين هذه الجيوب لتكون بمثابة ممرات تنتقل عبرها الحيوانات من جيب لآخر ..

والحيوان الباندا جاذبية خاصة ، ويتمتع بشعبية كبيرة فى أنحاء كثيرة من العالم ، وقد حدث فى عام ١٩٨٦ فى حديقة حيوان طوكيو أن ولد أحد صغار الباندا ، فتزاحم الزائرون بمعدل ٢٠٠ ألف زائر فى اليوم لمجرد سماع صراخ الوليد ! . وعندما استضافت حديقة حيوان سان دييجو زوجا من حيوان الباندا ، تمكنت من بيع مليون قميص يحمل صورة الباندا لزوار الحديقة .

فما الذى جعل هذا الدب الخامل ذى الملامح الطفولية يكسب هذا التعاطف العالمى من صغار البشر وكبارهم ؛ من المهتمين بشئون البيئة وممن لا يدركون معنى التعرض لخطر الانقراض ؟

لا أحد يستطيع الزعم بأن إنقاذ الباندا من الانقراض سيكون له مردوده الاقتصادى الإيجابى على البشرية ، ولا هو سيفتح آفاقا علمية جديدة أو سيوفر أدوية تعالج بعض الأمراض المستعصية ، قد يمكننا

الزعم بذلك فى معرض الحديث عن كائنات نباتية وحيوانية أخرى مهددة بالانقراض .. أما البندا ، فهو ليس أكثر من دب ذى فراء ثمين ، كان له حظ الرواج الإعلامى ، إنه ، حتى ، قد يكون أقل قيمة من حيوان مائى رخو ، إذا أخذنا فى الاعتبار علاقات الكائنات الحية ببعضها فى النظام البيئى ، وهو ، إذا فشل فى التكاثر وغاب تمامًا عن الوجود ، فإنه لن يكون له التأثير البيئى الهائل الذى يمكن أن تتركه تغيرات بيئية أخرى ، مثل ضياع حزام الغابات الاستوائية المطيرة ، على مناخ الأرض ..

فهل ثمة شبهة ترف علمى فى هذا الاهتمام العالمى بقضية الباندا ؟ ..

قد يكون الأمر كذلك ، ولكننا لا يحق لنا أن نهمل بعض المعانى الضمنية ..

أليس اختفاء حيوان من الحياة حدثًا يستحق الالتفات إليه ؟ .. وهل نقيس كل اهتماماتنا بمقدار (النفع) الذى يعود على الإنسان مقابل إبداء اهتمامه بقضية ما ؟ . أليس من حقنا ، أحيانًا ، أن نستجيب لعواطفنا فتوجهنا لمد يد العون لمثل هذا الحيوان المسكين فى مأزقه الوجودى ؟ .. ثم إن الباندا أصبح – كما سبق القول – رمزًا لمسألة البيئة .. كذلك فإن قضية الباندا لا تخلو من اعتبارات جمالية وذوقية ، وأخلاقية أيضًا .

من ينقذ الفيل الأفريقى ؟ !

أضيف الفيل الأفريقى إلى قائمة الكائنات الحية المهددة بالزوال من على كوكب الأرض . وقد تمت هذه الإضافة استنادًا إلى الإحصاءات التى تقدر عدد الفيلة الأفريقية التى تعيش حاليًا فى القارة السوداء بحوالى سبعمائة ألف فيل ، وهو عدد يقل عن نصف ما كان موجودًا من هذه الأفيال فى العقد الماضى ، ويتوقع الخبراء أن يستمر هذا العدد فى التناقص ليصل إلى نصف مليون فى خلال السنوات القليلة القادمة .

هذا عن حال الفيل الأفريقى على مستوى القارة ككل ، ولكن الصورة تبدو أسوأ وأكثر مدعاةً للقلق بالنسبة للحال فى بعض البلاد الأفريقية ، وعلى سبيل المثال ، فإن عدد الأفيال فى كينيا وأوغندا قد تناقص بنسبة ٨٥٪ عما كان فى عام ١٩٧٣ .

فما الأسباب التى أدت إلى اهتزاز وجود الفيل الأفريقى ؟

يمكن إجمال الأسباب فى أن هذا النوع من الفيلة يعامل كما لو كان موردًا طبيعيًا غير قابل للنفاد ، ولا يلقى من الرعاية ما يكفل له الحماية والحق فى البقاء على سطح الأرض ، بالرغم من القيمة الاقتصادية العالية التى يتحصل عليها القائمون على استغلاله .

ويسوق علماء البيئة عدة أسباب أدت إلى تدهور أحوال الفيل الأفريقى ، أوضحها وأشدها تأثيرًا النشاط الخفى ، والغير قانونى فى مجال تجارة العاج ، الذى يزيد من قوة تأثيره الطلب الشديد للعاج الأفريقى فى الأسواق العالمية .

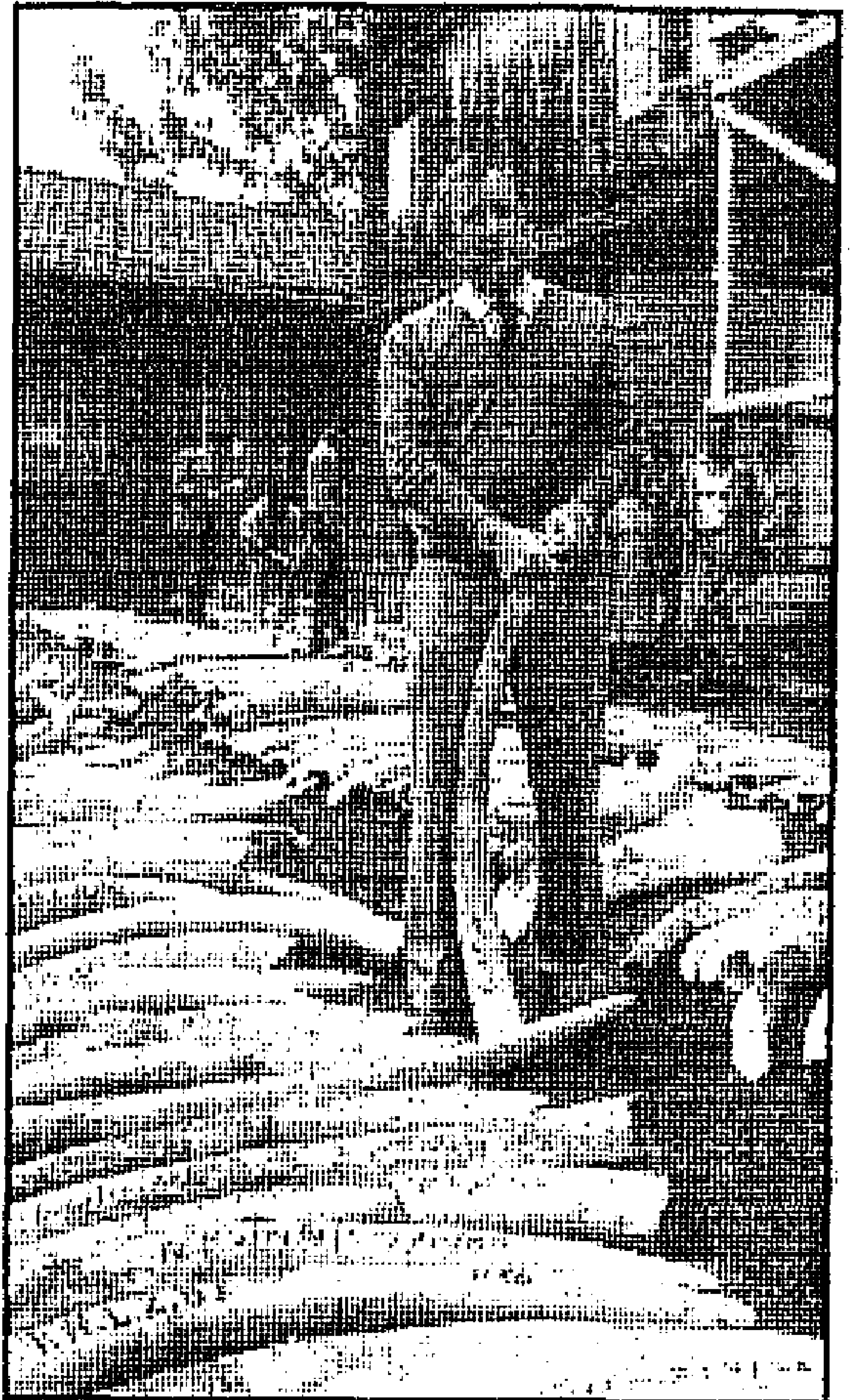
ويشير الخبراء إلى أن الجهود التي تبذل حاليًا لوقف عمليات الصيد غير القانونية وتهريب العاج ، لم تفلح فى وقف مذبحة الأفيال التى تجرى فى مواقع عديدة من القارة الأفريقية ، وذلك لما تدره من ربح وفير على المهربين ؛ إذ أن ثمن بيع الرطل الواحد من العاج يصل إلى مائة دولار فى بعض الأسواق العالمية ، كالسوق اليابانية .

وبالرغم من أن لصوص العاج لا يحصلون – فى نهاية سلسلة المتداولين لهذه السلعة المطلوبة – إلا على قيمة أقل من هذا الرقم بكثير ، إلا أن دخل الواحد منهم من تهريب نابين اثنين لفيل واحد فقط يصل إلى بضع مئات من الدولارات ، ويمثل ثروة حقيقية بالنسبة لمستوى المعيشة المتدنى فى بعض البلدان الأفريقية ، وهل ثمة دافع أقوى من هذا ، ليستمر هؤلاء الخارجون عن القانون فى اصطياد الأفيال وذبحها من أجل أنيابها العاجية الثمنية ؟ .

ويعرف هؤلاء المجرمون طريقهم إلى الأفيال المسنة ، لعلمهم أن تلك الأفيال تحمل أنيابًا أضخم ، وكانت النتيجة أن أجيالاً كاملة من



صورة تسجل وقائع مذبحة للأفيال الأفريقية !



تمت المذبحة .. وها هو تاجر العاج يقف بين كومة من الأنياب ، لا يهمه كم عدد الضحايا من الأفيال دفع حياته ثمناً لانتعاش تجارة العاج والصناعات المعتمدة عليها .

الأفيال المتقدمة فى العمر قد أبيدت تمامًا ، ولم يعد أمام لصوص العاج إلا صغار الأفيال .

يأتى بعد ذلك سبب آخر أسهم فى وضع الفيل الأفريقى فى هذه الحال الحرجة ، وهو تمدد العمران وجوره على الغابات ، حيث البيئة الطبيعية الملائمة لمعيشة الفيل الأفريقى ، وتتفاقم خطورة هذا السبب إذا علمنا أن معدلات النمو السكانى فى عديد من البلدان الأفريقية عالية ، وهذا معناه استمرار تقلص مساحة أرض الأفيال وضيق سبل الحياة أمامها .

وتشكل موجات الجفاف التى تجتاح مساحات كبيرة من القارة الأفريقية إساءة إضافية إلى الفيل الأفريقى ، حيث تحرمه من موطنه ، وتدفعه للبحث عن مأوى جديد يصلح للحياة ، وسط شبكة من الظروف المعاكسة .

وقد تضطر هذه الظروف الفيلة إلى الاقتراب من المناطق الزراعية طلبًا للطعام ، وهذا يتعارض مع مصالح المزارعين وملاك هذه الأراضى ، فيخرجون فى حملات مسلحة (لتطهير) أراضيهم من الأفيال المغيرة التى تتساقط بينها الضحايا .

وتؤكد الهيئات المهتمة بصون البيئة والموارد الطبيعية على ضرورة اتخاذ الوسائل السريعة والفعالة لانتشال الفيل الأفريقى من هذا المأزق

الحرج ، فلا يمكن لأحد أن يتصور حال بيئة الغابة الاستوائية وقد خلت من الفيل الأفريقى .

ويقول الخبراء إن أى جهود تبذل لإنقاذ الفيل الأفريقى لن تنجح إلا إذا كانت فى إطار التعاون الدولى ، والمطلوب فى هذا المجال :

- أن يعاد النظر فى قوانين حماية الحياة البرية ، وأن يتم تحديثها وتشديد العقوبات لتردع اللصوص والمخالفين .

- أن تتخذ خطوات عاجلة وفعالة لصون الغابات الاستوائية المطيرة فى أفريقيا وإلغاء السياسات البيئية الخاطئة التى تضحى بمساحات ضخمة من هذه الغابات من أجل التنمية والنمو السكانى .

- ضرورة رفع كفاءة وفعالية أجهزة مطاردة ومقاومة لصوص العاج .

- ضرورة إعادة النظر فى نظم السيطرة على تجارة العاج فى كل من البلدان المصدرة والمستهلكة له لتقليص حجم التجارة غير المشروعة التى تدفع الأفيال الأفريقية ثمنها غاليا .

- العمل على التقليل من الطلب العالمى على منتجات العاج ، والبحث عن مواد بديلة . وقد يفيد فى هذا المجال نشر الوعى العام بمدى صعوبة موقف الفيل الأفريقى .

ويرى خبراء البيئة أن الأمر يخص كلا من الدول المنتجة للعاج

وتلك المستهلكة له ، فعلى الأولى أن تتبنى البرامج والسياسات البيئية الهادفة إلى حماية وجود الفيل الأفريقى ؛ وعلى الثانية أن تقدم الدعم المالى لتنفيذ هذه البرامج ، فهى مشاركة فى المسئولية بتشجيعها للصناعات التى تعتمد على الأنياب العاجية للفيل ، ولا سبيل للحصول على هذه الأنياب إلا بقتله ، وهى إذ تقدم الدعم المالى لجهود حماية الفيل الأفريقى فإنما ترد جانبًا يسيرًا من أرباح صناعات العاج التى قامت على حساب وجود هذا النوع من الأفيال ، ومن جهة أخرى ، فإن مردود هذا الدعم ، على المدى الطويل ، سوف يكون لصالحها ، حين تعود تجمعات الفيلة الأفريقية إلى حجمها الطبيعى ، ويزول عنها شبح الانقراض الذى يهدد أنواعًا كثيرة من الكائنات الحية .

سلاحف الصحراء فى محنة !

تعيش السلاحف فى الصحراء الأمريكية منذ عشرات الآلاف من السنين ، وتتحمل الظروف الوحشية القاسية التى لا يمكن لغيرها من الكائنات الحية أن يعايشها ، ومنذ قرنين من الزمان ، جاء الإنسان إلى الصحراء ، فانقلبت أحوال السلاحف الصحراوية رأسًا على عقب ، حتى أنها أدرجت فى قائمة الكائنات الحية التى يتهددها خطر الانقراض .

فمنذ أن حل الإنسان بتلك الصحراء بأنشطته وخططه (التعميرية) التى لا تبالى إلا بمصالحه المباشرة ، وتفتقد إلى النظرة المتكاملة التى تأخذ الاعتبارات البيئية فى حسبانها ، منذ ذلك الحين ، بدأت حياة السلحفاة الصحراوية فى التدهور ، فانكمش حجمها خلال الأربعين سنة الماضية بمقدار عشرة بالمائة ، وخسرت درقتها صلابتها المعهودة فصارت رخوة نوعًا ما ، وهكذا ، أتى على السلحفاة حين من الدهر ، فقدت فيه قوة درعها التى كانت سببًا أساسيًا من أسباب منعتها وقدرتها على مقاومة عوامل الهلاك .

لقد بدأ التعدى على (موطن) السلحفاة مع مفتتح القرن التاسع عشر ، حيث وفدت إلى الغرب الأمريكى قطعان الماشية والأغنام ،

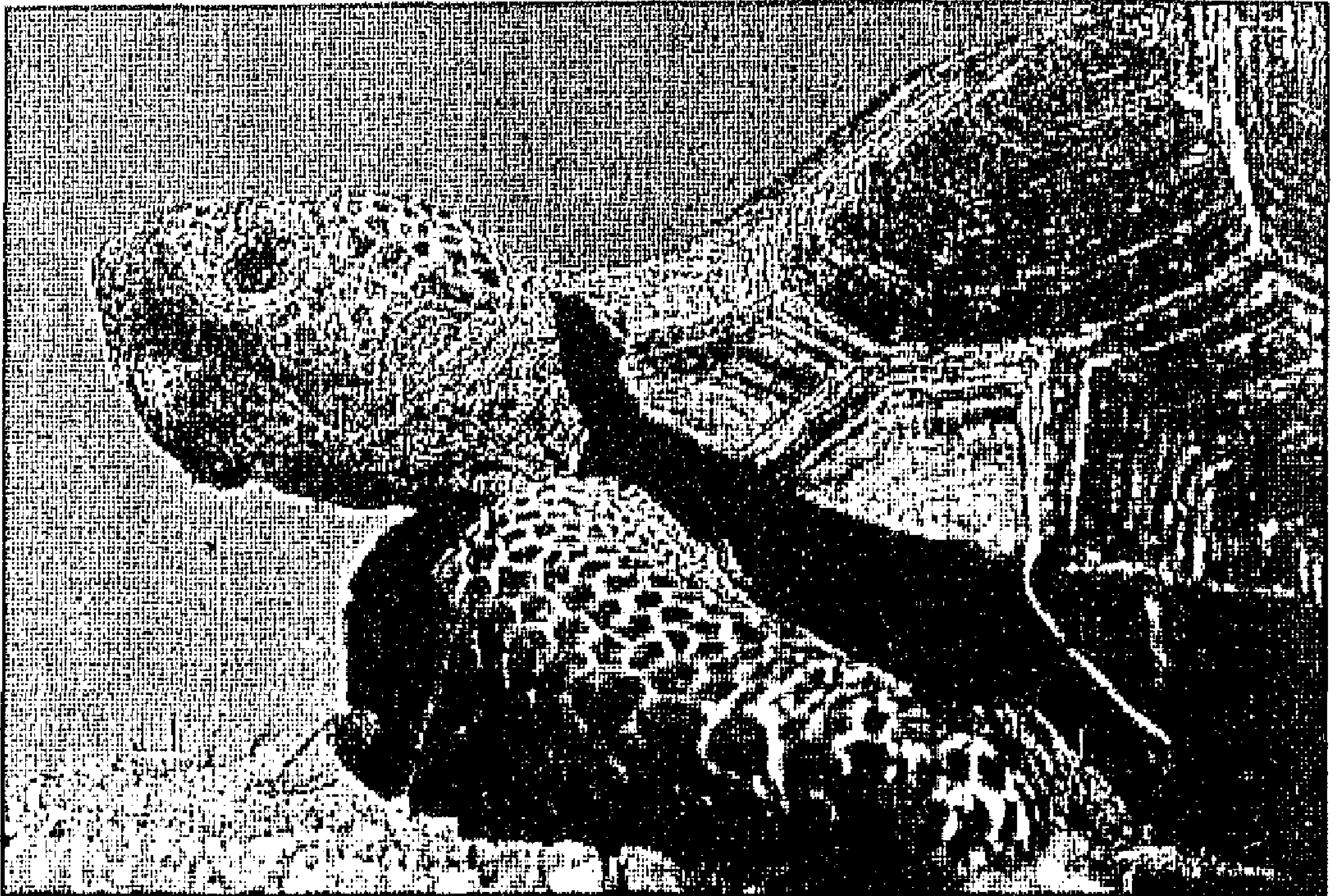
ثم نشطت حركة التعمير ، فبدأ علماء الحياة يلاحظون اعتلال صحة السلحفاة الصحراوية الأمريكية ، وفى السنوات العشرين الماضية ، اجتاح مجتمع السلاحف مرض يصيب الجهاز التنفسى ، أباد أعدادًا كبيرة منها ، مما حدا بعلماء البيئة إلى رفع أصواتهم محذرين من الخطر المحدق بهذا النوع من الكائنات الحية .

واستجاب للتحذير فريق من علماء الحياة فى جامعة (كلورادو) ، توفر بعضه على دراسة أحوال بيض السلحفاة معمليًّا ، بينما اضطلع البعض الآخر بمعايشة السلحفاة فى بيئتها الطبيعية ، ولا هم للفريق كله إلا التوصل إلى الأسباب التى جرّت السلحفاة إلى مأزقها الحياتى الحرج الذى تمر به الآن ، وما صلة ذلك بالانتهاكات التى وقعت فى بيئتها الطبيعية ؟ .

إنك قد تدهش إذا رأيت شخصًا يجلس فى العراء لمدة أربع أو خمس ساعات متصلة يوميًّا ، لا عمل له إلا مراقبة السلحفاة ، وإحصاء وتسجيل كم ونوع ما تزدرده من طعام ، ولكنها الطريقة الوحيدة التى قرر الفريق البحثى اعتمادها فى دراستهم للسلوك الغذائى لسلحفاة الصحراء .

فماذا كان الطعام المفضّل للسلحفاة ؟

إنه العظام ! .



تم الإعلان عن إدراج السلحفاة الصحراوية فى قائمة الكائنات الحية التى يتهددها خطر الانقراض .. فهل تفلح جهود إنقاذها ؟

إن السلحفاة - بطبيعتها - تنسحب إلى تحت درعها إذا اقترب منها آدمى ، ولكنها أصبحت الآن لا تخاف من الإنسان إذا كان فى يده بعض العظام . إنها تشم رائحة العظام فتتخلى عن حذرها المعتاد وتخرج من خبئها ، لتلتهم العظام التهامًا .

ولاحظ العلماء ، أيضًا ، أن السلحفاة تستحب قضم وجرش الصخور الغنيمة بأملاح الكالسيوم .

من السهل أن نربط بين العظام وتلك الصخور ، ثمة عامل مشترك فيهما ، هو عنصر الكالسيوم ، إنه الهدف الذى تسعى السلحفاة إليه ، ليس من الصعب - إذن - استنتاج أن السلحفاة تعانى من نقص عنصر الكالسيوم فى غذائها ، إن ذلك النقص هو المسئول عن الطراوة التى لحقت بالدرقة ، بالإضافة إلى ذلك ، لاحظ العلماء أن عظام السلاحف الميتة مخرّمة وهشّة ، مما أكد إصابتها بأمراض فى عظامها نتيجة لفقر غذائها فى عنصر الكالسيوم .

من هنا ، كان احتفاء السلحفاة بالعظام والصخور الجيرية ، لسد الاحتياج الشديد إلى الكالسيوم - إن الدرقة وحدها تمثّل ٨٠٪ من هيكل السلحفاة ، وتحتاج إلى إمداد مستمر بكميات ضخمة من هذا العنصر الضرورى لتبقى صالحة كقوة دفاعية للحيوان . ويشتد الاحتياج إلى الكالسيوم عند الإناث ؛ فبالإضافة إلى متطلبات الهيكل ، فإن تكوين البيض يستهلك كميات إضافية من الكالسيوم يجب أن

تتوفر لتعطى الأنثى بيضًا قويًا قادرًا على حمل رسالة توالى الأجيال واستمرار النوع فى خريطة الحياة .

وهكذا ، يتسرب كل محصول السلحفاة من عنصر الكالسيوم إلى هذين الاتجاهين : الهيكل والبيض ، ولا يكاد يتبقى شيء لبقية أعضاء ووظائف الجسم ، هنا ، يحدث هبوط حاد فى محتوى الجسم من الكالسيوم ، فتلحق الكسور والتشققات بجسم السلحفاة ، ويصيبها الوهن فتعجز عن التجوال بحثًا عن طعامها ، وتتكاسل عن المنافسة فى موسم التزاوج ، وتتدهور أحوالها العامة ، حتى يدركها الموت .

وفى محاولة لتفسير هذه الظاهرة ، وجد العلماء أن المشكلة ظهرت مع بداية غزو وطن السلحفاة ، حيث جاء (الدخلاء) فقضوا على مساحات شاسعة من النباتات العصارية والأعشاب البرية الغنية بعنصر الكالسيوم ، والتى كانت الزاد الرئيسى للسلحفاة الصحراوية ، لقد حلّت أنواع جديدة من النباتات محل النباتات القديمة ، ولكنها - الجديدة - شحيحة في عنصر الكالسيوم .

فما العمل ؟

إن إعادة إدخال النباتات القديمة الغنية بالكالسيوم إلى الصحراء ليس عملية سهلة ، وقد تأتى - أيضًا - بمشاكل بيئية أخرى .

وجاء اقتراح آخر يدعو إلى (نثر) العظام وقطع من الأحجار الجيرية

فى موطن السلحفاة ، كنوع من العلاج التعويضى ، ولكنه لم ينجح .. فالسلحفاة ليست وحدها ؛ هناك الأرنب البرى ، وهو ، أيضا ، شغوف بمصادر الكالسيوم ، وهو – فوق ذلك – أشد نشاطًا وأسرع بكثير من السلحفاة ، مما يضمن له السبق فى الفوز بمائدة الكالسيوم !

ولا تزال مشكلة السلحفاة الصحراوية تبحث عن حل مناسب ، ويأمل العلماء فى التوصل إلى عون عاجل للسلحفاة ، وهم مطمئنون إلى أن ذلك الكائن ، الضارب بوجوده فى أعماق تاريخ الحياة على الأرض ، لن يستسلم بسهولة ، وسينجح فى تجاوز الضائقة والابتعاد عن حافة هاوية الانقراض .

علمــوا أولادكم صون البيئة

— ارتفاع معدل تزايد سكان الأرض .

— تناقص موارد الطاقة فى العالم .

— اتساع الصحراء وجورها على الأراضى الزراعية (التصحر) .

— تلوث الهواء والمياه والأرض بالمخلفات الضارة الناتجة عن الأنشطة الإنسانية .

— تناقص كفاءة التربة الزراعية نتيجة للنحر وللاستخدام المكثف للمواد الكيماوية (مبيدات أو أسمدة) .

— عجز موارد المياه عن الوفاء باحتياجات الإنسان فى مناطق كثيرة من الأرض .

— تعرض بعض الأنواع من الكائنات الحية النباتية والحيوانية لخطر الانقراض نتيجة للتكالب على استغلالها ، أو لاهتزاز الاتزان البيئى الطبيعى .

— سوء تخطيط وتنظيم الموارد الطبيعية ، والفوضى العامة فى إدارة البيئة الطبيعية التى هيأها الخالق العظيم للإنسان على كوكب الأرض .

... إنها بعض المشاكل البيئية التى تعانى منها البشرية فى الوقت الراهن .

لقد التفت الإنسان – أخيرًا ، ولعله لا يكون متأخرًا – إلى ما جنته يداه ، وإلى ما كان من تهوره وعدم حكمته فى تصريف شئون حياته على ظهر الأرض ، وأصبحنا نطالع ، فى كل يوم تقريبًا ، الأنباء عن جهود صون الموارد الطبيعية وحماية البيئة من التلوث . وهى جهود متزايدة ، ولكن بعض العلماء يراها غير كافية ، فمشاكل البيئة أضخم من أن يهتم بها بعض الحكومات والهيئات ؛ ولا يمكن مواجهتها وإيجاد الحلول لها إلا بتعاون كل دول العالم ، غنيها وفقيرها ، مع عدم الاستهانة بدور الإنسان الفرد فى حل هذه المشكلات .

وقد بدأت الجهود ، فعلاً ، تتجه إلى الإنسان نفسه لتزويده بالوعى البيئى ، ومحو الجهل العام بالشئون البيئية المتفشية بين جانب كبير من شعوب الأرض ، غنيها وفقيرها ، على حد سواء .

ومن أبرز هذه الجهود ، سياسات وبرامج التعليم البيئى التى تهدف إلى محاربة الجهل بشئون البيئة ، وإلى إعداد أجيال من المتعلمين الواعين بمشاكل البيئة والقادرين على المشاركة فى حلها .

فماذا نعنى بالتعليم البيئى ؟

لقد وضع الاتحاد العالمى لصون الطبيعة والموارد الطبيعية تعريفًا للتعليم البيئى ، يشتمل على الخطوط العريضة التالية :

١ – مساعدة الأفراد والجماعات على اكتساب الوعى البيئى والإحساس بالبيئة ككل .

٢ – مساعدة الأفراد والجماعات على اكتساب مفهوم أساسى لمعنى البيئة والمشاكل البيئية ، ومسئولية الإنسان تجاهها .

٣ – مساعدة الأفراد والجماعات على تكوين واكتساب قيم اجتماعية جديدة ، ومشاعر قوية نحو البيئة ، لتكون دافعًا لهم على المشاركة النشطة والفعالة فى صون البيئة وتحسين ظروفها وتطويرها .

٤ – مساعدة الأفراد والجماعات على اكتساب مهارات جديدة تنفع فى حل مشكلات بيئاتهم .

٥ – دعم قدرة الأفراد والجماعات على تقدير الإجراءات والحلول البيئية ، فى شكل معايير سياسية واقتصادية وتعليمية ، وما يتصل بالذوق الاجتماعى العام .

والحقيقة ، أن التصور الحديث للتعليم البيئى قد ظهر فى أوربا فى القرن التاسع عشر ، كرد فعل للتأثيرات البيئية السلبية التى نجمت عن الثورة الصناعية ، كما وردت إشارات إلى ضرورة الاهتمام بالتعليم البيئى فى أفكار بعض علماء التربية والتعليم ، مثل (بستالوزى) ،

و (روسو) ، و (إيمرسون) ، وكان التعليم البيئى واحدًا من أهم برامج بعض المنظمات والهيئات العلمية العاملة فى مجال البيئة ، مثل : الاتحاد العالمى لصون الطبيعية والموارد الطبيعية ، وبرنامج الأمم المتحدة للبيئة .

وقد بدأت أهمية التعليم البيئى تتأكد فى بعض المؤتمرات الدولية التى عقدت فى العشرين سنة الماضية ، مثل :

١ - مؤتمر استوكهولم (عام ١٩٧٢) ، وهو المؤتمر العالمى عن بيئة الإنسان ، وقد بدأ باتخاذ قرار وتوصية بشأن ضرورة نشر الوعى البيئى بين شعوب العالم .

٢ - مؤتمر بلغراد (يوغوسلافيا) ، فى عام ١٩٧٥ .. أصدر المشاركون فى هذا المؤتمر ما سمى بـ (ميثاق بلغراد) ، وفيه تم وضع سياسات وموضوعات وأهداف التعليم البيئى .

٣ - مؤتمر تبيليسى (روسيا) ، فى عام ١٩٧٧ ، أصدر المؤتمر (بيان تبيليسى) ، الذى ضم (١١) مبدأ إرشاديا رأى العلماء ضرورة أخذها فى الاعتبار عند تصميم برامج التعليم البيئى .

٤ - مؤتمر موسكو (١٩٨٧) ، وقد اهتم هذا المؤتمر بدراسة الجهود السابقة فى مجال التعليم البيئى ، ووضع استراتيجية جديدة للعقد التالى ، الذى ينتهى فى عام ١٩٩٧ ، كما اتخذ المؤتمر قرارًا

بإعلان الفترة من عام ١٩٩٠ حتى عام ٢٠٠٠ عقدًا عالميًا للتعليم البيئى .

ومن المبادئ التى يتفق العلماء على ضرورة تحقيقها فى برامج التعليم البيئى :

١ - أنه يجب أن يكون عملية مستمرة ، طول الحياة ، وفى المدرسة وخارجها .

٢ - يجب أن تدرس البيئة ككل ، بما فيها من مكونات طبيعية ، ومكونات من صنع الإنسان .

٣ - يجب أن يكون التعليم البيئى مسئولية كل الجهات القائمة على أمور التعليم ، رسمية وغير رسمية ، وعلى كل المستويات .

٤ - يجب أن يكون متعدد الاتجاهات ، فيشمل كل الأمور والعلوم المتصلة بالبيئة : اقتصاد - سياسة - جغرافيا - صحة - علوم طبيعية - قانون - إدارة ... الخ .

٥ - وحيث أنه تعليم تطبيقى أساسًا ، فيجب أن يكون أكثر اقترابًا من منظور صون البيئة .

٦ - يجب أن تؤكد برامج التعليم البيئى وتوضح ضرورة وجود توافق بين صون البيئة وبرامج التنمية .

أما وسائل التعليم البيئى ، فهى عديدة ومتنوعة ، ومنها :

إجراء الدراسات والبحوث البيئية - تكوين الجماعات البيئية ونوادى البيئة فى المدارس - تخصيص أيام احتفالية للبيئة ، مثل يوم البيئة العربى فى الرابع عشر من أكتوبر - تنظيم مسابقات ومنافسات حول شئون البيئة - التعليم فى الخلاء (فى مناطق الغابات ، أو الصحراء ، أو الشريط الساحلى) - زيارات للمتاحف ومواقع الموارد الطبيعية (مثل المناجم) ، والحدائق القومية - المشاركة فى الأعمال المحلية الهادفة إلى صون البيئة - تجميل أماكن الدراسة والعمل - القراءة فى علوم البيئة - تنظيم ندوات بيئية - تطبيق ومراعاة بعض المبادئ البيئية فى شئون الحياة اليومية ، مثل عدم نثر القمامة فى الطرق ، وعدم الإسراف فى استخدام المياه ، وترشيد استهلاك الطاقة ، ومنع التدخين فى الأماكن العامة .

كيف يقودنا العقد الأخير إلى القرن القادم ؟

هل يمكن أن يكون عقد التسعينيات مختتمًا طيبًا للقرن العشرين ؛ تتخلص فيه البشرية من كل ، أو معظم ، أو – حتى – بعض مشاكلها الضاغطة ، لينتهي القرن نهاية سعيدة ، ويستقبل البشر قرنًا جديدًا من الزمن وقد خلا وجه العالم من البثور وسلم جسمه من الجروح ؟

ثمة إجماع بين المهتمين باستقراء أحوال العالم فى عقد التسعينيات على أن سكان الأرض سيواجهون ، خلال السنوات الثماني المتبقية من هذا العقد ، صفوفًا متتالية من المشاكل التى تستعصى على محاولات الحل ، والتى يتوقعون لها أن تحير مؤسسات صنع القرار فى العالم ، وتجعلها تتخبط فى خططها وسياساتها التى تضعها لمواجهة هذه المشكلات ، ويتوقعون ، أيضًا ، أن تضيف تلك المشاكل إلى مصاعب الحياة أعباء وضغوطًا تفوق قدرة البشر على التحمل ، مما يؤثر بالسلب على دعائم الاستقرار والأمان فى أنحاء عديدة من العالم .

لقد تكاثرت مشاكل البشر خلال القرن العشرين بمعدلات متزايدة حتى أن أحدًا لا يستطيع أن يحصى عدد تلك المشاكل التى ستواجه كافة شعوب العالم دون استثناء ، وتعطب العلاقات والتوازنات الطبيعية

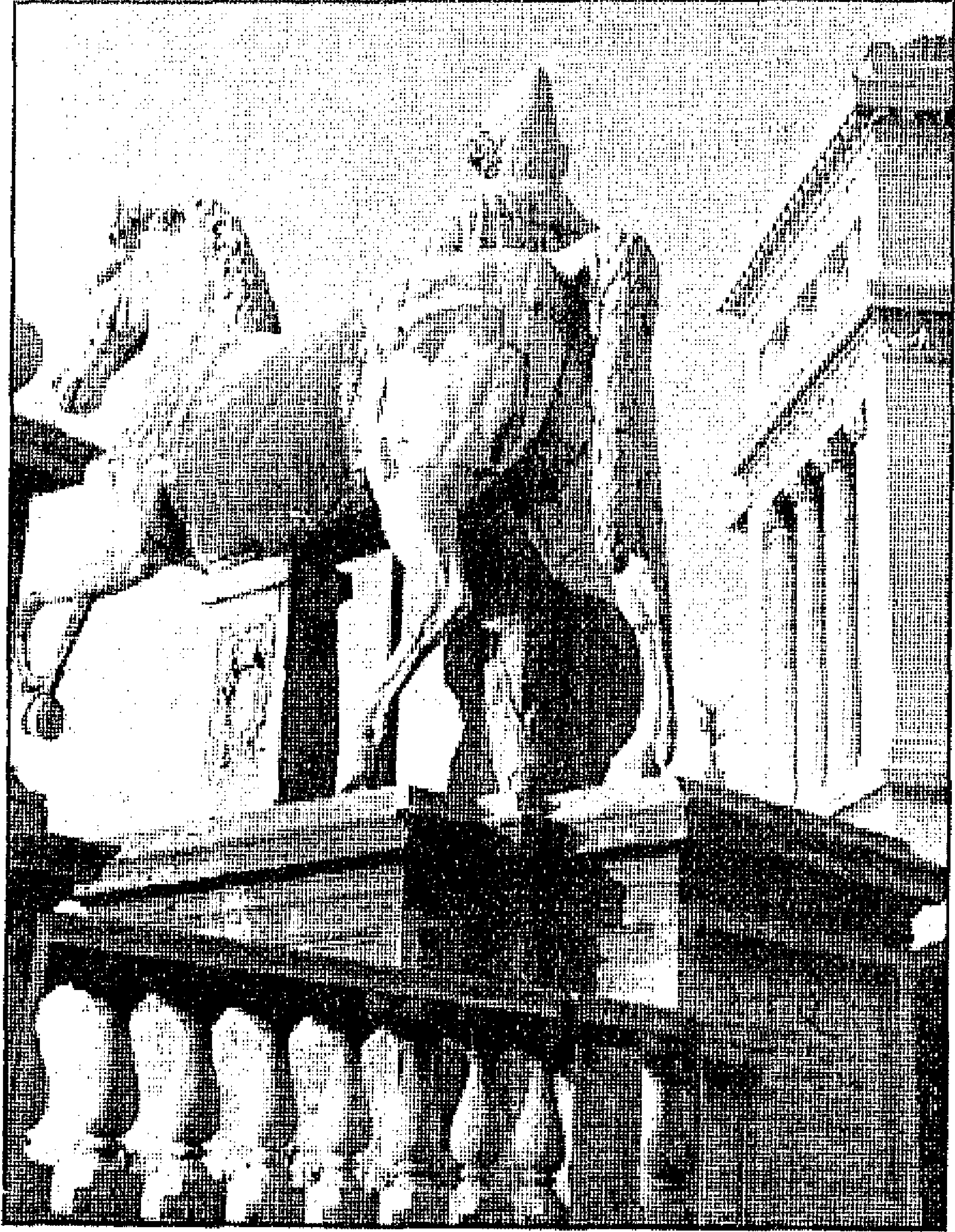
فى العقد الأخير من هذا القرن ، وسوف تبلغ هذه المشاكل درجة من الحدة تجعل من هذا العقد أصعب سنوات مرت بالبشرية منذ ظهر الإنسان على الأرض .

وينظر بعض المهتمين بمستقبل العالم إلى الصورة من منظور مختلف ، فيرون أن مصادر الإزعاج التى تواجه البشر ليست إلا نتاجًا للتقدم ودليلاً عليه فى آن واحد ، فكلما ازداد إدراكنا للكيفية التى يدار بها العالم ، وكلما اتسعت خطوات البشر فى اتجاه تحسين ظروف معيشتهم ، فإننا نجد أنفسنا أمام مشاكل جديدة ، ما كنا لنكتشفها لو أننا قعدنا عن دراسة أحوال عالمنا ورفع مستوى معيشتنا ..

ولا تخلو رؤية هذا الفريق من العلماء من مسحة من التفاؤل ؛ فهذا التيار المتزايد من المشاكل والصعوبات يجب ألا يسلمنا لليأس ، ويجب أن يكون واضحًا لدينا أن كل مشكلة تبرز إلينا يمكننا أن نجد لها الحلول الناجعة .

لقد حاولت منظمة علمية فى بروكسل تسمى (اتحاد المنظمات العالمية) أن تحدد بعض مشاكل العالم فى عقد التسعينيات ، فأصدرت مؤخرًا قائمة تضم أكثر من عشرة آلاف مشكلة عالمية نختار منها :

١ — شبح الحرب العالمية الثالثة .. بالرغم من التحولات الجذرية والمباغتة التى طرأت على أحوال الجغرافيا السياسية للعالم مؤخرًا ،



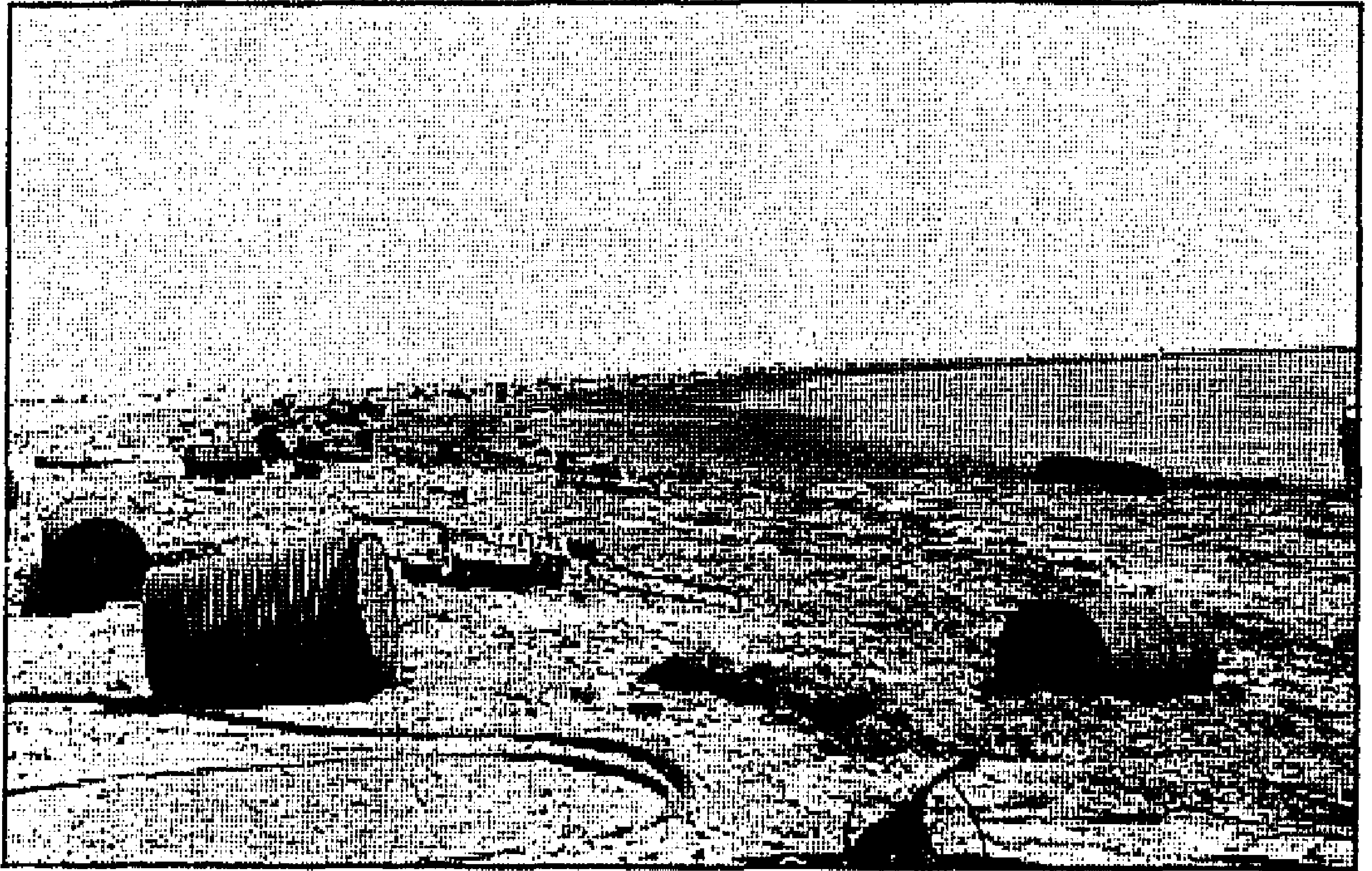
تلوث الهواء بالغازات يهدد الأبنية والآثار
والملامح العمرانية الجميلة فى المدن الكبرى ، بالتآكل !

فإن أدوات وأسلحة الحرب المدمرة لا تزال موجودة ، ويصعب القول بأنها أصبحت لا تهدد العالم بحرب عظمى تالية .

٢ — نمو القدرات النووية لعدد متزايد من الدول ، وقد يأتى يوم تقرر فيه واحدة من هذه الدول استخدام هذه القدرات فى مغامرة عسكرية ، كما أن أساسيات صناعة الأسلحة الذرية لم تعد سرًّا ، ويستطيع الطالب الجامعى أن يحصل على الكثير من المعلومات حول هذه الصناعة فى المكتبات العلمية ، وقد فشل المجتمع الدولى — فيما يبدو — فى إيجاد وسيلة لوقف انتشار هذه الأسلحة المدمرة .

٣ — الإرهاب .. أصبح على الأفراد العاديين أن يدفعوا حياتهم ثمنًا لاختلاف فى وجهات النظر السياسية بين الدول والجماعات والأحزاب ، يتم التعبير عنه بأعمال العنف التى تهدد حياة البشر فى منازلهم ومحال عملهم ووسائل مواصلاتهم ، والعجيب أن تعريف الإرهاب يخضع لاختلاف وجهات النظر أيضًا ، فجانب يعتبره جريمة ، والجانب المضاد يرتفع به إلى مرتبة الأعمال البطولية !

٤ — اندثار ثقافات .. فقد أدت وسائل الاتصال الحديثة إلى تزايد الحاجة إلى لغة عامة يفهمها كل سكان الأرض ، وإلى مصطلحات ومعايير قياسية موحدة يدركها . ويستخدمها الجميع ، وعلى سبيل المثال ، فإن النظام (المترى) قد حل محل الوحدات المحلية للقياس فى



التقط المؤلف بنفسه هذه الصورة
لشاطئ ملوث بالزيت فى جنوب سيناء ...
تحتاج الأنظمة البيئية البحرية إلى تعاون دولى لضمان نجاح جهود صونها .

معظم أرجاء المعمورة ، كما ازداد انتشار اللغة الإنجليزية ، حتى أنها الآن تكاد تكون اللغة العالمية الأولى .

والمؤسف فى الأمر أن ذلك قد يكون ، أحيانًا ، على حساب ضعف بعض الثقافات الوطنية واضمحلال بعضها الآخر ، وقد يكون مصحوبًا باضطرابات سياسية ، وعلى سبيل المثال ، نجد سكان كندا الناطقين بالفرنسية يكافحون من أجل الاحتفاظ بلغتهم ضد طغيان اللغة الإنجليزية .

٥ – من يملك المحيطات ؟

توسعت الأمم فى فرض سيطرتها وملكيتها للمساحات من المحيطات الواقعة أمام سواحلها ، وإذا استمر هذا التوسع بالمعدل الحالى ، فإن البلدان الساحلية ستنتهى إلى الاستئثار بالمحيطات وتقسيمها فيما بينها ، غير عابئة بحق البلدان غير الساحلية فى وجود مناطق من المياه والممرات البحرية الدولية .

صحيح أن ثمة مبدأ تعترف به دول العالم ، وينص على حرية الملاحة فى المحيطات واستغلال مصايدها وكافة مواردها ، ولكن المؤسسات ذات الصلة بهذا المجال تحجم عن استثمار أموالها فى مشروعات لتطوير واستغلال الموارد البحرية طالما أن حقوقها فى المناطق التى تعمل بها لا تحترم .

والمتوقع أن تزداد حدة النزاعات حول ملكية الموارد الطبيعية البحرية فى المحيطات قبل أن ينتهى هذا القرن .

٦ - تلوث الهواء : تفسد المخلفات الغازية للمصانع ووسائل المواصلات الهواء ، وتؤدى إلى مشاكل صحية لملايين البشر ، كما تدمر المحاصيل الزراعية وتشوه المبانى والآثار .

وبالرغم من انتشار الوعى والاهتمام العريض بمشاكل التلوث فى السنوات الحالية ، فإن حالة الهواء فى كل أنحاء العالم آخذة فى التدهور .

٧ - تلوث المياه ، تحمل مياه الصرف بقايا المبيدات الحشرية والأسمدة الكيماوية من الأراضى الزراعية إلى الأنهار ، ومنها إلى المياه الساحلية ، كما تستقبل نفس المسطحات المائية المخلفات الآدمية والنفايات الكيماوية ، فيؤثر ذلك على أنواع الحياة الطبيعية فى الأنهار والبحار ، كما يسىء إلى الأنشطة السياحية .

٨ - اضمحلال طبقة الأوزون ، وهى تمثل درعًا تحجب الأشعة فوق البنفسجية عن سكان الأرض ، وقد تسببت غازات الكلوروفلور كربون فى إضعاف هذه الطبقة ، وهى غازات تستخدم عادة فى أجهزة التبريد ، وكمادة حاملة فى عبوات المبيدات وزجاجات العطور الرشاشة .

ويؤدى ضعف طبقة الأوزون إلى تزايد عدد الآدميين الذين يعانون من سرطان الجلد ومن العمى ، كما يمتد تأثير الأشعة فوق البنفسجية

إلى النباتات فيهلك بعض المحاصيل الغذائية الهامة مثل القمح والأرز والبطاطس .

٩ – ظاهرة الدفيئة (الصوبة الزجاجية) وعواقبها ، يتزايد تركيز غاز ثانى أكسيد الكربون فى الغلاف الجوى ، فيعمل على احتجاز الأشعة الحرارية ، ويمنعها من الارتداد خارج الغلاف الجوى ، مما يعنى التزايد المستمر فى درجة حرارة الأرض ، الأمر الذى يعمل على إذابة الثلوج فى القطبين الشمالى والجنوبى ، وارتفاع مستوى سطح المياه فى البحار والمحيطات ، مما يعنى تهديدًا بغرق العديد من المدن والأقاليم الساحلية .

١٠ – الضوضاء .. شهد القرن العشرون ارتفاعًا واضحًا فى مستوى الضوضاء ، فكانت مسببًا جديدا للتوتر العصبى ولتزايد حالات ضعف السمع ، والعجيب ، أن الأجهزة الموسيقية الحديثة قد انضمت إلى مصادر الضوضاء من الآلات الميكانيكية مثل الأوناش ، والحفارات ، وآلات جز الحشائش ، وقد أثبتت الأبحاث ضعف السمع عند نسبة عالية من الشباب هواة هذه الموسيقى الصاخبة .

١١ – القمامة .. حتى القمامة ، أصبحت مشكلة عويصة ، يحتار أمامها المسئولون عن النظافة وبخاصة فى المدن الكبيرة ، حيث لا يجدون أماكن مناسبة يتخلصون فيها من القمامة ..

١٢ – اضمحلال الموارد الطبيعية ، وأوضح صورة لذلك ، تعرض المصادر التقليدية للطاقة ، مثل البترول والفحم والغاز الطبيعى ، لعمليات استغلال مكثف ، حتى أنها لم تعد تفى باحتياجات العالم المتقدم المتزايدة ، بل أن بعض هذه المصادر على وشك النفاد ، إن ذلك يجعل أسعار الطاقة فى تزايد مستمر ، ولا يجعل المستهلكين مطمئنين إلى توفر الطاقة فى المستقبل ، وللأسف الشديد ، فإن بدائل هذه المصادر التقليدية ، مثل طاقة الرياح ، والطاقة الشمسية ، والطاقة الهيدروجينية ، لا تزال بعيدة عن متناول معظم سكان العالم .

١٣ – تعرض بعض أنواع الكائنات الحية لخطر الانقراض ، إذ تختفى آلاف من أنواع الكائنات الحية النباتية والحيوانية من خريطة الحياة على سطح الأرض ، فى الوقت الحالى ، كما أن آلافًا أخرى معرضة للانقراض خلال عشرات السنين القليلة القادمة .

١٤ – كارثة الإدمان ، ويعانى منها أغنياء الأرض وفقراؤها على حد سواء ؛ ويمكن أن تتميز إلى مشكلات متعددة ، مثل : تعاطى وتهريب المخدرات – تزايد معدلات الجريمة ودخول التكنولوجيا فى مجال الجريمة – مشكلة الأمهات المدمنات – الكحوليات – التدخين والمدخنون .

إن هذا العدد الكبير من مشاكل العالم الذى استطاع (اتحاد المنظمات العالمية) رصده فى قائمته ، يدل على أن العالم يعانى من عدد ضخم

جدًّا من المشكلات يزيد عن العدد الذى ضمته تلك القائمة ؛ إذ أنها لم تركز إلا على المشاكل الضخمة ذات التأثير العريض الذى يشمل العديد من البلاد والأقاليم ، وربما يصل الرقم إلى الملايين إذا تم رصد المشاكل الأصغر ذات الصفة الإقليمية المحدودة .

وبغض النظر عن مجموع المشكلات ، فمن المؤكد أن تزايد عددها يرجع ، فى جانب كبير منه ، إلى التقدم المضطرد فى العلوم الحديثة والتكنولوجيا ، فهذا التقدم يضع أيدينا وأعيننا على مشاكل كانت موجودة أصلاً ، ولكننا لم نكن لنكتشفها لو لم يوفر لنا العلم والتكنولوجيا أدوات هذا الاكتشاف ، وفى نفس الوقت ، فإن هذا التقدم - وهو يعالج المشاكل القديمة - قد يوقعنا فى مشاكل جديدة تتخلق فى عمليات علاج القديمة ، فعنصر الرصاص - على سبيل المثال - يستخدمه البشر منذ عصر الرومان ، ولم تكتشف أخطاره إلا حديثًا ، وبعد أن تعرض له البشر على مدى عدة قرون من الزمان ، ولقد كان الرصاص سببًا فى موت أعداد لا يمكن حصرها من البشر على مدى تلك القرون ، ولكن الصلة بين موتهم واستعمالهم للرصاص لم تكن معروفة .

ومثل هذا الجهل بالأمور معناه أن أجدادنا كانوا يتناولون أطعمتهم وهم مطمئنون ، غير دارين بالمخبوء فيها ، أما الآن ، فإن القلق ينتابنا مع كل لقمة نبتلعها من الطعام ، بعد أن أثبتت

الأبحاث أن أطعمتنا لا تكاد تخلو من مادة أو أكثر من المواد الخطرة على صحة الإنسان ، ابتداء من الكوليسترول والصوديوم إلى المواد المسرطنة ..

كما أن لا أحد ينكر فضل بعض الأدوية والعقاقير الحديثة فى علاج بعض الأمراض التى كانت مستعصية فى الماضى ، ولكن تلك الأدوية أتت معها بتأثيرات جانبية تحمل درجات متفاوتة من الخطورة على صحة المرضى .

وقد أعطتنا التكنولوجيا أجهزة وتركيبات حديثة لتسهيل المعيشة فى المنزل ومحل العمل ، ولكن هذه جاءت معها - أيضًا - بمشاكل وتعقيدات نقل التكنولوجيا فى الدول المستهلكة لها ؛ كما أنها أثرت بصورة أو بأخرى على سلوكيات وأنماط الحياة البشرية ، وأصبحت تمثل - بالنسبة للكثيرين - مصدر أعباء إضافية ، حين يضطرون إلى انفاق المزيد من المال والوقت والجهد لاكتساب مهارة تشغيلها بكفاءة ، أو لصيانتها ..

وهل كنا نعرف شيئا عن (فيروس الحاسوب) قبل أن ينتشر الحاسوب بيننا ويتداخل فى أحوال معيشتنا بهذا الشكل المؤثر ، ويجعلنا فى حالة قلق دائم مخافة أن يتسرب ذلك (المرض) المستحدث إلى أجهزتنا فيشيع الاضطراب فى حياتنا ؟

إن غاية ما نأمل فيه هو أن تترفق بنا تلك المشاكل المستجدة والمتولدة في أرحام المشاكل القديمة ، فلا تكون لها نفس درجة خطورة المشاكل الأمهات !

إن إحساسنا بحدة هذه الأعداد المتزايدة من المشاكل التى تواجه البشرية يأتى - بشكل أساسى - من تفكيرنا المستمر فيها ككتلة واحدة معقدة تجثم فوق صدورنا ، فيصيبنا الفزع ، ويتمكن منا اليأس ، فكل المشاكل الكبرى تبدو كنسيج معقد ، يصعب التعرض لكل منها منفصلة عن غيرها .

وعلى أى حال ، فإن بداية القرن الواحد والعشرين تدق أبوابنا .. ولن نستطيع إلا أن نفتح لها ونستقبلها ، والغالب ، أنها ستجدنا لانزال متعثرين فى تركة أزمات ومشاكل القرن المنتهى ، والمؤكد - أيضًا - أننا سيكون علينا تحمل المزيد من المشاكل المستجدة فى القرن القادم ، ولابد أنها ستكون مختلفة الطابع ، والمؤكد - كذلك - أننا ، أو أبناءنا وأحفادنا ، بإذن الله ، سنكون مضطرين إلى مكابدة الحياة بكل ما فيها .. ولعل أحوال العالم تزداد استقامة ، ويدرك الجميع أنهم يعيشون فى قرية كبيرة ، يصعب على أى من أهلها أن يعيش فيها لنفسه فقط .

المراجـع والمصادر

(ا) فى اللغة العربية :

١ – الأدغال. ارمسترونج سبيرى . ترجمة د . على المرسى . (كل شىء عن) – ١٤ – دار المعارف .

٢ – الأنهار العظيمة فى العالم . أن تيرى هوايت . ترجمة عميد أ . ح . محمد عبد الفتاح إبراهيم – (كل شىء عن) – ١٧ – دار المعارف .

٣ – التلوث. روبرت لافون. ترجمة نادية القبانى – قضايا الساعة – ١ – مؤسسة الأهرام .

٤ – الحشرات الناقلة للأمراض . د . جليل أبو الحب – عالم المعرفة (٥٤) – يونية ١٩٨٢ – الكويت .

٥ – رسالة اليونسكو – العدد رقم ٣١٧ .

٦ – رسالة اليونسكو . أغسطس – سبتمبر ١٩٨٢ .

٧ – رسالة اليونسكو . مارس ١٩٨٦ .

٨ – العربى – ٣٥٦ – سلامة البشرية فى سلامة البيئة .

٩ – العربى – ٣٥٧ – سلامة البشرية فى سلامة البيئة .

(ب) فى اللغات الأجنبية :

1. Discover . July , 1990 .
2. Discover . Sept . , 1990 .
3. Discover . Nov . , 1990 .
4. The Economist . Oct . , 15 , 1988 .
5. The Futurist . July - Sept . , 1988 .
6. The Futurist . Jan . - Feb . , 1990 .
7. Les Poisons du Tiers Monde . Mohamed L . Bouguerra . Science et Societe . Editions La Decouverte , 1983 .
8. Natural History . (8), 1988.
9. Popular Science . Oct . , 1990 .
10. Sea Frontiers . March - April , 1990 .

المحتويات

رقم الإيداع		١٩٩٣ / ٧٧١٥
الترقيم الدولى	977-02-4236-5	ISBN

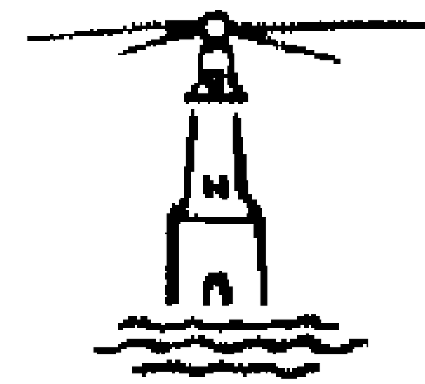
١ / ٩٢ / ٣٤٨
طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

أمام أنصار صون البيئة مهمة شاقة .. وهى الأخذ بيد كوكبنا المُثقل بالأمراض إلى عتبات .. الشفاء .

فما هى هذه الأمراض وما هو العلاج ؟ !

دعوة .. للعمل من أجل إنقاذ الأرض .. شفاها الله .

٤٠٢٦٢٥٦

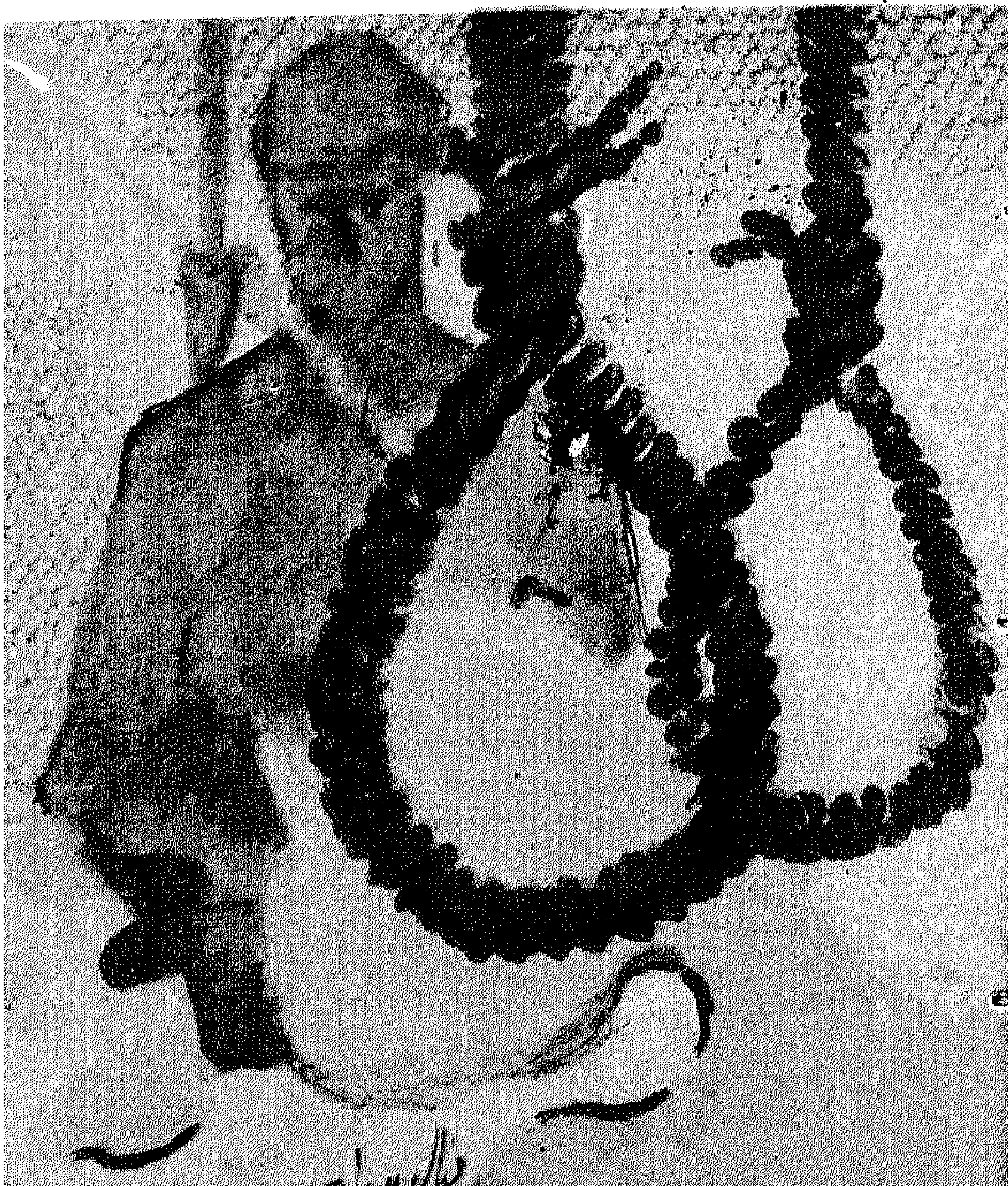


دار المعارف

دكتور محمود متولى

طغاة التاريخ

اقرأ
سلسلة ثقافية شهرية



اقرأ

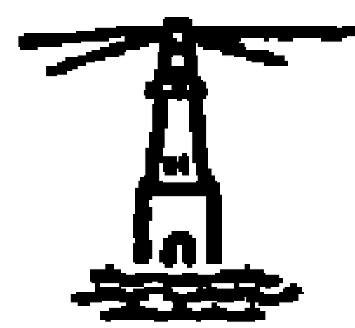
[٥٨٨]

طغاة التاريخ

دكتور محمود متولى

طغاة التاريخ

فاضل



دار المعارف

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها ، لم يفكروا إلا فى شىء واحد ، هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة ، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية . وأن ينتفعوا ، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة ، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى نحياها .

طه حسين

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

مقدّمة

منذ وجد الإنسان على سطح الأرض فى صورته الواعية ، وحركته الدائمة لا تتوقف باتجاه الأمام بغض النظر عما اعتراها من تعثر من انحراف فى هذه الفترة أو تلك وفى ذلك القطاع أو غيره ، وللحركة - كل الحركة - ما لم تقع فى نطاق قانون معين تحاكم وتقيم من خلاله ، فهى شىء آخر ولو كان ظاهرها يضعها فى صورة الحركة .

ولحظات الانحراف فى تاريخ الإنسان رغم امتداد بعض منها إلى نصف قرن مثلاً إلا أنها فى الواقع ما هى إلا لحظات إذا ما قيست بحساب الزمن فى تاريخ البشرية ، لحظات الانحراف هذه هى الفترة التى حكم فيها الطغاة ..

فمن هو الطاغى ، وما تعريف الطغيان ، والواقع أن وجهات النظر تتعارض وتتناقض وخطورة الموضوع تكمن فى :

* **أولاً** : قد يحدث تطور ما فى ظل حكم الطاغية ، وهنا يصعب القول بأن الطغيان تيار عكسى مضاد لحركة التاريخ .

* **ثانيا** : قد يكون الطاغية رغم طغيانه واستخدام الكثير من أساليب الانتهازية فى الحكم محبوبًا من شعبه ، على الأقل الفئات

التى استفادت خلال تواجده فى السلطة وهنا يصعب القول بأن الطاغية مكروه من شعبه ملعون من الإنسانية ولا أحد يترحم على أيامه .

* **ثالثًا** : قد يكون الطاغية وحكمه ضرورة تاريخية تفرضها ظروف المجتمع وبالذات في دول العالم الثالث ، حيث الأمية تسيطر وميراث الاستعمار ، وعدم تواجد مؤسسات للحكم وظهور فكرة البطل والزعيم فى هذه المجتمعات تصبح الأمل الذى تبحث عنه الجماهير ويتمسك به الرأى العام فى هذه البلدان ، ويكون هنا الحاكم حاكما مطلقًا مستنير الاتجاه ولكنه وفقًا للمعايير التقليدية لتعريف الطاغية هو بحق طاغية .

* **رابعًا** : قد يأتى الطاغية بعد فترة من العبث والفوضى والاستهتار بحقوق الشعب من جانب مؤسسات صورية للحكم .

ويظل السؤال الحائر ما هى أبعاد تحديد فكرة ومفهوم الطغيان ؟

ويهمنا أن نفهم من البداية بعض البديهات :

أن الإصرار الجماهيرى الواعى على الانتصار للفكر الديمقراطى ، هو صمام الأمن الوحيد ضد الجنوح نحو الديكتاتورية ، فالإرادة الحرة لشعب من الشعوب هى الضمان لتحقيق إنسانية الإنسان بتجسيد حريته السياسية والاجتماعية وشرعية البقاء فى ظل حرية

الكلمة ، ليس ترفًا يسعى إليه المثقفون وحدهم ، وذلك لأن الإرادة الجماهيرية الأصيلة بعمق التاريخ ، واتساعه ما هى إلا معركة المواطن العادى لتحقيق التقدم والتطور ، والإسهام فى بناء الحضارة من خلال توفير لقمة العيش له ، وحمايته من كل القوانين الجائرة وتمتعه بحقوقه كإنسان له حق الاختيار فى الحياة التى يحياها .

وليس بخاف على أحد أن شعوب العالم ذات المستوى الاقتصادى الواحد تكاد تتشابه فى بعض الخصائص والسمات ، ولكن من المؤكد أن لكل شعب سيكولوجيته وشخصيته من خلال الإطار التاريخى الذى مر به .

وتزاوج الحضارات ومزج الثقافات ، قد يغير من بعض الصفات لشعب من الشعوب ، ولكن يظل القوام الأساسى لتحليل شخصية هذه الأمة نابعًا من تراثها وتجربتها الحضارية .

ومن هنا فإن الشعوب قد تختلف فى تحديد من هو الحاكم الطاغية ، وقد يكون الطغيان معنى الحكم الفردى وقد يكون التمسك بالسلطة مهما كانت الضحايا وقد يكون معنى الطغيان الحكم بدون مؤسسات وبدون برلمان أو بلا دستور لكن من المؤكد أن الطاغية هو الذى يكمم الأفواه ويصادر الحريات ، وتستغل السلطة لصالحه .

الطاغية .. وحركة التاريخ :

إن الطاغية فى حركة التاريخ عمل سلبى يجر الشعوب إلى الوراء ويقف ضد التقدم الإنسانى ، وينشر الأوبئة الفكرية والانحرافات ويخلق التزييف ويبعث على النفاق .

ولكى يتفق كلامنا مع المنهج العلمى ليمكننا معالجة الموقف بأمانة تاريخية لابد من تحديد الإطار الذى يمكن فى ضوئه تعريف الطاغية .

١ – بعد تقويم فترة حكمه يمكن الحكم على ممارساته وسياسته بأنها لم تؤد إلى تطور المجتمع تطورًا حقيقيًّا ، وإلى إعلاء شأن الإنسان وتحليه بمجموعة من القيم الأخلاقية ..

٢ – إلى أى مدى ارتفع مستوى المعيشة خلال فترة تواجده فى السلطة .

٣ – إلى أى مدى تمتعت الصحافة بحريتها ومارست المؤسسات الديمقراطية دورها بأمانة ولصالح الشعب الذى تمثله .

٤ – وأخيرًا ما هو التغير الذى حدث فى عهده بالنسبة لقيمة الإنسان الاجتماعية ؟ ... هل تعرض لمصادرة حريته وسجن أفكاره ؟ ، ما هى صورة التعذيب الذى تعرض له ؟ ، وكم من الظلم وقع فى عهده ؟ .

وفى ضوء هذا المنهج يمكن أن نطلق على ستالين طاغية ، وعلى هتلر طاغية ، وعلى موسولينى طاغية ، اجتمع لثلاثتهم صفتان هما لعنة شعوبهم التى تلحقهم فى مماتهم بصوت عال كما لحقتهم بصوت منخفض فى حياتهم .

وفى ضوء هذا المنهج أيضًا أمكن القول بأن « فرانكو » كان طاغية من نوع خاص وعيدى أمين طاغية أقل شأنًا وروبسبير زعيم الثورة الفرنسية فى بعض مراحلها يمثل صورة الطغيان المتعطش لسفك الدماء ، إن كلمة الطاغية مرادفة لكلمة الديكتاتور ، وكل طاغية يستند إلى فلسفة وعقيدة تسانده وفى ضوئها يرسم خطواته ويحدد استراتيجيته .

غاية الطاغية :

إن شرف الكلمة ومسئوليتها بالنسبة للملتزم بها تدفعنى إلى التأكيد – الآن ودائمًا – أن أى طرح لموضوعات طغاة التاريخ لابد وأن يقع بين ثلاثة حدود :

* **الأول** : ما هى الغاية التى كان يسعى إليها الطاغية ؟

* **الثانى** : ما هو الدافع الذى تصدر عنه هذه الغاية ؟

* **الثالث** : ما هى العوامل التى تتحقق بها هذه الغاية ؟

والملاحظ أن الغاية التى كان يسعى لها - ولازال - كل طغاة التاريخ هو بقاؤهم الدائم فى الحكم واحتفاظهم بالسلطة مدى الحياة ، لا يتركون فرصة لغيرهم ويحاربون كل من يشعرون بأنهم يطمعون للوصول إلى عروشهم ، والدافع الذى تصدر عنه هذه الغاية اعتقاد الطغاة أنهم من طينة غير طينة البشر ، وأن عليهم رسالة يجب أن يؤدوها وأنهم ملهمون من الله ، ويحملون عبء مسئولية القيادة ، وفى ظل هذا الجنون من العظمة يظنون أنفسهم العبقرية الوحيدة ويعتقدون أن ذكاءهم فوق كل ذكاء وغيرهم هم الأغبياء ، من خلال الكثير من العقد النفسية التى تسيطر على اللاوعى داخلهم ، تتضخم ذاتهم ويصبح هذا الدافع هو الذى فى ضوئه يعلنون أن مهامهم لم تنته بعد وأن عليهم إنجازات لابد من إتمامها دون إدراك أن هذه الإنجازات فقدت محتواها .

وبقيت فى هذه المقدمة ثلاث مسائل هى أقرب إلى الأسئلة من أى شيء آخر : هل علاقة السلطة بالمواطن هى التى تحدد أبعاد دائرة الطغيان والإجابة - نعم ... ذلك أن وجود الإنسان - خليفة الله فى الأرض - هو الذى يعطى الوجود معناه ومن هنا كان تقويم أى نظام حكم بما يعود على هذا الإنسان من تطور وتقدم .

والثانى : هل الأحكام التى سوف نصدرها قاطعة ، والواقع أن المؤرخ كالقاضى يحكم وفقًا لما قدم له من مستندات ولا يمكن

لقاض أن يخالف ويحكم من خلال أحاسيسه أو عواطفه ، وهنا يكون الاعتماد على الوثائق مهمة ضرورية .

أما الثالث فهو : لماذا تثار مثل هذه الموضوعات على صفحات الصحف وما الذى يعود علينا من طرح السيرة الذاتية لشخص ويوضع فى قفص الاتهام أمام محكمة التاريخ ولعل الإجابة على ذلك ليس فقط فيما يمكن أن يستفاد من أخطاء الماضى ، ولكن لأن الحاضر بكل ما يحتويه ما هو إلا موجات متدافعة من بحر الماضى ، وكذلك ليس المستقبل بكل ما سوف يحتويه سوى موجات متداخلة من بحر الحاضر .. وهكذا كان التاريخ وسيظل حلقات متداخلة تصنع سلسلة واحدة ، فإذا سقطت واحدة من هذه الحلقات ضاعت حبات السلسلة وانفرط عقدها .. وبضياع السلسلة يضيع التاريخ .

جرس إنذار :

إن دراسة طغاة التاريخ ليست إساءة لشعوب رضخت – رغم أنفها مكممة أفواهها لنزعات الطاغية – ولكنها عبرة تتعظ منها الأجيال وجرس إنذار للشعوب وصرخة تتعالى من كافة أنحاء المعمورة أن انتبهوا ، قبل أن يغمرنا الطوفان .

وبقى أخيرًا أن أقول : إننى لا أريد أن تتحول ساحة هذه المقدمة الصغيرة إلى سرادق للعزاء للشعوب التى اكتوت بنيران الديكتاتورية

من جراء حكم الطغاة ، كما أنها ليست محاكمة تاريخية لهم لنبش الماضى وإثارة المرارة ولكنها فرصة لطرد الغربة من حدائق الأحزان ، وذكرى نرجو ألا تنطوى أو تذوب من مخيلة الجماهير حتى لا تتعثر مرة أخرى ، وحتى لا تساهم فى صناعة الأصنام لتعبدها ثم تقضى بقية عمرها تشكو آلامها من عذاب الضمير من تلك الآلهة ، التى كانت هى السبب فى تواجدها ، ولم تستطع أن تقضى عليها إلا بعد أن دفعت الثمن غاليا .

أ .د . محمود متولى

نيرون

طاغية الرومان

الخيال مهما ينم ويترعرع فهو قزم إلى جانب الواقع الذى إذا عرفناه أخذ بالألباب ، وقد يطير بصواب ذو العقول الخفيفة وأنا على ثقة أنه ليس بين قرائى منهم أحد .

ونحن لا نملك القدرة على أن نبدل الماضى ، ولكن من الواجب علينا أن نفهمه حتى يمكننا أن نقى أنفسنا شرور ما حدث فيها ، وحكم الطغاة لم ينته حتى الآن فى أنحاء الأرض ، نجد ملامحه فى دولة ما ، فى مجتمع ما ، ولا شك أن انتصار حكم الفرد وسيطرة الحكم الشمولى هما عنوان الطغيان ، وعلى العكس فإن انتصار الديمقراطية وظهور دولة المؤسسات وحماية حقوق الفرد فى مواجهة سيطرة المجتمع واستغلاله وفى مقابل حماية المجتمع من طغيان الفرد وسيطرته وهيمنته ، هذا المجتمع مجرد ظهوره يجعل الحزن والأسى ينتاب الشيطان وحاشية السوء وبطانة النفاق والتملق .

وتعتبر دراسة نيرون ، دراسة لشريحة معينة من الطغيان ، لا تتكرر كثيرًا فى التاريخ لما تحمله من شكل القسوة والجحود ، لقد كانت

أيام حكمه عذابًا لا ينسى ولحظات سلطانه ذكريات لا تمحى إلى درجة يمكن القول معها إن التاريخ خجل مما فعله ولأن الشيطان احتقر نفسه لأنه رأى أستاذًا له بين بنى البشر .

هذا الطاغية ، هو « نيرون » إمبراطور الرومان المدلل ، ذو السبعة عشر ربيعًا ، الذى اغتصب الملك ولم يكن له حق شرعى فيه ، وفى الطريق إلى العرش قتلت أمه قيصر روما المدعو « كلوديوس » ولكى يثبت هو نفسه فوق هذا العرش قتل الوريث الشرعى المدعو « بريتنيكوس » ابن الإمراطور كلوديوس ، كما قتل أمه بل اغتال أقرب معاونيه عندما شعر أنهم عقبة أمامه للحكم المطلق ..

ويعد نيرون من أشهر سفاحى الرومان ، من أكبر ممثلى مسرح السياسة العالمية وكان له مظهر برىء لا ينم عن حقيقة الوحش داخله ، كانت له كتفان ناعمتان مستديرتان ولم تنبت على جانبى وجهه شعرة واحدة ويوم أحرق روما بكى عليها وكان صادقًا فى ذلك ، فقد أفزعته النيران وصرخات الأطفال والأمهات ، فلم يتصور أن أوامره لها هذه القوة التدميرية ، ولا أن العذاب له هذا الكورس من الآهات والزفرات .

والواقع أن نيرون لم يكن بدعة ولا شذوذًا فى تاريخ الطغاة الرومان ، ولكنه كان أخلدهم للآثار التى ترتبت على حكمه ولم تُمحَ لما كان لها من الذكريات المؤلمة سواء فى نفوس مسيحيى

الإمبراطورية أو فى ذكرى وثنييها فهى مرحلة حكم فقد فيها الرومان ابتسامتهم ، ونسوا بشريتهم ، وعاشوا منساقين وراء كذبة كبرى عندما اكتشفوا حقيقتها اهتزوا من الأعماق لضياع أعمارهم سدى ، ونسى هؤلاء الطغاة أن الشعوب لا ترحم حكامها إذا فسدوا ، قد لا تستطيع النيل منهم ، ولكنها تتربص لهم حتى ولو رحلوا إلى العالم الآخر ، نعم لم يكن بدعة فهناك طغاة من الرومان حكى لنا التاريخ الكثير عنهم ، مثل كاليجولا وسلا ، ويحاول كل طاغية أن يحمل دورة الزمن على أن تبطىء قليلاً ولكن الحياة رغم أنفهم تسير والزمن يتحرك دون أن يدروا ، لقد كان السفاح الإمبراطور كاليجولا يجد متعة فى شنق نوعية معينة واحدة من البشر ألا وهم الشعراء ، وكان يطلب إليهم أن يرتجلوا الشعر وأن يغنوه وأن يرقصوا ثم يأمرهم بأن يلقوا بأنفسهم من شرفة عالية !! ! ولقد أدت به نزواته إلى اغتياله .

أما سلا » ذلك السفاح الثانى فقد كان حاكمًا مجردًا من روح العطف وذلك سلبه القدرة على التمييز ، ولم يشعر الشعب بأى ولاء نحوه فى فترة حكمه من ٨٢ ق .م إلى ٧٩ ق .م ، وكان ضيق الأفق وخلف وراءه تركة مثقلة بالكراهية .

كان نيرون متخوفًا متخاذلاً ، حقودًا ، قاسيًا يحكم عن هوى ، آمن أن الراعى الصالح هو من يجز صوف غنمه ، لا من يسلخ

جلدها ولكنه خالف هذه القاعدة فى النهاية حيث أحرق عاصمة ملكه ، وهو يتلظى من نيران اللذة ، كانت غرائزه تتراكض فى مسرح كيانه وتتقاتل وتتفاخر وكانت الغلبة لأقواها وأعنفها وأشدها جسارة وقحة .

تولى نيرون الحكم عام ٥٤ ميلادية وظل يحكم ١٤ عاما وأنهى فترة حكمه فى شهر يونيو ٦٨ حيث قتل نفسه ، فكانت الخاتمة الطبيعية لأشرس طغاة التاريخ تعذيبًا لشعوبهم فقد أثار غضب النبلاء لاضطهادهم وأثار سخط الجيش بإهماله شئون الجنود ، وساعد على ثورة الجماهير بتسليمه ذمة الحكم لمحظيته اليهودية « بوبيه » .

كان نيرون متوسط القامة ممتلىء البدن أسمر اللون وضاءه ، وكان شعره مموجًا كثيفًا ، وعيناه زرقاويتين يثقلهما قوس حاجبيه الغزيرين أما أنفه فقد كان رومانيًا نبيلاً ، وأما فمه فقد كان ساخرًا قاسيًا غليظًا يتدلى طرفاه فى شره والتردد واضح على عينيه ، ولقد أدرك علماء النفس تلك العلاقة بين الشكل الخلقى والتصرفات السلوكية الشخصية ، وأظهر ما كان يبدو على محيا نيرون ذلك القلق الدائم والعيون الزائغة والحيرة القاتلة واضطراب النفس ، وتوزع إحساساتها وعواطفها ، لم يتعلم على يد معلم ولم يكن يجيد غير بعض أساليب البلاغة الكلامية استمدها من أحاديث رفاقه المتزلفين المتملقين .

كان نيرون مخلوقًا يتبع قانون اللذة وندائها وكان يهيم حبًا بالشعر والموسيقى وفن النحت ، ويقضى ساعات فراغه تارة فى العزفْ على القيثارة ، وأخرى فى قرض الشعر ، وكانت أمه بثاقب نظرها تدرك أن ولدها لا يصلح أن يكون إمبراطورًا ، ولذا جاءته بالفيلسوف « سنيكا » وبذلت قصاراها فى إنهاض عقله وصقل عواطفه وإعداده للمنصب العظيم على يد ذلك الفيلسوف ، لقد أعجب نيرون بوالدته ، فى الوقت الذى كان يرهبها ويخشاها ، وكانت أمه تعد العدة لكى يرث ابنها عرش الإمبراطورية لذلك فإنها ظلت تتحايل حتى تزوجت من خالها كلوديوس ، رغم مخالفة ذلك للشرائع السماوية وللنواميس الرومانية ، ولكن أمه ظلت تغرى بحيل شيطانية خالها حتى وقع فى حبائلها وانقاد لها ثم خضع تمامًا لرغباتها الشيطانية ، وكان نيرون يجهل تاريخ بلاده ويجهل حدود الإمبراطورية الرومانية التى سيحكمها واستقدمت أمه عراف مصرى عبقرى وتنبأ لها قائلا لها : سيئول العرش إلى ولدك ولكنه سوف يقتلك » فردت قائلة : « ليقتلنى ولكن ليحكم » .

التف حول نيرون مجموعة من الأفاقين يحدقون به ويعظمون شأنه ، ويغدقون عليه آيات الثناء فيكاد يجن غبطة وفرحة ، وهذا الإعجاب المطلق كان طريقه إلى الطغيان وهذا التملق كان أحد

أسباب قسوته وغروره وخيلائه ، ولكن يحسن فى البداية الكلام عن روما قبل نيرون .

قبل ولاية نيرون :

ليس فى تاريخ الإمبراطوريات قديمها وحديثها سوى ثلاث إمبراطوريات كانت كل منها لسوء حظها تعانى من أباطرتها الضعاف وملوكها الباحثين عن مصالحهم دون النظر لمصلحة شعوبهم سوى الإمبراطورية الرومانية ، والإمبراطورية العثمانية ، والإمبراطورية النمساوية ، قد حملت كل من هذه الدول الثلاث على مر الأيام التأكيد لدى كل المراقبين والمحللين أن سقوطها ينتهى بمأساة فاجعة سواء لملاكها أو لشعوبها . وتشابهت ظروف الإمبراطوريات الثلاث فى الإجرام المنتشر ، الذى أحاط بها وطوائف المحظيات والبغايا تعيث فى البلاط فسادًا ، والفوضى الخلقية تضرب أطنابها فى كل أراضيها ، وكان المحاسيب والمتزلفون المقربون للأباطرة والحكام يحكمون بدلاً منهم ويستبدون بالسلطة ويتشحون بذلك المجد الموهوب الذى ينشده كل وصولى ، وأمعن معظم حكام تلك الإمبراطوريات الثلاث فى غيهم وتمادوا فى الجرى وراء شهواتهم وجعلوا من حياتهم سلسلة متصلة من الجرائم ومجموعة نكراء من الدسائس والانتقامات وإهدار الدم البرىء .

ذلك هو المسرح السياسى الذى ظهر فيه « نيرون » طاغية الرومان الأكبر .. ذلك المجنون الذى لا زالت المؤرخين فى حيرة مما فعله بعاصمة ملكه « روما » ، حيث أحرقها هى ومن فيها وجلس فوق ربوة عالية يضحك ملء شدقيه ويلعب ألحانا هستيرية على قيثارته ثم فجأة ينقلب باكيا وكأن ضميره استيقظ نادمًا على هول الجرم الذى ارتكبه فى حق شعبه وبلده ، بل فى الواقع الجرم والإثم الذى ارتكبه فى حق التاريخ .

وفى غضون العام الذى أعلن فيه نيرون وليا للعهد أصيبت الدولة الرومانية بكوارث هائلة أقضت مضاجع الرومانيين وحرمتهم لذة الرقاد وخنقت فى نفوسهم بواعث المرح والسرور وزلزلت الأرض ودفنت جموع كبيرة فى هذا الزلزال تحت الأنقاض ، وقل حصاد القمح ، وفشا الجوع وانتشرت الأمراض وكأن السماء تنذر أهالى روما بالمستقبل الغامض الذى ينتظرهم .

وكانت الحياة فى روما التى عاصرها نيرون ، موزعة بين انتهاب الملذات وارتكاب الجرائم واشباع الغرائز ، وكان سلوك والدته وسلوك الإمبراطور وسلوك أشراف روما ، فى هذه الملذات أحدث فى نفس الشباب أبلغ تأثير وطبع نفسه بألوان التمزق فى الشخصية ، وكان يستطرب الحياة المستهترة الخليعة وانصرف إلى التمتع الجنونى بمختلف الرذائل ، وكان يخادع أستاذه فلا يكاد يبصره حتى يردد

بعض الحكم والآيات الفلسفية فإذا ما خلا إلى نفسه تمرغ فى الوحل ودفن الفضيلة بلا رحمة وكان يعد له معلمه سنيكا مجموعة من الخطب الرنانة والقصائد العصماء ، حيث يقوم بترديدها أمام الأشراف والقواد وخلالها يتضح له شخصية مهزوزة كانت تميل إلى التمثيل والتهريج ، كان يضحك تارة ثم يبكى ، يرفع الصوت ثم يخفضه ، يرسل الصرخة ثم يكبحها متوهمًا أنه والإله سواء .

لما بلغ الـ ١٦ سنة زوجوه بأوكتافيا ابنة الإمبراطور كلوديوس وسنها لا تتجاوز الحادية عشرة وهو زواج سياسى لتوثيق الصلة بين « نيرون » وبين العرش حتى يتسنى لأمه أن تحقق مأربها فى أن يصبح إمبراطورًا .

بدأ حياته السياسية متقربًا لمجلس الشيوخ حيث فرض عليه شخصيته بخطبته التى أعدها له سنيكا وسحر أعضاءه ببلاغة ، وأثار إعجابهم بدفاعه الحار عن المدن الرومانية البائسة ، التى هدمها الزلزال ودمرتها الحرائق وكان يطالب بإعفاء سكان تلك المدن من دفع الضرائب ويدعو لتحرير بعض شعوب الإمبراطورية وينصب نفسه محاميًا عن الضعفاء ونصيرًا لكل بائس محروم .

الإعداد لولاية العرش :

قلنا إن الخطوة الأولى لنيرون للوصول نحو العرش كانت خطيئة كبرى وهى زواج أمه من خالها الإمبراطور كلوديوس ، أما الخطوة

الثانية فهى إبعاد الوريث الشرعى ابن كلوديوس ، وكان يدعى « برتينيكوس » من العرش باتهامه بالجنون والسفه ، وتجيء الخطوة الثالثة بخطبة نيرون من أوكتافيا ، ابنة الإمبراطور كلوديوس ولم يكن عمرها يزيد عن السابعة وكانت رقيقة متواضعة صافية المحيا كالسماء فى روما أيام الربيع .

أما الخطوة الرابعة لتقريبه للعرش فهى محاولة تهذيبه وصقله فعين الفيلسوف « سنيكا » مربيًا له ، وشرع الفيلسوف سنيكا فى التعرف على شخصية تلميذه ، ولم يكد يجلس إليه ويتصل به ويستمع لحديثه حتى هاله ما انطبع عليه الفتى من غرور وخيلاء وزهو فحاول أن يهذب نفسه ويثقف عقله ويروضه على البساطة والتواضع وصدق العاطفة ونبل الوجدان وقوة الإرادة ، ولكنه اصطدم بخيلاء نيرون وباعتداده الجنونى ، ففكر راجعًا وحاق به الفشل ، وبدلاً من أن يستأصل جراثيم الفساد من تلميذه ، اضطر أن يبقى عليها لأن التحدى والتصدى لها سيجعله يعود مرة أخرى إلى منفاه بعيدًا عن روما ، وسيحرمه السلطة التى أصبح يتمتع بها طالما هو قريب من نيرون ومن العرش .

ولم يكن لنيرون غير صديقين من العبيد أحدهما حلاق ، والآخر راقص وكان الأول يعطره ويطيبه ، والثانى يعلمه فنون الرقص ويروضه على القفز والعد ويفسد أخلاقه ، ويسمم عقله بما يقص

عليه من حكايات فاضحة ونوادر شائقة وأخبار وحوادث تلهب المخيلة وتضطرم في البدن نار الشهوة ، وتجرد الإنسان من كل فضيلة وتنزل به إلى درك الحيوان وحضيض الفطرة الأولى .

ونجحت الأم أن تجعل الإمبراطور كلوديوس يعلن تبنى نيرون كخطوة أولى لولاية العهد ، ثم أعلن نيرون وليا للعهد ، وبدأت فروض الولاء والطاعة ومباراة النفاق والكذب للتقرب لنيرون ، ذلك الفتى المغرور الذى أحس أنه يملك كل شيء قبل أن يصبح إمبراطورًا حقيقيًّا بيده السلطة والسلطان .

وأحست الأم تغيرا فى علاقات الإمبراطور كلوديوس بها نتيجة لتدخل بعض العناصر المعادية لها ، ومن ثم لم تلبث أن وضعت له السم فمات لتوه ، وأعلن نيرون إمبراطورًا ، وظنت الأم أن الطريق أصبح سهلاً أمامها لتسيطر وتحكم ، ولكنها لم تكن تعرف حقيقة شخصية نيرون ، الذى كان شريرًا فى لؤم وغدر ، وورث عنها كل الصفات القبيحة عنيف الأهواء فى وحشية وغلظة ، قاسيَ القلب متحجر العاطفة ، أنانى النزعة ، حسى الرغبات ، عابثًا مستهترًا يعيش طوع نزواته ولا يكلف نفسه عناء ضبطها أو إرسالها فى حذر وتوسط واعتدال .

وبدأ الصراع بين نيرون وأمه من أجل الاستئثار بالسلطة والحكم ، ومن سوء حظ أمه أن من كانت تغذى الصراع هى حفنة من

النساء أولها أخت كلوديوس الأميرة « دوميسيا ليبيدا » التى كادت تخضعه لتأثيره ، لولا ثورة أمه التى اتهمت الأميرة بممارسة السحر وانتهى الأمر بإعدام هذه الأميرة ، وقد تضايق نيرون ولكنه لم يكن يملك أن يفعل شيئًا ، فقد كانت الفوضى سائدة وحبل الأمن مضطربًا ومجلس الشيوخ أداة ولعبة كل عضو فيه يبحث عن ذاته ، وجباة الضرائب يسرقون ، والقوانين محتقرة والمحاسيب والأتباع يعيثون فى الأرض فسادًا ويلقون الرعب فى النفوس العامة .

والواقع الذى لا يمكن لأحد أن ينكره أن نيرون فى مستهل عهده كان يرغب رغبة صادرة من أعماق شبابه فى أن يكون منقذ الإمبراطورية وكان يقول « إذا كانت الفضيلة تمكننى من الفوز بإعجاب العالم وإخضاع الأمم والشعوب لسلطانى فلماذا لا أكون فاضلاً ولماذا لا تكون الفضيلة مثلى الأعلى ؟

وليس من شك فى أن نيرون كان فى تلك الحقبة من حياته متأثرًا بحب الشعب له وتعلقه به وروعة استقباله ، فأراد أن يظهر عرفانه بالجميل ، وأن يكون عند حسن ظن الجماهير وأستاذه به ويخطىء المؤرخون الذى يعتقدون أن نيرون كان فى تلك الفترة رجلاً دجالاً منافقًا إذ الحقيقة أن الشعور الطيب كان يملأ نفسه والنية الحسنة كانت ماثلة فى آرائه وأعماله وتصرفاته حتى أنه وقد اضطر يومًا إلى توقيع حكم بالإعدام على أحد رعاياه صرخ قائلاً :

« ليتنى ما كنت أعرف القراءة والكتابة » :

ولكن ما الذى حول نيرون إلى طاغية نسى نفسه ونسى آلهته :

إنه النفاق، والضعف الذى تظاهر به حكام الإمبراطورية له ، والتملق والوضع فى روعه أنه سيدهم جميعًا ، لقد كانت أنظار الكل متجهة إليه والأشراف يتملقونه ، ورجال الدولة يخطبون وده وكانت والدته تلهب فيه بوعودها البراقة نزعة الغرور والكبرياء .

وكانت تقول له هى وأستاذه سنيكا :

« لو أتيح لك ، واعتليت العرش يومًا فاعلم أنك ستقوم بدور إله ، حياة الشعوب وموتها سيصبحان فى قبضة يدك كلمة واحدة منك ، يمكن أن تقر السلم أو تثير الحرب سيحبك الشعب محبة الوالد ولكن سترزح تحت أعباء السلطة لأنك لن تستطيع وأنت تفكر فى سعادة روما أن تفكر فى سعادتك الخاصة ، هذا هو المجد الذى ينتظرك وإنه لمجد جدير بالآلهة » .

الطغيان فى عهد نيرون :

من العجيب أن نيرون سلط طغيانه على الساحة الداخلية ، ولكن الأقدار كانت بجانبه فى الساحة الخارجية حيث حالفه الحظ على تحقيق بعض الانتصارات الخارجية ، وتخليص الإمبراطورية من بعض الأخطار التى حاقت بها .

لم يهتم بإقرار صور العدالة أو الرحمة ، بل كان يسعى دائمًا إلى إذلال شعبه وتسخيره لتحقيق رغباته ، وقد قيل إن نيرون لما عرف عنه من شغف بالتظاهر وولع شديد بتسليط الأضواء على شخصه ، فقد كان أول من أدخل نظام الجوقات التى تدرب تدريبًا محكمًا على التهليل لمقدمه وتحيته بهتافات قصيرة فى نغمات إيقاعية .

تحكم نيرون فى عقائد الأفراد وفى مشاعرهم وإحساساتهم وتعرضت الإمبراطورية فى عهده لشتى أنواع الرذائل والنقائض وتضاعف الانحطاط بانتشار نزعة المحسوبية ، وتفشى الملق والرشوة ونسيان الفضائل التقليدية وزوال روح الدين الذى استحال مجرد رموز لا أثر لها فى حياة الأفراد .

وكانت المسيحية قد بدأت تتغلغل فى أوساط العامة واعتنقها بعض كبار الدولة سرًا وكانت تعمل فى الخفاء ، وتبشر بنزعة روحية جديدة تتعارض مع النزعات السائدة فى الدولة وسميت مملكة نيرون مملكة الشيطان ، وبدأ نيرون يتعقب المسيحيين وما لم تكتبه كتب التاريخ عن اضطهاد نيرون للمسيحيين أكثر مما كتبته أقلام المؤرخين عن اضطهاد دقلديانوس للمسيحيين ، لقد كان نيرون يتعقبهم ويضطهدهم ومن يقع منهم فى الأسر يدخل السجن ثم يقدم طعامًا للوحوش الضارية فى حفلات لاهية ..

ولعل السبب فى ذلك أنه وجد فى هؤلاء المسيحيين ما يمكن

أن يسرى على الناس حيث شاعت الفوضى فى دوائر الحكم وانتشر الرعب بين الناس وعم الاضطراب . ولقد كان من أثر النكبة التى حلت بنفسيته عقب أن اغتال أمه مرة بالسم فنجت وثانية بإغراقها فسبحت حتى وصلت الشاطىء سالمة ، ثم فى المرة الأخيرة أرسل لها مجموعة من الحراس فقتلوها بالسيف دون أن تنطق بآهة ألم ، كان من أثر ذلك أن أحس بوخز الضمير ، ولم يستطع طرد الأشباح التى كانت تحتل ذهنه وتعبث بعقله وتشرده فى أبهاء قصره مختنق الوجه زائغ البصر منكوش الشعر ، يصرخ ويهذى كالمجنون وغمرت روما موجة من الفساد ، فشاع الفجور بين السيدات وفشت الخنوثة بين الرجال ، وأُطلقت الغرائز من عقالها ، وساد حكم اللذة وبات الشعب لا يفكر إلا فى ضروب اللهو وأفانين التمتع ، وتطورت نفس نيرون واستمالت إلى إرادة مرضية فى طلب اللهو عن طريق العنف وإحداث الألم ورؤية الجماهير هائجة وسماعها تصرخ صرخات جنونية محمومة شائنة ، قتل من المسيحيين فى روما وحدها أكثر من خمسين ألفًا قدمهم طعامًا للوحوش فى حفلاته ، وقتل من أعدائه فى أرمينيا التى هاجمها مرتين أعدادًا لا تحصى قدرها البعض بتواضع بأكثر من مائة ألف نفس .

قتل مستشاره الخاص « يورروس » بأن أرسل له طبيبه الخاص الذى دس له السم فى حلقه ، وأجبر الفيلسوف العظيم سنيكا

على الانتحار ، وقتل بريشنيكوس صاحب الحق الشرعى فى العرش ، واتهم زوجته أوكتافيا بالعقم دون أن يقربها بتاتًا ، وكانت أوكتافيا هى بداية ثورة الشعب ضده خاصة بعد أن طلقها ، وتزوج العاهرة بوبية ونادى بها إمبراطورية للرومان وكانت مطامع هذه المرأة سببا فى قتله أمه وفى جعله سفاحًا للمسيحيين ثم فى إحالته إلى رجل معتوه .

الطغيان فى التاريخ فنون وألوان ، والطاغية نيرون صورة مماثلة لحياة البهيمية اللا أخلاقية ، فقد باع كل شىء فى سبيل ، عربة اسمها اللذة ، باع الأصدقاء والأتباع تخلى عن الزوجة والأم ، قتل كل ما هو طاهر فى سبيل أن ينعم بالخطيئة ، كان لابد من نهاية للطاغية تتفق وللذنوب التى ارتكبها من أجل الاستمتاع بالسلطة .

عندما فقد الشعور بالأمن انعكس ذلك على سلوكياته تجاه نفسه وتجاه الآخرين فأصبح لا يحب أن يرى أحدًا آمنا ، وساد الخوف رعاياه وامتلأت السجون بالضحايا وصدرت آلاف الأحكام بالنفى والتشريد والإعدام وطارد الفلاسفة الرومان وأعدم بعضهم ، وزج بالكثير منهم فى ظلمات السجون .

ولم يستطع نيرون إخفاء عوامل ألمه وكبح جماح تصوراته وطرد أشباح ضحاياه من نسج تفكيره فكان ذهنه محاطًا بالأوهام ،

مليئًا بالوساوس يستغرقه التأمل الأجوف وتنهكه الرءوس الدامية وتجرد إحساسه وعقله من كل رجولة وكل إرادة وكل حياة استحال على مر الأيام إلى طفل حانق لا يعرف أسباب حنقه فكان منظره يثير الاشمئزاز ، ويبعث على السخرية ، وتوالت حوادث الاعتقال ، والتنكيل والإعدام وأصيبت أكبر الأسر فى أعز أبنائها وسحقت الارستقراطية الرومانية سحقًا وعمر البلاد الخوف ولاح شبح الموت فوق أرض الإمبراطورية يهدد كل شىء حى ..

وبدأ الإمبراطور يقع فى خطأ يتلوه خطيئة فى حق شعبه ودبر المؤامرات لإسكات كل صوت وثارت الجماهير تحطم رسوم « بوبية » الإمبراطورة الداعرة وتتوعدها بالعقاب العاجل والموت القريب وحاصر الجمهور قصر الإمبراطور وخشى الإمبراطور على نفسه بعد أن انخلع فؤاده من ثورة الشعب وأمر الجيش بطرد الثوار فكانت مذبحة قتل فيها أكثر من عشرة آلاف قتيل ، ولاذ الباقى بالفرار تتعقبه حراب الجنود .

ويهب المسيحيون للدفاع عن أنفسهم فيحرقون بعض أحياء روما ، وعندئذ يأمر الطاغية نيرون بحرق باقى أحياء المدينة بحجة تطهيرها من الفساد والضلال ويظل يغنى على قيثارته ، وهو يرى النيران تسيطر تمامًا على كل أحياء المدينة والناس تصرخ

مستغيثة وما من مجيب ، وضاع بجنون نيرون أعظم تراث تاريخي وأكثر من مائة ألف نسمة فاجأتهم النيران ولم يستطيعوا الهرب منها .

وبدأت ثورة الجيش ضده ، جيش أسبانيا تمرد ونادى بقائده « جلبا » إمبراطورًا وجيش جرمانيا ثار ، ونادى بقائده « كابثيو » إمبراطورًا وجيش أفريقيا ثار ونادى بقائده « مانسو » إمبراطورًا وزحفت جيوش جلبا على روما التى كانت قد أصبحت يبابًا خرابًا تنعى من بناها ، واضطرب نيرون واختلطت أوامره وصار يناقض بعضها بعضًا واستوثق أعوانه من جنونه ، ولما أعماه الغضب والرعب نادى بقتل حكام الأقاليم وذبح قواد الجيش مؤكدًا أن الكل خائنون وأنهم يستحقون الهلاك . وهدد بإلقاء مجلس الشيوخ للوحوش الكاسرة وكان لا يدرى ما يقول لفرط ما برحْ به الجنون واستحوذ الرعب على كل جارحة فيه ، قبل مصرعه كان يفر هاربًا من مكان إلى آخر بعد أن تخلى عنه الجميع ولم يجد ما يأكله سوى قطعة خبز جافة وقدح ماء ولم يجد ما ينام عليه سوى فراش أحد العبيد فتمتم لمن حوله قائلاً : هذا هو المصير الذى انتهى إليه سيد العالم .

وأدرك أن الجنود الثوار يتعقبونه فملكه الرعب حتى أدنى نصل خنجره من عنقه وجبن عن طعن نفسه فقام سكرتيره الخاص الذى

بقى معه إلى آخر لحظة وطعنه طعنة نجلاء انتفض على أثرها انتفاضة فظيعة ثم ضرب الهواء بذراعه اليسرى ثم تحشرج صوته وسالت من فمه الدماء ثم هوى على الأرض ، واصطدمت رأسه بحجر شجه فى اللحظة وعندئذ أعلن عن مصرع الطاغية نيرون وتنفست روما الصعداء ..

جنكيز خان

سفاح الشعوب .. ذو اللحية الحمراء !

مما لا شك فيه أن حكم الطغاة ثمرة تاريخية لغفلة الشعوب وعدم إدراكها لحقوقها وسوء فهمها لتطلعاتها وعجز قدراتها عن تحقيق أهدافها . ولكن أحداث التاريخ لا تجرى دائمًا بما يشتهى المتآمرون ، وليس فى علم التاريخ شىء اسمه المصادفة إذ لكل حدث أسبابه كما أن لكل معلول علة ، والقوى ليس قوى بنفسه وإنما هو قوى يضعف الآخرين ، أن الجبل لا يمكن أن يكون جبلاً إلا إذا كان هناك سفحًا .

وكتب التاريخ تحفل بالوقائع الدامية خلال حكم الطغاة ومن يريد أن يستطلع فظائع هذا الحكم عليه أن يقلب صفحات هذه الكتب ليجد أرقامًا لا تحصى من الضحايا والدماء لا يمكن أن توزن أريقت لأبرياء من رجال ونساء وأطفال ، وجنكيز خان إحدى الشخصيات التاريخية الرهيبة التى تركت بصماتها فى شكل حمامًا من الدم وجماجم من الضحايا وفاقت الشيطان فى أضرارها البشرية ، إنها شخصية جنكيز خان المغولى ، خاقان آسيا وأوربا وسيد السحاب وكبير الأباطرة المغول الرجل الذى ولد وفى قبضته قطعة متجمدة

من الدم ، والذى صرع أخاه عندما أُخذ منه سمكة وقتل عمه عندما شعر أنه سينافسه فى حكم البلاد ، رغم أن هذا العم كان له الفضل فى حمايته ودرء أعدائه عنه .

وبادئ ذى بدء نسأل أنفسنا سؤالاً ، من هم المغول ؟ وما معناها اللغوى ؟ يرى البعض أن المغول كلمة مشتقة من لفظ محلى معناه الشجاع ، على حين يرى البعض الآخر أنها مشتقة من اسم زعيم ظهر فى صحراء جوبى – موطن المغول الأصلى فى شمال الصين – ظهر بين قبائل المغول ولقد كانت الطبيعة هى المعلم الأول للمغول ، حيث كانوا قبائل من الفرسان المترحلين يعيش أفرادها فى خيام ويعتمدون فى طعامهم بوجه رئيسى على لبن الخيول ولحومها وكانوا يمارسون الرعى والصيد ، وابتدأ تدربهم على الشئون العسكرية بثورة على حكامهم فى إمبراطورية « الكن » التى كانت عاصمتها بكين وهى إمبراطورية صينية كانت فى القرن الثانى عشر الميلادى ، وتعلم المغول من الصينيين الشىء الكثير حتى وصلوا إلى درجة من التفوق العسكرى لم يسبقهم إليها أحد ، وكان للمؤرخين عدة آراء حول أساطير وخرافات المغول والإيهام الذى أحاط بنشأتهم وبظهورهم على مسرح التاريخ مما كان سببًا فى الغموض والإيهام الذى أحاط بجبروتهم وطغيانهم ، ولعل أهم صفة التصقت أنهم أهل مكر وخداع ولهم باع طويل فى الخيانة والدهاء .

ظهور المغول :

لعل القوى السياسية التى عاصرت ظهور المغول واستطاعوا التغلب عليها هى التى سهلت مهمة هؤلاء البرابرة المتوحشين لأن التاريخ يعلمنا دائمًا أن سقوط الدول يبدأ من الفساد نتيجة الفوضى وللشقاق وللخيانة التى تتعرض لها هذه الدول ، ولولا أن جنكيز خان وجد حوله قوى سياسية مضعضعة ما استطاع النصر عليها قط ، وأهم هذه القوى السياسية التى نذكرها ويهمنا أمرها بصفة خاصة لأنها دمرت على يد المغول ، وعانت على أيديهم هى دولة « خوارزم » وهى دولة إسلامية كانت تشمل بلاد التركستان ، وشمال الهند وفارس ، وكان يحكم هذه الدولة أمراء من الأتراك وقد أمتد سلطانها إلى مساحة شاسعة بين نهر الكنج ونهر دجلة ولكن هذه الدولة كانت مهملة فى أواخر أيامها وكان الصراع بين حكامها على أشده وأصبحت عاصمتها «سمرقند» مقرًا للمؤامرات وحتى أشهر مدنها هى بخارى ، وخوقند لم تسلم من التمرد والثورة نتيجة لظلم الحكام ، ولعل أبدع وصف لحال حكام خوارزم يمكن أن يستقى مما كتبه جلال الدين السيوطى المؤرخ المعروف فى كتابه « تاريخ الخلفاء » حيث قال :

كان الخلفاء والملوك فى ذلك الوقت ما فيهم إلا من هو مشغول بنفسه ، مكب على مجلس أنسه ، يرى السلامة غنيمة ، وإذا عن

له وصف الحرب لم يسأل إلا عن الهزيمة قد بلغ أمله من الرتبة وقنع بالسكة والخطبة ، أموال تنهب وممالك تذهب ، ولا يبالون بما سلبوا .

باختصار يمكن القول أن أعداء جنكيز خان الذين انتصر عليهم لم تكن تربط بينهم رابطة الألفة أو المحبة أو الانتماء لأنفسهم أو لأوطانهم وكان مبدأ التضحية بالنسبة لهم شكلاً لا عقيدة ولذا لم يلبثوا أن تفرقوا أمام المغول .

من هو جنكيز خان :

يعتبر جنكيز خان من أكبر الغزاة والبغاة الذين بنوا أمجادهم على جثة التاريخ ، ظهر كالإعصار العاصف وعذب البشرية ، وكأنه ينتقم لنفسه ولوالده ، وأحب سفك الدماء الذى قيل أنه كان يحلو له أن يشرب دماء ضحاياه ، ولعل نشأته والظروف التى أحاطت به تفسر لنا تلك القسوة التى اتصف بها ، وكثرة عدد الضحايا الذين سقطوا تحت أقدام جيشه وسيوف جنده والتى يقدرها بعض المؤرخين بأنها وصلت إلى نحو خمسين مليونًا من الأنفس ما بين قتيل وجريح وأسير خلال ربع قرن من الزمان لم تر البشرية أبشع منه على الإطلاق خلال تاريخها الطويل .

ولقد ولد جنكيز خان عام ١١٥٥م ، وهو ينحدر من سلالة ممتازة من المغول هى سلالة « البورشيكون » تلك السلالة التى

تقول قصص المغول وروايتهم أنها تنحدر من سلالة الآلة التى كانوا يعبدونها ، وكان جد جنكيز خان يطلق عليه « كابول خان العظيم » ولما مات هذا الجد تولى والد جنكيز خان زعامة القبيلة والتى كانت تعرف باسم « التمرجى » وكان هذا الأب يدعى « يسوجاى » الحكيم الداهية .. وكان يحلو له أن يتريض على شاطىء نهر « الآتون » حاملاً صقره على ذراعه وذات يوم رأى أحد أعدائه من قبيلة « الماركت » التى تنتمى إلى سلالة أهل « التندرا » الأشداء ومعه عروسه التى كانت تدعى « هولون » ، وكانت جميلة بشكل أطار صواب يسوجاى فاختطفها من عريسها وتزوجها ، وهذه العروس هى والدة جنكيز خان حيث لم يمض على زواجها تسعة شهور ، وكانت قد حملت بهذا المرعب الذى دوخ التاريخ بأفعاله وقيل إنه يوم مولد جنكيز خان انتصر والده على قبائل الماركت هذه بعد غزوة مفاجئة لمقرها وكان ضمن الأسرى زعيم « الماركت » الشجاع ، الذى ظل يقاوم حتى النهاية إلى درجة أعجبت « يسوجاى » ومن ثم عندما بلغ الأب نبأ ولادة ابنه أطلق عليه اسم الزعيم الذى أعجب بشجاعته وهذا الاسم كان « تيموجن » وفى لغة المغول تعنى هذه الكلمة الصلب المتين ، ولقد قيل إنه يوم خروجه من بطن أمه كانت يده تحمل بقطعة كبيرة من الدم المتجمد ، ولما فطمته أمه تغذى على ألبان الخيل والماشية ، وكانت الطبيعة قاسية عليه كما كان الإنسان أشد قسوة مما جعله فى خوف دائم وحذر شديد من كل من أحاطوا

به ، وبدأ يسمع منذ الصغر قصص الحرب وتعلم إجادة الصيد والاشتراك فى حلبات سباق الخيل والمصارعة وقذف السهام وكلف منذ الصغر بحراسة الخيل ورعى الماشية واستكشاف المراعى ، ثم أسندت إليه مهمة المشاركة مع غيره فى مراقبة الأفق من فوق التلال ليخطر القبيلة باحتمالات أى عدوان عليها مفاجئ من الأعداء وكان ذلك يعنى تحمل الآم الجوع والحرمان بضعة أيام والبقاء على حافة الجبل فى ليالى الشتاء القاسية وسط عواصف ثلجية عنيفة ولكن ذلك زاده صلابة وعلمه الصبر ، وقيل إنه كان أمهر رماة السهام بين المغول ولم يفقه فى هذا إلا أخاه الشقيق « كاسار » ، ولقد تميز جنكيز خان – كما هى صفات كل الطغاة – بالذكاء والخبث والمكر والدهاء واشتهر بين أقرانه برسم الخطط وانفرد من دونهم بفكرة رهيبة هى أن الحياة للقوى وحده والموت والاحتقار للضعيف ، لم يتعلم جنكيز خان فى مدرسة ولذا لم يكن يعرف القراءة أو الكتابة ولكنه تعلم فى مدرسة الحياة ، . وكان جنكيز خان ذا عينين رماديتين تميل إلى الزرقة وجبهة عريضة وشعر أحمر مسترسلا جدائل طويلة وراء كتفيه ..

ولعل أول صدمات الحياة التى واجهت جنكيز خان وهو صغير هى موت جده مقتولاً بالسم حيث دس له السم إمبراطور الصين ثم مقتل أبيه غدرًا على يد بعض القبائل المعادية وكانت الصدمة الثالثة هى انتزاع الزعامة من أسرته وتخلى أتباع أبيه عنه حيث

أجمع زعماء القبيلة عقب مقتل أبيه وانتخبوا منهم زعيمًا جديدًا .. وأحس جنكيز خان بثقل الحياة وبدأ يرتعد من المستقبل الغامض ، الذى يحيط به وشعر بصيحات الثأر تردد فى عنف داخله وأحس بالكراهية لأولئك الذين تخلوا عنه بعد وفاة والده وتجىء الصدمة الخامسة عندما يشعر أن أخاه غير الشقيق « بايكتار » يطمع فيه فقام من شدة غضبه بقتله وهنا خاصمته أمه مما أثر على نفسيته تأثيرًا كبيرًا حيث قالت له عقب أن ارتكب جريمته :

« إنك وكاسار – تقصد أخاه الشقيق – كالكلاب الجائعة تنقض عل كل ما تلقاه ، والأفاعى تزدرد ما يقابلها حينا ، والذئاب تنهش ما تصادفه في خلال العاصفة ، أما كان الأولى أن توجه السهام إلى صدور أعدائك » ، وكان خصام الأم الذى طال أكثر من سنة له دور كبير فى نزعات الشر التى شكلت شخصية جنكيز خان فيما بعد ، وتجىء الصدمة السادسة عندما يتمكن أعداؤه من الماركت من أسر زوجته التى كان قد تزوجها من قبيلة « أولوهواود » المغولية وكانت تتمتع بجمال فائق ..ذات وجه نضير ونهد بارز وقد مياس واسمها «يورتاى» ، أسرها أعداؤه وكأنهم يعيدون مسرحية خطف والد جنكيز خان لعروسه هولون أم السفاح ، وإن كان جنكيز خان قد استعاد زوجته فيما بعد إلا أن هذه الحادثة كان لها تأثير سيئ على أعدائه من قبائل الماركت والذين لم يسلموا من سيفه عندما ضحك له القدر وابتسم له الحظ

وتحالف معه ، أما الصدمة السابعة التى أثرت فى شخصيته فهى حصار عدوه اللدود « تارجوناى » زعيم قبيلة « التايدجوت » المغولية لأسرته في الجبال وإجبار أفراد الأسرة على تسليمهم جنكيز خان أسيرًا نظير فك الحصار حيث قيدوه بالسلاسل ووضعوا في رقبته نيرًا ثقيلاً وسجنوه ، ورغم نجاحه فى الهروب فيما بعد إلا أن قسوة أعدائه فى معاملتهم له جعلته يفقد معانى الرحمة فى معاملته للآخرين ولعل هذه الصدمات كلها قد قتلت روح الحياة داخل نفس جنكيز خان وجعلته يشعر بالأنانية المفرطة وأعطته مقاييس عدائية للتعامل مع البشر .

وابتسم الحظ لجنكيز خان بعد أن فر من الأسر وبدأ يجمع حوله بعض الأنصار وكان هربه أسطورة لدى قبيلته مما جعل الكثيرين من الشباب يسعون وراءه ، ورأى هو أن يتحالف مع عمه طوغرل خان حيث كون له جيشًا بلغ ثلاثة عشر ألف فارس أخذ يدربهم على فنون الحرب ويعلمهم أسرارها وشاعت أسطورة بين قبائل المغول تنبئ بخروج عاهل عظيم يوحدهم ويغزو بهم العالم ، وأخذ المنشدون فى كل مكان يتغنون بقرب ظهور هذا العاهل العظيم ، وقد غذى جنكيز خان هذه الأسطورة معلنا أن السر فى ضياع المغول وخضوعهم لغيرهم هو أنهم رُحَّل وأن المغول يمكن أن يسودوا العالم لو اتحدوا وأن القوة وحدها لها الغلبة بين البشر ، وبقواته المدربة دخل جنكيز خان أول معاركه ضد قبائل « التايدجوت » عرفت باسم

معركة المركبات لأنه أتخذ من العربات ستارًا للدفاع عن جيشه وجنوده ولم يكد ينتصف الليل حتى خرج منتصرًا حيث ألقى بزعيم القبيلة « تارجوتاى » وعدوه اللدود فى إناء من الزيت المغلى وقتل كل أسراه ولم تلبث قبائل المغول أن تقدمت عن خوف ورهبة لإعلانها الولاء له وبذا توحدت قبائل المغول كلها تحت قيادته ولما أحس بأنه فى غنى عن تأييد عمه طوغرل خان قام بقتله بلا رحمة وأصبحت كل صحراء جوبى فى قبضة يده وأعلن لمن حوله : « لقد علمنا كبارنا أن القلوب المتنافرة والعقول المختلفة لم تجمع فى جسد واحد غير أنى عازم على تحقيق هذه الغاية بعد فرض سلطاتى على كل من حولى » .

ومضى لتحقيق هذا الهدف تارة بالسياسة وتارة بالكياسة ومرة بالوعيد والتهديد وأخرى بالعهود والوعود وتلفت حوله لأبناء عمومته من التتار حيث دخل معهم فى تحالف ، وبذا تهيأت له الفرصة لتكوين جيش قوى شاعت حوله الخرافات بأنه جيش لا يقهر وأن الأبالسة تحارب معه وأن القسوة تجعل من الأفضل لأعدائه أن يستسلموا له وقد جاء فى وصف هذه الخرافات لجيش جنكيز خان : « أنهم يطعمون لحم البشر ولهم جماجم من نحاس وأسنان من صخر وقلوب من فولاذ ، تقذف أفواههم الحمم وتشرب خيلهم الندى ، لهم أجنحة كالطير » وقد اختلفت تقديرات المؤرخين حول عدد جنوده ، ولكنه بلا شك كان لا يقل عن المائة

ألف وبعد غزوة الصين زاد العدد إلى ما يقرب من ربع مليون جندى .

ليس من المبالغ فيه أن يطلق على جنكيز خان أنه السفاح الأعظم فى تاريخ الجنس البشرى لأنه كان يبيد المدن ويسويها بالأرض وينهب الثروة ويقتل الناس ويجز الرقاب معنويًّا وماديًّا وقد اعتمد على تشتيت عقلية خصمه بمفاجأته ومباغتته وكان وحده يحصل على ثلث الغنائم فى البلاد المفتوحة ويترك الثلثين لقواده وجنوده حيازة كل ما يشتهون .

كانت إمبراطورية الصين هى أول قوة سياسية هرمة سقطت تحت أقدام جنكيز خان سنة ١٢١٤م ولم يمكث جنكيز خان فى قصور الصين ولا مدائنها التى فتحها بحد السيف ووطأتها سنابك خيله بعد أن قتل منهم ما يقرب من نصف مليون لكنه عاد إلى بلاده فى صحراء جوبى واتخذ من مدينة « قرة قورم » عاصمة له ورفع شعارًا لإمبراطوريته « إن فى السماء قوة الشمس أما على الأرض فقوة الخان » وحمل وهو فى سن الثامنة والأربعين لقب جنكيز خان ، أى مبعوث السماء وأصبح هذا الاسم يترجم إلى أنه « أعظم الحكام وإمبراطور البشر أجمعين » ، وانتخب من رعاياه سنة ١٢٠٦م (٦٠٣هـ) بلقب السيد الأعلى ورب القوة والبطولة ، ومقر عاصمته « قرة قورم » ومكانها — الآن — منغوليا .

وجاء الدوز على إمبراطورية خوارزم الإسلامية ، وقد أرسل جنكيز خان بعض رسله إلى الإمبراطور خوارزم ، ولكن هذا بغباء قتل الرسل ، وصحيح أن جنكيز خان كان سيقوم بغزو خوارزم سواء وقعت هذه الحادثة أم لم تقع ، ولكنه بعد وقوعها إزداد مرارة واشتياقًا للانتقام الرهيب ، ولقد وصف مؤرخ معاصر ما حدث للمسلمين فى خوارزم على يد جنكيز خان وذلك المؤرخ هو ابن الأثير فى كتابه « الكامل فى التاريخ » حيث قال : « من يسهل عليه أن يكتب نعى الإسلام والمسلمين ومن الذى يهون عليه ذكر ذلك ، فياليت أمى لم تلدنى وياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيًا منسيًا .. لقد شقوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنة وقتلوا النساء والرجال والأطفال . « وصورة الهجمة الشرسة للطاغية جنكيز على المدن الإسلامية هى أخطر ما قام به الطاغية المغولى فى حياته .

ولن يستطيع قلم أديب برومانسية أو فى شكل الدراما الإنسانية أن يصف ما حدث من قوات جنكيز خان للمدن الإسلامية فى دولة خوارزم ، كما أن ذكر التفاصيل تصيب النفس البشرية بالتقزز والغثيان وتجعل اللعنة تخرج من ألسنتنا لتنصب على قبر جنكيز خان .

لقد دمر المغول بقيادة جنكيز خان مدينتى : لاهور ، ومولتان تمامًا وسويتا بالأرض وتركوا كل شيء يبابًا خربًا ، وكان فتح « بخارى » يومًا أسود فارقت فيه الأمهات أولادهن والزوجات

بعولهن والعذارى آباءهن وأخذن جميعًا لمصير مجهول هو الخضوع لشهوات بهيمية من جند قساة لا تربطهم بالإنسانية رابطة ولا رب لهم إلا الشيطان ، وأحرقت المدينة بأكملها ، وقتل رجالها وترك الأطفال فى العراء مشردين طعامًا للذئاب والوعول ، وحملوا إلى صحن المسجد الكبير فى المدينة عدة صناديق تحوى نسخًا كثيرة من القرآن الكريم ، وداسوها بحوافر خيولهم واحضروا قرب الخمر والمغنيين إلى المسجد ، وأخذوا يشربون ويطربون وكبار رجال المدينة وعلماؤها – قبل أن يقتلوا – يمسكون بعنان الخيل إمعانًا فى إذلالهم وأتوا بعلف الخيول لإطعامها داخل المسجد ، وأمر جنكيز خان بعد ذلك بجمع سكان المدينة وخاطبهم قائلاً :

« إنى نقمة الله على الأرض ، ولابد أنكم تستحقون العقاب لأن الله ساقنى إليكم وهنا أدرك مسلمو بخارى بعد فوات الأوان أن الانحلال والفوضى الاجتماعية وعدم التمسك بشريعة الله هى سبب ضياعهم ، لأنه بلا شك يصدق قول « ومن أعمالكم سلط عليكم » ، ثم قام جنكيز خان بسلب أموال بخارى وكنوزها وطلب من أهلها مغادرة المدينة لا يحملون معهم إلا ثيابهم التى يلبسونها ، ويصف ابن الأثير سقوط بخارى قائلاً : « وكان يومًا عظيمًا من كثرة البكاء من الرجال والنساء والولدان وتفرقوا وتمزقوا كل ممزق واقتسم المغول النساء ، وأصبحت بخارى خاوية على عروشها » ، وحدث لسمرقند ما حدث لبخارى من نهب وسلب

وسبى النساء وقتلوا من لم يصلح للسبى منهن وفى مدينة نسا فى خراسان قتلوا من أهلها سبعين الفًا أما الرى فقد قتل المغول كل سكان المدينة بل وانقلبوا على بعض الموالين لهم الذين سهلوا لهم فتح المدينة والاستيلاء على قلاعها .

مدن الأحزان الإسلامية :

لقد كانت هناك مدنًا إسلامية خربت تمامًا ، وخربت عن آخرها ودمرت جمادها وحيوانها وإنساها على يد جبابرة التاريخ بقيادة الطاغية المغولى جنكيز خان عدو البشرية رقم واحد ، نذكر من هذه المدن مدينة « ترمذ » الإسلامية إحدى مدن دولة خوارزم ، حيث شق المغول بطون كل سكان المدينة الأحياء منهم والأموات بسبب أن امرأة أرادت أن تنجو بنفسها فادعت أنها تملك جوهرة ثمينة بلعتها آملة أن يأخذوها أسيرة حتى تضع هذه الجوهرة ، ولكنهم شقوا بطنها وشقوا بطون كل النساء ورجال وأطفال المدينة ظانين أنهم يخفون كنوزهم داخل بطونهم ، أما المدينة الثانية من مدن الأحزان فهى « مرو » والتى خان حاكمها أهل المدينة ، وقام المغول بتقسيم سكانها ثلاثة أقسام الرجال والنساء والأطفال ثم أجبروا الرجال على الرقاد مشبكون أذرعهم وراء ظهورهم ، ووزعوهم فى شكل حصص على جنودهم حيث قام كل جندى بذبح حصته ، وابقوا على تجار المدينة وكان عددهم ستمائة ، ثم بدءوا تعذيبهم

بأبشع ألوان التعذيب ، لكى يعترفوا عن أماكن كنوزهم وأموالهم المخبأة ، ولم يبقوا من هؤلاء التجار أحياء إلا على أربعة فقط لحاجة الجيش إليهم ، ومن اختبأ من السكان عاش بلا مأوى وبلا طعام أو شراب ، حيث مات جوعًا أو أنتظر موته على يد الذئاب ، التى كانت تشم رائحة الغزو المغولى ثم تكمل عملهم الدنىء حيث تقضى على ما بقى من الأحياء ، وقد لحق ذلك القدر بعدة مدن على التوالى ولما تراءى لبعض السكان فى إحدى تلك المدن إنقاذ حياتهم بالرقاد بين جثث القتلى تنبه المغول لتلك الحيلة التى اكتشفوها على يد أحد الخونة ، ومن ثم صدرت الأوامر بضرورة فصل رءوس الأهالى عن أجسادها عند الغزو ، لقد استخدموا كل حيلة ماكرة وكل طريقة خادعة وكل وسيلة خبيثة لاستئصال البشر .

ومن تلك الحيل أنهم أرغموا أحد المؤذنين من أسراهم قبل أن يقتلوه أن يعتلى المئذنة وينادى للصلاة فخرج من الأهالى من كان مختبئًا ظانًا أن المغول قد فكوا الحصار ، وتركوا المدينة فما كان من الطغاة إلا أن حصدوهم عن آخرهم وبلا رحمة والضحكات الشيطانية تخرج من أفواههم وكأنهم فى حفل عرس .

أما مدينة « باميان » فقد ظلت خالية من السكان لمدة خمس سنوات بعد أن ذبح جنكيز خان كل مخلوق بشرى ضمته جدران المدينة ، وأمر بهدم قصورها ومساجدها ومنازلها وقلع زرعها :

وكان ذلك لأن المدينة قاومت سكان الحصار وجاء سهم إلى أحد أحفاد جنكيز خان الذى كان يحاصر المدينة فأرداه قتيلاً .

وبعد أن أباد جنكيز خان معظم سكان مدينة « هراة » سأل إمامها قائلاً :

« هل يبقى اسمى خالدًا بعد موتى » قال هذا الإمام « يبقى اسم الإنسان ما بقى هناك سكان » .

ولكن إحقاقًا للتاريخ نقول إن سلطان خوارزم لم يقف مكتوف الأيدى – رغم أنه كان السبب الرئيسى فى انحلال دولته – بل قاوم ولكنه لم يستطع فحمل راية الكفاح ولده جلال الدين ولقد أعجب جنكيز خان بشجاعة جلال الدين قائلاً عنه : « سعيد من يلد مثل هذا الابن » .

ولقد اعتاد المغول قبل مغادرتهم أى مدينة إسلامية أن يحرقوا ما تبقى من غلال فيها أو محصولاتٍ أخرى حتى يطمئنوا إلى أن من غابت عنِ رقبته سيوفهم مات جوعًا ، وفى خوارزم وهى آخر مدن الأحزان الإسلامية التى شاء قدرها أن تقع فى يد المغول حاصروها ستة أشهر ، وقد تكبد المغول خلال ذلك الحصار خسائر جسيمة ومن ثم قاموا بعمل بشع حيث فتحوا السد الذى كان يحجز مياه نهر جيحون عن المدينة فسرت المياه لتغرق البلدة ، وتهدمت أبنيتها على من فيها وبقى موضعها ماء ولم يسلم أحد

من أهلها وهكذا تحول مجرى النهر عن طريقه الطبيعى مما حير الجغرافيين مدة طويلة .

لقد كانت حروب المغول الوثنيين ضد المسلمين مذابح بشرية يحركها إنسان معقد نفسيًا وتحكم عقليته المريضة رواسب من الأحقاد والكراهية لكل لبشر ، وكان من تبقى على الحياة بعد تلك المجازر يعيش محطم الروح يختبىء خوفًا من عودتهم وبلغ بالناس الذعر حدًّا جعلهم يخشون مغادرة هذه المخابىء حتى تصل الذئاب لتنهش جثث القتلى .

لم تكن الرحمة ديدنه وطالما حذر قواده أن تعرف قلوبهم الرأفة مع خصومه سبيلاً مؤكدًا إن الطغيان والبطش وحدهما كفيلان بإخضاع أعدائه وإذلالهم وموضحًا لهم أن العدو المهزوم لن يرضى بالخضوع المطلق إلا فى ظل الخوف ، ولكنه نسى أن من السهل أن يغزو الإنسان بحد السيف ولكن لن يمكنه الحكم إلى الأبد بنفس الطريقة ..

ولكن هل توقف المغول عن غزواتهم بعد سقوط إمبراطورية خوارزم الإسلامية .. كلاً بل لقد استمرت الفتوحات فى ميادين أخرى للحصول على غنائم جديدة وكانت الروسيا هى أهم هذه الميادين .

لقد اشتهر جنكيز خان بأنه أحد الفاتحين القلائل الذين نجحوا فى غزو روسيا ولعله بهذا التفوق على زميليه فى الطغيان نابليون وهتلر

اللذان فشلا فى تحقيق ذلك الحلم ، لقد اندفع جنكيز خان نحو بحر قزوين ، ثم جوبا ، حتى لا هور وانطلقت جحافله نحو الروسيا ، ولما تصدت له قوة روسية آتية من « كييف » أبادها جنكيز خان نهائيا بل لقد أسر غردندوق « كييف » نفسه ، وهكذا ظهر المغول على الشواطىء الشمالية للبحر الأسود ، وذعرت القسطنطينية ، ولما حاولت روسيا جمع جيشها من جديد بلغ تعداده حوالى ٨٢ ألف مقاتل لم يستغرق إبادته من الخان أكثر من أيام فقط بعدها دانت كل روسيا تقريبًا لجنكيز خان ، بل لقد واصل المغول فيما بعد زحفهم حيث استولوا على بولندا ونهبوها وأيضًا المجر ..

وفى آخر غزوات جنكيز خان .. قتل فى معركة واحدة فى منطقة الصين الغربية نحو ثلثمائة ألف رجل .

المؤرخون . . وجنكيز خان :

من البداية نحن لا نتفق مع وجهة نظر بعض المؤرخين العسكريين إلا فى بعض النقاط التى منها :

١ – أن جنكيز خان استخدم الكثير من التجار والمترجمين فى أعمال الجاسوسية وأنه أول من أنشأ فرق العاصفة فى التاريخ والتى أهم وظيفة لها الضربة المفاجئة للعدو ولقد عرفوا عن أعدائهم أكثر مما عرف عنهم أعداؤهم .

٢ – أن انتصارات المغول تعود إلى أنهم تعلموا من أخطائهم وإلى أنهم تعلموا وتربوا فى عالم التجربة اللا محدود وحصلوا على زاد من المعرفة العملية التجريبية .

٣ – أنهم توارثوا حكمة قذف أولادهم إلى سفينة الحياة .

٤ – أن جنكيز خان استعان بمجموعة من المستشارين العسكريين أفادوه تمامًا ورسموا له الكثير من الخطط العسكرية .

ونحن لا ننكر أن أعمال جنكيز خان من حيث الإدارة والحكم والقيادة لازالت سرًّا لم يمط اللثام عنه حتى الآن ولغزًا يحتاج إلى كثير من الدروس والبحث والفكر العميق ولكن لم نستطع بأى حال من الأحوال أن ننكر عليه شدة حراسه وحدة ذكائه ولكن أيضًا فلنسمع ونقرأ ما يقوله عنه الجنرال الأمريكى « دوجلاس مكارثر » الذى اشتهر باسم قاهر اليابان فى الحرب العالمية الثانية .. قال : « ولو محيت جميع أخبار الحروب من صفحات التاريخ ما عدا أخبار جنكيز خان لبقى لرجال الحروب معين لا ينضب من أنفس المعلومات عن تعبئة الجيوش وتنظيمها ، ومهما تغيرت أسلحة القتال فلابد من الرجوع إلى الماضى ومطالعة كتب التاريخ ليحذق الجندى فنون الحرب ومبادئها الأساسية التى لا تتغير ولن تجدها ممثلة فى غير مسيرة إمبراطور المغول منذ سبعمائة عام .

رأى صينى :

ويرى الكاتب الصينى « ف . يان » حامل جائزة ستالين للسلم » أن من الخطأ الشائع أن يقال إن جيش المغول كان جيشًا من الهمج يهاجم كما تهاجم قطعان الذئاب بلا نظام ، والحق أن جيشهم كان منظمًا تنظيمًا دقيقًا يفوق غيره من الجيوش وكان لتخاذل أعدائهم وانحلال الملوك من حولهم والغرور وجو الملق والضعف الذى انقسموا فيه والفساد والترف سببًا مساعدًا على انتصار جنكيز خان .

ونحن وإن كنا نتحفظ على الجزء الأول من كلام الكاتب الصينى إلا إننا نتفق معه تمامًا فى الجزء الثانى من عباراته ، والذى لا شك فيه أن جنكيز خان نجح فى استقطاب قادة جيشه ، أخلصوا له ونفذوا أوامره ، نذكر منهم سابوتى الحكيم الذى قال عنه المؤرخ الحربى ليدل هارت إنه أعظم القادة العسكريين فى التاريخ كله وسماه المعصوم من الخطأ وتكلم فى كتبه عن معاركه الظافرة فى إيران ، وجورجيا ، والقوقاز وجنوب روسيا ، وبلغاريا وكان ضمن قواد جنكيز خان « موهولى » المحنك « وشبيه نويون » النارى المدفع وبرشو الأمين ، ولكل منهم فى ساحات القتال سجل رهيب من الإرهاب والقسوة وسفك الدماء .

ولا يفوتنى هنا أن أذكر أنه تظهر فى حياة كل طاغية شخصية معاونة تدفعه إما إلى مزيد من السلبيات ، أو تحاول

أن توقفه عند حدود لا يتعداها فى طغيانه أو أن تهيىء له القيام ببعض الإيجابيات ، ولقد كانت شخصية « بليو تشوتزاى » هى اللمحة الإيجابية فى حياة جنكيز خان ، وهو سياسى محنك كان فى خدمة إمبراطور الصين ووضع نفسه فى خدمة جنكيز خان ، وقد استطاع هذا السياسى أن يروض نسبيًا من شراسة المغول وقيل إنه أنقذ من التدمير مدنًا لا تحصى ومنتجات قيمة لا حصر لها ، ودأب على جمع السجلات والمخطوطات والنقوش إلى درجة جعلت بعض المؤرخين يطلقون عليه أعظم أبطال السياسة فى التاريخ ، ولقد كان « بليو » عبقرية جريئة إلى جانب عبقرية سياسية ، ويعزى إليه الفضل فيما استمتعت به الأداة الحربية المغولية من قدرات خاصة .

نهاية الطاغية :

فى عام ١٢٢٧م توفى جنكيز خان عن ٧٢ عامًا بعد أن امتدت إمبراطوريته من المحيط الهادئ إلى نهر الدنيبر على أنها شأن كل الإمبراطوريات التى أسسها الرحالة الرعاة كانت قبل كل شيء إمبراطورية عسكرية وكانت هيكلاً وإطارًا أكثر منها نظام حكم وكانت تتمركز حول شخصية العاهل أكثر من أى شيء آخر وكانت علاقتها بجموع الشعوب التى حكمتها علاقة ضرائب تجبى فقط .

لا ننكر أنه كان بسيطًا فى حياته ولم يكن يميزه عن رجاله سوى قرط ثقيل من الذهب ، يتدلى من أذنه وحصانه الأبيض ورايته البيضاء ، التى جعلها عنوانا لسطوته وسلطانه وعليها ذيول تسعة وعول ، ولم يعرف عنه الإسراف فى طعام أو ملاذ وقد أثر عنه قوله : « إياك .. إياك .. وشرب الخمر أكثر من ثلاث مرات فإن استطعت فمرتين أو مرة ، ويحسن إذا لم تذق الخمر على الإطلاق » ، وإذا كان لجنكيز نسبة فضائل فإنها لا تتعدى ٢٠٪ من تكوين شخصيته ، والبقية كانت كلها قيما مرفوضة من عدالة السماء ومن قوانين الرحمة ، لقد كان عنصريا حيث قال : « إن غاية ما أتمناه هو رفع شعبنا إلى مرتبة السيادة على العالم » وقال عن نفسه « فلينحب العالم لكى يسعد جنكيز خان » « ... » يحيا السيف ... تحيا الحرب ويكفى أن نقول إنه كان معقدًا نفسيًّا مليئًا بالكراهية وحب سفك الدما .. وأثناء مرضه الذى أدى به إلى الموت أمر بتدبير مؤامرة لقتل ألد أعدائه عندما كان فى زيارته ولم يحترم وعود الصلح ولا كلمة الشرف لتوفير الأمان له ، وهكذا من طباع الطغاة وصفاتهم الغدر والأنانية .

مات وهو يحس بالوحدة والألم والحزن على ولده البكر الذى توفى فى براری روسیا ، ویکاد الرحالة الإيطالى ماركو بولو وحده دون جمهرة الكتاب الذين أرخوا لجنكيز خان هو الذى ينفرد

بالقول إن الخان قد مات متأثرًا بجراحه عقب إصابته بسهم فى ركبته أثناء حصاره لإحدى القلاع فى إقليم « سونج » الصينى ولكن معظمهم يجمعون على إن موته جاء إثر مرض أضطره للاعتكاف فى خيمته وذلك حزنًا على أن ابنه مات قتيلاً بيد أخ جنكيز خان أى أن العم قتل ابن الأخ ، مات جنكيز خان واستغرقت عملية دفنه نحو مائة يوم فى جبل « الطاى » وقتلوا كل من صادفوه من إنسان أو حيوان وهم فى الطريق إلى دفنه من منطلق عقيدتهم التى تقول إن كل من يقتلونه يصير خادمًا للراحل فى الحياة الأخرى ، ويقال إن قبيلة بأكملها قد عفيت من الخدمة العسكرية أنيط بها مهمة العناية بالمقبرة وأن البخور ظل يحترق بلا انقطاع .

لقد عاش جنكيز خان حياة مليئة بالدسائس والقلق والتآمر ، لم يصادق أحدًا ولم يثق فى أحد ودفع ثمن جزء صغير من آثامه وأخطائه وخطاياه ، ولكن مما لا شك فيه أن الشياطين كلها حزنت وأعلنت الحداد على فراقه ، ولكن أيضًا فإن البشرية قد ارتاحت منه وستظل لعنة التاريخ تلحقه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيًا .

الحجاج بن يوسف الثقفى

طاغية بنى أمية

تظل الشعوب الخاضعة للطغاة تحلم بيوم الخلاص وتنتظر الفجر ، لأنها تؤمن بأن الظلام لا يدوم وأن الظلم مهما طال فهو قصير الأمد فى حياة الأمم والدول والمجتمعات .

والحجاج بن يوسف الثقفى شخصية من لون جديد لم يكن على عرش دولة ما ، ولكنه كان أقوى من الجالس على العرش ، وأطغى من المتحكم فى السلطة وأطغى من صاحب الصولجان ، إنه الحجاج بن يوسف الثقفى سيف بنى أمية على أعدائهم والذى قال عنه الحسن البصرى - شيخ الإسلام الذى بلغ فى العلم والتقوى حدًّا جعله أشبه التابعين بالأنبياء - قال عن الحجاج :

«يا أخبث الأخبثين وأفسق الفاسقين ، أما أهل السماء فمقتوك وأما أهل الأرض فغروك ، أبى الله تعالى للميثاق الذى أخذه على أهل العلم ليبينه للناس ولا يكتمونه » .

ومن النادر أن نقرأ كتابًا فى التاريخ الإسلامى إلا وجدنا للحجاج فيه ذكرًا كثيرًا أو قليلاً ، هذا الرجل خرج من سواد الأغمار إلى

ضوء القيادة والرياسة والحكم والشهرة وأصبح بفضل ملكاته وحدها من سادات عصره وأصحاب القول فى شئون الجماعة الإسلامية على أيامه .

وكعادة معظم الطغاة ، فإن أفعالهم وأعمالهم وانفعالاتهم وما يورثه ذلك لهم من الأمراض فإنه يموتون فى سن مبكرة ، هكذا مات نابليون وهكذا مات أتاتورك ، وهكذا مات روبسبير ، وهكذا مات نيرون ، نعم لقد مات الحجاج وهو لم يتجاوز الثالثة والخمسين .

عاش أعظم أحداث الدولة الأموية ، ووقع فى أخطاء اشتد نقد أهل عصره لها ولكنه لم يعبأ بشىء لا بأعراض الناس ،ولا بالهزائم والنكسات التى ألمت به بل سار فى طريقه ، الغرور يعميه والثقة المفرطة تجعله غير هياب لكل ما أحاط به من نوائب الدهر وقساوة الزمن مما كان سببًا فى غضب الناس عليه ووضعه فى عداد الجبابرة الطغاة .

كان الحجاج ذكيًا فطنًا ، ووضع نفسه فى خدمة الدولة الأموية مؤمنًا بأن خلافة بنى أمية خلافة شرعية ، ورغم أنه كان يرى نقائض بنى أمية وأخطاءهم إلا أنه كان يراهم أفضل وأقدر من العلويين من منطلق إن الخلافة مسئولية وليست وراثة لأن الكفاية وحدها تعطى الحق .

وكان جمهور المسلمين غير راض على خلافة بنى أمية إذ أن معظمهم كان يرى أن بنى أمية اغتصبوا الخلافة ، وأنهم يعتمدون

على القوة العسكرية لتثبيت حقوقهم وفاتهم أن الملك لا يقوم على القوة إلى ما لا نهاية وأن القوة لا يمكن أن تدوم إلى الأبد وأن العنف لا يحل المشاكل الداخلية ، لأن الطغيان يزيدها تعقيدًا ولا سبيل لحل المشاكل الداخلية لأن الطغيان يزيدها تعقيدًا ، ولا سبيل لحل المشاكل إلا بالتعاون بين الحاكم والمحكوم من خلال جسور الثقة والعدل .

وأسوة بكل الطغاة ، تولى الحجاج الحكم دون سابق تجربة أو علم فانصبت على رأسه لعنات الشعب ، ولم يعرف الحجاج غير لغة السوط ولسان القوة وأسلوب العنف للتحايل على الناس ، وللتعامل مع المحكومين ولم يفكر مطلقًا فى استخدام شىء من التفكير وحوار العقل وقد عاش الحجاج عصرى عبد الملك بن مروان ، وولده الوليد بن عبد الملك ونجح الاثنان فى اتخاذه مخلب قط لينعما هما بالسلطان .

من هو الحجاج :

من أبرز رجالات ثقيف الذين لعبوا دورًا بارزًا فى التاريخ الإسلامى بوجه عام ، وفى تاريخ بنى أمية بوجه خاص ، وقد ظل طوال ربع القرن يحتل مكانة الرجل الثانى بعد الخليفة فى الدولة الأموية ، وقد ولد الحجاج عام ٦٦١م وتوفى عام ٧١٤م (أى ٤١ –

٩٥هـ) ، ولاشك أن شخصية الحجاج قد تأثرت إلى حد ما بالعصر الذى عاش فيه ، ذلك العصر الذى شهد الكثير من عوامل الفرقة والتمزق والخلاف والانقسام والعصبية القبلية موجودة ، تلك العصبية التى كانت إحدى الصفات الرئيسية لكيان العرب السياسى قبل الإسلام لم تختف فى صدر الإسلام وإن كانت قد خفت حدتها مؤقتا لتعود قوية مؤثرة خلال العصر الأموى ولكن يجدر بنا قبل الكلام عن الصفات الشخصية للحجاج والعوامل التى خلقت منه طاغية أن نذكر المسرح السياسى الذى لعب دوره عليه ، وأمكننا أن نؤكد أن الحجاج كان نبت ظروف قاسية ألمت بالدولة التى عاش للدفاع عنها وهى الدولة الأموية .

ومن الناحية السياسية كانت الفتنة التى حدثت بين المسلمين فى نهاية عهد عثمان ، والتى أدت إلى اغتياله ثم اغتيال على بن أبى طالب ، ثم الفتن فى عهد معاوية وولده يزيد ، كل ذلك لم يعط الاستقرار السياسى للدولة العربية الجديدة وقد شعر عثمان بن عفان بالخطر الذى سيلحق الأمة الإسلامية قبل مصرعه فقال للزعماء الثائرين عليه - كما جاء فى تاريخ الطبرى (جـ ٤) ، والكامل فى التاريخ (جـ ٣) :

« فوالله لئن قتلتمونى لا تحابون بعدى ولا تصانون جميعًا بعدى أبدًا ولا تقاتلون بعدى عدوًا جميعًا أبدًا » وقال أحد الصحابة حين

بلغه قتل عثمان – كما جاء فى كتاب طه حسين الفتنة الكبرى (جـ ٢) .

« لقد كنتم تحلبونها لبناً فلن تحلبوها منذ اليوم إلا دماً » .

ومن هنا أصبح متعذر المحافظة على وحدة المسلمين إلا بالقوة ولقد كانت الظروف التى سبقت الفتنة الكبرى فى عهد عثمان وما أعقبها ، هى المناخ الذى هيأ ظهور معظم الفرق الإسلامية من شيعة وخوارج وغيرهم ، ولكن رغم الظروف السياسية فقد كان هناك عامان فى تاريخ المسلمين خلال عصر الدولة الأموية العام الأول هو سنة ٤١ (٦٦١م) ، والذى أطلق عليه عام الجماعة الأول حيث اجتمعت كلمة المسلمين على خلافة معاوية ، والعام الثانى هو عام ٧٣هـ (٦٩٢م) حيث أطلق وهو العام الذى أعاد فيه عبد الملك بن مروان الوحدة عليه عام الجماعة الثانى إلى الدولة الإسلامية .

بيعة الأمر الواقع :

ولكن من الجدير بالذكر أنه إذا استثنينا أهل الشام فإن جمهور المسلمين الآخرين لم يعطوا معاوية البيعة عن رضى واقتناع ، وإنما قبلوا ذلك كأمر واقع لا مفر منه لوضع حد للحرب والفرقة الانقسام ، وأحدا لم ينس أبدًا للأمويين أنهم كانوا أخطر أعداء النبى ، وأنهم لم

يعتنقوا الإسلام إلا فى الساعة الأخيرة مكرهين ولعل ذلك جعل معظم المسلمين يعتقدون أن موقف الأمويين السابق من الإسلام لايؤهلهم لقيادة الأمة الإسلامية ويبدو أن أسباب اتساع الهوة بين الأمويين ومعارضيهم ظلت قائمة طوال الحكم الأموى حتى قيل : « ما تلاقى اثنان إلا وتحدثا فى الأمويين وما اجتمع ثلاثة إلا وشرعوا فى العمل ضدهم » .

والآن نعود إلى شخصية الحجاج ونسبه :

ينسب إلى ثقيف ، وهناك أسباب دفعت النسابة إلى تشويه نسب ثقيف فى مقدمتها موقف ثقيف من النبى ومن الدعوة الإسلامية قبل دخولها الإسلام وتحالفها التقليدى مع بنى أمية ، وكان الحجاج بن يوسف شديد التعصب لهذا النسب يدافع عنه ويغضب إذا نسب إلى غيره وقد أمد الخلاف حول نسب ثقيف أعداء الحجاج بمادة غنية خصبة فى هجائه والتعريض به ، وكان عبد الله بن الزبير خلال فترة حصار الحجاج له يشتم ثقيفاً فى خطبة الجمعة ويصفهم بأنهم :

« قصار الخدود ، لئام الجدود ، سود الجلود بقية ثمود » وكان الحجاج فى معرض رده على هذه الادعاءات يقول « أنا بقية ثمود وهل بقى مع صالح إلا المؤمنون » . ومكانة ثقيف تعززت بشكل ملحوظ فى ظل الدولة الأموية التى اعتمدت فى العهدين السفيانى والمروانى على كثير من رجالات ثقيف فى توطيد حكمها وسلطانها .

أين ولد الحجاج ؟

ولد الحجاج بن يوسف الثقفى فى الطائف – موطن ثقيف – فى قرية بنى صخر على جبل « الهدى » وإن كان أبو المحاسن فى كتابه « النجوم الزاهرة » يذكر أن الحجاج ولد فى مصر بالفسطاط ولكن ثبت خطأ ذلك من خلال كتابات معظم المؤرخين ، وأيضًا اختلف البعض فى سنة ميلاد الحجاج ولكن يكاد يكون مستقرًا عليه أنها سنة ٤١هـ ، فالطبرى وابن الأثير يقولان : إن ميلاده كان عام ٤٢هـ بينما المسعودى وابن عساكر يقولان : إنها سنة ٤٠ ولكن الحجاج نفسه يقول إنه ولد سنة أربعين هـ ولعل هذا الاختلاف يرجع إلى عدم اهتمام المؤرخين المسلمين عامة بمولد الأشخاص قدر اهتمامهم بسنين وفاتهم التى تذكر بعد اشتهار أصحابها واسم الحجاج يعنى قاطع العظم لأنه لغويا كلمة « حججت العظم » تعنى قطعته ، ويعتقد بأن الحجاج لم يعرف صغيرًا بهذا الاسم وإنما كان يسمى « كليبا » وعرف بالحجاج فيما بعد .

وقد ذكر المسعودى فى كتابه مروج الذهب : أن الحجاج ولد مشوهًا لا دبر له فثقب عن دبره ، ومثل هذا القول لا يستبعد خاصة وأنه يحدث فى حالات نادرة لحديثى الولادة ، غير أن المسعودى يمضى فى روايته بعيدًا محاولاً أن يبرر بها سبب ولوع الحجاج بسفك الدماء على حد تعبيره فيقول : إن الحجاج

بعد ولادته أبى أن يقبل ثدى أمه أو غيرها فأعياهم أمره ، وأنه يقال إن الشيطان تصور لهم فى صورة الحارث بن كلدة فقال اذبحوا جديًا أسود وأولغوه فى دمه ، فإذا كان فى اليوم الثانى فافعلوا به كذلك فإذا كان اليوم الثالث فاذبحوا له تيسًا أسود وأدلفوه دمه ثم اذبحو له أسود سالخا فأولفوه دمه ، واطلوا به وجهه فإنه يقبل الثدى فى اليوم الرابع « وتنهى الرواية بالقول بأنهم فعلوا به ذلك فكان لا يصبر على سفك الدماء ، ولا شك أنها أسطورة أكثر منها واقعًا تمامًا كالأسطورة التى لحقت مولد جنكيز خان بأنه ولد وفى قبضته بقعة من الدم المتجمد ، وكل طاغية فى التاريخ ساق حوله البعض من هذه الأساطير ، وهكذا ولد الحجاج وأبى رواة الأساطير إلا أن يولفوه فى الدماء حتى الثمالة وقديمًا قيل وما آفة الأخبار إلا رواتها .

ووالد الحجاج هو يوسف بن الحكم بن أبى عقيل بن مسعود بن عامر بن معتب بن عوف بن ثقيف ، ولكن المصادر لا تمدنا إلا بإشارات قليلة عن هذا الوالد ، ولكن جاء على لسان ابن خلدون أن والد الحجاج كان رجلاً تقيًّا على جانب من العلم والفضل والشرف قضى معظم حياته يعلم أبناءة القرآن وأصول الدين تقربًا إلى الله وطمعًا فى مثوبته ، وكان للحجاج أخ أكبر هو محمد وأخت هى زينب ، وأم الحجاج هى « الفارعة بنت همام بن مسعود

الثقفى وكان جد الحجاج لأمه عروة ابن مسعود الذى كان أول شهيد مسلم فى الطائف .

ابن المتمنية :

ولعل ذلك كله غريبًا كيف يكون الحجاج بمثل هذه الصورة ومع ذلك يصبح طاغية جبارًا جامد القلب .

نقول إن هناك ظروف شخصية تحول الإنسان من صورة إلى أخرى وهناك ظروف عامة تجعلها أى هذه الشخصية تسلك طريقًا ما ، فالحجاج بتحالفه مع بنى أمية وضع نفسه فى حكم العداء مع آل البيت ، وارتباط مستقبل بنى أمية بالحجاج جعله سيفًا بتارًا لأعدائهم لا تهمه إلا النتائج وليس فى قاموسه أفكار العدل والرحمة ..

كما أن المشتغل بالسياسة يبعد بنفسه عن القيم ويتأتى بسلوكه عن الأخلاق إذا كانت هذه القيم تتعارض مع الأطماع ومع الشهوة للتسلط والحكم ، ومن الجدير بالذكر أن بعض المصادر التاريخية تذكر - مثل رواية المسعودى - أن والدة الحجاج كانت متزوجة قبل والده من الحارث بن خالده طبيب العرب فى حين يذكر ابن عساكر أنها كانت زوجة المغيرة بن شعبة ، ولكنها طلقت بسبب اشتغالها بالسحر ويذكر « البلاذرى » أن والدة الحجاج تمنت وهى عند المغيرة بن شعبة شرب الخمر والالتقاء بنصر بن الحجاج - الذى كان يوصف بأنه أجمل شباب المدينة مما اضطر عمر بن الخطاب

إلى نفيه إلى البصرة بعد أن افتتنت به بعض النساء وسمع الفارعة وهى تنشد فى خدرها .

هــل من سبيل إلى خمر فأشربها
أم من سبيل إلى نصر بن حجاج

وقد استغل خصوم الحجاج بن يوسف هذه الحكاية فكانوا يدعونه بابن المتمنية ... وسواء أكانت هذه الرواية صحيحة أم أنها تلحق بجدة الحجاج فإنها ولا شك كانت عقدة نفسية حكمت سلوكيات الحجاج قبل الكثير من البشر حاول أن يمحوها بأى ثمن ... وتكاد المصادر تجمع على أن الحجاج لم يكن جميل الشكل ، بل كان دميم الصورة وقد ورد فى المصادر أنه كان صغير الجثة حمش الساقين منقوص الجاعرتين ، خفش العينين دقيق الصوت أكتم الحلق ويقال إن رأسه كان كبيرًا مستطيلاً كأنه غرس بين كتفيه ، ولاشك أنه تأثر أيضًا بشكله الخلقى لأن ذلك جعله لقمة سائغة لأعدائه لهجائه ، وكل ذلك أوجد فيه استعدادًا للقسوة والعنف وذلك كنوع من تغطية النقص الذى كان يحسه لعدم حسن هيأته ، الأمر الذى ميز شخصيته بالميل إلى الشدة وقوة البأس والتهجم حتى قيل إن الحجاج كان لا يضحك إلا نادرًا .

أنا ابن جلا :

لما تولى عبد الملك بن مروان الحكم بعد وفاة أبيه بعهد منه كانت حال البلاد الإسلامية فى غاية الفوضى والاضطراب فإن

الحجاز به عبدالله بن الزبير وقد بايعه أهله وبلاد العراق أنقسمت إلى ثلاث فرق ... زبيرية بايعوا ابن الزبير ودخلوا فى طاعته ، شيعة تدعو إلى آل البيت ، وخوارج وهم لا يريدون البيت الأموى أو البيت العلوى ، ويؤمنون أن من يستحق الخلافة هو صاحب الكفاءة ، ولكن بولاية مصعب بن الزبير من قبل أخيه عبد الله بن الزبير أمر العراق عاد العراق كله إلى عبدالله وبقى الأمر بالشام ومصر لعبد الملك بن مروان ، وتشجع عبد الملك وسار بقواته إلى العراق لإخضاعها حتى نجح فى ذلك بعد أن هزم أهل العراق ، وقتل مصعب ولم يبق خارجًا عن سلطان عبد الملك إلا الحجاز فوجه وهو بالكوفة جندًا إلى مكة يقودهم الحجاج بن يوسف الثقفى فى سنة ٧٢هـ ، فلما وصل مكة حصر ابن الزبير بها ورماها بالمجانيق ، ولم يزل الأمر على ذلك حتى اشتدت الحال على أهل مكة من الحصار فتفرقوا عن ابن الزبير وخرجوا بالإمامة إلى الحجاج ، وظل عبدالله يقاتل حتى قتل وأمر الحجاج بصلب جثته وكانت سنة ٧٣ سنة ولم يرحم الحجاج شيخوخته وبقتل ابن الزبير صفا الأمر لعبد الملك بن مروان فى جميع الأمصار الإسلامية واجتمعت عليه الكلمة ولم يلبث فى سنة ٧٥هـ أن عين عبد الملك الحجاج واليا على العراق فسار إلى الكوفة حتى دخل مسجدها فصعد المنبر وهو ملتثم بعمامة خز حمراء فاجتمع إليه الناس وهو ساكت قد أطال السكوت ثم كشف اللثام عن وجهه وقال :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا   متى أضع العمامة تعرفونى

يأهل الكوفة إننى أرى رءوسا قد أينعت وحان قطافها وإنى لصاحبها وكأنى أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى « أما بقية الخطبة فإنها لا تختلف فى معناها ولهجتها عما تقدم » ، ولما فرغ الحجاج من خطبته لم يفد أحد ممن كان بالمسجد ولم يظهر أحد استياءه وأمر الحجاج غلامه بأن يقرأ على الناس كتاب عبد الملك فقرأ « بسم الله الرحمن الرحيم .. من عبد الملك أمير المؤمنين إلى من بالكوفة من المسلمين سلام عليكم » غير أن أحدًا من الحاضرين لم يرد السلام فأمر الحجاج غلامه بالكف وأخذ يوبخ الناس ويتهدد ويتوعدهم قائلاً « والله لأؤدبنكم غير هذا الأدب أو لتستقيمن » ثم أمر غلامه فأعاد القراءة فقال الحاضرون « على المؤمنين السلام » .

سياسة الحجاج فى الحكم :

ويتضح لنا أن سياسة الحجاج فى حكم أهل العراق كانت سياسة حزم ممزوجة بالظلم والجبروت ، ولا غرو فقد أخذ الناس بغير هوادة وقتلهم على الريبة والظن ولعل أشهر مواقع الحجاج كانت ضد « ابن الاشعث » الذى شق عصا الطاعة على الخليفة فتعقبه الحجاج حتى قضى عليه فى معركة « دير الجماجم » ورغم حرب ابن الاشعث إلا أن الحجاج احتال عليه حتى قتله ثم أسرف الحجاج فى قتل أسرى « دير الجماجم » بشكل جعلنا نقول إن حبه لسفك

الدماء كان يجرى فى عروقه بلا رحمة إلى درجة أن الخليفة أرسل يقول له « إذا أعطاك الله الظفر على قوم فلا تقتل جانحًا أو أسيرا » .
عاش الحجاج أكثر من عشرين عامًا فى الطائف قبل أن يظهر على المسرح السياسى وقيل إنه فى حداثة سنه عمل راعيًا للغنم كما عمل فى وقت لاحق فى دباغة الجلود ، وقال البعض إن الحجاج اشتغل بالتعليم مرحلة من حياته أسوة بأبيه يوسف وأخيه محمد .

ويبدأ ظهور الحجاج على المسرح السياسى وقت أن وقف هو وأبوه إلى جانب الأمويين منذ عهد يزيد بن معاوية حيث شاركا سويًا فى موقعة « الحرة » إلى جانب قوات مسلم بن عقبة ضد أهل المدينة وقيل إن الحجاج وأباه فرا فى بداية المعركة على جمل بطىء وقد اعترف الحجاج بهذا الفرار ، ثم يجىء الحجاج هو وأبوه مع حملة مروان بن الحكم على مصر حيث يبقيان حوالى الشهرين فى الفسطاط ثم يشارك الحجاج ووالده فى الحملة البرية التى أرسلها مروان بن الحكم أيضًا إلى الحجاز للقضاء على عبدالله بن الزبير ، وقيل إن هذه المعركة كانت درسًا قاسيًا للحجاج فقد أسر معظم رجال الحملة وفر الحجاج بن يوسف ووالده راكضين لحوالى ثلاثين ميلاً ويطلق على هذه المعركة اسم معركة « الربذة » وهى قرية من قرى المدينة على بعد ثلاثة أيام منها وفيها دفن الصحابى المعروف أبو ذر الغفارى .

وكانت أول ولاية يتولاها الحجاج هى بلدة بتاله ولكنه استهان

بها ولم يدخلها وذلك لتطلعه إلى ولاية أرقى وأوسع ولم تلبث الظروف السياسية الصعبة التي واجهت عبد الملك بن مروان فى بداية خلافته أن ساعدت على إتاحة الفرصة للحجاج للظهور على المسرح السياسى .

تولى الحجاج ولاية الحجاز بين سنتى ٧٢ ، ٧٥هـ ثم تولى العراق بعد سنة ٧٥ ثم أصبحت له الولاية على خراسان فعين المهلب بن أبى الضفره نائبًا عنه فيها وذلك سنة ٨٠هـ وفى سنة ٨٩ عين الحجاج واليا من قبله على « سجستان » .

شهادة الكفر أولا !!

وقد ثار الناس ضد الحجاج وخلعوه لقسوته وبايعوا بدلاً عنه عبد الرحمن ابن الأشعث وانتصر ابن الأشعث فى عدة مواقع ضد الحجاج ولكن الحجاج انتصر فى النهاية وكان انتقامه من عدوه مروعًا .

ولقد عرض عبد الملك بن مروان على أهل العراق عزل الحجاج والاعتراف بالخلافة للبيت الأموى ، ولكن أهل العراق رفضوا ذلك وصمموا على خلع عبد الملك فكان أن أطلق عبد الملك عليهم الحجاج واستمرت معارك دير الجماجم مائة يوم وكانت نهايتها ١٤ جمادى الثانية سنة ٨٣هـ .

وبعد الهزيمة بدأ الناس يبايعون الحجاج من جديد فلا يرضى بمبايعتهم إلا إذا شهدوا على أنفسهم بالكفر فمن شهد نجا ومن أبى قتله .

ولا شك أن فتوحات الحجاج من خلال عماله « ولاته » فيما وراء الهزيمة أدت إلى لصق الكثير من التهم به لأنه كان قاسيًا فى معاملاته مع شعوب تلك البلاد وكان حريصًا على ملء خزائن الدولة بالجزية وفى نفس الوقت لم يترك أية فرصة دون أن يمثل بأعدائه بل كان حرصه على أن يكون سيفه أسبق من لسانه هو شكل الارهاب الذى يجب أن يزرع فى القلوب .

قتل الاسرى :

ولعل أوثق التهم التى لصقت بالحجاج كان حرصه على قتله الأسرى إما للترهيب وإما لأنه كان يرى أن الإنفاق عليهم تبديد لأموال المسلمين وحتى يكونوا عبرة لغيرهم حتى لا يثوروا ضد بنى أمية .

مساوئ الحجاج وطغيانه :

حاول الحجاج أن يوقع بزعيم الشيعة فى عهده محمد بن الحنفية وأن يقبض عليه ويرسله مكبلاً بالحديد من العراق إلى الشام ولكن عبد الملك بن مروان منعه من ذلك وحاول قتل الشاعر الثقفى محمد بن عبد الله الثقفى للغزل بأخته لولا الخليفة ولكن أسوأ ما يلصق بتاريخ الحجاج بعد ضربه الكعبة والمسجد الحرام بالمنجنيق ، واستباحته كميدان قتال وكانت هذه سبة فى جبين الحجاج لأن مكة المكرمة

اعتبرت فى نظر الإسلام والمسلمين مدينة محرمة لا يحل القتال فيها فقد روى عن الرسول فى خطبته يوم الفتح .

« إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض فهى حرام إلى يوم القيامة فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دمًا » .

ولعل أشهر ما قيل فى الحجاج ولازال حتى الآن يردد من أقوال ما قاله الشاعر « عمران بن حطان » الذى عير الحجاج لإحجامه عن منازلة شبيب وزوجته غزاله فقال عن الحجاج : « أسد علىّ وفى الحروب نعامة » وكان الحجاج يؤخر صلاة الجمعة حيث كان يخطب الناس خطبًا طويلة تستغرق الساعات فاتهمه الناس بإماتة الصلاة وحاربوه من أجل إحياء وقتها .

ولقد تعددت زوجات الحجاج – كعادة أهل ثقيف – فكان يحتفظ بأربعة ثم يطلق من يرى إذا ظهرت فى الأفق امرأة جديدة وكان لديه الكثير من الإماء .. ومن أشهر زوجاته هند بنت النعمان بن بشير الأنصارى أحد الصحابة المشهورين الذين نزلوا بالشام وكانت جميلة فاتنة ، ذات أدب وفصاحة ، أنجب منها الحجاج ولدين هما إبان وعبد الملك ولكن قيل إن الحجاج طلقها لأنه على حد بعض الروايات دخل عليها فرآها تنظر فى المرآة وتقول :

فإن ولدت فحلا فلله درها
وإن ولدت بغلا فجاء به البغل
وما هند إلا مهرة عربية
سليلة أفراس تحللها بغل

ريحانة . . لا كهرمانة !

وتعتبر هند بنت المهلب بن أبي صفرة من أبرز زوجات الحجاج ، وباختصار يمكن القول أن هذا الطاغية تزوج أكثر من عشرة نساء كانت أشهرهن أم كلثوم ابنة عبدالله بن جعفر بن أبي طالب الذى طلقها بأمر الخليفة خوفاً من تحول ولائه للبيت العلوى وكان الحجاج يرى المرأة ريحانه وليست بكهرمانة أي أنها خلقت للتمتع بجمالها ولا ينبغى لها التسلط على زوجها .

عاش الحجاج مواليا لبنى أمية دون أن يقيم وزنًا لسخط الرأى العام وكان يعلم بكره الناس له ، ولا يعبأ بهذه الكراهية ، وكانت الثقة بينه وبين أهل العراق معدومة حتى روى عنه قوله : أهل العراق هم أهل الثقافة والنفاق ومساوئ الأخلاق ثلث مارق وثلث منافق وثلث سارق .

ولقد كان الحجاج فى الواقع – كما يقول بن خلكان – « له فى القتل وسفك الدماء والعقوبات غرائب لم نسمع بمثلها » وهو

بلا شك طاغية بنى أمية وطغيانه غدا أسطورة تعبر عن حقيقة بطشه وظلمه وقسوته ، إلى أن توفاه الله حيث كان الحجاج يشكو من الإرهاق والتعب والإعياء ويعانى من ارتفاع فى الضغط وقرحة فى المعدة ويشكو من الصداع وطنين الأذنين وعسر الهضم وكأن أمراض البشر المستعصية قد وجدت من أجله ، وقيل إنه تعذب كثيرًا حتى طلعت روحه إلى السماء وأن أحدًا لم يترحم عليه وقد دفن بمدينة واسط فى شوال سنة ٩٥هـ وبذا انتهى طاغية من الطغاة أذل الرقاب وتحكم فى العباد ، وحطم الأوتاد وكان جبارًا استحق من السماء أسوأ أنواع العقاب .

لويس الرابع عشر

طاغية فرنسا

القيم المعنوية هى دلالة الحياة الفاضلة ، وإنسان بلا مبادئ يفقد روحه ، وتنطلق غرائزه من عقالها متحكمة وغاشمة وضارمة تستبد بعقله وقلبه ، وتلهب فيه أوضع الميول والرغبات ، ونحن ننسى أن خطايانا تعمر طويلاً وغالبًا ما يعجز الزمن عن قتلها . والحكام يموتون كغيرهم من الناس ، ولكن كثيرين منهم كانت ميتتهم عنيفة كرد فعل لطغيانهم وجبروتهم ، الشعوب عندما تقرر مواجهة ظالميها فإنها لا تهتم بالتضحيات فى سبيل أن تخلص نفسها من التعاسة والشقاء .

ولقد وصل الأمر بحكم لويس الفرد أن سمى عصر باسمه ، وقيل إن شمسه كسفت شموس ملوك عصره ، وكان هذا العصر مليئا بالانحطاط الأخلاقى وتدهور الفضائل الإنسانية ، وهوت التقاليد فيه إلى الحضيض هذا الطاغية هو لويس الرابع عشر .

ولد الطاغية فى ٥ سبتمبر ١٦٢٨م فى قصر سان جارمان ، وأمه هى « آن دوتريش » ووالده هو لويس الـ ١٣ الذى تزوج

فى سنة ١٦١٥ ، وظلت زوجته لا تنجب لمدة ٢٣ سنة حتى ولدت هذا الابن بعد أن فقدت الأمل فى الإنجاب وبعد أن أصيب لويس الـ ١٣ بمرض عضال وساءت صحته .

كانت جدته عشيقة لأكثر من رجل ، ماتت الفضيلة فى قلبها ، وفقدت القيم وجودها وعاشت لملذاتها ، وكان أشهر عشاقها أفاقًا إيطاليا اسمه « كونشينى » أما عشيقها الثانى الشهير فهو الدوق « بوكنجهام » الإنجليزى والذى كان يطمع فى عرش فرنسا .

وعاش أبوه محرومًا من السلطة :

ولد لويس الـ ١٤ فى جو كله دسائس ومؤامرات ويكفى أن نقول : إن جده هنرى الرابع قد اغتيل فى عام ١٦١٠م ، ولا شك أن كل هذه الظروف أدت إلى تكوين شخصيته وتحديد هويته ، ولقد تولى لويس الرابع عشر حكم فرنسا فى عام ١٦٤٣ أى وهو دون الخامسة ومن ثم أصبحت أمه « آن دوتريش » – بنت فيليب الثانى ملك أسبانيا هى الوصية عليه ، والمتحكمة فى السلطة ، وهكذا تتشابه ظاهرة ولاية أبيه الحكم وكان الساعد الأيمن للملكة الأم هو الكاردينالى « مزران » الذى خلفه « ريشيليو » كوزير أول للدولة الفرنسية وقد واجهت لويس صعوبات جمة عند بداية تسلمه السلطة ، ولعل أهم هذه الصعوبات نشوب حرب أهلية استمرت لمدة ٤ سنوات عرفت باسم حرب « الفورند » ، ظلت

فى الفترة من ١٦٤٨ ، وانتهت سنة ١٦٥٢ وقد قادها الأشراف بهدف استعادة امتيازاتهم الأولى ، ولكن مزران نجح فى تعبئة الجيوش والانتصار عليها ، وبدأ الأشراف يذعنون لأمر الملك ، ولكن بموت مزران سنة ١٦٦١ كان لويس قد بلغ الثالثة والعشرين ، ورأى أنه قد آن الأوان ليجمع السلطة فى يده ولذا لم يعين وزيرًا أول واحتفظ لنفسه برئاسة الوزارة ورئاسة الدولة وأصبح حتى نهاية أيامه هو الحاكم المطلق لفرنسا فكيف حدث هذا ، ولماذا تحول إلى طاغية يذكره التاريخ بالقسوة والجحود ؟

٧٢ عاما فى الحكم :

فى البداية لنا مجموعة من الملاحظات وهى أن فترة حكم لويس الرابع عشر الرسمية امتدت ٧٢ عامًا أى ما يقرب من ثلاثة أرباع قرن فهو قد حكم من عام ١٦٤٣ حتى عام ١٧١٥ ، وقد حكم فيها أكثر من نصف قرن بمفرده بعد أن توفى مزران . وكان لويس الرابع عشر خلال تلك الفترة الطويلة من عمر الشعوب ، صاحب النفوذ المطلق المتفوق فى البلاد ، وأطلق شعاره الخالد « أنا الدولة والدولة أنا » .

وإذا كان للطاغية صفات وملكات ، يتمتع بها تتضح فيما يمتلك من زهو وغرور واستبداد الرأى والأطماع الواسعة ، التى يستخدم كافة الأساليب الملتوية والدسائس الغامضة للوصول إليها ،

فإن هذه الصفات كانت أظهر ما توجد فى لويس التاسع عشر .. فقد كان داهية فى سياسته ، شب جافى القلب مغلق النفس ، كتومًا ، كثير الحذر ، قليل الكلام ، يبطن غير ما يظهر ، ويعمل جهده على أن يخفى أفكاره وميوله وهواجسه عن كل ما حوله ، ولا شك أن تحليل شخصية لويس الـ ١٤ يسبب ارباكًا لدى علماء النفس فما بالك بالمؤرخين ، فلقد كان لويس الرابع عشر بحق لغزا عسير الحل ومجموعة من المتناقضات الغامضة التى تجمعت فى النفس الواحدة ، ولا يمكن لأى استقراء لحركة التاريخ أن ينكر أن الشعب الفرنسى فى ظل حكم لويس الـ ١٤ بددت موارده واستنزفت قواه وسلبت ثرواته وكل ذلك لتحقيق أطماع رجل واحد ولتجميد حاكم أحب السلطة أكثر من حبه للسلام ، ووصل بفرنسا إلى مفترق الطرق وأدخل الرعب على قلوب رعاياه ، ووضع أهل باريس تحت رقابة مستمرة وقبض على جميع الذين اشتبه فى أخلاقهم ونصب المشانق فى أنحاء فرنسا وأحاط نفسه بجيش من الجواسيس وكل ذلك ليضمن كرسى الحكم واستمراره فى السلطة .

ولقد بدأ عهد لويس الـ ١٤ بالكراهية ، لأن الشعب الفرنسى كان يكره أمه الوصية على العرش لأنها أجنبية ، كما أن هذه الأم تخلصت من المجلس الذى كان من المفروض أن يساعدها ويرشدها إلى أفضل نظم الحكم ، بالإضافة إلى أنها اعتمدت على شخصية أجنبية وهى الكاردينال مزران .

طاغية . . لماذا ؟

الأسباب التى خلقت من لويس الـ ١٤ طاغية :

أولاً : السلوك العام للملوك وحكام تلك الفترة اعتقادًا منهم أن الملك هو ظل الله على الأرض وأن سلطاته مطلقة وأن على الشعب الطاعة ، ولم يكن البرلمانات أى وجود حقيقى فى تسيير دفة الحكم .

ثانيا : تحكم النساء كوصيات فى أطفالهن الملوك واستئثارهن بالسلطة ولم يكن من السهل انتزاعها إلا بالغدر والضرب بقوة ، كان ذلك واضحًا فى أم لويس الـ ١٣ التى سيطرت عليه وأم لويس الـ ١٤ التى سيطرت عليه وكلتاهما وصيتان على العرش لأن ابنهما كان صغيرًا .

ثالثًا : الأحداث الداخلية فى فرنسا والتى أدت إلى حربين أهليتين وهما حربا الفروند الأولى والفروند الثانية ، (وكلمة فروند تعنى رماة المقاليع) وقد عرضت كلتا الحربين الملكيتين فى فرنسا للسخرية والخطر والانهيار والفوضى ، وأدى ذلك إلى القبض بيد من حديد على السلطة وإلى حكم العنف والقوة للقضاء على الثورة ، بل وتعرض لويس نفسه وهو طفل للاغتيال .

رابعًا : الحروب الخارجية التى خاضتها فرنسا فى عهد لويس ،

والتي جعلت الحكم شبه عسكرى يمنع من خلاله أى حوار أو جدال أو إبداء الآراء لصالح المجتمع ...

خامسًا : شخصية لويس الـ ١٤ نفسها والتي دفعته إلى سلوك معين ، وذلك المناخ الذى تربى فيه وتلك الأوضاع التى شاهدها بنفسه ، كل ذلك دفعه إلى حلبة الطغيان ناسيًا العدالة لبنى الإنسان في وطنه .

ولقد ساعد لويس على طغيانه مجموعة من المستشارين ، الذين أحاطوا به ونذكر منهم « ليون » للسياسة الخارجية ، فوكيه للشئون الاقتصادية ، لوتلييه للشئون الحربية ، ولم يلبث أن حل « كولبير » الاقتصادى الفرنسي الشهير محل « فوكيه » ، ومن خلال هؤلاء المستشارين انفرد لويس الرابع عشر بالحكم والتحكم فى كيفية إنفاق أموال الدولة .

وإذا كنا لا ننكر البداية الناجحة للويس عند إمساكه بالسلطة ، فإننا لا يمكن أن نعفيه مما أصاب فرنسا بعد ذلك من انهيار اقتصادى ، وتأثر ميزانية فرنسا بسبب تلك الحروب التي خاضها لويس الـ ١٤ ، ولم تكن فرنسا لتجنى من ورائها شيئًا صحيح أن لويس اهتم بتنظيم الشئون الاقتصادية ، كما أنه اعتنى بالجيش والبحرية ، حتى وصل عدد الجيش إلى ما يقرب من ٣٥٠,٠٠٠ جندى خلال خوض حروبها مع أعدائها ، أيضًا اهتم لويس الـ ١٤ بالعلوم والفنون

وقد ظهر فى عهده كتاب فرنسيون عظام أمثال « موليير وراسين وكورينى ولافونتين » ، واهتم لويس بالأكاديمية الفرنسية التى كانت قد أنشئت عام ١٦٣٥ وفى عهده تأسست أكاديمية العلوم وأكاديمية التصوير والعمارة .

وكلها فى الحقيقة كانت بدايات رائعة ، وكعادة كل الطغاة ، البداية مائة فى المائة ولكن الخاتمة مأساة فاجعة ، بعد أن تصبح الأمور ملك يمينه وبعد أن يضمن سيطرته ، ويكون قد اشترى أصوات معارضيه بالأمل أو بالسراب ، بالحلم أو بالخيال وبالقوة والعنف إن لزم الأمر .

حروب لويس :

خاض لويس الـ ١٤ عدة حروب كان تأثيرها سيئًا على فرنسا ، ولم تكن إلا لتحقيق أطماعه التوسعية فى أوربا ، وأول هذه الحروب هى حرب الأراضى المنخفضة بين عامى ١٦٦٧م - ١٦٦٨ ، وهى الحرب الموجهة ضد بلجيكا ، ثم الحرب الهولندية بين عامى ١٦٧٢ ، ١٦٧٨ ، والتى ترتبت على الحرب الأولى من منطلق أن هولندا وقفت ضد أطماع فرنسا فى بلجيكا ، ثم الحرب الثالثة وهى حرب عصبة أو جزبرج وهى الناتجة عن سخط العالم البروتستنتى على لويس ، نظرًا لقيامه بإلغاء امتيازات البروتستنت الفرنسيين ، وأخيرًا حرب الوراثة الأسبانية ، والتى كانت فرنسا تقصد من

ورائها ١٧٠٠-١٧١٣ إلى فرض حليف لها على العرش الأسبانى ، وهذه الحروب الأربعة لم تكسب فرنسا من ورائها شيئًا ، بل لقد خسرت الكثير من الأموال والمعدات وساءت الأحوال فيها بدرجة لا مثيل لها .

لقد كان لويس الرابع عشر يعتقد أن :

الملك يمثل الإله وهو نائبه على الأرض ، ويتمتع بسلطة مقدسة مستمدة من الإله نفسه ، وأن مباشرة سلطته لا يمكن تجزئتها أو التنازل عنها للغير ، لأنها من حقوق الملك وحده الذى يسأل عن استخدامها أمام الله فقط ، فالوزراء أداة يختارهم الملك لتنفيذ أوامره ، ولا يمكن للشعب أن يكون له أى حق فى الاشتراك فى الحكومة ، والملك وحده هو الدولة لأنها كنظام سياسى لا وجود لها إلا فى شخص الملك وحده ومن أجل ذلك جمع لويس الـ ١٤ أسباب السلطة فى يده دون مشاركة أحد ممن حوله أو من مساعديه .

وقبل أن أعرض لنماذج من طغيانه يجب أن أقول : إن حروب فرنسا المستمرة فى عهد لويس الـ ١٤ أدت إلى إذلالها فى بعض المواقف وجعلتها تفقد زهرات شبابها وصحب ذلك كله انتشار البؤس والذعر فى كل مكان لدرجة أن الدعوات لوقف هذه الحروب كانت مطلبًا للجميع ، ولقد صدق حقًا من قال إن المصائب لا تأتى فرادى ، فكأنما الدهر قد تعهد على أن يلقى بكل ما فى جعبته

من مصائب ونكبات على لويس الـ ١٤ ، الذى حكم منفردًا من خلال مجلس سرى وجمد طبقات الأمة وجعل شعاره « أنا الدولة والدولة أنا » أسلوبًا للمركزية المطلقة ، ولم يفرق بين خزانة الدولة وجيبه الخاص ، وكأن إرادة السماء تريد أن تذيقه ألوان العذاب كجزء من العقاب ، فقد أصيب ولى عهده يوم ١٨ أبريل سنة ١٧١١م بوعكة بسيطة ولكنها أودت بحياته بعد ٢٧ يومًا ، وحزن الملك على ابنه حزنًا شديدًا حيث تغيرت شخصيته تماما فأصبح زاهدًا فى الحياة ..

حركة الأسقف جانسن :

ولقد اتبع لويس الـ ١٤ أساليب العنف للقضاء على حركة الأسقف « جانسن » « وأتباعه » وهم الذين مثلوا فئة الزهد والتقشف فى الكنيسة الكاثوليكية فى فرنسا ولكن البابا وقف ضدهم وحرض لويس عليهم ، وكانت الوحشية المنقطعة النظير التى اتصفت بها هذه الفئة صفحة سوداء فى تاريخ التعصب الدينى فى فرنسا جلبت اللعنة على لويس الـ ١٤ .

نماذج الطغيان :

لعل تعدد الأخطار التى ارتكبها لويس فى حق شعبه جعلت من هذه الأخطاء آثامًا وخطايا ، وكان أشد هذه الخطايا عنفًا ،

عداء لويس لطائفة البروتستانت الفرنسية التى عرفت باسم « الهيجونوت » ، وتحت ميل هؤلاء إلى أعداء فرنسا انساق لويس لرأى مستشاريه ، وألغى امتيازاتهم التى كانوا قد حصلوا عليها فى مرسوم ملكى يطلق عليه اسم «مرسوم نانت» سنة ١٥٩٨ فى عهد جده ، ولكن لويس وقع قرارًا فى أكتوبر (الأول منه) سنة ١٦٨٥ بإلغاء هذا المرسوم مما كان يعنى إزالة مواطن الأمان وهدم معابد البروتستانت وحرمانهم من حرية العبادة ، ومن حرية مزاولة شعائرهم الدينية ، وترتب على هذا الألغاء أيضًا طرد رجال الدين البروتستانت وإرغامهم على تربية أولادهم على مبادئ الديانة الكاثوليكية ، واتباع طقوسها والخضوع لنظمها فيما يتعلق بالأحوال الشخصية وأثبتت الأحداث أن لويس الـ ١٤ ارتكب بهذا الألغاء خطأ شنيعًا ، لأنه أدى إلى اضطهاد دينى عنيف ، وهاجر الهيجونت « أى البروتستانت الفرنسيون » إلى الدول البروتستنتينية فخسرت فرنسا بذلك خسارة كبرى وخاصة أن معظم هؤلاء كانوا من الحرفيين ، والعمال المهرة وكذلك من كبار رجال المال والأعمال والصناعة فصفوا أملاكهم ، ورحلوا إلى الخارج ففشلت الحركة الاقتصادية فى فرنسا وحدث ارتباك فى خطوط الإنتاج بها ، لأن الاضطهاد الدينى ليس من ورائه إلا انقسام الأمة وحدوث الفوضى الاجتماعية ، والفقراء الذى لم يستطيعوا الهجرة كونوا عصابات أقلقت الأمن ، كذلك بدأت تقوى الدول التى هجر إليها الهيجونوت لدرجة أنه قيل إن النهضة الصناعية فى ألمانيا بدأت تنمو وتنشط

مع هجرة الهيجونوت إليها ، وبمقارنة الأوضاع الاقتصادية فى فرنسا قبل إلغاء المرسوم وبعده نجد الفرق شاسعًا ، وبدأت فرنسا ترى الأيام القاتمة والليالى الحالكة واختنقت البسمة أمام الظلم الاجتماعى ، وانتهى عهد الحفلات والولائم التى اشتهرت بها فرنسا إلى درجة أن آخر أيام لويس الـ ١٤ كانت شؤمًا على فرنسا .

وساهمت الطبيعة بنصيب كبير فى المحن والنكبات فاشتد البرد وأتلفت المحاصيل وفاضت الأنهار ، ولأول مرة تقوم فرنسا باستيراد القمح من بعض الدول بأسعار فاحشة لمنع حدوث مجاعة ، وأصبحت الطرق غير صالحة والكبارى والجسور مهدمة وشلت الحركة التجارية ، وعجز كل فرد عن الوفاء بديونه وتسديد الضرائب المفروضة عليه ، وأعلن كبار الأغنياء إفلاسهم وقامت عدة ثورات بسبب الجوع ومما زاد الطين بلة أن الملك لويس ، أرهق الدولة بنفقاته فقد كان فى رحلاته يصحب معه كثيرًا من السيدات ويأخذ معه كميات كبيرة من الأطعمة والمشروبات واستلزم ذلك عددًا كبيرًا من العربات والحرس والخدم وتطلب نفقات باهظة .

ومما يؤثر عن لويس الـ ١٤ – أسوة بكل الطغاة – حبه الشديد للمدح والإطراء والملق فتفانى كل المتصلين به – ويا ويل الشعوب من مواكب النفاق وذوى الضمائر المعدمة – فى إلقاء عبارات الثناء والإعجاب على مسامعه لكى يحظوا بعطفه ورضاه وقيل :

إن لويس كان يعتبر هذا المدح من مستلزمات حياته كالهواء والماء والطعام ، لا يستطيع أن يعيش بدونه .

بين النفاق والتملق :

وكعادة الطغاة ، نجد أن لكل طاغية هواية معينة ، فمنهم من عشق الموسيقى ، ومنهم من فتن بفن الرسم ، وكان لويس ضمن من قرضوا الشعر فى وقت ما ، حيث أخذ ينظم بنفسه بعض الأبيات فألف قصيدة غزل وضح أنه لامعنى لها ومحشوة بالأخطاء وبينما كان يقرؤها وصل الماريشال « دى جرامون » وكان مشهورًا ببراعته فى التملق للملك حتى قيل عنه إنه أعظم متملق فى فرنسا ، فقدم له الملك القصيدة التى كتبها وقال اقرأ قصيدة الغزل هذه ، وقل لى بعد ذلك عما إذا كنت قد قرأت فى حياتك قصائد بمثل هذه السخافة والوقاحة فأنت تعلم أننى أنظم أشعارًا ولهذا يبعث لى الكثير بقصائد وأشعار من كل نوع .

وبعد أن قرأها الماريشال التفت إلى الملك وقال :

« إن كلام جلالتك مقدس بدون أدنى شك وحكم جلالتك على الأمور إنما هو حكم مقدس حقًا ، فالواقع أن هذه أسخف وأوقح قصيدة قرأتها فى حياتى » ... فضحك الملك كثيرًا وقال : « ألا ترى أيضًا أن مؤلفها كثير الإعجاب بنفسه وأحمق » فأجاب الماريشال « إنه يا مولاى لا يستحق غير هذا الوصف الدقيق » .

قال الملك : إننى مسرور حقا لأنك تكلمت بكل صراحة ، فأنا الذى نظمتها ... ذهل الماريشال وقال : يا للخيانة ، ألتمس من جلالتكم إعادتها إلىّ لأنى قرأتها بسرعة وبدون ترو .

فرد الملك قائلاً : كلا يا مارشال لن أعيدها إليك فإن الكلمات الأولى هى التعبير الحقيقى والطبيعى لما يجول فى الخاطر ، ولعل هذا النموذج للنفاق والرياء والتملق من جانب الحاشية والفئة المنتقاة التى تدعى بالصفوة والتى تعاشر الحاكم ليلاً ونهارًا الدليل على أنها تخلق فيه نعرة الغرور وصورة التقديس والتأليه .

مدام سكارون :

وكعادة كل الطغاة ، كان لابد أن يخضع لويس الـ ١٤ لسيطرة إحدى النساء ... هذه المرة هى مدام « سكارون » وهى فاتنة جميلة من أصل نبيل ذات نهد بارز ، وجسد فائر ، ووجه ملائكى ، وتحمل عطفًا لا حدود له ، عندما توفى زوجها الشاعر دخلت هذه المرأة فى خدمة الأسرة المالكة ، وظلت تتقرب للملك لويس الـ ١٤ وبالذات بعد وفاة زوجته فى ٣٠ يونيو سنة ١٦٨٣ ، وكان جرح حبه الأول قد طاب وشفى ، وقد منح لويس مدام « سكارون » لقب مركيزة « دى مانتينون » ، ولم يلبث أن تزوجها سنة ١٦٨٤ ، ثم وقع تحت تأثيرها ولذا كان يمضى أوقات العمل فى حجرتها حيث كان يستقبل الوزراء وكبار الموظفين بينما هى

تجلس بجانبه على مقعد وثير ، صحيح أنها كانت لا تتدخل فى المناقشات ، ولكن هذا لم يكن يمنع أن يستشيرها الملك فى كل شيء يعرض عليه بأن يلتفت إليها قائلاً :

« ما هو رأيك الصائب » ، وزاد تدخلها رويدًا رويدًا فى شئون الدولة وفى توجيه سياسة الملك ، حتى أصبح لها تأثير فى كل عمل من الأعمال بشكل واضح ، وخضع لها الملك خضوعًا تامًا فلم يعد ينفذ أمرًا إلا بعد موافقتها .

ولقد ظل لويس الـ ١٤ حتى لحظاته الأخيرة يعمل بمشورة « مدام دى مانتينون » التى بدأت معه كمحظية وانتهت كزوجة ، ثم أصبحت مستشارة ، ثم جاءت لحظة السيطرة والتسلط وذلك ليس بغريب على طاغية ، لأن هتلر كانت لديه إيفا بروان ، وموسولينى كانت لديه كلارا ، وستالين كانت لديه زوجته الثالثة ، كما أن أتاتورك كان لديه أكثر من واحدة ، وغير هؤلاء مما تمتلىء بهم قصص الطغاة ، والتى هى فى الواقع ليست من نبت الخيال ، وإنما هى روايات تاريخية صحيحة بأسانيد مدعمة لدى أكثر من مصدر ... ولا شك أن التسلط من جانب المرأة على رجل الحكم كفيل بضياع صوابه وبفساد آرائه .

فضائح الحكم :

لقد كانت معشوقات الملك يسسن الدولة ، ويتحكمن فى رقاب مسئوليها ، ولم تكن وظيفة الوزراء إلا مطاردة الأزواج الشرفاء

ليحظى سيدهم بزوجاتهم ، وسلطة أجهزة الدولة السرية سلاحها على الشعب بدلاً من العدو ، وامتلأت السجون والمعتقلات بالشرفاء ، وأصحاب الرأى وذوى العقول الواعية ، وكان لويس يطأ القانون حرصًا على سمعة معشوقاته ، وقلد النبلاء سيدهم وفاقوه فى الفجر والعشق ، يمكن أن نقول بلا تجن أنه عهد امتهنت فيه المعانى الإنسانية السامية وفقدت فيه القيم محتواها الأخلاقى ، وأصبحت كلمات الشرف والحفاظ على العرض مثيرة للازدراء والسخرية ، إنها بلا شك فضائح العهد الأعظم لعصر لويس الـ ١٤ ولا يمكننا فى هذه الصفحات القليلة أن تعرض الكثير منها ، بل ستقرأ سويًا بعض السطور ، وأعتقد أنها كافية لنعى ونفهم ما جرى ..

ولعل أخطر فضائح عصر لويس هى فضيحة مدموازيل « فرانسوا زدى مورتمار » ، وهى فتاة ذات جمال من النوع الأخاذ القهار ، الذى لا حول للعقل حياله ولا قوة ، والذى لا ترضى العين أن تفارقه فى الوقت الذى لا تقوى أن تواجهه ، جمال الشمس تحس به النفوس ، وتهفو إليه القلوب ولكن لا تتسامى إليه الأنظار ، وهذه الفتاة كانت تتصارع مع مدموازيل « دى لافاليير » التى كانت أقل منها جمالاً وفتنة ومع ذلك فإنها استتأثرت بقلب لويس الـ ١٤ ، ولم يطل الانتظار حيث لم يلبث الملك أن وقع فى شرك جمالها فاتخذها فورا خليلة له ، وهام بها هيامًا جعله يتخطى فى

سبيل إرضائها كل الحدود ، ويتجاوز سائر الاعتبارات ، حتى لقد بنى لها قصرًا بضواحى باريس كاد يحكى فى العظمة قصر فرساى ، بل فوق ذلك أعد لها فى قصر فرساى نفسه عشرين حجرة لها ولحاشيتها على مرأى ومسمع من الملكة ، ومنح أخاها لقب مارشال فرنسا ، وعين والدها حاكما عامًا لمدينة باريس ، ورزقت من الملك سبعة أولاد – رغم أنها كانت متزوجة من رجل آخر. -

ولكن الزمن لا يصفو ، والحياة لابد وأن يشوبها الألم ، والسماء لا تسكت عن جريمة الزنا المفضوح حتى وإن طال المدى ، فلقد اشتد غضب الزوج المنكوب وقصد إحدى الحفلات التى تسهر بها زوجته ، وصفعها أمام الملك لويس الـ ١٤ مذكرًا إياه بالعرف والأخلاق ، تاليا عليه آيات من الإنجيل تتوعد الزانى والزانية بالعقاب العاجل فى الدنيا والقصاص الآجل فى الآخرة ، وكان جميع الحاضرين يسخرون من الزوج المثلوم ، ولكن الملك أحس بالخوف داخله وخشى أن يطالب الزوج بأبنائه – أى أبناء الملك – من زوجته ، وله الحق القانونى فى ذلك ولما يئس الزوج من إمكانية أن يسترد زوجته لبس السواد وتوجه إلى الملك فى شكل حزين جعل الكثيرين يتعاطفون معه ولكن الشاعر موليير ألف رواية تسخر من الزوج مؤكدًا فى جملة أخيرة فى روايته هذه الكلمات :

« يا ليت شعرى هل فى مشاركة الأرباب .. عار » وتشاء الظروف أن رجال الزوج المسكين يتشابكون مع عمدة قرية فرنسية ، ويصدر الوزير الأعظم بناء على توجيهات الملك إلى رجال الشرطة وحاكم المقاطعة ضرورة إدانة الزوج مع الحفاظ على مظاهر احترام العدل والقانون ، وأحس الزوج بالمؤامرة ففر إلى أسبانيا ملتمسًا العدل من الله بعد أن يئس من عدل البشر ، وأوعز الملك إلى خليلته أن تطالب بالطلاق وتم ذلك بعد أن لوح جلالته لكبير القضاة بكرسى وزارة العدل ، ووصلت معشوقاته إلى أكثر من عشرة بينما المتعة العابرة لنساء متزوجات وصلت إلى أكثر من مائتى امرأة وبدأت شمس فرانسواز تأفل ، عندما عشق الملك فتاة فى الثامنة عشرة من عمرها شقراء كالسنبلة تدعى أنجليك إلا أن الغيرة جعلت فرانسواز تقتلها بالسم ، وقال البعض إنها قتلتها عن طريق السحر حيث ثبت أنها كانت تزور مجمع السحرة ، ولكن القدر الذى كان لها بالمرصاد فقد عاشت ٢٧ عامًا فى دير معزولة حتى ماتت .

ظل لويس الـ ١٤ يحكم حتى بلغ سن الـ ٧٧ وهى أطول مدة حكمها ملك فى تاريخ فرنسا ، وقد توفى فى أول سبتمبر سنة ١٧١٥م ، ولقد أمضى لويس نصف فترة حكمه فى حروب ، وكان ميالاً للبذخ وحياة العظمة ، ممتلئًا بالغرور ويرفض الاستماع إلى أى نصح أو إرشاد ، يظن نفسه العبقرى الوحيد على وجه الأرض .

ولويس الـ ١٤ ينتمى إلى أسرة البوربون التى حكمت فرنسا بداية من عام ١٥٨٩ حيث أسسها هنرى الرابع ، ويشاء القدر أن تنتهى مدة حكمها بعد مائتى سنة أى فى سنة ١٧٨٩ حيث تنشب ثورة فرنسا العظمى ، وإذا كان قد أطلق على لويس الـ١٤ يوم مولده « لويس هبة الله»، فإن الشعب الفرنسى عند مماته ودعه دون أن يذرف دمعة عليه ، وكأنه ارتاح من كابوس ظل جاثمًا على صدره لأكثر من سبعين عامًا .

وإذا كان لويس الـ ١٤ قد تميز بعينين كستنائيتين ، وأنف دقيق ، وثغر بسام ، وشكل ناعم ، فإنه فى ذلك لم يختلف عن الطغاة ، ولعل الأعجب من ذلك أيضًا أن عائلة الطغاة دائما قليلة العدد باستثناء نابليون بونابرت ، فإن معظم الطغاة لا نجد إلا شقيقًا واحدًا لهم ، أو لا يوجد على الإطلاق وهكذا لا نستغرب أنه كان للويس الـ ١٤ شقيق ولد بعد سنتين من ولادة لويس وقد أطلق على أخ لويس « فيليب دوق أنجو » . وقد أحب مرة واحدة فى حياته فتاة تدعى « مارى ماتشينى » إيطالية الأصل وهى بنت أخت الوزير الأكبر « مازران » وكتب لها عدة رسائل ولكن الملكة الأم حرمته من حبه الأول والأخير وزوجته زواج مصلحة .

عاش حياته مسرفًا مبذرًا الكثير من الأموال على الحفلات وهو الذى وضع تصميم قصر فرساى ليكون مقرًا للحكم بداية من ١٦٧٠م .

ولقد ظل لويس طول حياته مصابًا بمرض خطير ، يعرف فى عالم الطب باسم « الدودة الوحيدة » ولم يستطع أطباؤه شفاءه منها مع أنه عاش إلى سن السابعة والسبعين فقد ثبت فيما بعد أنهم أساءوا علاجه ، وكانوا أربعة أطباء وصفوا بالجهل .

وقبل أن يسير إلى النهاية نظر بحسرة لمن حوله وقال : « لقد كنت أعتقد أنه من العسير علىّ أن أموت » تمامًا مثل عبارات ستالين وموسولينى وهتلر وأتاتورك .

وفى الثامنة من صباح يوم الأحد أول سبتمبر سنة ١٧١٥ لفظ لويس الـ ١٤ أنفاسه الأخيرة قبل أن يبلغ سن السابعة والسبعين بثلاثة أيام ، ودقت أجراس السماء معلنة نهاية طاغية ورث الحكم المطلق عن آبائه وأجداده ، ولكنه فاقهم طغيانًا وجبروتًا ، آمن من البداية أنه مصدر كل السلطات ، ونسى أن الشعوب لا تفرح بالأمجاد المزيفة وبالبريق اللامع الذى هو فى الواقع لا يمنح التقدم ولا يحمى الحرية ولا يبنى السلام .

روبسبير

طاغية الثورة الفرنسية

حكم الطغاة يمثل العبودية الذليلة للإنسان فى أقبح صورها وأسوأ أوضاعها .. هى رحلة عذاب ودموع فى حياة الشعوب تتمثل فيها الغطرسة والاستبداد لسلب أعز ما منحته العناية الإلهية للبشر ألا وهى قيمة العدل والحرية .

ولكن تعلمنا دروس التاريخ أن المعاناة فوق جسر العذاب والآلام هى المخاض لحياة أفضل ، تلوح فى الأفق بعد أن تستوعب الجماهير ما قاسته خلال حكم الطاغية .

وشخصية روبسبير فاقت مثيلاتها من الطغاة ليس فقط فى ضحاياها ولكن فى الذرائع التى تسلحت بها لممارسة الطغيان من أجل حماية الحرية ، وخرجت المقولة التاريخية الشهيرة ، أيتها الحرية كم من الجرائم ترتكب باسمك .

إنه ذلك الطاغية الذى حول الثورة الفرنسية إلى حمامات من الدم ، ولم يتورع فى سبيل السلطة عن التخلص من أقرب أصدقائه ، وضرب كل من اعترض طريقه نحو كرسى الحكم ، ونسى أن قوى القهر قد

ترغم الجماهير على التراجع ، وتمزق صفوفها مؤقتًا ولكن الخوف سرعان ما يختفى ودماء الشهداء تصبح حبل المشنقة الذى يخنق الطاغية ، وبنفس أساليبه لأن الشعوب لاتحنق على حاكميها لمجرد أسباب عاطفية ولأن البشرية خلال رحلتها التاريخية فى موكب الزمن تؤمن وستظل تؤمن أن أى محاولة لتعطيل سير الديمقراطية ، تعد عنادًا لتيار التاريخ وسباحة فى شلالات عارمة وضد تطورها التقدمى ، الذى رسمته لها العناية الإلهية .

والذى لا شك فيه أن روبسبير ، كان مريضًا بحب السلطة وحب الدماء فى آن واحد ، ولقد أطلقوا عليه سفاح الثورة الفرنسية ، وعندما قالوا له إنه أعدم بالجيلوتين – أى المقصلة – ستة آلاف مواطن فرنسى خلال ستة أسابيع فقط كانت الصدمة لا معنى لها إلا أنه كان بطيئًا فى تنفيذ الأحكام ، وعاش روبسبير فريسة لمرضه « الإمساك » ومريضا بالقرحة فى المعدة لدرجة أنه كان يتوجع طوال الليل ويتمنى لو أمسك سكنًا ويقر أمعاءه ليستريح من الألم .

من هو روبسبير :

هو ماكمليان روبسبير ولد سنة ١٧٥٨ ، وانتهت حياته بالإعدام بواسطة المقصلة فى عام ١٧٩٤ ، أى أنه عاش فقط ٣٦ عامًا وهو بهذا أصغر طغاة التاريخ وأقلهم استمرارًا فى الحكم حيث لم ينفرد بالسلطة سوى ثلاث سنوات ، عاش حاكمًا فيها كملك

غير متوج على فرنسا لمدة عام واحد فقط ، بعد أن قتل دانتون عقب إعدام الملك لويس الـ ١٦ فى سنة ١٧٩٢ .

ولقد ولد فى « أراس » فى فرنسا ، وامتهن المحاماة بعد أن درس القانون وكم هى مأساة للبشر أن يصبح رجل القانون هو اللص وأن يكون المدافع عن العدالة هو قاتلها وسارقها .

وقد انتخب فى الجمعية الوطنية سنة ١٧٨٩ ، وأصبح عضوًا مؤسسًا لنادى اليعاقبة ، وهو حزبٌ تكون من عناصر ثورية متطرفة فى الثورة الفرنسية التى نشبت فى ذلك العام ، وحطمت ملكية فرنسا التى كانت تحت حكم أسرة البوربون والتى منها لويس الـ ١٦ ، ذلك الملك الضعيف الذى ابتلته السماء بزوجة نمساوية هى مارى أنطوانيت التى كانت سببًا فى ما أحاطه من مصائب ، ورغم أن روبسبير استمد الكثير من أفكاره الثورية وأقواله عن الحرية مما كتبه جان جاك روسو أحد فلاسفة الثورة الفرنسية — إلى جانب فولتير ومونتسكيو — إلا أنه بالفعل اعتبر نفسه مبعوث العناية الإلهية لدفع عجلة الثورة الفرنسية إلى الأمام ، ونادى بنفسه المشرع الأوحد والإله الأعظم ، وقد سيطر روبسبير من خلال استغلاله جماهير باريس على لجنة الأمن العام ، وتصدى لخصومه وبدأ يتخلص منهم الواحد تلو الآخر وبالذات عدوه اللدود « دانتون » أحد العناصر الأخلاقية والإنسانية فى تاريخ الثورة الفرنسية .

وقد استمرت فترة حكمه فى فرنسا فى الفترة من أكتوبر ١٧٩٣ حتى يوليو ١٧٩٤ وكان مع « كرتون » ، وسان جوست ، يشكلون ثالوث الإرهاب المفزع خلال تلك الفترة وأسس روبسبير ديكتاتورية رهيبة فاقت كل الديكتاتوريات التى شهدتها فرنسا خلال تاريخها الطويل .

وقد سيق روبسبير وأخوه وكذلك سان جوست وكرتون ، يوم ٢٧ يوليو سنة ١٧٩٤ إلى المقصلة فى مشهد رهيب حيث خرجت باريس عن بكرة أبيها ترى مصرع السفاح ، وتتنفس الصعداء بعد القضاء عليه ، ولم تلبث عواصم أقاليم فرنسا أن شنقت كل أعوان روبسبير فى نفس اليوم والذين بلغ عددهم ثمانية عشر وهكذا سقطت « دولة الفضيلة » التى حاول روبسبير إقامتها على صرح من دماء المواطنين الأبرياء .

ورغم أن الهدف الرئيسى لخصوم روبسبير كان التخلص منه شخصيًّا إلا أن الجماهير لم تترك خلفاءه يمارسون نفس سياسته .

الجنون . . والعظمة :

والآن يجب أن نذكر كيف وصل روبسبير إلى هذه الدرجة من الجنون والعظمة وكيف أصبح هو الحاكم الأوحد ولماذا سكت زملاؤه فى الثورة عن أفعاله طيلة عشرة شهور ؟ والواقع أن الإجابة

عن هذه التساؤلات تتطلب منا الرجوع إلى سنوات نشوب الثورة الفرنسية التى أفرزت هذا النوع من الزعامات وتركتهم يلطخون أسمى حدث فى القرن الثامن عشر بالدم والحقد والكراهية ..

ظروف الثورة الكبرى :

كانت فرنسا تحكم من خلال ملكية غبية أساءت إلى نفسها وتاريخها بسوء تصرفات حكامها ، وعاش هؤلاء الحكام فى غيبوبة عما يحيط بهم ، وعزلوا أنفسهم عن شعبهم وتحالف هؤلاء الحكام مع مصاص الدماء من رجال الإقطاع وكبار رجال الدين ، ولكن الشعوب الحية لا تسكت طويلاً عما يحيق بها من ظلم وإرهاب ولذا سرعان ما نشبت الثورة الفرنسية عقب سلسلة من الأحداث ، والتى أنتهت بضياع هيبة الملكية وبتردى فرنسا فى فوضى اقتصادية وأزمات مالية ، وكان يحكم فرنسا وقت نشوب الثورة ملك ضعيف الشخصية متردد خاضع لأهواء زوجته الغريبة عن الشعب الفرنسى وإذا كانت هناك مقولة تاريخية صحيحة إلى حد ما ، وهى أن لويس الـ ١٦ ورث الثورة عندما ورث العرش لأن الثورات لا تنبت من فراغ وفرنسا كانت حبلى بالثورة ، وقت ولاية لويس الـ ١٦ ، غير أن لويس ساعد على اندفاع تيار الثورة بسبب سلوكه وعجزه عن إيجاد الحلول لمشاكل شعبه واستمراره فى نفس سياسة أسلافه رغم تغير الظروف .

وكما نعلم فإن الثورة لا تنشأ ولا تقوم نتيجة للظلم ، ولكن نتيجة للإحساس بالظلم فقد رزقت فرنسا بمجموعة من الكتاب والمفكرين ، حركوا مشاعر شعبها من أمثال « فولتير » و « جان جاك روسو » و « مونتسكيو » و « ديدرو » ومن خلال أعمالهم أحست الجماهير الفرنسية أن الحياة بلا حرية لا معنى لها ، وأن الإنسان ولد حرًّا ، ولكن السلطة الظالمة تكبله بالقيود ، وبدأت أحداث الثورة فى ١٤ من يوليو سنة ١٧٨٩ بتحطيم سجن الباستيل قلعة الظلم فى فرنسا ، وبعدها انطلقت الجماهير الفرنسية تحطم كل معالم عصر الإقطاع لتبنى مجتمعًا عادلاً طالما حلمت به ، ولكن الثورة لم تلبث أن تعثرت ووقع أبطالها فى أكثر من المحظور بل إن بعض قيادتها مارسوا نفس. ما كانوا يعانون منه قبل أعدائهم وإذا كان ذلك مقبولاً فإن المفروض قطعًا ألا يمارسوا الظلم تجاه أصدقاء الثورة أو من قامت الثورة من أجلهم ، ودخل رجال الثورة فى صراع مع بعضهم البعض وكانت الجماهير هى الضحية .

ورغم أننا لا ننكر على الثورة الفرنسية أنها أم الثورات التحررية إلا أن الثمن الذى دفعه الشعب الفرنسى كان غاليا حتى تستقر قيمة الحرية فى النفوس وسيهتم التاريخ الفرنسى على الدوام بأمر « ميرابو » ذلك المغامر السياسى والخطيب الشعبى والمشرع على أنه الرجل الذى اجتهد عبثًا فى وقف تيار الفوضى الجارف وإنقاذ

تاج فرنسا ، وذلك لاعتداله ولأن ما تنبأ به حدث فعلاً من حيث حمامات الدم التى غرقت فيها فرنسا سنوات طوال وكان « ميرابو » ، هو صاحب الكلمات النارية التى واجه بها مندوب الملك عندما أراد أن يفض مجلس طبقات الأمة حيث قال لهذا المندوب :

« قل لسيدك – يقصد الملك – نحن هنا بأمر الشعب ولن نبرح أماكننا إلا على أسنة الرماح » .

وتطورت الظروف الداخلية فأثارت ملكيات أوربا التى هبت للدفاع عن ملكية فرنسا ومن ثم أساءت إليها دون أن تدرى ، فكان أن اعتبر الثوار الملك لويس هو رأس الخطر ، وأن فرنسا مهددة من خلاله ، ومن ثم قبض على العائلة المالكة وسجنت ، وحوكم الملك وتقرر إلغاء الملكية من فرنسا وأعلنت الجمهورية فى ٢٢ سبتمبر سنة ١٧٩٢ .

وتبين أنه لكى تدافع فرنسا الثائرة عن نفسها فى مواجهة أوربا الرجعية وملكياتها الفاسدة ، لابد وأن تخضع فرنسا لشكل دقيق من أشكال الاستبداد يغاير كل المغايرة نظام تشتت السلطان السياسى الذى وجد له أنصارًا ومجندين فى مستهل الثورة ..

وهكذا كان المناخ السياسى والظروف التى أحاطت فرنسا فى الداخل والخارج هى التربة التى أفرزت عصر الإرهاب بزعامة روبسبير بعهد الطغيان الذى ليس له مثيلاً فى النهاية .

إن مفتاح إدراك كنه الثورات هى أنها تحركها وتديرها نهيئات قليلة العدد شديدة التطرف ، ولقد تكونت فى أبريل سنة ١٧٩٣ حكومة من اليعاقبة أى المتطرفين المعروفين تاريخيًّا باسم حزب الجبل ، وهذه الحكومة عرفت باسم لجنة الأمن العام « وقد دخلها روبسبير فى ٢٨ يوليو سنة ١٧٩٣ ومن هذا اليوم سيطر على هذه اللجنة بقبضة حديدية وأصبح هو حاكم فرنسا الحقيقى ولقد تميز عن غيره من رفاقه بنزاهته عن المال العام .

وللتاريخ نقول إن روبسبير أنقذ فرنسا من كثير من الأخطار الحربية ولكنه سطر تاريخه بعار لا يمحى يلصق باسمه حتى نهاية البشرية ، وما قيمة ما يمكن تحقيقه أمام ما يبقى لاصقًا بالأذهان مضادًا لقيم الإنسان .

كان روبسبير نحيل البدن صغير الجسم متوسط الطول ذو رأس كبيرة وصوت ناعم يتمتع بكلمات نارية يسحر بها سامعيه ، ويحفظ مجموعة من الشعارات تدير رءوس العامة ، كلها صفات التصقت بالطغاة فى زمانه أو من سبقه أو من لحقه .

كان روبسبير يعتقد نفسه أن فرنسا مجسدة فى شخصيته ، وأنه بعث ليرسى قواعد الفضيلة بين عشيرته وذويه وأهله ، كان يؤمن بكل كلمة تخرج منه ورغم أن خطبه كانت سهلة العبارة إلا أنها كانت مليئة غلاً وحقدًا ، وقد عرف عنه أناقة الهندام إلى

أقصى حدود الأناقة ، وأدب السلوك والتظاهر الرائع بالتمسك بالفضيلة ... ولم يكن لكل منشق على عقيدته سوى علاج واحد بسيط هو المقصلة ..

روبسبير . . والطغيان :

اتهم رفيقيه هيبر ، وشومت فى مارس سنة ١٧٩٤ بتهمة الإباحية والإلحاد ليخلو له الجو وفى أبريل من نفس العام جز نصل المقصلة رقبة صديقيه أو بمعنى أدق منافسيه دانتون وديمولان ، وكان ذنبهما أنهما طالباه بالرجوع إلى الرحمة والاعتدال .

لقد كانت أساليب التعذيب فى عهد روبسبير رهيبة فى المجال النفسى للضحية حيث كان يضع ضحاياه فى قبر تحت الأرض ، وكل يوم يرسل كشفا يقرأ عليهم به من تقرر إعدامهم ، ولم يكن أحد بقادر على التنبؤ بمن سوف يأتى الدور عليه ، وهكذا جن جنون الضحايا حتى قبل أن يساقوا إلى حبل المشنقة والذى لم يكن حبلاً ولكنه كان سكينا حامية هى سلاح المقصلة .

وأصبح منظر الدماء عاديًّا ، وتجر الضحية كالكلب الأجرب وحوله أنصار روبسبير من رعايا باريس يهتفون ضد الضحية ويصفقون عليها وكأنهم فى حفل زفاف يهللون ويتصايحون ، ألاما أبشع أن تهان الإنسانية بهذه الصورة .

لقد ألغى روبسبير الديانة الكاثوليكية من فرنسا ، وجعل عبادة الكاهن الأعظم تلك العبادة التى نصب نفسه فيها كاهنًا أكبر ، أليس ذلك جنونًا حقيقيا وهل يملك إنسان عاقل أن يحول عقيدة شعب طوال آلاف السنين إلى عبادة فرد مهما كانت صفاته وخصاله كما ألغى التقويم الميلادى وابتدع تكوينًا جديدًا لفرنسا مبتدئًا ذلك ببداية التاريخ الذى قامت فيه الثورة .

وفى ظل الإرهاب كسدت تجارة الشعب ، وازدادت به الضائقة المالية ، وظهر حوله التجار الجشعون وكأن عصر الملكية قد عاد من جديد حيث ارتفعت الأسعار بشكل لا مثيل له ، وبدأ الناس يترحمون على عهد الملكية وما كان فيها إلى حد ما من احترام لآدمية الإنسان إذا ما قورن ذلك بعهد روبسبير .

لقد كان روبسبير يشنق أعداءه موهمًا الشعب أنهم أعداء الثورة ، ولقد استعان روبسبير بجناحين لتدعيم حكمه المطلق ، وتثبيت أحكام طغيانه هما سان جوست الذى يعتبر العقل المدبر لكل أفعال روبسبير وجون بارير الذى يعتبر اللسان المعبر عن أعماله .

ولولا رحمة الله بفرنسا والفرنسيين لكانت فترة حكم روبسبير قد طالت وامتدت أكثر من سنة لأن الواقع التاريخى ، يحكى أن ما فعله روبسبير فى عام كان أقسى على الشعب الفرنسى مما فعله غيره فى أكثر من مائة عام .

وفى تلك الفترة التى امتدت من عام ١٧٩٣ حتى عام ١٧٩٤ ، كان التعصب الدموى يسود فرنسا وكان منظرًا عاديًا أن يساق آلاف المواطنين صباحًا ومساء لتقطع رءوسهم ولكى ندلل على ما نقوله فإنه حينما أبدى روبسبير قلقه من كثرة أعداء الثورة ، تقدم إليه سان جوست باقتراح مصادرة أملاك كل من تعلق به شبهة ولكن باربر الجناح الثانى للطغيان يقول له :

« لن تبلغ السفينة المرفأ إلا فوق بحر قان لججه الدماء » ثم لا يلبث أن يسانده سان جوست بقوله :

« لا يصلح حال أمة إلا على تلال الجثث » :

ولقد شكل روبسبير فى عهده « محكمة ثورية » هى أعجب محاكم التاريخ كما وصفها الجنرال « جوفيون دى سان سير » فى مذكراته : .

« كانت هذه المحكمة لا يقبل أمامها محامون ، وشخصية المبلغ لا تظهر أمامها ولا يجىء ذكر اسمه ، ولا يواجه بمن أبلغ عنهم ، لا أوراق لهم ولا سجلات وحتى الحكم لا يكتب ولا الاستجواب إنما كان الأمر يجرى شفاهًا ، يقبض على المتهم فى الساعة الثامنة ويحاكم فى التاسعة ويعدم رميا بالرصاص فى العاشرة. وكانت ترصد مكافأة مالية للمبلغ دون أن يظهر اسمه بأى حال ، ويواصل الجنرال قوله فى المذكرات :

وبهذه الوسيلة الدنيئة أمكن الحصول على بعض الضحايا الذين كانوا يطفئون أكلة لحوم البشر من أمثال روبسبير وسان جوست .

بداية الأزمة :

ولا شك أن عملية إلغاء الدين المسيحى من فرنسا سقطة من سقطات روبسبير وكانت فى الواقع بداية الأزمة الحقيقية بينه وبين الجماهير الفرنسية المتدينة — خاصة بعد أن استولى روبسبير على كنيسة روتردام ، ووضع وسط قدس الأقداس تمثالاً لإحدى الممثلات رمزًا للحرية وسموها معبد العقل ثم صدرت الأوامر تباعًا بإغلاق كل الكنائس .

ولقد بلغ عدد من صدرت ضدهم أحكام بالإعدام خلال عهد روبسبير نحو سبعة عشر ألفا ، أما إذا أضفنا من سقطوا فى ميدان الحرب الأهلية ونسبة من توفوا فى السجون قبل تنفيذ الأحكام فيهم فسنجدهم حوالى أربعين ألف قتيل وطبقًا لرواية المؤرخ الفرنسى « جورج ليفيير » أستاذ التاريخ بجامعة باريس وعضو المجمع اللغوى الفرنسى أن عدد المقبوض عليهم من المشتبه فيهم فى عهد روبسبير وصل إلى ما لا يقل عن ٣٠٠ ألف مواطن ، وإذا ما أضفنا إلى كل ذلك ما حدث فى الأيام الأخيرة لحكم روبسبير من إلغاء كل تحقيق قبل المحاكمة ، وبترك الشهود يختارون حسب هوى المحكمة ،

وبرفض السماح للمتهم أن يحصل على محام يدافع عنه هذا بالإضافة إلى أن المحكمة كانت مجبرة أن تختار بالحكم إما بالبراءة وهذا كان لا يحدث قط – وإما بالإعدام – ، إذ كان هذا قد حدث فإن كابوس الرعب قد ازداد نتيجة للقبض على النواب ومحاكمتهم بحيث أصبحت عربات السجون تملأ يوميًّا بالضحايا البشرية ، فإنه حتمًا بعد هذا كان لابد وأن يحدث شيء ولعل أبسط مظاهر هذا الشيء هو أن الإرهاب لابد وأن ينقلب ضد الذين ابتدعوه .

أكبر عدو للأحرار :

ورغم ما شاب عصر روبسبير الإرهابى من محاولات لإقناع الجماهير بأنه يعمل من أجل شرف الجمهورية وحماية الحرية من العابثين بها إلا أنه هو نفسه كان أكبر عدو للأحرار ، ولقد صدق عليه ذلك المثل الذى يقول : « أيتها الحرية كم من الجرائم ترتكب باسمك » ، نذكر من أفعالهم المداراة لإقناع الجماهير بأسلوب حكمهم ما فعله « سان جوست » ظهيره فى الطغيان عندما قام بالقبض على المدعى العام لمحكمة الثورة فى إقليم « استراسبورج ، وكان هذا المدعى من أصل ألمانى ويدعى « شنايد » وقد عمل فى مرحلة من حياته أستاذ اللاهوت فى بون وتدرج فى سلك الرهبان الفرنسيسكان . ثم خلع الطيلسان والزنار ودرج فى زمرة غلاة الثورة الفرنسية المعروفين « اليعاقبة » ، وقد بلغ من جبروته أن

أمر بصنع مقصلة « نقالى » ودار فى المحكومين عسفًا وتقتيلاً وكانت غالبيتهم من مساتير الناس لا شأن لهم بسياسة ولا بحكم ، أما الأثرياء فقد ساس أموره معهم بالمعلوم ثم فرض على فتاة ثرية الاقتران به ، وقد أمر سان جوست بانتزاع الرجل من فراش عرسه بليل ، وأمر أن يربط بخشب المقصلة ، ويعرض على الناس من الصباح حتى بعد الظهر وفوق رأسه لوحة مكتوب عليها من جراء الاعتداء على شرف الجمهورية » وأرسل هذا المدعى مقبوضًا عليه إلى باريس حيث حوكم وأعدم ، ولكن هذا كله لم يحل دون أن يصدر سان جوست أوامره باسم روبسبير بإعدام ثلاثة وتسعين من الأهالى الفرنسيين فى ستراسبورج أمثولة وإرهابًا ..

لقد عاشت فرنسا خلال عصر روبسبير وسائل إرهابية شرسة لإقرار النظام ظهرت واضحة فى عدد الضحايا التى أريقت دماؤها وفى ذلك الاكتتاب الذى فرض على الفرنسيين بالقوة لحل أزمة فرنسا المالية حيث أن السادة الحكام لا يريدون أبدًا المساس بمخصصاتهم المالية .

ولكن من المهم أن ندرك أن الجريمة التى ارتكبها روبسبير ومن معه من عصبة ساعدته على سيادة حكم الإرهاب فى حق « دانتون » وجماعته لم تنس حتى الآن من تاريخ الثورة الفرنسية إلا أنه والحق يقال إن فرنسا نكبت بمجموعة تالية بعد روبسبير

إلا وهى جماعة « باراس وتاليان ونوشيه » ساقت فرنسا إلى كثير من المآزق ولم تخلصها من تلك المآسى التى كانت تشكو منها فى عهد روبسبير .

نهاية روبسبير :

مضى روبسبير ، ذلك النمر الضارى ، دراكولا مصاص الدماء ، قضى على نفسه بتطرفه واشتطاطه فقد أصدر فى ١٠ يونيو سنة ١٧٩٤ قانونًا كان بمثابة السيف على رقاب أعضاء المؤتمر الوطنى الفرنسى ، بمقتضى هذا القانون حرم أعضاء المؤتمر من حصانتهم البرلمانية ، وكان يهدف من وراء هذا القانون الإطاحة بكل من يرفع رأسه معارضًا إياه أو مخالفا أفكاره ، ولكنه نسى ما قد يصنعه الخوف فى لحظة اليأس ، ذلك أن الشجاعة قد تدب حتى فى قلب الجبان إذا ما اضطر للدفاع عن نفسه ، وخشى أعضاء المؤتمر الذين وعوا درس المقصلة جيدًا ، خشوا على أنفسهم ولذا دبرت مؤامرة ضد « روبسبير » وأعوانه واتفق كل من « باراس وتاليان » متزعمين المؤامرة وهما من رجال الثورة اللذان كانا خائفين على ما يفعله « روبسبير » ومن معه ، ولذلك عزما على التخلص من هذا الطاغية ، وبدلا من استخدام الخطب والكلمات لإسقاطه استخدمًا نفس أسلحته ، أى القوة ومن ثم جهزا قوة عسكرية واقتحما بها دار البلدية التى كان بها روبسبير يحاول تبرير جرائمه

وتدبير جرائم جديدة ، ونجحت إحدى الرصاصات التى أطلقت عليه فى أن تصيب فكه واقتبد وهو يقطر دماء إلى المقصلة ، كى يذوق نفس الكأس التى أذاقها للكثير من فرائسه .

وهكذا انتهى الكابوس المخيف الطويل ، وزالت فجأة حمى التذبيح الممقوتة التى كلفت باريس وحدها ألفين وستمائة ضحية وبقية أنحاء فرنسا أكثر من ثلاثين ألف قتيل ، لقد وجهوا له تهمة الخيانة العظمى فانفض من حوله أنصاره وتركوه لمصيره المحتوم ، وانتهى هوان الشعب الفرنسى بتخلصه من حكم الطاغية وبدأت روح الأمل تدب من جديد لإقامة مجتمع الحرية والإخاء والمساواة الذى افتقدته الجماهير بعد ظلام ليل طويل .

وهكذا يتأكد لنا فى النهاية أن الناس لا يفسدون بممارستهم القوة ولا هم ينحطون ويذلون بالتزامهم عادة الطاعة ، ولكنهم يفسدون بممارستهم قوة يعلمون أنها غير مشروعة وينحطون ويذلون بانصياعهم لحكم يعتبرونه مغتصبًا وظالمًا ، تلك هى إحدى عظات التاريخ التى لا يجب أن تغيب عنا نحن البشر سواء كنا حكامًا أو محكومين .

حسنى الزعيم

طاغية سوريا

فى ظل حكم الطغاة يصبح الخوف سيفًا مسلطًا على رقاب الجماهير ، حيث الفزع والرعب لهما الكلمة العليا ، القلق يعربد يخلع الأفئدة والعدل صريع فى الطرقات والشرفاء مجبرون على الانحناء ، ولكن يظل الأمل فى قلوب الأحرار يضيىء الطريق إلى المستقبل مهما كانت صلافة الحاكم واستبداد الجالس على كرسى السلطة .

والشعب عندما يكشف خداع زعيم من زعمائه ، أو حاكم من حكامه لا يفقد هذا الزعيم أو الحاكم مكانته فحسب ، وإنما يفقد الشعب ثقته بكل من يحكمه ، فليس السياسى وحده هو ضحية أكاذيب الساسة المخادعين .

والطاغية يعيش بروح ذئب يسطو على الفريسة ، أينما تلوح له ينقض على كل معارض يقف فى مواجهته ويتبع أحسن أساليب الغدر والخيانة والخداع ليضمن بقاءه فى السلطة واستمراره فى فى الحكم .

وفى عهد الطغاة تسقط المثل والمبادئ صريعة المصالح والنفعية وتطعن القيم والفضائل بالحراب ، فتخر مشحونة بجراح الخسة والدناءة .. الأنانية تسود والانتهازية تتفشى ، والأحقاد تسيطر ، وطاغية هذا الفصل هو حسنى الزعيم الذى قاد أول انقلاب عسكرى فى سوريا .

وقد حدث انقلاب حسنى الزعيم فى ٣٠ مارس سنة ١٩٤٩ وكان حسنى الزعيم فى منصب رئيس أركان حرب الجيش السورى ، وقد تم هذا الانقلاب دون إراقة دماء ولم تثر إزالة النظام القائم وقتئذ شيئًا من الدهشة ، ولم تبعث فى نفوس السوريين أى أسى ذلك أن الخيبة الناجمة عن الهزيمة فى فلسطين والخوف والقلق من المستقبل جعل الناس يرحبون بتغير نظام الحكم .

والشعب عادة ما يزداد تذمره من حصر السلطة فى أيدى فئة قليلة من الناس ومن سوء الإدارة بوجه عام ، وأعلن أن هدف الانقلاب تقوية الجيش وإصلاح أداة الحكم ، ولا يمكن أن ينكر أحد أن إصلاحات كثيرة فى الأيام الأولى لحكم حسنى الزعيم قد تمت ، ولكن خروج الجيش عن مهمته وأضواء السلطة وخضوع الزعامات المدنية للقوة العسكرية ، أدى فى النهاية إلى انحراف حسنى الزعيم الذى عمد إلى تنصيب نفسه رئيسًا للدولة ، وبدأت تسيطر عليه مظاهر العظمة ، وكان الزعيم فى علاقاته مع الدول العربية

مضطربًا غير متزن ، فلقد بدأ حياته السياسية بالتقرب إلى العراق والأردن ، ولكنه سرعان ما ترك الأسرة الهاشمية ثم اتجه إلى مصر والسعودية ثم انقض عليهما فى تصريحات ضد أنظمة الحكم فيهما ، ولا شك أن تهور حسنى الزعيم وعدم اتزانه فضلاً عن استبداده فى الحكم ، كان سببًا فى انهيار الأمل الذى تعلق به الجميع بالنسبة لنظام حكمه ، وكل ذلك أدى فى النهاية إلى انفضاض أعوانه من حوله وكان أن وقف الجيش نفسه ضده ولم يلبث أن قام أصدقاؤه بانقلاب ثان أدى إلى اغتيال حسنى الزعيم بعد محاكمة صورية ، ولم يكن قد مر عليه فى السلطة أكثر من عام .. ولكن فلنبدأ القصة من بدايتها .

سوريا . . الشعب والأرض :

مساحة سوريا تصل إلى حوالى ١٨٥ ألف كم٢ والشعب السورى مؤلف من بدو وعرب فى أكثريته ومن أقلية تركية على الحدود الشمالية وبضع عشرات من الألوف من الأكراد فى الشمال الغربى ، وبضعة آلاف من الأشوريين يعيشون فى الشمال الشرقى ، وأقلية ضئيلة من الشركس وحوالى مائة وخمسة آلاف من الأرمن لجئوا إليها بعد مذابح الأناضول إلى جانب ما يقرب من ربع مليون من الدروز ، يعيشون فى منطقة جبل العرب المعروف باسم جبل الدروز ، ويصل تعداد سوريا حاليا حوالى ثمانية ونصف مليون نسمة ،

وتشترك سوريا فى الحدود مع العراق جهة الشرق ، وتركيا فى الشمال والأردن ، وفلسطين فى الجنوب ويحدها البحر المتوسط ولبنان من ناحية الغرب .

وإذا كان الأشوريون يفضلون التحدث بلغتهم السريانية والأرمن بلغتهم الأرمنية الغربية ، والأتراك يتفاهمون بلهجة قاسية مغولية الأصل ، والأكراد بلهجة كردية فإن لغة السوريين جميعًا هى اللغة العربية التى يتحدثون بها منذ الفتح العربى لسوريا .

والطوائف الدينية فى سوريا اليوم تتعدى الثلاثين طائفة ، وعمليا إذا أخذنا بالتقسيم الدينى وجدنا أن المسلمين يشكلون أربعة أخماس الشعب السورى ، بينما يشكل المسيحيون الخمس الباقى ، أما اليهود فعددهم قليل لا يزيد عن عشرة آلاف يتركز ثلثهم فى دمشق .

وقد حددت الفوارق الاجتماعية المختصة بالزواج هذه الثنائية الطائفية والدخيل المحتل فى الماضى قد غذاها ، غير أن السواد الأعظم من الشعب أظهر دائمًا عزوفه عن مثل هذه السياسة الطائفية ، والحقد الذى خلفته الحروب الصليبية قد تطهرت منه النفوس ، والدليل على ذلك التعايش السلمى والتعاون المثمر ، والتضامن والتكاتف الوثيقان اللذان يسودان التاريخ السورى .

صورة الحكم فى أعقاب حرب فلسطين :

كان لهزيمة فلسطين أثر كبير فى تدهور أحوال سوريا ، وزادت فظائع سوء الإدارة إلى جانب الاختلاسات المالية ، واهتزت صورة الاقتصاد السورى ورغم أن شكرى القوتلى كان على رأس الجمهورية ، وهو أحد أبطال الكفاح من أجل الاستقلال ومشهور بنزاهته إلا أن الكثير من هذه الأمور المزرية كان يحدث دون علم منه ، ولقد عمت النقمة كافة الأوساط الشعبية فما كان من الجيش إلا أن استغل هذه النقمة وجهها الوجهة التى يريد ، والجيش فى منطقة الشرق الأوسط ، أسوة بكل مناطق العالم الثالث ، كان ولا يزال يلعب دور الرادع المسكن ، هذا الدور الذى كان يجب أن تلعبه الطبقة البرجوازية ، ولكن هذه لا نفوذ ولا حول لها ، لأن الدائرة الاستعمارية حرصت على القضاء عليها .

أى أنه يمكن أن يقال إن سوريا فى الفترة منذ حصولها على الاستقلال وحتى تدخل الجيش سنة ١٩٤٩ ، تميزت بعدم الاستقرار السياسى وبضياع المصالح الشعبية فى ظل انقضاض كبار الملاك والبرجوازية الكبرى على نتائج معركة الاستقلال الوطنى .

من هو حسنى الزعيم :

ولد فى مدينة حلب من أم كردية وأب تركى ، وقد تخرج فى الكلية الحربية فى إستانبول وفى الكلية العسكرية بدمشق :

واشترك في القتال في الحرب العالمية الأولى مع الجيش العثماني ، وقاتل إلى جانب قوات الملك فيصل الأول في سوريا ضد الفرنسيين ، كما اشترك في القتال مع قوات فيشي ضد قوات ديجول ، وقد قبض عليه الحلفاء بعد دخولهم سوريا وتوسط للإفراج عنه شكرى القوتلى – الذى قام حسنى نفسه بالانقلاب عليه – وقد تولى منصب مدير الشرطة في سوريا ثم نقل إلى الجيش وكان يتشبه بالجنرال فرانكو ، ويظهر إعجابه بنابليون وهتلر وموسوليني وتمنى أن يستعيد في شخصيته شخصية كمال أتاتورك ، وكان حسنى الزعيم متزوجًا من سيدة عمرها ٣٢ عامًا تركية الأصل وكانت صاحبة فكرة منح المرأة حقوقها .

وبمجرد أن تولى سلطاته نقض تعهداته ، ذلك أن أول أمر أصدره حسنى الزعيم يوم استيلائه على الحكم هو إلغاء جميع الألقاب في سوريا ولكن خرج علينا بلاغ مجلس الوزراء السورى بأن لقب الزعيم هو « حضرة صاحب الدولة الزعيم السيد حسنى الزعيم رئيس مجلس وزراء الجمهورية السورية ووزير الداخلية ووزير الدفاع والقائد العام للجيش والقوات المسلحة في سوريا »

وفى خلال أربعة أيام منذ توليه السلطة أعلن تعديلين وزاريين في وزرائه .. كان دمويًا رغم أن انقلابه كان أبيض ولكن الواقع أنه وضع على رأس الانقلاب وحاول سرقته ، ويكفى أن نقول

إنه خلال أيام من وصوله للسلطة أصبح يقلد هتلر فى كل خطواته حيث جعل من سوريا حلقة للجاسوسية بعضها ضد بعض ورفع رأس الأقليات فى مواجهة الأغلبية وعندما وصلته أنباء أن حماة رئيس وزراء سوريا السابق قالت عنه إنه لص لم يخجل أن استدعاها وزج بها فى سجن المزة .

وكما ارتفع فجأة فإنه سرعان ما سقط فقد كانت نهايته سوداء حيث قتل هو ورئيس وزرائه على بعد ٢٠٠ متر من سجن المزة بعد أن ربطا إلى الشجر وأطلق عليهما الرصاص بلا رحمة .

ولعل أغرب عقوبة وقعها خلال فترة حكمه كانت تلك التى لحقت بميشيل عفلق وزير المعارف ، الذى حلق له شعر رأسه وزج به فى معتقل المزة بعد أن انتقد سياسته فى منشور ووزعه على الجماهير .

ولكن كيف هيأت الظروف لقيام أول انقلاب عسكرى فى الشرق الأوسط وفى العالم العربى ؟ والإجابة على ذلك ، أن المناخ السياسى فى سوريا كان تربة مهيأة لظهور الطاغية حسنى الزعيم ، الذى رغم أن إنقلابه لم يستمر أكثر من أربعة شهور إلا أنه كان فاتحة لعدة إنقلابات شجعت قوى عسكرية أخرى لتقوم بمغامراتها ولم تكن تملك من الرصيد الفكرى شيئًا ودفعت شعوبها الثمن من عمرها ، وبدلاً من أن توجه قضاياها مع التحرر من المستعمر كان عليها أن تواجه حكامها المستغلين .

« هناك من المؤرخين من يعتقد أن أول انقلاب عسكرى هو انقلاب بكر صدقى الذى وقع فى العراق سنة ١٩٣٦ » .

المناخ السياسى الذى أدى للانقلاب العسكرى :

وحيث لم يكن فى استطاعة القوى السياسية الموجودة على السطح فى ذلك الوقت أن تتقدم ببرنامج عملى لإنقاذ سوريا مما هى فيه ، فإن حتمية تحرك القوات المسلحة للقيام بهذا الدور كان من الأهمية بمكان .

وهذه القوى السياسية يمكن تصنيف اتجاهاتها على الأسس التالية :

١ - الأحزاب التى تمثل التيار الدينى وكان يمثلها الإخوان المسلمين .

٢ - الأحزاب الأقلية وتتجسد فى الحزب القومى السورى .

٣ - الأحزاب المتطرفة اليسارية وتمثلت فى الحزب الشيوعى السورى .

٤ - الاتجاه القومى الاشتراكى ويتجسد فى حزب البعث العربى الاشتراكى .

٥ - الاتجاه القومى الوحدوى ويتمثل فى حركة القوميين العرب .

٦ – الاتجاه المحافظ والتقليدى وكان يمثله حزبان هما حزب الشعب والحزب الوطنى والواقع أن أى من هذه المجموعات السياسية كان غير قادر على الوصول إلى كرسى الحكم من خلال انتخابات نزيهة وبالتالى وقف معظمها عاجزاً عن طرح رؤيا عملية يمكن تطبيقها بالاسلوب الشرعى لحل مشكلات سوريا .

الإعداد للانقلاب وتنفيذه :

عادة قبل القيام بأى انقلاب تتم عدة اتصالات بين القوى السياسية وبين القوى العسكرية التى تنوى الانقلاب ، أو العكس وفعلاً فإن انقلاب حسنى الزعيم الذى تم فى ٣٠ مارس سنة ١٩٤٩ قد تم بتشجيع ودعم عدد من القيادات السياسية إذ أنه فى بداية ١٩٤٩ بدأ عدد من القيادات السياسية ممن كانت تعارض نظام الحكم السابق فى التفاوض مع حسنى الزعيم ، من أجل القيام بحركة عسكرية للإطاحة بالنظام القائم ، ووافق حسنى على التعاون معهم وكان أشهر هؤلاء السياسيين أكرم الحورانى نائب حماه ، ذلك الرجل الذى عرف عنه اشتراكه فى الإعداد لكل الانقلابات العسكرية التى حدثت فى سوريا فيما بعد .

وبدأ التخطيط للانقلاب بين الحورانى وضابطين من مؤيديه : هما العقيد بهيج الكلاس ، والعقيد أديب الشيشكلى ، اللذان أصبحا أقرب معاونى حسنى الزعيم فى بداية الانقلاب ، وكان الكلاس

يشغل منصب نائب حسنى الزعيم فى القيادة بينما قاد الشيشكلى وحدات المشاة والمدرعات التى نفذت الانقلاب ، أما الحورانى فقد كان فى مقر قيادة الجيش يكتب البيانات الأولى للانقلاب .

ورغم ما جاء فى البيان من عزوف العسكريين عن الاستمرار فى السلطة حيث قال هذا البيان لجأنا مضطرين إلى تسلم زمام الحكم مؤقتًا فى البلاد غير طامحين إلى استلام الحكم بل القصد من عملنا هو تهيئة حكم ديمقراطى صحيح محل الحكم الحالى ، ولكن لم تلبث أضواء الحكم أن جذبت حسنى الزعيم ليتربع وليخطط لبقائه فى السلطة أطول فترة ممكنة .

هوية الانقلاب :

كان انقلاب حسنى الزعيم سنة ١٩٤٩ إخلالا بالتوازن القائم بين القوى المتنافسة على سوريا والتى تتركز فى محور القاهرة – الرياض من جهة ومحور عمان – بغداد من جهة أخرى – وكان رئيس الجمهورية شكرى القوتلى يميل إلى القاهرة الرياض ، ولذلك فبمجرد نجاح الانقلاب اعترفت به فورًا الأردن والعراق مما أثار شعور التحالف المصرى السعودى قبله ، ومن ثم بدأت مصر والسعودية تتصلان بحسنى الزعيم تعرضان عليه المعونات الاقتصادية والمساعدات العسكرية ولما نجح مسعى مصر والسعودية بدأ حسنى الزعيم فى مهاجمة العراق مما جعل هذا لا يعترف بالاستفتاء الدستورى

الذى جعل الزعيم رئيسًا لجمهورية سوريا ، وبدأ حسنى الزعيم علاقات قوية مع الولايات المتحدة الأمريكية ، ولكن خطأه أنه وافق على عقد إتفاقيات رغم أنف الحكومة السورية والقوى الوطنية السورية التى اعتبرت تلك الاتفاقيات نوعًا من محاولة الهيمنة والاحتواء والسيطرة الأمريكية على سوريا ، ومما زاد الطين بلة أن حسنى الزعيم وقع فى شهر يونيو سنة ١٩٤٩ اتفاقية جديدة ، غير اتفاقية التابلاين ، وذلك لإنشاء شركة أمريكية - سورية لاستثمار منابع الزيت فى سوريا - وقد جعلت هذه الاتفاقية نصف مساحة سوريا فى قبضة الأمريكيين رغم أن حصة الحكومة كانت ٥١٪ من الأسهم .

ولكل هذا لم يكن من المستغرب أن يقال عن إنقلاب حسنى الزعيم إنه تم بموافقة أمريكا وأنه كان موجها ضد بريطانيا واتضح ذلك من معارضة حسنى لمشروع الهلال الخصب أو سوريا الكبرى وتلك الاتفاقيات التى أجراها مع الولايات المتحدة والتى كانت حكومة سوريا فى ظل رئاسة شكرى القوتلى قد تباطأت فى اتخاذ قرار سريع بشأنها ، وقد وضح من كتابات المعاصرين لتلك الفترة وجود صلات قوية بين رجال المخابرات الأمريكية وبين حسنى الزعيم ، كذلك لا ننسى التأكيد على أن تطور العلاقات السورية التركية إلى التحسن بشكل ملحوظ فى عهد حسنى الزعيم رغم أن الجرح الغائر الذى سببته تركيا بانتزاع لواء الإسكندرونة من

سوريا إلا أن حسنى الزعيم أعلن تضامنه مع تركيا فى حالة وقوع عدوان مسلح عليها وكل ذلك ولا شك يزيد من هوية إنقلاب حسنى الزعيم .

إلا أنه إذا كانت لبعض الأصابع الخارجية نسبة فى تحريك حسنى الزعيم إلا أن ظروف سوريا الداخلية كانت هى الدافع وراء هذا الانقلاب وإن كانت القوى الخارجية بأكملها كل على هواها حاولت أن تستغل هذا الانقلاب لصالحها ، ولكن حسنى الزعيم رأى أن إنضمامه للجانب المصرى أفضل له من انحيازه للجانب الأردنى العراقى ومن ثم كان ذلك يعنى وقوفه مع الجانب الأمريكى فى مواجهة بريطانيا وحلفائها الهاشميين .

وبمجرد أن قام حسنى الزعيم بانقلابه اعتقل شكرى القوتلى والوزراء وأودعهم سجن « المزة المشهور فى تاريخ سوريا والذى يشبه سجن الباستيل فى فرنسا »

وقد حاول مستشارو قائد الانقلاب أن يجدوا للانقلاب مبررًا دستوريًا يقره مجلس النواب ، وسعوا لتكوين حكومة جديدة ، ولكن النواب فى معظمهم رفضوا التعاون مع هذا الشكل غير الشرعى ، ومن ثم فاوض حسنى الزعيم شكرى القوتلى على تقديم استقالته مقابل الإفراج عنه ، وقد وافق القوتلى نظرًا لسوء حالته

الصحية ، ولما كان يعانيه من معاملته فى سجن المزة وخرج القوتلى من سوريا حيث لجأ إلى مصر واستقر به المقام فى الإسكندرية .

حسنى الزعيم فى كرسى السلطة :

مثل كل الطغاة كان حسنى الزعيم مملوءا بالغطرسة والغرور والتهور وبدأت تداعب أحلامه فكرة سوريا الكبرى ، وذلك بضم شرق الأردن ، ولكنه دون أن يدرى دفع بالسوريين إلى معارضته لأن الملك عبد الله كان رجعيا فى أفكاره ، ومن ثم اضطر إلى نبذ هذه الفكرة ووصلت حدة غروره أنه كان يقول عن نفسه إنه زعيم ذو ثلاثة أجنحة ، زعيم بكنيته أى بلقبه وزعيم برتبته أى برتبته فى الجيش وزعيم للسوريين .. وكانت أوضح صفاته التردد وبدلا من حشد قواته على حدود إسرائيل حشدها على الحدود العراقية والأردنية واللبنانية ، وركز اهتمامه على إحكام قبضته على الجيش بعد أن فشلت كل مشاريعه ، وتحطمت كل آماله فى ضم العراق أو الأردن إليه .. ونظر إلى الضبط والربط أكثر مما كان ينبغى ، وأهمل قضايا المجتمع السورى بل لقد سرح آلافا من الموظفين ، وفى الوقت الذى كان يدعو فيه للاستقلال والوطنية بدأ يرتبط بمجموعة من الشركات الاستعمارية الأمريكية والبريطانية حيث عقد مجموعة من الاتفاقيات مع شركة التابلاين الأمريكية ، ومع بعض الشركات البريطانية للتنقيب عن البترول والبحث عن المعادن فى سوريا .

وبدأ يسلح مركز قيادته ، ويعزز جنود حرسه ظانًا أنه من خلال الإرهاب والقوة يمكن أن يستمر فترة طويلة على دست الحكم ناسيًا أن نفس السلاح يمكن أن يتخذ ضده للإطاحة به .

وإذا كان حسنى الزعيم قد فشل فى سياسته الخارجية ولم يحقق أمل السوريين فإن الفشل الذى لحق بسياسته فى سياسته الداخلية كان أشد مرارة وقسوة .

فالعسكريون يدعون أن استيلاءهم على السلطة هو من أجل تمهيد الطريق للإصلاح نتيجة لفشل القيادات السابقة ، ولكن ثبت من خلال الممارسة الفعلية أن استيلاء المؤسسة العسكرية على السلطة فى معظم البلدان ، لا يؤدى إلى تنمية سياسية حقيقية ولم تشذ فترة حكم الزعيم عن تلك النتيجة فلم يتم تطهير البلاد من الفساد ، ولم يحدث تغيير لصالح الجماهير ، صحيح أنه تمت فى البداية مجموعة من الإصلاحات ولكن الحساب الختامى كان فى غير صالح سوريا ، لقد كان متأثرًا بأسلوب كمال أتاتورك فى الحكم ولهذا اتخذ طريق العلمانية أساسًا لإصلاحه دون دراسة لواقع المجتمع السورى ناسيًا أن أتاتورك أوضح لزملائه منذ البداية الاختيار بين الجيش والسياسة ولكن رغم الإصلاحات التى تمت فى عهد حسنى الزعيم ، متمثلة فى إصلاح الجهاز التعليمى ومواجهة فساد الإدارة لدى الموظفين ، ومنح المرأة حقوقها السياسية وإصدار مرسوم بإلغاء

الألقاب ومرسوم آخر بالغاء الأوقاف الخيرية وتصفيتها وسن مجموعة من القوانين بدلاً من القوانين القائمة على أساس الشريعة الإسلامية ، وبدأ ينفذ بعض المشروعات المعطلة من الحكومات السابقة ولكن كانت تعوزه الأموال ومن ثم استخدم وسيلتين لضمان الحصول على الأموال اللازمة .

١ - فرض ضريبة الجيش على الدخل والإرث ففرضت ضريبة على الدخل الفردى والأرباح التجارية والصناعية .

٢ - تحويل مخصصات وزارات أخرى إلى الجيش .

وقد قام برفع مرتبات ضباط الجيش ، وزاد عدد الجيش فى عهده من خمسة آلاف إلى سبعة وعشرين ألف عسكرى .

ورغم إعجاب السوريين بهذه الإصلاحات إلا أن الطاغية بسلوكياته فى الداخل وبوعوده التى لم تحقق أثارا عليه سخط الشعب السورى ، وحكم منفردا ولم يعتمد على القوى السياسية فى عملية البناء والتغيير ، وذلك بالرغم من أن النخبة العسكرية كانت عاجزة بمفردها عن فهم تناقضات الحياة السياسية والاجتماعية مما دفع إلى انهيار الحكم العسكرى .

ولقد كانت مساوئ حكم حسنى الزعيم وطغيانه تتضح فى الآتى :

(أ) فشله فى تأكيد مبدأ المشاركة السياسية سواء من حيث علاقاته مع الأحزاب السياسية أو الجماعات السياسية الأخرى بل ومحاربتها ومنعها من ممارسة نشاطها .

(ب) حل المجلس النيابى وعدم وعده بإجراء أى انتخابات برلمانية وفى الوقت نفسه لم يحاول إيجاد أى بديل لهذه التنظيمات سواء بتأسيس حزب أو منظمة لملء الفراغ السياسى .

(جـ) تقييد حرية الصحافة واعتقال كل صوت معارض له .

(د) جمع قائد الانقلاب بيديه كل السلطات والمسئوليات فى الدولة مما أدى إلى تحول نظام حكمه بشكل واضح إلى الديكتاتورية العسكرية الفردية وهذا الحكم بلا شك لم يكن يتفق وتطلعات الشعب ، وبالتالى أثار الاستياء والسخط لدى جميع القوى السياسية فى المجتمع ، وكذلك لدى زملائه العسكريين خاصة بعد أن تضخمت ذاته ومن ثم فقد الزعيم الثقة للعناصر الأساسية التى شاركته فى الإعداد للانقلاب من أمثال : اكرم الحورانى ، والعقيد أديب الشيشكلى ، الذى كان قد تم تسريحه بناء على أوامر حسنى الزعيم ، وكل هذا دفع بالجميع للعمل ضد الطاغية من أجل الإطاحة به .

لقد فقد حسنى الزعيم ثقة الجماعات التقليدية باتجاهه نحو العلمانية ، وكانت غالبية الشعب تتوقع من جانبه إصلاحات جذرية

فى الحياة العامة أصابها اليأس لعدم تحقيق الوعود والآمال التى أعلن الحكم عن عزمه على تحقيقها .

ولعل هذا يعود إلى أن حسنى الزعيم مثل كل الطغاة بصفة عامة يأتون إلى السلطة بدون أية دراية أو خلفية أو تجربة فى شئون الحكم وبدون أى هدف أو برنامج أو عقيدة سياسية .

وعندما بدأ يخشى على نظام حكمه أحس بالخطر ممن ساعدوه ومن ثم بدأ يتخلص منهم الواحد تلو الآخر ، أو يبعدهم عن العاصمة ومن ثم لا عجب أن اعتمد على الأقليات فى داخل القوات المسلحة مثل الأكراد ، والشركس ، ومنح المراكز الحكومية لأفراد هذه الأقليات مثل إصراره على تعيين اللواء عبد الله عطفة الذى أخفق كقائد عام للجيش السورى فى حرب فلسطين - وزيرًا للدفاع وكان غير مرغوب فيه من الضباط السوريين .

ووضح أن حسنى الزعيم يعمل لنفسه وأخذ ينحرف عن الأهداف التى من أجلها قام بانقلابه ، خاصة بعد أن منح نفسه لقب المارشالية مما أثار السخرية عليه وقرب نهاية سقوطه بدأ يعتقل الضباط الأقوياء فى الجيش الذين كان يخشى تطلعاتهم نحو السلطة ولم ينس الشعب السورى ذلك .

عبدالكريم قاسم

طاغية العراق

يمثل العراق الطرف الشرقى لحدود الأمة العربية ، والعرب فى العراق يشكلون ٨٠٪ من السكان والباقى ١٦٪ أكراد ، ٢٪ أتراك ، ٢٪ من الإيرانيين والهنود الأرمن .

ويدين ٩٤٪ من السكان بالإسلام أكثر من الثلث منهم على مذهب الشيعة ، والباقى على المذهب السنى .

ويصل تعداد المسيحيين فى العراق نحو ٢,٥٪ يقيمون فى المدن الكبرى كالموصل وبغداد والبصرة ، هذا إلى جانب أقلية بسيطة من اليزيديين والصابئة واليهود .

ومن الجدير بالذكر أن مساحة العراق حوالى ٤٥٣,٥٠٠ كم٢ والعراق قطر عربى عريق ، ومنذ الجاهلية كان يسكنه بعض قبائل عربية من ربيعة ومعز وكان له دائمًا دور كبير فى تطور الحضارة العربية والإسلامية حيث كانت بغداد عاصمة العباسيين ، هى مركز الإشعاع الحضارى للمجتمع الدولى لقرون طويلة وتجاور العراق الآن تركيا وسوريا وإيران وشرق الأردن وإذا ، كانت الخلافة

العباسية قد انتقلت من بغداد إلى القاهرة عقب الهجوم المغولى على العراق على يد هولاكو سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) فإن القاهرة انتقمت للعراق بدحرها المغول فى معركة عين جالوت بعد ذلك بسنتين ..

وبمجىء العثمانيين إلى أرض العراق ، أصبح العراق مجرد مجموعة من الولايات تخضع لإستانبول حتى هزيمة الدولة العثمانية فى الحرب العالمية الأولى (١٩١٤/١٩١٨) ، فأصبح العراق خاضعًا للانتداب البريطانى الذى كان فى واقعه احتلالاً كاملاً ، وحاول الاستعمار الإنجليزى أن يجعل العراق جزءًا من إمبراطورية الهند وأن ينقل ملايين الهنود إلى العراق حتى تزول معالم العروبة فى العراق وتتحطم قوميته العربية ، وتعرف هذه السياسة باسم « تهنيد العراق » والتى فشلت فشلاً ذريعًا ، ولكن الحركة الوطنية فى العراق تصدت للإنجليز الذين اضطروا إلى توقيع عدة معاهدات مع العراق حتى يضمنوا لأنفسهم حماية مصالحهم ، فعقدوا معاهدة يونيو سنة ١٩٢٦ ثم معاهدة يونيو سنة ١٩٣٠ ، وانتهى الانتداب البريطانى على العراق فى أكتوبر سنة ١٩٣٢ ، وهو تاريخ دخول العراق منظمة عصبة الأمم كدولة مستقلة ولكن ذلك لم يتيسر إلا بعد أن جعلت مدة المعاهدة بين البلدين (الموقعة سنة ١٩٣٠) حوالى ربع قرن أى أن موعد نهايتها كان سنة ١٩٥٥ ولكن فى

يناير سنة ١٩٤٨ اضطرت حكومة بريطانيا إلى توقيع معاهدة جديدة في بورتسموث مع حكومة بغداد ، وجاءت هذه المعاهدة مناقضة تماما لأماني الشعب العراقى مما أدى إلى إلغائها .

الحكم الملكى :

في شهر أبريل عام ١٩٢٠ أصبح العراق تابعا للانتداب البريطانى بناء على قرارات مؤتمر « سان ريمو » ، وفى ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢١ توج الملك فيصل ملكًا على عرش العراق وهو فيصل بن الشريف الحسين حاكم الحجاز المعروف وفيصل هذا كان أخو الأمير عبد الله أمير شرق الأردن فيما بعد .

وقد تعرض العراق فى فترة الحكم الملكى للكثير من القلاقل والاضطرابات ، والتى أدت إلى سخط الشعب العراقى على حاكميه ، وبالذات أولئك الساسة الفاسدين الذين استغلوا العهد الملكى أبشع استغلال ، نذكر من هذه القلاقل المذبحة التى قام بها الجيش العراقى بناء على الأوامر الصادرة له فى سنة ١٩٣٣ ، ونذكر أيضا ثورة القبائل على طول نهر الفرات فى سنتى ١٩٣٥ ، ١٩٣٦ ، ثم ذلك الانقلاب العسكرى الذى وقع فى عام ١٩٣٦ - (أكتوبر) بقيادة الجنرال بكر صدقى ، وتم بمساعدة بعض العناصر السياسية الراغبة فى الإصلاح والساخطة على الوضع ولكن الانقلاب فشل وقتل بكر صدقى بعد أقل من سنة ، أى فى أغسطس ١٩٣٧ .

وفى عام ١٩٣٧ انضم العراق إلى حلف « سعد أباد » ، وكان هذا الحلف يضم إلى جانب العراق كلا من تركيا وإيران وباكستان وبالطبع حصل على « بركة الاستعمار الإنجليزى » .

وفى سنة ١٩٤١ قامت فى العراق ثورة بزعامة رشيد عالى الكيلانى ، ولكن سرعان ما قضى عليها بفضل حراب الإنجليز ، ولما وقعت معاهدة « بورتسموث » وكانت شروطها مجحفة بالعراق ثارت ثائرة الشباب سواء فى الجيش أو من المدنيين مما أجبر بريطانيا على إلغائها والعودة إلى معاهدة ١٩٣٠ ، وقد منعت السياسة البريطانية العراقيين من المشاركة الفعالة فى حرب فلسطين الأولى سنة ١٩٤٨ ، وكل هذا بلا شك كان يمهد لمزيد من السخط الشعبى ، ولم يلبث ساسة العراق فى العهد الملكى أن جروا العراق إلى سياسة المحالفات إلى المعسكر الغربى ، ونظير إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٠ ، والتى كان من المفروض أن تنتهى فى عام ١٩٥٥ بشكل تلقائى ومن هنا نجد العراق فى شهر فبراير ١٩٥٥ يتحالف مع حكومة تركيا ، وفى أبريل من نفس العام تنضم إلى هذا التحالف بريطانيا ، وفى سبتمبر تلحق بهما باكستان ثم فى أكتوبر من نفس العام أيضا تضم لهم إيران ، وهكذا اكتمل حلف بغداد من خمس دول فى سنة ١٩٥٥ هى العراق ، تركيا ، بريطانيا ، باكستان ، إيران ، وكان بطل هذا التحالف من الجانب العراقى السياسى الداهية نورى

السعيد والذى كان عدوا للحركة القومية العربية على حساب الارتباط بالمصالح الغربية .

والعجيب أن العهد الملكى كان يضم مجموعة من الأحزاب وانتخابات برلمانية وبرلمانات تمثل كل الاتجاهات ، ولكن الشكل العام للممارسة الديمقراطية كان فى الواقع أسطورة كاذبة ، وكان أعوان الاستعمار يخدعون بها العالم الخارجى فيزيفون الانتخابات فى نفس الوقت الذى تمتلىء فيه السجون بالأحرار ، وطالب الوطنيون بضرورة التغيير ، بعد أن أصبح التغيير مطلبًا ملحًّا وإلا فإن تأجيل الإصلاح الحقيقى نذير بالثورة ، وهكذا لا نستغرب أن نجد توفيق السويدى يخطب فى ٢٥ يناير سنة ١٩٥٨ فى مجلس الأعيان العراقى قائلاً :

« إن الدستور العراقى بوضعه الراهن ليس دستورًا إنه أشبه باتفاقية أو معاهدة ، إن تطور الزمن يقضى بتعديل الدستور ، إن سياسة العراق فى ظل الدستور الحالى سياسة غير برلمانية ، التقاليد الدستورية بعيدة عن تطمين الناس . الحكومات تستقيل وتؤلف غيرها ، ولا يعرف أحد أسباب تبديل الوزارات ، السياسة الاقتصادية عندنا فاشلة ، السرقات منتشرة ، الرشاوى شىء عادى .. » .

وهكذا يمكن أن يقال إن العراق كان مستعدًّا لتقبل ثورة ١٤ تموز سنة ١٩٥٨ وأن المناخ السياسى كان يتنبأ بتلك الثورة قبل وقوعها .

عبد الكريم قاسم والسلطة : .

قصة حكم عبد الكريم قاسم للعراق قصة طويلة ، تناثرت فيها الأشلاء وسفكت فيها الدماء ، وانتهكت فيها الأعراض والحرمات وديس فيها جميع قيم الشعب .

لم يكن عبد الكريم قاسم هو صاحب ثورة العراق التى قامت ضد الحكم الملكى فى ١٤ تموز (يوليو) ١٩٥٨ ، بل كان المخطط الأصلى هو عبد السلام عارف ، محمد حبيب ، عبد الجبار الجومرد ، ولكن عبد الكريم قاسم هو وحده الذى نجح فى السيطرة على زملائه ، وفور نجاح الثورة احتكر لنفسه رئاسة الوزارة العراقية ووزارة الدفاع وقيادة القوات المسلحة ، بينما جعل من عبد السلام عارف نائبًا له ووزيرًا للداخلية ، وأعطى للضباط زملائه ثلاث وزارات هى وزارة المالية للزعيم الركن عبد الجبار الجومرد ، الشئون الاجتماعية للزعيم الركن ناجى طالب ..

ولما وجد عبد الكريم قاسم أن خط سير الثورة لا يسير وفقًا لهواه سرعان ما تحالف مع الشيوعيين العراقيين ، وكذلك بعض العناصر الشعوبية لضرب التيار القومى الوحدوى الذى كان يقوده عبد السلام عارف ، ونجح عبد الكريم قاسم فى ضرب وحدة العراق مع الجمهورية العربية المتحدة التى كان قد أعلن عنها بين مصر وسوريا قبل قيام ثورة العراق بخمسة شهور تقريبًا .

ولذا كانت الضربة الأولى ضد عبد السلام عارف ، ثم تلتها الضربة الثانية وهى ضرب المواقع القيادية فى الثورة العراقية التى كانت تخطط للنهج العربى الوحدوى وسنده .

وتبدأ الخطوة الثالثة بالانطلاق الهمجى الشرس ضد كل العناصر والفئات والمنظمات والمؤسسات القومية المؤمنة بالوحدة وبتحرير الشعب وبإقامة المجتمع العادل ..

واستعان بالشيوعيين العراقيين الذين مثلوا مخلب القط المتعاون معه لتحقيق مخططه ظناً بذلك أنه أذكى منهم ، ولم يكن يدرك أنهم بدورهم يستغلونه لتحقيق مطامعهم فى العراق حيث بدءوا فى الوقت نفسه يطرحون شعاراتهم الخاصة ويحققون المكاسب لحزبهم تدريجيًّا ، ونجحت الحركة الشيوعية العراقية فى التغرير بعبد الكريم قاسم والسيطرة عليه تمامًا عن طريق الادعاء بأنها تريده أن يكون الزعيم الأوحد فى العراق وعملت على الترويج لهذه الفكرة بين أتباعها وفى نشراتها وصحافتها .

ومن خلال هذه الفكرة الخبيثة ، أوقعت بين ثورة العراق وبين عبد الناصر بحجة أن عبد الناصر لو توحدت العراق معه سيسيطر على ثورة العراق وسيصبح عبد الكريم قاسم فى الظل ، وعلى هامش السياسة وبالتالى يفقد شخصيته المميزة .

سنوات حكم قاسم :

وقد حكم عبد الكريم قاسم العراق فى الفترة من ١٩٥٨ (يوليو) حتى فبراير ١٩٦٣ ، ولكن فى خلال هذه السنوات الخمس حفر سطورًا سوداء فى تاريخ العراق تاريخًا مضغوطًا مركزًا استوعبت أحداثًا جسامًا دفعت إلى المسرح العربى السياسى بشكل أعاد إلى الأذهان فترة العصور الوسطى .

ولعل ما حدث يجب أن يكون درسًا للشعوب قبل أن يكون عظة للثوار ومن هنا علينا أن نقف لحظة فاصلة فى تاريخنا نتأملها لا بنزعة تأملية مجردة ، ولكن بنزعة من يهدف إلى فهم واقعه وإلى فهم تاريخه وإلى فهم وجوده .

فقد قلب عبد الكريم قاسم كثيرًا من القيم ، ومزق كثيرًا من المفاهيم ، لقد كان النظام القاسمى الشعوبى الأسود تحديًا لشخصية العربى فى العراق ، تحديًا لإمكانيات هذه الشخصية وطاقاتها ونزوعها للنمو والاتساع ، إن هذا النظام الذى أقامه عبد الكريم قاسم فى العراق كان تحديًا ولا شك ، كان تحديًا لآمال جماهيرنا العربية فى الوحدة وفى الحرية الاشتراكية على السواء ، لقد كان نظامًا أقيمت قواعده المزورة ورفعت دعائمه المصدعة لا من أجل تحقيق أمل شعبى ، بل من أجل ضرب كل مطمح جماهيرى ، وكل نزوع شعبى ضحى من أجله الشعب ، ومارس أساليبه الثورية بصلابة وإيمان .

لقد وجه عبد الكريم قاسم طعناته الغادرة لكل ما هو عربى ، لجميع أهداف جماهيرنا العربية ، لقد تحدى الشعب بدماء أحراره التى أسالها ، وخلال فترة حكمه التى استمرت ما يقرب من خمس سنوات حكم العراق حكمًا فرديًا مطلقًا وأمعن فى القضاء على حقوق العراقيين السياسية بمطاردة الأحرار وأخذ الأبرياء بالشبهات وتحالف مع الشيوعيين ضد القوميين ، ونكل بالمثقفين وزجهم فى السجون والمعتقلات وفرض الرقابة على الصحف ، وفى مثل هذا الجو الخانق وفى ظل هذه الأوضاع الشاذة كان لا يمكن لشعب العراق أن يسكت .

وفى عهد عبد الكريم قاسم نصبت المشانق للوطنيين ، وعبئت السجون بالأحرار الثوريين وأبعد الكثيرون عن أرض الوطن ، وسحل الشباب فى الشوارع وهدمت المنازل على من فيها إذا ضمت معارضًا واحدًا يعلو صوته فوق صوت الزعيم ، بأختصار لم تعد هناك حرمة لمقدس أو احترام لقانون ، لقد استبيح كل شىء وأصبح لكل عائلة عراقية شهيد أو سجين أو مبعد أو مطارد ، لا يعرف متى يصطاده رصاص الحرس القاسمى ولم يعد ثمة من أمان لأحد ، فالذين يخرجون من بيوتهم فى الصباح لا يعرفون أيعودون إليها فى المساء أم لا ، وكثيرًا ما كانت تصدر الأحكام الثورية ويشطب اسم أى مواطن من قائمة الأحياء دون ضجة أو ضوضاء .

لقد بدأ عبد الكريم قاسم فور انفراده بالحكم ، بدأ حملة انتقام همجية ولم توجه هذه الحملة ضد أعدائه فحسب ، بل ضد من تصور أنهم قادرون على منافسته فى الحكم أو تحديه على السلطة ، إن شهداء الحرية فى العراق ، أولئك الذين نصب الحكم الأسود لهم خلال حكم عبد الكريم قاسم ، نصب لهم المشانق وحصد منهم الأرواح ، هؤلاء لن ينساهم التاريخ لما قدموه فى مواجهة أبشع حكم بربرى فى الوطن العربى .

الزعيم الأوحد :

والواقع أن حقيقة الصراع الدموى الذى أغرق فيه قاسم شعب العراق ، حتى كادت أمواج الدم أن تحجب عنه جلاء الرؤيا ، بل لقد حجبتها فعلاً ، لم يكن ذلك إلا حربًا عقائدية عنيفة ، وليس خلافًا على نظام أو اتجاه سياسى ، فهو خلاف بين القومية العربية الحريصة على عزوبة العراق وتحريره من السيطرة والتبعية وبين القوى الأخرى التى تعمل على عزل العراق عن جسم الأمة العربية .

وهكذا فى ظل فكرة الزعيم الأوحد والشخصية المستقلة ، جر عبد الكريم قاسم العراق إلى هاوية سحيقة عزلته عن الركب العربى المتحرر ، بل لا نبالغ إذا قلنا إنها وقفت ضد التيار الثورى الوحدوى ، وعطلت تقدمه ويمكن بهذا أن نقول إن ما فعله العهد الملكى قد فعل مثله عبد الكريم قاسم فى ظل حكم جمهورى .

وأسوة بكل الشعوب الحية فى مواجهة حكم الطغاة كان عبد الكريم قاسم يواجه ثورات شعبية عارمة ، ولعل أخطرها ثورة الموصل التى قادها الشهيد عبد الوهاب الشواف وصحيح أن ضحايا هذه الثورة كان يعد بالمئات لأن قاسم قضى عليها بعنف وقسوة ، ولكن يمكن أن يقال إن الخط البيانى أصبح فى غير صالح قاسم وأعوانه بعد هذه الثورة وأن العد التنازلى بدأ بعدها لإنهاء حكم الديكتاتور الأوحد .

وبالطبع تعرض عبد الكريم القاسم لأكثر من محاولة اغتيال ، ورصدت حركة المقاومة ضده العديد من هذه المحاولات لدرجة أن فرقًا ثورية تكونت لمواجهة حكم أشبه بحرب للعصابات وكان يرأس بعض هذه الفرق وطنيون وحدويون مثل إياد سعيد ثابت ، وخالد الدليمى ، ومدحت إبراهيم جمعة ، وعبد الله الركابى ، ولكن أى من هذه المحاولات لم تفلح للقضاء على الطاغية الذى لم يتورع فى إعدام زملائه من الضباط الأحرار بعد سنة واحدة وشهرين : ففى ٢٠ سبتمبر سنة ١٩٥٩ أعدم عبد الكريم قاسم زهرات الضباط الأحرار وهم ناظم الطبقجلى ، رفعت الحاج سرى ، فاضل الشقرة وكلهم شباب ملىء بالحيوية والغيرة الوطنية ، ولكن هكذا حكم الطغاة ، مصيدة الحرية وحرابا على الشرفاء ظنًا منهم أن ذلك كفيل بتصفية الجو والتمهيد لحكم طويل بلا معارضة

ولكنهم ينسون أن كل جرح من جروح الشهيد فم يصرخ بالثأر وأنين الشعوب لا يخفت أبدًا والماضى لا يموت ، والزمن لا ينسى الجراح .

ولقد كان انسحاب مجلس السيادة من ممارسة أعماله واستقالة العضو محمد مهدى ، ثم استقالة فائق السامرائى سفير العراق فى القاهرة ، وعدد كبير من المسئولين فى حكومة ١٤ يوليو إدانة كاملة لعهد عبد الكريم قاسم ، الذى جعل العراق سجنًا كبيرًا للأحرار ، ولطخ بيديه دماء أبناء الشعب العراقى وقال سفير العراق فى القاهرة إنه ينأى بنفسه أن يكون « سفيرًا لعصابة حمراء » .

الرجل اللغز :

لقد كان عبد الكريم قاسم هو أحد هؤلاء الرجال الذى حماه الاستعمار بدعايته ونشراته ومراسليه ، حتى أصبح لغزًا فى العالم فى حين أنه شخص ذو كفاءات محدودة . ولقد ظهر اتجاهه الديكتاتورى منذ وقت قيام للثورة ، فكان يصر على أن يعقد مجلس الوزراء فى مبنى وزارة الدفاع وأن يجتمع المجلس مع مجلس الرئاسة أمامه حتى لا يستطيع أحد أن يناقش أو يبدى رأيًا ما لم يقره قاسم عليه .

كان قاسم يتبع أسلوب المماطلة فى إدارة دفة شئون الحكم أكثر مما يحتمل الموقف وكان دائمًا يبعد عن أسلوب الصراحة ، لم تكن

له هوية محددة بل كان كرسى الحكم هو هويته ، وظل مشتت التفكير ضعيف الثقافة قليل الخبرة بأمور الدولة منذ اليوم الأول لحكمه ، حتى مقتله وكان لا يفارق سلاحه قط ويبيت فى وزارة الدفاع ولم يتخل يومًا عن ملابسه العسكرية ، عرف عنه الغدر فقد قام بإعفاء عبد السلام عارف من منصب نائب القائد العام ثم أعفاه من منصب الوزارة ، لأنه اعتقد أن عارف ، هو العقبة أمام انفراده بالسلطة حيث أن عارف هو الذى ظهر أمام المجتمع العراقى أنه منفذ الخطة ومحرز النصر ، وفى الواقع لولا جسارة عبد السلام عارف ومهارته واستيلائه على الإذاعة ما كانت الثورة قد نجحت ولهذا اندفع الشعب وراءه كبطل ومن هنا كان عارف فى نظر قاسم هو الحجر الأول أمام سيطرته ونفوذه خاصة وأن عارف أيضًا كان بمثابة « الدينامو » فى مجلس الوزراء ، ومعروف بنزاهته وصراحة أسلوبه وقدراته على المواجهة والمناقشة وكان لا يحمى أحدا من العهد الماضى ، وإنما ينظر إليهم على حد سواء بينما كان قاسم يحابى ويحمى بعضهم ، فقاسم كان يعتقل أناسًا من العهد البائد لا قيمة لهم ويترك بعض المخربين والفاسدين .

وكان قاسم فى الواقع مصابًا بلوثة عقلية انبهارًا بالوضع الذى أصبح فيه وما أحاطته به وسائل الدعاية والإعلام الغربية بصفة خاصة ، وكان يهتم كثيرًا باقتراحات ترد إليه من مستشفى المجانين ، ويقرأ

بعضها علنًا فى مجلس الوزراء ، ويستشهد بها أنها تمدحه ، ومن ثم لا نستغرب إذا ادعى قاسم أنه هو كل شىء وأنه فوق كل شىء فى العالم أجمع ، لقد عاش قاسم فى وهم وسط مستنقع من تعبيرات المدح والثناء والنفاق ، بحيث أصبح يدور حول نفسه ويمجد نفسه بنفسه ناسيًا واقعه راضيًا بالسراب الذى يعيش فيه من خلال نظرات المستفيدين من حوله .

اتجاهات قاسم :

وسوف يثبت التاريخ أن عبد الكريم كان مواليا للغرب وللشيوعيين أكثر من ولائه لأمته العربية ، وإذا كان قد ترك للحزب اشيوعى حرية العمل ، فذلك لأنه وجد الكثير من الصفات التى يريدها فيمن يساعدونه على تحقيق مآربه ، وكان التعذيب شيئًا عاديا فى عهد عبد الكريم قاسم مارس هذا التعذيب بألوان متعددة وبأساليب متقدمة كانت تسمى عملياتها «حفلات الترفيه» ، وكان يمكن أن يحجز أى مواطن فى المعتقل دون إبداء الأسباب ، وهناك من يكتفى بالسخرية منهم والاستهزاء بالسب والشتم وهناك من يوجه لهم التهديد ومحاولة تحطيم الأعصاب ، وإشاعة المفتريات وهناك من يضربون ويجلدون بالعصى والهراوات ، وهناك من يشنقون بالحبال ، وآخرون يعتدون عليهم جنسيًا والبعض تطلق عليهم الكلاب لتمزق أجسادهم إلى غير ذلك مما نقرأ عنه فى عهود البربرية الأولى

أو يزيد ، ووصل الأمر إلى حد تجسس العائلة بعضها على بعض وإلى فرض العقوبات الاجتماعية ، ولقد انتقلت السلطة الحقيقية في المعتقلات والسجون من الموظفين الرسميين إلى الحزب الشيوعى العراقى .

محكمة المهداوى :

ولعل أسوأ ما يلصق بعهد عبد الكريم قاسم « محكمة المهداوى » التى فاقت محاكم التفيش ، والتى قال عنها عبد الرحمن البزاز سفير العراق بعد ثورة ١٤ رمضان فى القاهرة :

« إن المحاكمات التى أجريت أمام محكمة الشعب أساءت إلى فكرة العدالة ومهنة القضاء بل وإلى الشعب العراقى كله إساءة بالغة ، لا يمكن تكفيرها بغير زوال العهد الإرهابى من أساسه ، وأن ضميرى كان يوخزنى أشد الوخز حين كنت أستمع إلى تلك العبارات المبتذلة وحين كنت أبصر تلك المهازل التى كانت تمثل على مسرح ما كان يسمى « بمحكمة الشعب » من أشخاص لا أحد فى اللغة العربية كلمة تصدق عليهم » .

وكانت الأحكام الصادرة من تلك المحكمة ضد قادة الثورة والضباط الأحرار والطريقة البشعة التى نفذت فيها أحكام الإعدام لتوضح لنا روح الانتقام والإرهاب التى سادت عهد عبد الكريم قاسم طاغية العراق .

لقد بذر عبد الكريم قاسم عوائد النفط ، وضخم فى أجهزة الأمن تضخيمًا خياليا امتصت جزءًا كبيرًا من ميزانية الدولة ، وفى عهده تدهور الإنتاج الزراعى إلى الحضيض وعمت البطالة صفوف العمال ، وعانى الشعب العراقى من غلاء فاحش وتوقف فى التجارة الداخلية ، ووصل عدد من سفكت دماؤهم الطاهرة على يد هذا السفاح الطاغية ، وعصبته المجرمة أكثر من ثمانين ألف شهيد ، وأكثر من عشرين ألف مفقود وثلاثين ألفا ما بين معتقل وسجين بدون سبب قانونى ، وقد اضطرت حكومة قاسم تلافيا لمجاعة مروعة تحل بشعب العراق ، اضطر إلى فتح باب الاستيراد للمواد الغذائية على مصراعيه .

عائلة الطاغية :

وكعادة كل الطغاة نجد أحد إخوة الزعيم الأوحد « حامد قاسم » يصبح بين يوم وليلة من كبار الأثرياء وكان سمسارًا لا يملك فلسا فأصبح من كبار التجار المستوردين للقمح والأرز ، هذا إلى جانب أقارب الزعيم الذين كانوا شريحة ثرية مستغلة ، ويمكن أن يقال إن من السهل أن نغفل لطاغية مثل نيرون أو مثل جنكيز بعض أفعالهما حيث كانت سمة العصر هى الحكم المطلق ، والتمتع بالسلطة واستغلال الشعوب ولكن فى منتصف القرن العشرين يصبح الحكم

المطلق سبة فى جبين البشرية ويصبح وجود الطاغية سطورًا سوداء فى تاريخ الشعوب .

الفصل الأخير :

لقد سرق قاسم ثورة ١٤ تموز سنة ١٩٥٨ ، على حين غرة وغفلة ، ومعها سرق أمل الشعب العراقى فى التطور والتقدم ، وعاد العراق إلى عهود الاستبداد والاستعباد وتحكم فى حريات الشعب وبدد ملايين الدنانير على الوفود والاحتفالات والمسيرات والمؤتمرات بلا طائل ولا عائد ، وكان يحلو له أن يقلد الأباطرة والأكاسرة والسلاطين .

ومن أجل ذلك كان لابد أن يسقط وكان لابد وأن تنتهى قصته تلك القصة التى تقول إنه كان ثانى ابن لأب من أصل متواضع ، وأنه دخل الكلية الحربية وكان يكره الثقافة ولا يحب السياسة معزولاً عن زملائه صامتا ، ترى فى عينيه بريقًا لا يعبر عن عبقرية بقدر ما يوحى بالجنون ، كان له أخ أكبر منه هو حامد وعاش فى صغره محرومًا حاقدًا وشخصيته مهزوزة وغير ثابتة ، وعاش حياته محتميًا بغيره ، لا يحب المواجهة ولكنه يعشق الالتواء ، لا يتعامل بالأخلاق وإنما تهمه المصلحة عاش فى تحالفات متناقضة من أجل تحقيق أهدافه ، ظن أنه أذكى من كثيرين ممن حوله ولكنه فى الواقع كسب شيئًا واحدًا وهو لعنة شعبه إلى الأبد .

وفى نهاية أيامه عمت الاضطرابات والفوضى والإضرابات كل مدن العراق الكبرى إلى درجة أن قام قبل سقوطه بشهرين باعتقال أكثر من ٥٠٪ من طلبة بغداد ، حيث فقدت مخابرات قاسم أعصابها تمامًا فانطلقت تلقى القبض على طلبة صغار لم يتجاوزوا الخمسة عشر عامًا ، وبدأ يظهر على قاسم الخوف والقلق والهلع من الغد المجهول الذى بدأ مع صبيحة يوم الجمعة ١٤ رمضان سنة ١٩٦٣ ، وقاد الثورة ضد قاسم زميله السابق عبد السلام عارف مع أحمد حسن البكر مع مجموعة من الضباط الأحرار وأحس قاسم بالنهاية فبدأ يهلوس بالمفاوضات والاستسلام ، ولكن الثوار كانوا يعرفون غدره ، لذلك دكوا وزارة الدفاع وقفز عبد الكريم قاسم من سور الوزارة ولكن سرعان ما عاد إلى داخل المبنى ، ثم هرب إلى المسجد المجاور وقفز منه على مبنى قاعة الشعب ، وهى مسرح كان مخصصًا لحفلات قاسم وأتباعه ومن فوق سطح المبنى دخل القاعة فحاصرته الجنود من ناحية وهى تصيح « سلم يا طاغية » .

وتكلم قاسم مع عارف بالتليفون متوسلاً إليه أن يبقى على حياته وكان رد عبد السلام عارف أن الأمر لا يعود إليه وحده بل إلى زملائه .

فقال قاسم : أتريدنى أن أنتحر ، ورد عارف قائلاً له : « سلم نفسك » إلى المجلس الوطنى ، وقال قاسم : إنه مستعد للتسليم

دون خلع الملابس العسكرية وبدأت تظهر عليه علامات الانهيار التام حيث كان يقفز من فوق الأرض مع انفجار كل قنبلة أو قذيفة مدفع كأنه يسمعها لأول مرة .

وبدون أن يدرى قدم قاسم جميع أعوانه إلى الاعتقال ، لأنه كان يتصل بهم خلال حصاره بالتليفون فيعرف أماكن تواجدهم ، فيعتقلون فورًا ، وكان ضمن من سلموا مع قاسم ، قريبه المهداوى الذى ظهر الفزع عليه ، وكان يتوسل باكيًا قائلاً للضابط الذى اعتقله : « لا تقتلنى يا سيدى » ، أما قاسم فكان ساكتًا كالموتى بينما كان « بيريا » العراق وهو الشيوعى طه الشيخ أحمد تعجز ساقاه عن حمله ، ورابعهم هو قاسم الجنابى ..

وفى الطريق إلى محاكمته حاول أن يتظاهر بتمالك أعصابه فرفع يده محييًا الجنود ولكنه فوجىء بالشعب والجنود يبصقون على وجهه فزاد وجهه اصفرارًا وارتعش جسده .

وكانت التهم التى وجهت له فى محاكمته هى أربع تهم :

١ — قاسم عدو الشعب سخر موارد البلاد لشهواته وتأمين مصالحه هو ومن معه .

٢ — صادر الحريات وداس الكرامة الوطنية وخان الأمانة وعطل القوانين واضطهد المواطنين .

٣ – استغل منصبه واندفع بكل الوسائل الدنيئة والأساليب الإجرامية لإقامة حكمه الأسود .

٤ – أفقر البلاد وصدع الوحدة الوطنية وعزل العراق عن ركب العروبة المتحررة ، وطعن أمانى الشعب القومية وترك لأهله وأقاربه الفرصة للإثراء الفاحش على حساب الشعب .

كان عبد الكريم قاسم أسوة بكل الطغاة يحقد على كل صاحب مبدأ أو رسالة ، يظهر غير ما يبطن ، الخديعة دائمًا مرتسمة على وجهه ولا يحب إلا نفسه ، كان يدعى الزهد وهو فى ذات الوقت يقيم فى جناح لا يسكنه إلا الملوك ، كان يحب الحياة أكثر من الحياة ذاتها ، لقد قتل الآلاف لينفرد بالحياة ثم انتهى مصيره إلى القتل حيث كان القصاص العادل حرمانه من هذه الحياة التى حرمها على الكثيرين .

ولقد جاء قاسم إلى دار الإذاعة حيث عقدت محاكمته وكان متخاذلاً وفى ذهول ويرتجف وغير قادر على الوقوف على قدميه ووضح من المحاكمة أن عبد الكريم قاسم لم يكن يعرف تفصيلات خطة ثورة ١٤ يوليو ، ولم يشارك فى وضعها ولم يعد البيان الأول لها ، وكيف كان يدعى النزاهة بينما يترك أخاه الذى أطلق عليه العراقيون « البرنس » حامد رئيسًا لنادى التجارة ، وله أموال باسمه فى بنوك أوروبا وأمريكا تحت أرقام سرية .

وكان عبد الكريم قاسم نفسه يدعى أنه لايملك سوى القميص الذى يرتديه بينما كان يعيش فى جناح يشبه أجنحة أعظم فنادق موناكو أو جزيرة كابرى .

بعد المحاكمة قرر المجلس الوطنى إعدام عبدالكريم قاسم بالرصاص حتى الموت وجاءت النهاية فى تمام الساعة الواحدة والنصف من بعد ظهر السبت يوم ١٥ رمضان ١٣٨٢ الموافق ٩ فبراير ١٩٦٣ ، وهكذا لقى الطاغية حتفه تحت أقدام الثوار ولم يفلت المجرم الجلاد والطاغية السفاح من كل ما قدمت يداه .

باتستا

طاغية كوبا

حرية الإنسان أثمن مالديه فى هذه الحياة وأقدس مايملكه . فإن فرط فيها أصبح لا وجود له ولا كيان لوجوده ، والتاريخ يتوقف عند الاعتداء على الحريات متمثلاً فى اعتقال شخص بدون جريمة أو حبس مواطن بدون خطيئة أو تعذيبه أو إهانة أو إذلال إنسانيته ..

والتاريخ أيضًا ينسى للحاكم كل خطاياه إلا اعتداءه على حرية مواطنيه أو ظلم شعبه ورعاياه أو التسلط عليهم من خلال حكم الإرهاب والطغيان . وسلب الإنسان حريته يقتل فى داخله روح الانتماء والكرامة ، ويزرع فى قلبه الخوف والتردد ، وقوانين التاريخ ثابتة فهى تسجل العدل وتحذف كل الأمجاد إذا اقترنت بالظلم ..

وباتستا .. من قارة تبعد عنا آلاف الأميال ولكن إحساسنا بالإنسان فى كل زمان ومكان ، يجعلنا نقترب منه كثيرًا لنتعلم من الدروس ،ولنؤكد فى كلمات تتدفق تدفق الدم من القلب كلمات هى كبد الحقيقة ، وهى أن قضية الحرية للإنسان دومًا مترابطة ودفاعه عنها شرف لا يدانيه شرف ولا يعلو فوقه هدف .

ولقد كان « باتستا » الإرهابى الملعون الذى حكم « كوبا » بالحديد والنار واستعان على حكم مواطنيه والتسلط عليهم بالقوى الأجنبية ، ووضع نفسه فى خدمة الاحتكارات نظير سمسرة وعمولات ، وكان الثمن فادحًا حيث عاش شعبه فريسة للمرض والتفكك والإذلال ، يعانى من الفقر والجهل بسبب السلطة الحاقدة المستبدة التى لا تعترف بالقواعد الإنسانية أو القانونية أو العدالة السماوية .

فى عهد باتستا قاست كوبا ما لم تقاسيه فى عصر الاستعمار الأسبانى أو فى عهد السيطرة الأمريكية ، لقد وأد حرية الصحافة ، وقيدها وكممها وسجن كل صوت حر عارض أسلوب حكمه .

والواقع أن أمريكا اللاتينية كانت ولا تزال القارة الوحيدة فى العالم التى تعانى من حكم الطغاة منذ حصول دولها على الإستقلال من الاستعمار الأسبانى ، وحتى الآن ، وإذا كانت هناك قارة تماثل ظروفها فهى القارة الأفريقية ، إلا أن هذه القارة الأخيرة بدأت تدخل مرحلة النضج السياسى ، وتعبر مرحلة المراهقة تمهيدًا للاستقرار الذى تتطلع إليه شعوبها ، وشعوب أمريكا اللاتينية لازالت تقاسى من مغامرات الانقلابات العسكرية وحكم المغامرين وتسلط الطغاة .

وحتى نبدأ القصة من بدايتها علينا أن نتكلم عن كوبا وحركة التاريخ فيها والأرض والسكان والمعاناة والأمل والثورة التى خلصتها من ذلك الحكم الدموى الإرهابى اللا أخلاقى .

اكتشاف كوبا :

كوبا إحد جزرر الهند الغربية التى يطلق عليها جزر الأنتيل وهى تقع فى نصف الكرة الغربى ، وقد اكتشفها كريستوفر كولومبوس سنة ١٤٩٢ فى أول رحلة لكشف العالم الجديد ، وكان يعمل فى خدمة أسبانيا ، لذلك فإنه منذ هذا التاريخ وكوبا تخضع للحكم الأسبانى حيث اتخذت قاعدة للتوسع الأسبانى فى أمريكا اللاتينية .

وتتكون جزيرة كوبا من جزيرة كبيرة رئيسية وعدة جزر صغيرة ، تقع فى المحيط الأطلنطى تبعد عن فلوريدا – إحدى الولايات المتحدة الأمريكية – حوالى (١٣٥ ميلاً أى ٢١٧ كم) إلى الجنوب ، ومساحة كوبا تصل إلى ١١٠,٩٢٢ كم٢ (٤٢,٨٢٧ ميل) وكوبا تشكل نصف أراضى مساحة جزر الهند الغربية وعاصمة كوبا هى « هافانا » ، وتمتد ٧٨٠م من الشرق إلى الغرب ، وتتسع فى الجنوب الشرقى إلى ١١٩ ميلاً فقط ، بينما اتساعها فى الشمال الغربى ١٩ ميلاً فقط ، ويصل عدد سكان كوبا فى سنة ١٩٨٤ حوالى ٩,٩٤٥,٠٠٠ وتصل نسبة الزيادة فى السكان ١,٣٪ سنويًا والسكان مزيج من ثلاثة عناصر هم الهنود الحمر ، وقبل الغزو الأسبانى كان عدد الهنود الحمر فيها من ٨٠ إلى ١٠٠ ألف ، ولكن الأسبان أبادوا منهم الثلث ، أما العنصر الثانى فقد كان العبيد المجلوبين من أفريقيا ، ووصل تعدادهم أكثر من ٨٠٠ ألف

عبد ، أما العنصر الثالث فهم المهاجرون من البيض وبصفة خاصة من الأسبان وقد حدث تزاوج بين العناصر الثلاثة وكان الانصهار هو شعب كوبا الحالى .

واللغة الأسبانية هى اللغة الوطنية لكوبا ، والعقيدة الكاثوليكية هى السائدة حتى سيطرة الحزب الشيوعى الذى تأسس سنة ١٩٧٦ والذى يحكم من خلال مكتب سياسى مكون من ١٦ عضوًا وجمعية وطنية من ٤٨١ مواطنًا ينتخبون لمدة خمس سنوات ، ولكن رغم ذلك فإن ٤٢٪ من السكان لازالوا يترددون على الكنيسة .

والزراعة تشكل مصدرًا هامًّا من مصادر الدخل القومى وأهم المحاصيل النقدية هى محصول السكر ، ومحصول الطباق ، وبعد التحول الشيوعى لكوبا أصبح الاتحاد السوفيتى ودول أوربا الشرقية أهم الدول المستوردة للسكر لكوبا وهناك اتفاقية طويلة الأجل بين كوبا ودول مجلس التعاون الاقتصادى لدول أوربا الشرقية والاتحاد السوفيتى المعروف باسم « الكوميكون » . ولكن انتهت بانحلال أوربا الشرقية .

كوبا والتاريخ السياسى :

كان أول استعمار لكوبا هو الاستعمار الأسبانى الذى قسم البلاد إلى ٧ مناطق محلية وبسبب محصول السكر الكوبى الذى وصل

سنة ١٨٦٠ إلى أن يكون ٣٣٪ من الإنتاج العالمى ازدادات قبضة الأسبان على كوبا ، وقد عانت كوبا نتيجة لإلغاء تجارة العبيد سنة ١٨٦٥ ، واستعاضت أسبانيا عن ذلك بأيد عاملة من الهنود والصينيين وبعض أهالى المكسيك .

وقد انتهت العبودية من كوبا فى سنة ١٨٨٦ وصدر قرار بمقتضاه تحرر كل العبيد ، ولكن نظرا لقسوة الاستعمار الأسبانى وتعنته فإن أهالى كوبا دخلوا فى صراع طويل من أجل الحصول على استقلالهم ، وخاض الكوبيون حربين متواليتين للحصول على استقلالهم : الحرب الأولى بدأت من سنة ١٨٦٨ واستمرت لمدة عشر سنوات أى حتى سنة ١٨٧٨ وحشد الأسبان فيها ما يقرب من ٢٠٠ ألف جندى لمواجهة الثورة والتمرد ، ورغم خسارة أسبانيا إلا أن سيطرتها على كوبا استمرت حتى بدأت حرب الاستقلال الثانية سنة ١٨٩٥ وبفضل تدخل الولايات المتحدة بعد ثلاث سنوات من نشوب القتال أى سنة ١٨٩٨ ، انتهى الاحتلال الأسبانى لكوبا ، ولكن حل محله النفوذ الأمريكى بداية من ١٨٩٩ التى اعتبرت سنة الاستقلال ، ولكنه كان استقلالاً واهيًا حيث أنه فى سنة ١٩٠١ حصلت الولايات المتحدة على حق الإشراف على السياسة الخارجية ، وعلى أنها - أى الولايات المتحدة - من حقها إنزال قواتها إذا ما تعرضت كوبا للخطر ، وقامت الولايات المتحدة بتأسيس قاعدة

عسكرية بحرية لها فى « جوانتانامو » فى كوبا لازالت هذه القاعدة الأمريكية حتى الآن فى داخل أراضى كوبا ، ومن الجدير بالذكر أن كوبا أصبحت منطقة استثمارية أمريكية بداية من سنة ١٨٩٦ حيث كانت روءوس الأموال التى تستغل فى الجزيرة تتراوح ما بين ٤٠ ، ٥٠ مليون دولار ثم ارتفع هذا الرقم حتى وصل فى ظل حكم باتستا إلى ما يقرب من ٨٠٠ مليون دولار أمريكى .

وفى سنة ١٩٣٤ حصلت كوبا على استقلالها التام ، وهكذا يمكن أن يقال إن التحرر من الاستعمار الأسبانى لم يجلب الحرية لكوبا لأن معاهدة « بلات » قيدت استقلال كوبا وجعلت الولايات المتحدة تحل محل أسبانيا فى توجيه مقدرات الشعب الكوبى .

باتستا والسلطة :

فى البداية أود أن أنوه أن باتستا لم يكن أول الطغاة لجزيرة كوبا ، كما أنه لن يكون آخرهم ، ولكن باتستا هو أشدهم قسوة وأكثرهم إرهابا ودموية ، كان عميل الاستعمارالأمريكى وتشبه بالنازيين ، حيث أسس ما يشبه الجستابو للتجسس على الشعب الكوبى ، وكانت أجهزة مخابراته ما بين عسكرية ومدنية تربو على العشرين جهازًا وأخطرهم المنظمة التى عرفت باسمه والتى انشأها فى ١٠ مارس سنة ١٩٥٣ ووضع على رئاستها السفاح « ميجيل أوجالد كاريللو » الذى يشبه « بريا » فى تاريخ الاتحاد السوفيتى ،

ولعل أخطر الطغاة قبل « باتستا » هو « ما شادو جيراردو » الذى عاش فى الفترة من ١٨٦٢ إلى ١٩٤٠ وقد أنتخب رئيسًا لجمهورية كوبا عام ١٩٢٤ ولكى يستمر حكمه أثار فتنة طائفية بين شعب كوبا ولكنه أجبر على الهرب فى ١٢أغسطس سنة١٩٣٣بعد حكم دام ٩ أعوام (تسعة أعوام) وبعد سقوطه جاء نظام شعبى واسع الجماهير برئاسة «جراو سان مارتان رامون « الذى انتخب سنة١٩٣٣ رئيسًا مؤقتًا للجمهورية، ولكن لم تلبث الولايات المتحدة أن أطاحت بحكمه حيث قام انقلاب ضده بتأييد منها ولم يستطع رجال هذا الانقلاب السيطرة على الأمور ووصلت فى عهدهم سمعة الحكم فى كوبا إلى الحضيض، عندئذ انتهز ضباط من القوات المسلحة الكوبية- يخرج من تحت السلاح الفرصة وقام بانقلاب جديد وقبض على ناصية الحكم بيد من حديد، وذلك الضابط كان هو «باتستا» الذى نتحدث عنه فى هذا الفصل .

قفز باتستا من صفوف الجيش ليصبح قائدا للجيش الكوبى واختير عضوًا فى مجلس الشيوخ ، واستولى على زمام الأمور معتمدًا على ولاء الجيش له ، وفى عهده عرف نظام السخرة المفروض على الجنود فى الأملاك الفخمة الخاصة بكبار موظفى الحكومة المدنيين والعسكريين ، نعم لقد وجد من العسكريين فى عهد باتستا من لطخت رؤوسهم إلى أقدامهم بدماء الشباب الكوبى الذين عذبوا

واغتيلوا ، ولم يكونوا أبدا مضطرين لذلك ، ولكن اشتغال الجنود كعبيد فى الاملاك الخاصة كان بلا شك نوعًا من الإجبار ، وليس من شك أن الفئة التى أيدت باتستا هم طغمة من الخونة والأشقياء الذين حنثوا بقسمهم فى أن يكونوا فى خدمة وطنهم مدافعين عن الشعب وحقوقه وليسوا أداة فى يد الحاكم يسهلون له طغيانه وجبروته .

ولقد كان انقلاب مارس الذى قاده باتستا خدعة دنيئة للاستيلاء على الحكم حيث استغل استياء الجيش من أساليب الحكم السابق ، ولم تلبث القوات المسلحة أن تبينت حقيقة « باتستا » ومن يحيطون به ، وتساءل الكثيرون من العسكريين الشرفاء عن الدافع الملح الذى جعل القوات المسلحة تتحمل هذه المسئولية التاريخية فى تدمير الدستور ، وفى إرهاب المواطنين وفى تسليم السلطة لفئة من الناس لا أخلاق لهم ولا ذمة ، أناس فاسدون مهترئون سياسيًّا حتى العظم عاجزون عن إشغال أية وظيفة عامة إلا بقوة الحراب والأسوأ من ذلك حراب لا يملكون الشجاعة على هزها بأنفسهم ..

وتأكد لجنود الجيش وضباطه الشرفاء أن ما وعد به « باتستا » من إصلاح الأحوال لم يكن إلا تخدير للأعصاب ، ونوعًا من الوهم وسطوًا على المستقبل عامًا بأن ما أنفقه باتستا على شراء الدبابات والمدافع والأسلحة كان يمكن أن يحل مشكلة كوبا الاقتصادية ويرفع

مستويات المعيشة فيها ، ولكن ككل الطغاة كان باتستا يظن أن قدرة الجيش على البطش ، هى السبيل الوحيد لبقائه فى السلطة وكان لسان باتستا من حوله يقول :

« مت أيها الجندى فى سبيل الحكومة ، أعطها دمك وعرقك وسوف نقدم لك خطابا وترقية بعد وفاتك (فى وقت لن تكون بحاجة إليها) فى حين نظل نحن نزداد ثراء وفى عيش رغده أقتل أيها الجندى ، عامل الشعب بالسوء واضطهده وحينما يضيق الناس ذرعًا بهذا كله فسوف تدفع أنت ثمن جرائمنا » .

لقد حكم باتستا كوبا عقب الانقلاب الذى قام به فى عام ١٩٣٣ ، وعين نفسه جنرالاً للجيش الكوبى بعد أن كان مجرد ضابط من تحت السلاح ، ونجح فى إجراء انتخابات كان هو الوحيد المرشح فيها ، ومن ثم أمسك مقاليد الأمور فى كوبا لمدة ست سنوات لم يعط فيها كوبا أى تطور أوتقدم ثم حكم أربعة أعوام أخرى أى أنه استمر فى فترة حكمه الأولى فى الفترة من ١٩٣٣ حتى سنة ١٩٤٤ ثم أجبر على التخلى عن الحكم ، ولكنه عاد مرة أخرى وقام بانقلاب دموى رهيب فى مارس سنة ١٩٥٢ أوصى به رئيس الجمهورية المنتخب « كارلوس بريوكارس » وأعاد تنصيب نفسه بدلاً منه وقد تم ذلك بمساعدة رئيس جيش كوبا المدعو « بيريز داميرا جينو نيفد » .

هكذا يمكن أن يقال إن باستا هو الطاغية الوحيدة بين الطغاة الذى حكم بلده على فترتين منقطعتين الأولى سنة ١٩٣٣ حتى سنة ١٩٤٤ ، والثانية ١٩٥٢ إلى ١٩٥٩ أى أنه حكم كوبا مدة ثمانية عشر عامًا ، واعتلى السلطة من خلال انقلابين دمويين وبمساعدة خارجية من الولايات المتحدة الأمريكية .

وخلال حكم باتستا رصف طريق الشعب بالآلام والخيانات والوعود الكاذبة .صفيت خلال هذا الحكم العناصر الوطنية تصفية جسدية ، وازدحمت السجون والمعتقلات بكل صاحب رأى ، وتمنى الكثير من الكوبيين الموت هروبًا من البؤس الذى عاشوا فيه خلال حكم « باتستا » ، وكان لابد أن يضحى شباب كوبا من أجل وطنهم إنقاذًا له من الظلم والطغيان ، ورغم تعدد انتفاضاتهم لم يبخلوا بجثثهم ودمائهم من أجل مستقبل بلدهم لأنهم كانوا يدركون أنه حتمًا سوف تتحرر بلدهم وتنقشع الغيوم مهما طالت السنون ، وأن الشمس سوف تشرق بعد أن حاول بضعة أفراد لا ضمير لهم ، شوهدوا بجرائم لا تغتفر سمعة كوبا ، سوف تشرق هذه الشمس على كوبا تهديهم إلى طريق النور والعدل والحرية .

وما كان الطاغية باتستا فى أى يوم رجلاً يسمح للأوهام أن تعوقه فهو لم يتردد فى أية لحظة عن اجترار الأكاذيب الملفقة للشعب ، فلقد ادعى أنه قام بانقلاباته لإنقاذ كوبا من حمامات دم محتملة

الوقوع ، ولكنه فى الواقع هو الذى أغرق كوبا بأساليب التعذيب والإرهاب والجريمة ، وخنق الحرية لشباب رفضوا الخضوع لأوامره والانصياع لإرهابه .

ومما هو جدير بالذكر أن اغتيال الأسرى قد اقترن فى تاريخ كوبا باسم « باتستا » بصورة مشؤومة ، ولم تسطر فى تاريخ كوبا قط صفحة سوداء واحدة بمثل الصفحة التى سطرت فى كوبا خلال حكم « باتستا » ، حيث رافق عدد الضحايا ووحشية الجلادين قسـوة دموية رهيبة مصحوبة بحقد وحزن وبؤس عميق .

وخرج باتستا من خلال فترة حكمه الأولى بثروة قدرت بأربعين مليون دولار ، ومن خلال رئاسته الثانية وصلت ثروته إلى أكثر من ٣٠٠ مليون دولار ، بينما كان شعبه يتضور جوعًا لقد قسم دانتى جحيمه إلى تسع حلقات ، فوضع المجرمين فى الحلقة السابعة ، واللصوص فى الحلقة الثامنة ، والخونة فى الحلقة التاسعة ، ولكن الأبالسة سوف يحتارون حينما يطلب منهم أن يختاروا الحلقة الملائمة لروح باتستا ، هذا إذا كانت له روح حقًا .

ومما يحكى عن جبروت حكم باتستا وجلاديه أنهم أرادوا اعتراف أحد المواطنين الأحرار عن اختباء الثوار فأتوا لإحدى النساء المسجونات بعين دامية وقالوا لها وهى ترى العين : « إنها تخص أخاك وإذا لم تقولى ما رفض أن يعترف لنا به فسنقلع عينه الأخرى » فما

كان من الفتاة وهى تنتفض إباء رغم حبها لأخيها إذا كنتم قد اقتلعتم له عينا ولم يتكلم فلا تنتظروا منى أن أتكلم أنا » .

ولقد وصفه « ريشارد ديميايبى » فى إذاعة الـ ب .ب .سى البريطانية بأنه دكتاتور أجوف وحاكم صغير متعجرف .

لم يتورع باتستا عن ارتكاب كل جريمة ، وكان خطؤه حين انتزع السلطة بالقوة أنه ظن أن القوة وحدها هى التى ستمكنه من الاحتفاظ بها وسالت الكثير من الدماء نتيجة لما أرتكبه من أخطاء .

لقد أصبح لا يمضى يوم دون ضحايا جدد ممن يقضون نحبهم على يد رجال البوليس ، بل إن مدير البوليس بنفسه كان يتولى قتل كل من تثور حوله الشكوك واشتدت وطأة التعذيب فى عهده حتى أن البوليس كان يلقى بجثث الضحايا على الأرصفة ليكونوا عبرة لغيرهم .

ولعل أخطر المذابح فى عهده كانت مذبحة « مولوزا » التى راح ضحيتها ما يقرب من عشرة آلاف مواطن ، ووصل الأمر أن ابنه « ريين باتستا » لم تعجبه سياسة والده ، فشارك فى إحدى المظاهرات ضده دون أن يدرى أصدر باتستا الأمر بفض المظاهرات بالقوة ، وكان أن أطلق البوليس الرصاص على المتظاهرين فقتل ابنه ولما علم بالأمر أصيب بشلل فى التفكير وانقلب إلى ذئب دموى يريد قتل كل شىء وكتم كل صوت للمعارضة ضده وكان كلما يحس أن

زمام الأمور سيفلت من يده يزداد استبدادًا مما كان يزيد فى كراهية الشعب له .

جمع باتستا ثروة من السلب والنهب قدرت بثلاثمائة مليون دولار ، وفى عهده انتشرت الرشوة والمقامرة والفساد والانحلال ، وكانت أسرة باتستا تقتسم المشروعات التجارية والسياحية فى كوبا وتجمع من ذلك أرباحًا طائلة ، وكان روبرت فرناندز أخو زوجة باتستا يشرف على شبكة كبيرة من القمار ، ووصل دخله السنوى أكثر من عشرة ملايين دولار ، واستغلت مدام باتستا اليانصيب لتجنى من ورائه أموالا كثيرة وقد أسند باتستا المناصب الهامة لأسرته فمثلاً أخو زوجته كان مديرا عامًا للبوليس فى هافانا ، ولكى يدعم باتستا حكمة ، لجأ إلى تعيين آلاف من أنصاره فى وظائف وهمية تدر عليهم فى آخر كل شهر مرتبات منتظمة نظير أعمال لم يؤدوها ، والواقع أن باستا كان يجد تشجيعًا لسياسته من الولايات المتحدة ، ولو أن واشنطن أرادت إبعاد باتستا عن الحكم لتم لها ذلك قبل أن تستطيل لحية فيدل كاسترو ولتجنبت أمريكا من المصاعب التى حدثت لها فيما بعد لقد كانت الأسباب الرئيسية للثورة ضد باتستا تتلخص فى الآتى :

١ — النمو السريع للرأسمالية خاصة تحت سيطرة الأجنبى مما أدى إلى تركيز متزايد على الأرض وتطورات احتكارية ورفع أثمان الطعام .

٢ – النمو التدريجى للطبقة المتوسطة داخل كوبا ونمو تطلعاتها الطبقية للسلطة والحكم .

٣ – الدكتاتورية التى تشجع الاستثمار الأجنبى والمشاريع الأجنبية وتمجد الارستقراطية وتقيد الفرص الاقتصادية للطبقة الوسطى وحرمانها الكامل من التعبير السياسى عن نفسها ، وهذه الديكتاتورية لم تضطهد غالبية الشعب فحسب بل أيضا بعض المتعاونين معها .

٤ – الأزمات الاقتصادية المتكررة ونقص المحاصيل .

٥ – القمع الفظيع للحركة الوطنية وانتشار الاضطهاد السياسى .

حكم الحديد والنار :

لقد جعل « باتستا » كوبا فى قبضته الحديدية حيث اعتبرها إقطاعية له ولأسرته ، وجمع حوله الصحفيين الذين حاولوا أن يظهروا سمعته فى الداخل ويحسنوا صورته فى الخارج ، واحتفظ « باتستا » وعصبته بالجزء الأكبر من دخل كوبا لاستعمالهم الخاص ، وقبل أن يلقى « باتستا » حتفه كون ثروة تبلغ الملايين لقد كان مستبدا جائرًا ويعد من أقسى الطغاة فى العالم لقد سجن المئات ، وعذب وقتل ونفى كثيرًا للخارج خلال حكمه الطويل ، ولم يحدث شيء لبلده خلال حكمه ليخفف عن الناس الفقر والجهل .

وكان التذمر السياسى يزداد يومًا بعد يوم ضد حكم « باتستا » واكتسب الطاغية عداء المثقفين ، ونمت المرارة خلال حكمه فى قلوب العمال ، ولم يكن ذلك إلا نتيجة طبيعية لما قام به من إغلاق المدارس والمصانع ، لقد كانت اللحظة الراهنة على حساب البلد ، وكان اهتمام الطاغية ومن حوله موجها إلى استغلال الأرض والإنسان والجماد والحيوان فوق أرض كوبا ويغفلون تلك الانتهازية بشعارات يرفعونها تتحدث عن شرف الوطن وحرية المواطنين ، وفى ظل حكم باتستا كانت كوبا ضيعة ينهبها الأجانب مقابل عمولة يحصل عليها الطاغية وأعوانه .

نهاية الطاغية :

لابد لكل طاغية من نهاية ، لأن التاريخ هو سلسلة من الصراع بين القوى الشيطانية بما تمثله من استبداد سياسى وظلم اقتصادى وانحراف اجتماعى وبين عاشقى الحرية ومناصرى العدل والباحثين عن الأمن والاستقرار .

إن القوى الشيطانية التى جعلت سلاحها للسيطرة على الشعب الإرهاب والإباحية ، استطاعت عبر باتستا أن تضرب نطاقًا من العزلة حول الجماهير وأن تعيق حركتها وتخدر قواها .

لقد سقط « باتستا » تحت أقدام ذوى اللحى « أنصار ذلك المحامى الذى امتهن القانون ، وضايقه أن تسجن العدالة فى بلده

ونقصد به « فيدل كاسترو » الذى تشبه ببطل كوبا القومى « خوسيه مارتى » .

وفى الواقع شعب كوبا شعب ثورى بطبيعته لا يرضى الضيم ويأبى الظلم ويدافع عن حقوقه ومسلح بوعى سياسى يميزه عن بقية شعوب قارة أمريكا اللاتينية .

ومنذ انقلاب باتستا الذى قام به فى ١٠ مارس سنة ١٩٥٢ لم تسكت أصوات المعارضة ضده ، وقام ضده كفاح سرى تزعمه طلبة الجامعة وبعض العناصر النقابية وشلت الإضرابات تفكير الديكتاتور ، وكان أقوى المعارضين هم جماعة ٢٦ يوليو التى تزعمها فيدل كاسترو رئيس الحزب الأرثوذكسى فى هافانا ، وقامت هذه الجماعة بمحاولة فاشلة لطرد الديكتاتور باتستا إلى جانب محاولات جديدة لكن الطاغية قتل معظم الذين قاموا بها ، وبقى من هؤلاء الأبطال اثنا عشر رجلاً هربوا إلى جبال « سييرا مايسترا » مصممين على مواصلة الكفاح لإسقاط حكم الطاغية ، ولم يلبث أن انضم لهم فى نهاية عام ١٩٥٨ ما يقرب من عشرة آلاف متطوع .

إلا أنه خلال عام ١٩٥٧ هاجم بعض الفدائيين قصر الرياسة الذى يعيش فيه الطاغية بهدف اغتياله لكنهم فشلوا ، وكانت أعمال المدنيين فى المقاومة السرية متنوعة ، حيث قاموا بحملات الدعاية

ضد الحكومة وجمعوا ملايين الدولارات من الشعب بجميع صفوفه لشراء الأسلحة والمؤن لجيش الثوار .

وكلما زاد الثوار عملياتهم الفدائية كلما زاد عنف واضطهاد حكومة « باتستا » للمعارضة ، واعتادت منازل كوبا تلك الزيارات الليلية التى كان يقوم بها أعوان الطاغية لاعتقال أى شخص حيث يؤخذ المعتقلون إلى مراكز البوليس وثكنات الجيش وكان مصير المعتقلين ينتهى بمجرد اعتقالهم ، وتعرض عشرات الألوف من الوطنيين فى كوبا لتعذيب آثم ، وتقول الإحصاءات إن ما يقرب من عشرين ألفا من المدنيين ، قتلهم الطاغية باتستا ، ونظام حكمه ، وكانت الجثث تشوه بحيث لا يمكن التعرف عليها ولكن كان لابد للثورة أن تنتشر ، وهكذا نجحت ثورة كاسترو سنة ١٩٥٩ .

وبقى أن نقول للشعوب التى تعانى من حكم الطغاة ، إن الحرية لا تستجدى استجداء إنما تؤخذ بحد السيف وبقوة الوعى والإنسان الذى يطيع قوانين ظالمة ويسمح لأناس يسومون الوطن الذى ولد فيه سوء العذاب ليس هو بإنسان شريف ، فكما لابد للدنيا من النور ، وكذلك لابد أن يكون فيها شىء من الشرف ، وعلينا أن ندرك أنه عندما يكون هنالك الكثير من الناس بلا شرف ، فهناك إلى جانبهم كثيرون غيرهم يحملون فى أنفسهم أسمى معانى

الشرف ، وهؤلاء هم الثوار انصار الحرية والعدل والمدافعون عن حقوق الجماهير والمرآة الصادقة لنبل الشعب .. وأخيرًا هم الذين يمثلون الكرامة الإنسانية بحق .

لقد هرب باتستا لاجئًا إلى جمهورية الدومينيكان فى الأول من يناير ١٩٥٩ وكغيره من الطغاة أدرك بعد فوات الأوان عظم الجرم الذى ارتكبه فى حق ضحاياه مدركًا ما سيكتبه عنه التاريخ وكيف ستلعنه الشعوب ، وتظل تلاحق خطاياه حتى تنتهى حياته ليلقى عذاب الآخرة على ما قدمت يداه .

فرانكو

طاغية أسبانيا

أسبانيا دائمًا لها طابع خاص يختلف عن كل البلدان الأوربية فهى تكاد تكون المنطقة الأوربية فى العالم ، التى تقبل الجديد بسرعة ، والتى تقوم بالمقاومة فى شكل نضالى ، والتى تستسلم فى أوقات معينة بشكل يثير الدهشة ، ومع ذلك فقد تميز الشعب الأسبانى على مدار التاريخ ، بأنه واع دائمًا لحركة التاريخ ، فهو شعب له مزاج معين لم يتوفر لدولة أوروبية ، ولقد كان الجنرال فرانكو يمثل إحدى الظواهر التاريخية فى حياة أسبانيا .. ألا وهو الجنرال « فرانكو » القصير القامة .. ذو الملامح العادية السمين الجسد ، وقد ظل فى الصفوف الخلفية حتى ساعده الحظ بعد وفاة قائدى الثورة الواحد بعد الآخر فكان أن أصبح قائدًا للمتمردين ضد حكومة الجمهورية ، فلقد كان لموت الجنرال « سانجوريو » فى حادث الطائرة التى احترقت به فى برشلونة ، ثم لهلاك مولا ومساعديه فى طائرة أخرى أن خلا الجو نهائيًا للجنرال « فرانكو » ليدخل حلبة التاريخ ، وبعد حرب أهلية استمرت ثلاث سنوات بين عامى ١٩٢٦ - ١٩٢٩ ، دانت له الأمور فى كل أسبانيا

وأصبح امبراطورًا غير متوج ، حكم أسبانيا بالحديد والنار ، أشبه ما تكون بمعتقل كبير حيث منع الأحزاب وفرض الأحكام العرفية ، ولم يعط الصحافة حريتها ولم يجر انتخابات برلمانية إلا عندما أدركته الشيخوخة ، وكانت كلمته مطاعة والكنيسة تكرس حكمه ، ولكن رغم كونه الحاكم المطلق والديكتاتور الذى مثل آخر صور الطغاة فى أوروبا ، فإنه لم يسلم أبدًا من نقد مواطنيه ومن وجود معارضة فى داخل أسبانيا تقلق مضجعه وتجعله لا يهنأ بالسلطة .

من هو فرانكو :

ولد فرانكو فى ٤ ديسمبر سنة ١٨٩٢ فى مقاطعة فاليسنيا فى الشمال الغربى لأسبانيا ، وكان مسقط رأسه فى إحدى ضواحى هذه المقاطعة وتعرف هذه الضاحية باسم قرية « باهموند » ، وهو من عائلة تنتمى إلى الفئة الدنيا من الطبقة البورجوازية حيث كان أبوه يحمل شهادة متوسطة يشتغل بها محاسبًا فى البحرية الأسبانية ، ويعتبر فرانكو الأوسط بين إخوته ومنذ صغره أصابته مجموعة من العقد النفسية كان لها انعكاساتها فيما بعد على أسلوب حكمه ، لقد وجهه والده نحو التعليم الدينى ، على غير رغبته لأنه كان يحلم أن يكون ضابطًا فى البحرية ولكنه بعد دراسة عدة سنوات فى مدرسة « الآباء السيلزين » الكاثوليكية اكتشف أن القيم الدينية لا وجود لها عند والده ، ذلك الوالد الذى كان سكيرًا وزير نساء

وفاسد الأخلاق ولا يرعى والدته ، مما جعل هناك علاقة تعاطف وحب شاذة بين فرانكو وأمه « ماريا » بسبب قسوة أبيه عليها ، ولقد كان من أثر ذلك أن فرانكو أحب أمه على طريقة « أوديب » ، فى شذوذ جعله لا يعرف امرأة غيرها طوال حياته التى وصلت إلى أكثر من ثلاثة وثمانين عامًا ، وإن كان هذا لم يمنعه من الزواج مرة واحدة أنجب ابنة له ، عرف عن فرانكو من صغره الكسل وعدم رغبته في القراءة ، ولقد حقد على إخوته لأن الأكبر أصبح ضابطًا فى سلاح البحرية ، والأصغر أصبح ضابطًا فى سلاح الطيران ، ونظرا لعدم وسامته ولقصر قامته فإنه لم يجد أمامه سوى الجيش البرى ، خاصة وأنه لم يكن يمارس أى لعبة ، وكان كرشه مدعاة للسخرية منه ، فاعتزل الناس وامتلأ صدره بالغيرة ، وكان عندما يتذكر جده الفلاح الأجير الذى كان أشبه بعمال التراحيل ويعمل لدى كبار الملاك متنقلاً من مزرعة لأخرى ، كان يبتسم فى صمت أشبه بمن يكظم غيظه لأنه لم يعرف عن فرانكو الضحك أبدا وحتى ولو ابتسم فإن ابتسامته تكون مصطنعة .

وقد التحق فرانكو بمدرسة الحرب الملكية ، ولم يلبث أن شعر بالغرور بعد أن ارتدى بدلة الضباط وبدأت الأحلام تداعب خياله لأن ملابسه كانت تميزه عن غيره ، ولم يكن فرانكو يملك أى عبقرية ولكن الحظ خدمه حيث انتظم فى خدمة رؤسائه وإطاعة الأوامر

العسكرية الصادرة له ، وتنفيذها حرفيا مما جعله يرقى سريعًا وقد عين جنرالاً فى سنة ١٩٢٥ ، فكان بذلك أصغر جنرال فى الجيش الأسبانى وظل لمدة عشر سنوات لا يسمع اسمه حتى تجىء سنة ١٩٣٤ ، ويقع عليه الاختيار لضرب حركة قام بها العمال فى شهر أكتوبر من هذا العام ضد السلطة الشرعية وفعلاً نجح فرانكو فى القضاء على ثورة العمال وإخمادها بلا رحمة ، وقتل الكثير من العمال فى مناجم « استوريا » التى نشب بها الإضراب ، وكان ذلك العمل الوحشى هو جواز المرور لمنصب رئيس هيئة أركان حرب الجيش الأسبانى وقد قال عنه وزير الحربية وقتئذ المدعو « جيل روبلز » :

« لقد اخترته ليس لمهارة خاصة فيه أو كفاءة يتفوق بها على غيره ولكن لأنه شخص مطواع ينفذ الأوامر بصرامة ويمكن تحريكه كما أشاء » .

والواقع أن « روبلز » نسى أن اختياره لفرانكو كان لسبب آخر وهو أن اختياره كان بسبب العداء الذى يكنه فرانكو للجمهورية الأسبانية وهو نفس الشعور الذى كان يحمله وزير الحربية .

المسرح السياسى الذى ظهر عليه فرانكو :

كانت أسبانيا فى حاجة إلى ديكتاتور ، فحركة التاريخ كانت تنبئ بذلك حيث توالت عليها الهزائم والنكسات العسكرية ، فقد

هزمت خلال الحرب الأسبانية الأمريكية سنة ١٨٩٨ ، وتحطم أسطولها ، وقد قال فرانكو عن نفسه بعد هذه الهزيمة إنه كان يطمع فى أن يكون ضابطًا بحريًا ، ولكن الهزيمة للأسطول جعلته يتخلى عن تلك الفكرة ، لم تلبث أسبانيا أن هزمت هزيمة منكرة فى الريف المراكشى على يد قوات عبد الكريم المغربى المعروف باسم « عبد الكريم الخطابى » فى سنة ١٩٢١ وقيل إن أسبانيا فى هذه المعركة خسرت من قواتها ما بين خمسة عشر ألف قتيل وكانت هذه الهزيمة العسكرية شديدة الوطأة على الشعب ، لدرجة أن الجماهير بدأت تطالب بلجان تقصى الحقائق ، خاصة وأن بعض الفضائح بدأت تزكم الأنوف وتؤكد أن الملك وحاشيته لهما ضلع فى هذه الهزيمة فخشى « الفونسو الثالث عشر » ملك أسبانيا على نفسه ، فاختار أحد الجنرالات المعروفين قسوتهم ويدعى « بريمودى ريفيرا » وعينه رئيسًا للوزراء فى سبتمبر سنة ١٩٢٢ ، فقام هذا بمنع المظاهرات وعطل البرلمان ، وفرض الرقابة على الصحف ، وبدأ يحكم بالحديد والنار ، ولكن الشعب أبى الركون إلى الحكم الظالم مؤمنًا أن البلاد لا ترتقى إلا بنسبة ما يتمتع به أهلها من الحرية وأنه لا يرجى العدل إلا من الحكومات التى هى وليدة رغبة الأمة ، وأى قيمة للفضيلة إذا لم توجد الحرية الخاصة وأنه من المعروف أن الشعب الأسبانى شعب متدين ، وانتصرت قوى الجماهير بعد ٧ سنوات وفى سنة ١٩٣١ ، وصلت الأحزاب المؤمنة بالحكم الجمهورى إلى السلطة ، واضطر الملك أن يهرب

من البلاد وتشكلت حكومة اشتراكية يسارية ، وأعلن النظام الجمهورى فى أسبانيا ، ولكن التيار المتطرف والحركة الشيوعية التى قام بها عمال « مناجم أستوريا » والتى قضى عليها فرانكو ، ثم عداء الكنيسة للنظام الجمهورى الذى أخذ يصادر أملاكها إلى جانب عدم قدرات الحكومة الجمهورية الحفاظ على الأمن مما أوقع البلاد فى فوضى اتسمت بموجة من الاغتيالات والاضطرابات والإفلاس الاقتصادى ، وزيادة أرقام العاطلين وكل ذلك أدى إلى تدخل الجيش فى الأوضاع لإنقاذ البلاد من الهاوية . ومن ثم أعلنت ثورة الضباط وقاد الثورة « كالفوسنيلو » قائد القوات الأسبانية فيما وراء البحار ، ولكنه لم يلبث أن قتل فى حادث طائرة وخلفه الجنرال « سان جورجو » ومعه الجنرال « مولا » ولحسن حظ فرانكو أن قتل هذان الجنرالان فآلت قيادة الثورة إلى « فرانكو » بحكم أنه أقدم الرتب العسكرية .

الحرب الأهلية الأسبانية :

فى ١٨ يوليو سنة ١٩٣٦ بدأت ثورة الضباط ضد الجمهورية الأسبانية ، وقامت الحركة فى « مليلة » المغربية وبعد شهرين أصبح فرانكو قائدًا لها ، وزحف بجنوده نحو أسبانيا ، وخيل للجميع أن « فرانكو » على وشك تحقيق الانتصار بسهولة وبسرعة ، خاصة وأن معظم طوائف الشعب كانت معه ، كبار الملاك ، كبار رجال الصناعة والتجارة ، رجال الكنيسة ، القوات المسلحة ، لكن حكومة

الجمهورية لم تستسلم إلا بعد ثلاث سنوات ، واستمرت الحرب بين أنصار الجمهورية وأنصار « فرانكو » فى المدة من سنة ١٩٣٦ إلى سنة ١٩٣٩ م ولكن الذى ساعد على طول مدة هذه الحرب هو التدخل الأجنبى لأن هذه الحرب فى الواقع خضعت للمصالح الأجنبية فقد تدخلت روسيا إلى جانب الجمهورية الأسبانية ثم تبعتها فرنسا التى كان موقفها مترددًا فى البداية ، وفى المقابل تدخلت ألمانيا وإيطاليا إلى جانب « فرانكو » .. ونجح فرانكو فى إعلان نفسه رئيسًا للدولة الأسبانية فى أول أكتوبر سنة ١٩٣٦ وفى ١٨ نوفمبر من نفس العام اعترفت به كل من إيطاليا وألمانيا .

ولقد كان منطقيًّا أن ينتصر « فرانكو » لأن القوات التى وقفت مساندة له زادت على ثلث مليون جندى – ولو أن ذلك رقم مشكوك فيه – أو لا تنقص عن مائتى ألف جندى ، منها مثلاً ما يقرب من ستين ألف إيطالى أمدهم « الدوتش موسولينى » ومنها ما يقرب من خمسين ألف جندى مغربى بالوعيد والتهديد انحازوا إلى « فرانكو » ثم بالإغراء والوعود استمروا يقاتلون معه فترة الثلاث سنوات ، بينما كانت قوات الجمهورية لا تصل إلى ٣٠ ألف جندى .. وظل « فرانكو » يحاصر « مدريد » مدة تقرب من سنتين ونصف حتى سقطت أخيرًا فى ٤ أبريل سنة ١٩٣٩ .

وتقدر خسائر الحرب الأهلية الأسبانية بما يزيد على مائة ألف

نسمة وبلغت نفقاتها نحو ثلاثة آلاف مليون جنيه إسترليني ، وطبقًا لأسعار هذا الزمان لوجدناها تعادل الآن أكثر من خمسة بلايين (مليار) جنيه إسترليني ، وبالطبع لم ينفذ « فرانكو » أي تعهد من الذي أخذه على نفسه نظير مساعدات ألمانيا أو إيطاليا له ، فألمانيا أمدته بالطائرات والخبراء نظير تحقيق بعض المصالح الاقتصادية ، وإيطاليا التي قدمت التضحيات « لأسبانيا » ، وكأنها تدافع عن أرض إيطاليا لم تستفد من علاقاته بها شيئًا مما كانت تحلم به .

فرانكو في السلطة :

بمجرد أن استولى فرانكو على السلطة بدأ يجمع كل السلطات في يديه ، وجعل نفسه مصدر كل التشريع ، ولكي يصبغ على حكمه مسحة من الديمقراطية فإنه أعاد تأسيس مجلس « الكورتز » ، أي البرلمان الأسباني ، ولكنه اختار أعضاءه بنفسه وبلغ عددهم ٤٣٨ عضوًا من فئات متنوعة وكانوا جميعًا طوع بنانه ، وبدأ يتخلص من أقرب معاونيه الذين ساعدوه في الحصول على النصر ، ووجد في تحالف الكنيسة الكاثوليكية معه السند الرئيسي في حكم الإرهاب الذي مارسه ، وأصبحت أسبانيا في عهده سجنًا كبيرًا مارس فيه الاعتقال والتعذيب وتكمم الأفواه ويصادر الرأي الآخر ولا وجود لصحافة حرة ، أو لأي تجمعات ، وحكم البلاد بالحديد

والنار حيث فرض عليها الأحكام العرفية ، وألغى الأحكام المدنية وجعل المحاكات أمام محاكم عسكرية .

إن فرانكو لم ينس ما فعلته به حكومة الجمهورية حيث أبعدته إلى جزر كنارى منفيًّا ولذلك كانت عودة المنتقم حيث قام بتصفيتها جسديًا دون رحمة أو محاكمة ، وبعد أن كان حلم كل الذين ناصروا « فرانكو » أن يجدوا عهدًا جديدًا وحاكمًا عادلاً وزعيمًا عظيمًا قلبه ملىء بالحب لكل الذين يقاسون ، ملىء بالعدل لكل المظلومين ، بعد أن كانت جماهير أسبانيا تحلم بيوم الخلاص من حكم الملكية ثم من فوضى الجمهورية ، فوجئت بأن حكم « فرانكو » هو اليأس ذاته ، وأن فرانكو يظن نفسه الزعيم الملهم ، ومن ثم لابد من الصراع لإنهاء التعاسة والشقاء .

والشعوب لا ترحم حكامها إذا ظلموا وأفسدوا وانحرفوا ، صحيح قد لا تستطيع النيل منهم ، ولكنها تتربص بهم حتى ولو كانوا يحيطون أنفسهم بسياج من الحراسة والمخابرات ، والشعوب العظيمة تصنعها المحن ، وتصهرها الآلام وكان على الشعب الأسبانى أن يصبر لأنه فى عصرنا الحديث لا يهزم الطغيان بسهولة ، فالنضال من أجل الحرية يحتاج دائمًا إلى أنواع جديدة من المخاطرات والكفاح تلائم روح العصر .

ووقف المجتمع الدولى مع الشعب الأسبانى فى مواجهة « حكم فرانكو » ففى ٢٠ يونيو سنة ١٩٤٥ قرر مؤتمر « سان فرانسيسكو » إبعاد أسبانيا عن عضويته كدولة مؤسسة للأمم المتحدة ولما أحس « فرانكو » أن الأزمة الاقتصادية الطاحنة تكاد تطيح بنظام حكمه بدأ يخاطب الولايات المتحدة فى شكل غزل رقيق ، عارضًا عليها أية قواعد عسكرية نظير معونة اقتصادية ، ولكى يدلل على حسن نواياه فإنه أعلن فى ٢٠ يوليو عن تغيرات فى وزارته ، وأدخل المتعاطفين والمؤيدين للنظام الملكى .

لكن الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا ، كانت تشعر أن فرانكو رمز للفاشية الباقية فى أوربا ، وأن على الشعب الأسبانى أن يواجه نظام « فرانكو » ، ويعود إلى الديمقراطية ، وقد تكونت حكومة فى المنفى كان مقرها مدينة « ميكسيكو سيتى » فى ٢٢ أغسطس ١٩٤٥ ، ترأسها الجنرال المعارض لحكم فرانكو وهو « جوزيه جيرال » ، وفى ١١ ديسمبر سنة ١٩٤٦ قررت الجمعية العامة للأمم المتحدة إبعاد أسبانيا عن كل أنشطتها ، وناشدت أعضاءها قطع علاقاتها بنظام « فرانكو » .

ولم تسكت المقاومة فى الداخل ، بل إن المنشورات كانت تملأ أسبانيا ، وكان إقليم الباسك يمثل عنصر القلق لنظام « فرانكو »

وبدأت الجبهات الشعبية تتكون ضد النظام ، ومن أخطر ما جاء في هذه المنشورات :

« إلى الشعب الأسبانى ، لا ترهبوا الطغاة ولا تحسبوا أنهم سيحكمون إلى الأبد إنهم يقفون على حافة نهر اللانهاية الذى لونوا مياهه بالدم والموت ، وسرعان ما يسقطون فيه حيث تلحقهم لعنة الشعب ، ولا تنصفهم رحمة التاريخ » .

وأكدت جبهة المعارضة أن الحرية كل لا يتجزأ ، وأن الحرية السياسية تكمل الحرية الاقتصادية ، والعدل السياسى شرط العدل الاجتماعى ، والوطن لا يعنى شيئًا إن لم يكن وطنًا للحرية ولمن يعيش فيه حرًا وأن الديمقراطية هى الضمان الأعظم للأمن والاستقرار .

ولعل أخطر هذه المنشورات ضد حكم فرانكو الذى كان قد بدأ يفقد صوابه وعين للمقاطعات حكامًا عسكريين ، ذلك المنشور الذى يقول :

« إلى أولئك الحزانى البائسين على ما وصلت إليه أحوال الأمة الأسبانية من تمزق وتفتت وتشتت ، إلى الذين فقدوا الثقة حتى فى أنفسهم فى إمكانية إصلاح أحوال بلادنا ، وإلى المؤمنين بعقيدتهم والمناضلين من أجل ذويهم نقول لكل هؤلاء ، لا تيئسوا فسوف نحطم الأسوار وننطلق لبناء مجتمع الأحرار » فلا يوجد قفص ليوضع

فى داخله شعب بأسره ، ولا يمكن أن تحبس رياح الحرية لأن هذه الحرية هى السوط الذى سنجلد به الظالمين .

واضطر فرانكو إلى تخفيف حدة قبضته ففى ٢١ مارس سنة ١٩٤٧ أعلن فى وثيقة قرار بعودة الملكية إلى أسبانيا ، وتقابل مع « خوان كارلوس دى بروبن » ليعلنه خليفته وبدأ يفتح أبواب أسبانيا ، أو بمعنى آخر بدأ يحاول التقرب من جيرانه الأوربيين لأنه قبل ذلك لم يكن على علاقة بأحد سوى زميله الديكتاتور المجاور له فى شبه الجزيرة « الآيبيرية » ، ونقصد به « سالازار » حاكم البرتغال ، والمثيل له فى الطغيان ، وكان أول أجنبى يزور فرانكو فى أسبانيا هو الملك عبد الله حيث زارها فى سبتمبر سنة ١٩٤٩ (ملك شرق الأردن) .

ولما أحست الولايات المتحدة الأمريكية أن حلف الأطلنطى فى حاجة إلى استكمال خطوط دفاعه ، وأن أسبانيا ضرورة له ، خصصت الولايات المتحدة ٦٢,٥ مليون دولار لأسبانيا فى ٦ سبتمبر – بعد موافقة الكونجرس – ضمن مشروع مارشال ، وساعدت الولايات المتحدة على الاعتراف بنظام فرانكو من منطلق أن عزلته ليست فى صالح الشعب الأسبانى ، وأحست البلاد بعض نسمات الحرية ولكن سوء الأحوال الاقتصادية أدى إلى إضراب ربع مليون عامل فما كان من « فرانكو » إلا أنه قمع الإضراب

بدون رحمة وقتل الكثيرين من العمال وفرض الأحكام العرفية وأساء معاملة المسجونين السياسيين .

وفى ٢٦ سبتمبر سنة ١٩٥٣ عقدت الولايات المتحدة اتفاقًا مع أسبانيا لكى يكون لها قواعد بحرية وجوية نظير مساعدات ومعونات عسكرية واقتصادية وفى ١٤ ديسمبر سنة ١٩٦٤ م ، صدر لأول مرة إعلان دستورى لأسبانيا بعد حكم مطلق دام ربع قرن وبعد ذلك بخمس سنوات نادى « فرانكو » بشكل علنى بأن « خوان كارلوس » هو وريثه ، وفى ٢ أكتوبر سنة ١٩٦٩ ، زار نيكسون أسبانيا ضمن جولة له فى دول البحر المتوسط ، وفى عام ١٩٧٠ (٦ أغسطس) جددت اتفاقية القواعد لخمس سنوات أخرى .

ولكن عندما قامت الجبهة الوطنية لإقليم « الباسك » بخطف قنصل ألمانيا الغربية فقد فرانكو أعصابه وبدأ يتخذ إجراءات قاسية ولم يلبث أن وجه رصاص طغيانه إلى كل الشعب .

لقد قام فرانكو خلال حكمه بنفى أكثر من نصف مليون مواطن بعيدًا عن الوطن الأم واستمر الناس فى موات ، وامتلأت السجون بالأحرار وقيل إن حكم فرانكو قام بإعدام أكثر من ٢٥٠ ألف مواطن .

إن فرانكو ككل طاغية فى التاريخ عاش معزولاً عن شعبه يحكم من خلال البندقية ويظن أنه مبعوث العناية الإلهية ، ولولا المعونات

الأمريكية لكانت أسبانيا تعانى من مجاعات متكررة ، وبدلاً من أن يحمى الشعب كان هو عذابًا للشعب .. لم يرحل عن بلاده إلا مرات قليلة ، وكان يخشى دائما الانقلابات العسكرية ، ولذا رصد الكثير من الأموال للمخابرات والجاسوسية .

نهاية الطاغية :

لقد كان حب السلطة لدى « فرانكو » أحب إليه من السلام ، وكان اعتزازه بقوته أكبر من خوفه على مستقبله أملاً فى المكوث على كرسى الحكم إلى الأبد ، رافضًا فكرة الموت مغامرًا بكل شىء حتى تحين ساعته ، كان فرانكو بداية من سنة ١٩٦٠ أى وهو فى سن الثامنة والستين ، قد بدأ يشعر بالمرض بعد أن زاد عليه التهاب الأمعاء ، وقد أصيب بالتهاب فى الوريد بالقدم اليمنى ، وظل يعانى من المرض لمدة ١٥ عامًا دون أن يعلم الشعب بذلك ، وأخيرًا فى نهاية ١٩٧٥ أصيب بتدهور فى مركز المخ الذى يوجه العضلات ، وأدى ذلك إلى الصلابة الذهنية وأدرك أن ساعته قد دنت وفى يوم ١٦ أكتوبر بدأ يعانى من صعوبة التنفس والقىء ودخل غرفة الإنعاش بداية من ٢٥ أكتوبر حيث بدأت البولينا تنذر بنهايته ، وأصيب الكبد بالتليف ثم بعد ذلك بدأ انتفاخ فى بطنه ، وكانت بجانبه ابنته وزوجته ، وبدأ يبكى وكأنه قد أحس فى الخاتمة بدنو ساعة الحساب ، وازداد نزيف المعدة مما اضطر

الأطباء إلى نقله إلى المستشفى لإجراء عملية جراحية عاجلة ، توقف المخ بعدها مما كان يعنى وفاته رسميا ، نعم لقد فارق الحياة فى يوم الخميس ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٧٥ .. وهكذا كان عقاب السماء ، وكان الجزاء العادل بعد أن أدخل الرعب فى قلوب رعاياه وبعد أن وضع أهل أسبانيا تحت الرقابة الصارمة ، وقبض على جميع الذين اشتبه فى إخلاصهم لنظامه ونصب المشانق فى مفترق المدن وأحاط نفسه بجيش من الجواسيس .

انتهى فرانكو وانسحب إلى الدار الآخرة باكيًا ، ولكنه لم ينس أن أعمال القمع والعنف الذى تتخذه سلطة ما ضد الشعب هى الوقود الذى يشعل نار الحرية ، وعلى الشعب ألا ييأس أبدًا ، فلولا الطغيان ما كسبت الحرية أكبر معاركها وكل ضربة يوجهها الطغاة للحرية تدفعها للأمام ، إن كل قبر حفره الطغاة للأحرار دفنتهم فى داخله الشعوب .

عيدى أمين

طاغية أوغندا

من المسلم به أن حكم الطغاة عقبة أمام التطور فى حياة الشعوب ، لأن الحكم من خلال السيطرة يعوق حركة التقدم والتسلط على أذهان الجماهير هو مقدمة ضياعها ، وشعوب بلا فكر قطيع من الغنم لا أمل فيها ولا مستقبل لها . وحركة التاريخ فى صراع دائم مع الديكتاتورية والاستبداد ، فإلى متى ستظل البشرية تقاسى من حكم الطغاة ، وإلى متى كتب على الإنسان أن يناضل من أجل حماية حقوقه التى منحها له الله وسلبها منه ذئاب آدمية اتسمت بالانتهازية والأنانية وبحب السلطة وكراهة الحرية ...

وعيدى أمين جنرال أفريقى ، أسطورة حكمه تتفوق على قصص جيمس بوند الخيالية ، ويعلمنا التاريخ أن الحقيقة فى كثير من الأحيان أغرب من الخيال .

حكم وطنه بالحديد والنار ، وأذل شعبه ، وأذاقه المرار ، وعاش يضحك حتى ضحكت منه الأقدار .

ولقد تحكم عيدى أمين فى حياة الشعب الأوغندى ، وسيطر على الصحافة وكممها فى قيود لا فكاك منها ، وانتشرت فى عهده

الاغتيالات واختطاف القوى السياسية المعارضة له والتنديد والتنكيل بكل محاولة لمواجهة طغيانه وديكتاتوريته .

نظرة على مسرح الأحداث :

اسم أوغندا التى نتكلم عن طاغيتها اسم حديث اخترعه البريطانيون عندما فرضوا الحماية عليها فى ١٨ يونيو سنة ١٨٩٤ ، وقد كانت أوغندة مكونة من أربع ممالك ، كل منها مستقلة عن الأخرى تمام الاستقلال وكثيرًا ما قام بينها التنافس الذى أدى إلى الحرب ، وكان أهم هذه الممالك مملكة بوجندا التى تتاخم بحيرة فكتوريا من الشمال ، ثم بونيورو وتقع فى الشمال من بوجندا ، ثم مملكة أنكولا وتورو إلى الغرب منها ثم أشولى فى الشمال من هذه الممالك ، ويفصلها عنها نيل فكتوريا .

ولم يشتهر من ممالك أوغندا سوى مملكة بوجندا ، فقد كانت هذه المملكة من أرقى الممالك ، وأكثرها تقدما وكان لها زعيم بمثابة حاكم منتخب يطلق عليه اسم « الكاباكا » يعاونه مجلس مكون من رؤساء القبائل والعشائر ، يسمى « الليكوكو » ولم يكن الكاباكا يبرم أمرًا ما لم يعرضه على « الليكوكو » ويحصل على موافقته .

وقد أثبتت كثير من الحفريات والآثار وجود اتصالات ما بين تاريخ أوغندا القديم وتاريخ الفراعنة ، ويفسر ذلك أن موجة من

الهجرات خرجت من مصر الفرعونية نحو الجنوب ، هذا إلى جانب أن كشف هذه الحفريات والآثار أظهر بوضوح أن هناك تقاربًا من ناحية اللون والعادات ونظم الحكم .

ويعتبر القرن الـ ١٩ نقطة تحول خطيرة فى تاريخ أوغندا ، فقد شاهدت فى مستهله استقرار الحضارة العربية فى عدة مراكز بين أرجائها ، ونتج عنه رفع مستوى السكان اجتماعيًّا وثقافيا ، فقد عرف العرب أوغندا سنة ١٨٤٤ حينما وفدوا إليها من اليمن كتجار حيث أن أوغندا اشتهرت بمركزها الهام فى تجارة العاج وريش النعام ، وقد ساعد وجود سواحلها قرب اليمن على وجود صلات تجارية منذ القدم بينهم وبين العرب .

والأصل فى وقوع أوغندا تحت السيطرة البريطانية هو وقوعها تحت سيطرة ونفوذ شركة أفريقيا الإمبراطورية ، التى ظلت تستغلها حتى استولت الحكومة البريطانية على الشركة وذلك فى عام ١٨٩٤ ، منذ ذلك العام أصبحت أوغندا محمية بريطانية .

ولقد ساد أوغندا فترة سلام طويلة بلغت أكثر من نصف قرن حتى سميت « بالمستعمرة المثالية » ، وفى عام ١٩٥٤ رفض الكاباكا « فوستالى الثانى » قبول المشروع البريطانى بوحدة شرق أفريقيا خوفًا من فتح باب أوغندا للمستوطنين البيض مما ينتج عنه مشكلات لا حصر لها فى المستقبل .

وابتداء من العام ١٩٥٥ بدأت تنمو الحركة الوطنية فى أوغندا واتخذت ثلاث صور :

١ – المقاومة الحزبية عن طريق مجموعات الأحزاب التى بدأت تتكون ولم تقتصر فى تواجدها على داخل أوغندا ، بل خرجت إلى النطاق العالمى ونشطت فى الدعاية لقضية استقلال أوغندا فى المجال الدولى .

٢ – المقاومة السلبية ونقصد بها مقاومة الشعب بالطريقة السلبية وعدم التعاون مع المستعمر فى أى شىء ، وبالذات المقاطعة الاقتصادية لمنتجاته ورفض العمل فى معسكراته .

٣ – المقاومة العسكرية ، وكانت متواضعة فى البداية إلا أنها بدأت تنشط منذ عام ١٩٦٠ وحيث كانت معظم دول أفريقيا قد حصلت على استقلالها فى عام ١٩٦٠ ، ونظرًا لأن كلاًّ من بريطانيا وفرنسا كانتا قد بدأتا تصفيان الاستعمار العسكرى لمعظم مستعمراتها ، وذلك اقتصادًا للنفقات ، ومن ثم حصلت أوغندا فى أول مارس ١٩٦٢ على الاستقلال الذاتى ، وأجريت انتخابات انتصر فيها حزب الشعب[٣] الأوغندى بزعامة « ميلتون أوبوتى » وكون أول وزارة وطنية ، وفى ٩ أكتوبر سنة ١٩٦٢ حصلت أوغندا على كامل استقلالها ، وأصبحت دولة مستقلة تمامًا فى نطاق مجموعة دول الكومنولث البريطانى ولم تلبث أن انضمت للأمم المتحدة .

وقد أقيمت دولة فيدرالية من الممالك الأربعة التى تكون أوغندا حيث منح لكل منها حقوقًا متساوية خوفًا من تسلط الكاباكا « إدوارد ميونيا » ، ولكن ارضاء للكاباكا فقد اختير أول رئيس لجمهورية أوغندا فى ٩ أكتوبر سنة ١٩٦٣ ، ولكن « ميلتون أوبوتى » دخل معه فى صراع للسيطرة على مقاليد الأمور فى أوغندا ونجح « أوبوتى » فى إنشاء حزب جديد غير حزب الشعب ، وفى ٢٢ فبراير سنة ١٩٦٦ قبض « أوبوتى » بيد من حديد على كافة السلطات فى أوغندا وقام فى ٢ مارس من نفس العام بطرد رئيس الجمهورية « إدوارد ميونيا » وأصبح هو الحاكم المطلق لكل أوغندا .

وفى ١٥ أبريل سنة ١٩٦٦ وضع « ميلتون » دستورًا جديدًا لأوغندا أنهى به الوضع المتميز للممالك الأربعة وأعلن نفسه رئيسًا ، ولكن لم تهدأ الأمور فى أوغندا حيث قامت محاولة انفصالية فى ٢٣ مايو سنة ١٩٦٦ فى إقليم بوجندا إلا أنها لم تستمر أكثر من ٤٨ ساعة قضى عليها بوحشية وهرب الكاباكا « ميونيا » إلى خارج أوغندا .

ولم يلبث « أوبوتى » أن ألغى النظام الفيدرالى لأوغندا ، وقسمها إلى أربعة أقاليم ، وفى يونيو سنة ١٩٦٧ عقدت أوغندا مع كل من كينيا وتانزانيا معاهدة كمبالا ، وفى ٨ سبتمبر سنة ١٩٦٩ صدر دستور جديد ، وفى ٨ أكتوبر من نفس العام

أعلن « أوبوتى » ما يسمى بميثاق حقوق الإنسان الأوغندى ، وكان الهدف سد الفجوة بين الأغنياء والفقراء فى أوغندا ، وزاد « ميلتون أوبوتى » قبضته على الحياة الاقتصادية فى أوغندا ، ودخلت الاشتراكية بمفاهيم انتهازية إلى أوغندا مما أدى إلى محاولة اغتيال لأوبوتى ، وكان رد فعل هذا إعلان الأحكام العرفية وحالة الطوارئ فى كل أوغندا فى اليوم التالى لمحاولة الاغتيال (٢٠ من ديسمبر سنة ١٩٦٩) .

وفى مايو ١٩٧٠ أممت حكومة أوغندا نحو ٦٠٪ من البنوك ، وشركات التأمين والصناعات المملوكة للقطاع الخاص ... . ولكن الاشتراكية التى طبقت لم تكن من أجل الشعب بل كانت من أجل الحاكم ومن حوله من حاشية .

وازداد تذمر الناس وبدأ السخط ضد الحكومة ، واختفى الخبز وبدأت المظاهرات وعمت الفوضى ، وكان ذلك هو المناخ الملائم لحدوث أول انقلاب عسكرى فى أوغندا وهو ذلك الانقلاب الذى قاده عيدى أمين ، والذى لم يتعلم شيئًا من دروس التاريخ .

لقد وعدهم عيدى أمين بالديمقراطية ، ولكنَ فرض عليهم الديكتاتورية ... وعدهم بالحرية ثم سجنهم بلا رحمة وملأ بأشرافهم المعتقلات ، قال لهم إنه سيؤمن حقوق الإنسان ، فكان أول من

اعتدى على حقوق الإنسان ، بل لقد دمر روح الإنسان داخل نفسية المواطن الأوغندى ، وظن بذلك أنه قضى على كل معارضة وأن الرأى الآخر قد انتهى ولكنه كان واهمًا .

وأوغندا التى تقع فى الشمال الشرقى للقارة الأفريقية ، وهى مربعة الشكل تقريبًا ، وأقصى امتدادها من الشرق إلى الغرب نحو ٣٥٠ ميلاً ومن الشمال للجنوب نحو ٤٠٠ ميل وتحيطها تانزانيا وروانــدى من الجنوب الغربى ، وزائير فى الغرب والسودان فى الشمال وكينيا فى الشرق ، أوغندا هذه تصل مساحتها إلى ٢٤١,١٣٩ كم مربع وعاصمتها كمبالا ، ومقر الحكم يقع على بحيرة فيكتوريا ، وقد قدر عدد سكان أوغندا فى سنة ١٩٨٤ حوالى ١٤,٢٦٨,٠٠٠ نسمة ، وتغطى المسطحات المائية نحو ١/٧ مساحة أوغندا ، ولكنها دولة محرومة من السواحل البحرية ويتشكل شعبها من ٣٧ قبيلة من سلالات مختلفة ، ويقيم فى أوغندا نسبة قليلة من البيض تصل إلى حوالى ٠,٢٪ ونسبة من الهنود تصل إلى ١٪ .

ولكن رغم تعدد قبائل أوغندا إلا أن الصراع يدور بين أكبر قبيلتين فيها وهما قبيلة لانجى ، وقبيلة أكولى ، والقبيلة الأولى هى قبيلة « ميلتون أبوتى » والقبيلة الثانية هى قبيلة « عيدى أمين » .

وشعب أوغندا موزع من ناحية العقيدة الدينية إلى ثلاثة أقسام :

المسلمون ويصل تعدادهم ما يقرب من حوالى ٢ مليون وهم منتشرون فى المراكز التجارية ولكن مركز تجمعهم الرئيسى فى منجو وفى عنتيبى .

المسيحيون وقد كان للتبشير المسيحى دور كبير فى تحويل مجموعة ضخمة من الوثنيين إلى المسيحية فهناك ما يقرب من ٣ مليون مسيحى الجزء الأكبر منهم كاثوليك والبقية بروتستنت .

الوثنيون وهم يكونون التعداد الأكبر من السكان .

كيف وصل عيدى أمين إلى السلطة وأسلوب حكمه :

بمجرد حصول أوغندا على الاستقلال وقعت فى براثن حكم فاسد ، هو حكم ميلتون أوبوتى ، والذى استمر ما يقرب من خمس سنوات ، انتهت بقيام عيدى أمين بانقلابه فى ٢٥ يناير سنة ١٩٧١ ، وهرب أوبوتى إلى تنزانيا وظن الشعب أن أيام العذاب قد انتهت ، وسنوات الهوان سوف تختفى ، ولكن للأسف كان حكم عيدى أمين نموذجًا للديكتاتورية المطلقة ، وكعادة كل انقلاب عسكرى فإنه يعد الشعب بتسليم الحكم للمدنيين وعودة الديمقراطية ،

والحرص على مصلحة الشعب ولكن بعد ثمانى سنوات من الحكم كانت الحصيلة كالآتى :

– ازدياد الصراع القبلى وحدوث مجموعة من المذابح الكبيرة إلى درجة أن أطلق على عيدى أمين جزار أوغندا .

– مزيد من الانهيار الاقتصادى ، وارتفاع الأسعار وزيادة معدل التضخم وانهيار مستوى الدخل وضعف الإنتاج .

– تفشى الفساد والانحراف وظهور فئة استحوذت على ثروة أوغندا واغتنت من التجارة فى السوق السوداء .

– كثرة أعداد المعتقلين وتكميم حرية الصحافة وامتلاء السجون بالأحرار :

وقد وصل عدد من أعدمهم عيدى أمين خلال فترة حكمه ما يقرب من نصف مليون أوغندى أى بمعدل يصل إلى ٩٠٠ شخص فى اليوم ، ولعل ذلك يعود إلى كثرة الضحايا التى سقطت نتيجة للغزو العسكرى ، الذى قامت به تنزانيا فى سنة ١٩٧٩ ردًا على ما قام به هو عندما غزا تنزانيا فى عام ١٩٧٨ ، ولكن الفرق هو أنه – أى عيدى أمين – لم يسقط حكم جوليوس نيريرى ، بينما قام هذا الأخير بإسقاط عيدى أمين ، وكان ضحايا الحرب فى العامين أكثر من ربع مليون من أوغندا وحدها ، هذا إلى جانب

حرب العصابات التى قامت ضده فى أواخر أيامه ، وهكذا عندما يقتل الإنسان ضميره تتمثل نكبة الإنسانية الكبرة ، ورغم أن نطاق المعارضة لحكمه كانت ضيقة نظرًا لقسوته فى معاملة معارضيه ، حيث قيل إنه كان يلقى بمعارضيه وخصومه لتماسيح النيل ، رغم هذا إلا أنه وجد معظم الشعب يعارضه بعد أن أصبحت أوغندا التى كان يطلق عليها جوهرة أفريقيا ، أصبحت دولة مهجورة من سكانها وزراعتها قد أصابها البوار وانحطت مرافقها الاقتصادية .

ولقد بالغت الصحافة الأجنبية فى إطلاق الصفات الرذيلة على شخصية عيدى أمين حيث قالت عنه إنه كان مريضًا بحب العظمة ، وإن علاقات ربطت بينه وبين القذافى نظرًا للصفات السيكولوجية التى كانت تشترك فى شخصية كل منهما ... وصفته هذه الصحافة أنه تاريخ ملوث بالدماء والمذابح والتعذيب والطقوس البهيمية وحب الاغتصاب ، وإن كنا نعتقد أن بعض المبالغات قد صحبت هذه الأوصاف إلا أنه بلا شك كان لبعضها ظل من الحقيقة ، ولقد كانت ظروف أوغندا فور استيلائه على السلطة عاملاً مساعدًا له على السير فى طريق الطغيان حيث امتلأت خطبه بالسخرية من الإنجليز ، وانساق الشعب وراءه وكان يقول إن مرحلة استقلال أوغندا تبدأ حقا بولايته الحكم لأنه رغم حصول أوغندا سنة ١٩٦٢ على استقلالها إلا أن من تولى رئاسة أول برلمان بها كان إنجليزيًا ،

وأنه عندما استقال وعاد لبلاده حل محله هندى ، كما أن المختص بشئون أوغندا الخارجية عقب الاستقلال كان إنجليزيًّا وبالشئون الداخلية كان هنديًّا ، وكان عيدى أمين يسخر من القوى السياسية المدنية التى رضيت هذا الوضع .

ولكن قد يكون مدعى الديمقراطية أخطر على حكم الشعوب من الذين يسفرون عن وجههم فى شكل الحكم الديكتاتورى ، وإذا كانت المقاومة فى المحور الأول تحتاج إلى حنكة ومثابرة فإن المقاومة في مواجهة الشكل الآخر من الحكام قد تحتاج إلى مقاومة أقل لأن الحكم السافر سهل مواجهته ، أما السلطة الملتوية الماكرة فمن الصعب التصدى لها .

لقد ولد عيدى أمين سنة ١٩٢٥ فى قرية اريوا فى غرب النيل الأبيض ، وأبوه فلاح ، وقد بدأت طفولته بالعمل كراعى غنم ، وفى سن ٢١ التحق بالجيش البريطانى وحارب ضد ثورة الماوماو فى كينيا ، مما يؤكد نقص الوعى السياسى لديه بفكرة الحزبية ، وقد ارتقى فى جيش أوغندا حتى وصل إلى منصب رئيس الأركان ، ولما قام بانقلابه قام بترقية نفسه إلى رتبة فيلد مارشال ، وحيث قام بالحج إلى السعودية فإن لقبه الرسمى خلال فترة تواجده فى رئاسة أوغندا كان : « الحاج فيلد مارشال دكتور عيدى أمين دادا » وقد جعل من قبيلته المسيطرة على كل شئون أوغندا والمعاونة له

فى الحكم ، فمنها كانت أجهزة المخابرات ، ومعظم أجهزة الأمن ، وكذلك كل الحرس المحيط به بل معظم قواته العسكرية اقتصرت فى عناصرها القيادية على قبيلته فقط ، وكل ذلك أحيا من جديد النعرة القبلية وزاد سخط بقية القبائل الأخرى على نظام حكمه .

وقد اتبع عيدى أمين فى فرض قبضته الحديدية على كل أوغندا نفس نظام الجستابو ، الذى اتبعه هتلر ، ونفس الأساليب البوليسية التى صار عليها «بريا» سفاح الاتحاد السوفيتى خلال حكم ستالين .

لقد انتهز عيدى أمين فرصة ذهاب أوبوتى إلى سنغافورة سنة ۱۹۷۱ لحضور مؤتمر لرؤساء الوزراء الأفريقيين الآسيويين وقام بانقلابه العسكرى ، وفى بداية عهده بدأ الرعب يسيطر على النفوس ، والخوف يعقد ألسنة المواطنين حيث كان من المناظر العادية كل يوم أن تطفو مجموعة من الجثث فوق نهر النيل وعدد كبير من السكان يختفى دون أن يعرف أحد عنهم شيئًا ، واستخدم أنصار عيدى أمين المطارق فى الاغتيال لأعدائه ، حيث كانت تكفى ضربة واحدة على الرأس من مطرقة تزن عشرين رطلاً ، ومن لم يمت تستمر عملية التخلص منه بضربة فى صدره وفوق معدته أو بين فخذيه .

وقد وصلت حالات التعذيب فى السجون فى عهد عيدى أمين أن كان بعض المسجونين يجبرون على أكل الجثث الآدمية والبعض الآخر يشرب الدماء التى تسيل من الذين عذبوا أو ماتوا .

وأكدت بعض الأرقام الدولية للجان حقوق الإنسان أن من تسبب عيدى أمين فى قتلهم فى أوغندا بين امرأة ورجل وطفل حوالى ٢٠٠ ألف مواطن أوغندى ، ولم تسلم أسرة عيدى أمين من غضبه فعندما اعترضت زوجته الأولى على أسلوب حكمه المدعوة سارة مامى ماليام نيندى كيبيدى وهى أم أولاده السبعة حاول قتلها مرتين ، ثم نجحت فى الهروب إلى بريطانيا بعد أربع سنوات من حكمه أى فى سنة ١٩٧٥ ولكن بعد أن كسرت ذراعها وساقها ، ثم طلق زوجته الثانية والثالثة والرابعة ولما أجهض الطبيب زوجته « كاى » — زوجة عيدى أمين التى كان قد طلقها دون ذنب جنته — أمر عيدى أمين باغتيال الطبيب وزوجته وطفلين له ، وأخذت هذه الزوجة إلى مركز التعذيب حيث ضربت بقسوة ، ثم خنقت بطوق حديد وببطء شديد ولم يكتف بذلك بل قطع أطرافها وأتى بولدين من أبنائها — والذين هم أبناؤه — ليروا هذا المنظر الفظيع قائلا لهما فى شكل أغنية يتشدق بها وهى « فلتروا ما يحدث للأمهات السيئات » .

أما «نورا » زوجة عيدى أمين الثالثة فقد اختفت ، وربما ألقى بها طعاما للتماسيح حيث سبقها الآلاف الذين اختلطت دماؤهم بطمى النيل . وفى سنة ١٩٧٥ سجن اثنين من أبنائه الشباب لأنهما ضايقاه ، وفى المساء بينما كان يحضر إحدى الحفلات قال مفتخرًا إنه لا يرحم الشيطان لو أخطأ فى حقه .

وفى عهد عيدى أمين كانت نفقته سببًا فى انهيار أوغندا الاقتصادى بل وإفلاسها ، واشتهر عن عيدى أمين حبه للسيارات حيث كان يركب الرولزريس واللانج روفر وداملر ، وكلها سيارات فخمة لا تقل طولاً عن ستة أمتار وحيث كان فى حاجة دائمة إلى المال فإنه تغاضى عن الفساد والرشوة .

عن طريق مكتب البحث الخاص بأمن الدولة استطاع عيدى أمين أن يحكم قبضته على كل القوى المعارضة ، والذى كان يقوم بعمليات التعذيب والاغتيال والتدمير وأصبح الرئيس ، ولم يكن مستغربًا أن يجد أعضاء المكتب أنفسهم أمام الرئيس الذى كان يحلو له أن يقوم بعمليات التعذيب بنفسه ، أو يشاهد رجاله وهم يقومون بتعذيب المواطنين ، وفى بعض الأحيان كان يأمر عيدى أمين أن يقتل السجناء بعضهم بعضًا .

ورغم أنه كان متعصبًا لقبيلته « كاكوا » إلا أنه كان لا يتورع فى تعذيب وقتل كل من يقع تحت يديه من أفراد هذه القبيلة ، التى كان يعيش جزء منها فى السودان بالقرب من حدود أوغندا ، ومن الأشياء التى قيلت عن عيدى أمين أنه كان يستعين ببعض أنواع من المخدرات ، يتعاطاها لكى يصدر قراراته ومنها «الماريجوانا » ، ولعل هذا ما يفسر لنا بعض القرارات المضحكة « والمتناقضة » التى كان يصدرها عيدى أمين ، فقد طلب مرة

من طائراته أن تحمله إلى لندن لمقابلة الملكة ، ومرة أخرى أعلن أنه يؤيد قرار هتلر الخاص بإبادة اليهود خلال الحرب العالمية الثانية ، وأرسل تلغرافًا إلى إسرائيل بمناسبة ضرب فريقها فى ميونيخ .

وقد اشتهر عن عيدى أمين أنه سكير من الدرجة الأولى ، ولكن كان له شراب معين يعد له خصيصًا أشبه بالكوكتيل ، ويطلق على هذا الشراب اسم « شراب الأسد » ، وكان يقول إنه بتناوله هذا الشراب يمتلك القدرة على التفكير بوضوح بالنسبة للمستقبل ، من ذلك مثلا أنه كان يقول عن نفسه ، إنه يعرف تمامًا أنه متى وأين وكيف وسوف يموت بل اليوم والشهر والسنة ، بل والساعة أيضًا بل إنه ادعى أنه يستطيع أن يعرف ويتنبأ بما سوف يحدث فى العالم كله ومن ضمن تنبؤاته المضحكة :

١ — أن الرئيس كارتر سوف يغتال .

٢ — أن البرنس شارل ولى عهد إنجلترا سوف يتزوج فتاة سمراء وسوف يطرد من إنجلترا .

٣ — أن عيدى أمين سوف يطلب ليكون سكرتيرًا لهيئة الأمم ، سيرفض وأن أوغندا ستكسب ميدالية ذهنية فى الألعاب الأولمبية ، وأن ابن عيدى أمين « نابان » سيكون سفيرًا لأوغندا فى الولايات المتحدة .

٤ - أن العرب سيلقون قنبلة هيدروجينية على إسرائيل .

٥ - أن كل البيض فى روديسا سوف يلقون حتفهم بمساعدة أوغندا ، وأن أوغندا فى عهده سوف تغزو كينيا وتانزانيا وتهزمهم ، وأن عيدى أمين سوف يكون قائدا لكل أفريقيا ، وأن أوغندا ستمتلك قنبلة هيدروجينية خلال خمس سنوات من حكم عيدى أمين ، وأن هوليود سوف تطلب منه تمثيل قصة حياته ، ولا شك أن كل هذه التنبؤات لم يكن لها أى نصيب من الصحة ، وكلها تخاريف رجل امتلأ بالغطرسة والغرور ونسى نفسه ووضعه .

ولقد عاش عيدى أمين مطلق الشهوات وكان كالملك فاروق يسعى دائما إلى البحث عن مغامرات نسائية ، وقد سئل مرة لماذا اغتيل أكثر من عدة آلاف فى أوغندا ، رد قائلاً :

فى كل بلد هناك مجموعة من الناس يجب أن يموتوا كضحايا للنظام والقانون وأن التاريخ يحمل الكثير من الأمثلة على ذلك ، وأن علىّ أن أحمى النظام الذى أمثله ، ولم يلبث أن قال لمحدثه : « إنى أملك السحر الأسود الذى يحمينا من الموت ، ومكتب المباحث الخاص بى يقوم باغتيال كل أعدائى ، وأنه فعلاً قتل آلاف منهم وأننى لا أخفى هذا على أحد » .

ويعترف عيدى أمين أنه تعرض لاثنتى عشرة محاولة للاغتيال ، ولم يكن ذلك غريبًا فذلك هو جزاء الطغيان وثمن الاستبداد والشعوب

الحرة تجد مستقبلها أمام طريق مسدود فى ظل حكم الانتهازية والنفعية لذا لابد من التحرك للتخلص من الحاكم الشيطان .

وكل من قبض عليه فى هذه المحاولات للاغتيال عذب حتى الموت ، وقطعت أطرافه وألقى بها لتماسيح النيل ، ووصل به الأمر أنه كان يقتلع عيون خصومه وينتزع ألسنتهم من حلوقهم ، وكان يعلق ضحاياه كما يعلق الجزار الذبائح على خطاف من حديد ، وذات مرة أحرق أحد ضحاياه ثم أجبر بقية السجناء على التهام جسده قطعة قطعة .

وخلال حكمه طرد الأسيويين من أوغندا ، واستولى على أموالهم وممتلكاتهم ... ولقد أحس عيدى أمين بالغرور ، وكان يكرر دائمًا أنه يملك جهازًا للمخابرات والتجسس أقوى من المخابرات المركزية الأمريكية ومن جهاز الـ ك .ج .ب (أى المخابرات السوفيتية) .

سقوط عيدى أمين :

وصلت درجة الغرور لدى عيدى أمين أنه كان يقول عن نفسه إنه أغلى قطعة ذهب فى العالم وأنه كان قائدًا من نوع خاص يختلف عن كل قادة العالم ولكن حكمته المصطنعة وغروره الزائد ، وغطرسته التى لا حدود لها هى التى جعلته يسخر كل شىء لصالحه ، ولمن معه من حاشية ، وينتهى الموقف بأن تتدهور الأحوال فى أوغندا

ويزأر الشعب مطالبًا بالثأر لضحاياه ويبدأ نجم عيدى أمين فى الأفول ، خاصة بعد أن حاول إلهاء شعبه عن المشاكل الداخلية بقيامه بغزو تنزانيا جارته ، وكانت هزيمته فى الحرب سنة ١٩٧٨ ، وهى بداية السقوط لأن الهزائم تعنى فساد النظام وحتمية التاريخ تؤكد ضرورة الإطاحة بكل قائد مهزوم .

ولقد عاش عيدى أمين لنزواته ، وفى ظل النزوات وإرضاء الشهوات يضيع الطريق من أقدام الشعوب .

لقد أصدر عيدى أمين فى سنة ١٩٧٣ قانونًا لتكميم الصحافة ، وأسس جهازًا للأمن السياسى فاق أجهزة الأمن فى أمريكا اللاتينية والدول الشيوعية ، وجعل من سجونه قبورًا للموت ، وأذل الشعب الأوغندى ، ولم يعطه إلا الوعود واكتفى بأن باع له الأوهام .

وكانت نهاية أخطائه طول لسانه وقيامه بغزو تنزانيا ، وهنا بدأ أعداؤه يتكتلون ضده ، ولكن السقوط يبدأ دائمًا من الداخل هكذا يعلمنا التاريخ ، وفرت قواته أمام قوت جوليوس نيريرى ، وهرب هو لاجئًا إلى السعودية حيث يعيش الآن مع زوجاته وأبنائه فى جدة ومحرمًا عليه العمل بالسياسة .

وكان التلذذ الطفولى الذى عاش فيه لمدة ثمانى سنوات مستمتعًا بالسلطة والصورة الحيوانية التى تعامل بها مع بنات جنسه ، والشكل

الهمجى مع أعدائه ... كان كل ذلك سببًا فى أن يسقط عيدى أمين ، ولم تنفعه مساعدات خارجية ، لأن الطاغية مهما حاول الاستمرار فلن يفلح فى الحصول على الاستقرار بعد أن خرب الضمائر واعتدى على الحرائر .

سقط عيدى أمين سنة ١٩٧٩ وجاءت مجموعة من المدنيين وبدأت رحلة جديدة من العذاب بالنسبة لشعب أوغندا ، حيث أطاح بهم الجيش مرة أخرى فى ثانى انقلاب عسكرى لعب فيه تيتو أوكيلو رئيس أركان القوات المسلحة الأوغندية دورًا قويًا وهو نفس القائد الذى قام بالإطاحة بحكم عيدى أمين .

وتثبت حكمة التاريخ أنه لا أمل مع وجود المعتقلات أن يحدث أى تطور فى المجتمعات ، كما أن كبت الحريات هو أقصر طريق للهزيمة أمام أى صدامات ، والشعوب أقوى إرادة من الحكام ، وهى لا تيأس أبدًا فى النضال من أجل الحرية حتى تحصل عليها ، ولا يمكن للطغيان أن يقهر إرادة أمة صممت على الحصول على الكرامة والعدل والحرية .

فهرس

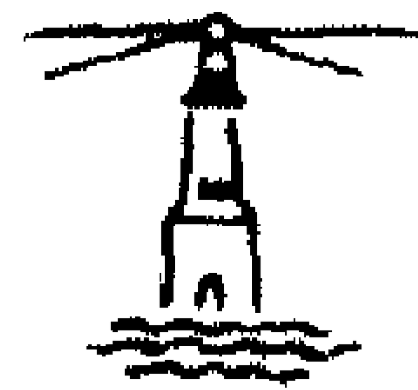
رقم الإيداع		١٩٩٣ / ١٠١٨٦
الترقيم الدولى	977 - 02 - 4291 - 8	ISBN

١ / ٩٣ / ٢٠

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

لحظات الانحراف فى تاريخ الإنسان ما هى إلا لحظات إذا ما قيست بحساب الزمن فى تاريخ البشرية .. وهى الفترة التى حكم فيها الطغاة .

فمن هو الطاغى . . وما تعريف الطغيان . . هذا ما يجيب عنه الكتاب الطريف . . الجديد فى موضوعه العميق فى أثره .



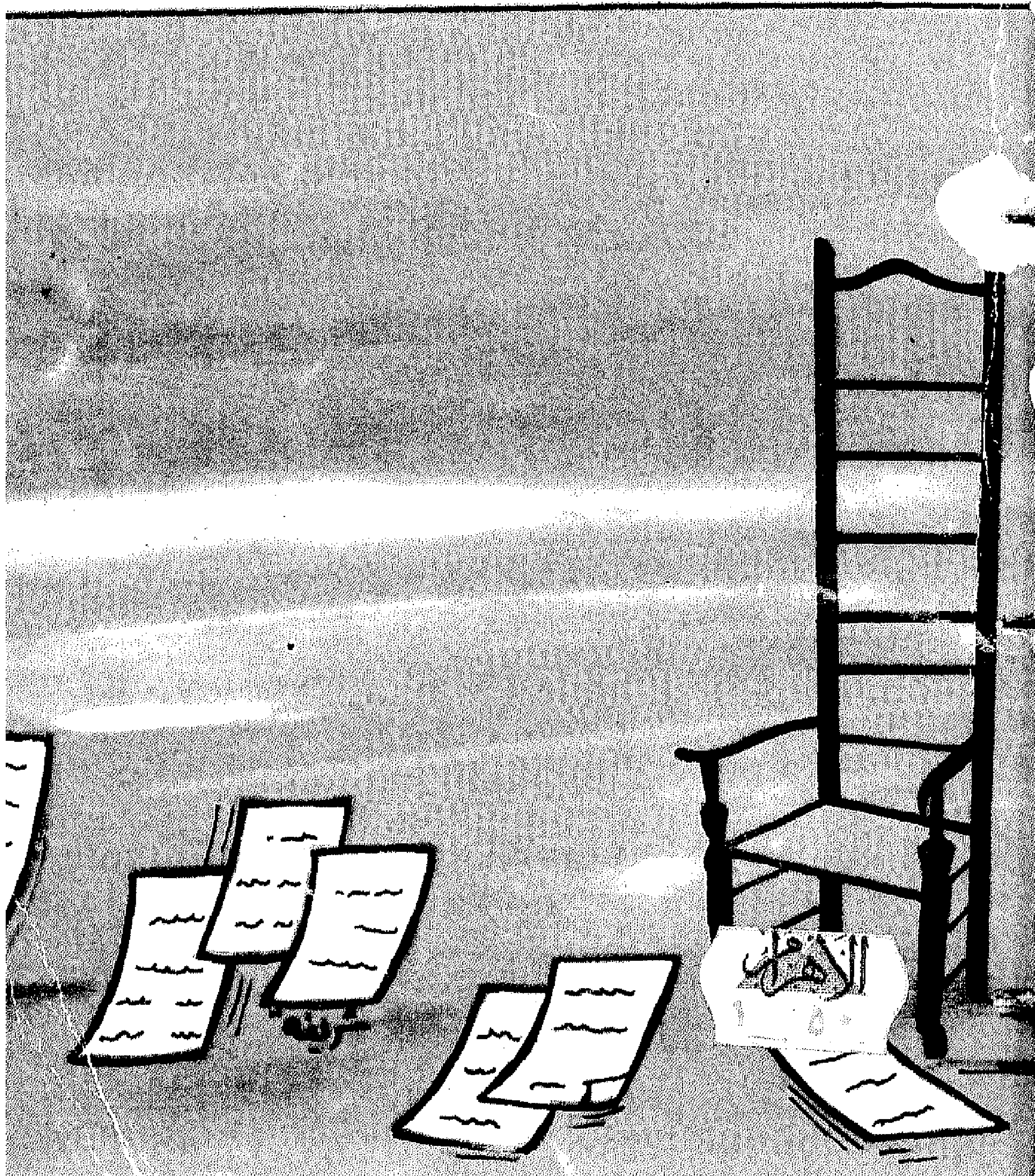
دار المعارف

اقرأ

سلسلة ثقافية شهرية

زينب عفيفي

هؤلاء يعترفون



اقرأ

[٥٨٩]

هؤلاء يعترفون

زينب عفيفى

هؤلاء يعترفون



دار المعارف

إن الذين عنوا بإنشـاء هـذه السلسلة ونشرها ، لم يفكروا إلا فى شىء واحد ، هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة ، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية . وأن ينتفعوا ، وأن تدعوهم هذه القـراءة إلى الاستزادة من الثقـافة ، والطموح إلى حياة عقليـة أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى نحياهـا .

طـه حسين

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

إهـــداء

إلى الضـــوء الأخضر

فى حيـــاتى

زينب عفيفى



اعتراف

أعترف.. أننى لم أتعود أن أذهب إلى فنان أو أديب أو كاتب وأنا أحمل مجموعة من الأسئلة العويصة تبرز عضلات المحاور ، كما يحدث فى معظم الحوارات الصحفية ، وإنما أكتفى بأن أحمل فى ذهنى فكرة واحدة تتفجر منها الأسئلة ، وقد أشترك فيها ، وقد تفرضها لغة الحوار ، وقد يصنعها المتحاور بنفسه ، لتكون النتيجة حوارًا يشبه الاعتراف أو حوارًا ذاتيًا بصوت عال .

وأحسب أن هذه العفوية المقصودة تعطى للحوار روح الكاتب أوالفنان الذى شاركنى فى اللقاء.

وقد يلزمنى آخرون بأن أغير من طبيعتى ، ويصرون على قراءة الأسئلة ، وبعضهم يصر عن حذف بعضها أو تغيير كلماتها ، فلا أملك إلا أن أفعل ذلك بالرغم منى .

وأعترف أننى اخترت شخصيات هذا الكتاب

من بين العشرات الذين قمت بالحوار معهم لأنهم لم يعطونى فرصة للتحاور معهم أو طرح أسئلة ، بل كادوا هم أنفسهم الذين صنعوا أسئلتهم . !

ومن ثم ، فيحق لأى قارئ أن يعطينى حقى القليل فى إخراج هذا الكتاب وأنا أدونه من خلال هذه اللقاءات المعمقة ، مسلّمة لضيوفي بالفضل الأكبر .

وأعترف أخيرًا أننى إنما أردت أن أضع هذه الحوارات بين دفتى كتاب لعلها تكون إضافة خاصة إلى أعمال الكاتب أو الفنان فتصبح عملاً من أعماله وإن كان لم يسطرها بقلمه .

زينب عفيفى

نحن فى حاجة إلى إعادة نظر فى كل شىء ..
إلى قراءة الواقع قراءة صحيحة
إلى مواجهة الحقائق بشجاعة
إلى بناء سفينة تصلح لمواجهة أى طوفان

نجيب محفوظ

* لاأفكر فى الكتابة إلالحظة الكتابة

لم أكن أتوقع أن يمتدالحوار مع الكاتب الكبير نجيب محفوظ إلى خمس وخمسين دقيقة يتحدث فيها عن أشيائه البسيطة وأحلامه الصغيرة، وعاداته فى الكتابة ، ويبوح بما يسعده وما يحزنه .

للوهلة الأولى نسيت أننى أمام كاتب كبير حصل على أعلى جائزة أدبية فى العالم ، « جائزة نوبل » بسباطته وتواضعه وحنانه الأبوى جعلنى أشعر بأنه أبى أو أحد أقاربى المقربين ، لذا لم أجد أى خجل أو تردد فى طرح أسئلتى البسيطة البعيدة إلى حد ما عن القضايا الفكرية والثقافية «العويصة» وتركت العنان للحوار ليكون تلقائيا .

فى البداية سألت الكاتب الكبير، ما هو وجه الشبه بينك وبين النيل ، أقصد بينك وبين الأهرامات ، أعنى بينك وبين مصر ؟ !

قال باسمًا : لا أعرف ؟

قلت : بل أنا أعرف !

قال كاتبنا الكبير : ماذا ؟

قلت : الأصالة ، أصالة الكاتب الذى لم يتغير أو يتلون ولم تضطره الظروف لتبديل جلده وفكره ، وظل قلمه صامدًا كالأهرامات ، عريقًا كالنيل ، شامخًا كمصر .

وضحك قائلاً : أنت إنسانة كريمة القلب .

وبدأ الحوار .

قلت : لقد أضأت بفكرك وأدبك عوالم كثيرة من الفن والأدب والسياسية والحياة ، كيف تتابع الآن الحركة الثقافية والفنية ؟

قال باقتضاب : عن طريق الآخرين .

قلت : من هم الآخرون فى حياتك ؟

قال : الأصدقاء ، ومن نعم الله علَىّ أن لدى أصدقاء كثيرين هناك من يقرأ لى جريدة الصباح ، ومن يخبرنى بأحدث الإصدارات ، ومن يحكى لى مناقشة أدبية نشرت فى إحدى المجلات وهكذا ، ينقل لى الآخرون أحداث العالم التى انقطعت عنها إجباريًّا لضعف سمعى وبصرى .

قلت: وماهو إحساسك وآخرون ينقلون لك أخبار العالم الخارجى؟

قال : إنها خسارة كبيرة أن الواحد – منذ مدة لا يستهان بها – قد أصبح عاجزًا على أن يقرأ كلمة فى جريدة أو مجلة أو كتاب

أويشاهد تليفزيون ، لكن الحقيقة وجود الأصدقاء فى حياتى خفف عنى الوطأة .

قلت : ما هى تفاصيل يوم من أيام حياتك ؟

قال : فى الصباح يقابلنى أحد الأصدقاء ، ويقرأ لى الجريدة لتظل الصلة بينى وبين الأحداث متصلة ، وفى المساء يمر على صديق آخر يأخذنى بسيارته ونتكلم معًا بدون رسم خطة حتى لا تكون جلسة مقصودة ، وفى وسط الكلام يتحدث معى عن كتاب جديد أو مجلة أو مسلسل شاهده .

وصمت كاتبنا الكبير قليلاً ثم قال : وشىء أفضل من لا شىء !

قلت : ما هو آخر فيلم شاهدته بنفسك ؟

قال : لا أذكر ، أفلامى الأخيرة كلها لم أرها .. منذ عام ١٩٨٧ انقطعت صلتى بمشاهدة الأفلام .

قلت : هل تذكر آخر مسرحية شاهدتها ؟

قال : لا أذكر .. هذه الأشياء أصبحت تاريخًا ، آخر فيلم وآخر معرض زرته .. عام ٨٧ انقطعت علاقتى بالأحداث الخارجية بشكل حاسم .

قلت للكاتب الكبير : هل هناك مواعيد محددة تكتب فيها ؟

قال : كل صباح أخصص ساعة لقراءة الجريدة وبعد الظهر من كل يوم أجلس لأكتب وجهة نظر أو تأملات أو خواطر ، وإذا ربنا فتح علىّ قد أكتب القصة القصيرة .

قلت : هل توجد أعمال جديدة فى الطريق إلى النشر ؟

قال : كان لدى مجموعة قصصية قصيرة محتفظ بها ، وأقدم منها قصة كل شهر لنشرها فى مجلة نصف الدنيا ، لكن آخر رواية كتبتها كانت رواية « قشتمر » وبدأت أتحرك للكتابة منذ شهر يناير الماضى بعد انقطاع عن الكتابة من عام ٨٧ ، إننى أكتب حاليًا قصصًا قصيرة .

قلت : ما الذى أثارك للعودة للكتابة ؟

قال كاتبنا الكبير : كنت أظن أننى لن أكتب مرة ثانية بعد أن توقفت عن الكتابة منذ عام ٨٧ ، وأن الكتابة أصبحت أمرًا مستحيلاً وخاصة أن هذا التوقف ليس مثل توقف زمان ، إنه توقف إجبارى ، لكن – الواحد – كبر لدرجة أننى اعتقدت أن هذا التوقف هو التوقف الأخير ، هذا ليس معقولاً ! .. وإنما لن أخفى عليك أننى بدأت أكتب قصصًا قصيرة جديدة ، حقيقى باكتبها بصعوبة لأننى لا أدرى ما أكتبه ، ونظرًا لاستخدامى « العدسة » لا أرى ما أكتبه فأكتب سطرًا ، ثم أحضر العدسة لأرى ما كتبته .. توجد معاناة ، لكنى متمسك بها مثل الغريق الذى يتمسك « بقشة » !

قلت لكاتبنا الكبير : هل ما زلت تواظب على عادة المشى. وجلوسك على المقهى كل صباح ؟

قال : كل عاداتى تغيرت ، لأنها كانت عادات مرتبطة بالعمل ، وثانى شىء بالصحة ، لم أعد أستطيع السير من القهوة إلى مكتبى مثلما كنت أفعل . ولكننى أستطيع المشى من بيتى إلى بائع الجرائد، لكن أن أسير إلى مكتبى.. لم يعد فى إمكانى أن أفعل ذلك .

وسألته : هل لديك عادات خاصة تقوم بها قبل الشروع فى الكتابة ؟

قال بحسم : لا أفكر فى الكتابة إلا فى لحظة إحساسى بها ، لكن هناك فراغ مسبق أفكر فيه ، وقبل الكتابة مباشرة لا أفعل شيئًا سوى الكتابة . أنا لا أدون أفكارى .

وقلت له : ما هى النصيحة التى يقدمها كاتبنا الكبير إلى الكتاب الشبان الذين يحلمون بأن يصبحوا كتابًا مشهورين ؟

قال : كل يوم جمعة نجتمع مع الأصدقاء ويكون فيها شباب ونناقش كل هذه الأمور ، لكن فى الحقيقة أنا أخاف من النصائح ، لأن كل زمن له إيقاعه وطرقه ، ماذا أقول لشباب اليوم ، سأقول له الطريقة التى تكونت بها ، وأحيانًا يأتينى شاب ويقول لى : أريد أن أكون أديبًا بماذا تنصحنى ؟ !

أقول له كيف اشتغلت .. كان زماننا مستقر وهادئ وطويل ، وكنا نعد أنفسنا للثقافة المتخصصة ، فمثلا ، فى الأدب نقرأ التراث والمعاصرين والمؤلف والمترجم ، إلى جانب ذلك كنا نقرأ فى الثقافة العامة ، تاريخ الحضارات ، وتاريخ البشرية وعلم النفس ، وعلم الاجتماع والفنون ، ثم نبدأ الكتابة ، وقد تطول بنا المسافة لأنه ليس وراءنا « كرابيج » حتى نصل إلى النشر والتقنية بعد عشرين عامًا ، ولو نصحت أى شاب بهذه النصيحة ربما تكون نصيحة مدمرة !

قلت له : إذن من أين يستمد الأديب الشاب ثقافته ؟

قال : الأديب الشاب فى عصر سريع ، والأذواق فيه تتغير بسرعة غريبة ، فى هذه الأيام نسمع فى الصباح عن مطرب معين فما نكاد نسمعه حتى يظهر مطرب غيره ، فإذا كان يعد نفسه على طريقتى يكون هناك أكثر من مذهب وأكثر من تيار واتجاه وفكر ، فلابد بغريزته وبتفكيره بزمانه ، يعرف كيف يتثقف ثقافة خاصة وعامة ويختار وسيلته دون أن أفرض عليه أنا طرقا تكون قد أصبحت غير صالحة لزمنه .

هل يمكن أن ينتظر خمسة عشر عامًا حتى يقدم نفسه للناس ؟ ! والنصيحة التى يمكن أن أقدمها لأديب اليوم هى نصيحة الثقافة العامة مهمة .

وانتهزت فرصة الشباب والمطربين الجدد وسألت كاتبنا الكبير : هل تسمع الأغانى الجديدة ؟

قال : سمعت منها قليلاً عندما كنت باسمع .

واستطردت سؤالاً : هل ما زالت تسمع أم كلثوم التى نعرف مدى حبك لغنائها إلى حد تسمية ابنتك على اسمها ؟

قال : لم أعد أسمع أم كلثوم لأننى عندما أسمعها يصل إلى أذنى ضجيج ، وعبد الوهاب افتقدته هو الآخر من ضعف السمع طبعًا ، السمع عندى وصل لدرجة صعبة ، وأعتقد أن الذى حدث لى أن الشعيرات التى كانت تتلقى السمع فى أذنى ضمرت مثل ضمور الشبكة فى العين ، وأصبحت أسمع الغنوة كضجيج مزعج .

لقد تابعت أغانى الشباب لفترة .. لكن منذ أربع سنوات لم أعد أسمع ، إن أجمل ما سمعت كانت أم كلثوم وعبد الوهاب وأحب سيد درويش فى كل أغانيه ، وأغنية الأطلال لأم كلثوم ، أما عبد الوهاب فصوته جميل للغاية . وكما قلتِ فقد أسميت ابنتى على اسم أم كلثوم .

قلت : هل كانت لك علاقة صداقة مع أم كلثوم ؟

قال : لا .. ولكن عندما أقام لى الأهرام حفل تكريم لبلوغى سن الخمسين ، سأل الأستاذ حسنين هيكل أم كلثوم إذا كانت ترغب فى حضور حفل تكريمى ووافقت على الفور ، وجاءت أم كلثوم فى عيد ميلادى الخمسين ، وكان لقائى الأول والأخير معها ، ولم

تغن فى عيد ميلادى ولكنها حضرت الحفل فقط وسط ناس كثيرين من أهل الفن والثقافة .

أما عبد الوهاب فكان معى فى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب وقد دعانى مع د . مصطفى محمود للتعارف ، وتناولنا العشاء معه فى بيته .

قلت للكاتب الكبير : بعيدًا عن عالم الفن والأدب وفى داخل منزلك ، كيف تتعامل مع بناتك ؟

قال ضاحكًا : الطريق الذى أتبعه ، الديمقراطية ، أقول الرأى والتوجيه وأترك للإنسان حريته ، ولم تنشأ مشاكل تدلنى على أن هذا الطريق خطأ .

قلت له : أنت زوج ناجح ، فما هو أساس نجاح العلاقة الزوجية ، وهل هناك صفات خاصة لزوجة الكاتب ؟

قال : أساس الزواج الناجح أن يحترم كل منهما الآخر ويعتبره شخصًا مثله تمامًا له حقوق مثلما عليه واجبات ويحترم كل منهما هذه الحقوق . أما دور الزوجة فهو الاهتمام بزوجها ، وكل زوجة تختلف عن الزوجة الأخرى بالنسبة لمهنة زوجها ، فهذا أمر لا مفر منه ، فهناك رجال يعودون لبيوتهم بعد انتهاء عملهم ثم يذهبون ليجلسوا على القهوة ؟ فهذا النوع من الرجال لهم علاقة معينة مع زوجاتهم وتختلف عنه زوجة الحارس وبالتالى زوجة الطبيب ، ولذا

كل زوجة تختلف فى تعاملها مع زوجها حسب ما تتطلب منها مهنته بحكمة حتى تسير الحياة .

قلت : هل هناك أمور معينة يطلبها الرجل من زوجته ، أو بمعنى آخر يريد أن يجدها فى زوجته ؟

قال : يكفى الحد الأدنى من الثقافة ؟

قلت : هل التقارب الفكرى هام لإنجاح العلاقة الزوجية ؟

قال : لا أريد أن أقول لازم ، لكن يصح أن يكون ذلك من أسباب السعادة أو من أسباب التعاسة لماذا ؟ لأن السعادة موهبة فى الإنسان .. فهناك ناس تسعدك ، ولديها قدر من الحكمة وحسن المعاملة بحيث أنها تسعدك ، وهذه موهبة تضمن الحياة المعقولة ، فإذا كان بين الرجل والمرأة تقاربٌ فى الثقافة .. تكون علاقة مثالية ، والذى ليس لديه هذه الموهبة لن تتحقق له هذه السعادة سواء بالثقافة أو بغيرها إنما تزيد التعاسة ؛ لأن السعادة ليست بتقارب الثقافة وإنما السعادة أن يكون الإنسان لديه استعداد أخلاقى وطبيعى لإسعاد الآخرين والتعايش معهم .

قلت له : ما الذى يسعدك اليوم ؟

قال : أشياء كثيرة ، (ثم صمت) .

قلت : مثل ماذا ؟

قال : الذى بقى أولاً ، ثم قدرتى على إقناع نفسى بالسكوت للواقع ، (ولا أقول لنفسى كان زمانى بقرأ أو كان زمانى باسمع) ، فهذا لن يجلب إلا التعاسة ، لكن فى ظروفى العادية لى أصدقاء وأولاد وأسمع عن الثقافة من ناس مثقفين فماذا أطمع بعد ذلك ؟

قلت : هل تتابع الحركات الثقافية والفنية خارج مصر .. أم تكتفى بما يصلك عن طريق الأصدقاء من الداخل فقط ؟

قال : إننى أعرف عنها بقدر معرفة أصدقائى بها ، والذين أتقابل معهم ، ولكنْ هناك شيء هام هو أن الحركات الثقافية خارج مصر أصبحت قليلة جدًّا.. أيام شبابى كان الرواد هم النوافذ للفكر العالمى والحضارة العالمية، كنا نعرف كل الحركات الثقافية فى العالم، لكن فى هذه الأيام.. المجلات المحلية لا تعرف ما الذى يحدث فى البلاد العربية وما الذى يحدث فى أوربا الآن ؟ ! فمثلاً نجد ناسًا كثيرة تتكلم عن مذاهب نقدية ، وعندما نسألهم هل هذه المذاهب جديدة يقولون: إنها انتهت منذ عشر سنوات أومنذ خمسة عشر عامًا، فأقول لهم: وتطلقون عليه الفكر المعاصر! كيف؟

قلت للكاتب الكبير : ما هى أحلامك الخاصة ، وهل لديك أحلام عامة ؟

قال : أحلامى لمصر أن تتغلب على مشاكلها وتخرج من عنق الزجاجة .. بمعنى آخر : نجاح التنمية الشاملة فى السياسة لتصل

بنا إلى الديمقراطية ، وفى الاقتصاد الذى يصل بنا للتوازن ، وفى الثقافة التى تصل بنا للتعليم الصحيح والتنوير والفهم .. فضلا عن الدورين العربى والإسلامى .

قلت : وماذا عن العالم الخارجى ؟

قال : عالمنا الخارجى لم يعد بالصفاء الذى كان ، الوفاق العربى يحتاج إلى ترميم طويل أو إعادة بناء ، وما حدث من توتر فى العلاقات بين مصر والسودان ، وبين مصر وإيران يحتاج إلى حكمة ثاقبة ومساع حميدة .

نحن فى حاجة إلى إعادة نظر فى كل شىء ، إلى قراءة الواقع قراءة صحيحة ، إلى مواجهة الحقائق بشجاعة ، إلى بناء سفينة تصلح لمواجهة أى طوفان .

قلت : وماذا عن مصر ؟

قال : ثمة بوادر تدعو للأمل ، فأقلام رصينة تحبذ التغيير ، وأخرى تتحدث عن ائتلاف ، وثالثة عن حوار ووساطة رشيدة ، هذه بشائر تسر ، نرجو لها التوفيق ، وأن تتسع لتشمل كل شىء . وأن تفسح المجال أمام المخلصين من أبناء هذه الأمة ليبدعوا نهضة حقيقية تجمع بين أسمى المبادئ الخالدة وأحدث أساليب العصر .

أما على المستوى الشخصى فأحـلامى قليلة لا يوجد أكثر من الختـام المسك وربنـا يحسن ختامنا ويرعى أولادى وأطمئن عليهم .

وساد الصمت بيننا لحظة ثم نظرت إليه فوجدته ينظر إلى علبة سجائره فقلت له : هل أنت مدخن ؟

قال: نعم.. مسموح لى بثلاث سجائر فى اليوم ولكنى أتناول خمسًا.

قلت : هل كنت مدخنًا شرهًا ؟

قال : نعم .. كنت أدخن بشراهة .. سبحان من جعلهم خمس سجائر فقط .. إنه مرض السكر .

قلت : هل تلتزم بتناول الطعام الخاص لمرض السكر ؟

قال : طبعًا ، إننى أتناول طعام مرضى السكر ؟

قلت : كيف تتعامل معه ؟

قال : بالدواء والرجيم والباقى على الله .

قلت : كم فنجان قهوة تتناوله يوميًا ؟

قال : شفطة فى الصباح وفى المساء فنجان قهوة سادة .

قلت : وماذا عن حالة عينيك ؟

قال : الدكتور على المفتى يتابع حالة عينى ، ومدير مركز السمع بإمبابة يتابع حالة أذنى .

قلت : هل ما زلت تسير على النيل ، وهل النيل يعكس بداخلك شيئًا خاصًا ؟

قال : النيل أجمل وأجل شيء في مصر وإنني أحبه جدًا .

وأخذ يدور بعصاه على الأرض مستندًا عليها بيديه .

فقلت له : هل أساعدك فى تغيير مقعدك ؟

ولكنه قال لى : لا شىء ، أكملى .

قلت : ما هى حكاية هذه العصاة التى تستند عليها ؟

قال : منذ عامين أهداها لى صديقى الفنان أحمد مظهر ، هذه العصا قام بصنعها لى بنفسه فى عزبته ومنذ ذلك اليوم وهى لا تفارقنى . إنهم الأصدقاء كما قلت لك فى بداية حديثنا .

وساد صمت قليل وقد علت وجه كاتبنا الكبير ابتسامة تعنى أنه قال كل ما لديه ، وأننى يجب أن أستعد لجمع أوراقى لأتيح لغيرى مقابلته حيث أنه حدد مقابلة كل من يريد أن يلتقى به صباح كل خميس فى مكتبه .

وجمعت أوراقى وأنا أتمتم انبهارًا بعبقرية وببساطة هذا الرجل المتواضع الذى حصل على جائزة نوبل والتى لم يسع إليها يوما وإنما هى التى جاءت إليه ووقفت على بابه .

إن الحب قصة لا تنتهى ، وجوهر الحب مثل جوهر الوجود ، لابد أن يكون فيه ذلك الذى يسمونه بالمجهول أو المطلق ، وبموت الحب فى الأرض ينتهى العالم !

توفيق الحكيم

* كل ما كتبته كان سداً لفراغ

التقيت به مرتين فى حياتى، مرة بالصدفة البحتة، ومرة ثانية كنت على موعد معه وأجريت معه حوارًا طويلاً بلا أسئلة ، وفى المرة الأولى كتبت عنه فى كراسة مذكراتى الخاصة وكانت الدهشة والانبهار عاملين أساسيين فى لقــائى به فى المرتين.

إنه الكاتب الكبير توفيق الحكيم الذى قابلته مصادفة فى أحد البيوت الريفية خارج القاهرة ، عندما دعتنى إحدى صديقاتى لقضاء يوم هادئ بعيدًا عن ضوضاء المدينة ، وكنت فى بداية حياتى الصحفية ، ولم أكن أرى كثيرًا من الأدباء والصحفيين فيما عدا الذين عملت معهم فى جريدة أخبار اليوم ، فى ذلك اليوم ذهبت مع إحــدى صديقاتى إلى هـذا المكان الريفى الهادىء الجميل ، وما أن وصلنا حتى كانت المفاجأة الكبرى فى حياتى ..

كان يجلس فى أحد أركان المنزل الريفى متكئًا على عصاه مرتديًا (بريه) رماديا ويجلس بجواره مجموعة من الأدباء والصحفيين لم أعرف أيا منهم فى ذلك الوقت ، وما كدت أراه حتى تسمرت أقدامى فى مكانها .. هل أتقدم وأصافحه وأعرفه بنفسى ؟ أم من الأفضل ألا أتطفل عليه ، وقلت لنفسى من أكون حتى أقترب من هذا الأديب الكبير لأعرفه بنفسى وحتى إذا حدث لن يتذكرنى ، مجرد معجبة لفنه وأدبه وهم كثيرون ، ولم أتقدم خطوة واحدة نحو كاتبنا الكبير وأخذت أراقبه من بعيد وأرصد كل حركة من حركاته دون أن أقترب منه ، وانتصف النهار بدون أن أقول له كلمةً واحدة ولا حتى سؤالاً واحدا ، فى الوقت الذى كان يلتف حوله كل الموجودين سواء أكانوا من المثقفين والصحفيين أو من المدعوين خارج الوسط الأدبى ، إلى أن حان وقت الغداء ووجدت نفسى بالمصادفة أجلس إلى جـــواره ، فقلت له : أنا لا أصدق نفسى بأننى أجلس بجوار صاحب سجن العمـــر وزهرة العمـــر وهما من أكثر الكتب التى تأثرت بها وعاشت فى وجـــدنى . فضحك الحكيم مربتًا على يدى وقـــال لى : إنت مين ؟ قلت أنا ... وأعمل فى ... وقال لى وهل قرأت كتبًا أخرى لى .

وفوجئت بكاتبنا الكبير يفتح معى مواضيع كثيرة ويحكى لى قصصا عن ذكرياته وكتاباته وبداية عمله ، وأحسست لحظتها

بأننى إنسانه ممتلئة بكل ثقافات العالم ، ولم أكمل غدائى الذى وضعته أمامى وكأن عيونى أكثر اتساعًا ، وآذانى أكثر إنصاتا لما قاله لى الحكيم ، وكان يوما لا ينسى فى حياتى ، وكتبت عنه مقالة طويلة نشرتها فى جريدة أخبار اليوم بعنوان ، يوم فى حياة توفيق الحكيم بعيدًا عن الأدب والفكر ، توفيق الحكيم الإنسان البسيط الأب الودود ، وصفات أخرى كتبتها عن كاتبنا الذى بهرنى بشخصه مثلما بهرتنى أعماله الأدبية .

وفى المرة الثانية التقيت به فى مكتبه بجريدة الأهرام وكان هناك فارق زمنى ، لا يقل عن عشر سنوات بين اللقاءين ، كان حزينًا مكتئبًا وكنت قد ذهبت إليه ليحدثنى عن الحركة الثقافية فى مصر ، وكنت أتوقع أننى سأكتب صفحات وصفحات وربما سلسلة مقالات ولكن ما إن أخرجت أوراقى وجهاز التسجيل لأبدأ معه الحوار حتى قال لى : أخرجى من مكتبى .. أنا لا أريد أى إزعاج ، أنا ليس لدى أى معلومات أستطيع أن أجيب بها على تساؤلاتك ورجائى أن تذهبى عنى وتتركى هذه الغرفة فى هدوء مثلما دخلت فيها بهدوء ، فأنا أشكر المسئولين فى الدولة لأنهم احترموا عزلتى وتجنبوا إزعاجى بحضور اجتماعاتهم فى المجلس الأعلى للثقافة مراعاة منهم لصحتى وسنى، فحالتى الصحية لم تعد تسمح لى بالتواجد فى هذه الاجتماعات .

وكدت أجمع أوراقى وألملم أفكارى وأسئلتى وأذهب بها بعيدًا عن كاتبنا ولكنى قلت له : إننى مازلت أصر على الحديث معك فى أى موضوع تريده ، لأننى أعتقد أنك لو قلت أى كلام يكون بالنسبة لى صالحا للنشر والكتابة عنه فقال لى منزعجًا ، إن كل ما يشغل بالى الآن هو «الموت» وأن الفكرة الوحيدة المسيطرة علىّ هى «انتظار الموت» لم يعد عندى ما أقوله أو أكتبه ، لقد فقدت أسرتى وعائلتى وأنا أعيش الآن وحيدًا بلا ابن أو زوجة وكل ما كتبته لا أشعر به الآن!

أنا أصبحت مثل الشجرة التى اصفرت أوراقها فهى لا تعطى ثمارًا جديدة ، وأنا أشعر بأننى لا أملك شيئًا جديدًا أقوله أو أكتبه ، وكلما فكرت فى شىء جديد للكتابة أجد الأجيال الجديدة تعبر عنه فأشعر بالارتياح وأتابع أعمالهم ، لقد كتبت فى البداية وعلى الأجيال الجديدة تكملة المشوار ، لقد كتبت مسرحًا والآن يوجد نعمان عاشور والفريد فرج ، وكتبت القصة ويوجد نجيب محفوظ.

وساد الصمت بيننا وهالتنى حالة التشاؤم التى يعيشها الكاتب الكبير توفيق الحكيم بعد كل هذا العمر والإنتاج الأدبى الرائع وقلت له : أحيانًا يمر الإنسان بأزمة نفسية أو حالة شعور بالعدم ، ويتخيل أنه يتولى بنفسه نهايته ، ولكنها فى الواقع مرحلة وقتية تصبح نقطة انطلاق جديدة للفنان والمبدع ، وربما أنت تعيش كأديب ومفكر حالة التوقف هذه استعدادًا لانطلاقة جديدة ؟ !

فقال لى ساخرًا : وأنا فى سن الأربعين فكرت فى الموت وقلت لعزرائيل خذ عمرى ، فقال عزرائيل : تزوج ، وتزوجت وأنجبت ولدًا ومات الولد وماتت الزوجة وكل ما بنيته فقدته ، أين تكون الحياة الجديدة التى تتحدثين عنها ؟ كل كتاباتى منذ أن أمسكت بالقلم لأكتب كانت عبارة عن سد فراغ فى الأدب .

فقاطعته قائلة : كيف تكون كل هذه الأعمال الأدبية العظيمة سد فراغ ؟

* قال : من حيث النوع !

* قلت : كيف ؟

* قال : لم يكن هناك مسرح فبدأت أنا به ، وأدب اللامعقول والرواية الطويلة كلها فنون لم تكن موجودة على الساحة الأدبية فى مصر بدأتها ، وهناك من قام باستكمالها .

* فقلت : برغم اعترافك بأن هناك سد فراغ ، لكن الأنواع الأدبية داخلها محتوى والمحتوى يختلف من كاتب إلى كاتب فكيف تقول لن أكتب مسرحا ، لأن هناك من يكتبه حتى ولو كان على أرفع مستوى ؟

* فقال لى محذرًا : قلت لك : إن مهمتى انتهت ، والمحتوى يتعلق بالمجتمع ، والأجيال الجديدة تعيش فى المجتمع وهى أقدر منى فى التعبير عنه ، أما أنا فأعيش منعزلاً عن المجتمع ، وحالتى الصحية والنفسية لم تعد تدعوانى للانغماس فى أى حياة جديدة .

* فقلت له : ماذا يحدث لكاتبنا الكبير لو اقتحمت رأسه فكرة جديدة الآن وصالحة للكتابة ، ماذا تفعل ؟

* قال لى : لن أكتبها !

* قلت : هل أنت قاتل ؟

* قال : لا .

* قلت : لماذا إذن تقول : إنك لن تكتب الفكرة ، إنك فى هـذه الحالة تصبح متهمًا بقتـل أفـكارك الجديـدة وهذا ليس اتهامًا بقدر ما هو جريمـة فى حق النـاس والمجتمع .

* قال بتراجع الفنان ، إذا اقتنعت بالفكرة ربما أكتبها بشرط أن تجيب بداخلى على سؤالين لماذا أكتب ؟ ولمن أكتب ؟

واستطرد قائلاً وكأننى فتحت له ثقبًا فى حجرة مظلمة : الفكرة الجديدة لا يمكن أن يتحرر منها الكاتب إذا دخلت رأسه ، وأحسست أننى بدأت أخفف من حالة التوقف والتشاؤم التى يعيش فيها الكاتب الكبير .

* قلت له مداعبة : هل يمكن للإنسان أن يحب فى أى سن من العمر حتى ولو بلغ ٨٨ عامًا ؟

* فقال مبتسمًا : ممكن !

* قلت : وماذا يكون سلوك الإنسان ، هل يصبح سلوكًا طبيعيًا أو غير طبيعى ؟

* قال : يكون طبيعيًا فى نظر نفسه وغير طبيعى فى نظر الناس !

وخرجت من حجرة الكاتب الكبير توفيق الحكيم وأنا أشعر بالارتياح لأننى استطعت أن أحقق حوارًا ، كان من المستحيل أن يحدث فى مثل هذه الحالة التى التقيت به فيها ، وسبب آخر أننى استطعت أن أتركه وعلى شفتيه بصيص من نصف ابتسامة ، تحاول جاهدة أن تجد لها مكانًا على شفتيه الحزينتين ، واعتقدت يومها أن حالة كاتبنا مرحلة وقتية ، وأنه يستطيع الانطلاق منها إلى عالم الفكر والأدب الذى لا ينضب أبدًا ، ولكن لم يمر عام على هذا اللقاء حتى توفى قبل أن يحتفل بعيد ميلاده التاسع والثمانين بشهور قليلة .

لكنِ لسنوات طويلة ستظل مؤلفات الحكيم المسرحية والروائية– ٧٥ مسرحية و١١ رواية – تراثًا ضخمًا ومثيرًا رصد فيه بوعى المجتمع المصرى قبل ثورة ١٩ وحتى ثورة ١٩٥٢ وما بعدها إلى أن رحل عنا !

ويموت توفيق الحكيم ، ويظل فكره وأدبه قصة لا تنتهى ، والذين اقتربوا منه أكثر من قالوا عنه : إن الحديث معه متعة حقيقية لأنه عندما يمضى فى سرد ذكرياته بطريقته الفذة فى تحويل أى حادث واقعى إلى مشهد تمثيلى كامل بحواره الذكى اللماح ، وحيويته التى تتجلى فى تعبيرات وجهه ، ولمعان عينيه وحركات يديه ، وتلوين نبرات صوته ، هو القدرة المتواصلة على العطاء والتجديد وعشق الحياة .

« كلما كنت بسيطًا .. بدوت معقدا فى نظر الناس ، ويوم أن تكون معقدًا ستبدو بسيطًا !! » . .

إحسان عبد القدوس

❊ عاشق الحب والحرية

الذين اقتربوا منه وعملوا معه وعاشوا فى حياته قالوا عنه: نادرًا ما نجد شخصًا لا يعرف الكراهية ، والأكثر ندرة أن نجد شخصًا يوزع الحب على الآخرين بغير حساب، كانت صناعته الحب، صنع الصحافة بالحب، والسياسة بالحب، وكتب الأدب بالحب، وعاش حياته العريضة يدعو إلى الحب.

أحب الحياة، ولم يعتزلها قط ، وظل حتى آخر لحظة يعطى بقوة ويحتفظ بقدرته على الاستمرار .

وعندما مات إحسان عبد القدوس يوم عيد ميلاده الواحد والسبعين أغمض عينيه على صفحة النيل ووجه رفيقة عمره ، واقتنصته الغيبوبة فتعلقت به قلوب أبنائه وزملائه وأصدقائه وشعب عريض تعارف معه من أقصر طريق ، كلمة تنبع من القلب فتذهب إلى القلب وتخلق جسرًا من المودة والألفة .

ومات إحسان عبد القدوس ولم ألتق به فى حياتى إلا مرة واحدة ، ولكننى التقيت به مرات كثيرة من خلال رواياته وكتبه ومقالاته ، عرفته فى بداية حياتى كاتبًا رومانسيًا عاشقًا للحرية والحب ، تعلمت من أفكاره معنى الحرية التى تدفع الإنسان إلى تحقيق ذاته وأحلامه ، وعرفت من بين كتبه معانى الحب الخالد الذى يسكن العقول قبل القلوب فى كلمات بسيطة وحكايات يعتقد الكثير منا أننا أحد أبطالها .

قابلت الكاتب الكبير وكنت فى بداية حياتى الصحفية ولم تتح الفرصة أن أعمل معه أو أن أقترب منه شخصيًا رغم أنه عمل فى جريدة أخبار اليوم كرئيس لتحريرها فترة طويلة من الزمن ، كنت فيها طالبة أدرس فى المدارس الثانوية ثم التحقت بكلية الإعلام لأعمل فى مجال الصحافة ، ولكنى لم ألتق به ، ولكننى سمعت عنه الكثير الذى جعلنى أندم على أننى لم أعمل معه .

وعندما التقيت به فى مكتبه فى الأهرام كنت أريد أن أجرى حوارًا صحفيًا معه ، وأعترف بأن هذا الحوار لم يكن كافيًا للغوص فى أعماق كاتبنا ، ولو كانت هناك فرصة ثانية لأجريت معه حوارًا آخر بأسئلة أخرى ، فمازالت بداخلى كثير من التساؤلات كنت أريد أن أعرفها منه ، ولكن ليس تحقق التمنيات بأيدينا ، رحل إحسان عبد القدوس وعلينا البحث عنه بين أوراقه وكلماته وأصدقائه وكل من التقوا به .

عندما أكتب . . أنسى نفسى

قال لى الكاتب الكبير إحسان عبد القدوس عندما أجريت معه حوارى الصحفى : « أنا لم أندم أبدًا فى حياتى لأنى بطبيعتى قدرى وما يعرضه القدر هو تعبير عن طبيعتى الخاصة ، فكيف أندم وهذه طبيعتى ؟ وحتى لو اعترفت بالخطأ لا أعترف أنى نادم ، أعترف بأننى مستسلم ومؤمن بالقدر ومؤمن بأن الله الذى يفرض القدر يحبنى ويمنحنى كيانًا سعيدًا » .

ولم تكن هذه الكلمات مجرد سطور فى رواية جديدة للكاتب إحسان عبد القدوس ، وإنما كانت خلاصة فلسفته فى الأدب والحياة من خلال الحوار الهادئ الصريح الذى أجريته معه .

* قلت له فى بداية الحوار : من أنت ؟

* صمت قليلاً ثم قال : « أنا ولدت وعشت فى جو المسرح ،لأن أبى وأمى كانا من أهل المسرح ، وكان أبى الأستاذ محمد عبد القدوس يكتب المسرحيات وكان له مسرحية بعنوان « إحسان بك » أى على اسمى ، وقد عُرضت أو تعمد أن يعرضها فى عيد ميلادى ، وقامت ببطولتها المرحومة عزيزة أمير ، وأول ما كتبته - وكنت فى العاشرة من عمرى - كان تقليدًا لوالدى ، فكتبت أول مسرحية أذكر اسمها حتى الآن ، مسرحية « المعلم علم التلميذ طلع لسه شريف » وبعد ذلك ومن طـوال معايشتى لأبى داخل المسارح أصبحت أهاب المسرح

وأخاف لأنى كنت أعيش مع معاناة كتاب المسرح وممثلو المسرح ، لذلك وجدت نفسي أقرب من المسرح ومن التمثيل ، وكنت كلما دخلت مدرسة ألحقونى فورًا بفرقة التمثيل باعتبارى ابن ممثل وممثلة ، ولكننى كنت أعتذر وأهرب ،

وكان هذا أحد الأسباب التى جعلتنى أتفرغ للكتابة المسرحية ، وإن كنت منذ سنوات قليلة كتبت مسرحيتين أقمتهما على أسس مسرحية غريبة جدًّا أو جديدة جدًّا ، لأنى كعادتى لا أستسلم للنظم الفنية القائمة ، وأعتمد الخروج عليها ، وربما كان من غرابة هاتين المسرحيتين وهما : « لا أستطيع أن أفكر وأنا أرقص » والمسرحية الثانية : « الدراجة الحمراء » ولم يستطع أى مخرج مسرحى أن يخرجهما على المسرح ، وقد حاول صديقى فايز حلاوة أن يخرج إحداهما لكنه صاح بعد شهور : لا أستطيع .. لا أستطيع !! » .

* قلت للكاتب الكبير : أين أنت من النقاد .. كتبت خواطر فنية وتعرضت لقضايا أدبية ؟

* قال : « لا شك أنى أنا نفسى ناقد ، وقد مرت على فترة كنت مواظبًا أسبوعيًّا على نشر النقد الفنى فى روز اليوسف ، والكتاب الكبار كلهم كانوا يتعمدون أن يكونوا نقادًا فنيين ، فالعقاد كان ناقدًا فنيًّا ، والتابعى والمازنى ، بل أن طه حسين نفسه نشر نقدًا مسرحيًّا ، وكأن النقد مسئولية تعتبر من مسئوليات كل

الكتاب ، وأنا إلى الآن لم أستطع التخلص من كتابة النقد الفنى ، وكلما ابتعدت عنه عدت إليه ، ولعلك تقرئين ما كنت أكتبه تحت عنوان « خذ عقلى وأعطنى فنك » ولكنى فجأة توقفت خصوصًا أنى لم أعد متتبعًا لكل تفاصيل الحركة الفنية .

وكان موقف النقاد من إنتاجى الأدبى ، والقصصى الذى أنشره أنى أتعمد ألا أتصل بهم ليكتبوا عن إنتاجى بعكس ما يفرضه العمل على كل الكتاب ، كما أنى لم أتعود أن أهدى كتبى إلى أى ناقد إلا بعد أن يطلبه هو شخصيًا منى ، لأنى أنا شخصيًّا تصلنى كثير من الكتب المهداة ولا أجد وقتًا لقراءتها ، وقد قرأت كتابًا للكاتب رشدى صالح كان قد أهداه لى منذ أكثر من خمس سنوات ، وأنا لا أحب أن يكون هذا هو مصير كتبى التى أهديها فلا يقرؤها المهدى إليه أو يؤجل قراءتها ، ولذا فأنا لا أهدى كتبى .

لقد قال لى طه حسين : « إنه من كثرة الكتب التى تهدى إلىّ لا أجد مكانًا لحفظها فأضطر أن أجمعها فى « بانيو الحمام » ، وأن زوجتى تتشاجر معى لهذا السبب » وليس معنى هذا أنى لا أكون سعيدًا عندما يطلب منى أى ناقد كتابًا فأهديه إليه وأنا راض وسعيد ، ومن ناحية ثانية وضعى كصحفى يؤثر فى موقف النقاد منى ، لقد كنت رئيسًا للتحرير ويتعمد النقاد أن ينتقدوا رئيس التحرير هذا حتى يثبتوا أنهم لا يخافون من رؤسائهم حتى أيام كنت صاحب روز اليوسف

أذكر أن فتحى غانم كان قد بدأ يعمل معنا وكان متخصصًا فى النقد الأدبى وكتب نقدًا عن إحدى قصصى يهاجمنى بعنف ، وقرأت هذا النقد بصفتى رئيس التحرير ورغم ما فيه من هجوم فنى على شخصى نشرته فى روز اليوسف ، وجاءت يومها والدتى السيدة روز اليوسف وتشاجرت معى ، وصرخت فى وجهى كيف تسمح بنشر هجوم عليك فى مجلتك ، ورغم هذا فهذه طبيعتى حتى اليوم وهو « أن أضع حرية الرأى فوق كل شىء » .

وإذا كان معظم النقاد لا يتتبعون إنتاجى ، وإذا قرءوا لا يعلقون بشىء إلا بما يتيح لهم الهجوم على فنى خصوصًا إذا وجدوا فى القصة مشهدًا جنسيًّا ، فهذا لا يعنى أن كل النقاد يتعمدون الهجوم علىّ ، فالأستاذ توفيق الحكيم نشر دراسة أصيلة محترمة أفخر بها عن بعض قصصى ، ولويس عوض ، ويحيى حقى ، ومن النقاد الشبان مأمون غريب وجمال الغيطانى .

* فقلت لكاتبنا الكبير : هذا الحديث يجعلنى أسألك عن رأيك فى الحركة النقدية من الناحية الأدبية أوالفنية كسينما ومسرح وتليفزيون؟

* قال بسرعة : « عمومًا الحركة النقدية لم تصل إلى المستوى الكامل الذى كانت عليه فى الجيل السابق ، ربما لأن الناقد نفسه لم يعد يبذل جهدًا كاملاً قبل أن ينشر نقده حتى أنى أتعجب من ناقد يكتب

عن إنتاجى مثلاً وهو لم يقرأ إلا قصة واحدة ، فى حين أن النقد الكامل يتطلب أن يقوم الناقد بقراءة كل إنتاج الكاتب حتى يفهمه كله ويكوّن رأيًا صحيحًا عن هذا الكاتب ، وقد يكون السبب هو أن مستوى الإنتـاج الفنى نفسه تغير حتى أصبح معظمـه يعتبر من فنون التسلية لا من فنـون الخلق » .

* قلت للكاتب إحسان عبد القدوس : الندم موجود فى حياة كثير منا ، أين الندم فى حياتك على المستوى الأدبى من حيث الإنتاج وعلى المستوى الشخصى ؟

* أجابنى قائلا : « أنا لم أندم فى حياتى أبدًا لأنى بطبيعتى أعتبر أنى إنسان قدرى وما يفرضه القدر هو تعبير عن طبيعتى الخاصة فكيف أندم وهذه طبيعتى ، حتى لو اعترفت بالخطأ لا أعترف أنى نادم عليه ، ولأنى مؤمن بالقدر ومؤمن بأن الله الذى يفرض القدر يحبنى ويمنحنى كيانًا سعيدًا » .

* قلت له : وإذا سألتك أين تضع إحسان عبد القدوس بين كتاب الرواية فماذا تقول ؟

* قال : أنا لا أضع نفسى ولكن القراء هم الذين يضعوننى وأنا فخور بالمرتبة التى يضعنى فيها القراء .

* قلت : ولكن هل ينسى إحسان عبد القدوس الأديب إحسان عبد القدوس الصحفى عندما يكتب عملاً أدبيًا ، أم أن إحسان ككل هو الذى يكتب الأدب والمقال الصحفى ؟

* وضحك ضحكة خفيفة قائلاً : أنا أصلاً كاتب أديب لأنى كما قلت لك بدأت مقلدًا لأبى الأستاذ محمد عبد القدوس وهو أديب اشتهر بالمسرحيات والشعر والزجل ، أما الصحافة فقد رتبت نفسى عليها وامتصصتها متعمدًا حتى صارت فى كل دمى ، لأنى منذ بدأت وأنا أحاول أن أريح أمى السيدة روز اليوسف ، وأتحمل كل عبئها الصحفى ، ولن أخفى عليك سرًا هو أننى طول حياتى منذ ولدت وأنا أتمنى أن تكون أمى امرأة عادية متفرغة لى ، تعطينى حنانًا وكل أمومتها وكل بركاتها ، فأنا عندما أكتب قصة أنسى أنى صحفى بل أنسى نفسى ، وعندما أكتب الصحافة أنسى أنى أديب ، وإن كان الأدب والصحافة كل منهما اختلط بالأمر داخل نفسى ، بل كل منهما خدم الآخر لصالح إحسان ، فالصحافة فتحت لى مجالاً واسعًا متعدد الجوانب لدراسة الحياة الاجتماعية التى توحى إلىّ بمواضيع القصص ، كما أن الأسلوب الأدبى خدم نزعتى الصحيفة .

* لماذا تتعمد انتقاء النماذج غير العادية فى تصرفاتها لتكتب عنها ؟ .

* قال لى وابتسامته الهادئة لا تفارق شفتيه : بالعكس إنى أتعمد انتقاء الشخصيات العادية ولكنى من منطلق الصراحة أكشف دخائل هذه الشخصيات فتبدو غير عادية ، كل فرد من البشر يبدو عاديًا

فى مظهره ، غريبًا فى داخله ، أنت نفسك تبدين فتاة عادية لكنى واثق إذا كتبت عنك ستبدين للقارئ وكأنك لست فتاة عادية !

مالا نعرفه عن إحسان

القضية الأخيرة

ولأنى لم أستطع مقابلة الكاتب الكبير إحسان عبد القدوس مرة ثانية حاولت أن أجمع كل ما كتبه وأقرأ كل ما نشره فى قصص ومقالات لأعرفه أكثر .. عرفته عاشقًا للحرية والحق والصدق والإنسان ، وكان من بين قراءاتى هو ماكتبه بنفسه عن نفسه فى شبه مذكرات خاصة عن جزء لا يعرفه الكثيرون عن إحسان .

قال : « هذه ليست قصة خيالية .. فالخيال لا يمكن أن يكون مرًّا إلى هذا الحد ..

كانت هوايتى منذ كنت طالبًا فى المدرسة الثانوية هى الخطابة ، وكتابة البحوث ، فالخطابة تتطلب مواجهة الجماهير ، وكتابة البحث تتطلب العزلة عن الجماهير ، والخطابة هى أن تضع عقلك على طرف لسانك ، والبحث يتطلب أن تضع عقلك على طرف قلمك ، الخطابة تعتمد غالبًا على إثارة العواطف ، على اقناع العاطفة ، وكتابة البحث تعتمد دائمًا على إقناع العقل .

هوايتان ، متنافرتان ، ورغم ذلك فقد جمعت بينهما ، وكنت وأنا طالب فى المدرسة لا تفوتنى مناسبة سواء كانت وطنية أو اجتماعية

إلا وأقف فيها خطيبًا بين زملائى ، وفى لحظات أملك عواطفهم ، وأهزها هزًا عنيفًا ، أبكيهم على زميل توفى ، أو أحمسهم للخروج فى مظاهرة ، أو ألهب أنفهم بالتصفيق لفريق كرة القدم عندما نقيم له حفلة تكريم فى مناسبة فوزه ، وفى الوقت نفسه كان لى فى كل أسبوع بحث مكتوب عن إصلاح نظم المدرسة ، أو عن التنشيط الاجتماعى، أو، أو، بحوث أقدمها لناظر المدرسة أو للأساتذة المشرفين ، فتلقى اهتمامهم وإعجابهم ، وقادتنى هوايتى إلى كلية الحقوق .

ولم أكن أحلم بأن أكون وزيرًا ، أو زعيمًا ، كما كان يحلم بقية طلبة الحقوق فى عهد ما قبل الثورة . أبدًا ، كل ما كنت أحلم به هو أن أكون محاميًا ، محاميًا كبيرًا ، أخطب ، وأكتب البحوث القانونية والاجتماعية بل والسياسية ، وتفوقت فى كلية الحقوق ، وتفوقت فى هوايتى ، وأصبحت جميع الهيئات السياسية والاجتماعية داخل الكلية ، وخارجها تدعونى إلى الخطابة فى اجتماعاتها ، وإلى إعداد البحوث عن نشاطها ، ولم أكن منتميًا إلى واحدة من هذه الجمعيات ، ولا إلى حزب من الأحزاب ، أبدًا ، كان كل ما أحرص عليه هو أن أقتنع بالموضوع الذى أخطب فيه ، أو الذى أعد بحثى عنه ، سواء كان هذا الموضوع يهم الوافديين أو الشيوعيين أو الإخوان المسلمين ، أو ، أو ، المهم هو عدالة القضية التى أدافع عنها ، وقد كنت حريصًا فعلاً على ألا أتكلم إلا فى القضايا العادلة ، وبلغ منى الحرص إلى حد

أن العدالة أصبحت تعرف بى ، فإذا أعلن أنى سأخطب فى اجتماع ما ، أمن الناس كلهم بأن القضية التى ستبحث فى هذا الاجتماع ، عادلة ، وفشلت كل الوسائل التى تعرض لها كى أشترك فى الدفاع عن قضايا لا أؤمن بعدالتها ، فشل التهديد ، والإغراء ، وفشل التشهير والنفاق ، وبقيت صلبًا قويًا ، فخورًا بصلابتى وقوتى ، ومكانتى التى اكتسبها بين طلبة وأساتذة الكلية .

وقبل أن أحصل على ليسانس الحقوق ، طبعت بطاقة تحمل اسمى : « محمود عباس » ثم « المحامى » .

كنت واثقا من حصولى على الليسانس، ونلته فعلاً عام١٩٤٣ بمجموع ٨٥ فى المائة ، والتحقت بمكتب الأستاذ عبد التواب عبد الحى محاميًا تحت التمرين ، وذهل الأستاذ عبد التواب ، ذهل من المذكرات القانونية التى أعدها ، ومن الأسلوب الجديد الذى أتبعه فى المرافعة أمام المحكمة ، أسلوب هادئ ، رنان ، يتسلل إلى قلب القاضى ، حتى إذا ملكت القلب أصبح من السهل على أن أكسب العقل ، وأكسب القضية .

ولكنى كنت مصرًا على ألا أقبل الترافع فى أى قضية إلا إذا اقتنعت بعدالتها ، قضايا كثيرة من التى ترد على مكتب الأستاذ عبد التواب ، كنت أرفض المساهمة فيها ، لا لشىء إلا لأنى غير مقتنع بعدالة موقف الموكل فيها ، وكنت أصارح الأستاذ عبد التواب ، برأيى هذا ، فلم

يكن يغضب ، بل ازداد تقديره لى ، واحترامه لشخصيتى ، إلى حد أنه بعد عام واحد من اشتغالى فى مكتبه ، قرر لى مرتبا عشرة جنيهات فى الشهر ، رغم أن المحامين تحت التمرين على أيامنا لم يكن من حقهم العمل بمرتب .

ورغم ذلك ..

رغم هوايتى ، ورغم كل هذا النجاح الكبير ، ورغم حلم العمر ، هجرت المحاماة قبل أن أتم فترة التمرين ، ذبحت هوايتى ، دفنت نجاحى ، مزقت حلم العمر ، وضحيت بالجنيهات العشرة ، كانت هذه الجنيهات العشرة تعنى شيئًا كبيرًا بالنسبة لى ، فقد كان والدى يعطينى حتى ذلك الحين ثمانية جنيهات فى الشهر إلى أن أستطيع أن أعول نفسى ، وكانت أمى قد أدخرت لى مائة جنيه لتدفعها مهرًا لى عندما أتزوج ابنة عمى ، إنى أحب ابنة عمى ، ومنذ قبضت العشرة جنيهات وأنا أدخرها كلها حتى يحين اليوم الذى أنفقها فيه مع ابنة عمى بعد أن نتزوج ، ولكنى ضحيت بالعشرة جنيهات أيضًا .

ماذا حدث ؟

حدث أن جاءنى فى بيتى الأسطى محمد أحمد محمود المكوجى ، الذى يقع دكانه تحت بيتنا مباشرة ، وأبلغنى أنه قبض على ابن عمه عبد المجيد علوان ، متهمًا بسرقة مجموعة من ولاعات السجائر من المحل التجارى الذى يعمل فيه ، وأقسم علوان على

أنه مظلوم ، وأنه ضحية اضطهاد رئيسه الذى كان يطلب منه أن يذهب إلى بيته لينظفه ، ولأن علوان كان يرفض ، فقد دبر له الرئيس هذه التهمة .

وقال الأسطى محمد أحمد محمود :

– علوان ابن عمى فقير ، ماحلتوش حاجة ، وبيجرى وراه سبع عيال ، غير أمه ، ومظلوم والله .

ولا أدرى لماذا تحمست فورًا لهذه القضية ، ربما لأنها أول قضية تأتى لى مباشرة ، وباسمى ، لا عن طريق مكتب الأستاذ عبد التواب وربما لأنى أردت أن أثبت لأهل الحى أنى أقف بجانبهم ، والأسطى محمد أحمد محمود من أكثر أهل الحى نفوذًا .

وربما لأنى أصبت بنوبة من العطف المفاجئ على عبد المجيد علوان وأولاده السبعة .

ورفضت أن أناقش الأسطى محمد أحمد محمود فى الأتعاب ، وذهبت إلى الأستاذ عبد التواب المحامى واستأذنته فى أن أتولى هذه القضية بنفسى ولحسابى ، فقد كان يجب أن أستأذنه لأنى ما زلت تحت التمرين. وسمح لى الأستاذ عبدالتواب، بل قال لى :

– اعتبر نفسك صاحب هذا المكتب ، كل إمكانيات المكتب تحت أمرك ، وشكرته ، وأسرعت إلى النيابة ونسخت محضر التحقيق

بنفسى ، فإنى لم أرد أن أشغل كتبة المكتب فى نسخه ، ما دام المكتب لن يستفيد شيئاً من هذه القضية .

وقرأت التحقيق بإمعان ..

إن السرقة كبيرة ، مائة ولاعة ماركة رونسون ، ثمن الولاعة الواحدة يصل إلى خمسة جنيهات ، أى أن قيمة المسروقات تصل إلى خمسمائة جنيه والاتهام قوى ، لقد عثروا على ولاعتين من الولاعات المسروقة فى منزل عبد المجيد غلوان ، وذهبت لزيارة المتهم فى السجن ، وقلت له :

– اسمع يا علوان ، قل لى الحقيقة علشان أقدر أخدمك ، كل الحقيقة ، وأقسم علوان أنه لم يسرق ، وأقسم أن رئيسه يضطهده وأنه هو الذى سرق الولاعات ، ودس اثنين منها فى بيته حتى يثبت عليه التهمة ، وأفاض علوان فى التفاصيل .

كلها تفاصيل معقولة ، وعلوان رجل عجوز ، تبدو الطيبة على وجهه ، والشقاء ، والفقر ، وإرهاق العمل الطويل ، وتأثرت ، تأثرت جداً ، وانتهى علوان من كلامه ، ثم قال :

– أقول إيه كان يا أستاذ ، دلنى !

ولم تعجبنى هذه الكلمة ، لم أسترح لها ، ماذا يعنى ، ربما لم أفهمه تماماً ، لا يهم ، وتبخر قلقى بسرعة وقلت لعلوان :

– اطمئن ، براءة بإذن الله ، وانهمكت فى القضية ، كل وقتى ، كل عقلى ، ولا أريد أن أروى التفاصيل ، ولكن استطعت بعد جهد عنيف ، أن أفرج عن علوان بكفالة خمسين جنيهًا ، ولم يكن مع علوان هذه الخمسين جنيهًا .

وقريبه الأسطى محمد أحمد محمود ، لم يستطع أن يدفع أكثر من خمسة جنيهات ، فذهبت إلى أمى وأقنعتها بأن تعطينى خمسين جنيهًا ، من مهر ابنة عمى ، على أن أردها بعد أن يحكم ببراءة المتهم ، إنى واثق من أنى سأحصل له على البراءة ، ورفضت أمى ، وألححت ، لأول مرة أختلف أنا وأمى ، وتماديت فى الإلحاح محاولاً إقناعها بأن الأمر متعلق بمستقبلى كمحام ، وأخيرًا خضعت أمى بلا اقتناع وأعطتنى الخمسين جنيهًا ، دفعتها فى خزينة المحكمة ليفرج عن علوان ، وأفرج عنه ، وقال لى علوان يومها وفى عينيه لمعة غريبة ، خيل لى برهة أنها لمعة خبث .

– كله يترد لك بإذن الله يا أستاذ ، الصبر طيب !!

ورفض صاحب العمل أن يعيد علوان إلى عمله ، فأعطيته خمسة جنيهات ، قرضًا إلى أن يستطيع أن يجد عملاً آخر ، وأعطيته خمسة جنيهات أخرى ، وخمسة جنيهات ثالثة ، لقد ذهبت إلى بيته ورأيت ما فيه من فقر ، رأيت أولاده السبعة حفاة ، عراة ، تطمس القذارة وجوههم ، ولم أكن أستطيع أن أتركه دون أن أمد له يد العون ، إنه مظلوم ،إنى واثق أنه مظلوم .

وعاد علوان يردد :

– كله يترد لك يا أستاذ ، الصبر طيب ..

ولم أفهم ما يعنيه ..

وحماسى لا يفتر ..

بل إنى كنت أتشاجر مع القاضى مرة لأنه أراد التأجيل ، إن حالة علوان لا تحتمل التأجيل ، انه لا يستطيع أن يعمل والإتهام معلق فوق عنقه ، وأولاده جياع ، وانتقل حماسى إلى زملائى الذين يعملون معى فى المكتب ، إنهم يدرسون القضية معى ، ويدلون بآرائهم ، والكتبة يساعدوننى ، صحيح أنى أعطيت لواحد منهم جنيهين ، وللثانى جنيهًا ، عندما كلفتهم بمهمات تتعلق بالقضية ، ولكنهم كانوا متحمسين ، بل إنى نقلت الحماس إلى المحكمة كلها أصبحت أعرف هناك باسم « محامى علوان » .

وبعد ستة شهور ،

حكمت المحكمة ، براءة ،

لم يكن الأمر سهلاً ، أبدًا لم يكن سهلاً أن أدحض أدلة الإتهام القوية، ولقد هنأنى الأستاذ عبد التواب على هذا الحكم، وزملائى ، واعتبرت أنا هذا الحكم هو الحجر الأساسى فى بناء مستقبلى .

وبعد أيام .. جاءنى علوان ، فى بيتى ، وهو يحمل فى يده لفافة كبيرة ، وقال لى بعد أن كرر شكره لى :

– أنا راجل حقانى يا أستاذ ، وأنت عملت كتير ، جميلك ما يتنسيش ، ودول ميت ولاعة ، يبقى لك منهم خمسين ..

ثم فتح اللفافة التى فى يده ، ولمعت أمام عينى الولاعات ، الولاعات المسروقة ..

وصرخت :

– إيه دول يا علوان ، وقال علوان ضاحكًا :

– دول الولاعات إياهم ، كنت مخبيهم عند مراتى الجديدة ، والحقيقة أنا كان نفسى أبيعهم بمعرفتى وأجيب لك تمنهم ، إنما السوق واقف ، وأحسن الواحد يتقل ، قلت أجيب لك نصيبك تتصرف فيه بنفسك ، ولم أرد ، بدأت أشعر بالدوار ، وقال علوان :

– ودى فوق البيعة ، احنا لنا بركة إلا أنت يا أستاذ ..

ووضع أمامى قطعة حشيش .

وصرخت :

– شيل الحاجات دى من قدامى ، شيلهم با أقول لك ، شيلهم أحسن أوديك فى داهية ..

وارتفعت نظرة غبية مذهولة فى عينى علوان ، وقال :

– جرى إيه يا أستاذ ، ما هو ما تبقاش طماع ، كفاية كده قوى ، وعدت أصرخ :

– اخرج بره ، اخرج بره ..

وجمع علوان الولاعات ، وأعاد قطعة الحشيش إلى جيبه ، واختفى من أمامى .

وسقطت فى هاوية الصمت ..

لا أريد أن أتكلم ..

لا أريد أن أرى أحدا ، ولا أمى ، ولا خطيبتى .

وألم ساحق يفرى صدرى ، ولم أكن أتألم لأنى وقفت بجانب مجرم وبرأته ، بل لأن علوان كان طول هذه الشهور ، يعتقد أنى أعرف أنه سارق الولاعات . وأنى كنت أدافع عنه لأطالبه بنصيبى فى المسروق ، وأفقت من نوبة الصمت ..

وعدت إلى المكتب ..

وحاولت أن أبدأ من جديد ، ولكننى لم أستطع ، لقد فقدت ثقتى فى نفسى ، وثقتى فى الناس ، لم أعد أصدق أحدًا ، ولا كلمة ، ولا حتى الأستاذ عبد التواب نفسه ..

وهجرت المحاماة ..

إنى الآن موظف فى شركة، موظف صغير، وعيبى أنى لاأصدق أحدًا ، وهو عيب أبعدنى عن الناس ، ولكنه يحمينى منهم ..

إنى أخاف من الناس ، أخاف ..

ولم أتزوج ابنة عمى ، لأنى أخاف ..

الهزيمة الأولى

من بين ما كتبه الكاتب إحسان عبد القدوس هذا المقال التاريخي عام ١٩٥٢ لكتاب « فاروق ملكًا » لمؤلفه الأستاذ أحمد بهاء الدين ، وفيه يحكي قصة حملة الأسلحة الفاسدة ووقائع قيام الثورة وطرد الملك فاروق ، ولأنها مقالة تاريخية وتحكي على لسان الكاتب الكبير إحسان عبد القدوس قصة حقيقية من واقع حياتنا ، نقلتها بالنص واحتفظت بها داخل دفتي كتابي المتواضع الذي أتعرض فيه لحياة هذا الأديب الكبير ، لعلها تعبر عنه باعتباره كاتبًا سياسيًا حرًا صاحب رأي سياسي، وتروي تفاصيل أخطر ليلة في تاريخ مصر.

* * *

في الساعة الرابعة من صباح ٢٤ يوليو دق جرس التليفون في منزلي وسمعت أحد أصدقائي الضباط يقول في لهجة حاسمة :

— لقد احتللنا القاهرة .

وابتسمت وأنا في طريقي إلى مركز القيادة ، ابتسمت لأني تذكرت ، أنه منذ يومين فقط ، أي في يوم الأحد ٢١ يوليو كنت في الإسكندرية ، وكانت وزارة حسين سري تعاني النزع الأخير بسبب الأزمة التي كان يثيرها الجيش في ذلك الوقت ، واتصلت يومها ببعض رجال حاشية فاروق ، وحاولت أن أقنعهم بأن الأزمة يجب أن تحل بما يحقق مطالب محمد نجيب ، الذي كان معروفًا أنه

على رأس الضباط الثائرين ، وكنت أحاول أن أقنعهم ، وأحاول أن أحذرهم ، ولكنهم لم يقتنعوا ، ولم يخافوا التحذير ، واتهمونى بالمبالغة ، وقال قائلهم : أتظن أن ستة ضباط يطبعون المنشورات ، ويسمون أنفسهم بالضباط الأحرار ، يستطيعون أن يفعلوا شيئًا ، دول عايزين واحد شديد يلبسهم طرح !!

ثم بدءوا يحاولون – كما حاولوا كثيرًا – أن يصلحونى مع السراى ، على حد تعبيرهم .

وأجبت بما اعتدت أن أجيبهم به ، بأنى لست مختلفًا مع السراى خلافًا شخصيًا ، ولكنى صاحب رأى سياسى ، يتناقض مع رأى السراى ، ولن نصطلح سويًّا ، إلا إذا تنازل أحدنا عن رأيه ، وأنا لست مستعدًّا للتنازل عن رأيى ، كما أنى أعتقد أن السراى ليست مستعدة للتنازل عن رأيها ، لأنه معنى ذلك أنها تتنازل عن نفوذها ، وعن سطوتها ، وعن رجالها ، وعن مصالحها الشخصية التى أصبحت مدار تصرفاتها !

وتركتهم ، وأنا أقرأ فى عيونهم رأيهم فىّ ، وهو رأى ينحصر فى أننى شاب مغفل ، وأنى سأتغير عندما تتقدم بى السن وأجد أننى لم أصل إلى شىء ، ولم أجن شيئًا من « تغفيلى » فألجأ إلى حظيرتهم ألتمس النفع ، أو على الأقل ألتمس الرضا السامى !

وكانت ثقتهم بأنى مغفل ، وأنى لا أسعى لنفع شخصى ، وأنى لا أخدم بمواقفى جهة معينة ، وأنى لن أتحمل الفقر والضنك طويلاً ، كل ذلك هو عذرى لديهم ، عذر جعلهم يغفلون عنى كثيرًا ، ويعفوننى من مضاعفة الاضطهاد والظلم ، الذى كانوا يوقعونه بى !!

تركتهم ، وعدت إلى القاهرة !

وكنت أعلم أن شيئًا سيحدث ، ولكن لم أكن كبير الأمل فى حدوثه .

كانت الأيام قد عودتنى ألا أتفاءل كثيرًا وكنت أكثر تشاؤمًا من ناحية الجيش ، فقد سبق أن أعددنا العدة لمثل هذه الحركة منذ سنوات ، عندما أثيرت قضية الأسلحة الفاسدة ، وكان الرأى العام كله وراء هذه القضية ، وكنت أعتقد أن أى تدخل فيها سيثير الضباط – وكنا نسميهم يومها الضباط الصغار – وكنت أجتمع ببعض منهم ونرتب ما يمكن حدوثه إذا ما غلبتنا قوى الشر ، وغلبت العدالة .

وقد حدث التدخل .

وتمرمطت قضية الأسلحة الفاسدة .

ولم يتحرك الضباط الصغار .

وضاعت جميع التهديدات القوية التى كنت أوجهها إلى السراى على صفحات « روزاليوسف » ، حتى كنت أتفادى مقابلة رجال الحاشية كى لا ألتقى بنظرات الشماتة التى يوجهونها إلىّ .

ومنذ تخرجت فى كلية الحقوق عام ١٩٤٢ ، وأنا أحاول أن أشعل فى مصر نارًا تطهرها من أدرانها وأقذارها ، وفى سبيل ذلك اشتركت فى جميع الحركات الشعبية التى مرت بمصر فى ذلك الحين ، وعملت مع جميع الهيئات ، بالقدر الذى استطعته ، أيدت الشيوعيين ولم أكن شيوعيًّا ، وأيدت الإخوان ولم أكن من الإخوان ، أيدت الوفديين ، ولم أكن وفديًّا ، وأيدت هيئات مستقلة كثيرة ولم أكن أومن بمبادئها ، ولكن كنت أومن بمسعاها إلى الثورة حتى احتار الناس ، من أكون ، ولمن أعمل ؟ ! ولم أكن أعمل لأحد ، ولم أكن أطلب شيئًا ، إلا طالبًا للثورة ، فقد آمنت بأن الثورة يجب أن تسبق كل إصلاح ، وأننا لن نستطيع أن نبنى الجديد إلا إذا هدمنا القديم .

وقد خاب مسعاى خلال عشر سنوات .

لم ينجح تدبير اشتركت فيه ، ولم تنجح هيئة من الهيئات التى اعتمدت عليها .

ولذلك ، وحتى بعد أن رأيت القاهرة وقد احتلها الجيش ، وبعد أن أصبحت فى مركز قيادة الثورة ، لم أكن متفائلاً !!

واختليت بمحمد نجيب فى إحدى حجرات القيادة ، ومعنا بعض الضباط ، وسألته :

— ماذا تريد ؟

قال : — الدستور .. والإصلاح !

قلت :— هذا كلام عام ، إن أسألك ، ماذا تريد فى هذه اللحظة ليتحقق فى هذه اللحظة !

قال :— ماذا تعنى ؟

قلت :— إن لك مطالب ، من سيقوم على تنفيذ هذه المطالب ، هل ستتولى الحكم بنفسك ، أم ستعهد بمطالبك لوزارة الهلالى ، أم تريد وزارة جديدة !!

قال :— إنى لا أريد أن أحكم ، الدستور لا يتيح لى أن أحكم !

وكان يتكلم فى هدوء عجيب وهو يشد أنفاسه فى غليونه ، وكاد هدوؤه أن يثيرنى .

كنت أتصور قائد الثورة فى مثل هذا اليوم ، صاخبًا عصبيًا ، يلقى أوامره باستمرار ، وتلتف من حوله الجموع ليخطب فيها ويحركها .

ولكن هذا الرجل كان هادئًا ، وكأنه لم يفعل شيئًا ، وكأن عنقه ليس فى حبل المشنقة .

ثم بدأت أستريح إلى هذا الهدوء ، وبدأت أعصابى تسكن ، وأصبحت كأنى فى جلسة عائلية تبحث مشكلة طارئة !

وعدت أسأل محمد نجيب :

— إذن من تريده أن يتولى الحكم ؟

قال : أظن من الأوفق أن ندعو البرلمان السابق ، باعتباره آخر حلقة من حلقات الدستور ، قلت :

– إن البرلمان السابق يحتاج إلى تطهير ، ثم إن الحركة يجب ألا تتهم بالحزبية ، والبرلمان السابق كان حزبيًّا !

قال في هدوئه العجيب : هذا صحيح ، ولكن الهلالى أيضًا يصطبغ بصبغة حزبية ،

قلت : بلاش الهلالى ..

قال : من ترشح ؟

ومرت بي ثلاث دقائق استعرضت فيها جميع الأسماء والوجوه ، أسماء ووجوه الشبان والشيوخ ، فلم أجد أحدًا يصلح – في اعتقادي – للموقف ، بكل أسف !!

وعاد محمد نجيب يقول :

– ما رأيك في بهي الدين بركات .. إنه رجل محايد !

قلت بصراحة :

– إنه أضعف من الموقف !

قال :

– على ماهر ! ؟

وصرخت فرحًا :

– إنه رجل كل أزمة .. أعتقد أنه يصلح .

وقال محمد نجيب :

– والضباط يعتقدون ذلك أيضًا !!

ونظرت إلى محمد نجيب فى عينيه الهادئتين المبتسمتين دائمًا . وتساءلت بينى وبين نفسى : هل كان يريد على ماهر من مبدأ الأمر ، وكل ما هنالك أنه أراد أن يقف على رأيى ، قبل أن يقول رأيه !!

من يدرى !

وعاد محمد نجيب يقول :

– ولكن ، هل يقبل على ماهر ؟

قلت :

– نسأله ، ولكن هل يقبل الملك ؟ !

وانطلق صوت من جانبى يقول :

– الملك مالوش دعوة . لماذا لا نعزل الملك ؟

وصمت برهة ، وتساءلت : نعم ، لماذا لا نعزل الملك ؟

وعرفت لأول مرة الهدف البعيد لحركة الجيش ، الهدف الذى فكرنا فيه مرارًا ، ولم نحاول تنفيذه أبدًا ، إلا فى مرة واحدة ، اجتمع فيها فريق من الضباط فى منزلى ، وقرروا اغتيال الملك ، وعارضت الفكرة ، لأن اغتيال الملك فى ذلك الوقت لم يكن يؤدى إلى شىء ، ولأن الإنجليز كانوا يستطيعون يومها ، أن يضعوا الأمير محمد على فى مكانه !!

وغير اللواء محمد نجيب ، مجرى الحديث بسرعة ، قائلاً لى :

– تولى أنت سؤال على ماهر ، هل يقبل تولى الوزارة أم لا ؟

قلت :

– سأدعود إلى هنا لمقابلتك .

– يبقى عال .

وتركنى محمد نجيب ، وذهب إلى حجرة أخرى ليجتمع بالأستاذ مصطفى الصادق ، عم الملكة ناريمان ، الذى تطوع يومها ليكون رسول سلام بين الجيش والملك .

وكان مصطفى الصادق يحمل إلى محمد نجيب فى كل عشر دقائق عرضًا جديدًا .

عرض عليه أن يجيب الملك جميع مطالب الجيش ، بشرط أن يتوجه بها محمد نجيب إلى الملك ملتمسًا – كتابة – أن يتعطف جلالة الملك ويوليها اهتمامه .

ورفض محمد نجيب ذكر اسم الملك فى بيان الجيش .

وعاد مصطفى الصادق يقول : ان الملك قبل مطالب الجيش ، دون ذكر اسمه فى البيان .

ورفض محمد نجيب أن يجيب الملك مطالب الجيش إلا بعد أن تتغير الوزارة .

وجاء مصطفى الصادق يقول : إن الملك يرجو أن تمنحوه فرصة للتفاهم على ما تريدون .

وأجاب محمد نجيب : إننا عند موقفنا ، وسنتفاهم فى حدود الإجراءات العسكرية التى اتخذناها ،

... الخ !

ولكى تبدو الجرأة العنيفة التى كان محمد نجيب يتولى بها إدارة الحركة يكفى أن أؤكد أن فرق الجيش المرابطة فى الإسكندرية لم يكن قد تحدد موقفها بعد ، وأنه كان من المحتمل جدًّا – فى هذه الساعة المبكرة من الصباح – ألا تنضم للحركة .

وتركت محمد نجيب ، وبدأت أبحث عن على ماهر .

واتصلت بخمس نمر تليفونية خاصة بعلى ماهر، فلم أعثر عليه.

واتصلت برئيس حركة التليفونات ، وطلبت منه باسم القيادة العامة ، أن يصلنى بالقصر الأخضر ، فأوصلنى به مباشرة ، ولم أجد فيه على ماهر ،

وأخيرًا اتصلت بالأستاذ إبراهيم عبد الوهاب ، وأبلغته فى اختصار خطورة الحالة ، وطلبت منه أن يسرع إلى بيت على ماهر ، ويطلبنى من هناك فى تليفون القيادة العامة .

وذهب إبراهيم عبد الوهاب فعلاً إلى بيت على ماهر ..

ولكن مرت نصف ساعة ولم يتصل بى ..

واتصلت مرة ثانية بحرم الأستاذ إبراهيم عبد الوهاب ، واستطعت أن أحصل منها على التليفون الذى أستطيع أن أحادث فيه على ماهر ..

ورد على ماهر أخيرًا ..

ولم أقل له من أنا ..

إنما قلت : هنا القيادة العامة ، اللواء محمد نجيب يريد من رفعتك أن تأتى إلى القيادة لأمر مهم ، فإذا وافقت فسنرسل لك حراسة تصحبك إلى هنا .

وسكت على ماهر قليلاً ، ثم قال :

– الباشا فى الحمام ، استنى شويه لما نبلغه !!

وغاب رفعته قليلاً ، ثم عاد يقول : وبنفس الصوت :

– أنا على ماهر ، إنى لا أستطيع أن أحضر إلى القيادة قبل أن أفهم الموضوع ، أرسلوا لى مندوبين عنكم لأتفاهم معهم ..

قلت :

– سيصلك المندوب بعد دقائق ..

وحيلة « الباشا فى الحمام » حيلة قديمة عرف بها على ماهر ، حتى اشتهرت عنه ، وأصبحنا – نحن الصحفيين – نتحملها صابرين ، وكأننا مغفلون !!

وأخذت معى اثنين من ضباط القيادة ، وركبنا سيارة أحدهما ، وتبعتنا سيارة جيب تحمل جنودًا مسلحين بالتومى جن ، لحراستنا ..

وفى الطريق اتفقت مع صديقى ، على ألا نتكلم مع على ماهر باشا عن الملك ، أو مصيره ، أو أن الحركة موجهة ضده مباشرة ، إنما نكتفى بالحديث عن الفساد والتطهير ، والإصلاح ..

كنت أخاف أن يعارض على ماهر فى عزل الملك ، أو يتراجع عندما يقف على الهدف البعيد للحركة ..

واستقبلنا على ماهر فى الدور العلوى من داره فى الجيزة ..

وبدأ الكلام أحد الضباط ..

وتحمس فى عرض أهداف حركة الجيش ، حتى بدأ يتحدث عن مصير الملك فمددت قدمى وضغطت بها على حذائه من تحت المائدة ، حتى يخفف من حماسته ..

ثم رجوت على ماهر بأن يسمح لى أن أشرح له الموضوع ، بوصفى رسولاً للواء محمد نجيب ..

ولم أقل له إن الجيش يريدك رئيسًا للوزارة ..

ولكن قلت : إن الجيش يريدك أن تكون مستشاره ..

ثم بدأت أعرض مطالب الجيش الخاصة بالتطهير وبالدستور ، وفهم على ماهر أن معنى استشارته هو أن يكون رئيسًا للوزارة ..

وفى هذه الأثناء دخل الأستاذ حسن ماهر ، وقال : إن الأستاذ إدجار جلاد موجود فى غرفة أخرى ويريد أن ينضم إلى اجتماعنا ..

ونظر على ماهر إلينا ..

فأجاب الضباط : لا ، لن نتكلم إذا جلس معنا إدجار جلاد ..

وقال على ماهر : إن إدجار جلاد موجود معه من الصباح ، وإنه يتولى الاتصال بالسراى فى الإسكندرية ..

وعدنا إلى حديثنا ..

وقال على ماهر : إنه يقبل أن يتقيد بالمبادئ الدستورية ، ومبادئ التطهير التى قررها الجيش ، ولكن لن يستطيع الآن أن يتقيد بأية تفاصيل !!

وأبلغناه أن القيادة فى انتظار حضور الأستاذ مرتضى المراغى مندوبًا عن الوزارة .

فقال على ماهر : إنه يفضل أن ينتظر حتى تنتهى مقابلة مرتضى المراغى ، واللواء محمد نجيب ، ثم بعدها يحدد موقفه .

ثم قال :

– إننى لن أستطيع أن أتخذ أى خطوة إلا بعد أن يكلفنى الملك باتخاذها ، واسمحوا لى أن أصرح لكم بأنى سأبلغ الحديث الذى دار بينى وبينكم للسراى فى الإسكندرية حالاً ، وسيقوم جلاد « باشا » بتبليغه .

قلت : أرجو أن تترك مهمة تبليغ هذا الحديث لنا ..

قال : لا ، إن واجب الأمانة يدعونى أن أبلغه ، وأن أصارحكم بأنى سأبلغه ، وقمنا بالانصراف ..

وعند باب المصعد ، انتحى بى على ماهر ، وسألنى عن اسمى الضابطين اللذين كانا معنا ..

وقلت له الأسماء كاملة ..

وعدنا إلى محمد نجيب ، وأبلغته رأى على ماهر ، وقلت له : إنه يقبل تشكيل الوزارة ، إذا عهد إليه الملك بتشكيلها .

وقال محمد نجيب :

– عال ، ولقد أبلغت فريد زعلوك الذى كان يخاطبنى من الإسكندرية الآن بأن الجيش يريد على ماهر ..

وقد أدلى محمد نجيب بعد ذلك بحديث لوكالات الأنباء قال فيه : إن الجيش يريد على ماهر رئيسًا للوزارة .

واتصلت بعلى ماهر ، وأبلغته هذه الأنباء

وبقيت القيادة فى انتظار وصول الأستاذ مرتضى المراغى ، ثم أبلغت بوصوله إلى المطار فأرسلت القيادة سيارة حربية لحراسته حتى مقر القيادة ، ولكن مرتضى لم يكن فى المطار ، وقيل إنه فى وزارة الداخلية ، فأرسلت سيارات الحراسة إلى هناك ، ولكن مرتضى لم يكن هناك أيضا .

كان من المؤكد أن مرتضى وصل إلى القاهرة .

ولكن أين هو ؟

لقد بقى ضباط الحراسة فى انتظاره بمكتب مدير الأمن العام ما يقرب من ساعة ، ولكنه لم يظهر ، ولم يستطع مدير الأمن العام أن يقول أين هو ، فغضب الضباط ، وعادوا إلى مركز القيادة .

وفى هذه الأثناء – وأحب أن أتكلم بصراحة – بدأت أعصابى تخوننى ، لقد توهمت أن شيئا يدبر للحركة فى الخفاء .

وتوقفت الأحداث ، توقفًا مريبًا زاد من شكوكى ، فالإسكندرية لم تعد تتصل بنا ، ومرتضى المراغى لم يظهر بعد ، والمندوبون بين الجيش والسراى قد كفوا عن نشاطهم .

لابد أنهم يتخذون تدبيرًا ما ، ولابد أنه تدبير خطير !

وكنت قد اتصلت بمكتب « روز اليوسف » فى الإسكندرية ، فأبلغونى أن نجيب الهلالى قد صرح لوزارته ، بأننى مشترك فى حركة الجيش ، وأننى ذهبت إلى على ماهر أطلب منه تشكيل الوزارة ، إلى آخر القصة التى لم يكن قد انقضى على حدوثها ساعات .

وأحسست بحبل المشنقة حول عنقى .

وكنت التفت إلى الطائرات التى تحلق فى السماء ، خشية أن تكون طائرات إنجليزية أرسلها الملك فاروق للسيطرة على القاهرة والقبض

علينا ، رغم أن الإنجليز والأمريكان أكدوا فى الصباح الباكر أنهم لن يتدخلوا ما دامت أرواح الأجانب فى سلام ، وما دامت الحركة ليست موجهة إلى القوات البريطانية فى القنال .

وكان كل من فى القيادة يحس بما أحس به ، يحس بحبل المشنقة ، ويحس أن حياته – وربما حياة عائلته – معلقة بنجاح الحركة ، ولكننى كنت الوحيد فيهم الذى أتكلم عن شكوكى ومخاوفى ، أما هم فكانوا فى برودة الثلج حتى أن محمد نجيب وجد فى أعصابه القدرة ليقابل على أيوب مدى ساعة ونصف ليتذاكر معه ذكريات الصداقة .

وفلتت أعصابى منى فى اللحظات الأخيرة .

وطلبت من أحد الضباط أن يقطع حديث محمد نجيب وعلى أيوب ، ويدعوه لألقى إليه بمخاوفى .

وجاء محمد نجيب هادئًا ، ثابتًا ، ينفث دخان غليونه ، وكأن الدنيا كلها من حوله أمان .

قلت له : إن هذا الصمت الذى يحيط بنا لا يريحنى ، لابد أنهم يدبرون شيئًا !!

قال : وماذا تقترح ؟

قلت : أى شيء ، لتتحرك الجيوش ، لنسبقهم إلى عمل شيء ، أى شيء ، أنت أدرى ، أنت القائد !

وقال صوت بجانب محمد نجيب :

– كل شيء أعدت له عدته ، اطمئن !

وتركنا محمد نجيب وعاد إلى حديثه الممتع مع على أيوب !

وفى الساعة الثالثة بعد الظهر ، دق جرس التليفون فى إحدى حجرات القيادة ، وقال المتكلم :

– لقد استقالت وزارة الهلالى ، وعهد الملك إلى على ماهر بتشكيل الوزارة ، وعادت الحياة تنشط من جديد بين الحجرات .

ولم أشترك فى هذا النشاط .

ركبت سيارتى ، وعدت إلى بيتى ، لأرى السيدة الكريمة التى انخلع قلبها علىّ خلال هذه الساعات الطوال .

وارتميت على سريرى لأنام ، ولا أدرى كم نمت ، فقد كنت كمن قضى عشر سنوات واقفاً على أعصابه ، وآن له أن يستريح .

وفى المساء عدت إلى على ماهر فى منزله ، وتناولت معه طعام العشاء برفقة فريق من وزارته ، ثم اختليت به بعد العشاء ، لأروى له قصة الأزمة كاملة .

ثم قلت :

– إن مطالب الجيش أبعد مما تتصور !!

قال :

– ماذا يطلبون مثلاً ؟

ولم أقل شيئا عن الملك ، بل قلت :

– إنهم يطلبون إلغاء البوليس السياسى مثلاً .

أجاب :

– خسارة ، دى أداة نافعة جدًا ..

قلت :

– إن طلباتهم من هذا النوع كثيرة ، وأرجو أن تختار وزراءك من الشبان المعروفين بكفاءتهم ، وقوة وطنيتهم ، حتى يساعدوك على تلقى هذه المطالب ،

واستدركت قائلاً :

– إنى كاتب عبرت دائمًا عن أفكار ضباط هذه الحركة ، وسأظل دائمًا كاتبًا ، ولا أريد إلا أن أكون كاتبًا ، ولذلك فإنى أستطيع أن أرى أكثر مما يراه غيرى .

قلت هذا لأنفى إشاعة ذاعت يومها ، عن أنى مرشح للوزارة ، وخفت أن تكون هذه الإشاعة قد طرأت على ذهن على ماهر ، وأنا أنصحه بأن يختار وزراءه من الشبان الوطنيين .

وتركت على ماهر .

ولم يقتنع معاليه–يومها–بمبدأ الاستعانة بوزراء شبان وطنيين ، خرجت من عنده، وكل ما فى رأسى أن الملك قد هُزم فى الموقعة الأولى.

وكانت الهزيمة الثانية للملك فى اليوم التالى ، عندما قبل مطالب الجيش كاملة رغم تطرفها ..

وكانت هزيمته الأخيرة يوم وقع وثيقة التنازل فى اليوم الثالث ..

ولكن لماذا تقرر التخلص من الملك ؟ .

ولماذا هزم بهذه السهولة ؟ !

هذا هو ما سجله هذا الكتاب .

إنه كتاب لم يسجل تصرفات الملك الشخصية الخليعة ، ولا نزواته الشاذة الفاضحة ، ولكنه سجل ما هو أهم .

سجل مصيبة مصر بهذا الملك .

ذات ليلة

ولا يؤرق كاتبنا فى الحياة شيئا سوى مرور عام جديد فى حياته ، يقف فيه مع نفسه ليسألها أين أنا وإلى أين ؟ وقد يجد الإجابة وقد لا يجد لها أو لا يتعرض لها ، وتمر السنوات وتمضى الحياة ، وذات ليلة من ليالى عيد ميلاد الكاتب الكبير إحسان عبد القدوس كتب عن نفسه فى شبه اعتراف على الورق يقول :

« أول يناير ..

إن عيد ميلاده يوافق يوم الاحتفال بعيد رأس السنة وقد تعود أن يحتفل كل عام بيوم ميلاده ، وكان يحاول دائمًا أن يقنع نفسه بأنه سعيد الحظ إذ يولد في يوم يحتفل العالم كله به .

وكان يحاول دائمًا أن يبدو سعيدًا فى ذلك اليوم وأن يضحك وأن يضع قلبه على كف يده ليقدمه لكل من يعبر حياته ..

ولكنه لم يستطع أبدًا أن يكون سعيدًا ، وخصوصًا فى ذلك اليوم .

انه يشعر في كل مرة يحتفل فيها بعيد ميلاده أنه نادم على ما فات وخائف مما هو آت ، وهو يشعر دائمًا أنه فشل وسيفشل ، وإن كان الناس يعتقدون ويؤكدون أنه نجح وسينجح .

إنه فاشل إذا قاس أعماله بما يريد أن يعمل ، وناجح بمقاييس الناس ، إنه إذا قاس أعماله فسيراها كلها سوداء ، لا يرى منها نورًا يهديه إلى الطريق الذى أتى منه أو الطريق الذى سيذهب فيه .

ولكن عن أى طريق يبحث ؟ وأى هدف يريد أن يصل إليه ؟ هل يريد أن يصبح كاتبًا ؟ هل يريد أن يصبح مشهورًا ؟ هل يريد أن يصبح غنيًا ؟ هل يريد أن يصبح سياسيًا ؟

إنه لا يدرى ، لا يدرى أين يذهب ، ولا من أين أتى ، لقد وجد نفسه يكتب دون أن يتعمد أن يكتب ، وقد أمسك بقلمه لأول مرة وهو فى الرابعة من عمره وخط خطوطًا لا معنى لها على ورقة بيضاء ، فسأله والده باسمًا ، ما هذا الذى تخطه ؟

فأجاب في سذاجة الأطفال : « إنها أعواد من القش » !!

ونظر الوالد إلى الخطوط التى خطها الابن فوجدها حقيقة تمثل أعواد القش ، فابتسم فرحًا فخورًا بابنه الذى استطاع أن يرسم « القش » فى مثل هذه السن !!

ولكن الابن عندما رسم خطوط القش لم يكن يقصد أن يرسمها ، وإنما أجرى قلمه على الورق بلا فكر وبلا هدف ثم نظر ليرى النتيجة فإذا بها أعواد من القش .

وهو من يومها يجرى قلمه على الورق ويترك له العنان ليكتب ويكتب وليس له من دافع إلا هواجس نفسه ونبضات قلبه ، ولو أغمض عينيه وهو يكتب لكانت النتيجة واحدة فهو لا يكتب بعينيه ولا برأسه ، إنما يكتب بأعصابه وروحه ، وبعد أن ينتهى من الكتابة ينظر إلى الورقة ليرى ماذا كتب ويفاجأ كما يفاجأ أى قارئ عادى وكأنه ليس صاحب القلم الذى كتب ، والناس تعجب بما يكتب كما أعجب به والده عندما رسم أعواد القش وهو فى الرابعة من عمره ، وقد تطور هذا الإعجاب حتى وصل به إلى مرتبة الشهرة ، وأصبح الناس يعتبرونه كاتبًا بين الكتاب وأصبحوا يثقون به ويدعونه صاحب رسالة وينتظرونه كل أسبوع على صفحات الجريدة التى يكتب فيها ، ولكنه هو نفسه لا يعجب بنفسه ولا يحس بالشهرة التى وصل إليها ، لأنه لا يعتبر نفسه كاتبًا.

بل يعتبر نفسه طفلاً بلا عقل ، يجرى قلمه على الورق بلا إرادة وبلا وعى ولتكن النتيجة ما تكون .

وهو يخشى ثقة الناس به ، لأنه يعتقد أن هذه الثقة ليست قائمة على أسس فى نفسه يستطيع أن يتحكم فيها ، بل هى قائمة على ذلك الإلهام الذى يدفع بقلمه على الورق دون وعى منه ، وهو إلهام لا يستطيع أن يتحكم فيه ولا أن يحركه عندما يريد ، بل هو نوع من النبضات العصبية التى تثور فى نفسه ثم تسرى إلى يده فترتفع من تلقاء نفسها لتمسك بالقلم وتكتب ، ولذلك فهو يخشى أن ينتظره أحد ليقرأ ما يكتب ، لأن هذا الإلهام لا يتقيد بمواعيد صدور الجريدة ولا بمواعيد المطبعة ، بل هو يتحرك فى أوقات لا ينتظرها هو نفسه ، وقد لا يتحرك أبدا .

فقد يمر أسبوع ويده لا تريد أن تمتد إلى القلم ، فى حين أنه يجب أن يكتب لأن المطبعة تنتظر ، وهنا تمر عليه أسوأ أيام حياته فهو لا يستطيع أن يكتب عندما يريد ، بل إن أصدقاءه الخصوصيين يعلمون عنه أنه لا يعرف من قواعد اللغة العربية ما يكفى لأن يضع كلمات بجانب بعضها تتكون منها جملة مفيدة ، إنه فى هذه الحالة يجن وقد يبكى ، وأحيانًا يرق إلهامه لدموعه فيدفع قلمه ليكتب ، وأحيانًا يعصاه إلهامه فيختفى عن الناس وعن أصحاب جريدته معتذرًا بمرض أو بحدث .

فهو إذن ليس كاتبًا فى نظر نفسه وإن كان كاتبًا فى نظر الناس !!

هل يريد أن يكون سياسيًا ؟ !

إنه لم يشعر بنفسه سياسيًا أبدًا ، بل إنه يرى أحيانًا فى السياسة معميات يصعب عليه فهمها ويضل فيها عقله ، وهو ينظر إلى السياسيين ، وكأنهم قوم غرباء عنه ليس لهم عقليته ولا روحه ، وحينما يجلس بينهم يحس أنهم يتكلمون لغة لا يفهمها بل ويمقتها ، ولكنه إن أنكر على نفسه صفة السياسى فلا يستطيع أن ينكر أنه وطنى وهو يفهم الوطنية كما يفهمها رجل الشارع ، يفهمها واضحة جلية مستقيمة كحد السيف ، فلا يحاول أن يدس بوطنيته فى سواد الدبلوماسية ولا فى همسات الدوائر العليا .

وهذا الفهم للوطنية لا يحتاج إلى ذكاء نادر ، ولا إلى موهبة شاذة ، ولا إلى فكر خارق للعادة ، بل هو فهم بسيط لا يتميز به عن أى رجل ساذج من الشعب ، بل إن الفلاح فى حقله قد يقيس الوطنية بأقوال العمدة ، والعامل فى مصنعه قد يقيسها بما يطالب به من تحسين حاله ، أما هو فوظيفته مجردة لا تكلفه إلا أن يحس ، فهو يطالب بالجلاء – مثلاً – بنفس الطريقة التى يحاول بها كلب مقيد أن يحطم قيده ، ولو أحس كل أفراد الشعب بأنهم كلاب مقيدون لتم الجلاء منذ عشرات السنين !!

ورغم هذه البساطة أو السذاجة التى يفكر بها ويكتب بها فى شئون وطنه ، فإن الناس قد اعتبروه سياسيًا واعتبره البعض « سياسى داهية » !! .. فحملوا ألفاظه أكثر مما كان يعنيه ، وأخذوا حملاته التى لا يدفعه إليها إلا ومض أعصابه ونور قلبه ، أخذوها مأخذًا شتى ، ليست وطنية بل سياسية ، وخرج من ذلك بمبدأ آمن به وهو : « كلما كنت بسيطًا .. بدوت معقدًا فى نظر الناس ويوم أن تكون معقدًا ستبدو بسيطًا » !!

هل يريد أن يكون غنيًا ؟

لقد صار فعلاً غنيًا لو أن الغنى يقاس بالمال ، فقد كان دخله منذ عامين خمسة وعشرين جنيهًا فى الشهر ، ودخله فى شهر ديسمبر الحالى وصل إلى مائتين وخمسين جنيهًا - بلا مبالغة - ولكنه منذ عامين كان يصرف ثلاثين جنيهًا فى الشهر ، وهو اليوم يصرف ثلاثمائة جنيه ، فهو غارق فى الدين فى كلتا الحالتين ، وهو فى كلتا الحالتين ليس سعيدًا ، وكلما زاد دخله .. كلفه بحثه عن السعادة أكثر ..

إنه إذن كاتب وليس بكاتب ، مشهور وليس بمشهور ، سياسى وليس بسياسى ، غنى وليس بغنى ، وهذا هو سر روحه التائهة ، وقلبه القلق ، وفكره الشارد ، والسؤال الذى يبحث عنه هو :

- هل أنا لا أقدر نفسى حق قدرها ، أم أن الناس يقدروننى أكثر من قدرى ؟ !!

إن سيدة واحدة تشاركه البحث عن هذا السؤال ، وهى لا تبحث عنه بين الناس بل تبحث عنه فى نفسه ، وكلما ظنت أنها وصلت إلى غورْ نفسه بدت لها فيه أغوار جديدة ، إنه يخشى عليها أن تتوه معه ، وهى تخشى عليه أن يتوه منها !!

إنها السيدة الوحيدة التى تحتفل معه بعيد ميلاده ، فتصمت معه طول الليل لتتركه يحاسب نفسه ، فإذا ما انتهى من الحساب – وهو عسير – بكى وضمها إلى صدره ثم حمد الله !!

قاسم أمين الأدب

وقال عنه الكاتب الكبير نجيب محفوظ :

« فى سن التاسعة تقريبًا انتقلت مع أسرتى من حى الجمالية إلى الشارع الذى ولد فيه بحى العباسية ، وتعرفنا بأسرته ، وأذكره – حينذاك – بين الطفولة والصبا يلعب فى الشارع إلى أن انتقل مع أسرته إلى العباسية الشرقية فغاب عن عينى ، ثم فوجئت به بعد سنوات محررًا لامعًا فى مجلة روز اليوسف ، وأعجبتنى مواقفه الصحفية الجريئة تجاه السراى والإنجليز والوفد ، ثم الثورة بعد ذلك وتحمله الإهانات والمعاناة من أجل مواقفه ، وقد استطاع – خلال فترة إدارته لروز اليوسف – أن يجعل العاملين فى مؤسسته أسرة واحدة يندر وجودها فى أية مؤسسة أخرى .

على الجانب الأدبى أعتبره فى طليعة الروائيين العرب ، تصدى لمشاكل كبيرة ، وهوجم كثيرًا لجرأته الشديدة ، وتمكن بأسلوبه البسيط الجذاب أن يكون مدرسة خاصة به مما جعلنى أسميه « قاسم أمين الأدب » حيث جعل المرأة المصرية محور كتاباته ، والغريب فيه أنه أجاد كتابة القصة القصيرة بنفس إجادته للرواية الطويلة .

ولا ينسى جيلنا – الجيل الثانى للروائيين – أنه مؤسس سلسلة « الكتاب الذهبى » التى أتاحت لنا الانتشار حيث كانت تطبع فى ١٦ ألف نسخة فى الوقت الذى كانت نسخ أعمالنا لا تتعدى الألفين لدى أى ناشر آخر ، كما أنشأ – مع الراحل يوسف السباعى – نادى القصة والمجلس الأعلى للفنون والآداب .

وإعجابى بقصصه ورواياته شجعنى على كتابة السيناريوهات لبعضها حين تحولت إلى أفلام كتجربتى فى « الطريق المسدود » و« إمبراطورية ميم » ، ولا أذكر أنه تدخل يومًا فى عملى أو صادر رؤيتى السينمائية .

وقد ظل طوال حياته أخًا كريمًا عذبًا أجد لديه الصفاء والحب .

« لا أحد يعرف كل شيء .. ولا أحد قال كل شيء .. وإنما بعض الشيء بعض الوقت أي الحقيقة .. إلا قليلاً ! » .

أنيس منصور

* أنيس منصور الذى أعرفه

عندما التقيت به لأول مرة فى حياتى ، كنت كالورقة البيضاء .

كان هو رئيسًا لتحرير مجلة آخر ساعة ، وكنت طالبة فى السنة النهائية بكلية الإعلام جامعة القاهرة ، أتدرب فى المجلة التى يرأس تحريرها ، وكنت أدرس بالنهار وأعمل فى أيام الإجازات وأوقات الفراغ ، وعندما طلب منا أستاذ البحث العلمى فى الكلية عمل دراسة عن شخصية أدبية صحفية كبيرة كموضوع لبحث التخرج ، لم أجد أمامى أفضل ولا أقرب من الكاتب الكبير أنيس منصور ، الذى كان مصدرى الوحيد لمادة البحث ، والذى حصلت فيه على درجة الامتياز ، وقام الأستاذ أنيس منصور بمنحى كل كتبه كهدية لى ومكافأة

على البحث الذى قدمته عنه ليكون مشروع التخرج من الكلية .

وعرفته وتعلمت منه وتأثرت به ، وصار علامة من علامات الثقافة فى بدايات حياتى ، مثلى مثل جيل كامل من الشباب الذى استحوذ عليه الكاتب الكبير لما يتمتع به من أسلوب ساحر جذاب ، فإنه يصحبنا إلى بلاد العالم وما فيها من طرائف وعجائب ورحلات فكرية ، فما أجمل الرحلات الفكرية عندما تصاغ فى قالب سهل ممتع ليس فيه صناعة أو كلفة ، إنه يتحدث إليك وحدك فى بساطة .

وعندما نقرأ أنيس منصور ونحن جالسون فى مقاعدنا أو مستلقون على سريرنا نجد أنفسنا فجأة فى الهند ، أو هونج كونج ، وفجأة نرى أنفسنا فى أدغال أفريقيا أو صقيع سيبريا .. فرحلاته المتعددة ، ممتعة ، فأنيس منصور يتميز بالأسلوب الأخاذ والفكر المتنوع فى شتى المجالات ، ويعتبر من أكثر الكتاب غزارة فى الإنتاج الأدبى والفكرى والفلسفى ، فهو مفكر وكاتب وسياسى وفيلسوف ، ليس لأنه تلميذ نجيب للأستاذ عباس محمود العقاد، ولكن لأنه أراد أن يكون كل هؤلاء .

وقد التقيت به أكثر من مرة وأيقنت أن كلماته هى أفكاره ، وأفكاره هى كلماته ، وأحاديثه معى كانت أشبه برحلات طويلة داخل أعماقه أحيانًا ، فهو– دائمًا– فى حالة ارتحال بين الأفكار والعلاقات والناس .

وذات يوم سألته : كيف تكتب ، ولماذا تكتب ، ومتى تكتب ، ومن أين تأتيك أفكارك ؟

* قال : إن كل فكرة هى مشروع للكتابة ، مشروع قضية ، وكل يوم أصحو فى الخامسة صباحًا ، أغسل يدى ولابد أن أغسل يدى وأبلل عينى بالماء وأتجه إلى المكتب ، وأزيل كل ما فوق المكتب ، كل قلم ، وكل ورقة ، وكل ما أجده يعترض عينى إذا نظرت أمامى وأطفئ نور السقف حتى إذا نظرت فلا شىء من الكتب التى على الجدران يجذب عينى ، فأنا لا أريد أن أنظر إلى شىء ، ولا أريد أن أركز على شىء ، أما الورق فلابد أن يكون أبيض بلا سطور طويلاً ناعمًا ، أما القلم فأمامى عشرات الأقلام ، لابد أن يكون حبرها أسود قاتمًا ، ناعمًا تنزلق على الورق بسهولة ، وألا تكون أسنانها مدببة ، وألا تكون غليظة ، فإن كانت ناعمة جدًّا سبقتنى على الورق ، وإن كانت خشنة أو جافة أو حادة فإنها تعرقل كتابتى ، وأنا أكتب بسرعة التفكير بالضبط ، ولذلك فالحروف كبيرة وخطى ليس واضحًا وأكثر الكلمات بغير نقط ، فأنا أكاد لا أرى ما الذى أكتبه ، فلم أرث عن والدى جمال الخط ، فقد كان خطه فارسيًّا جميلاً أنيقًا .

ويقول الكاتب الكبير : ليس من الضرورى إذا جلست إلى الكتابة أن أجد بسهولة ما أكتبه ، وعندما تتعذر الكتابة فإننى أفضل أن أقرأ فى أى موضوع ، وتمضى الساعات أستمتع بما أقرأ ، أو تمضى الساعات لا أعرف بالضبط ما الذى أقرؤه ، وفجأة أجدنى أكتب موضوعًا آخر غير الذى كان فى نيتى أن أكتبه .

وقد أجلس لكى أكتب عددًا من المقالات القصيرة فأجدنى قد كتبت قصة لا علاقة لها بكل ما كان يدور فى رأسى ، وإنما تكون فكرة هذه القصة قد راودتنى عن نفسى منذ وقت طويل ولم أستسلم لها ، ثم إذا بى أجدنى فجأة مستعدًا لكتابتها كاملة .

وكما أننى لا أطيق أن أرى أمامى وأنا أكتب ، فإننى أيضًا لا أستطيع أن أستمع إلى الموسيقى فهى تبعثرا اهتمامى وتسحبنى كموج البحر بعيدًا عن الشاطئ وقد أكون هاديًا ، وقد أكون غاضبًا ، ولكنى دائمًا أحنى رأسى للذى يجئ ويتوارد .

ولا أعرف من أين تجئ الأفكار ، ولكنها تجئ ، ولا أعرف كيف يحدث أن أكتب في جلسة واحدة ألف سطر ، وفى أيام لا أكتب سطرًا واحدًا ، وإذا وجدتنى عاجزًا عن الكتابة فإننى لا أعصر رأسى ، وعندى إحساس دائم بأن الذى كتبته من الممكن أن يكون أفضل وأطول . فما من مقال كتبته إلا أحسست أننى مخنوق تمامًا كأننى أرتديت ملابس طفل صغير ، ثم إننى حريص على أن أبدو مقبولاً وفي نفس الوقت ألا تتمزق هذه الملابس ، بعد أن أصبحت أطول وأعرض ، ثم أعود إلى الذى كتبته فأوضحه أو أضيف إليه .

أنا لست مشغولاً بالصورة النهائية لكل الذى أكتبه ، ولكن الذى يشغلنى هو ما أفكر فيه وما أكتبه الآن ولا أكاد أكتبه حتى

أنساه ، ولكن عقلى يروح ويجىء ويلف ويدور ويعلو ويهبط ويلقى ضياء على ما سبق أن رأيت وتأملت وقرأت .

وكما يحدث عندما أجلس للكتابة أن أزيل من أمامى الكتب والأقلام والورق والعقاقير لكى أرى المكتب خاليًا تمامًا ، وكما أحب أن أنظر من النافذة فلا أرى إلا مساحات لونية وضوئية ولا تتركز عينى على شىء وأذنى على شىء ، فإننى هكذا أيضًا عندما أشغل نفسى بالتهيؤ لكتابة شىء كبير ، دراسة كبيرة ، كتاب متكامل ، لا أحب أن أنشغل عنه بشىء آخر .

إننى أحتفظ فى جيبى وإلى جوارى فى فراشى بنوتة صغيرة وقلم ، فكثير من الأفكار مثل الطيور المهاجرة ، تحط على رأسى ، ولذلك لابد أن أسجلها بسرعة كأن رأسى جهاز تسجيل مفتوح دائمًا وهو يلتقط كل الأصوات على الموجات ، ولا أعرف أين مصدر هذه الأصوات ولا كيف جاءت ! لذلك فإننى أبادر بتسجيلها بسرعة ، ولكننى وجدت أن القلم والورق إذا كانا إلى جوارى نهضت رغبتى فى أن أكتب ، وهذا يقلقنى .ويباعد النوم عن عينى ، ووجدت أن كل الأفكار التى خطرت على رأسى لن تضيع ، سوف تعود فلا شىء يموت ، وإنما كل ما فى الكون يتوالد ويتواصل ويكمل بعضه بعضًا .

* * *

* قلت له : الكاتب أنيس منصور من أشهر الكتاب الذين هاجموا المرأة فى كتاباتهم حتى أنه لقب بـ« عدو المرأة » ، مثله مثل كاتبنا الكبير توفيق الحكيم إلى أن استطاعت المرأة بذكائها أن تدخله سجن الزوجية الذهبى .. فهل الذكاء صفة يجب أن تتصف بها المرأة لنجاح العلاقة الزوجية ؟

* قال : لا أحد يريد علاقة غبية .. يستوى فى هذه العلاقة أن يكون زميل أو صديق أو زوج أو زوجة ، الغباء مرفوض لأنه معوق ولأنه قبيح ، الشخص الغبى هو شخص متخلف ومرهق ، لكن من يريد أن يتسلط أو أن يتملك أو أن يرتبط بشخص لا حرية له ولا قرار له ويعتمد عليه اعتمادًا كاملاً .. لا شك أنها تكون علاقة ضعيفة متواكلة ، علاقة غبية .

أما الذكاء فهو مطلوب .. فالواحد يطلب لنفسه أن يكون ذكيًّا ويطلب فيمن حوله ممن تربطهم به أى صلة .. سواء زمالة ، أوصداقة ، حب وزواج ، أبوة ، وبنوة ، أن تكون علاقة مستنيرة ، علاقة يستخدم فيها العقل ويجد حسن التصرف . لأنه ما معنى الذكاء ؟ الذكاء معناه حسن التصرف ، فإذا كان لأحد شريك فى عمل فلابد أن يكون ذكيًّا .. بمعنى أن يحسن التصرف ولا يرتبك فى المواقف الصعبة فإذا كان هذا خاصا بالزوجة وهى أكثر ارتباطًا وأهم وأعمق ، فإن ذكاء الزوجة محسوب للزوج وليس محسوبًا عليها ، لأنه فى هذه

الحالة يختار الزوج صديقًا أو عشيرًا ذكيًّا بمعنى أنه اختار شخصًا مضيئًا ، يضيء لنفسه ويضئ للزوج أيضًا .

البعض يخاف من الزوجة الذكية .. لأنه لا يستطيع أن يتسلط عليها ، إلى جانب أن الزوجة الذكية تحسن التصرف مما يجعل لها شخصية قوية ، بعض الأزواج يخاف من الشخصية القوية للزوجة أو الندية التى تظهر للزوجة ، بينما لصالح الرجل الذكى أو الرجل المستنير أن تكون زوجته مستنيرة أيضا ، أولا لأنها تحسن التصرف وتحسن تقديره وجهوده وعمله ومتاعبه وطموحاته ، الذكاء إذا كان لصالحى لا يخيفنى وإنما إذا كان ضدى فهو يخيفنى ، ولذلك فالمثل يقول : « عدو عاقل خير من صديق جاهل » . لأن الجهل والغباء يتسببان فى إفساد علاقة بين صديق وصديقة ، لكن العدو الذكى ممكن ألا يضر ، وإنما يحسن التصرف ويعطى فرصة لى أن أستخدم ذكائى ، فما بالك إذا كان الصديق ذكيًّا .

* قلت : ما هو إذن المطلوب من الزوجة ؟

* قال : متاعب الذكاء لا تخطر على البال ، لو فرضنا الحياة الزوجية شركة .. فأيهما يفضل الإنسان أن يكون شريكه ذكيًّا أم غبيًّا ، أو عاقلاً أو مثقفًا أو عاقلاً مثقفًا . لابد أن الاختيار يقوم على الفهم وحسن التقدير . ومن معانى حسن التقدير « التضحية مثلا » لكن الذى يريد زوجة جاهلة هذا الرجل يريد

امرأة « قعيدة » أو خادمة أو عبدًا ذليلاً ، هذا رأيى . من يريد الزوجة الغبية هو رجل غبى ، لأن اختيارى هو جزء من تفكيرى .

* قلت له : ما هى مواصفات المرأة الذكية ؟

* قال : حُسن التصرف ، لكن أحب أن أؤكد أن الذكاء لا يعتبر ميزة كبيرة لأن هناك طيورًا وحيوانات ذكية ، ممكن أن يكون الإنسان عاقلاً جدًّا وحصيفًا جدًّا ولكنه لا يحسن التصرف ! مثال الحادثة الشهيرة لـ« نيوتن » وهو عقلية فذة فى مجال علمه .

كان لديه كلب صغير وكلب كبير ، وكانا يسببان له إزعاجًا ، فأقام فى الحائط فتحة كبيرة للكلب الكبير وفتحة صغيرة للكلب الصغير ، وفات عليه أن الفتحة الكبيرة للكلب الكبير يمكن أن يمر منها الكلب الصغير ! وهذا ليس غباء ، لكنه ليس على درجة كبيرة من الذكاء وإن كان يعتبر من العباقرة .

ومثال ثان : الكاتب والشاعر الأمريكى الكبير أديسون كان لديه حظيرة للأبقار ، وعندما يكون مشغولاً فى القراءة والكتابة يحب أن يتمشى ويصطاد العصافير ويلعب مع الحيوانات ، وخطر على باله أن يخرج من حظيرته أحد العجول ، فأخذ يشد أحد العجول فلم يخرج ، وجاء ابنه يحاول معه فلم يخرج ، ثم نادوا على الخادمة ، فأخرجت العجل من الحظيرة . ماذا فعلت ؟ إنها وضعت أصبعها فى فم العجل فأخذ يرضعه وخرج معها ، فهى حيلة فاتته ولم تخطر

على باله ، وهذه الحيلة قامت بها الأميرة ديانا عندما قدمت ولى العهد « ابنها » للأسرة المالكة ابنها يبكى وهى جالسة فى وسط الناس فوضعت أصبعها فى فم طفلها فاعتبره الجميع عملا بدائيا ، لكن هو عمل غريزى لأنها لم تستطع أن ترضعه ، فالطفل أخذ يرضع فى أصبع أمه وتوقف عن البكاء ، هى ذكية ولكنها فاتتهم .

وممكن يكون الإنسان عبقريًا وليس ذكيًا ، فالذكاء صفة يشترك فيها الإنسان والحيوان وليست صفة كبيرة . إنها موهبة خاصة لا نعرف عنها شيئًا .

والذكاء وحسن التفكير والثقافة والتجربة بعضها موروث وبعضها مكتسب ، كل هذه الصفات أعتقد أنه من الضرورى تواجدها كشرط لنجاح علاقة صعبة ، والعلاقة الزوجية من العلاقات الصعبة .

* * *

وأنيس منصور له رأى فى المرأة قال فيه : المرأة هى أمى وأمك ، وأختى وأختك ، وهى زوجتك ، وهى ابنتك ، إنها نصف المجتمع أو أكثر من النصف ، إنها إنسان لم يعط بعد الفرصة ليكون له تجارب وقدرة على الكفاح وعلى الحياة القاسية .

أما المرأة كصديق وزوجة فلابد منها ، ولا غنى عن المرأة أبدًا ، ولابد أن يكون لك امرأة ، لابد أنك إذا لم ترد ذلك صرخت

أصوات عالية مدوية في جسمك وعقلك وفى المجتمع الذى تعيش فيه ، ولكن لا تجعل المرأة كل حياتك مهما كانت .

ويعترف الكاتب أنيس منصور : لا تعط أمك كل الوقت ولا زوجتك ولا حبيبتك أبدًا ، أعطها بعض الوقت .. إن المرأة تكره الرجل الذى يعطيها كل وقته وتكره الرجل الذى لا يعطيها شيئًا من وقته. إعطها بعض الوقت لكى تطمع هى فى الزيادة، لكى يكون عندها أمل فى أن تراك أكثر، وأن تجلس إليك أكثر. اجعل المرأة على أمل دائمًا، اجعل المرأة تفكر دائمًا فى أن تكون لك.

* أما عن رأيه فى الأصدقاء ؟

* فيقول أنيس منصور : لابد أن يكون لك أصدقاء ، إن الحياة بلا صداقة ولا حب صعبة قاسية ، إنها باردة تمامًا كالنوم على الرصيف أو فى الشارع ، والأصدقاء هم النور والهدوء وهم الرصيد الذى تضعه فى البنك لمواجهة الأيام السوداء ، وإذا تحول الأصدقاء إلى أعداء فهم أقسى من كل الأعداء لأنهم يعرفون عيوبك ويعرفون مزاياك ، إنهم كالجنود الذين ينتقلون من معسكرك إلى معسكر الأعداء ، إنهم يعرفون مداخلك ومخارجك وأين ترابط قواتك ومدافعك وأوهامك وأحلامك وشجاعتك وخوفك ، والمثل القائل :

احـــذر عـــدوك مـــرة　　واحذر صديقك ألف مرة
فلربمـا انقلـب الصـــديق　　فـكان أعـرف بالمضرّة

وهذا معناه :

أنه يجب أن تعتدل فى صداقة أصدقائك فقد ينقلبون أعداء ، ويجب أن تعتدل فى عداوة أعدائك ، فقد ينقلبون أصدقاء هذا المثل صادق تمامًا .

وأخطر الأعداء على الإطلاق للإنسان هو نفسه ، ويقول أنيس منصور : لا تجعل من نفسك عدوًّا لنفسك ، لا تسخر من نفسك ، لا تهزأ بقدرتك ، لا تهزأ بمواهبك ، لا تيأس ، فاليأس معناه أنك لا تصلح لشىء ، لا تصلح للمقاومة ، اجعل نفسك صديقًا لك واعتمد عليها وأعطها الثقة ، وبذلك تضم صديقًا إلى أصدقائك ، وتحرم أعداءك عدوًّا قاسيًا يعرفك ولا يتركك ليلاً ولا نهارًا .

* ويقول أنيس منصور : إن الحياة التى نعيشها يجب أن نعيشها ويجب أن نقاوم وأن نكافح الموت فى كل صورة ، فالفشل موت والخوف موت والاستسلام موت ، يجب أن نعيش هذه الحياة ، وألا نحنى رأسنا إلا للشىء العظيم الشىء الصادق .

* * *

والكاتب أنيس منصور من الكتاب الذين أثروا حياتنا الثقافية بأكثر من مائة كتاب ورواية وقصة قصيرة ودراسة ومسرحية وترجمات ..

عشق القراءة والكتابة ليفيد بها جمهوره الكبير من قرائه عن طريق مواقفه اليومية أو مفاجآته الأدبية بعمل كتاب جديد ولا أعتقد أنه قال كل شيء ، ولكن يبقى هناك شيء ما لم يقله بعده ولم يقل عنه ولم يعرفه الناس ، فالكاتب أنيس منصور مهما أُلقيت عليه الضوء أو وقفت معه بين سطوره أو كلماته ، فمازال هناك الكثير والكثير جدًّا لا يزال يستحق أن يقال ويكتب عنه ، ولكننى اخترت بعضًا من أفكاره وآرائه وأقواله وأحاديثه والتى تشبه الاعترافات لى ، لكى أضعها بين دفتى كتابى الذى لا يمكن أن أُغفل فيه كاتبًا كبيرًا مثل أنيس منصور دون أن يكون كوكبًا ساطعًا من هؤلاء الكواكب المضيئة الذين أثروا بفكرهم وثقافتهم حياتنا الفكرية والثقافية فى عصرنا الحالى .

* * *

عندما تحاصرنى أفكارى
أجد نفسى أعيش مع أبطال رواياتى

فتحى غانم

* أنا كاتب كسلان جداً

هو من أكثر الكتاب الذين أثارت رواياتهم جدلاً ونقاشًا ، عندما تحولت إلى أفلام سينمائية وعندما عرضت على شاشة التليفزيون ، رغم أن ماكتبه كان خيالاً فى خيال ، إلا أن القارئ لرواياته ، والمشاهد لأفلامه ، أعتقد أنه يروى أحداثًا وقعت بالفعل .

وقد أثارت رواية « الرجل الذى فقط ظله » ورواية «زينب والعرش» كثيرًا من الجدل والمناقشات التى تربط وقائع الروايتين بأشخاص حقيقيين ، ولكن الكاتب فتحى غانم نفى بشدة أن تكون رواياته لها أى صلة من بعيد أومن قريب بأشخاص فى الواقع، بل هم من صنع خياله.

ويقـول الكاتب الكبير فتحى غـانم : عندما تؤرقنى فكرة ما ، أطلق لنفسى العنان لأن تكون على سجيتها وأقـول ما أشعر به ، فلا أبحث عـن

شيء معين فى كتاباتى . ولا أهدف لغرض ما ، وإنما كل ما أكتبه هو ترجمة حقيقية لما أحسه وأعيشه من خلال المجتمع والناس المحيطين بى .

إننى أشبه نفسى بالرحالة « كريستوفر كولمبس » عندما أبحر بسفينته أملاً فى الوصول إلى بلاد الهند ، ولكنه يفاجأ بأنه اكتشف القارة الأمريكية ! هكذا أنا – أحيانًا – عندما أبدأ فى مشروع جديد للكتابة !

والحوار مع الكاتب المبدع فتحى غانم ينقلنا إلى عوالم السياسة والفن والأدب فى « سلاسة السهل الممتنع » .

* فى البداية سألته : ما هى رؤيتك ككاتب سياسى وأديب لما يحدث فى مجتمعنا اليوم ؟

* قال : العالم أصبح قرية صغيرة ، إننا نستيقظ فى الصباح فنعرف كل الذى يحدث فى أنحاء العالم ، وهذا الإحساس بأننى محاط بكل هذا يجعلنى أسأل نفسى : أين أنا وسط كل هذا ؟ فأنا لن أكون أسيويًا أو أوربيًا أو أمريكيا ، كلما كان العالم قرية صغيرة .. شعرت بأننى يجب أن أدخل حارتى وأثبت فيها وجودى ، كلما كان الاتجاه إلى العالمية .. حدثت ردود فعل الخصوصية ، وهذه الرؤية تحتاج إلى وقت لتفهمها وتطبيقها ، ودائمًا لدى إحساس بهذه الفردية الموجودة فى الإنسان ، والتميز والاحترام الذى يجب أن يحصل عليه كل إنسان بصرف النظر عن مركزه الاجتماعى ، أو ثروته أو طبقته .

يكفى أنه آدمى ، وهذا ما جعلنى فى وقت مبكر من الستينات أكتب رواية « الغبى » وقد أعنى بالغباء ذلك الشيء المحجوب الذى لا نستطيع أن نرى ماوراءه ، وكان كل ما يهمنى هو معرفة هذا الإنسان وما يدور بداخله ، ذلك العالم الخاص جدًّا .

* قلت : من أين تستقى أفكارك ؟

* قال : عند ما أبدأ فى كتابة رواية جديدة تتحدد لى فكرة عامة لها ثم أقوم برحلة حول هذه الفكرة . وهذه الرحلة قد تلقى بى إلى شواطئ لم تكن فى خيالى مثلما حدث للرحالة، كريستوفر كولمبس الذى قال أنا ذاهب للهند ، وفجأة وجد نفسه فى أمريكا ، أحيانًا أصل للفكرة التى أريدها وأحيانًا أخرى أجد نفسى مع فكرة ثانية وأثناء الرحلة قد يتغير المسار .

* قلت : ما هى الفكرة التى تشغلك الآن . وتريد أن تكتب عنها ؟

* قال : ردود الأفعال ، بداخلى مرتبطة بما يحدث فى المجتمع الذى أعيش فيه ، مصر تعيش حاليًّا يقظة دينية بشكل حاد فى درجات من الاعتدال إلى التطرف ولها ألوان متعددة . وتاريخنا فيه الدين أساسى منذ الفراعنة ، إنه جزء من شخصيتنا ، فالإحساس الدينى لدى الأوربيين مسألة طارئة وجديدة وإنما بالنسبة للمصريين الدين جزء من شخصيتنا منذ أيام إخناتون والتوحيد حتى أن الأديرة اخترعت فى مصر ، ولا أستطيع أن أعيش فى مصر دون

أن تغلى بداخلى كل هذه الأمور كنوع من الفورات ، وفى نفس الوقت هناك عالم ثان من المادية والمصلحة والأنانية والجشع ، يحدث لهذين العالمين التقاء من خلال فكرة تدور فى رأسى حاليًا ، وهذا الاصطدام يصنع بداخلى فنًا.. ففى هذه الأيام أتابع الصراعات الموجودة فى كل البشر المحيطين بى !

* قلت للكاتب الكبيرة : كيف كانت بداية رحلتك فى الكتابة ؟

* قال : أول خطوة لى فى رحلة الكتابة كانت فى مواجهة الموت ، كنت فى سن المراهقة فى الثانية عشرة من عمرى وكان يوم عيد – ثانى أيام عيد الفطر – أرتدى بدلة ضابط وفى يدى سيف من صفيح أبارز به أخى الذى يصغرنى بعام ونصف العام ، وكانت له بدلة ضابط وفى يده سيف من صفيح ، ورأيت أبى عائدًا إلى البيت ساعة الغداء فصعدت خلفه حتى دخلت وراءه حجرته لم أتبين أنه يعانى من شىء لم يطلب مساعدة ، كان يخلع سترته عندما سقط أمامى على السرير ، وبعد دقائق ارتفع العويل فى البيت فقد مات ، ضربة غادرة لم أستعد لها .

كنت لا أعرف أن مثل هذا القدر يصيب البشر فى عالم مازلت فيه حدثًا صغيرًا ، وكان لابد أن تؤثر الصدمة فى نفسى ، ولعلى أردت أن أتقمص شخصية الأب الغائب ، وكان قد قضى عامه الأخير فى تأليف كتاب عن « جان دارك فى سبيل الوطن » وكنت أذهب

معه إلى مكتبة النهضة فى شارع المدابغ ليراجع ملازم الكتاب قبل نشره .

جلست على مكتبه وامتدت يدى إلى أقلامه وأوراقه وتطلعت إلى مكتبه الكبير ثم كتبت قصيدة رثاء للعقاد نشرتها الصحف فالتفت حولى أصدقاء والدى من بينهم عبد الرحمن صدقى وعلى أدهم وطاهر الجبلاوى وسيد قطب ، وورثت من أبى حلما لم أستيقظ منه حتى الآن .

دخلت عالم الكتابة .. ذلك العالم السحرى حيث التعبير عن أحزان الموت بأبيات من الشعر أفضل من التعبير عنها البكاء والدموع ، وحيث صداقة الشعراء والأدباء وأصحاب المبادئ السياسية تسمو فوق صدمات الموت وتدعو إلى مواصلة الحياة . أعتقد أن هذه هى البداية المباشرة لدخولى أرض الأدب والقلم ، وقد تبينت أنى أحمل معى أدوات الرحلة ومعدات خوض المغامرة منذ الطفولة .

وعندما سألت كاتبنا عن أهم القراءات التى أسهمت فى تكوين فكرة فى بداية حياته قال لى : أول ما نبهنى إلى أدب الغرب كان مصطفى لطفى المنفلوطى فى ترجمته مجدولين «تحت ظلال الزيزفون» وقرأتها مبكرا بينما كنت أقرأ قصص أليس فى بلاد العجائب وسندريلا، ثم قرأت روايات الجيب والقصص البوليسية: رد كامبول وارسين لوبين وشيرى بيبى، وبالمصادفة قرأت ترجمات البعث

لتولستوى، والجريمة والعقاب لديستوفسكى، والفرسان الثلاثة لالكسندر ديماس، وغادة الكاميليا لألكسندر ديماس الابن، ثم انفتحت أمامى دروب القراءة بعيدة عن جيوش الاحتلال وحماقات الباشوات، وأدركت أننى فى أشد الحاجة إلى تعلم اللغتين الإنجليزية والفرنسية كما تعلمت العربية.

كان لابد أن أفعل ذلك وحدى ومداومة القراءة بصوت عال حتى ولو لم أفهم حرفًا مما أقرؤه ، وكلما سيطرت علىّ أداة اللغة .. اندفعت فى قراءة المزيد من الكتب ولم يمض وقت طويل قبل أن أتبين أن الثقافة العربية والغربية تتفاعلان ولا يوجد حد فاصل بينهما ، وساعدنى على إدراك ذلك طه حسين وتوفيق الحكيم والعقاد .

الأول بحديثه عن حضارة البحر المتوسط التى تجمع بين التيار الثقافى اليونانى والتيار العربى الإسلامى والتيار الفرنسى أو اللاتينى الحديث . والثانى بحديثه عن إمتزاج الفنون الأدب والرسم والموسيقى والنحت والمسرح ، أما العقاد فكانت مراجعاته للآداب والفنون العالمية بمثابة دائرة معارف كسر كل الحواجز واجتازت كل البوابات بين الشرق والغرب ومعارف الحاضر والماضى والمستقبل .

* قلت : هل أبطال رواياتك تصنعهم من خيالك أم من الواقع ؟

* قال : الكتابة لدى لها علامات ، ولكى أكتب رواية يأخذ منى هذا المشروع وقتًا طويلاً قد يصل إلى ثلاث سنوات ، وقد تحاصرنى

مجموعة أفكار أكتبها كقصص قصيرة قبل أن أشرع فى كتابة الفكرة الرئيسية ، والأشخاص الواقعيون أستمد منهم تساؤلاتى حول اللغة ، والتغيير الكبير الذى حدث فى سلوكيات الناس من وسائل التخاطب التى تحدث بيننا وبين بعض .. فهناك كلمات يقال : إنها مبتذلة ولكنها صارت هى وسيلة التفاهم .

هناك شىء ما يحدث جعل الناس تستخدم مثل هذه التعبيرات ولابد لى من معايشة هذه السلوكيات الجديدة للكتابة عن النماذج الجديدة التى ظهرت من المجتمع ، فعندما أكتب رواية ما يجب أن أضع فى اعتبارى التغييرات اللغوية التى أستمدها من الواقع ، كنا فى الماضى عندما نكتب رواية كانت المشكلة كيف أصبغها ؟ هل باللغة العربية أم باللغة العامية ؟ وتوصلت إلى الكتابة باللغة الخفيفة التى تصل إلى كل الناس .

* قلت : هل تحتاج معايشة مع أبطالك قبل استحضارهم على الورق ؟

* قال : فى الأسبوع الماضى كنت أسير بسيارتى تحت نفق سميراميس وكان سائق تاكسى يسير للخلف دون الالتفات لسيارتى فحدث أن صدمته ، توقفت بسيارتى وقال لى السائق : آسف إنها غلطتى ، ففى الأحوال العادية كان المفروض أن أكمل مشوارى وأسير ، ولكنى أصررت على الذهاب معه إلى مستشفى قصر العينى

للاطمئنان عليه وطلبت إحضار الشرطة ، ولكنه رفض لأنى علمت فيما بعد أن رخصة سيارته قد سحبت منه وأنه يعانى من عدة مشاكل وطلبت له الإسعاف واطمأننت عليه بنفسى وأعدت له الرخصة وأصبحنا أصحابًا وطلبنا من الشرطة أن تترك الصديقين دون إزعاج ، وهذه الحادثة الواقعية هى مشروع لفكرة قصة قصيرة ولن أقول لك حجم الثروة اللغوية التى حصلت عليها نتيجة هذه الحادثة من أمين الشرطة إلى سائق التاكسى إلى المستشفى وما يحدث فيها .

* قلت للكاتب الكبير : هل تفكر فى السينما عندما تكتب أعمالك الأدبية ؟

* قال : السينما شىء آخر ، لم أقدم أعمالاً للسينما بشكل مباشر ، ولكن كانت لى تجربة واحدة فى فيلم إنتاج مشترك عقب ثورة يوليو اسمه « عبد الله الكبير » وكان رمزًا للملك فاروق وطرده من الحكم ، وكان معى مجموعة من كتاب السيناريو الأمريكان ، أيضًا هناك سيناريو للسينما اشتركت فيه مع الكاتب الكبير محمد التابعى فى عام ١٩٥٤ عن قصة الكاتب يوسف عز الدين عيسى هى « صوت من الماضى » وقام ببطولتها أحمد رمزى وإيمان .

* قلت : ما رأيك فى أعمالك التى تحولت إلى سينما وتليفزيون ؟

* قال : إن مجال السينما والتليفزيون رؤية أخرى ويجب أن أؤكد على هذا المعنى ، لو تصورنا أنه من الممكن تحويل الرؤية الأدبية كما هى

مكتوبة فى الرواية تمامًا ونقلها إلى السينما أوالمسرح أو إلى التليفزيون ، فهذا تصور خاطئ ومستحيل ، لأن الكتابة علاقة خاصة بين القارئ والكاتب ، بينما العلاقة من خلال الفيلم يدخل فيها مئات الأشخاص لتكوين المشهد وتمثيله وكتابة السيناريو والديكور والإضاءة والتصوير . فمشهد السينما يعبر عن كل هؤلاء ورؤياتهم ، ومن هنا يصبح العمل الأدبى عملاً فنيًا جديدًا منفصلاً تمامًا عن العمل المكتوب ومحاولة المقارنة بينهما محاولة ساذجة .

ولكن الذى أؤكده أنه عندما يهتم المخرج بالعمل يخرج العمل بشكل ناجح . فمثلاً فى رواية « الرجل الذى فقد ظله » عندما كتب لها السيناريو فيصل ندا وأخرجها للتليفزيون جلال الشرقاوى وشاهدها المخرج كمال الشيخ طلب منى تقديمها فى السينما ، وبالفعل تم تحويلها إلى سينما بطولة كما الشناوى والفنانة ماجدة ، ونالت نجاحًا كبيرًا ، وأثارت جدلاً أكثر حول شخصية الكاتب الصحفى الذى اعتقد البعض أنه الكاتب محمد حسنين هيكل .

وفيلم « الرجل الذى فقد ظله » كان أول فيلم يكسر حاجز السياسة فى السينما عندما تناوله السيناريست على الزرقانى ، وركز على أحد أجزاء الرواية المكونة من أربعة أجزاء ، وقامت الفنانة ماجدة بأداء دور « مبروكة » وقام كمال الشناوى بدور الصحفى الذى يصل إلى قمة الصحافة ، الفيلم نجح جماهيريا وأصبح فى ذاكرة السينمائيين ،

ثم توالت نوعية هذه الأفلام مثل فيلم « الكرنك » قصة الكاتب الكبير نجيب محفوظ .

وكما أحدث فيلم « الرجل الذى فقد ظله » تساؤلات حول شخصية الصحفى ، حدث نفس المناقشات والتساؤلات لشخصيات رواية « زينت والعرش » وقد اتصل بى شخص يؤكد أن شخصية دياب هى شخصية (فلان) وقلت له : إن كل شخصياتى من واقع الخيال ولكن الأحداث مستمدة من واقع حياتنا .

* قلت : لكن أين الواقعية فى روايتك ؟

* قال : الواقع موجود ولكن الوقائع غير موجودة ، الواقع لاشك أنه موجود فى بعض النماذج التى شاهدتها وعايشتها ، كانت هناك نماذج حاولت أن تقوم بإصلاح باسم الثورة ، وتصرف بنوايا حسنة وطيبة ولكنها كانت تصرفات خاطئة .

وقد طلب منى أحد رؤساء التحرير كتابة المرحلة الحالية من الفترة التى تعيشها صحافة اليوم كجزء ثالث بعد « الرجل الذى فقد ظله » و« زينب والعرش » ولكن الذى أفكر فيه حاليا الصراعات بين الماديات والدين والتطرف .

* قلت : هل السينما تعطى شهرة للأعمال الأدبية ؟

* قال : نعم .. بالنسبة لرواية « زينب والعرش » عرفتنى بالناس وخاصة الدول العربية لأن نطاق التليفزيون أكثر انتشارًا حتى أن

البعض منهم أطلق على مراكبهم السياحية اسم زينب والعرش ، وفى تونس عرفونى بأنى صاحب زينب والعرش أيضًا لكن مهما كانت القراءة فجمهورها محدود .

* قلت : هل هناك عمل واحد يخلد كاتبه ؟

* قال : لكل كاتب أعمال مميزة ، ورواية « الجبل » كانت إحدى علامات انتشار أعمالى ، ثم جاءت رواية « السخن والبارد » ثم تلتها «زينب والعرش» ثم « الأفيال » ، التى كثر حولها النقد ، ورواية « حكاية تو » أخذت اهتمامًا كبيرًا من النقاد لأنها كانت تدور حول التعذيب فى السجون ، أستطيع أن أقول هذه هى المعالم الأساسية فى كتاباتى وكان وراءها اهتمام كبير من الناس .

* قلت : ما الذى تبحث عنه من خلال أعماقك ؟

* قال : أنا لا أبحث عن شىء ، أنا لست داعية ، وإنما الذى يلح على أجد نفسى منطلقا على سجيتى وأقول : ما أشعر به ، فإذا لم تكن بداخلى هذه المشاعر ، فأنا لا أكتب عنها . ودائمًا هناك فكرة أو موقف ، وما نعيشه من صراعات يخلق بداخلى نوعا من التحدى للتصدى لهذه الماديات والصوفية والشهوانية ، فأكتب واسأل نفسى : ما حقيقة هذه التصرفات ، وما هى الدوافع ؟ ثم أبدأ فى الدخول فى هذه « السكة » ، ثم أبدأ بعمل جولة داخل رأسى ثم

أعمل إجابات .. بمعنى أننى أكون قد فهمت ووجدت فى رأسى ما أريد أن أعبر عنه ويكون الخلاصة « رواية » .

* قلت : بعيدا عن السياسة والأدب .. ما الذى يؤرقك كإنسان ؟

* قال : أنا إنسان عادى بصرف النظر عن الكتابة ، وتؤرقنى أشياء تافهة ، مثل أكل النشويات والحلويات والرجيم والسمنة والأكلات التى فيها « كالورى» وما الذى يجب أن أتناوله حتى لا أصاب بالسمنة . كما أننى أحب لعبة الشطرنج ، وأجد فيها وسيلة للهروب من بعض واجباتى العائلية والمجاملات الأسرية .

* قلت : هل هناك قراءات معينة تقوم بها كاسترخاء لأفكارك ؟

* قال : الروايات البوليسية .

* قلت : هل تتابع حركة السينما والمسرح والتليفزيون ؟

* قال : فى الوقت الحالى حركتى فى الخارج قليلة ، ولكن تعجبنى أعمال محمد صبحى ، ومن النجوم التى أحبها : عادل إمام وأحمد زكى ، فأنا اعتبرهما مواهب كبيرة كزعيم أكثر منها كفنان ، والناس تنتظر منه فى أعماله أن يأخذ مواقف لها فى الحياة مثل السخرية من السلطة أو السخرية من نفسه وضعفه أمام السلطة ، هذا التكوين استطاع أن يقدمه عادل إمام فأيقظ بها الكثير من الوعى لدى الناس ، أما أحمد زكى كممثل قدراته على تقديم نماذج مختلفة مبهرة .. إنه يستطيع أن يتقمص شخصياته وكأنها حقيقة .

* قالت : هل تكتب يوميًا ؟

* قال : أنا كسلان في الكتابة ، ولكن أكتب في حالتين .. إما أن يكون لدى إحساس داخلي بأنني يجب أن أكتب بدافع نفسي لأنني أريد أن أعبر عن شيء ملح بداخلي ، وإما أن أكتب بسبب موضوع معين مطلوب للنشر ، وقبل هاتين الحالتين بثانية واحدة لا أكتب ، كل ما يمكن تأجيله في الكتابة أؤجله .

* قلت : هل هذا خوف من الكتابة ؟

* قال : الخوف مستمر ، أحيانًا يصبح خوفًا مرضيًا ، عندما كنت أكتب رواية « ست الحسن والجمال » كنت أطلب من كل من أراه أن يقرأها ، مع كل عمل جديد أكتبه أشعر بالرعب .

* قلت : من أول قارئ لفتحي غانم ؟

* قال : ابني أحمد دائمًا آخذ رأيه في كتاباتي ، ابني عمره ٢٦ عامًا ويعمل مساعد مخرج ، وهو خريج الجامعة الأمريكية قسم علوم سياسية ولكنه أحب السينما فعمل في الإخراج كمساعد مخرج ، واشترك مع رأفت الميهي في فيلم « سيداتي انساتي » .

* قلت : ما الذي تنصح به ابنك ؟

* قال : لا أنصحه أبدًا ، ليس لدى وصايا عليه ، أنا آخذ رأيه في أعمالي أكثر منه فأنا أشعر بأنني الذي أحتاج إليه أكثر ، فأنا أنظر له على أنه الجديد دائمًا .

* قلت : وما رأيك فيما يحدث فى السينما اليوم ؟

* قال : حركة حائرة ، لا تعرف رأسها من قدمها وخاصة الحركة الخاصة بإدارة المشاريع الفنية وعمليات التمويل ، لاتوجد ثقة !

* قلت : هل الجدد لا يفهمون ما يريدون ؟

* قال : مازالوا يدقون على الأبواب .

* قلت هل لزوجتك رأى فى أعمالك ، وهل تشاركك أفكارك ؟

* قال : لها رأى من بعيد ، ولكن لها رؤية باستمرار فى الحركة السينمائية ، فهى تسافر معى فى الخارج تتابع كل الأفلام الجديدة ، لكن بالنسبة لأعمالى الأدبية والروايات ليس لها اهتمام .

* قلت : هل تقرأ بنفسك أعمالك بعدما تنتهى منها ؟

* قال : قراءة الأعمال بعد أن أنتهى منها عملية صعبة جدًا ، فأنا أقرأ ما أكتبه .

* قلت : أيهما كان أسبق فى حياتك ككاتب السياسة أم الفن ؟

* قال : فى الحقيقة السياسة هى التى لبستنى منذ أنا ولدت لأن والدى كان سياسيًا ووفديًا وكانت له علاقة صداقة مع النقراشى باشا وأحمد ماهر باشا ، وقد توفى والدى عام ١٩٣٦ واستمرت علاقتى بأصدقائه الذين كانوا يحضرون أعياد ميلادى وأنا طفل صغير .

والدى تعرض لمشاكل سياسية لأنه كان وفديًّا ، وكان يكتب مقالات سياسية فى جريدة الأهرام بخط والدتى وبإمضاء « مطلع » حتى لا يتعرف عليه أحد ، وكان صديقًا للعقاد وله مؤلفات أدبية من بينها «قصة حياة جان دارك» ، وعندما توفى كان عمرى ١٣ عامًا وأصبح أصدقاء أبى هم أصدقائى وكانوا سعيدين بى وعشت فترة الجامعة وسط الغليان الذى سبق الثورة ، وكان الشبان إما من الأخوان أو شيوعيين أو وفديين أو من أنصار الكتلة مثل موسى صبرى ولكننى لم أنضم إلى أى اتجاه رغم إقناع أصحابى بهذه الاتجاهات والتيارات السياسية المختلفة .

كان لدى عزوف عن السياسة لأننى تعاملت مع كبار السياسيين وأنا طفل فقدت درجة الهيبة لهم ولتياراتهم ، كما أن تجربة والدى جعلتنى حذرًا فلم أدخل السجن أو المعتقل فى حياتى .

كانت السياسة بالنسبة لى عملية فرجة جعلتنى أكتشف الرؤية بصورة أوضح للمجتمع ، وعرفت أن أحسن رؤية للمجتمع ليست رؤية السياسى وإنما رؤية الأديب، وعندما وصفت العلاقات بين العاملين فى الصحافة والسلطة من خلال رواية الرجل الذى فقد ظله ورواية زينب والعرش ، كانت الرؤية أصدق مما لو كنت تناولت هذه الموضوعات من خلال مقالات سياسية أدافع فيها عن وجهة نظر معينة لو حدث هذا لما حملت نفس الاقناع والتأثير بالنسبة للجماهير .

الإجابة الصعبة دائما نجدها فى الأدب وليس فى السياسة ، دائمًا رؤية الأديب أصدق فى التعبير من رؤية السياسى ، وهذا الذى جعل أفلاطون يقول : إن الحكم فى الجمهورية هو الشعر والأدب وليس السياسة ، وأرسطو كان يشبه الدولة بالإنسان .. أقدامه السياسة ، وبطنه وصدره المشاكل الاجتماعية ، ورأسه الحكمة والشعر والأدب .

* بردان والرعشة معذبانى فى عز الشتا
* ومش لاقى حبة دفا تجمع أوصالى المشتتة
* سألت الحكيم ألاقى الدفا الحقيقى فين ؟
* قاللى الكلمة الحلوة تحيى النفوس الميتة !!

بيكـــار

* **أقرب موديل إلى نفسى هو بيكار نفسه .**

* بيكار معزوفة إنسانية نادرة ، فهو مصور وشاعر وعازف ومعلم موهوب ، عاشق للحياة ،يرى فى كل شىء قبيحًا بعضًا من الجمال ، ولا أعرف هل هذه هى المثالية الخالصة أم أنها المثالية الممزوجة بالرومانسية؟ ! إذا رسم وجه إنسان فهو جراح يعطى له سحره الخاص ، يخجل عندما يبيع لوحة من لوحاته وسعادته تكمـن فى الرســم .

بيكار وتر منفرد يعزف على أى لحن صعب، شاهد سيد درويش وعزف ألحان الموسيقار محمد عبد الوهاب ، وعشق أغانى عبد الحليم حافظ .

كانت بدايته الفنية عن طريق الموسيقى والغناء، رغم ممارسته للرسم التلقائي منذ طفولته، وبراعته فى العزف على العود وهو فى الثامنة من عمره جعلت بعض الأسر الثرية تطلب منه تعليم بناتها الموسيقى، ومن هنا اكتسب ملامح الأستاذية المبكرة .

تعلم على يد الفنان أحمد صبرى فن البورتريه ، وتدرج فى وظائف التدريس بالمدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية ، وفى عام ١٩٤٢ أصبح أستاذًا بكلية الفنون الجميلة حتى طلب منه الصحفى الكبير مصطفى أمين أن يترك التدريس ويتفرغ للصحافة ، وسافر كسندباد للصحافة المصرية يسجل بقلمه وريشته بلاد العالم .

وبين الشعر والرسم والعزف على آلة البزق ، عاش الفنان الكبير بيكار يكتب ويرسم ويعزف بلا تردد ، وقد اعترف لى قائلاً : أنا لست شاعرًا أو زجالاً ولكنى أصنع كلامًا موزونًا ذات قافية بجوار الصورة حتى لا أحاسب حساب الشعراء ، وتدرجت من الزجل إلى أن وصلت مع تأملاتى إلى شكل الرباعيات وهى لون جديد من الفن الصحفى ، تتعاون فيه الكلمة مع الخط فى تقديم بوكيه صغير مختلف عن المألوف ، أما العزف على آلة البزق فأنا أصلاً عازف عود جيد جدًا هويت العزف عليه منذ طفولتى ، لكن العزف على آلة البزق عرفته فى سن مبكرة فى حياتى بسبب سماعى للعازف السوري عبد الكريم وبهرنى بأنغامه على هذه الآلة ، فقررت أن أعزف عليها وأصبحت أشهر عازف آلة بزق بين أصدقائى ، أعزف لهم فى جلساتنا الخاصة أو فى مناسبات اجتماعية .

وآلة البزق تشبه البجعة شكلها مميز .. لا هى « ماندولين » ولا هى « عود » ، لها طعم مختلف وهى أصعب من العود فى

تحريك الأصابع على أوتارها ، إننى أعزف فى أى وقت ، إنها هوايتى المفضلة ، إنما الرسم مهنتى .. فقد أرسم فى أوقات غير الأوقات التى أخصصها للرسم ، لأنه مطلوب منى رسم معين فى وقت معين لمناسبة معينة ، وما أصعب أن يكلَّف فنان بعمل معين فى وقت محدد .

* قلت له : هل هناك صراع بين الفنان والصحفى بداخلك ؟

* قال لى : هناك فرق كبير بين الرسم المطلوب منى كصحفى والرسم الذى أقوم به كفنان لنفس الموضوع الواحد ، بمعنى .. حدث مثل « حرب أكتوبر » أنا كفنان أُقدم له رسمًا ما بوجهة نظر خاصة ، ثم تأتى وزارة الدفاع وتطلب منى رسمًا لنفس المناسبة ، فقد أرسم الأول بإحساس تلقائى ، والرسم الثانى بإحساس المكلَّف ويكون الفرق كبيرًا بين الرسمين والإحساسين .. لكن هذا الصراع جزء من حياة الفنان الصحفى .

* قلت له : لكل فنان عادات أو طقوس معينة يؤديها قبل الشروع فى العمل الفنى ، فهل لديك طقوس محددة تؤديها قبل دخولك مرسمك ؟

* قال ضاحكًا :ليس لدى أى طقوس ، ولأننى فى الأصل رسام صحفى ، فأنا أرسم الواجب المكلّف به كالتلامذة وهو أسخف أنواع

الرسم ، أو الرسم المطلوب منى فى لوحات البورتريه ، لكن الرسم غير المكلف به يكون من أفضل أنواع الرسم فى حياتى وأمارسها فى تأملاتى المرسومة كل يوم جمعة فى جريدة الأخبار .

ذكرياتى مع سيد درويش والموسيقى

* قال لى بيكار : إننى أحببت الموسيقى منذ كنت طفلاً صغيراً فى التاسعة من عمرى ،وأول من جعلنى أعشق هذا الفن الذى عاش فى دمى حتى الآن هو الشيخ سيد درويش الذى شاهدته لأول مرة فى حياتى وأنا طفل أتعلم الغناء فى مدرستى الابتدائية فى الإسكندرية ، ولم تحمل ذاكرتى من ملامح سيد درويش الشكلية إلا القليل ، فما أذكره أنه كان قصير القامة ممتلئ الجسم قليلاً ويرتدى الجبة والقفطان والعمامة ذات الشال الأبيض الملفوف حول طربوش أحمر ، وذات يوم أرادوا أن يعلمونا فى المدرسة نشيد « بنى مصر هيا أدعو للمجد » ، وجاء لنا شيخ معمم يقوم بتحفيظنا هذا النشيد وعرفت فيما بعد أنه الشيخ سيد درويش .

أنا عاصرت سيد درويش ورأيته فى حياتى وأحببته أكثر بعد ما عرفت طعم الموسيقى ، وعندما جئت إلى القاهرة لاستكمال دراستى الجامعية والتحقت بكلية الفنون الجميلة ، كان هناك منزل فى شبرا أمام الأتيليه الذى كنا نذهب إليه أنا وزملائى للتدريب اليومى على الرسم ، وكان ينبعث من هذا المنزل صوت سيد درويش من خلال

جهاز « فونوغراف » وأتذكر أغنية « يا فؤادى ليه بتعشق » وكنت أذوب فى معانى وألحان هذه الأغنية ولا أستطيع حبس دموعى حتى الآن عندما أسمعها ، سيد درويش لم يكن يعزف ألحانًا وإنما كان يعزف مشاعر .

* قلت له : هل تفضل سماع الموسيقى الشرقية ؟

* قال : إننى أسمع كل أنواع الموسيقى من الكلاسيكية الغربية حتى موسيقى الربابة « لمتقال » وأفضل سماع الراديو لأنه يتيح لى سماع الموسيقى فى أى وقت ، ولا أشعر بالتناقض مع ذاتى فى عدم حضورى حفلات الكونسرتات الموسيقية لأنى أفضل سماع الموسيقى وأنا مغمض العينين ، والراديو هو الجهاز الوحيد الذى يحقق لى هذه المتعة .

* قلت : أيهما يستهويك أكثر الموسيقى أم الرسم ؟

* قال : الاثنان معًا .

* قلت : هل رسمت بورتريهات لمشاهير الشخصيات ؟

* قال : لم أرسم فى حياتى شخصية واحدة مشهورة ، أنا لا أحب رسم المشاهير ، هذه الوجوه تجعلنى أشعر « بالكلفة » ورسمى لوجوه عادية من قاع المجتمع تجعلنى أشعر بالحرية ، وجه طفل ، أو وجه بائع متجول فى الشارع تستهوينى أكثر من طلب رسم « فلان الفلانى » .

* فقلت : هل اضطررت يومًا لرسم بورتريه ؟

* قال آسفًا : مرتين ، وكان من باب الشفقة ، وظهرت هذه الأحاسيس فى اللوحتين .

* قلت : ما الذى يجذبك فى ملاح الوجه ؟

* قال : شيئان ، الجانب التشريحى للوجه ، والجانب التعبيرى ، فهناك امرأة جميلة ، تحمل كل المقاييس الجمالية لكن فيها برود كتمثال الشمع ، هذه الوجوه يصعب على رسمها ، على عكس الوجوه التى تشع إحساسًا وتعبيرًا عما يحدث بداخلها لتحدد ملامح شخصيتها .

* قلت : كم يستغرق منك رسم البورتريه ؟

* قال : من كثرة عملى للبورتريه ، أصبح البورتريه النصفى يحتاج منى خمس جلسات ، والبورتريه الكلى يأخذ منى تسع جلسات وكل جلسة تستغرق ساعتين .

* قلت : من هو أستاذك فى فن البوتريه ، وما الذى تعلمته منه ؟

* قال بلا تردد : الفنان أحمد صبرى وببساطة علمنى أن الفن ليس سهلاً وأن التجويد أصعب ، وعلمنى الفرق بين التجويد والفبركة ، وقد عاصرته وهو يرسم البورتريه ، وقد رسمنى وأنا أقوم بالعزف على العود ، وقد يكون الفرق هو الذى حدا بأستاذى أن يرسمنى فالفرق طقس وملمح إنسانى قبل أن يكون ملمحًا شخصيًا ، وصارت صورة رسم الأستاذ لتلميذه أحد لوحات

المتحف المصرى الحديث ورأيت فيها معاناة فنان البورتريه بنفسى خلال رسم أستاذى لى هذا البورتريه .

* * *

ومن أكثر الفنانين الذين تأثر بهم بيكار فى حياته الفنية ولعبوا فيها دورًا هامًا فى إنتاجه الفنى كثيرون ، وقد وضع بعضًا منهم فى كتابه « لكل فنان قصة » الذى روى فيه انطباعاته الذاتية ، ويرى بيكار أن القارئ لا يهمه خطوط أو ألوان مايكل أنجلو ، وإنما الذى يهمه حياته الخاصة والظروف التى جعلت منه فنانًا معروفًا ، ومن بين هؤلاء الفنانين رمبرانت وروبنز وفان جوخ وجويا وبيكاسو وموديليانى ومحمود سعيد ومحمود مختار .

ومن أكثر الفناين إثارة فى حياة بيكار كان ليوناردو دافنشى الذى قال عنه : إنه من أكثر الفنانين . روعة وقال عن لوحته الشهيرة « الجيوكوندة » فى كراسة مذكراته : إن جميع الحواس لتتمنى أن تلتهم صاحبة هذه اللوحة التهامًا وخاصة هذا الفم الرشيق الذى يشتهى كل جسد أن يكون مثله .

واستطرد الفنان فى مدح لوحته كما لم يمتدحها أحد من مقرظيه من قبل ولا من بعد !

ويقول بيكار : لا غرابة فى أن يفتتن الفنان بروعة لوحته التى استغرق فى صنعها أربع سنوات كاملة والتى يدعو الموسيقيين والمهرجين

إلى مرسمه ليبعثوا البهجة فى نفس « موناليزا » ، أثناء جلوسها أمامه حتى تظل عالقة بشفتيها أشهر وأجمل ابتسامة عرفها التاريخ !!

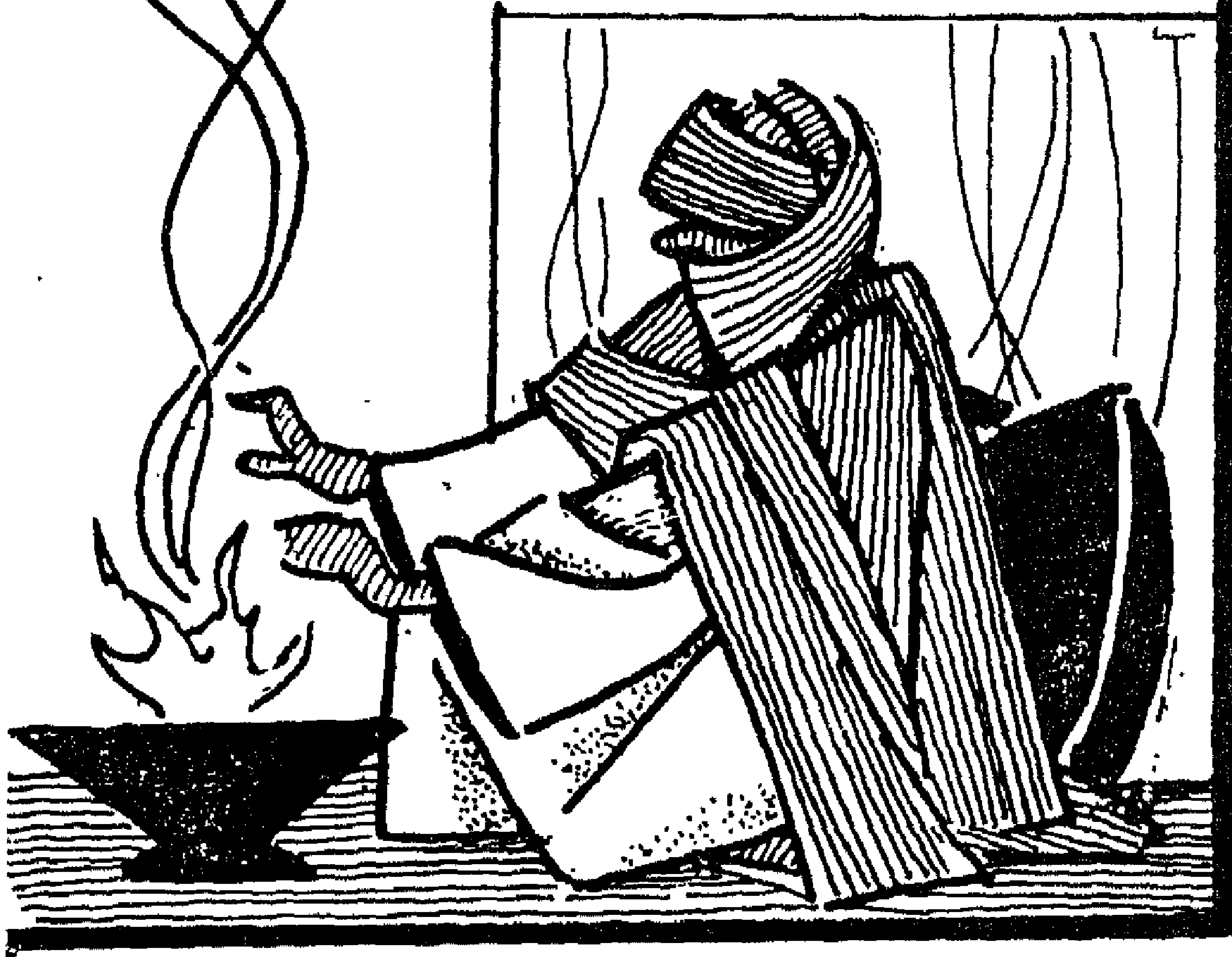
أول سندباد صحفى

وما لا نعرفه عن الفنان بيكار أنه كان أول سندباد صحفى سافر إلى بلاد العالم المختلفة يغمس ريشته فى محبرة ألوانه ، ليكتب ويرسم العالم من وجهة نظره ، وقد قال لى عن سفرياته : أنا أول وآخر سندباد صحفى .. لقد أجبرنى الكاتب الصحفى على أمين على الاستقالة من عملى كأستاذ فى كلية الفنون الجميلة لأتفرغ للصحافة فى جريدة الأخبار ، وقال لى : سافر وارسم واكتب ، أختار البلد والزمن الذى يعجبك ، وسافرت وكتبت ورسمت وعملت صحافة الرحلات وهى غير أدب الرحلات الذى قام به الكاتب الصحفى أنيس منصور فى كتابه حول العالم فى ٢٠٠ يوم ، كنت أكتب وأرسم وأنقل حياة شعوب كاملة على الورق ، ومن هنا أصبحت بحق (عين شايفة) .

* والورق والألوان فى حياة الفنان عنصران هامان لتواصله بين ذاته والعالم الخارجى ، وحساسية بيكار لا تكمن فى لمسات ريشته مع ألوانه على لوحاته ، ولا فى كلماته بين سطور مقالاته فى الصحف وإنما حيرته مع الورق قوية جدًّا ، ومع بداية أول عمل له فى الكتابة من خلال كتابه الأول « لكل فنان قصة » قال عن الورق : أطوف

- بردانه والرعشة معذباني فى عز الشتا
- ومش لاقى هبة دفا تجمع أوصالى المشتتة
- سألت الحكيم ألاقي الدفا الحقيقي فين؟
- قاللى الكلمة الحلوة تحيي النفوس الميتة!!

بيكار



العالم في سفن من ورق ! أجفف العرق بالورق ، أتسلق جبال المعرفة بجبال من ورق .. أشترى غذائى وكسائى وراحتى بل وعذابى بعملة من ورق ، أصبحت مثل حشرة « العثة » التى لا تعيش إلا فى الورق وبالورق ، وترتفع تلال الورق من حولى لتصبح السكن والكفن والفراش واللحد وسجنًا شاهق الجدران والقضبان والقلق ، أكاد أختنق .

أطمع فى طوق نجاة ينجينى من الغرق .

ويغرق بيكار فى الحياة والناس ليطالعنا كل أسبوع على تلك اللوحات المرسومة على الورق من تأملات طويلة عاشت بداخله أيامًا وليالى وربما سنوات يقدمها فى صورة زجل ورباعيات ، يقف أمامها القارئ ساعات طويلة يبحث لها عن إجابة فيجد إجاباتها تارة بداخله ، وتارة أخرى يلوذ بالصمت ويطلق العنان للأفكار ، فكلماته تشبه السياط الذى يلهب الذهن والروح معًا بلا جروح أو دماء .

ومن الكلمات المرسومة ذات المعنى العميق يكشف بيكار عن تأثير الكلمة الطيبة فى النفس التى تشبه فى الحقيقة إحياء النفوس الميتة عندما قال :

* بردان والرعشة معذبانى فى عز الشتا
* ومش لاقى حبة دفا تجمع أوصالى المشتتة
* سألت الحكيم ألاقى الدفا الحقيقى فين ؟

* فاللى الكلمة الحلوة تحيى النفوس الميتة !!

وفى مكان آخر يجد بيكار أن الإنسان الشريف النظيف لا يجد سهولة فى كسب عيشه وسط تلال النفاق والافتراء والرياء عندما يقول :

* ياما النفاق يا ولدى والافترا والرياء
* ظلموا ناس كتير فى الحياة أبرياء
* لكن الشريف النظيف لو توجوه بالشوك
* يصير الشوق على جبينه تاج كبرياء !! !

ومن خلال هذه الكلمات التى يرسلها إلينا بيكار من عالمه الخاص .. عالم التأملات والأمنيات الرومانسية ، نجد فيها بعضًا من الأمل أحيانًا وبصيصًا من التفاؤل فى المستقبل .

* قلت له : رسمت نفسك أكثر من مرة فما السبب ؟

* قال باسمًا : هذه حقيقة لا أستطيع الهروب منها ، وهى ليست نرجسية ، وإنما هى نوع من المذاكرة ، فأحيانًا أحتاج إلى موديل رخيص وسريع تحت أمرى فلا أجد هذا الموديل إلا فى نفسى فأقوم على الفور برسمى ..

* قلت : وهل تعرف نفسك ؟
* قال بحزم : نعم ، وصمت .
* فبادرته قائلة : وعيوبك ؟

* قال : معرفتى لنفسى جعلتنى إنسانًا سعيدًا .. فأنا أكثر النقاد لنفسى لأننى أعرف عيوبى .

* قلت : وهل عيوبك تخيفك ؟

* قال : نعم تخيفنى جدًا .

* قلت : وهل هذا يصيبك بالقوة أم بالضعف ؟

* قال : الاعتراف بالعيوب والإحساس بالخطأ فى حد ذاته قوة ، لأن هناك ناسًا لا تعترف بأخطائها ، وإنها دائمًا على صواب ، لكن أنا أفضل أن أعرف عيوبى وأعترف بها وفى هذا قوة لا ضعف .

* قلت له : لكل فنان بصمة ، فما هى بصمة بيكار ؟

* قال : كل واحد فى ذاته هو أفضل الناس ولكنى أرى دائمًا فى الآخرين أنهم أفضل .

* قلت : لاأوافقك، فكل فنان له بصمة وتميز وعبقرية خاصة به.

* قال : العبقرية إعجاز .

* قلت : إذن لا توجد عبقرية ؟

* قال : العبقرية هى أن يقوم إنسان بعمل يعجز عنه الآخرون عن عمله مثل عبقرية مايكل أنجلو .

* قلت له :هل رسمت نفسك بملامح شخص آخر ؟

* مادمت أرسم نفسى فأنا أرسم إنسانًا له ملامح معينة وشخصية وتاريخ ، فلو رسمت نفسى أمس ورسمت نفسى اليوم قد تكون صورة الأمس أفضل من صورة اليوم ، فالفن ليس فيه آلية ، ولكنها تحمل نفس الملامح .

زوجـة الفنـــان

فى كثير من الأحيان تكون زوجة الفنان نقمة عليه وليست نعمة ، ما الذى تمثله الزوجة فى حياة الفنان ، الفنان بيكار يرى أن هناك هالة مفتعلة وضعها الفنان حول نفسه ، وهى أنه يحيا حياة بوهيمية وله حرية مطلقة وأنه لا يحاسب على أخطائه ويقول : إن الفنان ليس بالضرورة أن يكون إنسانًا بوهيميًا ولكنه إنسان ذو حس عال ويجب أن يختار زوجة ليست فنانة وإنما إنسانة متذوقة للفن، ولاتتزوجه لأنه فنان وإنما لأنها تحب الفن ويجب أن تهيىء له الحياة الخاصة به وسط الحياة الزوجية ، فأنا زوج منذ خمسين عامًا وزوجتى أول ناقدة لى ولها رأى فى كل أعمالى .

ومن ناحية أخرى لعبت المرأة دورًا مختلفًا فى حياة الفنان بيكار من خلال لوحاته التى تميزت فيها بشكل متميز يعرفه الجميع ، ذات وسط مسحوب وجسد ملفوف ، وصدر صغير ، أشبه بآلهات اليونان القديمة ، لها ملامح مصرية وروح شعبية لا يخطئها أحد ، فالمرأة عند بيكار ليست جسدًا بأى حال من الأحوال ، إنها كيان ،

وقور ، محترم ، متزن .. حلم ، هادئ تستمتع به بعقلك وروحك دون إثارة غرائزك ، فهى المعنى الدافع الوثّاب للابداع والتلقىٰ ، إنها كيان له نفس رائحة الحياة .

ومن جانب ثالث يعتبر بيكار الرسام الشعبى الذى وضعت المرأة المصرية لوحاته على جدران منزلها من خلال رسوم الكنافاة للبيت على المرجيحة ، وربة البيت والبنت فى الحديقة ، وكلها رسومات مستوحاة من البيئة المصرية وحياة المرأة المصرية فأخذتها المرأة المصرية لتضعها على جدران بيتها لتمثل بخطوطه خيوط المرأة حين حولتها إلى لوح من الكنافاة على جدران منزلها .

* قلت : ما رأيك فى الحركة الفنية الحديثة ؟

* قال : أنا حريص على متابعة الحركة الفنية بلاتزمت ، أنا كلاسيكى حتى النخاع ولكنى متحرر فى تفكيرى ، وإذا رأيت عملاً جميلاً أقول «الله» وأتمنى لو أتحرر من قيودى لأرسم مثله .

* قلت : ما هى قيودك ؟

* قال : قيودى الالتزام ،التأدب ، الأخلاق ، إننى أعتبر أن الفن فيه جزء كبير من الاخلاص وفيه العيب وغير العيب ، وأنا أرسم بأحاسب نفسى ، هذا فن أخلاقى ، وهذا فن لا أخلاقى ، إننى ملتزم بقيودى الفنية .

* قلت : ما هو الفن الأخلاقى والفن اللا أخلاقى ؟

* قال : التهور يعتبر فنا لا أخلاقيا ، والشطحات تعتبر لا أخلاقية ، لكن لو لم يحدث التهور والشطحات لن يحدث تطور أو تجديد ، والتجديد أساسًا قائم على الشطحات ، وأنا أخاف أن أتهم بأنى خرجت عن الخط والوقار الذى رسمته لنفسى .

* قلت له : ما هى الشطحات التى تعنيها فى الفن ؟

* قال : تجريب الهلس .

* قلت : ما هو « الهلس » فى رأيك ؟

* قال : واحد عجوز يسير مرتديًا قبقابًا فى حى راق ، أنا كزوج مع زوجتى لا أستطيع أن أخرج من بيتى إلا إذا أحضرت لى بدلة وكرافتة .

* قلت : هل الالتزام ضد الفن ؟

* قال : الالتزام ضد التطور وليس ضد الفن ، هناك فنانون منذ أن ولدوا حتى الممات التزموا وجددوا فى حدود نوعيتهم ، أمثال مايكل أنجلو ورافائيل ورامبرانت ، وعندما ننظر إلى أعمالهم نجد شيئًا من النمو ، لكن نمو فى عكس الاتجاه .

* قلت : كل فنان تمر عليه لحظات لا يرضى فيها عن عمله ، لحظات فشل تتخلل لحظات النجاح ، ويتأرجح بين صعود وهبوط

وهذا أمر طبيعى ، ولكن هل يمكن أن يهبط مستوى فنان عن المعدل المعقول ، ماذا تفعل لو حدث لك هذا الإحساس ؟

* قال بعد صمت : إذا حدث لى هذا أغوص فى قاع الندم وأقول كما قالت مريم : ﴿ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيًا منسيًّا﴾ بهذه القسوة يحكم الفنان الصادق على نفسه قبل أن يحكم عليه الغير .

* قلت له : وأنت تحتفل بعيد ميلادك الثمانين .. ما الذى يستهويك فى الحياة ؟

* قال : البساطة غير المفتعلة .. والصدق .

* قلت : ماذا عن الحب ؟

* قال مبتسمًا : أنا أسمى حسين بيكار واختصاره (ح .ب) ولا أخفى عليك سرًّا ، أنا حبّيب درجة أولى .

البصر جانب هام جدًّا من عناصر الإدراك المباشر الملموس فى حياتنا اليومية ، إنه إدراك محدود ، وهو يمهد إلى خطوات يتلو بعضها البعض فى دائرية ، والبصيرة لا حدود لها ، فهى أبعد وأعمق وأوسع وأشمل وأعجب من البصر .

وحين لا يستطيع الإدراك أن يتخطى حدود الواقع ، فإن البصيرة تنطلق إلى آفاق سامية مذهلة لا تخطر على بال ، إنها عماد الروحانيات والفن .

صلاح طاهر

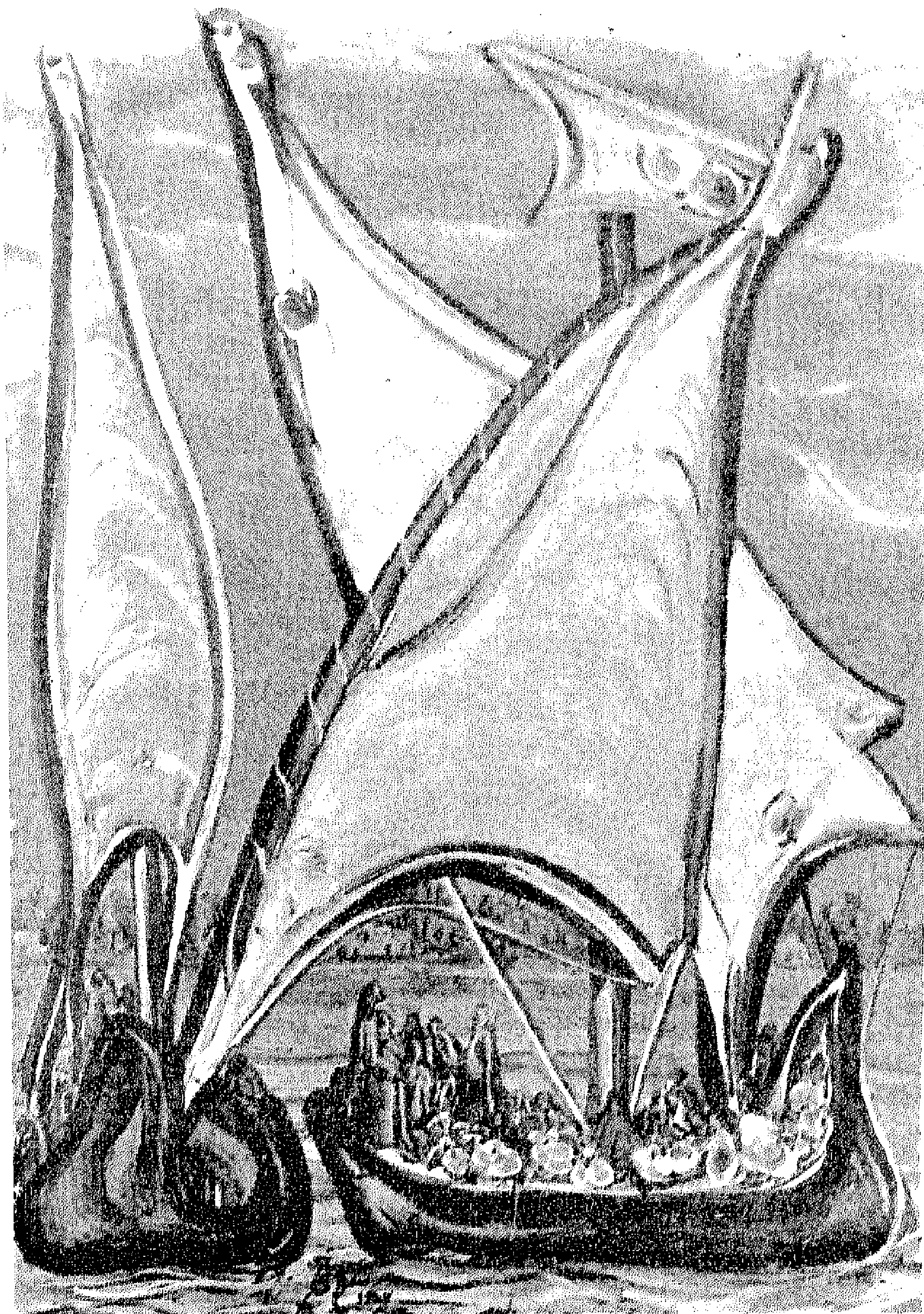
* صاحب الألف بورتيريه

قدم أكثر من ألف صورة بورتريه لشخصيات فنية وأدبية وسياسية كبيرة ، من بينهم العقاد وتوفيق الحكيم ونجيب محفوظ وأم كلثوم وزوجة الرئيس اليوغوسلافى تيتو ، وغيرهم من مشاهير الفن والسياسة والأدب ، وكان له مع كل صورة قصة وحكاية وموقف طريف ، وبين لوحات المشاهير سمح لى الفنان صلاح طاهر بالغوص وراء ذكرياته مع هذه اللوحات التى تحمل فى طياتها سنوات عمره الفنى الذى قال عنه : أعترف لك بأننى لست فنانًا معروفًا بفن البورتريه ،رغم أنى رسمت أكثر من ألف شخصية معروفة ، ولو كنت رسمت كل المشاهير الذين التقيت بهم فى حياتى لكان فنى كله صور بورتريه .

الفنان صلاح طاهر أحد الفنانين التشكيليين المعاصرين الذين عاشوا مراحل فنية مختلفة ، انتقل

فيها بين مدارس الفن ، وأقام أكثر من ٨٠ معرضًا فنيًا داخل مصر وفى الدول الأوربية والعالم العربى ، وهو من أكثر الفنانين الذين يتمتعون بأكثر من كونهم رسامين تشكيليين ، فهو رسام ورياضى وعازف كمان وسياسى ومفكر ، عاصر العقاد وتعلم منه ، وكان له آراء فى السياسة والفكر والفن .

وعندما سألته عن علاقاته بالعقاد ، وما الذى تعلمه منه قال لى : العقاد !! لماذا العقاد بالذات ؟ ! هل تعرفين أن العقاد من الفلاسفة الكبار الذى تأثرت بهم وتركوا بصمات واضحة فى حياتى ، لقد أعادنى هذا السؤال إلى أيام الشباب والصبا ، وكان عمرى تسعة عشر عامًا عندما رسمت أول لوحة بورتريه فى حياتى للكاتب الكبير عباس محمود العقاد ، وكان فى ذلك الوقت يكبرنى بحوالى خمسة وعشرين عامًا .. وكان لقاؤنا غريبًا ، كنت أيامها عازف كمان ، وكنت حاصلاً على بطولة مصر فى الملاكمة للوزن الخفيف ، ودعانى أحد الأصدقاء لحفل عيد ميلاده ، لأقدم له عزفًا على الكمان ، وفى الحفل فوجئت بوجود العقاد الذى كان صديقًا لوالد صديقى وعرفنى به كعازف كمان ، ولكن العقاد قال : أليس هذا الشاب هو بطل مصر فى الملاكمة ، وسألنى كيف تلعب ملاكمة وفى نفس الوقت تعزف موسيقى ، أريد أن أرى أصابع يدك ..



وكان هذا الحوار القصير بداية للتعارف بينى وبين العقاد ، وبعده أصبحنا أصدقاء ولم أنقطع يومًا عن جلساته الثقافية التى كانت تنعقد كل أسبوع فى منزله ، واستمر اللقاء بينى وبين العقاد فى هذه الأمسية طوال الوقت ، تحدثنا عن كتاب كنت قد قرأته عن مختارات لشنبهور الذى كان يعزف الكمان رغم فلسفته المتشائمة فى الحياة .

وكان لشنبهور قول مأثور يقول فيه : « أن الذى يجعل للحياة معنى ويجعلها محتملة هو الفن » ولم أعزف فى تلك الليلة شيئًا ولم أتحدث مع أحد ولم أجالس أى شخص ، وكانت كل جلساتى وأمسياتى مع العقاد الذى أصابته الدهشة منى لأننى أعزف الكمان وفى نفس الوقت أمارس رياضة الملاكمة وقال والد صديقى للعقاد « وأنه يرسم أيضًا » وازدادت دهشة العقاد وبدأت العلاقة الحميمة بينى وبينه ودعانى لحضور صالونه الشهير كل يوم جمعة فى منزله بحى مصر الجديدة ..

وفى البداية كانت علاقتى به كأب روحى ، وكان لنا لقاءات مستمرة غير أيام الجمع ، وكنا نخرج معا كل يوم بعد تناول العشاء نتحدث فى شتى الموضوعات وآخر القضايا الثقافية والأدبية ، وكان العقاد يتناول عشاءه فى الثامنة مساء وكنا نلتقى فى الساعة الثامنة والنصف كل ليلة نجوب فيها شوارع مصر الجديدة ، التى كانت تتميز بالهدوء والحدائق ، وكانت الأحاديث بيننا رائعة ولا يمكن أن

أنساها ، وكنت أيامها متحمسا لقراءة كتاب عن « فن التغذية » وكان العقاد يجد متعة فى حديثى معه ، ومن هنا كان من الضرورى أن أرسم صورة للعقاد ، وكانت أول صورة لى وأنا طالب فى نهائى كلية الفنون الجميلة ، ثم رسمته مرة ثانية عام ١٩٣٦ عندما تحدى الوفد وانشق عنه فرسمته واقفًا متكئًا على عصاه وهو يتحدى العالم ، وهذه الصورة موجودة فى منزل عائلة العقاد فى مصر الجديدة ثم رسمته صورة ثالثة عام ١٩٤٢ تختلف تمامًا عن الصورتين السابقتين ، وكانت كل صورة رسمتها للعقاد تحمل رؤيتى الخاصة له طوال مراحل صداقتنا المتطورة .

توفيق الحكيم . . أسرع بورتريه

حكايتى مع توفيق الحكيم حكاية غريبة ، توفيق الحكيم صديق عمرى .. أول مرة التقيت به كان فى منزل العقاد ، ثم بدأنا نلتقى فى أحد مقاهى وسط البلد ، وبدأت أعمل له أول صورة عام ١٩٤١ ، وهذه الصورة اشتراها الكاتب المعروف الصاوى محمد بمبلغ مائة جنيه ، وكتب عنها الحكيم مقالة بعنوان « اشترانى بمائة جنيه » وكانت المائة جنيه فى ذلك الوقت تساوى عشرة آلاف فى وقتنا الحاضر .

ويضحك صلاح طاهر مسترسلاً مع ذكرياته : ويشاء القدر أن أعمل فى الأهرام مستشارا فنيا عام ١٩٦٦ وأفاجأ بأن حجرة توفيق

الحكيم هى الحجرة الملاصقة لحجرتى ، وكنا نلتقى كل يوم ، لم يكن يجلس فى مكتبه بمفرده أو أجلس أنا بمفردى فى مكتبى كنا دائمًا معًا فى مكتب واحد إما فى حجرته أو فى حجرتى ، وكنت أذهب إلى الأهرام لكى أجلس مع توفيق الحكيم .. ورسمت له صورة ثانية فى عام ١٩٦٨ وكان لها قصة غريبة جدًّا ..

كانت هذه الصورة مطلوبًا رسمها لكى تعلق ضمن صور كبار الشخصيات والكتاب فى معرض جريدة الأهرام الدائم ، ولتوفيق الحكيم صفة غريبة جدًّا وهى إذا تكلم لا يسكت ، وإذا سكت لا يتكلم ، وعندما قمت برسمه أخذ يتكلم ويتكلم وكان يعقد يديه تحت ذقنه مستندًا إلى عصاه وينتهى من قصة ليحكى قصة جديدة وينتقل من موضوع إلى موضوع ومن قضية إلى أخرى وفشلت فى رسمه ، والوقت يمر ومطلوب أن أقدم هذه الصورة فى أسرع وقت .

وفكرت فى أفضل طريقة لكى أجعل توفيق الحكيم يصمت عن الكلام حتى أتمكن من رسمه أن أدعو الدكتور حسين فوزى وهو صديق حميم لتوفيق الحكيم ليتحدث إليه ، وكانت هذه أفضل طريقة لأجعل بها توفيق الحكيم يصمت ليستمع إلى حديث صديقه د . حسين فوزى وأتمكن أنا فى نفس الوقت من رسم البورتريه ، وبالفعل جاء د . حسين فوزى وأخذ يتحدث إلى توفيق الحكيم الذى أخذ فى الصمت وسرح معه فى حواره عن باريس .

وانتهزت هذه الفرصة التى استمرت ساعة ونصفا أخذت أخطط فيها لأسرع بورتريه فى حياتى وقلت يومها لتوفيق الحكيم : « كفاية رسم اليوم » ونواصل جلساتنا مرة ثانية ، وكنت أحتاج خمس جلسات أخرى مع الحكيم لاستكمال صورته ، ولكنى فوجئت بتوفيق الحكيم ينظر للرسم التخطيطى لصورته ويقول : « أقسم بالله لن تضع يدك فى الصورة مرة ثانية » واندهشت وقلت له : ولكنها لم تكتمل ، إنها مجرد تخطيط ، قال لو وضعت فيها يدك سوف تفسدها وطلب محمد حسنين هيكل رئيس تحرير الأهرام فى ذلك الوقت ليأخذ رأيه فى الصورة الذى أكد هو الآخر بأن الصورة لا ينقصها شىء وأخذ توفيق الحكيم الصورة وأغلق عليها باب حجرته وذهب إلى منزله حتى لا أغافله وأستكمل الصورة ، والغريب فى هذه القصة أننى بعد عدة أيام اقتنعت بوجهة نظر توفيق الحكيم ورأيت أن الصورة لا ينقصها شىء رغم عدم اكتمالها من الناحية الفنية ثم وقعت عليها باسمى تأكيدًا لوجهة نظر توفيق الحكيم .

زوجة تيتو .. امرأة صلبة

وقال الفنان صلاح طاهر لى : من الشخصيات التى لا يمكن أن أنساها زوجة الرئيس اليوغوسلافى تيتو عندما طلب منى حسين الشافعى نائب رئيس الجمهورية فى ذلك الوقت أن أرسم هذه المرأة الحديدية ، كانت امرأة صعبة وقوية جدًّا ، وحاربت مع زوجها فى

الجيش وكانت تريد أن تحصل على الحكم وكانت فى زيارة حسين الشافعى ، ورسمتها فى منزله وكان أصعب شىء على أن أقوم برسم امرأة لطيفة المظهر ، فولاذية الشخصية ، واستغرق رسمى لهذه الصورة عدة جلسات ، وكانت جلسات صعبة ولكنها أنتجت لوحة أعجبت بها زوجة الرئيس اليوغوسلافى ، وأخذتها معها وغادرت البلاد .

ولم تكن زوجة الرئيس اليوغوسلافى تيتو هى المرأة المشهورة الوحيدة فى لوحات الفنان صلاح طاهر وإنما كانت هناك امرأة ذاع صيتها ودخلت قلوب العالم العربى ، وكان لها دورها البارز فى حياة الشعب المصرى عاطفيًّا ووجدانيًّا من خلال أغانيها العاطفية والوجدانية ، إن كوكب الشرق أم كلثوم كانت ظاهرة عصرها الذى عاش على ضفافه العاشقون فى كل مكان من العالم العربى ..

وعندما سألت الفنان صلاح طاهر هل ريشتك وضعت خطوطًا لوجه أم كلثوم ؟ فقال لى بتنهد ، وكأن يستجمع ذكريات بعيدة : كانت من أجمل الأصوات التى سمعتها ، ورسمتها مرتين ، وتوجد إحدى هاتين الصورتين فى منزل عائلة أم كلثوم . والصورة الثانية لم أنته منها بسبب مرض أم كلثوم ، ثم موتها فلم أتمكن للأسف من استكمال هذه اللوحة .

وكانت تربطنى بأم كلثوم علاقة صداقة عائلية ، كانت تحب ابنى أيمن وعندما كانت تزورنى فى منزلى كانت تقضى معظم جلساتها

فى مداعبة ابنى ، وكان رحمها الله تحب الأطفال ، وفى أول كل شهر كان لها حفلة غنائية ينتظرها عشاقها فى كل مكان ، وكانت دعوة لى ولزوجتى لحضور هذه الحفلات ، ولى صورة فوتوغرافية كبيرة مع أم كلثوم فى معرضى الدائم المقام فى مركب فرح على ضفاف النيل ..

أما الفنان الموسيقار محمد عبد الوهاب – للأسف الشديد – فلم أرسمه ، وقد غضب منى لأنه لم تتح لى فرصة رسمه ، رغم ما كنت أحمله له من مودة وإعجاب ، ليس من السهل على الفنان أن يرسم كل الشخصيات المحببة له فى حياته ، ولو كنت رسمت كل من التقيت بهم لكانت كل رسوماتى بورتريهات .

رسم الموسيقى

والموسيقى من الفنون التى أعاد توزيعها الفنان التشكيلى بريشته وألوانه غاص بداخلها ومزجها بروحه وفكره وكيانه ، ليحولها فى النهاية إلى زيوت وألوان على لوحاته ، ومن هؤلاء الفنانين : الفنان صلاح طاهر الذى قال عن تجربته الموسيقية المرسومة : إننى من أشد المغرمين بالموسيقى وقد بدأت حياتى كعازف كمان ، وعندما اتجهت إلى التجريدية فى رسوماتى كانت الموسيقى مادتي للرسم ، فأنا أعشق الموسيقى وخاصة الموسيقى الكلاسيكية ، ومدرك تماماً لقانون الموسيقى ، وأعرف جيداً كيف تؤلف السيمفونيات وهو نفس

القانون الذى أرسم به لوحاتى الموسيقية بحيث يسمعها المشاهد بعينيه وليس بأذنيه .

وهناك مقولة مشهورة لشبنهور يقول فيها : إن كل فن فى الدنيا سواء أكان عمارة أم تصويرا أو قصة أو شعرًا يحاول الفنان فيه تحقيق قانون الموسيقى ، فالموسيقى قاسم مشترك بين كل الفنون ، وعلى حد قول نيتشه : لولا الموسيقى فى حياتنا لكانت حياتنا خطأً .

* قلت للفنان صلاح طاهر : إذا كانت الموسيقى لها تأثير فعال فى حياة الفنان صلاح طاهر ، فهل لديك طقوس معينة تؤديها قبل دخولك مرسمك كسماع الموسيقى مثلاً ؟

* الشىء الوحيد الذى أفعله قبل البدء فى رسم لوحاتى هو جلسات التأمل على انفراد ، وهذه الجلسات الهادئة تسبق عامة كل عمل فنى كبير ، وقد يستغرق هذا التأمل ربع ساعة أو عشر دقائق ، بالنسبة لى فأنا لدى قاعدة ، فأحيانًا أدخل الاستديو وأعمل بلا تأمل ، لكنى فى العادة الأعمال الكبيرة المعقدة يسبقها لحظات تأمل ، وقد تكون قبل الرسم بيوم أو يومين .

والشىء الذى لا تعرفينه هو أننى من هواة اليوجا ، ليست اليوجا الجسدية ، وإنما اليوجا الروحية والنفسية والعقلية ومنها يوجا جلسات التأمل لفترة من الزمن ، وهذه الرياضة تريحنى وفى نفس الوقت تسمح له بتخزين الشىء الذى أريد أن أقدمه فى عملى الفنى ..

* قلت له : هل اليوجا نظام يومى فى حياتك ؟

* قال : إن اليوم السعيد في حياتي هو الذى أقضيه بعيدًا عن اللجان الرسمية التى تقتل وقتى كفنان ، فأنا رئيس لأربع لجان وكلها تأكل وقتى ، وكلما قدمت استقالتى منها تقابل بالرفض ، فأستيقظ فى الصباح الباكر ثم أمارس قليلاً من تمارين اليوجا ثم أتناول إفطارى وإذا لم يكن لدى مواعيد لجان خارج البيت أدخل الاستديو لأرسم ، ثم أتناول غدائى فى الواحدة والنصف من كل يوم ثم أغفو قليلاً ، وأعود مرة ثانية بعد الظهر لممارسة رياضة اليوجا ثم أعاود الرسم فى مرسمى الكائن فى بيتى ، وفى حالات كثيرة ألغى مواعيدى التقليدية من أجل الرسم .

أما قراءاتى فهى تأتى فى المساء وقبل ذهابى إلى فراشى للنوم ، وقد تسرق النوم منى فأستمر فى القراءة حتى ظهور خيوط الفجر ، وقراءاتى متنوعة وما أقرؤه فى هذه الأيام كتاب عن « التطور الخلاق » للفيلسوف برجسون ، وقد قرأت هذا الكتاب منذ خمسة وعشرين عامًا ولكن هناك بعض الكتب التى أعيد قراءتها من حين إلى آخر .

إن إعادة النظر بين وقت وآخر فى بعض المسلمات التى نعيش بها ، وقد يرى البعض أنها انتهت ، هذا غير صحيح ؛ لأن المفاهيم دائمًا متغيرة مع كل زمن وعصر وإعادة النظر ضرورة للإنسان المتحضر المثقف ، فالقيمة ثابتة ولكن مفهومها متغير ومختلف من زمن إلى آخر ، والأمثلة كثيرة ومتنوعة كالديمقراطية والحب ...

الرجل الفنان يضع للحب ملامح
والمرأة تضع للحب مواقف !

يوسف فرنسيس

* حوار مع رجل جوزائى

العلاقات الحميمة ذات الاقتراب الشديد ، كالأصبع التى توضع أمام العين ، فتحجب الشمس وتزيل المسافات بين الأشخاص وبعضها، وهذا الاقتراب قد لا يجعل الرؤية واضحة .

هذا ما حدث لى عندما جلست أمام الفنان يوسف فرنسيس لإجراء حوار معه .

لقد فوجئت بأن لدى إجابات وليست أسئلة ، ولذا تركته يتكلم وكأنه حوار بينه وبين ذاته ، أو بمعنى آخر اعترافات بين فنان وإبداعاته وشخوصه ولوحاته .

وتبادلنا حوارًا ذاتيًا وكأننا فى جلسة «يوجا» ، لم يعتدل فى جلسته ولم يحرك جهاز التسجيل ، ولم يدرك وجودى، وكانت جلسة غير عادية، كان حوارًا ذاتيًا بصوت عال.

* ... ...

* أنا نفسى شجرة من شجرات الفن ، اعتقدت فى البداية أنها فن تشكيلى ، وأن الفاكهة الخاصة بها مجموعة ألوان على سطح لوحة ، ثم اكتشفت فجأة أنها شجرة كلمات ، وأنه ممكن كل صباح مبكرًا لو وضعت ورقة بيضاء تحت هذه الشجرة ، أجسد مجموعة كلمات يمكن أن تكون لوحة ، أو فيلمًا مجموعة كلمات متجه على الشاشة أو خلف الشاشة السينمائية ، ومع الوقت والعمر والزمن اكتشفت أن هذه الشجرة يمكن أن تضم سبعة فنون مجتمعة ، ولو نظرت بداخلها لوجدت صندوقًا سحريًّا مثل الذى كنت أضع فيه عينى وأنا طفل صغير فى المطرية ، وأعطى صاحبه خمسة مليمات لأتفرج عليها ، أنا الذى أعملها .

واكتشفت مع الوقت أن شجرة الفن بالنسبة لى - ولحبى لها - أننى أرى وردها وثمارها ، وفى مرحلة الصعود إليها لقطف هذه الثمار والورود لم أنتبه إلى نقط الدم الناتجة من الأشواك ، لأنها من بعيد لا تظهر أشواكها ولا تظهر للعين البعيدة أو القريبة ، ولكن باللمس المباشر تكشف عن حقيقتها الشائكة . والمقدر للواقعية أنها تجرح فقط باطن اليد وليس باطن القلب .

الفن التشكيلى مختلف فى اقترابى منه ، أو اقترابه منى عن أى فنان آخر ، فالفن التشكيلى بالنسبة لى لم يكن هواية ، ولم يكن احترافًا ،

ولكنه هواية الاحتراف ، واحتراف الهواية ، لأننى مؤمن دائمًا بأن كل لوحة جديدة هى ، مغامرة ، وتعلم ، واكتشاف ، وأنا أومن بأننى لو أدركت مسبقًا ، أو على الأقل ماانتهيت إليه لوحة لن أرسمها ..

اللوحة هى علاقة فهم كامل ، فقد تعطينى اللوحة من الصبر والحب والتحمل ما لا أجده فى غيرها ، اللوحة بالنسبة لى كيان .

الفن التشكيلى هو فن صنع قاربًا للنجاة من واقع الحياة وواقع الآلام ، هو فن صناعة قارب يطير بنا من الواقع إلى الخيال .

وبشكل أعم ..

تفسيرى للفن ، هو إجابة لسؤال يفترضه الفنان سواء أكان مصورًا أم مخرجًا سينمائيًّا أم كاتبًا ، فقد يسأل ما هو الحب ؟ وتكون الإجابة : لوحة أو كتابًا أو فيلمًا سينمائيًا ، أو غنوة ، وقد تتحول الإجابة إلى عمل فنى واقعى أو عبثى أو سيرالى ، حسب تفسير الفنان له والمدرسة التى يخضع لها .

ولكن أنا أختلف مع التجريد ، لأن التجريد لا يعطينى سؤالاً أو إجابة ، وإنما يعطينى حالة ، ولا أصل فى النهاية إلى جملة كاملة وأنا أصل إلى حرفة لتوازنات تشكيلية ، يمكن أن تدخل تحت تأثير التجارب العملية .

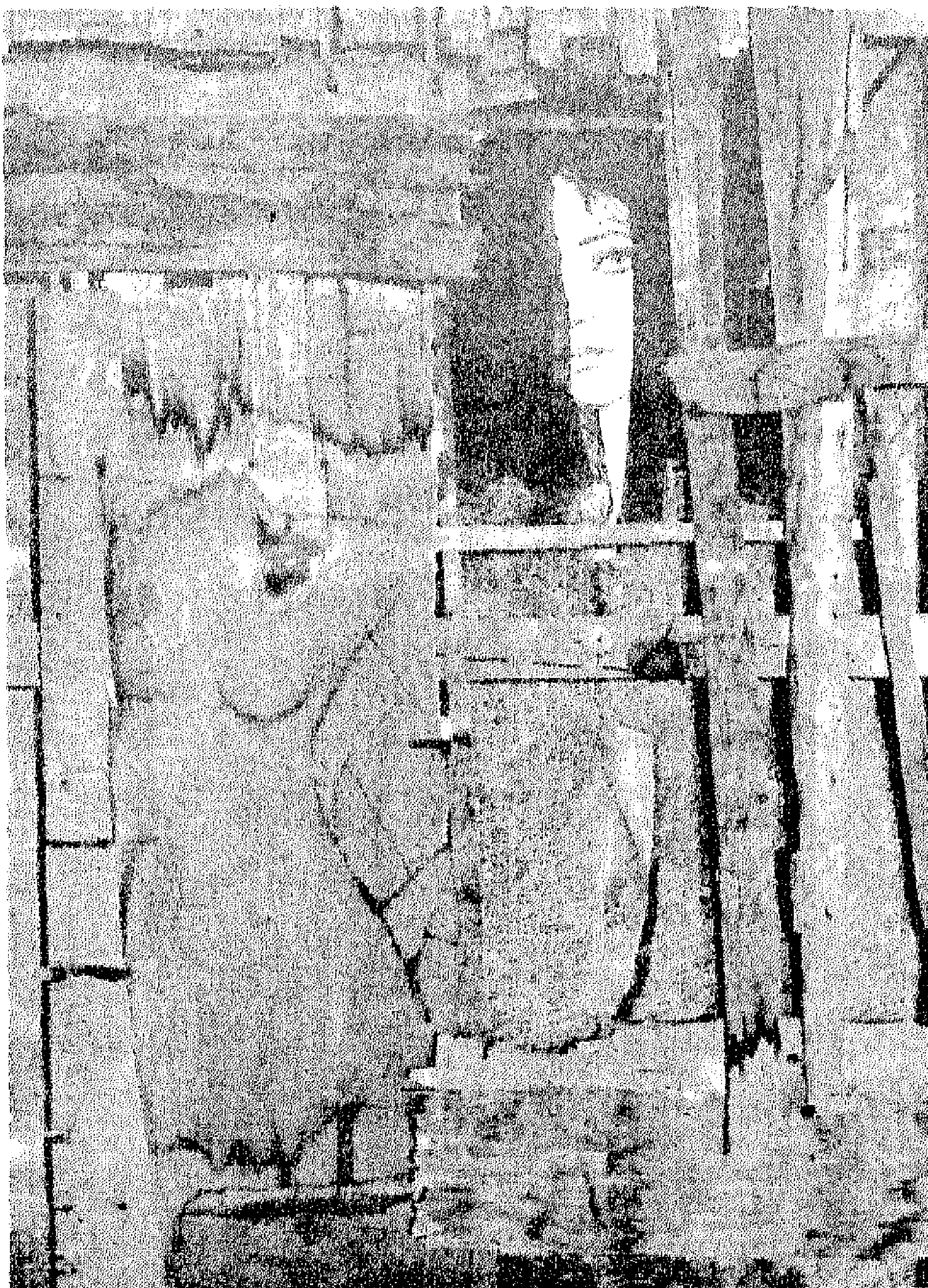
وإجابة : ماذا يعنى الفن ؟ تستوقفنى كفنان وتثير دهشتى وحيرتى وتجعلنى أبحث عنها فى أعمال غيرى من الفنانين ، وفى متحف

اللوفر أجلس لساعات طويلة أمام أعمال ليوناردو دافنشى لأعرف الحكاية وراء لوحاته ، وتكون الإجابات دائما عميقة ، وعندما تتحرك هذه الإجابات داخل الفنان ، تصبح وسيلة من وسائل التعبير لديه .

* ... ...

* فى طفولتى لم أعش مع والدى ووالدتى لأن أمى ماتت لأكون أنا ، وعشت فى منزل عمتى ، ونشأت وسط أولاد عمتى ، وكنت أنادى أبى – بخالى – مثل أولاد عمتى ، وكان أبى يهدى لى كلما جاء ليرانى ورقًا أبيض بكميات كبيرة ، وكانت عمتى تقول له : لماذا لا تشترى له أشياء مفيدة بدلاً من الورق الأبيض ، ولم تكن عمتى تعلم أن الشىء المفيد بالنسبة لى هو الورق الذى جعل منى فنانًا ، الورق وسيلة التعبير ، وهذه الأشياء البسيطة كان لها أثر فى حياتى ، وأعطانى ابن عمتى قلم حبر أسود للرسم الهندسى .

وبدأت سكة الفن بورق أبيض وقلم أسود حتى وصلت إلى كلية الفنون الجميلة ، والذى ساعدنى على ذلك امرأة اسمها «درية شفيق» وكانت صاحبة مجلة اسمها « الكتكوت » التى كنت أرسل لها رسوماتى من خلال المسابقات الفنية التى كانت تقام للأطفال ، وحصلت على الجائزة الأولى « علبة ألوان » ووجدت نفسى أملك علبة ألوان ، ومسئولية فنية هى حصولى على الجائزة الأولى ..



كنت أريد أن أدخل كلية الهندسة مثل ابن عمتى ، ولكنهم قالوا لى: كلية الفنون تشبع هواياتك أكثر، وذهبت لامتحان كلية الفنون الجميلة وقد نسيت مسطرة «الحرفT» فى القطار ورسمت خطوطًا بلامسطرة وقال لى الأستاذ حسن البنانى: خطوطك حلوة تعال إلى الفن.

أول موديل فى حياتى . . . ركاب الدرجة الثالثة !

ولأننى كنت أسكن فى حي المطرية ، وكلية الفنون الجميلة فى الزمالك ، كان يجب علىّ أن أركب القطار كل صباح ، وكنت أجد ركاب الدرجة الثالثة ذات الكراسى الخشبية وحكايات الناس البسطاء، وكنت أرسمهم وهم لايدركون، وكانت موديلات طبيعية من الواقع ، لم أرسم فازات الزهور أو الستات الحلوين الذين يرتدون « الفرو » .

فى الفن قسوة مع الذات ، وكان أستاذى يطلب منى أن أرسم من خيالى ، أنظر للموديل مرة واحدة ثم أدير ظهرى لها وأرسم من الذاكرة ، وعندما سألته لماذا أنا ؟ قال لى : أنت فنان .

والرسم من الذاكرة أفادنى فى الصحافة ، والتى تتطلب أن يكون الفنان واعيًا واقعيًا لكل ما يراه ، ثم أفادنى فيما بعد مع السينما ، السيناريو ما هو إلا مشاهد من الذاكرة .

* ... ...

* الفن فى حياتى لم يكن عفويًا، كان هناك ناس بمثابة إشارات المرور للسيارة التى هى أنا ، فتحوا لى الإشارات الخضراء .

ففى كلية الفنون الجميلة كان الفنان حسن بيكار الذى أعطى له مكانه فى رسم السندباد .

والمنتج أحمد المصرى أعطانى فرصة إخراج أول فيلم سينمائى فى حياتى للسينارست الصديق فاروق سعيد .

وخليل شوقى غامر معى عندما قمت بعمل ديكور فيلم « لا » بعد أن تركنى المخرجون المنفذون ، كل هؤلاء كانوا إشارات خضراء تحكمت فى طريق حياتى ..

* ... ...

* السينما نمت فى خيالى ، لا يمكن أن أنسى أول فيلم شاهدته وأنا طفل صغير . كان اسمه « شبح الأوبرا » وكنت مرعوبًا من الخوف ، ولكنى شاهدته وأنا مفتح العينين ، السينما هى الحياة فى الخيال ، وأنا كفنان تشكيلى أرسم الخيال .

عندما كنت طفلاً لم يكن لدى لعب ألعب بها ، أولاد عمتى كانوا أكبر منى وكنت ألعب مع القطط والكلاب والثعابين ، وكبرت ، وظل الطفل بداخلى يريد أن يلعب وهذا الذى قال بيكاسو : لحظة لعب الطفل هى لحظة النشوة الكبرى التى يملكها

لحظة الصدق ، فلا نستطيع أن نجذب الطفل من أمام لعبة ، فيمكن أن نجذبه من أمام الطعام لكن من أمام لعبة ، فأمر مستحيل .

وعندما كان يرسم بيكاسو ، كان يرسم حافى القدمين ونصف عار ، فلماذا كان يضع بيكاسو نفسه فى هذا « المدد » ، الإحساس ! لأنه اكتشف بداخله الجزء الذى لا يكبر ، والفنان يظل فنانًا عندما لا يفقد انبهاره بالحياة ، والذى جعلنى أحب السينما ، هو الذى جعل أى طفل يحب السينما وهو تقليد الحياة .

ست جليلة.. رسمتها مع أولادها

* ... ...

* الوحدة فى الطفولة وعدم وجود أم فى حياتى كان يمكن أن يهدم حياتى ، وكان مشروع الدبلوم عن الأمومة أنا الذى لم أعرف يعنى إيه أم ؟ ! وظللت أبحث عن أمى فى كل مكان عند المرأة التى ترضع طفلها فى الأتوبيس ، والمرأة التى أنجبت ثمانية أطفال ، ووجدتها فى ست جليلة الموديل الذى رسمه كل زملائى فى أوضاع مختلفة ، ورسمتها أنا وهى تتناول الطعام مع أطفالها .

إن فقدانى لأمى ، جعل كل علاقاتى حميمة ودافئة ، يوم ما قالوا لى : إن أمى ماتت وهى تلدك ، شعرت بأنى المسئول الأول عن



موتها لأنها حملت وأنجبتنى ، وكان الحمل والولادة خطران على حياتها ، وماتت هى وجئت أنا للحياة ، وهذا جعلنى باستمرار أريد أن أعمل شيئًا ليس له علاقة بتحقيق النجاح أو السعادة أو ...

أحزانى تخرج من رحم فرحي والفرح لدى ينبعث من رحم الحزن ، الإحساسان متداخلان ، لأن لحظة ميلادى جاءت من لحظة فقدانى لأمى ، وأشعر بالبرودة عندما أفتقد شيئًا أحبه .

* ... ...

* أنا إنسان غريب مع نفسى ، بمعنى أنه يمكن لى فى لحظة من اللحظات أن أبدأ فى عمل يستغرقنى ولا أرسمه ، ويظل عنصر الاكتشاف بداخلى سواء فى الفن أو في السينما .

* ... ...

* فى فيلم « عصفور من الشرق » سألت نفسى : لماذا لايمثل توفيق الحكيم نفسه ؟ لماذا أبحث عن ممثل يؤدى دور توفيق الحكيم ؟ هل لأن الإنسان ممثل ردىء لنفسه ؟ أحيانًا نعم وأحيانًا لا ، وكان مفاجأة أن توفيق الحكيم أجاد التعبير عن نفسه ، وفى التنفيذ كان لدى كاميرا وممثلون وحوار ، وكنت أحتاج إلى الإرادة لتنفيذ هذه الفكرة ، إنه عذاب الفنان الحقيقى ، أن يحول أفكاره إلى عمل يرضى عنه ، دائمًا بطلات الكتب أحلى من بطلات الواقع !

* ... ...

* الفنان بيكار عرفني على بلاد كثيرة ، كنت في مصر وعشت في أسبانيا مع مصارعة الثيران ، وفي فرنسا وأجوائها الفنية لأنه كان يسافر بريشته ، ولم يكن أمل حياتي يتحقق وأنا في كلية الهندسة ، أنا تلميذ وصديق للفنان بيكار ، هو مستشاري في حياتي يتابع أحلامي وآمالي وأحزاني ، إنه معلم ، والمعلم يملك أولاً حب الحياة وكيف يمكن رسمها بطريقة صحيحة .

* ... ...

* قال عني الفنان بيكار : إنني ملك الشطحات ، بيكار لديه نظرة مثالية ، لكن احتكاكي بالحياة كمخرج سينمائي وكاتب سيناريو جعلني لا أرى المثالية في كل الأعمال ، فعندما أعود للتشكيل أعود بتجربة غير مثالية ، ويمكن أن نطلق على هذا الفن شطحات .

ذات يوم أقمت معرضا كله ساعات قديمة ، لأنني أحسست أن الساعة القدمة عاشت حياة وأنا أريد أن أعطيها حياة إضافية ، حتى لا تصبح ساعات محطمة ، بل تتحرك من جديد في زمن جديد ، إنها شطحة فنية خارجة عن المألوف .

* ... ...

* بيكار يعرف نفسه جيدًا ، وقد رسم نفسه لأنه يعرفها ، أما أنا فلا أعرف نفسي ، أنا بودليري وكان بودلير ينام تحت سريره حتى

يدهش نفسه ، إننى أرى أن الإنسان فى كل يوم إنسان جديد ، وبرؤية جديدة ، وخبرة جديدة وإحساس جديد .

* ... ...

* رسمى للموسيقى لم يكن شطحة وإنما كان احتياجا ، لأننى لم أستطع أن أكون موسيقارا ، ولو سألتينى ماذا تحب أن تكون ؟ لقلت لك : أحب أن أكون عازفًا ، فنانًا أعزف على آلة صغيرة اسمها « الهارمونك » ويمكننى وضعها فى جيبى ، وهى آلة نفخ قريبة من النفس ، وقريبة من القلب ، ولا أعزفها بنوتة ، وكنت أرى فى النوتة شيئًا فوق الحب ، النوتة معجزة بالنسبة لى مثل « بريل » بالنسبة للمكفوفين .

ودارت الأيام وعرفت الموسيقى الكلاسيكية على يد الدكتور ثروت عكاشة الذى جعلنى أحبها أكثر ، وعرفنى بمؤلفين ، وسمعت الموسيقى ولذا رسمتها أبيض وأسود ، نوتة مرسومة ، بتغنى لوحدها رأيت فيها معانى أخرى .

رسمت عشر سيمفونيات ، وهى السيمفونيات التى أحببتها فى حياتى وعاشت معى ، وسافرت معى ، وصاحبتنى فى رحلة الحياة ، حياتى منذ بدأت سماع الموسيقى وحتى الآن ما زلت أسمعها ، إنهم أصدقائى ، شاهدوا أحزانى ووحدتى ، ولا أستطيع أن أعيرها لأحد ، أن لا أعير أحدًا كتابًا أو أسطوانة ، قد أعيره سيارتى أو حتى ملابسى ،

لكن هذه الأشياء هي كنزى الخاص بى ، فهم أسرع الأصدقاء وقت الحاجة . ، فالموسيقى أعطتنى الكثير ، فأردت أن أرد لها الجميل فرسمتها !

* ... ...

* لاأعرف كم معرض أقامته تواريخ حياتى متداخلة ، لكن تواريخ الأيام التى أثرت فى حياتى أعرفها ، فهناك أيام تترك أثرًا فى النفس ، وأيام أخرى تمر دون علم منا .

* ... ...

* عندما أرسم لوحة أستعد لها ، وأملك فيها ناصية نفسى ، إننى أرفض رسم شخص بصحبة شخص آخر فيأتى لمرسمى لأرسمه ، دخولى مرسمى هو لحظة أكون فيها قريبًا جدًّا إلى نفسى ، أنا لا أرسم الصورة فى خيالى قبل الواقع ، لكنى فى العمل السينمائى قد أذهب إلى البلاتوه قبل كل العاملين وأتخيل كل المشاهد حتى تكون عند التنفيذ مطابقة للواقع .

* ... ...

* ليس لدى تقاليد أمارسها قبل الرسم ، فاللوحة لها الأولوية ، هى البطل ، لدرجة أننى أحيانًا أخرج وأتركها فى المرسم .

* ... ...

* نعم ، إننى أشبه نفسى بالماء ، بمعنى أننى سهل جدًّا ، ولكنى لست سطحيًا فالماء يجب أن يكون لديه الوعاء ليحتويه ، ويمكن

أن نضع الماء فى فاز كريستال ، ويمكن أن نرتوى به ، ويمكن أن يفلت من بين أصابعك .. اعرفينى جيدًا حتى أعطيك فنًا ، أعطيك محبتى صداقتى ، لكن لو وصفنى أحد بأننى زئبق ، أقول له : لو جلست فى مكان لا يعجبنى أظل فيه صامتًا ، وربما تنقطع كل وسائل الإرسال والاتصال بينى وبين المحيطين بى فأنا لست زئبقًا ، الزئبق هو الذى يختفى فى ظروف لا تعرفها ، وفى وقت لا نعرفه ، لكن الماء قد تتسرب فى مكانها وهى باقية أو تتبخر ، ولا يمكن تجميعى ، لأن سحابتى عالية ، ولو تبخرت فإننى أتحول إلى سحابة لا يمكن أن تطال ، لذلك أنا بدأت حياتى بالرسم بألوان الماء على الورق ، ألوان الماء لا يمكن تغييرها مثل ألوان الزيت التى يمكن أن تضيف لها أو تغير من درجاتها ..

الرسم بالماء .. رسم المساحات الشاشعة من السماء والخضرة والسحب والخطوط اللانهائية ، إنه يستخدم فى ورق شفاف مع شخص شفاف أيضًا ، ثم نبدأ فى التفتيح والتغميق وهذا يأتى خطوة خطوة ، لذلك أننى أعشق البلدة الوحيدة التى تعتمد فى سلوكها على المياه أنها «فينسيا» أنا كائن مائى .

المثل الفرنسى يقول : انظر للإنسان من وجه الحقيقة والحقيقة دائرة كروية ، أين وجهها ، وأين ظهرها ؟ لكن لو رسمنا عليها

لاستطعنا تحديدها ، كذلك الوجه المرسوم والوجه غير المرسوم ، وكل إنسان مثل الكرة الأرضية .

* ... ...

* الفنان يختار عائلته أو على الأقل عائلته الفنية ، وهى عائلة غريبة فيها لوينارد دافنشى ، وبيكار وموديليانى الفنان الإيطالى الفذ الذى هزمته باريس ولكنها لم تهزم فنه ، بيكاسو بكل شطحاته الغريبة التى أصبحت فيما بعد مدرسة تركها لغيره ليكملها ، هذه العائلة فيها أيضًا نجيب محفوظ الذى تعلمت منه الرسم الصحفى من خلال شخصيات رواياته التى تتميز بالمضمون والشكل والتصبرف ، وهذه العائلة دائمًا بجوارى فى المعارض والمتاحف وفى الكتب ، أما فى السينما فيوجد كمال الشيخ بهدوئه ، لا يمكن أن نجد مخرجًا ناجحًا وهو يصرخ ، هناك مخرجون كثيرون يمثلون فى البلاتوه وعلى الشاشة لا نجد شيئًا ، المخرج بركات وتعامله الرقيق ، فيللينى بشطحاته وأنطونيونى برموزه ، والبحث عن الحقيقة التى لا نجدها مثل مباراة كرة قدم بلا كرة ، هؤلاء هم عائلتى الذين تأثرت بهم .

* ... ...

* الفرق بين المثالية والرومانسية ، المثالية فى النسب الجميلة ، لكن الرومانسية فى التناول ، إنه فرق بسيط ، وأنا رومانسى ولا أعمل

شيئًا مثاليًّا ، ويمكن أن أقدم المثالية ولا أقدم الرومانسية ، لأن الرومانسية سلوك ، والمثالية فلسفة ، إننى رومانسى أنشد المثالية ، والمثالية تجدينها فى لوحة غير محددة الملامح ، رغم أن عناصر الصورة كلها رومانسية حادة إلى حد تصل إلى المثالثة .

إنه لابد من اختيار أصل الكلمات إذا عبرت عن أسوأ المواقف فى الحياة ، إذا أردت رسم « خرابة » فمن اللازم أن أختار لها أسلوبًا وطريقة تجعلنى أرى فيها جمالاً ما .

وهنا أريد أن أقول لك نصيحة : لا تعط ابنك علبة ألوان رديئة ليتعلم الرسم ، أعطه ألوانا أحسن من ألوان الفنان ، وورقًا أفضل من ورق الفنان ذاته، حتى يتعرف على اللون الحلو والكلمة الحلوة .

* ... ...

* المرأة فى حياتى معنى ، لأن أمى ماتت ولم أرها ، وظلت فى حياتى معنى ، والمعنى أكثر من الواقع ، المرأة عطاء وإذا فقدت هذا العطاء فقدت كينونتها كامرأة ، وهذا العطاء ينحصر فى الأمومة ، لكن هذا الرأى قد لا يعجب كثيرًا من النساء ، لأنه يطالبها بأن تكون دائمًا «مضحية» وهى نظرة مثالية للمرأة، وحقيقى أن حاجة الفنان ليست دائمة بالمرأة المثالية ، ولكن يجب أن تعلم المرأة هذه الحقيقة عن نفسها وأن دورها الحقيقى هو العطاء .

وهناك المرأة التى لا أعرفها ولم يعرفها أى فيلسوف ، المرأة اللغز ، الغامضة ، هذه المرأة أراها فى اللحظة التى أريد أن أراها فيها ويتحقق ذلك فى السينما .

* ... ...

* الجمال يعنى لى ، إشعاع لحظة صدق كاملة فى الوجه يتجمل به ، لكن المرأة النسب أقصد « المانيكان » لا تمثل جمالاً بالنسبة لى ، فهناك النجومية والتمثيل ، وأؤكد لك أن جمال المرأة لا يضعها بالضرورة فى مقعد النجومية ، فهناك الكاميرا التى تفرق بين فتاة الغلاف وفتاة الأعماق (النجمة) .

الرجل الذى أخشاه

أخطر رجل يمكن أى إنسان أن يلتقى به هو نفسه لو أصبح عدوه ! فلا يمكن خداعه ، ولا يمكن إدراك إذا كان عدوًّا أو صديقًا ، ودائمًا يشكك فى صدق فهمه لما نقدر .

وهذا الشخص الآخر - دائما - يقتحمنى ، إما يدفعنى إلى العمل وإما ينقذنى بشدة ، والغريب أن بين الأول والثانى قدم واحدة ، وهذا شيء مزعج ، وكلما كان الثانى قويا استطعت أن أستخرج الأفضل من الفنان الأول .

أنا مؤمن أنك تستطيع أن تخدع العالم ، ولكنك لا تستطيع أن تخدع نفسك ، ويبدو أحيانًا أنه لا تأثير للناقد على الفنان ، فقد تصدر منه وجدانيًا كلمة عابرة ، أو تعبير أو اقتراح يبدو بريئًا ، فيغير هذا الاقتراح من حياة الأول ، الفنان .

وذات يوم كتبت سيناريو لأحد الفنانين، وكنت أحس طوال العرض أن هناك اختلافًا بين روح ماكتبت وروح الفيلم، وهنا قال لى الناقد الداخلى: لماذا لاتدخل معهد النقد وتدرس النقد؟ هذا الآخر التوءم.. هذه النفس الداخلية المستترة وتقديرها (أنا) تملك القدرة على التعبير والنقد والتغيير والصراع الدرامى الحقيقى معى، ليس أنا والآخرون، وأنا لاأعرف الغلبة فيها لمن؟ والخوف الأكبر عندما يتحد الآخر مع الآخرين، بمعنى أن يعضد الآخرين فى رأيهم فى عمل أى شيء قمت به، وهذا الشخص يجب أن يعيش مع الناس الذين يحققون له مناخًا فنيًا، والحرب بين الاثنين فى النهاية ليست حربًا بقدر ماهى الود الذى يبحث عن الأفضل، والخوف فيها ليس خوفًا حقيقيًا وإنما هو خوف افتراضى.

* * *

كانت بداية تجاربى فى درب اللبانة وبدأت رسم اللوحات الزيتية قبل الستينيات . واستخـــدمت الفـــرشاة والألـــوان ولكنى وجدت أن التصوير الـزيتى لم يعـد يكفى ما يحدث فى رأسى !

منير كنعان

* الفنان الذى وضع الرمل على لوحاته

الفن والجنون متشابهان .

فكلاهما يخلق لصاحبه عالمًا خاصًا به منفصلاً عن العالم الخارجي الذى يعيش فيه بقية الناس الطبيعيين ، ولكن لماذا لا يصبح كل نزلاء المصحات العقلية عباقرة خالدين ، يمنحون جوائز نوبل وتقام لهم المتاحف والتماثيل ؟

السبب بسيط وهو أن الفنان يختلف عن المجنون ، يختلف فى أنه يستطيع أن يدخل الآخرين فى عالمه الخاص ، بينما المجنون لا يستطيع ! ، هذا ما قاله الفنان الراحل صلاح جاهين على لوحات الفنان منير كنعان ، فنان الكولاج الأول فى مصر .

والكولاج هو فن الكراكيب أقصد فن التراكيب، وعندما سأل منير كنعان صلاح جاهين عن رأيه ، قال له : أنت رجل مجنون ، ومع الجنون

والفن والعبقرية كان الحوار مع رائد فن الكولاج الأول فى مصر ،

* سألته : ما هو فن الكولاج ؟

* قال : هو فن تصوير مضاف إليه قطع يختارها الفنان مثل القماش أو الخيش أو الأخشاب والخوص والسلك .

وعندما أقوم بتركيب خشب على خشب يسمى فن التراكيب ، لكن فى فن الكولاج يمكن أن تختلط الألوان مع الكرتون التى قد أمزق منها أشياء وأضيف إليها أشياء ، وممكن أن أضيف عليها أوراق الجرائد .

* قلت : هل يمكن أن نطلق على فن الكولاج ، فن الصدمات ؟

* قال : بل يمكن أن نطلق عليه فن « الدهشة » مطلوب فى الفن أن يجعل مشاهده فى حالة دهشة ، وهذه الحالة تجعله يصر على أن يفهم . فالدهشة نوع من « جر شكل المشاهد » لأن مشاهد فن الكولاج لن يرى شجرة أو إنسانًا أو نهرًا ، فن الكولاج مرتبط بالتجريد ، أقصد مرتبطًا بالمطلق .

* قلت : ماذا تعنى بالمطلق ؟

* قال : المطلق الذى يعطى فرصة للفنان أن يلف حول المساحة فى اللوحة ، فنان الكولاج مثل المهندس المعمارى .

* قلت : متى بدأ تحولك من فنان زيتى إلى فنان الكولاج ؟

* قال : بدأت رسم اللوحات الزيتية قبل الستينيات واستخدمت الفرشاة والألوان ، ولكنى وجدت أن التصوير الزيتى لم يعد يكفى ما يحدث فى رأسى فاضطررت إلى استخدام خامات متعددة ، منها الورق الملون المرسوم ، وبدأت أضيف على اللوحات « الشاش والقماش » ، وكانت بداية تجاربى فى « درب اللبانة » وكنت أول واحد لزق الرمل على اللوحة ، كانت بدايات متعددة ، ومن هنا أطلقوا على فنان الكولاج فنان التراكيب . أنا أول من لصق الخشب فى اللوحات الورقية ونشرتها فى مصر ، ثم انتشرت فيما بعد فى العالم .

* قلت : من أين تحصل على خامات لوحاتك ؟

* قال : من كل مكان من الخامات الخشبية والصاج والحديد من الأشياء القديمة ، وأفضل مصدر لهذه التراكيب أو الكراكيب من وكالة البلح ، الفن لم يعد اللوحة والزيت والفرشاة والبعد الثالث .

* قلت : من أين تستمد أفكارك ؟

* قال : من تجاربى واتصالى الدائم بذاتى .

* قلت : هل معظم لوحاتك عفوية ؟

* قال : تقريبًا لوحاتى كلها مقصود بها العفوية .

* قلت : هل فن الكولاج يمكن أن يعبر عن مشاكل الحياة ؟

* قال : إننى أستخدم أرقامًا وألوانًا وخامات موجودة فى حياتنا ، وهل تخلو الحياة من الأرقام أو من الألوان ، ولكن فن الكولاج أساسًا

فن تراجيدى فهو يعبر عما يعكسه على كل من يراه حسب ما يشعر به .

* قلت : الجولات الصحفية المرسومة ، لماذا لم تستمر فيها ؟

* قال : أنا أول من قام بالجولات الصحفية المرسومة وقد بدأتها فى الخمسينات أيام الثورة حيث رسمت المحكوم عليهم فى ثورة يوليو وكان ممنوعًا دخول كاميرات التصوير ، ورسمت اسكتشات سريعة فى جولات متعددة كنت أذهب إلى دار الأوبرا وأرسم الباليرينات داخل حجرات ملابسهن ، ورسمت من داخل مستشفى الأمراض العقلية ومن داخل السجن والمعتقلات وفى كل الأماكن التى منع فيها التصوير الفوتوغرافى ، ثم تناقلت روز اليوسف ومجلة صباح الخير المواضيع الصحفية المرسومة .

* قلت : وما هى حكاية بنت البلد ؟

* قال : « بنت البلد » على باب الحارة رسمتها على أغلفة مجلة آخر ساعة فى عام ٥٣ ، وأدخلت الرسومات على أغلفة المجلة .

* قلت : هل أنت خريج كلية الفنون الجميلة ؟

* قال : أنا فنان حر ، تعلمت الرسم ، وعلمت نفسى ، ورسمت إعلانات فى مطلع حياتى ، واشتغلت مع محمد التابعى ، واشتركت فى تطوير مجلة آخر ساعة فى الأربعينات .

* قلت : هل السينما استطاعت أن تعبر عن الفن التشكيلى ؟

* قال : نعم ، إن معظم المخرجين والمصورين السينمائيين الناجحين هم فى الأصل فنانون تشكيليون ، السينما فى أوربا فن تشكيلى .. المصور السينمائى يقدم لوحات فى أفلامه .

* قلت : هل المسرح الحديث استفاد من الفن التشكيلى ؟

* قال : الديكور الخلفى والملابس والحركة على المسرح .. كل هذه الفنون فن تشكيلى ، حتى الحركات الجسدية .

* قلت : هل تسمع الأغانى الشبابية ؟

* قال : إننى أتابع حركة الغناء الحديث ويعجبنى على الحجار ، كنت من عشاق عبد الوهاب وعندما ظهر عبد الحليم حافظ أحببته ، ويجب أن يتعلم الجدد من تجارب وخبرات الفنانين الذين سبقوهم لا يقلدونهم وإنما يستفيدون من تجاربهم فى تطوير فنهم .

* قلت : بعيدًا عن الفن والجنون والصحافة ما هو تأثير المرأة فى حياتك ؟

* قال : المرأة لها دور أساسى فى حياة أى رجل ، سواء أكان فنانًا أم رجلاً عاديًا .

وعندما التقيت مع سناء البيسى كانت طالبة غاوية فن ، علمتها الإخراج الفنى ثم أصبحت ناقدة لأعمالى ، وأصبحت أنا فيما بعد ناقدًا لأعمالها ، وأول قارئ لمجلة « نصف الدنيا » .

* قلت : ماذا عن الفنان الأب ؟

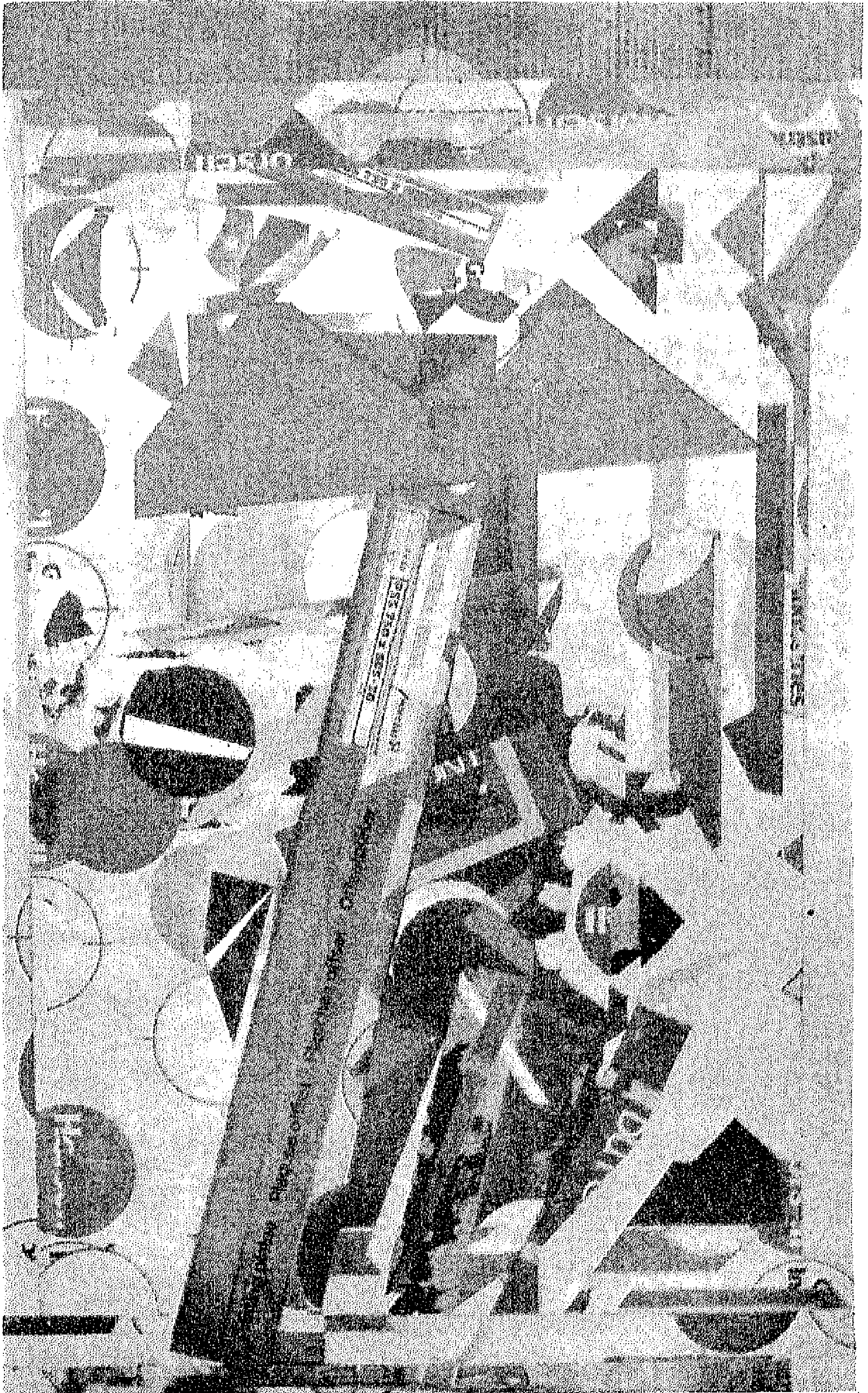
* قال : أنا أب لابنى هشام الذى اتفقت مع أمه من البداية على تعليمه فى مدارس لغات ، ثم اختار كلية السياحة والفنادق لينطلق بنجاح فى عالم الفندقة ، هشام أول ناقد لأعمالى أيضًا ، إننى أستشيره فى لوحاتى ، هشام لم يعمل فى الفن رغم اشتغالى بالفن واشتغال أمه بالصحافة .

* قلت : هل أنت مؤمن بالأبراج ؟

* قال : نعم أنا من برج الدلو ، وسناء البيسى من برج الأسد ، وهذان البرجان متوافقان .. الأسد عاطفى وبسيط ومعرفتى لصفاته جعلتنى أتعرف على كل صفات سناء ، إن الأبراج كيمياء جسدية ، برج الميزان مثلاً عاطفى وهو برج أفضل من الجوزاء ومن الدلو رغم أنهم يجتمعون فى أنهم هوائيون ، الجوزاء لديه شراهة فى تنفيذ أعماله ، وإذا أراد أن يفعل أى عمل لابد أن ينجزه ، أما برج الدلو فأهم ما يميزه أنه لا يتأثر بأحد ، ولديه الامتلاء الذاتى .

ويقول الفنان كنعان : فى البداية أعطيت سناء كل ما تحتاج من حرية مطلقة وهى تقول : لولا أن كنعان علمنى كيف أنسلخ عنه تمامًا لما كنت رئيسة لتحرير مجلة نصف الدنيا .

* قلت للفنان منير كنعان : هل هذا هو الحب فى رأيك ؟



* قال : أنا فنان تجريدى ، واحتياجاتى قليلة وما دام لا توجد مشاكل كبيرة فلماذا أضيق الخناق على من حولى .

* قلت : هل نجاح الزوجة يدفع ثمنه الزوج ؟

* قال : الحضارة تعمل نوعًا من التوازن ، وإذا لم أكن أتمتع بقليل من الحضارة لما استمرت الحياة الزوجية بيننا ، وأنا رجل سعيد فى حياتى ، لأن أسلوب الحياة اختلف ، ويجب أن « نفوت » لبعض ما دامت الأمور لا تصل إلى حد المشاكل الكبرى فى الحياة .

قالت لى سناء يومًا : كنت أحلم بأن يكون زوجى راجل خواجة .

قلت لها : لماذا خواجة ؟

قالت : لأن الخواجات لا يعرفون الكذب .

فالذى أعجب زوجتى فىّ منذ بداية علاقاتنا الصراحة والصدق والوضوح .

* * *

وفن الكولاج من الفنون الصعبة التصديق ولكنها مملوءة بالأحاسيس التى تثير فى المشاهد لها أكثر من تساؤل ، بل قد تدعوه إلى التفكير والتأمل ، وعندما قال صلاح جاهين للفنان كنعان : أنت راجل مجنون كان يعتقد أن هذا التعليق سيسره لأنه يدل على مدى انغماسه فى عالمه الخاص الذى خلقه لنفسه .

وقال صلاح جاهين عن فن منير كنعان : إنها لوحات مربعة ومستطيلة ، ومستطيلة جدًّا مملوءة بالبقع الملونة ، التى تستطيع أن ترى مثلها فى « معجنة » أى نقاش ، عندما يعجن الأحمر بجوار الأبيض بجوار الأصفر إلى آخر ما فى الألوان ، على شرط أن يكون هذا النقاش قد ألقى معجنته هذه فى النهاية بعد أن استهلكها تمامًا ، ولم يعد يجد فيها مكانًا جديدًا لعجنة أخرى .

ثم هناك لوحات أخرى عبارة عن أشياء ملصقة بالصمغ ، أسلاك معقدة وأصداف مهشمة ، وجرائد ممزقة ، ونافذة خشبية مخلعة ومبقعة ، وغربال مهلهل وقد الصقت بجوار كل هذه « الأعمال » قطعة صغيرة من الورق تحمل رقمًا !

إن مقدرة الفنان كنعان لا يشك فيها أحد ، وهو لم يلجأ إلى مثل هذه الشطحات لعجز أو قصور ، ولكن لأنه يريد ذلك ، وقد أعجبنى أنه يريد فيفعل ما يريد ولكن أحزننى أن أحدًا لم يفهم ما يريد ، ولم يستطع أحد أن يدخل معه إلى عالمه الخاص الذى خلقه لنفسه .

* * *

ويرى مصطفى إبراهيم مصطفى الناقد الفنى فى أعمال كنعان وجها آخر وشكلاً مختلفًا عما رآه الفنان الرسام صلاح جاهين حين قال عنه : هل تحب الصدمات ؟ هل تحب الأخشاب والخيش والخوص والسلك ؟ لا شك أنك لم تسأل نفسك ، إذن هل تحب الأحجار

الكريمة ؟ الماس والعقيق واللازورد ، لماذا ؟ ربما أحببت فيها نقاء مادتها أو صفاء ألوانها أو رقة خطوطها ، ولكن هناك من يحبون الأحجار الكريمة وغير الكريمة لأنهم يرون فيها رسومات غريبة أو شخصيات خرافية حوريات أو آلهة أو شياطين ، فإذا كنت من هؤلاء فلن تجد فى أعمال كنعان صورة واحدة وإنما ستجد مئات من الصور والأشكال والأحاسيس ، ستجدها أنت وحدك ، هذا إذا لم تصدمك هذه الأعمال بأشكالها وموادها المتنافرة من خيش إلى خشب إلى سلك إلى خوص إلى صحف ممزقة ومسامير وغير ذلك .

ولكن هناك ما هو أكثر أهمية من غرابة المواد .. هذه الغرابة قد تثير عدم استحسانك أو على الأقل قد تثير فضولك ، لكنه فضول سرعان ما يتلاشى بمضى الوقت لأنك ستكتشف فى النهاية أن هذه الأعمال كلاسيكية تماما ، لا تدهشوا فرغم غرابة المواد التى استخدمها كنعان إلا أنه اعتمد على خبرته الكلاسيكية فى خلق أنغام لونية منسجمة ، البيج مع البنى والأزرق الداكن مع الرمادى المائل للزرقة هكذا .

ولكن هناك موقف آخر .. فكنعان يندفع فى لوحات أخرى إلى أن يرفض تماما خبرات الكلاسيكية فيقدم مواد عارية تماما خالية من أى إضافة بحيث يضفى شكلها فى الواقع على شكلها المقدم به ، وفى حين آخر إلى التطرف فى الحداثة مع التطرف فى الكلاسيكية

كتلك اللوحة ذات الإطار الكلاسيكى جدًا « ذهبى اللون مسرف فى الزخارف » ، والموضوع المصنوع من قطع القماش ذات ألوان مختلفة متنافرة ، هذا بدوره يثير تساؤلاً هو : لو كان الفنان يبحث عن الصدق للجأ فقط إلى الغريب ، ولو كان يبحث عن الكلاسيكية للجأ إلى خبراته القديمة فما الداعى إذن للوقوف من هذين الخطين المتناقضين ؟ من العسير أن نجيب ولكن من الممكن من خلال السؤال أن ندرك أكثر مواقف الفنان ، وأقل ما يقال فى هذا ، هو أن الفنان ينسلخ ، أو هو يحول خبراته الكلاسيكية إلى شيء جديد في الوقت الذى يضيف فيه شيئًا لم يكن قد عرفه من قبل ، إنها عملية الخروج من القديم إلى الجديد ، الخروج بالقديم والتحول به إلى جديد ، وذلك هو الشرط الضرورى الذى يجعله يتطور طبيعيًا ومنطقيًا ، فإن التطور الذى لا يستند إلى حلقاته السابقة هو تطور عقيم لا يلبث أن يتلاشى دون أثر .

* * *

والناقد الفرنسى كريستين روسيلون قال عن منير كنعان : إن هذا الفنان المعروف بتجريديته له جذور عميقة فى الفن التشخيصى ، أولاً : بسبب عمله كمصور منذ عام ١٩٤٠ فى المجلات الكبرى التى تصدرها مؤسستا دار الهلال وأخبار اليوم ، وثانيًا لأنه مارس هذا الأسلوب طيلة عشر سنوات من حياته الفنية ، ومن البداية دخل

فى محاولات لإلغاء الموضوع والرواية من عمله ، واستطاع من هذا المنطلق أن يشيد لنفسه أسلوبًا خاصًا ، وأن يطرح قضايا تشكيلية تشبه إلى حد كبير القضايا التى طرحها فى عالم التشكيل كل من Jaspex Johns ، Rauschen Bergne فى الولايات المتحدة فى نفس المرحلة الزمنية .

من هذا المنطلق تصبح المادة والعمل عليها العنصر الأساسى للأداء الفنى والكافى بذاته لخلق الجمال وإثارة الأحاسيس الفنية ، وقد تمخضت تجارب كنعان فى هذه المرحلة عن مجموعة من اللوحات الزيتية على القماش تحمل عنوان « الجدار » وذلك فى الفترة من ١٩٦٠ إلى ١٩٦٤ ، إلا أن كنعان لم يزل يحتاج إلى الحركة فى عالمه الفنى ، وهى العنصر الذى يرتكز عليه فى مجموعة أخرى من اللوحات بالزيت على القماش تحت عنوان « إيقاعات وكذلك فى دفقات من أعمال الكولاج ، وهو الاتجاه الذى تغلب على ساحة أعماله الفنية منذ نهاية الستينيات .

وإن كان منير كنعان قد استلهم هذه التقنية من مدرسته فى البصريات ، إلا أنه أتقنها إتقانًا كاملاً فى مجموعة من أعمال الكولاج يستخدم فيها القصاصات الملونة ليخطف عين المتفرج جاذبا إياه إلى دوامة الخيال البصرى .

إلا أنه لم يكن فى وسع كنعان إلا يعود إلى « التصوير » بمعنى

الاستخدام المباشر للفرشاة والألوان لكنه فى هذه العودة كان يصطحب معه الجولاج . فمنذ نهاية السبعينات وهو يخوض تجربة جديدة يمزج فيها الأسلوبين فى ميلاد لوحات تجريدية يمزقها ثم يعيد تركيبها فى صياغة جديدة تجعل من مساحة اللوحة لعبة انعكاسات وإشارات ذاتية .

* * *

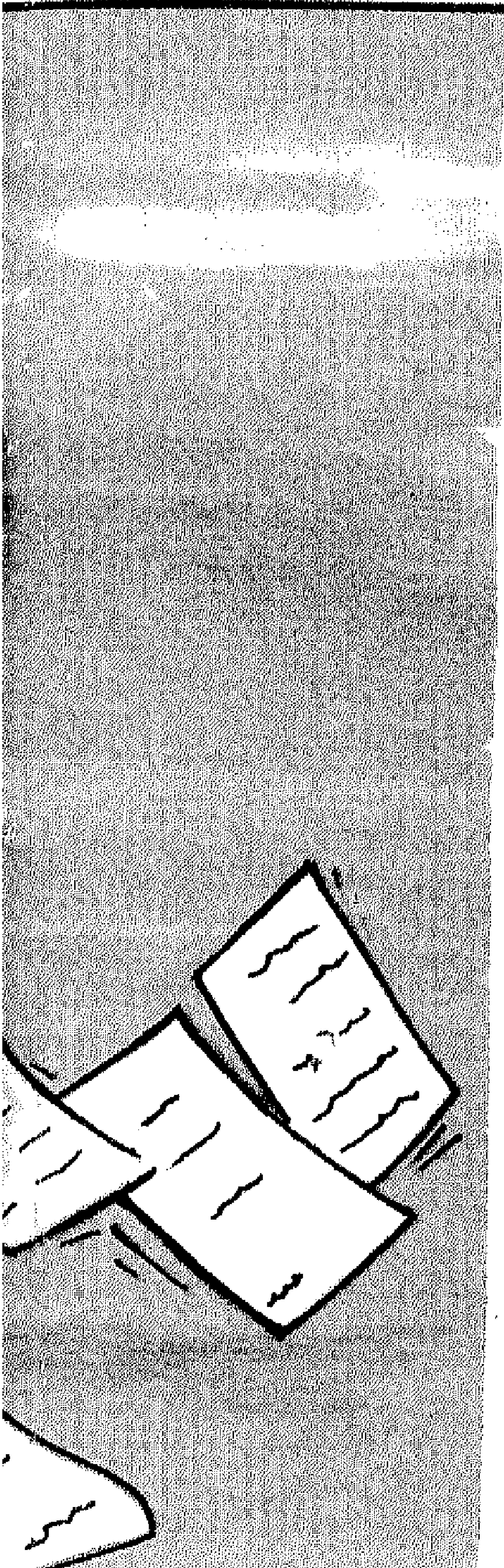
الفهرست

الصفحة

رقم الإيداع		١٩٩٣ / ١٠٨٥٩
الترقيم الدولى	977 - 02 - 4307 - 8	ISBN

١ / ٩٣ / ٩٢

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)



هذا الكتاب

نجيب محفوظ ، توفيق الحكيم ، احسان عبد القدوس ، فتحى غانم ، بيكار ، صلاح طاهر ، يوسف فرنسيس ومنير كنعانى .. هؤلاء هم أصحاب هذا الكتاب الحقيقيون . لأنهم لم يتركوا فرصة للتحاور معهم بل هم الذين صنعوا بأنفسهم أسئلتهم .. وبهذه التلقائية والعفوية كان هذا الكتاب .



دار المعارف

٤٠٦٥٣٠

اقرأ

سلسلة ثقافية شهرية

علي الكسار وثورة الكوميديا

ماجد الكسار



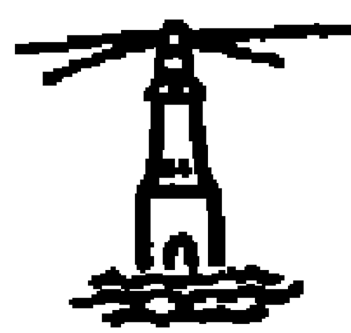
اقرأ

[٥٩٠]

على الكسار
وثورة الكوميديا

ماجد الكسار

علي الكسار وثورة الكوميديا



دار المعارف

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها ، لم يفكروا إلا فى شىء واحد ، هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة ، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية . وأن ينتفعوا ، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة ، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى نحياها .

طه حسين

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

سأجعل من النوع الهزلى أداة للدرس وتهذيب الأخلاق فى قالب هزلى ممتع .

على الكسار

إذا أراد مؤرخ أن يوثق التاريخ فليتوجه إلى المسرح . .

ماجد الكسار

على الكسار : فرقة فى شخص ، لا شخص فى فرقة .

مجلة المصور ٢ أكتوبر ١٩٣١

محافظة القاهرة
مكتب المحافظ

بسم الله الرحمن الرحيم

١٢٤/٥ ب
٨٩/٢/١٣

السيد / ماجد على الكسار

تحيه طيبه وبعد ،

تلقيت رسالة سيادتكم فى شأن طلب اطلاق اسم الفنان الكبير على الكسار على احد شوارع القاهره الكبرى ٠٠ وفى هذا الشأن لا يسعنى الا أن اسجل كل تقديرى لفنه الكبير الذى لازال يسعد الكبار والصغار بمشاهدة افلامه حتى الان ٠٠ واننا سنعمل على مراجعة اطلاق الاسم على الشارع المناسب تخليدا لذكراه ٠

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام ،،،

محافظ القاهره

يوسف صبرى ابو طالب

١٩٨٩/٢/١٤

وقد تحقق ذلك المطلب باطلاق اسم الفنان على الكسار بدلاً من « شارع الجنينة » بالأزبكية (قرار رقم ٨٨ بتاريخ ١٣ / ٢ / ١٩٩٠م) وجاء ذلك اعترافًا ووفاء من جيل لم يره إلا من خلال أفلامه القليلة التى تعرض على شاشة التلفزيون .

شكر وتقدير

إن من واجب الأمانة الإعتراف بالفضل لذويه ، لذا رأيت أن أسجل شكرى وتقديرى للمركز العــربى للصحافة لصاحبه سمير أبو داوود ، ذلك الرجل الذى آل على نفسه أن يكرس حياته من وقت وجهد ومال ، فى سبيل إعداد مكتبة فاخرة داخل فيلا بإحدى عمارات شارع قصر النيل ، زاخرة بصنوف الكتب والمجلات من فنون وعلوم وآداب ، تحمل تراث وتاريخ مصر والحقيقة ما لم أجده فى دوريات دار الكتب أثناء بحثى ، وجدته فى تلك المكتبة الرائعة ، وجميل أن تقرأ على جدرانها لافتات مكتوب عليها : الاطلاع لكل دارس وباحث بالمجان دون مقابل ، ويصل حب ذلك الرجل وولعه بما يقدم من خدمة لوطنه ، أن يفاجأ الباحث وهو يغوص فى أعماق ذلك الزمن البعيد بين صفحات تلك المجلدات وقد بدت ، وكأنها طبعة اليوم على قدم تاريخها ، (بآنسه تأتى على مهــل تقدم له فنجانًا من القهــوة معه كوب مــاء مثلج يقيد كذلك على حساب صاحب المحل) .

وتساءلت لماذا يصنع هذا الرجل كل ذلك دون مقابل فى عصر طغت فيه المادة والتكالب من أجلها على كل شىء فى الحياة حتى - العياذ بالله - القيم والمثل ، فوجدت لسؤالى إجابة . إنه محب عاشق لبلده لتراثها وترابها .

ماجد الكسار

نشأة الفنان

فى يوم حار من أيام الصيف ١٣ يونية عام ١٨٨٧ ، شعرت الأم (زينب) بآلام الوضع فبعثت برسول إلى زوجها الأسطى (خليل سالم) بدكانه ، وتطلبت منه سرعة إحضار أم على الداية ، وحضرت أم على ، وكانت علامات الوضع على الأم ، ولم تمض لحظات حتى صرخ المولود على يد الداية وقد أخبرتها على الفور بأن مولودها « ذكر » ، ففرحت به الأم على عادة أهل زمان ، بإنجابهن للذكور رغم أن مولودها الأول كان ذكرًا (محمد) ، واختارت الأم اسم ابن الداية (على) اسمًا لمولودها الجديد ،، وسبحان الله كان الطفل « على » منذ ولادته مبتسمًا للحياة ، وكثيرا ما كانت ترفع أمه عنه (البيشة) ، لتكشف عن وجهه المبتسم لجيرانها وأصدقائها ، وكثيرًا ما كانوا ينصحونها بأن (ترقيه) من العين ، ونشأ الطفل « على » فى أسرة متواضعة يكد الأب فى دكانه فى صناعة السروج ، التى تستخدم للخيول ، ويعود إلى بيته كل يوم برزق يومه ، واستنشق الطفل « على » هواء حوارى ودروب ذلك الحى الشعبى القديم ، الذى ولد فيه ، وأمضى طفولته فى حى السيدة زينب وكان يلهو ويلعب فى شارع

الخليج المصرى ، وكثيرًا ما كان يخلع ملابسه ويسبح مع أصدقائه من أطفال الحى فى مياه الخليج .

وعندما كبر الطفل ألحقه أبوه (بالكتّاب) ، وكله أمل فى أن يسير ابنه فى سلك التعليم ، ويحصل على شهادة تسمح له بأن يلتحق بوظيفة فى ديوان من دواوين الحكومة ، وأن يحقق له حلمه الذى بدده أخوه (محمد) ، كان الطفل « على » يخرج من بيته المتواضع الذى كان خاليا من المياه والكهرباء ، حال جميع مساكن الدرب ، وكان (السقّا) يحضر كل صباح يحمل (القربة) ، ويسكب الماء فى (الزير) ، وإذا أمسى الليل توقد الأم (المسرجة) ، وهى لمبة جاز بشريط ، وتضعها داخل فانوس لتضىء البيت ، ويحمل الطفل معه (مخلته) التى يضع بها بجانب لوح الإرتوار أدواته الخاصة ، التى كانت تشغل باله فقد ظهرت ميول الطفل فى محاكاة زملائه ومداعبتهم وتطلعه إلى عالم آخر ، فإذا انشغل المعلم فى الدرس أخرج الطفل « على » من (مخلته) أراجوزاً من الورق ، صنعه بيديه وشرع يحركه ، ويقلد بعض الأصوات ، وكأنه يريد أن يقدم لزملائه الأطفال مشهدًا هزليا ، ومما شجعه على الإتيان بهذا التصرف ، أن معلم الكتّاب كان كفيفًا ،ولكن سرعان ما كان يضج الصغار بالضحك ، فيسأل المعلم عن سبب هذا الهرج فيعرف منهم أنه الطفل « على » فيناديه الشيخ ويمده على رجليه ، وجد الطفل فى (الكتاب) عصا الشيخ ، وجدرانا ، وبابا مغلقًا ، فضاقت نفسه بهذه الحياة وصمم فى داخله أن يجد لنفسه مخرجًا من جدران هذا الكتّاب ،

فأخذ يسترق النظر من حين لآخر إلى المارة ، وكان استهواه واستحوذ على فكره وعقله (البلياتشو) ، الذى كان يصبغ وجهه بألوان مختلفة كثيرة ويلبس ملابس مرقعة ، ويبدو فى صورة مضحكة ، يطوف الحوارى والدروب ،يقدم للناس حركات هزلية مضحكة يرافقه زميله حاملاً له الطبلة ،التى يقدم على أنغامها هذه الحركات وقد أصبح لها رنين فى أذن الطفل « على » حتى إذا سمعها فى يوم من الأيام وهو داخل الكتّاب هرع مسرعًا إلى الشارع تاركًا خلفه المعلم والأطفال ليلحق بالبلياتشو ، ويطوف معه الحوارى والدروب فرحًا مسرورًا بما يقدم من حركات بهلوانية ، وكان المعلم ينجح أحيانًا فى أن يطلب من الأطفال اللحاق به وإحضاره ويمده على رجليه ، وأحيانًا كثيرة لا يفلح أمام فرار الطفل حتى أنه خرج فى هذه المرة من الكتّاب ، وراء البلياتشو دون عودة ، ولم يجد الشيخ بدًا من أن يذهب إلى أبيه فى دكانه ، ويخبره عن حال ابنه الذى لا يسر ويقول له : (إبنك يا أسطى خليل مخلّى الكتّاب مسخرة خالص ، فيه حاجة فى دماغه شغلاه عن العلام) .

وحزن الأب فقد خرج الطفل من الكتّاب كما دخله أميًّا لا يعرف القراءة ولا الكتابة ، فأبقاه معه فى دكانه ليعلمه أصول صنعته ، ولكن لم تجد هذه الصنعة هوى فى نفس الطفل ، وعاش بين والدين أب يضربه وينهره إذا وجده غائبًا عن الكتّاب أو الدكان أو يلهو مع أطفال الحى ، يقدم لهم حركات البلياتشو ، كان الأب يريد لابنه أن ينشأ جادًّا يأخذ الأمور بعقلانية ويتمرس على مواجهة الحياة الشاقة ،

بينما كانت الأم على النقيض تعطف على ابنها وتشجعه على ممارسة هوايته (خيال الظل) ، فبينما كان يجمع زملاءه من أطفال الحارة فى حوش البيت ، يقدم عرضًا ساذجًا من خيال الظل خلف قطعة من القماش الخفيف ، ويحرك العرائس من خلفها ، ويلقى عليها ضوء لمبةجاز ، ويسعد الأطفال بهذا المشهد ، ويصفقون له ، كانت الأم تقف على باب البيت تترقب قدوم الأب حتى إذا ظهر » ، تسرع بإخطار ابنها ليفض الحفل وينصرف الأطفال قبل دخول الأب البيت ، لتنجيه من ضربه كما كانت تخفى له العرائس فى (المشنة) تحت السرير حتى لا يقع عليها نظر أبيه ، فيمزقها حتى إذا ما انصرف ، عاد الطفل فأخرجها ليلعب بها وكثيرًا ما كان يقوم نقاش بين الزوجين بسبب ذلك الموقف المتناقض بينهما .

وشاء القدر أن يموت الأب والابن فى مفترق الطرق ، فحملت الأم عبء رعاية الأبناء محمد وعلى وأحمد وفاطمة ، وقد أنس الصبى « على » إلى أهل أمه ولجأ إلى خاله فى دكانه يتعلم منه صنعته (الطهى) ، وكان صاحب مطبخ يلبى طلبات الحفلات والأفراح والقصور من الولائم ، كما كان سائدًا فى ذلك العهد ، ووجد الصبى هوًى فى نفسه لهذه الصنعة لما يحيط بها من جو الأفراح والسمر ، وكان خاله يصحبه معه فى تلك الأجواء وهناك شاهد عديدًا من (البرابرة) يقدمون الطعام على الموائد ، وكانوا منتشرين فى مصر فى ذلك العصر ، وعشقت روحه هؤلاء النفر لما تميزت به روحهم من خفة لدم ، وطيبة القلب وسماحة النفس ، فجالسهم وخاطبهم كثيرًا وتمرس الصبى على هذه المهنة حتى

أصبح أخيرًا من الأسطوات ولقب بـ (الأسطى على الطباخ) ، ولم تهدأ نفس الصبى لهذه الحياة بل اتخذ منها خطوة ومرحلة جديدة فى سبيل تحقيق طموحاته وأحلامه ، فأخذ يجمع أصدقاءه من العمل وأهل الحى » ، ويكون فيما بينهم جوقة[1] لتقديم بعض المشاهد المضحكة التى إستوحاها من مشاهداته لمظاهر هذه الحياة ، تارة حياة السادة واصحاب الجاه والنفوذ وهم يتضاحكون ويتسامرون ، وقد جمعتهم جلسة فيها نساء وخمر تدور بينهم الكئوس وتارة علاقة السادة بالعبيد ، وهم يلبون لهم طلباتهم واحتياجاتهم ويخرج بهذه الحياة يقدمها للشارع المصرى ، بعد أن نسج خيوطها فى شبه سيناريو ، أما الحوار فكان كثيرًا ما يرتجله الشباب مع (على) ، والذى بلغ شأوًا كبيرًا فى هذا المضمار ، وكان يقدم هذه المشاهد المضحكة وسط حلبة ، التف حولها النظارة أمام المقاهى وإن كانوا قد صفقوا له كثيرًا وأسعدهم إلا أصدقاءه تركوه وحده وسط هذه الحلبة وانصرفوا عنه فقد شعروا بالإهانة والازدراء ، فهم موضع ضحك وسخرية من المتفرجين ، وقد لحقت الإهانه بكل من ينتسب إلى هذا العمل الذى لقب صاحبه بالمشخصاتى ، إلا أن « على » سار فى هوايته ولم يعدم حيلة فى أن يكون جماعة أخرى يقدم بها عروضه الفنية فى الساحات ، والأفراح ، وسرعان ما ذاع صيته ووجد هوًى فى نفس الناس لما تميز به من خفة الدم ، والروح .

(١) جوقة : المسمى القديم للفرقة .

وكان يقدم لجمهور النظارة « فزورة » ، وضعها من بنات أفكاره ويطلب منهم حلها مثل : (شيء أسود وقلبه أبيض يطلع إيه ؟) ، ويحار الجمهور في حلها ويرد عليهم « على » قائلاً (البربرى) ، كما شاركه الجمهور في إحياء هذه العروض الفنية عن طريق الدخول معه في (قافية) ، وكانت لها مكانًا في قلب الناس الذين صفقوا له كثيرًا ، فكان يفوز على كل من يحاول أن يرد عليه ، وفى صباح يوم من عام ١٩٠٥ ، وكان « على » قد صار شابًا وطرق الباب (شيخ الحارة) يطلب من الأم أن تبصم على طلب الاستدعاء (القرعة)[١] وصرخت في وجهه رافضة الإستلام ، وبكت عليه بكاءًا مرًا ، كيف تترك ابنها العزيز عليها يدخل القرعة التى كانت نظامًا للسخرة والعبودية والإذلال ، ابنها على الذى امتلأ قلبها بحبه ، حتى إن أهل الحارة أصبحت تناديها باسمه يا (أم على) وكان هو أيضًا ولوعًا بحبه لأمه وقد أخبرته بذلك الخبر المشئوم عند دخوله البيت ، وفوض أمره لله وأعد نفسه للدخول فى هذه الحياة التى رفضتها له أمه ، وحلفت برأس أبيها وألف سيف ما يدخل ابنها «على» القرعة أبدًا ، وأسرت في نفسها شيئًا ولبست الحَبْرة[٢] متجهة إلى المعلم (قرنى) بحى اليكنية المستأجر للفرن الذى ورثته « أم « على » عن أبيها وظن المعلم قرنى ، أنها جاءت لتحصيل الأجرة كعادتها ، ولكن فى هذه المرة لم يحن ميعاد سداد الإيجار بعد ،

(١) القرعة : التجنيد .

(٢) الحبرة : اللباس المستخدم قديمًا .

وقد ظهر على وجهها الحزن والأسى ، وتطلع إليها المعلم قرنى قائلاً : (مالك يا ست أم على ؛ مش عوايدك) فقصت عليه القصة وأخبرته أنها فى هذه المرة لم تأت لتحصيل الأجرة ، وإنما جاءت لتخبره ببيع الفرن ، فهى فى حاجة إلى مال تفدى به ابنها ، وتدفعه بدلية لإعفائه من القرعة وكان ذلك نظامًا معمولاً به فى ذلك الوقت وعز على المعلم قرنى أن يباع الفرن لغيره ، فاشتراه لنفسه ودفع لها ١٨ جنيها ذهبيًا ثمنا له ، وطارت الأم سعيدة يملأ قلبها الفرح والسرور إلى ابنها على تعطيه المال ليفدى نفسه من القرعة ، وأصبح حرًا طليقًا ، وارادت أن تحتفل أمه به تعبيرًا عن فرحتها ، فأقامت له حفلة فى الحارة وركب حصانًا ، عليه كسوة مزركشة طاف به الحوارى والدروب المجاورة ، وخلفه أهل الحارة يزفونه ويقولون : « زفوه زفوه دفع البدلية ومادخلش الجهادية » .

ويتقابل الأسطى « درويش أحد سكان الحى مع « على » ، ويعرض عليه فكرة المشاركة فى فتح محل يقدم الطعام للزبائن أى (مطعم) ، فهو يعلم مدى صدق وإخلاص وأمانة « على » التى اشتهر بها ، بين أهل الحى بجانب أنه أسطى طباخ من الدرجة الأولى ، إلا أن « على » رفض هذا الطلب وقال له : « أنا زهقت من عيشة الطبيخ دى ، أنا مش عايز أفتح مطعم ، أنا عايز أفتح جوقة » . ورد عليه الأسطى درويش « سيبك من الكلام الفارغ ده وانتبه لنفسك » — يعنى عايز تشتغل مشخصاتى ، أنت مش شايف المشخصاتيه محدش بيبص لهم ، حتى المحاكم ما بتاخدش بشهاداتهم ، إنت عايز تحط نفسك

فى زمرة الناس دول » . ورد عليه « على » بفطرته قائلا : « علشان أغير نظرة الناس للتشخيص التشخيص ده فن محدش يعرفه إلا اللى يفهمه » : ورد عليه الأسطى درويش : يعنى يا أخى راح تغير الكون » ، فرد عليه « على » « ربك يّدى سره لأضعف خلقه » .

ولم يفلح الأسطى درويش فى إقناع « على » وانتهى الحوار بينهما ، وسار كل فى طريقه ، واتجه « على » إلى دور التمثيل المنتشرة فى حى السيدة زينب ، وسيدنا الحسين ، وكون جوقة من أبناء الحى وقدم عروضه الفنية فى دار التمثيل الزينبى ، ولما انفضت هذه المجموعة من الهواة ، نجد « عليا » فى هذه المرة قد ازداد إصرارا على المضى فى طريقه شأن الفنان الأصيل الموهوب ، فقد اكتشف نفسه وعرف طريقه ، وبدأ يصعد سلم النجاح ، بعد أن استحوذ على حب الجمهور الذى صفق له كثيرًا ، وهنا فكر فى أن يختار لنفسه اسما فنيًّا ، يميزه بين أهل الفن فعاد بذاكرته إلى أيام طفولته فلم يجد أجمل من أن يحمل لقب أمه التى منحته كل حب وتشجيع على ممارسته تلك الهواية ، التى ولدت معه وساندته فى الحياة تعبيرًا منه عن وفائه وإخلاصه لها ،تلك الأم التى كان ينطلق إلى الحياة بدعائها (روح يا على يا ابنى يحبب فيك العبد والرب وعدد الحصى اللى فى الأرض) وكثيرًا ما كان يمزح على مع أمه قائلا من فرط حبه لها (لولا الملامة يا أمه إلا كنت سميت نفسى زينب فاختار (الكسار) وهو لقب الأم (زينب على الكسار) اسما فنيًّا له ، وعرف بـ (على الكسار) ، وبدأ ينتشر الكسار ويذاع صيته ، فانتقل بجوقة جديدة من الهواة

يعمل بها فى دار السلام بسيدنا الحسين ، واشتغل بها فى دار السلام ، ثم الكلوب المصرى يقدم بعض الفكاهات والاسكتشات وهنا ولدت شخصيته الفنية التقليدية التى ظهر بها فى بداية حياته الفنية ، (عثمان البربرى) عندما أراد (جورج دخول)[1] من أحد أفراد الجوقة أن يصبغ وجهه باللون الأسمر ليقدم شخصية ، ذلك الرجل ورفض الجميع أن يقدموا على ذلك إلا « على الكسار » الذى قبل أن يصبغ وجهه وينطق بلسان البربرى وجاء بآية من آيات الفن والإبداع فى أداء تلك الشخصية ، والتف حوله الجميع مصفقًا لتلك العبقرية الجديدة التى ظهرت فى النوادى الليلية ، بسيدنا الحسين .

وحتى ذلك الحين سنة ١٩١٥ لم تكن مصر تعرف المسرح الكوميدى بمعناه المألوف حاليا ، فالمكان هو النوادى الليلية والشوادر والمقاهى والساحات الشعبية ، والفن هو الاسكتشات وبعض النمر والفكاهات التى تعتمد على القافية أو القفشة ولم تكن ترتفع تلك الفكاهات إلى مستوى الفن الراقى بعد .

---

(١) فنان شامى صاحب جوقة .

ما قبل الكسار

كان المسرح التراجيدى هو الابن الشرعى للدولة ، ولم تكن تحظى الكوميديا بالتقدير والاهتمام من جانب الدولة ، والشعب بل كان ينظر إليها نظرة ازدراء واحتقار ، ولعل السبب فى ذلك أن جاء على مصر عهد كان التمثيل فيه عبارة عن مجانة وملهاة ، ولم يكن الشعب يقصد إلى أخذ العبرة ، واستخلاص العظة من الروايات المسرحية ، وإنما كان يقصد دور التمثيل للتلهى وقضاء الوقت ، وكان القائمون بأمر التمثيل فى دخيلة أنفسهم لا يطلبون من التمثيل إلا المادة فلا يهتمون لإصلاح المسرح ، ولا يحاولون البعد عن المجرى الذى أراد الشعب أن يسير فيه ، وإنما كانوا يحاولون إرضاء هذا الشعب فيبالغون ويمعنون فى المبالغة غير المحبوبة التى أرادها هذا الشعب ،ونتج من اتجاه ميول الشعب ومشايعة الممثل والكاتب لتلك الميول إلى اتجاه الرواية المسرحية ، كان مركزاً على نقطة واهية لا قيمة لها هى نقطة لا شيء وكانت لا شيء هذه هى غرض الجمهور الذى يحبونه ويقبلون عليه من ناحية ، ومن ناحية أخرى كانت مثار اهتمام أصحاب المسارح .

وأصبح الكاتب عبقريًا إذا كتب قطعة فى الواقع هى لا شيء وصار الممثل نابغًا إذا أخرج قطعة هى لا شيء وأصبح الجمهور لا يصفق ولا يقبل ولا يرضى إلا عن قطعة هى لا شيء[1] على أنه لم يكن للكوميدى قبل جورج أبيض وجود حقيقى فى مسارحنا ، وكل ما فى الأمر أن يضع روايات كانت تعرض فى فرقة المرحوم الشيخ سلامة حجازى وكان أهمها الشيخ متلوف ، وأبو الحسن المغفل ، والبخيل ، أما ماعدا ذلك فقد كانت الروايات تعتمد على العنصر الغنائى الذى كان يضطلع به فقيد الإنشاد المرحوم الشيخ سلامة ، على أن كثيرًا من هذه الروايات كانت تحوى فى ثناياها دورًا أو اثنين تمتزج بهما الدعابة وتختلط فيهما روح الفكاهة ، وكان أشهر من تسند إليه مثل هذه الأدوار الممثل الخفيف المرحوم محمود حبيب ثم عمر وصفى ، وكانت أغلبية هذه الروايات تنتهى بفواجع .

لذلك اعتاد الجمهور أن يطالب بفصل مضحك فى النهاية وطالما شاهدنا فى رقاع الإعلان عن حفلات التمثيل ، تلك الجملة المأثورة (تختم الرواية بفصل مضحك من أمير المضحكين محمد ناجى) .

ولم يكن الشيخ سلامة يلجأ إلى هذه الوسيلة فى الغالب إلا فى المواسم والأعياد ، وفى الحفلات التى كان يقوم بها فى ريف مصر ، وصعيدها ، ومن النوادر التى يصح ذكرها فى هذه المناسبة أن الأستاذ أبيض عندما ألف فرقته العربية الأولى من فطاحل الممثلين ، وقام إلى

(١) كوكب الشرق : ١٩٢٦/٣/١٠ ص ٣ .

الأرياف يعرض رواياتها الشائعة لويس الحادى عشر ، أوديب الملك ، وعطيل وغيرها يقول : إن الريفيين عقب إسدال الستار الأخير لم يكونوا ليغادروا المكان معتقدين أن كل رواية لابد أن تختم بفصل مضحك وأن هذا الفصل من بنية الرواية ولوازمها الأصليه ، وبدونه لا يكون لها شأن يذكر ، وبالطبع لم يكن فى المقدور النزول على هذه الرغبة ، فكان الجمهور يظل جاثمًا فى أماكنه مصفقًا مهللاً « لسه فصل لسه فصل » وبعد ذلك وضعت روايات من نوع الفارس ، كان منها أن قلبت رواية شكسبير « روميو وجولييت » رأسًا على عقب ، واستخرجت منها فكاهة خفيفة سميت روميو وجولييت الهزلية ،وكان الدور الهام فيها للمرحوم محمود حبيب .

وفى ذلك العصر ظهر الممثل « جورج دخول » فى دور « كامل الأصلى » ، فكان يمثل فصولاً مضحكة دون أن يعتمد فيها على نص[1] كان يظهر فى زى يثير الضحك ، حيث يرتدى بدلة مرقعة زاهية الألوان ، ويضع طربوشًا طويلاً مدببًا ، وينتعل زوجًا من القباقيب ويلطخ وجهه بمسحوق أبيض ويكحل عينيه ، ويصبغ أنفه ووجنتيه بلون أحمر قان ، ويلصق شاربًا ضخمًا ينثنى ، أى شخصية تثير فى مظهرها الضحك والسخرية وإذا نظرنا إلى المجتمع المصرى فى ذلك العصر ، نجد الشعب طبقات ثلاث : هى الطبقة الأرستقراطية ، وطبقة المتوسطين يندمج بها الموظفون ، والطبقة الثالثة طبقة العمال

---

(١) الدنيا المصورة : تطور الكوميدى فى مصر ١٩٣٠/٧/٦ ص ٢٢ .

الذين ترتكز عليهم الحياة الفعلية ، وهم العنصر الغالب ، وكل من الأولى والثانية متعلم ، أما الثالث فالقليل النادر جدًا يقرأ ويكتب ضعيفًا ، ويلحق بهذه الطبقة أفراد المزارعين وغيرهم ممن يجهلون القراءة أيضًا ، وظل التمثيل بمصر حتى قبل الحرب العالمية الأولى يعمل على إرضاء الطبقتين الأولى والثانية بلغة عربية فصيحة وأسعار غالية وإن وجد أفراد الطبقة الذين يجهلون القراءة منقذًا لهم بأعلى التياترو ، فيظلون طول ليلهم لا يفهمون لفظًا ، ولا يدركون معنى ، والألفاظ لغوية والمعانى أدبية ، وإنما يتربصون الفصل المضحك آخر الرواية ، والفجر قريب فيأخذون يضحكون مما يسمعونه من سقط اللفظ ، وسخافة المعنى بما لم يكن من ورائه صبر يحتمل ، وأخيرًا قامت الحرب العالمية وغشى الناس الحزن من كل جانب ، فتعطشت النفوس لم يسرى عنها بعض همومها فى أوقات الفراغ ، وفى أوائل عام ١٩١٥ ، ظهر هذا النوع من التمثيل الفكاهى فاشتركت الطبقات الثلاث فى تحصيل لذة السرور والاغتباط بما يسمعونه ويدركونه(١) .

كوميديا : الفرانكو آراب :

وإذا أراد مؤرخ أن يتتبع مجرى التمثيل الفكاهي فى مصر ، فلينفذ إلى تاريخ ذلك الفنان الرائد على الكسار ، منذ أن كون أول فرقة مسرحية تحمل إسمه عام ١٩١٧ ، وسرعان ما يجد ضالته ، فقد بدأ المسرح الكوميدى تتسع خطواته فى التقدم والرقى ، وتحول التيار

---

(١) مجلة يتاترو ١٩٢٤/١٠/٥ ص ٨ .

إلى المسرح الكوميدى حتى بات المسرح التراجيدى يشكو حاله ، وتغيرت نوعية الجمهور حيث أقبل الشعب باختلاف طبقاته من عمال وفلاحين ومثقفين وأميين على المسرح الكوميدى ، يمثله على الكسار ، وأصبح جمهور المسرح عنده من عامة الشعب بعد أن كان قاصرًا على الطبقة الأرستقراطية ، والخواجات ، والمتفرنجين لما كان لشخصية الكسار الفنية « عثمان البربرى » من شعبية كبيرة راح يخاطب بها عامة الشعب ، بأسلوب سهل بسيط محاولاً الابتعاد قدر الإمكان بفنه عن روح العصر من تقديم إسفاف وابتذال مستخدمًا أسلوب « الفودفيل » فى الإضحاك القائم على مواقف سوء التفاهم ، واستطاع على الكسار أن يصهر المجتمع ويقرب الطبقات الثلاثة من بعضها البعض ، ووصلها بصلة التآلف وحسن التفاهم ، وكان من أثرها ما سنرى عاجلاً ، وأخذت الأقلام تنعى لغة الكتابة لشيوع لغة الكلام بهذا التمثيل ، وهنا بزغت شمس الإصلاح وأبرقت بروق الأمل فى مسرح كوميدى ، يعد دربًا من دروب الثقافة فى المجتمع ، وإن كانت تلك الفترة (سنوات الحرب الأولى) التى اتسمت بالاستعمار ، وفرض نفوذه حتى على الفن الذى أصبحت فيه المسرحية خليطًا فى حوارها ما بين العربية والفرنسية ،وهو ما عرف بفن الفرانكو آراب ، وكانت السمة الغالبة على مسرحيات تلك الفترة وكثيرًا ما كان يكتبها الخواجات ، أمثال مسيو شارل نورج ، ومسيو برتيه ، والمسيو جوبتر ، وكذلك الكاتب المسرحى أمين صدقى ، لعلمه بأغوار اللغة الفرنسية ، هذا فضلاً عن كتابات على الكسار المصرية لمسرحه حتى

كان لتلك اللغة أثرها على أغانى ذلك العصر ، منها أغنية وضعت كلماتها لتغنى وقتئذ على موسيقى أغنية « بغته هندى » حوت بعض كلمات فرنسية[1] .

بور لامور دى ديه مدام
خففى رشق السهام
إيه بنيه وارحمى
مغرمًا يشكو السقام
مى لامور أى ترى
ذا مارنان جار الغرام
بين إيديك جيمير
توناليز فى ذا المقام

وإنى أضع نموذجًا لهذا الفن الذى قدمه على الكسار على مسرحه « كازينو دى بارى » الذى وافق عرضه فى أبريل ١٩١٨ من تأليف أمين صدقى ، تحتوى على أحد عشر لحنًا ، ما بين إفرنجى وعربى ، بجانب فواصل الرقص Danse وقد قام بتلحينه كل من مصطفى أمين ومحمد بيومى ويتضح فيه الملامح الفنية لتلك الفترة :

ويبدو ذلك عند رفع الستار عن الفصل الأول من الرواية[2] فى

(١) من كتاب من أجل أبى سيد درويش تأليف حسن درويش ص ٤٢ .
(٢) رواية بعنوان « مافيش كدة » .

منظر جزيرة ، ويوم شم النسيم ، وتدخل بائعات الفل والياسمين فى لحن استعراضى :

بائعات الفل :

يا الله يا بلبــــــل ويانا غنى صوتك جميل ولطيف ده فتنى
شـوف النسيم يا لطافته دا هادى والفـــل لســـه زهـره نادى

بائعات الياسمين :

الياسمين عـــايز من يضمـه ويقطفـه يانا من على أمـه
يالله يا كروان غنى وقسـم الـورد فى أكامـه متبسم

... إلخ (يخرجن)

حيث يظهر عبده البربرى ، وهى شخصية على الكسار فى الرواية ، يغنى هو الآخر يشكو حاله ويبكى على مواله ، فقد طرده الخواجه الذى كان يعمل لديه .

البربرى : (داخلاً يغنى) :

الدنيا وحشة دوكرى مسكاجينا مـالوش أمان آه يانى يا وعدى
خلّى الخواجه بتاعى طـــردنى خـــلانى أشـــتغل أدبـــاتى
حبيبتى هنا واسمهـــا زمبوبه ملحلحـــه وزى اللاهــلوبه
تجبنى من طـــوبه لطـــوبه حـــاكم محسوبكم شتوى ذواتى
زنوبة ردّى علىّ يا ويكه

زنوبة : (تكلمه من الشباك) به هو أنت يا منيل .

ويشكو لها حاله ، وتعرض عليه زنوبة أن يحضر الليلة لمقابلة الخواجه الذى تعمل لديه ، لأنه عامل هيصه وزمبليطه ، علشاى جاى له واحد سواح من بلاد بره من أمريكا ، وداير يلم فى رجاله أفرنج وولاد عرب علشان يفرج السواح على الحاجات البلدى بتاعتنا بتاعة بلاد جوه وأنها ستقدمه للخواجه ليلحقه بالعمل فى هذه الحفلة ، وطلبت منه أن يرتدى بدلة لمقابلة الخواجه ، لكن عبده البربرى يبدى أسفه لأنه لا
يملك شيئًا ، وتتنبه زنوبة بأن دولاب الخواجه مفتوح فتأخذ منه إحدى البدلات مع برنيطة الخواجه ، وتعطيها لعبده البربرى :

زنوبة : اهه لأجل بختك دولاب الخواجه مفتوح أما أروح أنتش لك بدلة من بتوعه استنى يا دلعدى (تدخل وتقفل الشباك) ، ثم تدخل زنوبة ومعها ملابس تعطيها له خد يا خويا .

البربرى : (ناظرًا للبدلة) دى إيه دى كان برنيطة ؟

زنوبة : القصد بقى زوغ بيهم لتودينا فى داهية يالله زوغ .

البربرى : (يقلب فى الهدوم) . (ضجة من الخارج)

زنوبة : يالله يالله يا عبده لحسن الجماعة الآرتست جم أهم Musique

ويدخل الأفرنك ويؤدون لحن (إحنا الآرتستات) :

Nous Sommes des artistes
De Bonne reputation

Nous n'Sommes ja mais tristes
C'est de notre profession
Le chant et , la , danse
C'est notre metier
Le chic et l'e legance
Il Faut le respecter
Voyez les petites Femmes
Qui nous treublent l'ame
Qui nous treublent l'ame

كما يبدو فى النص الحوار الفرنسى الدائر بين مارى وفيولا وبرتو صاحب الحفل :

M : je me de mande pourqu ai m'Bertaud nous a tous convoques Ce matin
V : Oui C'est Bizare qu il nous aif Fait Venir tous ensembles
M : C'est Surement pour un Contrat de longue duree
V : Ah C'est un homme Fort Bertaud Bertaud (entrant) Bonjour mes en Fants
Toutes : Bonjour patron

وفى أثناء ذلك الحوار يدخل البربرى وقد بدا على هيئته مظهر الخواجه ، بعد أن ارتدى البدلة والبرنيطة ، وقد ظنوا أنه هو السواح الأمريكانى ، وتحدث الكوميديا من سوء تفاهم ومواقف مواجهة البربرى للخواجات الذين لا يعرف لغتهم ، وقد ترجمها فى ذهنه حسب هواه ووقعها على أذنه فكلمه excellence مثلاً تصبح عند البربرى سكالانس وهكذا .

البربرى : (داخلاً) أدينى لبست أهه يا زنوبه .

Bertaud : Ah ciel le Voici je ne me trompe pas C'est le riche americain
Toutes : Le négre
Bertaud : Monseigneur
Toutes : Monseigneur

البربرى : يا خبر أسود .

فهو يندهش متعجبًا من عظمة الحفاوة التى قوبل بها .

Toutes : il parle l'arabe
Bertaud : Ca doit être un de grands orientales (au barbarin) pardon vous ne parlez pas le francais excellence

البربرى: سكالانس إيه كان لازم العبارة فيه لخبطة الراجل عرف هدومه يا زنوبه .

Bertaud : He bien quelle deveine quelle deveine

وتصبح كلمة كالتيفان عند البربرى كلت ! فيرد قائلاً :

البربرى : أنا ماكلتش حاجه إن شاالله ، إذا كنت أكلت حاجة تنزل لى بالسم الهارى .

وهكذا تتوالى استعراضات الرواية وحوارها .

من ذلك نرى :

● احتواء نص الرواية على الحوار الفرنسى بجانب الحوار العربى ، وهو لون الفرانكو آراب الذى فرضته ظروف الحال وأدى على الكسار جانبًا منه فى كازينو دى بارى ، وشاركه فى أدائه الأجواق الإنجليزية والفرنسية التى كانت تعمل بالكازينو ، وهى تمثل دولة الإستعمار

وحليفتها في الحرب في تلك الفترة بجانب تقديمه لروايات ثقافية في قالب فكاهي ، مثل أضرار الحشيش .

كما يظهر في الرواية فن الاستعراض الذي أدخله الكسار على الفصل المضحك ، عندما عمل بفرقته على الكازينو ، واحتواء بعض كلمات الألحان على ألفاظ خارجة عن اللياقة مثل لحن المشاجرة بين النساء والرجال والخفر :

الستات: امشي يا متلوم دانتو بلا هدوم
أما احنا يا سيدى على بطننا

الرجالة : يا مره يا رقيقة السماوى
وشك ماوى وريحتك نتنه

الخفير : أنتم جرابيع ودوله ملاديع .

● كما يتضح من الرواية مدى سيطرة الأجنبي على الحياة في مصر ، فهو صاحب العمل ، والمصرى الأجير ، حيث تعمل الشخصيات العربية في الرواية عبده البربرى ، وزنوبة لدى الخواجه المتحكم في مصيرهما .

● وننتقل مع الرواية إلى مظهر آخر من مظاهر بعض كوميديات تلك الفترة ، التي كانت امتدادًا للماضي ، وهي إحتواء الحوار على بعض ألفاظ بذيئة خارجة كوسيلة للإضحاك ، كما هو في الحوار الدائر بين البربرى وزوجته زنوبة :

زنوبة : الجو آهه راق لنا تعالى خدلك قطه .

البربرى : قطة يعنى إيه .

زنوبة : قطة يعنى قبله .

البربرى : (ضاحكًا) اختشى ، الله ينعلك ، عيب قدام الناس (يلتفت للجمهور ويرفع برنيطته مقدمًا ، بردون ويقبلها) .

يدخل الخواجه برتو :

البربرى وزنوبة : يا نهار إسود ، يُه قطيعة الخواجه شافنا :

ويحاول البربرى شرح الموقف للخواجه :

البربرى : أصل فى بلدنا أُرميكا ، نبوس الخدامين فى اليوم ثلاث مرات ، مرة الصبح ، ومرة الضهر ، ومرة العصر .

زنوبة : زى البرشام يا منيل واحده الصبح ، وواحده الضهر ، وواحد عند النوم .

وينتقل البربرى مع زوجته زنوبة إلى موقف آخر ، تلمح فيه مغازلة فيولا لزوجها :

زنوبة : تعرفيه منين ده (للبربرى) اللى قال لك تكلمها مين دى (تلتفت ترى فيولا تعمل إشارة بيدها للبربرى) :

البربرى : شوف شوف شوف بيعمل إزاى .

زنوبة : دا إيه ده يا مره بتستغفلينى (تجرى فيولا وتجرى وراها زنوبه وتحتمى بالبربرى وتناديه) .

البربرى : بربرى فى عين أمك (يهجمان عليها الاثنين فتخرج فيولا ويخرج خلفها البربرى) .

زنوبة : (ترى البربرى داخلاً) اللى قال لك تكلمها مين .

البربرى : أنا مالى أنا كلمته ، أنا واقف كده هُو بس لقيته دَخَل فىّ على طول .



على الكسار فى كازينو دى بارى مع الأجواق الأجنبية .

على الكسار وثورة الكوميديا

يعتبر عام ١٩١٩ فى الحقيقة عام اليقظة فى تاريخنا المعاصر ، فلم يكن هذا التاريخ قاصرًا على الثورة الوطنية ، التى امتدت يدها إلى الحياة السياسية بزعامة سعد زغلول ، بل شملت تلك اليقظة كل نواحى الحياة ، وكان من أبرزها الحياة الفنية ، ففى هذا العام تجلت مظاهر عديدة حولت مجرى الفن من حال إلى حال تزعمها المسرح الكوميدى « ماجيستيك » بفضل رائده فنان الشعب على الكسار ، ولعل من أبرز تلك المظاهر : انفصال على الكسار عن كازينو دى بارى ، والعمل مع أجواق الخواجات المفروضة عليه ، وافتتاحه لمسرحه الجديد « ماجستيك » فى ٦ يناير عام ١٩١٩ ، الذى سجل على خشبته جانبًا كبيرًا من تاريخ المسرح الكوميدى المصرى وشهد عصره الذهبى .

● من ذلك التاريخ بدأت المسرحية المصرية تتحرر من التبعية الأجنبية بتحرر الكسار من كازينو « دى بارى » وصاحبته مدام مارسيل .

● ومسيوساميت حيث طلب من كاتب مسرحياته الجديد ، أمين صدقى الابتعاد قدر الإمكان عن كتابة الحوار الفرنسى فى الرواية ،

وأن يخلصها من ذلك النمط ، فهو لم يكن يعد فى حاجة إليه ، وأصبح الحوار الفرنسى نتفًا من سطور ، حتى جاءت بدايات العشرينات وكانت قد تحررت المسرحية من الحوار الفرنسى تمامًا ، وأصبح حوار المسرحية حوارًا مصريًّا خالصًا على مسرح الكسار .

● ومنذ ذلك التاريخ أصبحت المسرحية الكوميدية تحمل معنى ومغزى وهدفًا يصبو إليه الكاتب ، ويسعى الممثل إلى توصيله للجمهور بعد أن كانت تدور فيما يسمى بلا شىء .

● ومنذ ذلك التاريخ شهد الفن عصرًا ذهبيًا للأوبريت والأوبرا كوميك المصرية ، ذات الفصول الثلاث بعد الفصل المضحك والفرانكو آراب .

● وفى ذلك العام أنجبت سماء الفن بدرًا ساطعًا هو « عثمان عبد الباسط » بعد أن تبلورت شخصيته ، وحمل اسم مصر لقبًا له « بربرى مصر الوحيد » ، وحمل معه قيم وأخلاقيات الشعب المصرى الذى هو واحد منهم ، بل ومن طبقاته الكادحة . من طيبة قلب وقناعة وطهارة ذمة وعفة وشرف وتسامح ، إلا فيما يمس كرامته ، وصار بطلاً لمسرحياته وأصبح بطل الروايات واحدًا من طبقات الشعب الكادحة ، فتارة نجده شيالاً وتارة نجده صبى قهوجى ، وأخرى نجده عاملاً بسيطًا ،وهكذا بعد أن كانت البطولة على خشبة المسرح قبل ذلك معقودة على أصحاب الجاه والسلطان والملوك والأمراء ، وما عدا ذلك كان خدمًا أو كَمًّا مهملاً ، وكان ذلك حدث فنى

كبير ، جعل المسرح المصرى يتجه لأول مرة إلى التعبير عن تلك الطبقات الشعبية الكادحة ، التى تمثل الغالبية العظمى من الشعب المصرى فى ذلك الوقت ، مما أوجد لتلك الطبقات مكانًا متسعًا فى مسرح الشعب « ماجستيك » الذى امتلأ بهم بعد أن كان جمهور المسرح قاصرًا على الطبقة الأرستقراطية والمتفرنجين من الشوام والأرمن وقليل من الأفندية .

● وقد تعدى ذلك الأثر إلى عالم الموسيقى ، باحتضان فنان الشعب على الكسار لموسيقار الشعب ، الشيخ الشاب سيد درويش منذ ذلك العام ١٩١٩ حتى تاريخ وفاته ١٩٢٣ ، وصار ملحنًا لفرقته وأسند إليه تلحين أوبريتاته التى عبرت كلمات ألحانها ، بجانب حوارها عن حال تلك الطوائف الشعبية ، وطالبت لها بالحرية والمساواة ورفع الظلم والمعاناة ، فخرجت فى ذلك العام من مسرح ماجستيك ألحان جديدة عرفت بألحان الطوائف ، مثل الكمسارية ، والكناسين ، والشيالين والسقايين ، والجرسونات ، والعربجية والبوهيجيه ، والبوسطجى ... إلخ وشهدت بذلك الموسيقى العربية عصرًا جديدًا على مسرح على الكسار بانتقالها من مرحلة التطريب ، يا ليل يا عين ، والتحدث عن الغزل والمجون والصد والهجر إلى مرحلة التعبير عن مظاهر الحياة بأشكالها المختلفة .

● وصحب ظهور شخصية عثمان عبد الباسط على المسرح المصرى أداء جديدًا لم يسبق له مثيل من قبل ، أداء اتسم بالطبيعية والسهولة والبساطة التى تتفق مع طبيعة الشخصية ، وإن كان أداء سهلاً ممتنعا

وأصبح الكسار فى ذلك رائد مدرسة الأداء الطبيعى ، وقد تبين بعد ذلك أنه أصدق الأداء ، وأكثره تأثيرًا على الجمهور وأصبح مخرجو اليوم يطلبون من الممثل اتباع ذلك الأسلوب قائلاً : « مش عايزك تمثل » أى يريد منه الاقتراب إلى الطبيعية فى الأداء ، بعد أن كان التمثيل قبل الكسار يعتمد فى التعبير على الصوت الجهورى ، وقسمات الوجه الحادة وما إلى ذلك من مؤثرات فى محاولة لإقناع المتفرج بالشخصية .

الكوميديا أداة للنقد والتصوير

ويسجل على الكسار فى إحدى مذكراته قائلاً : « برغم نجاحى على كازينو دى بارى وتحول الجمهور من الخواجات إلى أولاد البلد ، إلا أننى كنت أطمع فى تقديم فن جديد فيه « ريحة مصر » يعبر عن حياتنا ومشاكلنا لأننا كنا فى حاجة للتعبير عن مطالبنا وشكوانا وآمالنا وأحلامنا ، وأدركت أنه ممكن ، أحقق كل ده من خلال فنى الكوميديا ، الضحكة السخرية ، من غير ما نخطب ولا نمسك بندقية فعزمت على الانتقال بفرقتى إلى مكان آخر بعيد عن العمل مع الأجواق الخواجاتى اللى فى الكازينو ، وانتقلت إلى مسرح جديد فى نفس شارع عماد الدين - ماجستيك - وشيد لى خصيصًا وتم افتتاحه فى ٦ يناير ١٩١٩ ، وتحولت بذلك الكوميديا إلى مرحلة جديدة من مراحل تطورها على مسرح الكسار ، اتسمت بالنقد وتصوير حال المجتمع والتعبير عن طوائفه المختلفة ، وها هي طائفة من أفراد المجتمع فى ذلك العصر لاقت الجحود والنكران جنى عليها الزمن وما جنت على أحد ، يصور حالهم من البؤس والشقاء طائفة المتشردين فى الفصل الأول من رواية (فلفل) ١٩١٩ حيث ترفع عنهم الستار وهم جالسون بجوار لوكاندة شبت ينشدون (لحن المتشردين) :

المتشردون :

يا اخـــــونـا بردانـــين   يا أهـــل الشـــفقة جعانين
فوق إصحي يا واد يا سلامة   ســـيينا خليـنـــا نايمين
النوم ســـلوى اليتـــامى   النوم قـــوت المســـاكين
الشـــقا والغلب انكتبو علينا   آه قـــال ايه متشـــردين
ذنبنا إيه لا أب فيه ولا أم فيه   يعلمـــونا ويربونا ويواســـونا

ويودونا مدارس ولا كتاتيب

الخفير : فــز يا واد انت وهو   يا وسـخ من بره وجوه
فــز لالعـــن أبوك   وابـو اللى خلفـــوك

المتشردون : يا ناس دا حرام .
دحنا أيتام .
حانروح نتاوى فين

الخفير : جرجر يا خفير حسين .

وطائفة أخرى سلكت طريقًا فى المجتمع كان لها سطوة ، ويخشاها الناس ، ذكر عنهم الأستاذ نجيب محفوظ أن بعضًا من رجال البوليس كانوا يحتمون بهم ، عرفو بالفتوات كان لهم من الصيت البعيد ومنهم فتوات الحسينية وعماد الدين ، وقصر الدوبارة تصورهم المسرحية فى « لحن الفتوات » :

شـــمر يا واد يا جعلص   واســـتعد للخنـــاق
احنا العـتر والضـــرب   فى الزقـــاق دا زى دا

الشخص منا يكلف الصديرى دم قلبه
ويلقوظ اللأسه يا بيه ويخليها راق وراق
ادى فتوات عماد الدين جايين يا بو العنين
وادى فتوات قصر الدوبارة فين الشومة فين
طيب يجو احنا نوريلهم السير يطلع منين

كما يصور على الكسار – على مسرحه « ماجستيك » حال عمال ذلك العصر ، وما وصلوا إليه من بؤس وسقاء نتيجة التعطل ، وانخفاض الأجور للبعض المشتغل منهم فى مسرحية « ولسه » ١٩١٩ التى قدمها على الكسار فى أعقاب ثورة ١٩ ، التى أضرب فيها العمال عن العمل تعبيرًا عن رفضهم لذلك الظلم الواقع عليهم مطالبين بتحسين أوضاعهم وقد ظهر « عثمان عبد الباسط » على المسرح فى حالة بؤس :

زكى : اسمع يا عم عثمان .

عثمان : (يقترب وهو فى حالة بؤس ويهرش) نعم يا سيدى .

زكى : انت بتعمل إيه دلوقت .

عثمان : بعمل إيه ؟ باهرش .

زكى : (ضاحكا) لا لا مش القصد يعنى ما عندكش مركز .

عثمان : مركز إيه ! ليه هو أنا مديرية .

مارى : يعنى ما عندكش وظيفة ما بتشتغلش فى حاجة أبدًا .

ستهم : من حق يا زكي بيه ، ما تشوف له شغلانة ، يبقى لك ثواب دال رجل طيب وأمين .

عثمان : أمين في عين أبوك أنا عثمان يا سيدى مش أمين أبدًا .

زكي : شوفيه قبله يشرب إيه على حسابي .

ستهم : تاخد ايه يا دلعدى .

عثمان : آخد إيه . آخد على خاطرى هاتى لى واحد كومندارى .

ستهم : واحد نبيت .

عثمان : ولا واحد كونياك .

ستهم : عوايدك يا خويا (تخرج) .

عثمان : علشان الواحد ينسى همومه .

زكي : طيب ما تشوف لك شغلانة كلشن كان كده .

عثمان : شغلانة فين يا سيدى أدينى بادور فى ٦ أشهر لدلوقت على شغلانة ما فيش أبدا الدنيا بقت مصيبة خالص .

زكي : إزاى الكلام ده .

عثمان : إزاى إيه الأول خالص جيت اشتغل كمسارى ترمواى ، تانى يوم اعتصبوا الكمسارية ، جيت اشتغل فى مصلحة الكنس والرش ، اعتصبوا الكناسين ، جيت اشتغل فى بتوع وابور النور برضه اعتصبوا بتوع وابور النور ، قلت أنا راخر يا واد اعتصب .

ماری : من حق اسمع اسمع أظن أنا من إمكانى أشوف لك شغله .

عثمان : أدينى فى ايديكم يا ست شغلونى على كيفكم .

(ضجة من الخارج) إية الزيطة دى ؟ ! .

زكى : دول الجماعة البوهيجية .

عثمان : كويس خليهم يدخلو يمكن أشتغل وياهم .

وتدخل جماعة العمال البوهيجية يؤدون لحنًا ، تشارك كلماته فى تصوير الحال فى كلمات لحنية منغمة (لحن البوهيجية)

محســـوبكو انداس صـــبح محتـــاس ســـختو يا ناس
مـــافيش فلـــوس بقيتـو منحوس فقـــرتو خـــلاص
نشـــتغلوا فى إيه يا افندى يا بيـه مـدام البخت مـــوريه
مـــافيش تهييص مـــافيش قميص مـافيش لبـــاس
فين نروحو سابرتيه دنيا ليه ترباتيه أيام الهيصه فينيتو خلاص
محســـوبكو انداس صبـــح محتـاس كفـــرتو يا نـــاس
بوكـــر ما فيش يابو درويش قهـــاوى رقـص ما فيش
مـــدام مـــافيش بدال يغنيش نبيـــع ورنيـــش
دختنا نروح لمين سختنا يا مسلمين نشـكى نقـول لمين آه[1]

(١) راجع كتاب على الكسار بربرى مصر الوحيد – على الكسار فى الماجستيك عدد ٣٢٨ من كتاب اليوم ديسمبر ١٩٩١ صادر عن مؤسسة أخبار اليوم لنفس المؤلف .

كما تأتى بعض مشاهد مسرحية الافتتاح القضية نمرة ١٤ فى ٦ يناير عام ١٩١٩ تصور ما يحدث لأفراد المجتمع من بطش وإزلال السلطة لهم ، حيث أتى عثمان عبد الباسط إلى « القره قول » رمز القهر والاستبداد للإدلاء بشهادته وهو فى مواجهة الكونستابل :

الكونستابل : اسكت اقف فى أدبك .

عثمان : أدبى ليه بنرقص .

الكونستابل : أقف زى الناس .

عثمان : ليه راسى تحت ورجلى فوق .

الكونستابل : تعرف إن ما كنتش تقف زى الناس أعملك محضر .

عثمان : محضر ليه . حرامى . كسرت دكان ، ماشى على الشمال ، دست عيل ، وأنا ماشى ماينزمرش ، وأنا ماشى فانوس ورا مطفى الراجل فاكر انى معرفش الأصول ، كل حاجة محضر ، كل كلمة محضر إش حال إذا كان الورق موش غالى كنتو عملتو إيه .

كما قدمت كوميديا ذلك العصر النقد لداءات المجتمع وحكومته التى لم ترع شأن هذا الشعب ، وتركته عابثًا لاهيًا فى مهاوى الفساد فبينما امتنعت بسبب الحرب دخول الواردات إلى مصر من الغذاء والدواء ، وما أحوج الشعب إليه ، دخل إليه من أوسع الأبواب الكوكايين وتفشى بين أفراد المجتمع وصار خطرًا داهمًا على حياة الأمة ، حتى أصبحت الأجزاخانات تتاجر فيه بدلاً من الدواء ، ويصور

عثمان عبد الباسط فى معرض النقد لتلك السيئة فى مسرحية « أحلاهم » ١٩٢٠ فى « لحن الأجزاجية » :

احنا يا بيه الأجزاجية وفوقنا المخانجية حانعمل إيه ما دام الشبان طالعين فى الكوكايين غيه ، البيه من دول ما يمشيش إلا وجرامين كوكايين فى جيوبه ، قال مش كفاية عليه عيوبه حانبيع إيه أدوية واردات مابتجلناش من بره يا ناس بريه ، الأجزاجى صبحت عيشته بلاوى ، خش أجعصها أجزاخانة يا دوبك تلتقى فى الفترينة حزامين فتاق يا بو كترينه ، وست قزايز كلونيا ، وسفنج كتير قد الدنيا ، وشوية بنزين كل ده مش حاجة جنب تجارة الكوكايين ، ذنبنا إيه طول ما الحكومة ساكتة اهه علمنوال الاهمال ده مايشوفوا طريقة لتلافى الحال ده .

كما تصور المسرحية جانبًا آخر من حال المجتمع حيث يأتى على لسان عثمان قائلاً : شوفى يا ست من جهة الأخطار بلادنا فيها بلاوى كتير خالص ويستعرض جانبًا من مظاهرها من خلال طائفة المعددين المنتشرة فى أحياء القاهرة القديمة فى ذلك العصر فى « لحن المعددين » :

المعددة منا عيشتها نيلة فى نيلهْ
تطلع الدمعه م العين بالتيلهْ
العديد مش عل الأموات بس يا خويا

ياما فى الدنيا بلاوى وحياة أبوك وأبويا
أهه عزرائيل قعد له يومين هايج
خللا سوقنا ، وسوق الحانوتية رايج
على إيه بيحاربو الجدرى والاسبنيولى
احنا لنا كام موسم ياختى غير دولى

أحّيه على تجـــار الكوكايين	خـــالو نص البلــد مجــانين
أحّيه على غلـــو اللحمـــه	صبحت عند الفقير وحمـــه
أحّيـــــه يابو نجــــاراه	عـــلى البوكـــر والبكـــراه
خالو أجعص بيه بقى يوحـوح	بـاع ما قـــدامه ومـــا وراه
أحّيه على الخمـره يا سى برتو	اللى تلات أرباعهـــا سبيرتو
أحّيـــــه يا بو درويـــــش	أحّيه على غلـــوّ الطـــرابيش
لمـــا ييجى الطـــرابيش يبيع	يقولك فى الشمس ما تمشيش
الحـــرب دا والله يابو ســـالم	شـــمتنا قـــوى فى العـــوالم
الدنيـــا بقت ياختى دراماتيك	بـــس التفـــريح فى الماجستيك

وتتوجه كوميديا تلك الفترة كذلك إلى النقد السياسى كما فى أوبريت الانتخابات عام ١٩٢٣ التى توجه النقد والسخرية لما كان يسمى بالانتخابات المزيفة ، التى لا تمثل الشعب فى البرلمان الذى كثيرًا ما أعرض عن الأداء فيها بصوته . كما جاء على لسان أحد أفراد الطبقة الشعبية الكادحة فى المسرحية :

الفلاح : بقى انتو القصد من اجتماعكم هنا دلوقت يا جماعة انكو تكونوا كده لكميه واحدة ، وتطلبوا من حضرة سعادة الحكومة أنها تعمل لنا برلمان فيه من كل جنس وكل فرمه .

الجميع : وضح وضح وضح ..

الفلاح : إيوه يعنى تعمل لنا فى البرلمان ده مجلس شيوخ ومجلس أفندية ومجلس خواجات لأجل ما يبقى برلمان سكالانس ..

الكوميديا أداة للدرس والتهذيب

لم تتوقف جهود الكسار الباكرة فى تطور الكوميديا المصرية شكلاً وموضوعًا من انتقاله بالمسرحية من الفصل المضحك الفرانكو آراب إلى الاستعراض إلى الأوبريت والأوبرا كوميك ، وبعد أن كانت الكوميديا تدور فيما يسمى بالاشيء ، أصبحت ذات معنى ومغزى بتوظيفها فى كل نواحى الحياة . بل راح يتنقل بها إلى مرحلة أخرى من مراحل تطورها على خشبة مسرحه الماجستيك مستقلا بفرقته بعد انفصال شريكه وكاتب مسرحياته أمين صدقى عنه فى نهاية عام ١٩٢٥ ، فلم يكتف بجعلها أداة للنقد أو مرآة تعكس حال المجتمع ، وما يدور فيه من أحداث ، بل جعل منها أداة للدرس وتهذيب الأخلاق والارتقاء بمدارك العامة ، وطبع صورًا اجتماعية فى أذهان الجماهير ، لم نكن نفهمها من قبل ، كان لها أكبر الأثر فى تكوينه الخلقى عندما أعلن عن خطته قائلاً : (سأجعل من النوع الهزلى أداة للدرس وتهذيب الأخلاق فى قالب هزلى ممتع)[1] ، مستخدما فى نهاية المسرحية كلمة (درس) ليؤكد المعنى ، وقد أصبحت أداة للتنوير

(١) مجلة مصر الحديثة المصدرة أغسطس ١٩٢٨ ص ٣١ .

والفكر والثقافة مطهرًا الكوميديا من الشوائب العالقة ، التى لحقت بها منذ البداية من ألفاظ خارجة وإيماءات .وإن لم تظهر فى كوميدياته بصورة مقززة ، كما ظهرت فى كوميديات الريحانى ، والتى أشار إليها كاتبها المرحوم بديع خيرى[1] .

ولعل ذلك مرجعه إلى أمرين :

الأول : أن الكوميديا كانت فى بدايتها وكانت امتدادًا لعصر كانت فيه المسرحية تدور فيما يسمى بلا شىء .

والثانى : أن الشخصية الفنية للريحانى كشكش بيه عمدة كفر البلاص شخصية بوهيمية فهو ذلك الرجل العربيد المتواجد دائما على ترابيزات القمار شارب الخمر يجرى وراء شهواته وملزاته من النساء ، وهو ينفق فى سبيل ذلك كل ما لديه من مال ، فوجدت تلك الألفاظ مكانًا لها فى هذه الشخصية على النقيض من شخصية (عثمان عبد الباسط) لعلى الكسار ، والذى تتجلى فيه معانى الفضيلة والشرف والعفة والكرامة ، يبحث عنها ويحافظ عليها .فلم تجد تلك الألفاظ مكانًا مناسبًا لها فى هذه الشخصية .

السفور ١٩٢٧ :

انشغل مسرح الكسار بقضايا الشعب ، ومن عجب أن من بين هذه القضايا قضية نعيشها الآن وتشغل مساحة من حوارنا ، ولم

---

(١) مجلة المسرح عدد ٢٧ ١٩٦٦ .

يتطرق لها مسرح اليوم ، وقد تناولت الأفلام في ذلك العصر هذه القضية ما بين مؤيد ومعارض ، مما زاد من حيرة الشعب وهي قضية السفور والحجاب ، وفي أي الطرق يسير ، وتصور لنا إحدى المجلات ذلك الموقف على لسان أحد أفراد الشعب قائلاً : حضرة الأستاذ الفاضل مجلة ألف صنف الغراء ، تحية وسلامًا ،أتقدم لحضرتكم بهذا السؤال راجيًا عرضه على قراء جريدتكم الغراء ، قامت ضجة في مصر بين أنصار السفور والحجاب ، ثم لم تسفر عن نتيجة والآن نجد الخلاعة متغشية في المحجبات أكثر من السافرات فما رأى حضرات القراء في أيهما أفضل المحجبة أم السافرة ؟[1] .

ويخرج على الكسار على جمهوره بمسرحية تحمل اسم (السفور) ليهدى شعبه ويضع له حلاً لهذه الحيرة والتساؤلات ، ويوضح له جوهر القضية في أبسط الكلمات وأعمقها ويوضح له أن هناك فرقًا بين السفور والبهرجة ، أو الخلاعة المرفوضة وليس في السفور الطاهر البرىء ما يشين المرأة ، ما دامت محافظة على شرفها وكرامتها وعفتها ، فهو رمز كمالها وعنوان نهضتها ، وأن القضية هي منهج وأسلوب في الحياة ، وهو ما لم تحققه الأفلام ، وقد اختار في مسرحيته للزوجة المتطلعة للسفور اسما يعبر عن المعنى المراد توصيله إلى الجمهور « عفيفة » وكم كانت كذلك في مواقفها التي تحكيها لنا سطور المسرحية :

عفيفة : الله مالك كده النهاردة .

---

(١) مجلة ألف صنف ٢٢ فبراير ١٩٢٧ ص ٧ إسماعيل فكرى أباظة .

عفت : ماليش ، بس السفور اللى أنت طَلْعَالِى فيه أنا خايف من نتايجه أوى .

عفيفة : يا سلام عليك انت حنفضل متأخر كده لإمتى .

عفت : متأخر إزاى ؟ .

عفيفة : معلوم ، أنا واحده مبدئى السفور وشارطه عليك بكده قبل ما تتجوزنى ، الدنيا اتغيرت ولازم إحنا كان نتغير وياها ، بلاش كلام فارغ .

عفت : تتغيروا ، يعنى ما تتغيروش إلا بالرقص والبهرجة دى اللى انتو طالعين لى فيها .

وديع : لا لا يا عفت بيه ، أنا أفتكر أن الهانم ما تقصدشى بالسفور إنه البهرجة اللى بالك فيها لأ السفور شيء والبهرجة شيء تانى .

عفت : يعنى إيه ؟

وديع : معلوم لأن البهرجة القبيحة السافلة اللى بتفسد أخلاق الشباب استجارت منها حتى الأمم الأوروباوية ، اللى من عاداتها السفور وفرضت العقوبات الشديدة على اللى يستعملها .

عفيفة : ايوه ومنعته من دخول الكنايس علامة على استهجان البهرجة الممقوتة . لكن السفور الطاهر البرئ هو رمز كمال المرأة وعنوان نهضتها ومظهر احترامها وحصن كرامتها .

ويأتى موقف فيه درس (لجميل) الشاب صديق العائلة الذى ساوره سوء الظن فى (عفيفة) وأراد أن يفعل فيها سوءا فلقنته درسًا لن ينساه فى الأخلاق والفضيلة .

جميل : غريبة . مش تقولى لى إيه اللى حصل منى يا هانم ؟ .

عفيفة : منتاش عارف إيه اللى حصل موش بزيادة عملك الدون اللى عملته دى .

جميل : إيه عملت إيه ؟ ، موش كتر خيرى كان اللى كنت حوديك عند عمتك .

عفيفة : اعمل إيه عند عمتى يا قليل الأدب ، موش انت اللى اخترعت الجواب الزورده بفكرة إنى واحدة من إياهم ، اهى ده شيء ، فهمتى تمام أن السفور اللى بيقولوا عليه ده لسه ماجاش أوانه .

جميل : ليه بقى ؟

عفيفة : معلوم ما دام فى الأمة شباب فاسد زيك كده يدعوا التربية والتمدن وهم فى الحقيقة أحط المخلوقات ينهشوا الأعراض ويغروا البنات ويتعدوا على كرامة الستات ولا يختشوش على عرضهم ، يدَّعوا تحصيل الأدب وهمَّا مفيش أدب عندهم ، همَّا دول الميكروب القاتل فى جسم الأمة . يأخروا نهضتها للمساواة بالأمم الراقية اللى تعرف تعيش وتتمتع بالسعادة ونور الحرية .

جميل : معلش سامحينى يا هانم .

ويفيق الشاب اللعوب على كلام عفيفة ، ويعود إلى رشده وصوابه وهنا يتفجر موقف غنائى (دوتو) بين جميل وعفيفة يضع النقط فوق الحروف ويزيد من شرح المعنى .

جميل : آه آسف صحيح أخطيت
ورجع ضميرى يتألم
عندك وأدينى رأيت
الجاهل إزاء يتعلم
إن المصايب والفجور
لا هى بالحجاب ولا بالسفور

عفيفة : شىء بالرضا للمفرضة
الخاينة مبدؤها الشرور
لو يحجزوها بألف سور
والحرة أولى بها القبور
من عار يسكنها القصور

ويأتى على لسان « عثمان » فى نهاية المسرحية الدرس المستفاد مستخدمًا تلك الكلمة « الدرس » :

عثمان : ودلوقت يا جماعة حيث أن المسألة انتهت على خير ، لازم كل واحد يأخد له منها درس ينفعه فى المستقبل ، بس يا هوانم اعملوا معروف لايموها شويه ، وابعدوا عن البهرجة

الفاسدة دى اللى بتطمع فيكم أخس الشباب علشان نعيش بشرفنا ونموت بشرفنا .

وتسجل أقلام النقاد هذه السطور عن تلك المسرحية :

جميل أن تتقدم فرقة تمثيلية برواية كهذه تحاول بها إفهام الشعب حقيقة السفور ، وتفرق بينه وبين البهرجة ، وتطبع فى أذهان الناس صورًا اجتماعية ، لم تكن تفهمها من قبل ، وجميل أن يسمع الشعب من زوجة تأنيبًا مرًا لفتى عرض عليها أن تكون خليلته ، ولحنًا فيه عبرة وعظة ، فيه شرف وعفة[1] .

نصيحة عالهامش ١٩٢٨ :

ثم يقدم الكسار مسرحية أخرى من نفس الطراز جعل عنوانها (نصيحة عالهامش) وفيها درس وتحذير للآباء والأمهات بالعدول عن العادة السيئة المتفشية ، والتى كانت تهدد المجتمع والأسرة المصرية فى ذلك العصر ، فهم لا يحسبون حسابها وعواقبها بل كل ما يهمهم وشغلهم الشاغل هو الحصول على المال فقط فكانوا يزوجون بناتهم من رجال طاعنين فى السن ليس بينهم وبينهن رابطة حب أو وفاق ، وليس بينهم وبينهن تناسب فى العمر ولا ائتلاف فى الأذواق فهى تأتى إلى الحياة التى تبتسم لها ، وهو ينحدر إلى آخرته التى تتعجله وتفتح له أحضانها ، مما كان يدفع بهذه الشابة إلى أن تبحث لها عن

(١) مجلة الفنون ١٩٢٧ ص ٩ .

شخص آخر ، تجد عنده ما يتفق مع ذوقها ، وتلقى منه ما تستمتع به من مطالب الحياة ، وكانت في النهاية هي التي تتحمل لوم المجتمع ، فكيف نلومها إذا سقطت أو زلت قدمها في الهوة التي أعدها أبوها لها ودفعها إليه ، إنما هو الملام ، وهو نوع من المسرحيات تنبه إليه نجيب الريحاني ، بعد ذلك وحاول أن يقدمه في مسرحياته في أواسط الثلاثينات عندما قدم في الموسم المسرحي ٣٤ – ١٩٣٥ مسرحية (الشايب لما يدَّلع) ، والتي تعالج نفس القضية وتتناول نفس المعنى ، وتسجل لمسرحية (نصيحة عالهامش) بعضًا من مواقفها :

المركيزة : أما صحيح مجانين أجوازنا دول .

الكونتيس : مجانين وبس ، هما بيفتكروا إنهم يتجوزوا ستات لسه شباب زينا وندفن نفسنا ويَّا العواجيز دول كده بالحيا .

المركيزة : وأدحنا روخرين اخترعنا لهم علم الفلك ده اللى بيخلينا نبعد عن وشهم طول الليل وبتروح نسلِّى نفسنا فى صالة الدانس دى اللى اسمها صالة المنتزة ، وأهم فاكرين من تغفيلهم إننا بنسهر فى الرصد خانة . علشان نرصد الكواكب .

الجميع : هى . هى . هى .

الكونتيس : لكن الحق موش عليهم هم ، الحق على أهلينا اللى ظلمونا ولا عندهمَ شفقة ولا رحمة .

وجوزونا لناس عواجيز زى دول ، أكل عليهم الدهر وشرب ،وده كله من طمعهم وحبهم فى الفلوس يا خى قطعوا وفلوسهم سوا .

ثم يأتي « لحن » على لسان هؤلاء الشابات فى كلماته لوم لهؤلاء الآباء والأمهات :

مــين يلومنا فى همــــومنا	ده الشباب من طبعـــه عــزيز
إن حـــزنا غصـــب عــا	لمـــا نتجــوز عـــواجيز
أبهـــاتنا باعونا للّى عنده فلوس	همّا دول ظنونا فى البلد دى جاموس
المـــال هـو اللى عمـــاهم	واحنا اللى اتعزبنـــا معـــاهم
عيشـــة الشايب مع بنت اليوم	دى ظلموها يا ويل اللى جنوها
إن عـابت عيبهـــا يخف اللوم	والحـــق على أمهـــا وأبوهـــا

ويأتى فى نهاية المسرحية بالدرس المستفاد على لسان (بيبرون) ، وهى شخصية على الكسار فى المسرحية :

بيبرون : ودلوقت يا جماعة أنا حاقول لكم نصيحة عالهامش .

الجميع : أيوه نسمعها .

بيبرون : أولاً : اللي عنده بنت صغيرة وجميلة ما يضيعشى بختها ويخالف الطبيعة ويجوزها لعجوز زى صاحبنا .

ثانيا : إنه يجوزها لشاب يليق لها وسنه من سنها وتكون العينة من دى ، وآدى النصيحة اللى عالهامش أرجوكم تعملو بيها وتسمعوا نصيحتى لصالح العيلة والأمة .

البرنس : يعيش بيبرون .

الجميع : يعيش بيبرون .

« ستار »

آخر موضة ١٩٢٦ :

وهى مسرحية يرفض فيها الكسار علّة من علل ذلك العصر ، فى إحدى موضاته التى هبت على المجتمع المصرى ، من دول الغرب ولا تتمشى مع الشريعة الإسلامية ، وآداب وتقاليد المجتمع المصرى ويطالب فيها بالابتعاد عن التقليد الأعمى ، ويقول إن ما يصلح لغيرنا قد لا يصلح لنا .

وهذه العلة هى طلب الزواج عن طريق الإعلان فى الجرائد السيارة ، وكانت هذه هى بعض الإعلانات التى ظهرت فى مجلات ذلك العصر بطلب أصحابها الزواج(١) :

(أنا فتاة فى السابعة عشرة من عمرى ، أقيم فى منزلى وأشتغل بالخياطة ، دخلى الشهرى ١٢ جنيهًا ومن عائلة راقية أريد الزواج من شاب من ضباط البوليس يكون حسن السيرة والسلوك وعنوانى محفوظ بإدارة المجلة) .

« آنسة م . محمود »

(أنا شاب فى العشرين من عمرى موظف بوزارة الداخلية ، ولى شغف بالموسيقى والرقص ، أريد زوجة غنية من عائلة راقية

(١) أبو نواس .

بشرط أن تجيد القراءة والكتابة ، وتعرف العزف على البيانو وأشترط تبادل الصور) .

« حسين »

فتاة مسيحية يتيمة الأبوين صاحبة متجر فى العاصمة ، تريد الزواج من شاب مسيحى أو مسلم تكون أخلاقه حميدة ، تدفع (دوطه) قدرها عشرون جنيهًا ، وتشترط فى زوجها أن يكون موظفًا بأى وظيفة حرة على أن لا يقل دخله عن خمسة جنيهات شهريًا) .

« آنسة : أ . س . ف »

ونظرًا لعدم صلاحية النص للاطلاع ، فقد أتلفه الزمن ، فإننى أكتفى بعرض ما جاء فى كتابة النقاد عن هذه المسرحية تحت عنوان (آخر موضة فى الماجستبك) ، إن هذه الرواية ذات مغزى معين تستعمل فى معرض النقد لعلة من العلل الاجتماعية ، وهذه المسرحية تنقد علة من علل (آخر موضة) فى البيئة المصرية ، وآخر موضة أو (لاديرنيير دود) ، مخلوق معنوى هو معبود العصر الحديث وهو الفتنة التى تضل بالناس الطريق القويم ، بل هو الغواية الفاجرة تفسد الشرائع وتحطم الأنظمة ، وتربق ماء الوجوه وتقتل الضمائر الحية وقليلاً ما يسلم الشرف من الدنس والابتذال ، وآخر موضة التى جعلتها المسرحية هدفًا لها هو التخاطب ، وإعلانات طلب الزواج من الجنسين بواسطة الجرائد السيارة ، وليست هذه بدعة حديثة فى الغرب وإن كانت فى الواقع حديثة فى مصر ، فلا يصح القول

بأن ما يصلح لهم يصلح لنا وما ألفوه هم حتم علينا أن تألفه نحن ، في مصر تقاليد وفيها شريعة إسلامية ورجعيون ومصريون ، وهؤلاء مصالحهم الحيوية والاجتماعية مرتبطة بعضها ببعض ، تمام الارتباط ، تحت ظل تلك التقاليد والشريعة فلا يمكن أبدًا أن يعيش في هذا الوسط شيء لا يتفق مع مزاج الجميع ، وترضى منه الشريعة والتقاليد وإذا نشأ أو عاش شيء يدعو إلى الخلاف والتفرقة ، فإنما هو معول من معاول الفساد الاجتماعي يفكك روابط البيئة ، ويقطع أسباب صلتها ويهدم صروح تلك الشريعة والتقاليد ، وحسبك أن فسادًا من هذا النوع طريقة التخاطب وإعلانات الزواج بواسطة الجرائد ، ونقف اليوم عند هذا الحد لنعود إلى نقد الرواية والتمثيل غدًا[1] .

نادي السمر ١٩٢٦ :

وهي مسرحية من نفس الطراز فيها درس وتهذيب للأخلاق ، وعبرة وعظة وتسجل عنها بعض الأقلام قائلة : تصور هذه المسرحية الحياة الزوجية القائمة على أساس حسن التفاهم والوفاء المتبادل ، وكيف أن الزوج الذي يتنكب عن الفضيلة والشرف ويخون زوجته لا يكون نصيبه إلا جزءا وفقًا لعمله ، وأن تهيئ له المقادير ذئبا من الرجال يعبث بشرفه وكرامته كما عبث هو بكرامة الآخرين ، وفيها عظة بالغة تقرع آذان الشباب المفتون ، وتذكّر كل منكب منهم على شهواته ، وسادر في نزواته أنه متى أتيح له أن يتزوج فليودع أيام العبث والمجون

(١) كوكب الشرق ١٠ مارس ١٩٢٦ محمد عبد المجيد حلمي .

وداعًا أخيرًا ثم يتقبل حياة الاستقامة والشرف ، وأنه إذا عزم يومًا خيانة زوجته فليقدِّر ، أنها ستخونه أيضًا والجزاء من جنس العمل ، إنها رواية كثيرة المفاجآت ملتهبة العواطف استولت على عقول النظارة ، واسترعت انتباههم فصلاً فصلاً بل كلمة كلمة وتملكت مشاعرهم[1] .

المطامع ١٩٢٧ :

أجد على نسخة التلقين لتلك الرواية التي ستعرض على الجمهور ، ألمح شطبًا بالقلم الرصاص من جانب إدارة الفرقة على كل عبارة وحوار ، يحمل معنى أو إيحاءة خارجة لتطهير الكوميديا من تلك الشوائب التي علقت بها منذ البداية ، ففي صفحة ١٣ من نص الرواية تم إلغاء الحوار الدائر بين (كيومو) و (جاهر) التلميذ والأستاذ الآتي :

كيومو : طب موش تيجي يا أستاذ تقعد في أوضة المذكرة .

جاهر : لأخلينا هنا ناخد الدرس ع الواقف كده في البوفيه أحسن تزوغ مني تاني .

وفي صفحة ٣٠ تم إلغاء الحوار الدائر بين (البرهمان) ، (كريمة) و (جاهر) الآتي :

كريمة : لأ أنا طلبي بسيط جدًّا يا مولاي .

---

(١) ألف صنف ١٤ مايو ١٩٢٦ ص ١٤ – ١٥ محمود طاهر العربي .

البرهمان : بسيط ولاّ موش بسيط أنا أقسمت أنى أنفذه .

كريمة : كل اللى أنا طالباه جوز لى يا مولاى .

البرهمان : جوز إيه ؟

جاهر : جوز كوارع .

البرهمان : يعنى عايزه تتجوزى .

وفى ص ٣٣ من النص حيث يدور الحوار بين (البرهمان) ، (كنغو) .

البرهمان : وأنت يا كنغو روح حضر التعاليق علشان الفرح حالاً .

كنغو : أمرك يا مولاى . أنا أروح أحضرلك العليق حالاً .

وقد حرف كلمة « تعاليق » أى الزينة إلى كلمة « عليق » وهى كلمة تعنى تقديم الطعام للحيوانات وقد تم شطب عبارة (أروح أحضرلك العليق) وأكتفى بعبارة أمرك يا مولاى فقط .

وفى ص ٤٥ فى حوار بين « البرهمان » ، « جاهر » .

البرهمان : إيه فيه حاجة يا أستاذ جاهر ؟

جاهر : فيه إيه يا مولاى الحمار ده أخلاقه فسدت خالص (ويقصد هنا تلميذه) .

وقد تم شطب وإلغاء (يا مولاى الحمار ده) وأعلن عن قصده مباشرة وحل محلها كلمة (الواد تلميذى) وعن ذلك التطور الذى أدخله الكسار على المسرحية الكوميدية من تنقية الشوائب التى علقت

بها ، وكانت تلك المسرحية نموذجًا لذلك تسجل الأقلام عنها قائلة : إن هذه الرواية بعينها رواية (زباين جهنم) ، التى كان أمين صدقى قد ألفها لبشارة واكيم قاصدًا بأن يقضى بشخصيته على شخصية الكسار ، فتناولها حامد أفندى السيد ، وحذف منها كثيرًا من النكات البلدية والكلمات الخارجة عن حدود الذوق والأدب ، وغير اسمها ، وتولى تمثيل الدور الهام فيها الممثل المحبوب على الكسار ولا يسعنا قبل إتمام الكلام عن هذه الرواية إلا إعلان إعجابنا وسرورنا لتلك الروح الجديدة التى ظهر بها الكسار وفرقته فى هذا العام ، فلقد كانوا فيما سبق لا يعتمدون فى إخراج الروايات إلا على النكات المتبذلة والفكاهات الخارجة عن الحد ، ويكتفون بإضحاك الجمهور فحسب . أما فى هذا العام بعد انفصال أمين صدقى فقد أصبحوا يفكرون فى الموضوع قبل النكت ، وفى المغزى قبل الإضحاك ، ويكفى أن يقف الكسار على المسرح ليضحك من يهوى الضحك ويسر من يرغب فى السرور[1] .

« ففشتك » ١٩٢٧ :

تأليف حامد السيد وأزجال بديع خيرى ، وهى من نوع الأوبرا كوميك ، وقد خلا النص من قلم الرقيب اللهم إلا بعض الكلمات التى لا تندرج تحت قائمة الكلمات الخارجة ، ولكن يبدو أنه لابد أن يثبت الرقيب وجوده وإن لم يحتج الأمر ، وفى معرض النقد لهذه

---

(١) الفنون ٢٢ مايو ١٩٢٧ ص ٩ .

الرواية يسجل الناقد قوله : دعانى صديقى ليلة الجمعة لمشاهدة التمثيل على مسرح الماجستيك ، وكانت رواية جديدة فى أول ليلة لها هى رواية « قفشتك » فرحبت بالدعوة بفرض أن أروح فيها عن نفسى ، وأقف فيها على مبلغ ما وصل إليه جهد صاحب هذا المسرح وبدأ التمثيل ، فإذا أنا أمام نوع جديد من الروايات ، هو بلاشك أرقى كثيرًا مما تعودت رؤيته فى الماضى ولقد أعجبنى فى هذه الرواية بصفة خاصة ،حسن سبكها ، والبعد كل البعد عن القول المبتذل ، وقد كان هذا الابتذال دأب الكثيرين من المؤلفين ، أما مؤلف هذه الرواية ، فقد أرانا السبيل إلى النكتة البريئة والفكاهة الأدبية تأتى من الحيرة والارتباك ومدهش المباغتات[1] .

وينتقل الكسار بفنه متطورًا على مسرحه الماجستيك ، بتقديم نوع آخر من المسرحيات لم يكن تقديمه مألوفًا على المسارح الكوميدية حيث يقول فى إحدى مذكراته[2] :

ولم يألُ جهدى على تقديم المسرحيات الفكاهية فحسب ، بل قدمت نوعًا آخر من المسرحيات مثل أوبريت « وردشاه » و « عمرو بن العاص » وجاء ذكر هذه المسرحيات على سبيل المثال وليس على سبيل الحصر .

---

(١) ألف صنف وراء الستار ص ٦ م عبد القادر مدرس .

(٢) وهى مذكرة وجدت ضمن ملف المستندات مرفوعة إلى حضرة صاحب العزة مدير إدارة التسجيل الثقافى بتاريخ ١٩٤٨/٢/٢١ يسجل فيها باختصار تاريخ حياته الفنية .

وردشاه[1] – ١٩٣٠ :

وفيها يطوع الكسار الكوميديا ويسخرها لتقديم هذا النوع من المسرحيات ، التى تظهر فيها المواقف المأساوية ، ولكنها لم تخل من أسلوب الكسار الضاحك الساخر فى بعض المواقف ، كما عمد مؤلفها بديع خيرى إلى استخدام الفانتازيا ، وفكرة المسرحية تحمل المعنى المعروف : « اتق شر من أحسنت إليه » ففيها مقارنة بين الإنسان والحيوان متمثلا فى الكلبة ياسمينة فكم كانت مخلصة وفيه لصاحبها (عم زيتون) بينما كان الإنسان خائنًا ناكرًا للجميل لمن هو سبب فى نعمته وفى المسرحية ، درس يأتى على لسان (عم زيتون) ، وملخصها أن « وردشاه » أميرة من أميرات الأندلس ، تزوجت من الأمير غالب والى إحدى المقاطعات هناك ، وكان جيش الأسبان قد بدأ يتحرك لمهاجمة حدود العرب ، فاستدعى الأمير غالب لملاقاته على رأس جيش كبير وقبل أن يترك الديار اختار وزيره « نذير » ، ليحل محله فى غيابه وكان هذا الوزير يحب « وردشاه » ولكن لا يستطيع التصريح بما فى قلبه ، فما كاد الأمير يبتعد بجيشه حتى خلع « نذير » ثوب الرياء الذى التحف به ، وظهرت نواياه الخفية فراود الأميرة عن نفسها ، ولكنها احتقرت ذلك العرض وردت

---

(١) وهى المسرحية الوحيدة التى سجلها على الكسار بصوته للإذاعة قبل وفاته بقليل وقد أخذ عنها السيناريست إبراهيم عبد الرازق التمثيلية التليفزيونية (عفيفة) تتخذا هذا العنوان من مسلك الأميرة « وردشاه العفيفة » وكان أول عرضها على مسرح الماجستيك يوم الخميس ٦ نوفمبر ١٩٣٠ .

الوزير خائبًا ، فلم يجد يدًّا من أن يكتب للأمير بأن زوجته خانت عهده ، واتخذت لها من الأتباع خليلاً من دونه ، فتسلم « نذير » بعد ذلك خطابًا من ولى نعمته الذى مدَّ له يد العون والمساعدة يأمره فيه بقتل الأميرة ووأد طفلها ، ويلقى « نذير » أميرته فى أعماق السجن حيث وضعت مولودها ، ولكن الله يبعث لها مربيها عم زيتون » وهى شخصية الكسار فى المسرحية فينقب جدار السجن ، ويهرب بها ، لينقذها ويتكشف فى النهاية سر الخائن « نذير » الذى لقى حتفه جزاءًا لما صنع كما تحكى سطور الرواية حيث تظهر فى الفصل الثانى « وردشاه » فى السجن :

وردشاه : آه يا إلهى ارحمنى برحمتك والطف فى قضاك ، وعنّى بقوتك على احتمال الشدايد انت موجود يا إلهى فى سماك ولا ليش معين سواك ، أشكو إليك حالى ، أنا الضعيفة . أنا المظلومة أنا البريئة ، وأنت القوى العادل المنتقم ، انتقم لى يا إلهى من « نذير » الظالم ، آه ياولدى . آه يا مسكين . آه يا تعيس . يا ريتك ما اتولدت ولا انقسملك تشوف بعينك نور الدنيا دى الخداعة دار الأحزان والأوجاع آه بتبتسم يا حزين ، ابتسم وعزِّى أمك المسكينة وسليها فى وحشتها على شماتة العدة وبعد أبوك الحبيب .

وتدخل عليها مسعودة حارسة السجن لتقدم إليها الطعام فتمتنع عنه !

وردشاه : آكل آل أكل إيه وشرب إيه من له نفس ياكل ولاّ يشرب ،
دا لولا خاطر الطفل المسكين ده كنت أموت روحى وارتاح
من عيشتى المره المؤلمة ده آه يا إلهى إنت قادر تخلق لى
من الشدة فرج وترحمنى أنا وابنى المسكين .

ويفجر الموقف « لحنًا » تناجى فيه « وردشاه » ربها وهى فى السجن تطلب منه النصر والفرج :

لمـن أنا أشـكى همومى ... غيرك يا ربى وأحـزانى
مـابى هنا قلـة نومى ... ومـابى ذلـتى وهـوانى
حكمـت فـىّ خاين دنىء ... وأنا بين إيدى طفل وبرىء
إن كان صـيانة العفـاف ... تجلـب لـى الإهـانة
إنت مجـير الضـعاف ... إنت نصـير الحـزانى

ويأتى الفرج على يد « عم زيتون » الذى استطاع أن ينقب حائط السجن ويهرب بالأميرة « وردشاه » وقد بدأ عليه التأثر لوضع الأميرة لمولودها داخل السجن .

وردشاه : آه ياربى إيه ده شيطان . فين السجانة تيجى تشوف ده إيه

زيتون : (من الخارج) : « وردشاه » يامولاتى « وردشاه »

وردشاه : وردشاه ؟ إيه إنت إيه ؟

زيتون : أنا عمك زيتون

وردشاه : زيتون ؟ إنت فين ؟

زيتون : أنا بانقب الحيط .

وردشاه : آه ياربى . إياك ماحدش يطب علينا دلوقت

زيتون : (يدخل) : هى فين

وردشاه : أبوى زيتون .

زيتون : هى لازيتون ولاليمون يلّلا نهرب من هنا حالاً

وردشاه : فهمنى إنت وصلت لهنا إزاى ؟

زيتون : أنا جيت من ناحية النهر بواسطة واحد فلايكى صاحبى واهه منتظرنا بالقارب بتاعه يلّلا بينا نهرب قوام .

وردشاه : طب استنى لما اجيب ابنى .

زيتون : ابنك !! أنت ولدت هنا فى السجن ؟

وردشاه : إيوه ياعم زيتون .

زيتون : الله يؤذيه المؤذى . الله يجازى الظالم ياما نصحت جوزك وفهمته إن الراجل ده راجل غشاش ولا كان يقبل منى . ما شاء الله الولد شبه أبوه تمام . لا والمصيبة إنه بعت جواب فهمه حكايتك الملفقه مع سرحان وما كان من جوزك العبيط إلا بعت له يأمره بإعدامك إنت وابنك .

وردشاه : وايه العمل دلوقت ياعم زيتون .

زيتون : مافيش غير الهرب يا اللاّ مرّى من النافذة دى وأنا أناولك ابنك وأنزل وراك .

وردشاه : أنا خايفه لحد يظبطك .

زيتون : ماتخافيش علىّ أنا ماپابنش فى الضلمة .

وينكشف فى النهاية ستر « نذير » على يد « عم زيتون » وينتصر الحق على الباطل وينال نذير الخائن جزاءه ويأتى الدرس على لسان عم زيتون .

زيتون : يا راجل حرام عليك اتقى الله ماتتهمش الأبرياء .

نذير : ايه أبرياء بتقول . لازم يقى لك رجل فى الحكاية .

زيتون : لا لا لا يد ولا رجل ومع ذلك أنا أجيب لك شاهد يبرأنى ادخل ياواد يا سرحان (يدخل) .

نذير : يا خبر إسود .

زيتون : عايز شاهد تانى . ادخلى يا مولاتى « وردشاه » . ادخل ياعم بشير (يدخلان) . أهم ربنا بعث لك اللى فى القرافه كلهم .

غالب : هه ايه رأيك يا سيد نذير

نذير : غشنى الملعون بشير .

غالب : بشير اللى كلفته يجيب لك عنين زوجتى وقزازه من دمها .

بشير : وعارف قزازه الدم والعين دول اللى قدمتهم بتوع مين ؟

زيتون : عنين المسكينة الريتة كلبتى يا سمينة اللى حرقت قلبى عليها يحرق قلبك ، وأظن إن الفصل اللى حصل منك ده يعتبر درس لمولانا الأمير ومولاتنا الأميرة اللى وضعوا ثقتهم فى راجل غشاش ندل زيك .

وفى معرض النقد للمسرحية يقول الناقد : « وردشاه » تعتبر تجربة جديدة أقدم عليها الأستاذ الكسار بقلب جرئ إذ أن الرواية لم تكن من النوع الذى اعتاد الجمهور أن يراه فى مسرح الماجستيك ، ذلك لأنها مأساة قوية تستدر الدموع من أولها لآخرها ، ومع ذلك فإن الفرقة قد أخرجتها ونجحت فيها نجاحًا بعيد المدى ، كان أحسن رد على من يرمونها الجمود وبالاقتصار على نوع واحد لا تتعداه .

لقد كنت أرى جمهور الكسار ، وللمرة الأولى ، يجلس فى خشوع وصمت متأثرًا باكيًا من فرط ما يشاهد والدموع منهمرة من المآقى ، وفضلاً عن ذلك فقد حوت الرواية عظات بالغات ، كان الجمهور يتقبلها قبولاً حسنًا ، ويستوعبها من كل شعوره ، فهذا الذى أؤتمن خان ، وتلك الأميرة المنكوبة التى حافظت على عرضها أن يلوثه مجرم أثيم ، ولقيت فى سبيل ذلك أقصى ما يتحمله إنسان من عذاب وآلام ، حتى إذا كان الختام ولقى القصاص العادل ، انفرجت الثغور ، وارتاحت القلوب هذه آيات رأيناها فى رواية الكسار ورأينا الجمهور يرتاح إلى ذلك الانتقال المفاجئ الذى نعتقد أن الفرقة ، ستواصل سبيله وتعمل على الإكثار من ذلك النوع الجديد الذى يحوى من العظة ، ويحمل من العبرة ما يرقى مدارك العامة ، ويرفع

من شأن جمهور المسرح الكوميدى ويكون أكبر الأثر فى التكوين الخلقى[1] .

عمرو بن العاص ١٩٣١ :

ومن خلال التعرف على النص المسرحى لأوبريت عمرو بن العاص يتضح لنا مدى تغير على الكسار وتلونه فى تقديم فنه ، فلم تكن المسرحية من النوع المألوف تقديمه على مسرحه « الكوميديا » ، وإن احتفظ على الكسار بدوره الكوميدى فى المسرحية ، فهو الذى تشع منه روح الفكاهة بين الحين والآخر دون خروج عن الإطار العام للمسرحية ، كما أنه هو المحرك لأحداثها ، ومن ذلك يتضح لنا مدى قدرة على الكسار وفهمه وإدراكه لطبيعة فنه الذى أمكن أن يسخره ويطوعه فى تقديم كل ما يريد .

وهى مسرحية تاريخية تحكى لنا بطولات العرب وانتصاراتهم على الرومان وفتح مصر بقيادة عمرو بن العاص ، وفى أرض مصر يلتقى المسلمون بأقباطها ويرفعوا عنهم الظلم الواقع عليهم من الرومان ، وينشروا دين العدل والتسامح ، وفى نهاية المسرحية نجد دعوة صريحة إلى الوحدة الوطنية بين صفوف الشعب مسلمين وأقباط . وهو ما كان يسعى الاستعمار إلى تحطيمه ونشر سياسة فرق تسد .

وقدمت المسرحية فى أربعة فصول ويدور الحوار فى المسرحية

---

(١) مجلة الدنيا المصورة ١٦ نوفمبر ١٩٣٠ ص ٢٢

باللغة العربية الفصحى جاء على لسان عمرو بن العاص بجانب اللغة العامية للمسرحية ، كما امتلأت بالتراتيل والآيات القرآنية التى جاءت على لسان الكاهن بطريرك الأقباط وعمرو بن العاص أمير العرب .

والجدير بالذكر أنه قد أصدرت السلطات بعد العرض الأول للمسرحية الأمر بإيقافها بدعوى أنه لا يصح أن يقدم مسرح كوميدى مثل هذه الموضوعات الحساسة ، ولكن على الكسار لم يكن ليقف مكتوف الأيدى أمام هذا الأمر ، بل سعى إلى تشكيل لجنة خاصة لمشاهدة المسرحية ثم الحكم عليها وكان له ما أراد ، وتم تشكيل لجنة من بعض رجال الأزهر والكنيسة والداخلية التى حضر عنها هارون سليم نائب مدير عام الأمن فى ذلك الوقت ، وبعد مشاهدة المسرحية صفق لها الجميع استحسانًا وإعجابًا لمقدرة الكساد فى تقديمه على مسرحة الكوميدى لمثل هذا الموضوع دون خروج أو مساس ، وأمرت اللجنة بفتح أبواب « الماجستيك » عن مسرحية عمرو بن العاص .

ومن الغريب أن تلك القضية التى قدمها على الكسار على مسرحه منذ أكثر من ستين عامًا فى هذه المسرحية (الوحدة الوطنية من المسلمين والأقباط) تعلو وتطفو فى أيامنا هذه ، وتحتل حيزًا كبيرًا من أفكارنا ومساحات واسعة من كتاباتنا بل وبلغ الحد إلى أنها أصبحت قضية تشغل بال المجتمع وتأخذ فى بعض الأحيان أشكالاً خطيرة . ورغم هذا لم يتنبه إليها ولم يتناولها مسرحنا الكوميدى اليوم كما تنبه إليها وتناولها مسرح على الكسار فى الزمن البعيد . وفضل مسرح

اليوم أن يعيش عابثًا لاهيًا فيما يقدم من إسفاف وابتزال فى كثير من الأحيان .

أدوار المسرحيــة

عدد	رجال	شخصيات	عدد	سيدات
١	عمرو بن العاص	أمير العرب فاتح مصر	١	أرمانوسة
٢	الضابط	رومانى ضابط للجباية	٢	بربارة
٣	حنا	مزارع قبطى		حاشية بينهم نساء
٤	أوركاديوس	قائد عام رومانى		فى العرب ونساء
٥	أبوميامين	بطريرك الأقباط		للرومان
٦	رهبان عدد ٢	شمامسة		
٧	مرقس	خادم لأومانوسة		
٨	الرسول	جندى		
٩	يوكنا	رومانى حاكم حلب		
١٠	وردان	عربي وزعيم		
١١	الجريح	قبطى		
١٢	عبد الله	الكسار - عربى كوميك		
١٣		رسول عربى		
١٤	استفانوس	قبطى		
١٥	المقوقس	الحاكم المقيم للحكومة رومانى		
١٦	جنود رومان	اللزوم - وعرب اللزوم		
١٧	ضابط رومانى	ملازم فى الجيش		
١٨	قائد رومانى	ثانى فى الجيش		
١٩	الأمير كيروس	حاكم مصر		

ويتضح ذلك من حوار المسرحية ومواقفها ، حيث يظهر عند رفع الستارعن الفصل الأول منظر قرية (الفرما) ، بيوت من الطين يحيطها نخيل وكروم ، على اليمن باب دير صغير ، وجنود الرومان ينشدون لحنًا يتغنون فيه بأمجادهم وعظمتهم ، ثم حوار بين القائد والضابط الرومانى ، وحنًّا المزارع القبطى :

القائد : خلاص جمعتوا الضرائب المطلوبة كلها ؟

الضابط : إيوه خلاص ماعدا كام واحد بيدعوا أن ماعندهمش فلوس لكن يستحيل ، أنا لازم أخليهم يجيبوا طلباتنا من تحت الأرض ... أهو البيت دا مثلاً ... .

القائد : ماله ؟ !!

الضابط : بيت راجل عجوز من الجماعة اللّى لسه مادفعوش حاجة وبيدعى إنه معدم خالص ولا عندوش شىء لكن أنا حاورى سيادتك دى الوقت إزاى حاخليه يجيب الفلوس دى حالاً ..

القائد : طيب هاته لنا علشان أنظر فى أمره بنفسى .

الضابط : أمر جناب القائد (يتجه وينادى) يا راجل ياحنًّا ... ياحنًّا .

حنًّا : نعم يا سيدى ..

الضابط : اخرج هنا كلم جناب القائد .

حنًّا : (وقد دخل) حاضر يا سيدى ... نعم .

القائد : حضرة الضابط بيقول إنك ممتنع عن دفع الفلوس المطلوبة منك لحد دلوقت صحيح يا راجل ؟

حنّا : لايا سيدى أنا موش ممتنع بس ماعنديش .

القائد : ماعندكش ازاى يا راجل انت .

حنّا : ماعنديش يا سيدى ، لأن محصول أرضى وبستانى خدتوه علشان تموين الجيش بتاعكم ، ولا خليتوليش حاجة أبيعها وأسدد منها المطلوب منى .

القائد : ما هو طبيعى إننا نأخذ محصولك علشان نديه للعساكر الرومانية اللى جايه هنا علشان تحميك وتدافع عنك .

حنّا : طيب ومدام خدتوا المحصول حدفع منين يا سيدى ؟

القائد : موش شغلنا ، المهم دلوقت إنك تدفع المفروض عليك .

حنّا : طيب أمهلونى شوية وأنا أروح أستلف الفلوس دى بالفايظ وأجيب هم لكم .

الضابط : اهو كده دلوقت بقيت راجل طيب روح هات الفلوس وتعالى يا شاطر ، ولا تنساش تجيب وياك جمدانة خمر قديمة لجناب القائد .

حنّا : طيب حاضر (يخرج)

كما تصور المسرحية فى حوار دائر بين القائد وبطريرك الأقباط الراهب أبوميامين ذلك الظلم والاستبداد فى جمع الضرائب :

أبوميامين : نهاركم سعيد يا أولادى .

القائد : نهارك سعيد ياسعادة الراهب إياك تكون لقيت فى الدير ده إيراد كويس .

أبوميامين : على كل حال موش أنا المختص بإيرادات النذور ، فيه واحد مختص لصندوق النذور ، يأخذ الفلوس منا ، ويوزعها على الفقراء أول بأول .

القائد : على كل حال .. الجيش الرومانى له نصيب فى فلوس النذور دى وخصوصًا دلوقت لأنه فى حالة حرب مع العرب بسبب دفاعه عنكم وعن بلادكم .

أبوميامين : لكن أناباقولك إن الفلوس اللى بتيجى بتتوزع على الفقراء أول بأول .

القائد : كلام فارغ انتوا يظهر إنكوا نسيتوا إيه هم الرومان ، وإيه اللى يقدروا يعملوه معاكم .

وهنا يأتى رسول إلى القائد يخبره بانهزام الجيش الرومانى وانتصار العرب ودخولهم (الفرما) .

أبوميامين : يركع فى الجهة التى فيها باب الدير رافعًا يديه لله قائلاً المجد لله فى العلا وعلى الأرض السلام وبالناس المسرة .

ويدخل العرب رجالاً ونساء ، ويهرب القائد والضابط إلى الدير وينشدون لحنًا عربيًا :

العرب :

مرحـــى مرحـــى جاء النصـــر ولقـــد أضـحى وله عمـرو
وكفـــانا الدهـــر حـــوادثه لله علـــى هـــذا الشـــكر
فطلـــب النصر ولو أن العدا شيدوها فى بروج من حديد
فى سبيل المجـــد نستحلى الردا كلنا أســـد لنا بأس شـــديد

ويدخل عمرو بن العاص مناديًا بالنصر مرددًا بعضًا من الآيات القرآنية :

عمرو : نصرٌ من الله وفَتْحٌ قَرِيب .

الجميع : نصر من الله وفتح قريب .

عمرو : إن ينصرُكُمُ الله فلا غالبَ لكم ، وإن يَخْذُلكُمْ فَمَن ذَا الَّذِى ينصركم من بعدِه وعلى الله فليتوكَّلِ المؤمِنون .

الجميع : توكّلنا على الله .

عمرو : عباد الله ، لقد فتح الله علينا ، وهزمنا الرومان ، وما النصر إلا من عند الله ، ودخلنا هذه القرية ونحن نجهل ما يضمره لنا قبطها ، فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السَّلَمَ فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً ، وإن بادءوكم بالعدوان فردوا عليهم ما يبدون ،وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلوكم ولا تعتدوا ، إن الله لا يحب المعتدين ، أيها الناس : اغمدوا سيوفكم ، واجنحوا إلى السَّلْمِ حتى يقضى الله أمرًا كان مفعولاً .

وهنا ينادى على (عبد الله) ويظهر الجانب الكوميدى فى المسرحية من خلال تلك الشخصية للكسار ، كما تظهر الدعوة إلى التسامح والتآخى من جانب المسلمين تجاه الأقباط :

عمرو : عبد الله ... أين عبد الله ؟

عبد الله : (من الخارج) إيوه أدينى جاى أهو يا مولاى (يدخل) .

عمرو : عبد الله ..

عبد الله : مولاى ..

عمرو : اذهب ونادى فى الناس بالسِّلْم ، وأن العرب تؤمنهم على أولادهم وأرواحهم وأعراضهم ، وأنهم لا يحملون لهم عداوة ولا يضمرون لهم شرًّا .

عبد الله : حاضر يا مولاى .. يا إخواننا ياأهل البلد ، إن كان راجل أو حُرمه أو ولد ، الحاضر يعلم الغايب ، العرب ناس يعرفوا الواجب فما تخافوش على أرواحكم ولا أموالكم ولا أولادكم ، العرب ناس فنجرية مايلعبوش أم مكيه ولايكلوش فى الزبدية ، وعينهم فى الرزيه ، ولايعاملكوش معاملة جهنمية ولايخطفوش منكم العيش والغموس زى المناجيس أولاد المنجوس .

عمرو : ما هذا يا عبد الله ترفع عن السباب ، لا يُحِب الله الجَهْرَ بالسُّوءِ من القول إلاَّ مَنْ ظُلِم وكان الله سميعًا عليمًا .

عبد الله : حاضر يا مولاى .. ماهو بس أنا حاكم مقروص من الجماعة الرومان دول ، وفى بطنى كل دوده ، ودوده منهم تبلع جمل .

عمرو : لابأس ..

عبد الله : ومع ذلك أدينى خارج أهلِّلْ فى كل حته من غير شتيمة ولا حاجة ، يا أهل الفرما إن جانا منك فقير أعطيناه أو جعان وكلناه وإن . كده . يا مولاى ..

عمرو : أجل أجل ..

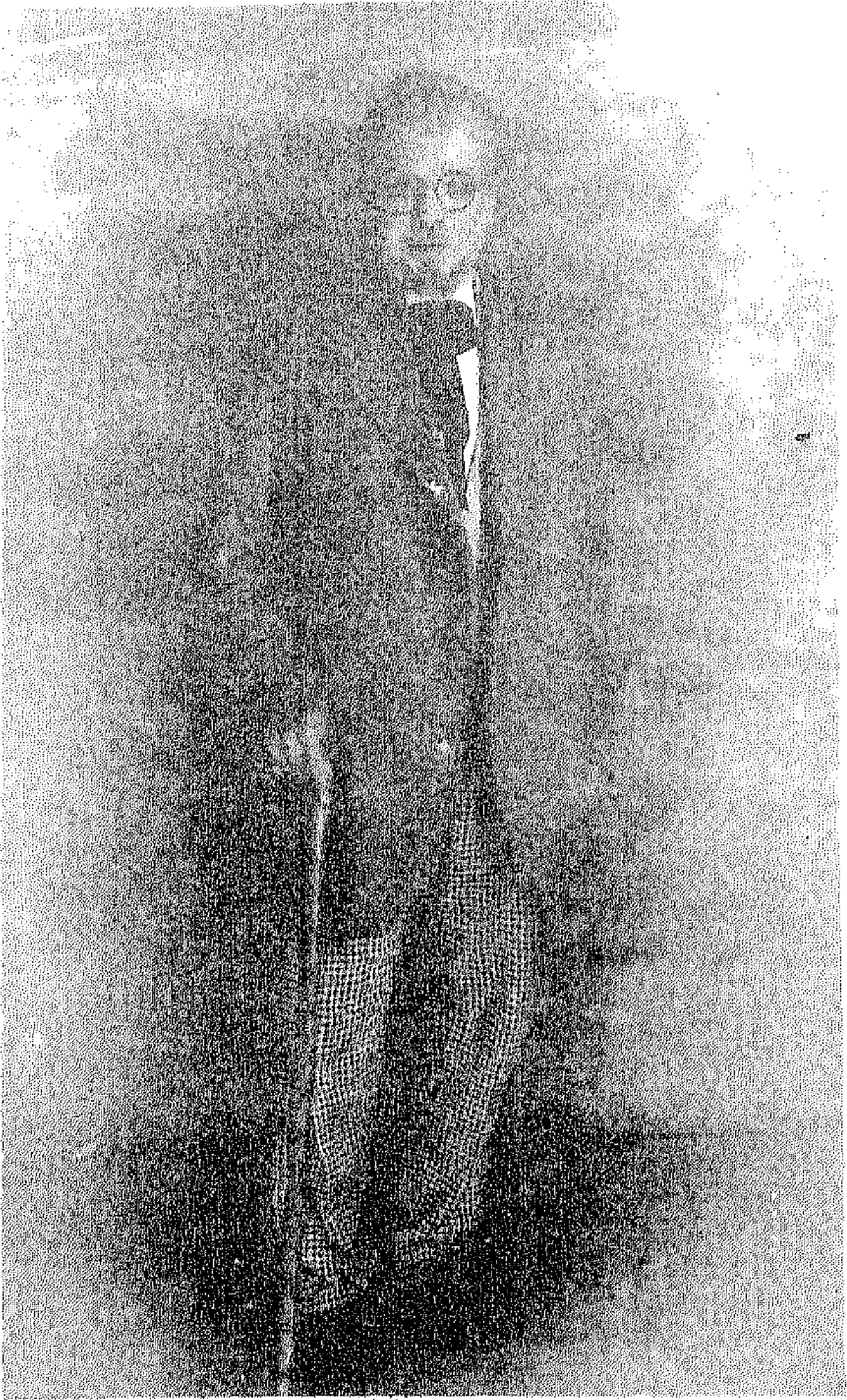
عبد الله : أو عريان كسيناه .. واللّى حرتوه الرومان بطظناه ، والخوف ممنوع والزعل مرفوع والرزق على الله يا عَدَوِى ، الأمان ياخايفين ، الأمان يا مرعوشين ، العرب دخلوا منصورين ، والرومان وقعتهم زى الطين ، والفاتحة ولا الضّالين ، الأمان يا فقرا ، الأمان يا غلابة . انتصرنا على الجيوش النهاية .

وتأتى فى النهاية دعوة صريحة إلى الوحدة الوطنية بين صفوف الشعب وتشارك فى التعبير عنها بجانب الحوار كلمات اللحن الختامى للمسرحية :

يوم سعيد يوم ما اتفقنا	مصر فرحانة بوفقنا
قبطى مسلم كله واحد	يستحيل نرضى بفراقنا
أرض الفراعنة والنيل بتاعنا	والأهرامات شاهدين علينا
بأن أحمد يحب حنَّا	إلى الأبد بعد ما اتصافينا

تكوين الشخصية وتطورها

ويأتى تطور على الكسار بشخصيته الفنية التقليدية [عثمان عبد الباسط] ، موأليا لتطوره بفنه الكوميديا على خشبه مسرحه ، فى الوقت الذى كان يعانى فيه المسرح المصرى من شدة الأزمة ، التى تعرض لها بسبب الأزمة الاقتصادية وقبل أن أتعرض لذلك ، أود أولا أن أضع حقيقة تحت نظر القارئ والدارس ، أصحح بها ما جاء من افتراء بعض النقاد والكتاب حول شخصية الكسار [عثمان عبد الباسط] ، التى حقق من خلالها جانبًا كبيرًا من نهضة المسرح الكوميدى ، وكانت علاقة بارزة فى تاريخه الفنى فقد اعتبرها البعض نقدًا موجهًا إليه وعيبًا وقصورًا منه ، وأنه كان أثيرًا لتلك الشخصية مما جعل الجمهور يملُّه ، ووصل الحد بهم إلى قولهم : إن تلك الشخصية كانت سببًا فى أفول الكسار ، وجاء ذلك على لسان من لم يروه على خشبة المسرح ، ولم يتابعوا مسيرته الفنية ، ولم يطلعوا على تراثه وتاريخه الحافل ، واكتفوا بترديد النقد السطحى وتناقل العبارات فيما بينهم فى كتاباتهم ، دون أن يكلفوا أنفسهم مشقة البحث والدراسة ، وإن كان ذلك النقد فى حد ذاته وسامًا على صدر الكسار ، جاء



على الكسار فى إحدى شخصياته المتطورة على خشبة المسرح .

تأكيدًا لمدى احتلاله بهذه الشخصية أذهان الجمهور ، حتى أصبح بعض هؤلاء النقاد والكتاب لا يرون على الكسار إلا فى شخصية [عثمان عبد الباسط] المتميزة .

ومن هذه العبارات تلك التى تقول : وفى اعتقادى أن العامل الرئيسى وراء أفول نجمه هو تمسكه بشخصيته المسرحية الخادم [عثمان] ، فعندما ملَّ الجمهور شخصية « عثمان » لم يجد الكسار شيئًا يقدمه[1] ، وأنه قد عاش فى ثياب عثمان عبد الباسط ، ولم يحاول حتى أن يغير من أساليبه ، أو نكاته أو حركاته ، ويجعل تلك الشخصية تتمشى وروح العصر الذى يعيش فيه فملَّه الجمهور سريع الملل[2] ، وفى هذا الصدد أسجل بعض ما سطرته أقلام معاصريه من النقاد والجمهور حول تلك الشخصية ، وما تركته من أثر فى نفوسهم ، ثم نستعرض بعض نماذج من شخصيته الفنية المتطورة المتمشية مع روح عصره على مر السنين ، من خلال تراثه المسرحى الذى لم تمتد إليه يد للبحث .

ففى معرض النقد لشخصية [عثمان البربرى] فى رواية الطمبورة يقول الناقد : سبع سنين طويلة وعلى الكسار يقوم فيها بشخصية البربرى فما فشل ولا ملَّ منه الجمهور لحظة هو روح خفيفة ، إذا ظهرت على المسرح تخطف أنظار المتفرجين وهو يفهم تمامًا جمهور النظارة ولا يأتى

---

(١) نجيب الريحانى وتطور الكوميديا دكتوره ليلى نسيم أبو سيف .
(٢) مجلة الهلال عدد ١٠ أكتوبر ١٩٦٧ توفيق حنا .

بحركة إلا وبعلم تأثيرها ، ولا يقول كلمة إلا هو يكفيها ، كما يجب أن تكون ، حتى تؤدى المعنى المراد بها ، وهو لا يحسن تمثيل دور البربرى فحسب ، بل جميع الأدوار الكوميدية الأخرى ولكن تفوق في الأولى ، وأصبح له في هذه الشخصية من الجمهور عشاقًا كم كنت بديعًا (يا بربرينو) وأنت ترقص رقصة الدلوكة في ختام الفصل الأول الطويل ، فقد ألهبت الجمهور عن طوله وجعلته يصفق طالبًا الزيادة وفي هذا مقدرة رغم عدم شهادة خصومك لك[1] .

وفي معرض النقد لرواية حكيم الزمان يقول الناقد : لا شك أن على الكسار هو الذى اخترع شخصية البربرى على المسرح المصرى ، وأخال أنه سيظل فيها المفرد العلم ، فهو ممثل خفيف الظل على المسرح ومحبوب من جمهوره إلى درجة أنه إذا وقف أمام المتفرجين ضجوا له بالتصفيق والتهليل ، أما إذا تكلم أو ضحك أو أثار أية إشارة فإنك ترى الناس وقد انطلقوا في الضحك لا يبقون على وقارهم ، وأيديهم تمسح عن جفونهم دموع الضحك والسرور ، وقد مثل في هذه الرواية « حكيم الزمان » وكان هو كما يكون دائما ، وحسب المنصف أن يقول في وصفه : إنه هو الكسار وأن إنسانا يمثل شخصية واحدة خمس سنوات كاملة فلا يملها الجمهور ، لخليق بأن يقال عنه إنه نابغة بطبعه[2] .

(١) مجلة كوكب الشرق ١٢ أكتوبر ١٩٢٥ جمال الدين عوض .
(٢) مجلة الفنون — المسرح المصرى ٩ يناير ١٩٢٧ ص ٩ .

وفي معرض النقد لرواية [دولة الحظ] يقول الناقد : وفى أدائه لدوره « عثمان عبد الباسط » فى رواية « دولة الحظ » ، كان الكسار بديعًا ، بشكل جعلنى أندهش لهذه القريحة التى تخرج كل يوم نكاتًا مبتكرة ، فتحلىٌ الرواية وكدت لا أملٌ رؤيتها عدة مرات ، فقد تجلّى فى رواية دولة الحظ ، وظهرت مقدرته الفنية ، بكل معانيها ، ولقد أجاد فى تمثيل دوره إجادة جعلت الجمهور يهتف له فى ختام الرواية ولا ينتظر فوزًا أكثر من هذا الفوز لممثل[1] .

عثمان هذا شخصية أزلية ضمن الله لها الخلود ، بفضل على أفندى الكسار ، فقد اجتازت عصور التاريخ إنها شخصية أزلية خالدة ليس لضعيف مثلى من أهل الفناء أن يتحدث عنها ، إنى معجب دائمًا بعلى أفندى الكسار فى هذه الشخصية اللى على كل لون[2] ، فإن على الكسار لا يحتاج إلى تقريظ ، فقد أصبح ذكر اسمه مما يبعث السرور إلى القلب ، فما بالك به يخطر على خشبة المسرح فى كل حركاته وسكناته يصفق له الجمهور إعجابًا ولا يتمالك أحد وقاره من شدة الضحك ، فقد أصبح كوميكا بطبيعته مع عذوبة فى اللفظ ورقة متناهية فى النكات[3] ، هذا فضلاً عما نلمسه من تناقض فى أحكام دكتورة ليلى نسيم أبو سيف فى تقييم شخصية عثمان ، وكشكش

(١) التياترو عدد ٤ ص ١٢ ١٩٢٤ .
(٢) مجلة كوكب الشرق ١٢ مارس ١٩٢٦ ص ٣ .
(٣) مجلة ألف صنف ١٤ مايو ١٩٢٦ ص ١٤ .

بيه ، فهى تقول فى صفحة ٦٧ ، ٦٩ : إن الريحانى أقدر على الفكاهة من الكسار وأرحب خيالاً ، وتعد شخصية كشكش بيه أكثر أهمية من شخصية عثمان ، ومع ذلك - الكلام للكاتبة « لم يكن فى استطاعة الريحانى أن يصمد لمنافسته طيلة عمل فرقته بمسرح الريسانس ، وتعلل عجز الريحانى فى الصمود أمام الكسار بقلة إمكانيات مسرح الريحانى الفنية ، لتقديم عروض ضخمة » ثم تستطرد قائلة : إنه لم يتمكن من ذلك الصمود أمام الكسار إلا بعد انتقاله إلى مسرح (الاحبسيانا) .

ثم تعود وتقول عن الريحانى وهو على مسرح (الايجبسيانا) بعد أن قدم روايتى أم أحمد ، وأم بكير : على الرغم من أن هذه الروايات ، لم تكن أقل نضجًا من الطائفة الأولى إلا أنها لم تصمد لمنافسة استعراضات الكسار فى الكازينو ، وفي ديسمبر ١٩١٧ هبط احتياطى الريحانى إلى ٥٠ جنيهًا وفى صفحة ٨٩ تقول : إن الريحانى اضطر فى أوائل عام ١٩٢٢ إلى توقيع عقد مع إحدى شركات السجاير لتمويل فرقته لمدة ثلاثة أشهر نظير استغلال اسمه فى الإعلانات ، وظلت المتاعب تؤرقه وساءت حالته المالية مما جعله يفكر فى اعتزال المسرح ، وفى صفحة ١١٦ تستطرد قائلة : إن الفشل والإحباط ظلا مصدرًا للإزعاج للريحانى وكان مقدرًا أن يمر وقت طويل قبل أن يتمكن الريحانى من استجماع قواه والمض فى طريقه قدمًا[١] .

(١) نجيب الريحانى وتطور الكوميديا د . ليلى نسيم أبو سيف .

بينما نجد الكسار على خلاف ذلك ، منذ بداية حياته الفنية فهو ثابت الخطى ينتقل من فوز إلى فوز ، ومن نجاح إلى نجاح ، وقد امتلأ مسرحه كل ليلة بالجمهور ولم تجد موطئا لقدم فقد أسعد شعبه بفنه وخفة روحه ، وتجاوبه مع جمهوره وهو ما لا يمكن أن يمحوه التاريخ أو الحقيقة فأى مقدرة ورحابة وأهمية للشخصية الأولى (كشكش بيه) عن الثانية (عثمان عبد الباسط) بعد ذلك .

ويبدو أن الكاتبة كان ينقصها الدراسة والبحث فى تراث وأعمال وحياة على الكسار من جانب ومن جانب آخر تحيزها للشخصية ، موضوع بحثها مما أوقعها فى عدم موضوعية الحكم حتى أنها تقول : عن فترة الكسار على كازينو دى بارى : إنه كان يقلد الريحانى بنجاح كبير بينما العكس هو الصحيح ثم تعود الكاتبة لتناقض نفسها بعبارة تقول فيها : كان الريحانى قد شاهد أحد استعراضات الكسار فى الكازينو فداخلته الثقة فى قدرته على إنتاج استعراضات ذات موضوعات جادة ومضمون مصرى ، وبعد هذا التردى الواضح فى الحكم ترمى الكاتبة فى النهاية فن الكسار بكلمة [سخافات] ، وتستكمل عبارتها قائلة : تكون أرفع بكثير من سخافات الكسار[1] .

وقد بدأ على الكسار فى تطويره لشخصيته الفنية رويدًا رويدًا ، ففى أوبريت (السفور) نجده يبتعد عن شخصية « عثمان عبد الباسط » حيث تخلى عن أهم سماتها اللهجة البربرية وأصبح

---

(١) نفس المرجع السابق ص ٦٦ ، ٦٩ .

يتكلم اللهجة العادية وإن كان قد احتفظ باسمه ولونه كما تغير مستواه الاجتماعى ، فلم يكن عثمان الفقير أو الخادم بل هو تاجر عظيم ذائع الصيت ، وقد ظهر فى لهجته استخدامه لبعض الكلمات الأجنبية متشبها بالطبقات الأرستقراطية ، ثم نجده يحاول أن يقترب من شخصيته التقليدية قليلاً عندما اضطرته ظروف صديقه الحميم « عفت » أن يطلب منه انتحال شخصية الخادم ، ليخرجه من إحدى المآزق التى تعرض لها ، وقد اضطرت نفس ظروف عثمان أن يحلق ذقنه لأداء هذا الدور ، وهنا يتخلى الكسار عن سمة أخرى من السمات الشكلية لتلك الشخصية ويعلن جمهوره عن ذلك التغيير :

الخادم : عثمان أفندى جه بره وبيسأل عن حضرتك .

عفت : خلّيه يتفضل . إيوه الحمد لله .

عثمان : (من الخارج) : هو جوه .

الخادم : إيوه اتفضل .

عثمان : (يدخل) : آه بونجور عفت بيه .

عفت : أهلاً وسهلاً .

عثمان : إزيك يا سى عفت ياللى كلك عفاف .

عفت : الله انت حاتقابلنى بمنطاش ولا ايه قوللى قوام قابلت روزا ؟

عثمان : بالطبع قابلتها مدام حضرتك بعتنى لها وبتطالبك بعطل واضرار يوم بليله فى بيت عمك .

عفت : الله أنا موش بعت لها فى الظرف خمسة جنيه هى عايزه منى أكثر من كده .

عثمان : لاما هى الست دى طالبه خمسين جنيه قيمة أتعاب العملية دى ، وحضرتك بعت لها ٥ جنيه إعمل عملية طرح وشوف الباقى كام ابعت لها وخلّص نفسك .

ويفاجأ عثمان بوجود بكير عم صديقه عفت الذى أفهمه بأنه لا يوجد معه أحد بالبيت فيقع عفت بدوره فى مأزق مما يضطره إلى تقديم عثمان كخادم بالبيت :

عثمان : الله . الله . إيه دول كمان .

عفت : اسكت يا أخى دا عمى البنباشى بكير والست بتاعته .

عثمان : إخص .

خديجة : مين دا يا عفت بيه ؟

عثمان : دا . دا . دا السكرتير يا هانم .

بكير : سكرتير ؟ آه يعنى الخدام بتاعك ها ها ها . الظاهر عليه إنه لطيف المضروب .

عثمان : أنا خدام يا سى عفت (باندهاش) .

عفت : إيوه يا سيدى دا مؤقتا إيوه دا الخدام الخدام .

بكير : لكن انت إزاى تكون خدام ومطول دقنك بالشكل ده .

عثمان : لاما حاكم أنا خدام سنى .

بكير : روح احلق دقنك وجيب الشنطة الكبيرة اللى فتها فى مخزن المحطة وتيجى حالا .

عثمان : يا سيد أنا موش ححلقها إيوه علشان أنا مربيها من زمان وتمران فيها التربية .

بكير : إنت بتخالف الأوامر . طيب (ويضربه) .

عثمان : جاى الحقونى يا هوه .

وهنا يدخل الجميع ينشدون لحنا يعبر فيه عثمان عن فراقه لسمة أخرى من سمات شخصية عثمان عبد الباسط وهى ذقنه :

الجميع : يابو سمره إيه اللى جرى لك .
عمال تزعق كده ليه .
مجنون ولاّ أبصر مالك .
متعفرت أوى على إيه .

عثمان : على دقنى يا هو على دقنى .

الجميع : ما لها يا عثمان سلامتها .

عثمان : أنا موش طايق تفارقنى .

الجميع : طب ما هى قاعدة فى حتتها .

عثمان : بتودعنى قبل ما تبرم وتطير .

الجميع : وازاى يعنى ده كلام فشر الفوازير .

وهنا يستنكف عثمان من مهنة الخادم بعد أن أصبح من كبار التجار :

روزه : الله ، إنت وديت دقنك فين يا سى عثمان ؟

عثمان : خدوها جماعة يتبخروا بيها .

عفت : طيب وإيه اللى مزعلك ، وانت دلوقت شكلك بقى شيك خالص موش كده يا مدموازيل ؟

روزه : يا سلام فى غاية الشياكة ، وخصوصا دلوقتى بقى شكله مسبوك ، وزى خدام تمام .

عثمان : اخرسى . خدام فى عينك قليلة الأدب .

عفت : الله . الله . انت زعلت يا سى عثمان ؟

عثمان : معلوم أنا أبقى راجل تاجر عظيم ، وكل الناس تعرفنى وتقول علىَّ خدام !! .

فى رواية « المطامع » :

يتخلَّى الكسار عن شخصيته التقليدية شكلاً وموضوعًا فهو يؤدى فى هذه المسرحية شخصية [جاهر] المدرس – الخوجه للتلميذ الأمير [كيومو] ، ويظهر على المسرح حاملاً عصاه وكتابًا ضخمًا فقد تغير مستواه الثقافى كما يحكى لنا حوار الرواية :

(يدخل البنات من الخارج يقلن لحنًا وفى أثنائه يدخل الأستاذ جاهر ويشترك معهن فيه) .

البنات : (بعد اللحن) إيه إلحق يا أستاذ :

جاهر : فيه إيه ؟

البنات : الأمير كيومو أهه .

جاهر : ابن ولى العهد .

البنات : أيوه تلميذك .

جاهر : طيب . يا لله انتو من هنا دلوقت أحسن دا واد مبصبصاتى وموش لازم يشوفكو هنا أبدًا .

البنات : طيب جود باى يا أستاذ (يخرجن) .

جاهر : جود باى ورحمة الله وبركاته .

كيومو : (يدخل) : ديهدا . انت فين يا أستاذ .

جاهر : أنا اللى فين ولاّ انت اللى بتزوغ م الدرس يعنى موش ممكن ناخد درس كده على بعضه أبدًا ، كله بالقطاعى .

كيومو : معلهش يا أستاذ . ما بقتش أزوغ بقى .

جاهر : طيب تعال أما اسمع لك الماضى .

كيومو : (ينظر للخارج) يا سلام إيه البنات اللى هنا دول .

جاهر : الله ، الله ، ايش دخّل الدرس فى البنات ؟ انا بقول لك سمع الماضى موش بص للمضارع (يمسكه من ودنه) .

كيومو : طيب اسأل يا أستاذ وأنا أجاوبك .

جاهر : اهه كده ، أما اسألك فى الحساب الأول .

كيومو : معلهش يا أستاذ خلّلى الحساب يوم ثانى واديثى درس غيره النهارده .

جاهر : طيب خلّلى الحساب علىّ أنا ، هه . تحب ندرس لك فى إيه ؟

كيومو : فى الحب مثلاً .

جاهر : أهو ده اللى انت فالح فيه ، طيب اسمع درس الحب (يكح ويستعد) ، الحب ما الحب وما أدراك ما الحب ، الحب ينقسم ثلاثة أقسام : حب م الدرجة الأولى وده يسموه الحب المفتخر .

كيومو : حب مفتخر ؟

جاهر : وحب م الدرجة الثانية ويسموه السكندو ، وحب من الدرجة الثالثة وده اسمه الترسو .

كيومو : حب ترسو ؟

جاهر : إيوه وده صنف بطال خالص ، لأن الإنسان إذا تساهل وسكت على نفسه لحد ما يوصل الحب معاه للدرجة الثالثة لازم يموت حالاً .

كيومو : يا حفيظ .

جاهر : والحب ده بييجى للواحد إزاى بقى ؟

كيومو : إزاى ؟

جاهر : زى البرد بدون ما يشعر ، يعنى تنام طيب بخير ، وتقوم تانى يوم تلاقى نفسك واخد حب ويسجل له النقاد عن أدائه لتلك الشخصية قائلين : لقد أخرج على المسرح فصلاً من مدرسته فكّرنا بأيام كتاتيب وزارة المعارف ، ويعرف المدرس بعصاه الصغيرة ، وكتابه الضخم ودرسه السهل الظريف ، ما كان أجمله حينما وقف أمام البنات بقول ش وفتحه شا ، ش وخفضه شى ش وضمه شو اش فقد ظهر للناس جميعًا أن الكسار لم يتقن شخصية البربرى فحسب ولكنه يستطيع أن يخرج شخصيات مختلفة على المسرح ، ما دامت الرواية تحوز لديه إقبالاً ويقتنع بأنها تصلح للإظهار على الجمهور ، ويكفى الكسار أن الناس جميعًا حتى أعداءه يعترفون بمواهبه وعبقريته والفضل ما شهد به الأعداء(١) .

وفى رواية [قفشتك] :

نجد الكسار يؤدى شخصية أخرى تخالف شخصية عثمان عبد الباسط حيث يقوم فيها بدور [المتر توتو] المحامى ، وقد أصبح

---

(١) مجلة الفنون ٢٢ مايو ١٩٢٧ ص ٩ .

واحدًا من الطبقة المثقفة يتخاطب بأسلوبها ويتصادق مع أفرادها ، ويتضح ذلك من الحوار بين المتر توتو وصديقه ألفريد :

توتو : آه مسيو الفريد إنت جيت يا صديقى .

الفريد : إيوه . علشان مسافر العزبة بتاعتى النهارده ، وبما أنى عارف إن جنابك بتتغدى هنا كل يوم جيت مخصوص علشان أودعك .

توتو : مرسى يا عزيزى وحتغيب كتير هناك .

الفريد : غايته شهر ، اشوف محصول أطيانى ، وبعدين أرجع ، تحب تيجى ديابا تقضى لك كام يوم فى الأرياف علشان تغير هوا يا متر ؟

توتو : صدقنى يا عزيزى كنت أود ، لكن للأسف فيه عندى قضية غرامية تخصنى شغلانى شوية وإذا حكم فيها لصالحى النهارده يمكن أحصلك .

الفريد : غريبة . أنا موش فاهم حاجة أبدًا يا متر إيه المسألة ؟

توتو : إنت موش واخد بالك من المدام دى اللى شغلت عقلى .

الفريد : آه أظن المدام بوستيت المغنية اللى بتشاغلها بقالك ييجى شهر .

توتو : مظبوط أهيّ ، الحمد لله قضيتها قربت تنتهى ، وبقت على وش تنفيذ .

الفريد : إزاى ده ؟

توتو : بقى بصفتك من أعز أصدقائى أنا حاقولك على اللِّى فيها وموش حاخبى عنك حاجة .

الفريد : إيوه قول .

توتو : أنا بعت لها جواب امبارح ، ويَّا الخدامة تباعتها ، واتفقنا على الغدا هنا النهاردة وإذا حصل الاتفاق بيننا يمكن أبقى أخدها وأسافر عندكم فى بورن جانيف وأعملى شهر عسل أنا راخر .

الفريد : لايا متر . دى مسأله أظن فيها خطر عليك .

توتو : خطر علشان إيه ؟

الفريد : علشان حضرتك عارف إن المدام دى لها صاحب من الضباط ، وإذا لحظ علاقة بينكم ربما ما يحصلش طيب .

توتو : يا خى سيبك .

الفريد : الغاية لازم تحترس لنفسك يا متر . أه الساعة ١١ ونص . بردون يا متر علشان عندى مشوار اقضيه ، ويمكن ارجع اتغدى وياك هنا أورفوار .

توتو : أورفوار ما هو بدرى يا عزيزى طيب موش تاخد لك حاجة .

الفريد : لامرسى (يخرج) :

توتو : بون فوياج ... . جرسون .

جرسون : مرسي .

توتو : إديني واحد فرموت .

جرسون : حاضر (يخرج) .

ويتذكر المتر توتو مهام وظيفته فيمسك بسرعة التليفون محاولاً الاتصال بوكيل مكتبه لإبلاغه بإنهاء بعض أعماله :

توتو : آه من حق أمَّا اتكلم في التليفون ويَّا وكيل المكتب بتاعي علشان يعمل ترتيبه ... . ألو سنترال ... اديني ٣٢١٠ من فضلك ... إيه موش فاضي طيب ما تفضيه لي يا مدموازيل ، أنا موش فاضي .

ورغم هذا التطور والتباين الواضح في أداء الكسار لهذه الشخصية (المتر توتو) إلا أنه يؤديها بلونه الأسمر فلم يكن اللون حائلاً في أن يتلون في شخصيات مختلفة تخالف في طبيعتها وأبعادها شخصية عثمان عبد الباسط ، فهو بذلك يقترب من تلك الشخصية التي لا يود أن يتركها دفعة واحدة لمدى علمه بمبلغ حب الجمهور وتعلقه بها حتى ولو أبقى على ملمح من ملامحها الشكلية فقط .

وكما تغير المركز الثقافي للمتر توتو على النحو السابق ، تغير كذلك مركزه الاجتماعي ، فقد اختفت من حياته الزوجة (أم أحمد) المرأة سليطة اللسان الغجرية ،فنجده هنا يتقدم للزواج من طبقة الذوات بما يتناسب مع مركزه الجديد ، ويتضح ذلك من الحوار بين أفراد الأسرة التي تقدم لها المتر توتو لخطبه ابنة الأسرة [صوفي] :

فينيت : الغريبة أنى فى غاية الاندهاش من المسألة دى .

مدام : وايه السبب للاندهاش ده .

فينيت : إيوه لأنى واحد دقيق فى معاملاتى وييجى واحد ما اعرفوش ويطلب ايد بنتى وأقبل كده بسرعة ومن غير تحفظ :

صوفى : لايا بابا ما تفتكرش أنا عارفه ان بختى حايكون كويس ووقعتى حلوه أوى .

فينيت : أى بالطبع وخصوصًا لأنك استلطفتيه وبمجرد ما سألناك رحت موافقة على طول وموش عارف إيه اللى عجبك فى سواده .

صوفى : وماله يا بابا أهه ولو إنه أسود لكنه أفوكاتو ويعرف يدافع عنى وقت اللزوم .

(وهنا يريد المتر توتو الكسار أن يؤكد على لسان صوفى رغم) سواد وجهه إلا أنه أفوكاتو وليس عثمان الخادم البربرى .

مسرحية أبو شادوف ١٩٣٠ :

وهى مسرحية ريفية تدور أحداثها فى قرية (ميت ساروخ) ،وأشخاصها من فلاحى مصر وعمدتها أبو د شادوف ، وفيها يتقلب الكسار فى شخصية أخرى جديدة وإن احتفظ بالاسم فقط (عثمان) وفى هذه المسرحية يقوم بدور (خفير) ، ورآه

الجمهور لأول مرة يتحدث باللهجة الريفية بعيدًا عن لهجة عثمان عبد الباسط التقليدية ، كما تحكى لنا أسطر الرواية :

(يدور عوكل شيخ البلد ومعه الخفير عثمان)

عوكل : أيوه هنا تعالى . (يدخل عثمان بملابس خفير وحامل نبوت) .

عثمان : وحبسينه فين يا شيخ بلدنا .

عوكل : (وقد أشار إلى غرفة السجن) : أهه هنا محبوس الملعون الهربنجى يلّلا إستلمه وخلّلى بالك منه لحد ما يحكم عليه مجلس العمودية بس لو هرب منك ما فيش غير قطع رقبتك .

عثمان : يهرب ، لا يستحيل دا وقع فى إيد اللى ما يرحمه حلولو الكلب اللى فتن البلد بزيتها .

عوكل : أهه عندك (ويخرج) .

عثمان : بقه أمادى غريبة يا ولاد مين كان يصدق إنى أطلع بايظ فى كشف إمبارح وعايزين ياخدونى النهارده قال إيه فى جيش العمدة علشان دلتهم على الولد الهربنجى ده وبرهنت على شجاعتى هىء هىء هو أنا فىّ ريحة العافية المغفلين ،الغاية . لما لقتهم مصممين رأيهم ، طلبت من أبو شادوف أكون هنا خفير على حلولو) علشان ما أعذب بدنه ، إيوه وأهم سلموني المفتاح أهه ، وقالوا فى المثل : سلم القط مفتاح الكرار ، آه من حق أنا كنت قلت للبنت

كايده تلحقنى بالعشا على هنا ، إيوه لأنها هى اللى فضلت لى، من البيعة وطمعانه فى . الغايةدلوقت، تيجى استنى أما أتمم على حلولو ، ونشوف بيعمل إيه جوه (يذهب لشباك السجن) أنت يا حضرة المسجون . يا مسجون الكلب .

كايده : (من الخارج) : إيوه تعالى هو هنا .

عثمان : آه أهى جت أهى (يتمشى بعظمة وهو حامل نبوته على كتفه) .

كايده : (داخله) ومعها هلالى ، وهو متنكر فى ملابس فلاح ، وهى حاملة سلة بها بعض الأطعمة فترى عثمان يتمش . يا حلاوتك يا عثمان ياحلاوتك فى زعبوطك يا شجاعتك فى شيل نبوتك يا سبع البرمبه .

عثمان : لكن مين اللى وياك ده — بدستور .

كايده : دا ابن عمى حبظلم .

عثمان : حبظلم (يضحك) . بقى دا اسم مبزرم أوى لكن أنا عمرى ما شفتش ابن عمك المبزرم ده يا كيدا .

هلالى : لاما هو أنا موش من البلدى وجيت النهارده مخصوص علشان أسلم على بنت عمى .

عثمان : برضه فيك الخير يا ولا ، ودولقت ما دام جانى العشا ياالله لفوا نص لفه عسكرية وانصرفوا من هنا لا يعطب علينا العمدة .

وفى مسرحية حماتك تحبك ١٩٣١ :

وهى نموذج آخر من تطور شخصية « عثمان » ، فلم يكن الخادم بل هو السيد رب البيت « عثمان بك » وتعرض المسرحية شريحة من الأسرة المصرية المودرن التى تطورت بتطور الزمن وأصبحت فيها الزوجه ذات حيثية وشخصية ، وهى الآمرة الناهية فى بيتها بعد أن كانت مكسورة الجناح ، فقد انقلب الوضع وأصبح رب البيت هو المغلوب على أمره وإن كان فى النهاية هو سيد الموقف ، وقد بدا على المسرح بساطة المنظر ولمسة المدينة المتحضرة (صالون فى بيت عثمان بك) ، وكنبة وراءها برفان ومقاعد متفرقة وباقات زهور فى زهريات ويبدو عثمان بك مشغولاً فى تحضير شنطة سفر بنته « درية » للسفر إلى الاسكندرية مع زوجها إحسان لقضاء شهر العسل :

عثمان : (يغنى من الخارج) : يا قمر يا دى العروسة

ريـا : آه أهه بسلامته

عثمان : (داخلاً) : يا نجف يا دى العريس . آه إنت هنا ياريه .

ريـا : يا سلام يعنى مشوق قوى (بخشونة) تعالى قولى هنا ، حضرتك كنت فين م الصبح .

عثمان : كنت بوضب الصندوتش .

ريـا : الصندوتش . وشنطة درية خلاص حضرتها .

عثمان : إيوه . بس كنت بعت (صوفى) علشان .

ريـا : آه . من حق ثانى مرة من فضلك ما تبقاش تتعدى على أوامرى فى البيت ده . سامع .

عثمان : ليه حصل منى تعدى ؟

ريـا : ما تبقاش تدى أوامر للخدامين إلا بعد ما تستشرنى . فاهم .

عثمان : فاهم يا ماما – وكأنه طفل أمامها –

ريـا : (تقلده بتهكم) يا ماما ، راجل بليد ، فى إنت جوز إنت

عثمان : امال إيه فرد .

ريـا : هس إخرس . اخص عليك . (تخرج) .

يحاول (عثمان بك) أن يسترد كرامته المهانة من الزوجة فيتظاهر أمام الجمهور ، بأنه هو الآمر الناهى صاحب الصوت العالى المسموع فى هذا البيت :

عثمان : اخص على دمك ، أهه كل يوم من الصنف ده يعنى عشرين سنة دلوقت وأنا مبجح معاها بالشكل اللى انتو شايفينه ده .

كما يؤدى فى المسرحية الملهاة العاطفية التى يحكمها السلوك العاطفى متمثلة فى أدائه لشخصية الأب العاطفى الحنون التى تظهرها علاقته مع ابنته (درية) ، وقد تأثر بسبب سفرها وتركه وحيدًا يعيش مع ذكريات طفولتها عندما كان يلاعبها ويلاطفها :

درية : (تنظر فى ساعتها) : أوه لما أروح ألبس أنا بقى ، أحسن ميعاد القطر جه (تتجه شمالا) .

عثمان : (طالاً برأسه من اليمين) : لبست ، لبست .

درية : (تلتفت) : آه بابا (نذهب إليه) .

عثمان : (متقدمًا بتأثر) : آه يا روح بابا آه يا (درية) يا حياتى ، بعد ساعة البيت ده حيبقى فاضى من غيرك .

درية : (ملاطفة) : بسن أمال يا توتو ، العبارة بكره وبعده وتحصلونا على إسكندرية إنت ونينا .

عثمان : إيوه صحيح ، لكن منتيش حتكونى قدام نونو زى زمان .

درية : وليه لأ

عثمان : (يجلس على مقعد يمنًا وتجلس درية على ركبته) : زمان لما كنت نونو ، مين اللى كان تملى بيداديك مين اللى كان كل ليلة يمرجحك ، ويغنى لك الغنوة إياها لحد ماتنامى ننه (يغنى) .

درية : الغنوه دى منيش متذكرها لأنى وقتها كنت نونو .

عثمان : طيب مين اللى كان بيوديك المدرسة ويجيبك من المدرسة ، ومين اللى يعرف كل أسرارك النونو . وإنت لسه نونو .

درية : برضه بابا النونو .

عثمان : آه يستحيل تعرفى يا (درية) قد إيه إنت كنت سلوتى وفرحتى فى البيت ده .

درية : (بتأثر) مسكين يا بابا (تقبله) .

عثمان : أهه أنا ما فيش حاجة ممكن تواسينى على بعدك غير أنك حتكونى سعيدة مع جوزك اللى بتحبيه .

مسرحية سرقوا الصندوق يا محمد[1] سنة ١٩٣١ :

وفيها يؤدى على الكسار شخصية « البخيل » ، والمقتبسة من الرواية العالمية (البخيل) لموليير ، فهو (عثمان أفندى) ، الرجل العجوز الثرى الذى يبخل ويضن بماله على نفسه وأولاده ويكتفى باكتنازه وإقراضه بالفايظ للغير ، كما يريد لنفسه السعادة على حساب أولاده ، فهو يريد الزواج من بنت جاره الشابة الغنية ليستحوز على مالها ، بينما يقع ابنه الشاب فى حبها ، كما يرغم ابنته الشابة على الزواج من رجل عجوز ، تاجر بقالة لينعم بخيراته لكنه فى النهاية يفيق ويعود لصوابه ورشده ويعدل عن طريقه ، ليكون رجل خير وبر بأولاده والآخرين ، وقد نجح فى آدائه لدوره هذا نجاحًا عظيمًا وردد فيها اللحن المشهور الذى مازلنا نردده حتى الآن وأصبح مثلاً يجرى على كل لسان :

---

(١) تعريب حامد السيد ، تمصير أحمد زكى السيد أذيعت بالراديو مساء يوم الخميس ٢٥ مارس ١٩٣٨ من تياترو الماجستيك ، كما مثلت فى مدينه حلب على مسرح الكيت كات مساء الجمعة ١٠ ابريل ١٩٤٢ .

(سرقوا الصندوق يا محمد لكن مفتاحه معايا) كما تحكى بعض سطور المسرحية :

محمد : (يدخل) : يا سيدنا البيه :

عثمان : إيه فيه إيه ؟

محمد : كارت صاحبه بينتظر بره .

عثمان : كارت إيه وريني (يقرأ) الخواجة عبد الشلن البراني صايغ ومرابي ، قول له يتفضل ، وأنت يا شكري روح أعمل زى ما فهمتك .

شكرى : حاضر (يخرج) .

عثمان : دا لازم جاى علشان مسألة السلفية اللى كان طلبها منى .

محمد : (يدخل وخلفه عبد الشلن) ، اتفضل يا حضرة .

خواجة : نهارك سعيد يا بيه .

عثمان : نهارك سعيد مبارك .

خواجة : أنا جيت لك علشان مسألة السافية .

عثمان : إيه ده . إيه ده . وإنت واقف ليه .. إنت ياراجل إنت مجنون بتزعق كده ليه . إوعى تكون جبت سيرة لحد إنك جى تستلف منى فلوس .

خواجة : مش عيب يابيه . دا سر بيناتنا . ما يطلعش بره أبدًا .

عثمان : وإن حد سألك من هنا قول لهم إنى أنا اللى باعتلك استلف منك ميت جنيه .

خواجه : على عينى . وإن شاء الله تكون قبلت بشروط السلفية .

عثمان : أنا انبسطت من بند واحد فيها .. ما تقعد (يجلس على الكرسى بقوة) إيه ده . إيه ده .

خواجة : إيه فيه إيه .

عثمان : أنت بتترزع على الكرسى كده ليه ، مش تقعد بشفقة ، بحنية ، إنت ما معكش كرسى زيه (وهى عبارة توحى كأن – الكرسى – ابن من أبنائه) ، اقعد عالحرف (وبعد أن يجلس على الكرسى) اللى عجبنى من السلفية هو إن أبو صاحبنا ده اللى عايز سلفية ده راجل عجوز على وش موت ، يعنى فى النزع الأخير (وهو لا يعلم أن طالب السلفية هو ابنه كريم) بس لاحظ إنى أنا ما عنديش فلوس جاهزة إلا حسبة ٦٠ جنيه بس .

خواجة : ولكن لاحظ إنت كمان يا بيه إن السلفية المطلوبة ١٠٠ جنيه .

عثمان : إيه ده يا مغفل .. مش تتكلم بشويش .

خواجة : حاضر .. السلفية المطلوبة ١٠٠ جنيه .

عثمان : يقدر ياخد بالباقى عفش قديم أو نعمل له كمبيالة بالأربعين جنيه ولما يجيب الستين جنيه بفايظهم نديله الأربعين .

خواجة : دا مش اسمه كلام يابيه ، اللى طالب السلفية عايز فلوس مش عايز عفش ولا كمبيالة .

عثمان : والله دا كل اللى أقدر أعمله لك .

خواجة : دى شغلانة مضمونة ما تضيعهاش من إيدينا ، اطلب فوايظ زى ما أنت عايز .

عثمان : طيب بس عن إذنك أما أروح أقفل باب الجنينه أحسن جاى منه برد وهوا (يخرج) حيث يضع عثمان أفندى أمواله داخل صندوق ويخفيه تحت الشجرة فى الجنينه .

خواجة : أعوذ بالله ، أما راجل جلده قوى ، حد قال كده ، ياخد كمبيالة ويدى كمبيالة .

وفى معرض النقد للمسرحية فى إحدى المجلات تقول : إنها عصرية ليست فيها طراطير حمراء ولا عفاريت زرقاء ، يدور موضوعها حول بحث أخلاقى قيم لا يتخلله سوء تفاهم ، وموضوع الفكاهة فى أساسه الحوادث المضحكة ، والمواقف الفكهة والتمثيل القوى لا النكتة البذيئة والقفشة المبتذلة ، دور الكسار هو الدور الأول فى الرواية والمحرك الحقيقى[1] وقد دون على نسخة المسرحية شخصياتها

---

(١) المصور : الجمعة ١٩٣١/١٢/١١ ص ١٦ .

حسب الظهور على المسرح أسجلها للتعرف على أعضاء فرقة على الكسار وكيفية توزيعه للأدوار على ممثلى فرقته بما يتلاءم مع طبيعة كل فنان عند اضطلاعه بمسئولية إخراجه لمسرحياته :

على الكسار	فى دور عثمان أفندى البخيل
عبد العزيز أحمد	فى دور العمدة
محمد شفيق	فى دور الشيخ راشد
عقيلة راتب	فى دور عزيزة الابنة
حامد مرسى	فى دور كريم الابن
فؤاد الجزائرى	فى دور شكرى وكيل أعمال عثمان
زكى إبراهيم	فى دور ضابط البوليس
لطيفة نظمى	فى دور سميحة الخطيبة

وفى مسرحية « عريس الهنا » ١٩٣١ :

نجد الكسار يؤدى شخصية المأذون الشرعى ، وفى ديسمبر ١٩٣١ قدم رواية « البكاشة » وفيها تخلى تماما عن شخصية البربرى ، وأدى دوره بشخصيته الطبيعية ، « وفيها قام بدور مصور ، وعنها يقول مؤلفها محمد شكرى عن شخصية الكسار : إن على الكسار ظهر بشخصيته الطبيعية وهى تغاير الشخصية التى كان يعرفها الجمهور ، فإنه لم يلجأ إلى ذلك إلا لتعلق حرية التفكير للمؤلفين المسرحيين ، حتى لا يقولوا : إنه يحتم أن يكون بطل كل رواية بربرى ، وما أن انتهت فترة العشرينات إلا وكان على الكسار قد أتى بتطوير الكوميديا

فى مصر ، وبشخصيته الفنية على مسرحه « الماجستيك » بينما على الجانب الآخر ، نجد أنه ما زال زميله نجيب الريحانى غارقًا فى شخصيته التقليدية كشكش بيه عمدة كفر البلاص ، ولم يستطع الإفلات منها فهو ما زال يقدم كوميديا أوائل العشرينات الفرانكو آراب فى مسرحية « المحفظة يا مدام » سنة ١٩٣١ ويظهر فيها بشخصية كشكش بيه ، كما تظهر شخصية زعرب ثم يقدم رواية « الرفق بالحموات » والتى لم تلق نجاحًا ، فلم يستمر عرضها سوى أسبوع واحد كما زاق الريحانى المر لسقوط مسرحيته . (الجنيه المصرى) لأنه أحس بإخفاقه فى الارتفاع بذوق الجمهور . ومرة أخرى فكر الريحانى فى اعتزال المسرح[1] وأصبح لا يستطيع مواجهة جمهور القاهرة فقرر القيام برحلة إلى بلدان شمال أفريقيا فى موسم ٣٢ - ١٩٣٣ ، وعندما عاد فى أبريل ١٩٣٣ بدأ يواجه مزيدًا من المتاعب لأن الحكومة حرمته من المساعدة المادية عن ذلك العام نظرًا لتغيبه عن الموسم المسرحى .

وقد رفض جمهور النقاد مسرحية (الجنيه المصرى) بدعوى أنها مغرقة فى واقعيتها وجديتها وقتامتها[2] وفى ذلك يقول الأستاذ الدكتور على الراعى عن مسرحية (جنان فى جنان) ، التى أخرجها

---

(١) مجلة الصباح ٥ ابريل ١٩٣٢ .

(٢) مجلة الصباح ٢٥ ديسبر ١٩٣١ - الأستاذ نجيب الريحانى فى نوعه الجديد - إيزيس .



علي الكسار فى شخصية عثمان أفندى البخيل وبجواره أمونة الخاطبة .

الريحانى فى عام ١٩٢٧ : لقد عاد فيها مضطرًا إلى جبة كشكش بك ولحيته ومسبحته بعد أن تعثرت جهوده السابقة على هذا لتطوير فن الكوميديا فى مصر[١].

وعن تكوين الشخصية وتطورها عند كل من على الكسار ونجيب الريحانى تسجل إحدى المجلات قائلة[٢] إن نجيب الريحانى نفسه قد بلغ من إتقان شخصية « كشكش بيه » وإندماجه فيها أن أصبح مختصًا إختصاصًا كليا بها ، وأضحى من العسير عليه أن يفكر فى التخلى عنها ، وإحلال شخصية أخرى محلها ، فقد بدا لنجيب فى كثير من الأوقات أن يفك عنه قيود العمودية ، وأن يتصرف فى حاسته الفنية تصرف المالك فى ملكه إلا أن التجارب العديدة التى أجراها ، دلت على إحتلال الشخصية الأولى لإدراكه ولمخيلته ولجميع ما فيه من حواس ، وأقرب دليل على ذلك أنه أراد فى رواية « أم أحمد » أن يغير من شخصية « كشكش بيه » إلا أن التجربة فشلت كما حدث أيضًا فى رواية « العشرة الطيبة » ، وفوق ذلك فقد استعد نجيب من سنتين استعدادًا كبيرًا ، وحاول أن يظهر فى مشروع جديد لإظهار نوع الدراما إلا أنه لم ينجح وعاد مضطرًا إلى تلك الشخصية المحبوبة التى جعلت منه مقصدًا للجماهير .

---

(١) فنون الكوميديا ص ٢٢٧ دكتور على الراعى .

(٢) الدنيا المصورة ١٩٣٠/٨/٧ ص ٢٢ ، تطور الكوميديا فى مصر — تكوين الشخصية .

وتأتى شخصية البربرى التى تخصص فيها الأستاذ على الكسار ، وتملك ناصيتها ، حتى أصبح بربرى مصر الوحيد ، كما يصفه الجمهور ، وكما نقرأ فى النشرات التى يعلن عنها عن روايات الماجستيك ، ويصح أن نذكر إلى جانب ذلك أثنين آخرين نجحا فى إتقان شخصية البربرى[1] إلى درجة ما ، أولهما فوزى منيب صاحب الفرقة التى يديرها فى روض الفرج ، أما الشخص الثانى الذى نجح فى هذه الشخصية فهو المرحوم أحمد ثابت ، وأما عن الكسار فنقول : إنه بعد أن تجلى فيها ونبغ نبوغًا لم يجاريه أحد فيه ، رأى أن يتزحزح عنها بعض الشىء فأصبحت لغته الآن على المسرح تتباعد قليلاً عن البربرية ، ولم يمر وقت طويل حتى تبدو عربية . ناضجة ، وإن بقيت صبغته السوداء ملازمة وجهه إلى الحين الذى يستبدل بها غيرها ، وفى رواية فتح بغداد التى قام فيها بدور (عنبر) ، يلاحظ أنه عاد رويدًا إلى طريقته الأولى فى الإلقاء إذ رأيناه بربريًا ، بعد أن كان فى العام الماضى ينطق نطقًا عاديًا ولعله يريد أن يمتحن جمهوره ليقف على مبلغ استعداده لقبول أى الطريقتين[2] .

ومما يدعو إلى الدهشة والتساؤل رغم ما تبين لنا من تطور على الكسار بشخصيته الفنية ، والوصول بها إلى شخصيات وأنماط وأبعاد

---

(١) جاء تقليدًا لشخصية الكسار .

(٢) الدنيا المصورة ١٩٣٠/١٠/٥ ص ٢٢ .

متعددة على خلاف زميله ، نجيب الريحاني الذى لم يستطع الإفلات من شخصية « كشكش بيه » ولازمته زمنًا طويلاً حتى إذا ما جاء مؤخرًا بشخصية جديدة كانت هى الأخرى ذا نمطًا محددًا هو ذلك الرجل لابس الطربوش الموظف البسيط صاحب المآس قليل البخت ، وحتى إذا نظرنا إلى نظيره فى العالم الغربى شارلى شابلن نجده هو الآخر لم يستطع الإفلات من شخصيته الفنية ،ولازمته طوال حياته ، واشتهر بها ذلك الرجل الصعلوك لابس القبعة ماسك العصا ، صاحب الحركات البهلوانية السريعة الذى يعتمد على اصطكاك القدمين بحذائه الكبير فى إضحاك الجمهور ، حتى إنه يقول فى إحدى مذكراته[1] « لم أغير دورى مطلقًا ، وذلك لأن الجمهور بعد ما ألف هذا الدور ، أصبح يكره تغييره ، بل هو لا يطيقه » ويستطرد قائلاً عن هذه الشخصية : « إننى لم أقفز إلى الشهرة قفزًا ، وإنما تدرجت إليها ، والغريب فى نجاحى أنه مؤسس على أشياء غريبة بعيدة التصديق فإنى تعلمت اصطكاك القدمين ، واسير بهيئة المشلول من تاجر خيول فى لندن ، وكان ذلك الرجل المسن يمشى هذه المشية المضحكة ، التى تعلمتها منه ، وكنت أقلده ، لكى أسلى أصدقائى فلما صرت فنانًا فى السينما ، أخذت أسلى الجمهور بهذه المشية ، وهذا هو سرى كله ولو لم أكن قد رأيت هذا الرجل المسن لبقيت فى التمثيل المسرحى » ، إلا أننا نجد فى النهاية النقد واللوم يوجه

(١) العدد (٢) مجلة المصور عام ١٩٢٤ ص ١٤ .

للمتطور على الكسار بزعم أنه عاش فى ثياب عثمان عبد الباسط ، وأنه كان أثيرًا لتلك الشخصية ، ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى أن الكسار تعرض بسبب نجاحه وتفوقه على خصومه إلى حملة من الإشاعات والتشنيع ، وكانت تلك إحداها وللأسف لم يأت من يمد يده لأعماله المسرحية ليعرف الحقيقة .

على الكسار فى السينما

كذلك أثرى على الكسار الحقل السينمائى منذ بدايته الأولى ، عندما كان الفيلم السينمائى صامتًا حيث قدم فيلم « الخالة الأمريكانية » هام ١٩٢٠[1] ، وعندما عرفت السينما المصرية الفيلم الروائى الطويل الناطق فى بداية الثلاثينات ، كان على الكسار أول من قدم على الشاشة البيضاء الفيلم الكوميدى المصرى « بواب العمارة » وكان أول عرض له يوم الخميس ١٦ مايو ١٩٣٥ بسينما ديانا بالاس بشارع الألفى بك ، وكان طبيعيًا أن يلتقطه المخرجون وشركات الإنتاج ، فكان لهم ورقة رابحة جنوا من وراء أفلامه. ثروة طائلة ، حيث كان متربعًا على عرش الكوميديا على خشبة مسرحه ، وكانت صناعة السينما كباقى الصناعات الأخرى مملوكة للأجانب ولهم فيها اليد الطولى ، إلا أن على الكسار لم يترك لهم العنان فى إنتاج وإخراج فيلمه الأول « بواب العمارة » فكان هو مؤلف القصة ، وواضع السيناريو ، ومشاركًا فى إنتاجه فضلا عن قيامه بدور البطولة دون مقابل مادى فكانت له حرية اختيار الممثلين ، حسب ما رسمه فى السيناريو واختيار

---

(١) راجع تاريخ السينما فى مصر – أحمد الحضرى .

قريبا جدا جدا

تقدم مينا فيلم

الفيلم المصري العصري الذي يدل على النهضة السينمائية المصرية
ويرفع شأن الممثل المصري أمام الشعوب الشرقية
وشعوب العالم أجمع

« بواب العمارة »

الاستاذ على الكسار

على الكسار فى شخصية المسيو جيمس الخواجة المبرنط
من فيلم « بواب العمارة » .

المناظر ، وكانت تلك هى الشروط التى أملاها على شركة (مينا فيلم) التى أخرجته ، وأسند إخراج الفيلم إلى المخرج المجرى « الكسندر فركاش » وهو الذى أخرج فيلم الموقعة ، والذى كان بطله الممثل الفرنسى الكبير « شارل بوابيه » ، وتم تصوير فيلم بواب العمارة فى استوديو « كاسكاروس » ، وتكلف إنتاجه فى ذلك الوقت ٦ آلاف جنيه (ستة آلاف جنيه) ، وقد لاقى هذا الفيلم الكوميدى الأول على الشاشة البيضاء عناية فائقة من على الكسار . فكانت عناية شركة مينا فيلم بتصوير مناظر فيلم « بواب العمارة » فى مقدمة ما بذلته من جهود ، وذلك استجابة لطلب الممثل الكبير على الكسار بطل الفيلم ، فكان المنظر يؤخذ مرة واثنتين وثلاثة وأحيانًا عشرة حتى يظهر المنظر كما يجب أن يكون عليه من الروعة والإتقان[1] ، كما عنى الكسار برسم شخصيات الفيلم رسما دقيقًا يتفق مع الموضوع اتفاقًا تامًا ، ومع السيناريو الذى وضعه فقد اختار لـه من الممثلين بجانب شخصية (بشارة واكيم) ، عبد العزيز أحمد ، عبد الحميد زكى ، فتحية محمود ، وجميعهم من أعضاء فرقته المسرحية كما اختار (على طبنجات) كوكا والراقصة المشهورة كيكى ، والعالمة المشهورة أنيسة المصرية وأختها نبوية ، ولما كان الفيلم استعراضيًا ، فقد اختص بتلحين مواقفه الغنائية كل من الملحنين داود حسنى ، وسيد مصطفى وهما من ملحنى فرقته المسرحية كذلك .

---

(١) مجلة الصباح عدد ٤٣٧ ص ٥٢ - ٥٣ ٨ فبراير ١٩٣٥ .

وتسجل الأقلام حول هذا الفيلم ، معبرة عن مشاعر استقبال الجمهور له قائلة : كان لنبأ تقديم على الكسار على الشاشة البيضاء أول فيلم كوميدى ناطق طويل ١٢٠ دقيقة ، وقع فى نفوس الجماهير التى ظلت تتابع خطوات إخراجه تواقة شغوفة بأن تراه على الشاشة البيضاء ، لقد قوبل نبأ اتفاقه مع شركة مينا فيلم بسرور عام لتحقيق أمنية الجميع ، وظل الكسار يقوم بعمله فى هدوء وسكون حتى أوشك على الانتهاء ، وأصبح من المقرر أن يعرض الفيلم أمامنا فى القريب العاجل « بواب العمارة » هو الاسم الذى أصبح يذكره كل إنسان ، وينتظر اليوم الذى يشاهده فيه لكى يشاهد بطله الممثل المصرى الكوميدى الأستاذ على الكسار بعبقريته ونبوغه فى باكورة أفلامه الناطقة ، إن هذا الفيلم سيكون فتحًا جديدًا للفن السينمائى المصرى مما سيجعله محبوبًا ، ليس لدى مصر والشعوب الشرقية فقط ، بل وبين الشعوب الأوربية[١] .

ولا شك أن ظهور فيلم « بواب العمارة » سيكون يوم عيدنا الفنى ، حيث نرى ممثلنا العظيم على الشاشة البيضاء ، يقذف لنا قنابل نكاته متفجرًا بالضحك ، ولا عيب علينا حينذاك ، فنحن سنكون أمام شخصية محبوبة جذابة ، شخصية « بربرى مصر الوحيد التى كان ولا زال لها أثر فنى خالد مجيد فى تاريخ المسرح المصرى ،

---

(١) مجلة الصباح عدد ٤٣٦ ص ١٦٤ فبراير ١٩٣٥ .

ولابد إن شاء الله بل ونؤكد أنه سيكون لها شأن كبير فى عالم الأفلام السينمائية المصرية ، عزيزى الممثل الكبير الأستاذ على الكسار ، إننى لست مغاليا فيما أقول بل هذا قولى وقول غيرى ، ويقوله كل فرد فى مصر ، وفى كل بلد ، وفى كل قطر من الأقطار ، إذ كونت لنفسك شهرة ومجدًا جعلتنا نتوق إلى مشاهدة كل عمل تقوم به ، وإن كانت لشركة مينا فيلم حسنة فى هذا الفن ، فهى حسنة اتفاقها معك ، وقبولك أنت الاتفاق للمعاونة فى إظهار فيلم « بواب العمارة » وإننى لأدعو جميع الشعوب إلى مشاهدته تقديرًا لفنك ، وسيرونه كما رأوا من قبل أن فنك جدير بالتقدير أيها الممثل النادر الموهوب(١) .

موضوع الفيلم :

حيث يعمل « عثمان » بوابًا لإحدى العمارات الكبرى بالقاهرة ، ويحب « فلة » الخادمة (فتحية محمود) ، ويزداد هذا الحب ويتضاعف إلى حد أن يحتسى معها الخمر بالرغم مما عرف عنه من التقوى والصلاح ، حتى تكون ليلة يشرب فيها بكثرة ويأوى إلى فراشه ، ويروح فى النوم ولكن حظه يسوء فيسطو اللصوص على المنزل ، ويطرد من عمله ، فيسير فى الشوارع طالبًا رزقًا حلالاً حتى يدخل إلى مكتب أحد المخدمين ويتصادف وجود المستر (جيمس) ، بشارة واكيم الذى يعيش فى مصر من زمن فيقع

(١) مجلة الصباح ٨ فبراير ١٩٣٥ عدد ٤٣٧ ص ٥٢ – ٥٣ .

نظره عليه ليختاره خادمًا خاصًا له ، فيصحبه فى سيارته إلى منزله ، وهنا تبدأ حادثة أخرى ، فالمستر جيمس خطب بالمراسلة إحدى الإمريكيات ، وستحضر قريبًا ويخشى أن يكون أخطأ الاختيار ، فيبحث عمن يتسمى باسمه حتى يطمئن إلى الخطيبة ، فلا يجد من يقوم بهذه المهمة غير « عثمان » فنجد أن هذا البربرى قد تبدلت حاله بعد حال ، ولبس البدلات الشيك (وتبرنط) بعد العمامة ، وأزال ذقنه ، وتحضر الخطيبة من أمريكا ، وبينما هو يمثل معها دور الخطيب تكون (فلة) قد حضرت لتخدم فى منزل المسيو جيمس ، فنفاجأ بغرامياته مع الخطيبة ، ويكون (سكاندال) ، ولكن ينتهى الأمر بإظهار الحقيقة ، ويتزوج مستر جيمس من خطيبته التى اشترطت أن يتزوج عثمان من فلة .

وتسجل الأقلام عن ظهور شخصيته الفنية على شاشة السينما قائلة ، لقد أثارت شخصية على الكسار ضحك النظارة عاليا ومتواصلاً بحركاته الطبيعية اللطيفة ، سواء وهو يمثل دور البواب أو دور مستر جيمس خصوصًا عندما جلس على المائدة مع مستر جيمس الحقيقى وعروسه ، وأخذ يأكل بشراهة وبطريقة لا تتفق ونظام وترتيب المائدة الإنجليزية فى بيوت الأعيان من الإنجليز ، وكانت مفاجأة وهو فى ثوب الأمريكى مستر جيمس للجمهور بالغة ، عندما قام مسرعًا من صالون قصر مستر جيمس إلى خارج القصر عندما سمع بائع (الروبابيكيا) ينادى على سلعه ، لظنه أن هذا البائع هو الذى سرق أمتعته عندما كان

بوابًا للعمارة ، فكانت مفاجأة مثيرة للضحك حتى خشيت على أسرة مصرية بجانبى أن تصاب بالإغماء من شدة الضحك ، وتوقعت أن أدعو لها الإسعاف[1] .

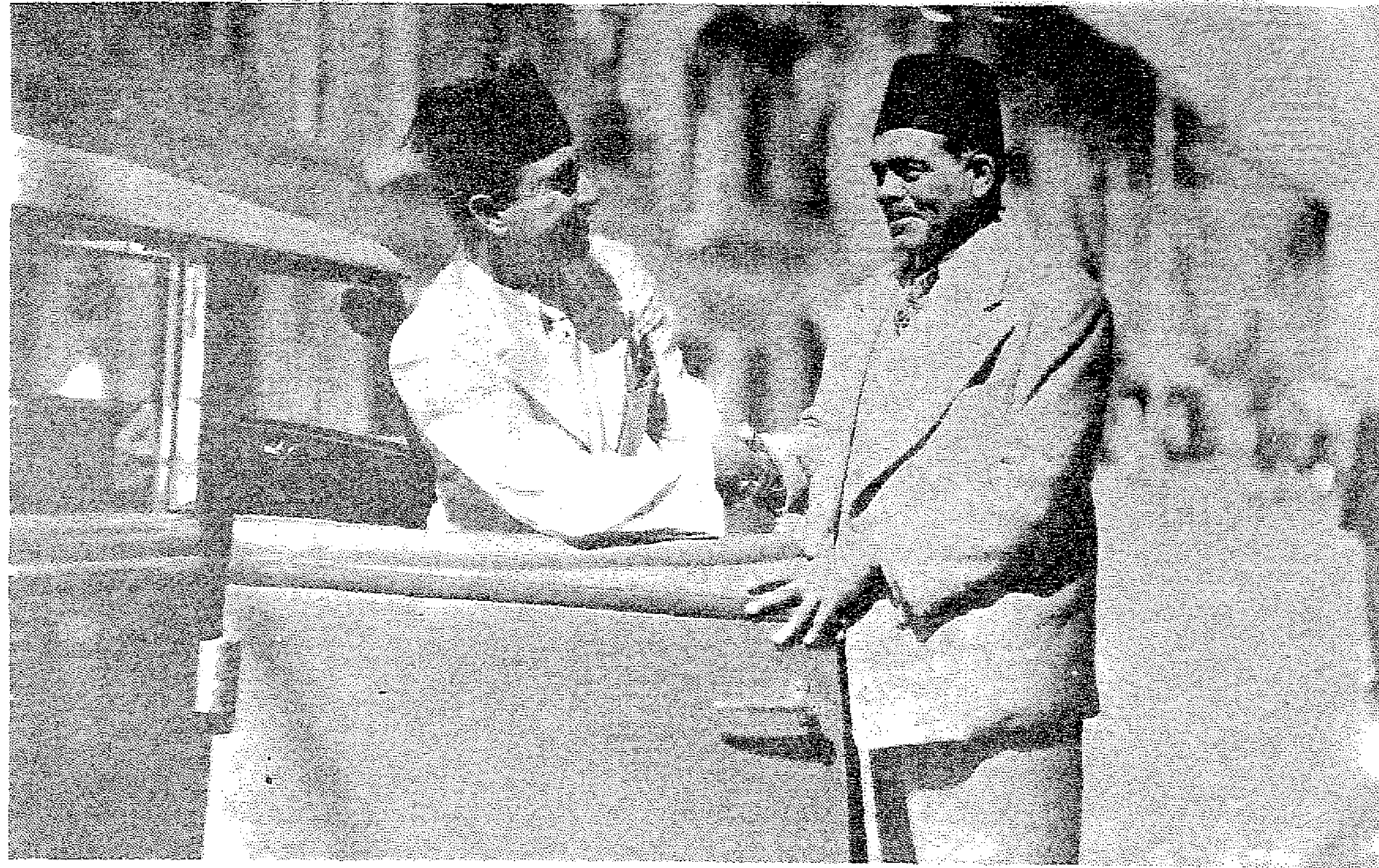
ويلاحظ هنا تأثر على الكسار بفنه المسرحى ، من حيث الرواية فهى استعراضية غنائية تقوم على « الفودفيل » ، كما يظهر تلون الكسار فى شخصيته الفنية فهو بجانب قيامه بشخصية « عثمان البربرى » فهو يؤدى شخصية مستر جيمس الخواجة (المبرنط) ، كما حدث فى كثير من أفلامه « عثمان وعلى » الذى أدى فيه شخصية على بك رئيس مجلس إدارة إحدى الشركات ، بجانب شخصية « عثمان » العامل البسيط فى مصلحة التليفونات وفيلم (يوم فى العالى) ، حيث يؤدى شخصية « عثمان أفندى » كمسارى ترمواى ، ويحالفه الحظ بأن يحصل على ترقية مفتش وإن لم تدم له إلا ليوم واحد . وفيلم الساعة ٧ الذى أدى فيه شخصية المرأة (دادة فريدة) وفيلم « محطة الأنس » ، سائق قطار وغيرها من الأفلام ، التى طويت مع الزمن ، وكما كان الكسار يخاطب جمهوره وهو واقف على خشبة المسرح ، وكانت هذه سمة من سمات فنه ، أحدث بها تجاوبًا واتصالاً قويًا ومباشرًا بين خشبة المسرح ، والجمهور ، فهو لم يفقد جيله أمام الشاشة البيضاء وغياب جمهور مشاهدى السينما عنه ، فراح يتصور بأن كاميرات التصوير هى جمهوره ومشاهدوه ، وأخذ يخاطبها

(١) مجلة الصباح ٢٤ مايو ١٩٣٥ عدد ٤٥٢ .



على الكسار فى شخصية عثمان أفندى كمسارى الترموای
فى فيلم يوم فى العالى وبجواره زوجته مارى منيب .

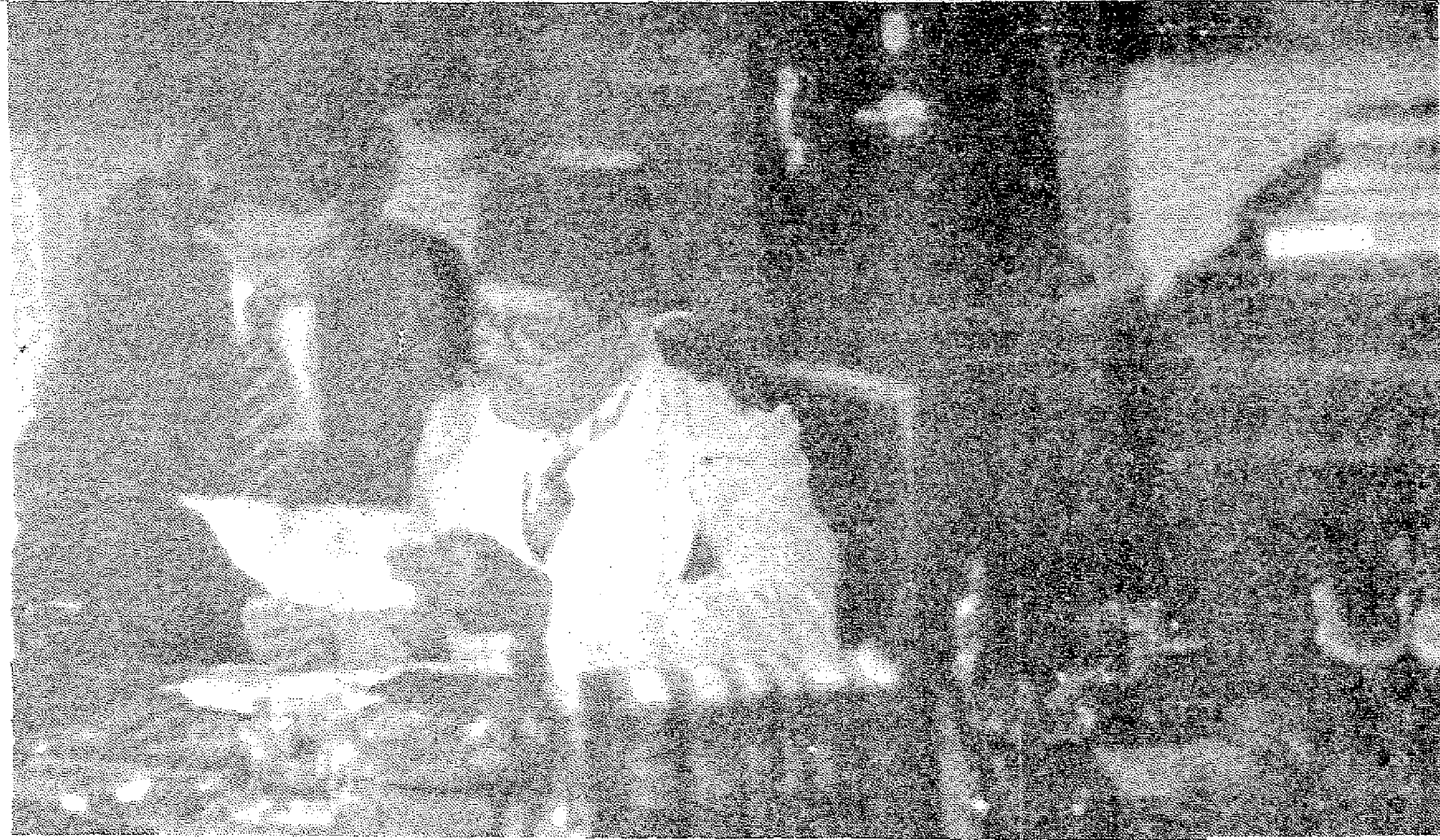
ويحاكيها وبدا لجمهور السينما وكأنه يخاطبهم ، ولم يبق إلى أن يردوا عليه كما فى مشهد « عفريت العلبة » فى فيلم ألف ليلة وليلة وهو يحاور جمهور الشاشة ، ويناقشه هل يفتح الصندوق للعفريت أم لا ، وفى فيلم نور الدين والبحارة الثلاثة حيث يأخذ رأى الجمهور فى اختيار طريقة حياته ، عندما عرض عليه أن يحصل على وظيفة فى القصر ، ولكنه فضل وظيفته البسيطة « الفطاطرى » فهو يخاطب الجمهور : (إيه رأيكم بقى مش فطاطرى بسيط أحسن من أمير يقطعوا رقبته) ، وينتهى المشهد بتقديم التحية للجمهور ، بقوله سلام عليكم ، وأحدث بذلك نفس التجاوب والصلة بين الشاشة البيضاء وجمهورها وكانت تلك ظاهرة فنية فريدة ، انفرد بها على الكسار وحده فى عالم السينما ، كما انفرد بها فى دنيا المسرح ، وقد حدث أثناء عرض فيلم « بواب العمارة » فى الأسبوع الأول حيث كان الكسار مع فرقته يحيى حفلات فى مدينة طنطا ، وكان متعهد الحفلات قد أخلى ببعض شروطه ، وتوقف عن الدفع مما أغضب الكسار ، وصمم على عم الاستمرار فى إقامة الحفلة الأخيرة ، وإذ يخبره وكيل إدارته وقد سافر إليه فى طنطا ، بنجاح الفيلم وإقبال الجمهور المنقطع النظير ، وأن التذاكر قد بيعت لمدة أسبوع لجميع حفلات السينما ، وأنه قد بيعت بعض التذاكر فى السوق السوداء ، وهنا فرح الكسار بهذا النجاح فرحًا شديدًا ، ونسى ما عزم عليه من الإمتناع عن قيامه بتمثيل الحفلة الأخيرة للمتعهد وأبلغ على الفور أعضاء الفرقة ، بأنه سيقوم بإحياء الحفل دون مقابل ونادى متعهد



علي الكسار يصافح مخرج ومنتج أفلامه توجو مزراحي .

الحفل وقال له : (أنا حاقدم الحفلة الليلة ومش عايز منك فلوس الحفلة دى على حساب بواب العمارة) . وقد أغرى نجاح فيلم بواب العمارة المنتجين على إنتاج أفلام على الكسار ، حتى أنه وضع أحد المخرجين المنتجين كل إمكاناته وسخرها فى إنتاج أفلام على الكسار ، وعرف بمخرج أفلام على الكسار (توجو مزراحى) ، وكان صاحب استديو وكان ثانى أفلام على الكسار « ميت ألف جنيه » ١٠٠٠٠٠ جنيه من إخراجه وإنتاجه ، ثم قدم له فيلم غفير الدرك ، التلغراف ، عثمان وعلى ، الساعة ٧ ، سلفنى ٣ جنيه ، ألف ليلة وليلة ، على بابا والأربعين حرامى ، نور الدين والبحارة الثلاثة ، محطة الأنس ، على قد لحافك وغيرها .

وفى عام ١٩٤٧ ، قدم للسينما العربية أفلام ، يوم فى العالى ، أحكام العرب . ورد شاه ، الصيت ولا الغنى ، وفى عام ١٩٤٨ قد فيلم صاحبة العمارة وكلها أفلام قام فيها بدور البطولة ، كما شاركت فى إنتاج أفلامه شركة أفلام القاهرة - إبراهيم ورده) وأخرج أفلامه كثير من المخرجين أمثال نيازى مصطفى ، عبد الفتاح حسن ، وحسين فوزى ، وغيرهم ، وكان لنجاح أفلام على الكسار على الشاشة البيضاء أن تسابقت شركات الإنتاج والتوزيع بعد ظهور جهاز الفيديو على إعادة إنتاج وتوزيع أفلامه ، على شرائط فيديو ، وكان لشركة أفلام جمال الليثى نصيب الأسد منها فحققت له الأرباح ، وكانت لها الغلبة على الأفلام الحديثة .



على الكسار فى شخصية على بك رئيس مجلس إحدى الشركات
فى فيلم « عثمان وعلى »

مع الماضى والحاضر

وبالتأمل لواقعنا المسرحى بعد هذه المرحلة المزدهرة والمتطورة التى خطاها المسرح الكوميدى ، وشهد عصره الذهبى على يد هذا الفنان الرائد على الكسار نجده الآن يتردى ، ويعود إلى الماضى إلى عصر ما قبل الكسار ، أو بداياته الأولى إن شئت كما حدث فى كوميديات عزيز عيد الفاشلة التى حملت إحداها عنوان « يا ست ما تمشيش كده عريانة » وأثارت حملة نقدية عنيفة فى الصحف ، إذ خشى الناس بوحى العنوان أن تظهر ممثلة عارية على المسرح[1] ومسرحيته « خاللى بالك من أميلى » والتى أعلن فيها عزيز عيد ، أن مشاهدة هذه المسرحية مقصورة على الرجال فقط ، إذ ما من سيدة مصرية محترمة كانت حتى ذلك الحين ، تجرؤ هلى حضور عرض مسرحية تشيد بمغامرات مومس ، مما دعاه إلى حل فرقته حتى سعى بعض أصدقاء الأستاذ عزيز عيد ، لدى مدام مارسيل صاحبة كازينو دى بارى ، فى أن تضم الأستاذ وفرقته ، فرضيت على أن تتداول العمل بالكازينو فرقة عزيز عيد ، وفرقة على الكسار ، بالتناوب كل ١٥ يوم ، ومضى عزيز عيد فى ترتيب البروفات لرواية

(١) فاطمة اليوسف ذكريات القاهرة ١٩٥٣ ص ٣٩ ،

جديدة سماها أديله في زنبيله » ومثلت فرقة على الكسار ، روايتها الشهيرة « حسن أبو على سرق المعزة » في ١٩١٧/١٢/١٥ ، بطولة عثمان البربرى على الكسار وتركت المكان لعزيز عيد ، فظهر برواية « اديله في زنبيله » التي استمرت يومين اثنين فقط ، ثم وجدت مدام مارسيل أنها تكاد تفقد الكازينو زبائنه ، إذ قل الإقبال ، وتفرقت العناصر ، التي كانت مصدر رواج المسرح ، وفي الليلة التالية صعدت إلى المسرح ، ومنعت تمثيل هذه الرواية ،وكلفت فرقة على الكسار أن تعيد روايتها القديمة حسن أبو على فكان ما أرادت ، وتفرق جوق عزيز عيد ، كما حدث في بعض الروايات الأولى لنجيب الريحاني ، التي تحمل عناوين (تعالى لى يا بطة) و (بلاش أونطة) و (هز يا وز) ، مما جعل كاتب مسرحياته وشريك حياته يسجل قائلاً : في هذا العهد كانت كل الصحف تهاجم مسرح الريحاني إلى أن صدرت جريدة يومية هي « المنبر » وكانت تخصص ٣ أو ٤ صفحات للهجوم علينا والحقيقة كان عندهم أكثر من سبب لذلك الهجوم ، وأنا أعترف أنى لو كنت خارج مسرح الريحاني ، لكنت انتقدت الريحاني أعنف من نقدهم لماذا ؟ ، لأن الاستعراضات كانت كلها مليئة بألفاظ بذيئة وخارجة[1] ، وما يقدم على مسرح اليوم من مسرحيات تحمل عناوين (٤ غجر والخامس جدع) و (تحت البرنيطة قرد) و (عبده يتحدى رمبو) وغير ذلك من أسماء المسرحيات .

(١) مجلة المسرح عدد ٢٧ ١٩٦٦ .

ويتضح هذا التردى فى التقارب والتشابه بين سمات ذلك المسرح البعيد ، منذ بدايات هذا القرن ، ومسرحنا اليوم ، ونحن على مشارف نهاية هذا القرن ، وألمحها فى الآتى ، من استخدام ألفاظ الشتائم والسباب فى المسرحية ، واستخدام القافية بين الممثلين على خشبة المسرح ، واستخدام الإيماءات والغمز الخارج عن اللباقة والذى يصل أحيانًا كثيرة إلى الخروج عن الأدب ، حتى أصبحت ظاهرة خروج الأب فى وسط العرض المسرحى ، واصطحابه لأبنائه الشباب ولزوجته وكله سخط هربًا مما يشاهده من أعمال وتصرفات ، تؤدى على المسرح يحمر لها الجبين ، وكذلك خلو المسرحية من المعنى والمغذى ودورانها فيما يسمى بلاشىء ، واستخدام أسماء مبتذلة كعناوين للمسرحيات ، واستخدام الممثلين للارتجال والخروج عن النص بعيدًا عن أى قواعد فنية أو مواهب مؤهلة لذلك الأداء ، ويأتون بما يفسد سير أحداث المسرحية ويؤذى مشاعر الجمهور .

وقد بلغ حد التشابه إلى كتابات النقاد وصرخاتهم ، التى علت منذ زمن بعيد ، تطالب بالتدخل لوقف هذا الإسفاف والابتذال قائلة نظرة يا بوليس شبرا ، لما كان يقدم باسم الكوميديا فى ملاهى روض البغايا أى روض الفرج ، كما كان يسمى ، وما تسجله اليوم الكاتبة الصحفية والناقدة السيدة آمال بكير ، فى جريدة الأهرام قائلة : لجأت للرقابة ولجأت للمؤلفين ولجأت لنقابة الممثلين ، وأيضا لجأت للكاتب المسرحى ، ورئيس اتحاد النقابات الفنية سعد الدين وهبة ، كل هذا

من أجل وقف هذا التدهور فى مسرحنا الخاص ، الذى تتبارى فرقه فى جذب المتفرج من خلال التعدى على النصوص ، وتقديم كل ما يمكن أن يجرح المشاعر ، ويؤذى الحس باسم الكوميديا والإضحاك ، والكوميديا الحقيقية بريئة من كل هذا التردى والتدنى لمن ألجأ أيضًا كى يساعد فى الوقوف أمام هذه الظاهرة التى تسىء للمتلقى الذى هو الجمهور ، لن أقول تخدش حياءه ، ولكنها تعبث بكل قيمه . لقد حول الممثلون العابثون المسارح إلى أقل درجة من الملاهى ، بل ربما نزلوا بها عن مستوى العديد من الملاهي التى لا تقدم هذا العبث ، تقدم الرقص ، تقدم الأغنية ، صحيح أنها لا تقدم الفن بمفهومه الحقيقى ، ولكنها تقدم الترفيه ، ربما يجىء الآن دور المتفرج نفسه لألجأ إليه . ألجأ إليه لأنه سيد الموقف ، فهو العنصر الهام فى العملية المسرحية أهيب بهذا المتفرج أن يقف وبعنف أمام أى جملة تخدش الحياء أو أى عبث يشاهده على خشبة المسرح ، يقوم ليلقن الممثل درسًا ، يقوم ليحتج عليه ، يقوم شاهرًا حقه فى فن نظيف ، ليلقي إليه بكل ما لديه من عبارات التوبيخ ، يقوم ليسترد ما دفعه ثمنًا للتذكرة يقوم ليفعل أى شىء يوقف به هذه المهازل فهل يفعل ؟[1] .

وإننى أرى الملجأ الوحيد هو العودة إلى تراثنا وتاريخنا المسرحى ونبدأ من حيث انتهى هؤلاء الرواد ، ونجعلهم قدوة لنا . إن طريق النهضة والحضارة واحد هو طريق التواصل بين الماضى والحاضر ،

---

(١) جريدة الأهرام ٣ أغسطس ١٩٩١ (برواز) .

وألا ندعى لأنفسنا فى لحظة أننا أصحاب نهضة وليدة اليوم هذا عبث ، حتى إذا ما تحدث متحدث عن المسرح المصرى وتاريخه ، تشدق بما أسموه عصر الستينات ، ونهضة الستينات ، وكأن لم يكن لنا ماض وأعلام ، وأسجلها كلمة إحقاقًا للحق وإنصافًا للتاريخ أن معظم ما قدم فى انتفاضة الستينات ، فهى لم تكن نهضة أو عصرًا بأى المقاييس . ما هو إلا صورة لأصل ما قدم فى عصر النهضة الحقيقية والعصر الذهبى للمسرح الكوميدى المصرى على مسرح على الكسار ، فى العشرينات والثلاثينات والأربعينات بعد تحريفها وفبركتها ، وتوليف فصولها وكانت تخرج المسرحيات بالاسم من مكتبة الكسار لتصب فى فرق التليفزيون العشر التى أنشأها الفنان الكبير المرحوم السيد بدير ، والتى أحدثت تلك الإنتفاضة ، وسرعان ما انتهت رغم وجود الكُتاب الذين سبقت أسماؤهم كلمة إعداد أو إقتباس فلان دون أدنى إشارة إلى ذلك التراث ، وكانت تطلب مسرحيات من نوع خاص (الفودفيل) ، والبعد عن الأوبريت والألحان بدعوى كثرة تكاليف إعداده وحاجته إلى الوقت ، وهو ما لم يكن متوفرًا لفرق التليفزيون آنذاك ، ولم يظهر على مسارحنا ذلك الفن المتقدم المتطور الأوبريت والأوبراكوميك المصرية الذى شهد عصره الذهبى على مسرح على الكسار ، فى انتفاضة الستينات حيث لم تمتد إليه يد حتى الآن ،وما زلنا نحمل تلك الدعوى بأنه فن مُكَلِف بينما هو الفن بعينه ، وعن تراث ذلك الفنان الرائد على الكسار يقول الأستاذ الدكتور على الراعى ، لن تتاح لكوميديا الكسار فرصة معقولة إلى الحياة إلا إذا تغيرت

النظرة إلى الممثل من مجرد فنان مؤد ، إلى فنان خالق ، إذ ذاك يقوم مناخ فنى نستطيع معه أن ننظر فى منهاج الكسار الفنى ، لنحدد أى طريق نسلك كى نفيد منه ، فقد نجد إذ ذاك أننا نستطيع أن نستخدم شخصية عثمان عبد الباسط استخدامًا أعمق ، مما يجرى في مسرحيات الكسار فلا نجعل الفكاهة تدور حول لونه الأسود هجومًا أو دفاعًا ، وإنما نتجاوز هذا إلى تصرفات عثمان عامة بين الحكمة والحمق ، وبين التطلع والقعود وبين سلبية الاهتمام بالأفراد إلى إيجابية الاحتفاء بالجماعات ، وقد نجد فى أثناء هذا أننا فى غير حاجة إلى لون عثمان الأسود أصلاً . فعثمان هو ممثل الشعب عامة بلا إصرار على لون معين ، وقد نقدم عثمان فى مسرحيات جديدة كاملة تعتمد على الكوميديا المرتجلة أو فى مشاهد من مسرحيات جديدة ، تحوى مناسبات لقيام الكوميديا المرتجلة أو قد نعدل في مسرحيات من تراث الكسار ، لنجعلها أكثر قبولاً لدى الجماهير المعاصرة ، كل هذا جائز ، وممكن الحدوث ، ولكنه لن يحدث إلا إذا تبينا أن فن على الكسار هو لون متميز من فنون الكوميديا ، وأنه لا يمثل سذاجة مرحلة تطورنا منها ، وتركناها وراءنا ، وإنما هو نبع كبير من ينابيع الحيوية قادر دائمًا على الخدمة إن كان له ماض زاهر يومًا ما ، فإن له أيضًا مستقبلاً واعدًا[1] .

---

(١) فنون الكوميديا د . على الراعى أرليكينو والبربرى عثمان ص ١٧٥-١٧٦ .

فهرس

الصفحة

رقم الإيداع		١٩٩٣ / ١٠٠٢٧
الترقيم الدولى	977 – 02 – 4288 – 8	ISBN

١ / ٩٢ / ٢٩٣
طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

هذا الكتاب

أهم ما صدر عن الفنان الرائد على الكسار الذى حقق للكوميديا المصرية نظرة التقدير والاحترام بعد الازدراء والاحتقار ، وجعل منها أداة للدرس وتهذيب الأخلاق ، بعد أن كانت أداة للهو والعبث فتحقق لها الغلبة بين فنون المسرح الأخرى .

إنها ملحمة شعبية رائعة لفنان نشأ من طينة الشعب ومثل للشعب ومات فى مستشفى لل... القصر العينى) .



دار المعارف